

المختار من تصنيفي زلزاليا

جولة أثرية

في

بعض ألبان الشامية

وصف طبراني تاريخي أثري عمراني للبقاع والبلدان الممتدة
من شمالي الأسكندرية إلى أبواب دمشق

دار الفكر

الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
ط ١ : ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م
تم تنقيحها وتصحيحها وإعداد فهرسها المعينة
في قسم التحرير بدار الفكر

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ،
كما يمنع الاقتباس منه ، والترجمة إلى لغة أخرى ،
إلا بإذن خطي من دار الفكر بدمشق

طبع بأجهزة (C. T. T. السويسرية) للصف النمساوي ،
وبالأوفست في دار الفكر هاتف (٢١١٠٤١ / ٢١١١٦٦) ، برقياً (فكر)
ص . ب (٩٦٢) دمشق - سورية Tx FKRMSG 411745 Sy



مقدمة الكتاب

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان
عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد
قوة وآثراً في الأرض ﴾ [غافر : ٨٢]

لما كنت مفتش أملاك دولة الشام^(١) في سني ١٣٤٤ - ١٣٥٢ هـ ، وأكلف من حين إلى آخر بالتجوال في تلك الأملاك الشاسعة ، كنت أنتهز الفرص بسائق الولع ، فأستقصي أوصافها من نواحي الطبيعة والزراعة والعمران ، وأنساب الحاضرة والبادية من السكان ، وأستنفذ المباني التاريخية والحرب الدائرة ، وأجمع ما أراه وأسمعه وأقيده . وكنت كلما وجدت وقتاً وسبيلاً ، أتعدى تلك الأملاك إلى غيرها من البقاع والبلدان فأجوبها باحثاً ومنقباً بقدر المستطاع . وإذا عدت إلى دمشق ، أرجع فيما رأيته إلى ما يكون قد كتبه عنها المؤرخون والجغرافيون العرب ، والرحالون والأثريون الإفرنج ، فأقارن ما علمته بما قرأته ، وأستخلص منها زبداً أتحنن الفرص لنشرها .

وكان مما يشجيني أنني لم أجد كتاباً عربياً يصف أحوال بلادنا وصفاً يعرف به المتجول الكوائن الطبيعية ، من جبال وأنهار ونجود وأغوار ، وعمران المدن والقرى في العهود الغابرة والحاضرة ، وحالة المصانع القديمة ، والأماكن الأثرية وسبب بنائها وكيفيته ، ومسافة الطرق والمسالك واتجاهاتها ، إلى غير ذلك من الأبحاث التي تدعى بعرف الإفرنج (الطبغرافية التاريخية) . فجغرافيو العرب القدماء وضعوا مؤلفات جديدة بكل

(١) عنيت بالشام البلاد التي تدعى سورية . وقد احتفظت في كتابي هذا بالاسم الأول وهجرت الشامي ، لأنه هو الذي عرفه العرب ، واصطلحوا عليه في أحاديثهم وكتبهم ، فقالوا دمشق الشام وطرابلس الشام وثغور الشام . إلخ ..

إجلال وإطراء ، ذكرت بعضها في قائمة مصادر كتابي ، وقد اقتبست منها نبذاً غير سيرة ، لكن مؤلفاتهم عامة لا خاصة ، ليس فيها من الأبحاث التي كنت أنشدها القدر الذي يفي بمحاجتنا في هذا العصر ، بعد أن تغيرت البلاد ومن عليها . وكتبنا الجغرافية الحديثة الخاصة بالبلاد الشامية جعلها أصحابها وجيزة ، إن وفّت بحاجة المدارس ، لاتنقع غلة الباحثين والسائحين بحال . أما الإفرنج فقد أحاطوا علماً بكل أسواقنا ، فلم يغادروا مدينة من مدنها وخربة من خربنا وبادية من بوادينا إلا وجاسوا خلالها ، واستقروا صامتة وناطقة ، وأجادوا وصفها من النواحي التي ذكرتها أنفأ ، وألفوا فيها مجلات تفوق الحصر بعددها ، تقرأها بكثير من الإعجاب والإكبار ، وإن اختلفت وجهات أصحابها وغاياتهم عنا ، أخص بالذكر منها ، تلك الكتب الصغيرة الحجم ، الدقيقة الحروف ، المختصة بدلالة السائحين ، ككتب (إيزامبر وشوفة وبيديكر وبرنابة ومونارشة) وغيرهم . الذين لم يقتف أثرهم أحد منا بعد ، حتى أصبح هؤلاء الإفرنج يعرفون بلادنا معرفة تامة ، ليس لأكثر خاصتنا - دع العامة - نصيب من بعضها لفقدان أمثال تلك الكتب لدينا ووفورها لديهم .

فقد كنت وأنا أتوغل في هذه الأبحاث ، أرى بكثير من الأسف ، أن جل مثقفينا ومفكرينا لا يعرفون من شؤون مساقط رؤوسهم ، وجغرافيتها وتاريخها القديين والحديثين ، ولا من بقاعها ومصانعها الأثرية ، ومفاخرها التليدة ، ومدافن رجالاتها البارزة وتراجهم قدراً كافياً ، ناهيك ما يختص من ذلك ببقية البلاد الشامية القريبة منهم - خل عنك النائبة - وترام في هذه المواضيع ، في غفلة جد مخجلة ، تجاه الغرباء والأجانب إذا حاولوا أن يسألوهم يجمعون أو يجمعون . ورأيت أن الولع بالسياحة ، والتجوال عندنا في منتهى القلة ، على حين أننا أمرنا بالسير في الأرض ، والاعتبار بآثار من كانوا قبلنا وعواقبهم ، وشعراؤنا قديماً لم يقصروا في مدح السفر وتعداد فوائده ، وأسلافنا على قلة الوسائل وصعوبتها في عهدهم ، لم يتوانوا عن السياحة والتنطواف ، بداعي الحج أو طلب العلم أو التجارة أو غيرها . ومن تجول وانتقل منا في يومنا إلى غير بلدته ، لا يفكر إلا بارتياح أماكن اللهو والفرج ، أما الخطط القديمة والمباني التاريخية ، والمعاهد التي فيها فائدة الاطلاع على عمران تلك البلدة ومعارفها وصناعاتها وزراعتها فقل من يغفل

بها ، وأقل من ذلك أن يعتمد أحد هؤلاء الحافلين للبحث والكتابة عنها ، كما كان يعمل الآن الغربيون الولوعون بتدوين ونشر ما يرونه ويسمعونه ، لاسيما إذا كان فيه أبحاث قيمة وأخبار طريفة .

ورأيت أن كثيراً من مدننا وكورنا - جمع كورة^(١) - القديمة ، مابرح مفكروها مقصرين في تدوين تاريخ بلدتهم أو كورتهم ، ووصف عمرانها الغابر والحاضر ، على النحو الذي عمله بعض أسلافنا وبعض معاصرينا . فقد ذكر كاتب جلبي ، صاحب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) ، أسماء تواريخ بعض المدن الشامية وغير الشامية ، لأثر لمعظمها الآن . منها عدة تواريخ لكل من دمشق وحلب والقدس ، وواحد لحماة لم يصرح باسم مؤلفه ، ومنها اثنان لمص أحدهما لابن عيسى ، والثاني للقاضي عبد الصمد بن سعيد ، وقد نوه ياقوت في معجمه بهذا مراراً ، وواحد للرقعة لأبي علي محمد بن سعيد القشيري ، وواحد لصمد للقاضي شمس الدين العثماني . وقد اطلعت فيما اطلعت عليه من آثار معاصرينا على ثلاثة تواريخ للشام كله ، واثنين لحلب ، وواحد لدمشق ، ومثله لحماة ولعلبك ولصيدا ولحيفا وللناصرية ولزحلة ولصيدنايا ولقاطعة كسروان . بينما لاتزال أكثر مدننا القديمة مقصرة في هذا الموضوع الهام ، أخص بالذكر منها حمص وأنطاكية واللاذقية وطرابلس والمرة ونابلس وعكا ويافا وغزة ، فضلاً عن الكور التي - وإن لم تحتو على بلدة ممتازة - تؤلف بمجموع قراها بيئة ذات تاريخ واحد ، كحوران والبقاع ، والبلقاء والجزيرة الفراتية ، وغيرها .

ورأيت أيضاً أن الأسر الكبيرة المدعية بعراقة النسب وأثالة الحسب ، جل أبنائها في غفلة عن ماضيهم ، لا يعرفون أسماء أجدادهم الأقرباء ، دع أسلافهم البعداء ، ولا يحيطون بتاريخ أسرهم ومنشئها ، وكيفية مجيئها إلى موطنهم الحالي واستقرارها ، وأوسعهم اطلاعاً لا يروي لك عن أسرته وأسماء أفرادها الحاضرين والغابرين وأحداثهم إلا تنفأً ، لاتستند في الغالب على برهان معقول ، ولا تخلو من شائبة التناقض أو المبالغة . ومن الغريب أن

(١) قال ياقوت الحموي في مقدمة كتابه معجم البلدان : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها .

كثيراً منهم يتوق إلى ربط سلسلته بحلقة أحد آل بيت الرسول ، أو أحد الصحابة ، أو الأولياء الأبرار ، أو أحد الملوك والأمراء الأخيار ، وقل من يستطيع أن يؤيد مدعاه بوثائق مكتوبة أو شجرات محفوظة ، مما يجعل الشك في بعض دعاوي الأنساب عندنا يسود على اليقين .

هذا وبينما كنت أتدبر كيفية الشروع في كتابة رسالة تسد بعض هذه النواقص الظاهرة لدينا ، عثرت على رحلة السائح التركي الشهير المعروف بـ (أولياجلي) ، فرأيت أن أجعل القسم المختص منها بالشام أساساً لما أكتبه ، فبادرت لتعريبه بتصرف ، وعلقت عليه شروحاً كانت في البدء مختصرة ، ثم استطالت بحكم الاستحسان الذي رأيته من بعض ذوي الفضل والتقدير ، حتى فاقت على الأصل وأربت . وقد نشرت قسماً غير يسير منها عام ١٣٥١ هـ ، في المجلد الثاني عشر من مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق تحت عنوان (رحلة أولياجلي) . ولما رأيت توالي ذلك الاستحسان ، لاسيما وهي الأولى من نوعها في لغتنا العربية ، وقع في نفسي أن أحورها وأطولها ، وأطبعها على حدة باسم (جولة أثرية في بعض البلاد الشامية) .

وقد وضعت الآن رحلة (أولياجلي) في بدء كتابي هذا وحدها ، ووضعت الشروح التي نوهت عنها بعدها ، فجعلتها جولة قائمة بنفسها ، تحتاز الطريق التي سلكها الجلي من طرسوس وأذنة ، إلى مسيس وبياس والأسكندرونة ، وجبل اللكام وبيلان ، وسهل العمق وأنطاكية ، وجبل القصير وجسر الشفر ، وسهل الغاب وقلعة المضيق ، وقلعة شيزر وحاة والرسن ، وحمص وحسية ، والنبك والقطيفة ، إلى باب دمشق . فوصفت ما يراه السائح في هذه الطريق ، من الكوائن الطبيعية كالجبال والأودية ، والحزون والسهول ، والأنهار والبحيرات ، وما علمته أيدي البشر ، كالمدن والقرى ، والمسالك والقلاع ، والحصون والخانات ، والمساجد والديارات ، والبيع العامرة والدائرة ، ومواقع المعارك الهامة ، وكلما وجدت مجالاً ونفعاً ، توسعت في البحث إلى البقاع المحيطة بهذه الطريق أيضاً ، ودرجت خلاصة تاريخ تلك المدن والبقاع ، وأحداثها الخاصة ، وسردت الفرق بين عمرانها السابق واللاحق ، وذلك على نهج الأثرين والمستشرقين الإفرنج ، في التوصيف والتبيين ، مع لإشادة بآثرنا العربية ، والتنويه بذكرياتنا القومية .

ومعظم هذه الأوصاف ، مما رأيت به عيني ، وتحققته بنفسه ، أو بالواسطة الوثيقة . على عسرة نواله - أو مما عثرت عليه فيما ظفرت به ، من الكتب الجغرافية والتاريخية ، والرحلات القديمة والحديثة ، العربية والتركية والإفرنجية - على تفرقه في تضاعف السطور - فجاء في الكتاب وافياً على ما أظن ، ببعض حاجة من يقدر هذه الأبحاث قدرها ، ويعرف مبلغ التعب والنشب اللذين تتطلبهما ، لأنني مهما أسهبت ، أعتقد أن المجال حتى في هذه الجولة القصيرة مابرج واسعاً ، وأن فوق ما تجولت وكتبت أماني حالت دون استكمالها عقبات ومثبطات .

وهذه الأبحاث كما يعلمها العارفون ، تقوم في الغرب بمساعي رجالات وبعثات ، تمدها الجمعيات أو الجامعات بالمال ، وترعاها الدول بالعناية والحماية . وإذا جاء أحد هؤلاء إلى بلادنا ، وعمد للبحث والتدوين ، أعانه على ذلك ذوو الحول والطول ، من أبناء قومه المنبثين عندنا في الصحراء والحاضرة ، والمشرفين على كل عمل ودائرة ، وتهافتوا إلى إطلاع ذلك الباحث ، على مآلديهم من التقارير والأضابير ، أو أجابته عن أسئلته ، أو هدايته إلى الأشخاص والأماكن والمباني ، المتعلقة بهذه المواضيع المحتاجة لكثير من المآزرين . بينما أجدنا لا يحلم بمثل هذا المدد والعناية ، والتنشيط والهداية ، وليس له سوى التعويل على نفسه ونفيسه الضئيلين فقط ، وحسبي أن أكون قد استرعت الأنظار ، نحو هذه الأبحاث الطريفة ، ليقوم غيري من أبناء هذه البلاد ، فينسج على هذا المنوال ، ويأتي فيها بأحسن وأصح الأقوال ، والله ولي التوفيق .

دمشق في ربيع الثاني ١٣٥٣ هـ

تموز ١٩٣٤ م

أحمد وصفي زكريا

رحلة أوليا جلبي

محمد ظلي أفندي المعروف بأوليا جلبي ، أي الولي الفاضل : سائح تركي شهير من رجال القرن الحادي عشر الهجري (ولد في سنة ١٠٢٠ هـ وتوفي في سنة ١٠٩٠ هـ) وهو أباطي قفقاسي الأصل ، ولكنه ولد وترعرع في استانبول ، كان في صباه ذا صوت جميل ، ساقه للولع بفنون الأدب والموسيقى . ففي ذات يوم في رمضان سنة ١٠٤٥ هـ ، بينما كان يتلو القرآن في جامع آيا صوفيا ، أعجب السلطان مراد الرابع بحسن تلاوته ، فرفعه إلى قصره وجعله من ندمائه ، إلا أن تلك النعمة والأبهة ، اللتين صادفها أوليا جلبي في القصر ، كانتا محاطتين بضروب التقييد والحصر ، فلم تروقا لعينيه ، ولم تتفقا مع خفته وظرفه ، وجهه للحرية والانطلاق ، وشغفه بالسفر وجوب الآفاق . فغادر القصر بعد مكوث سنتين ، وراح يحول في الأمصار التي كانت تتألف منها السلطنة العثمانية المترامية الأطراف في ذلك العهد ، تارة لوحده وتارة بصفة إمام ونديم في بطانة كبار الوزراء والقواد ، لاسيما مع قريبه ملك أحمد باشا ، أحد صدور ذلك العهد البارزين ، ورافق أهم الجيوش التي ساقتها الدولة العثمانية إذ ذاك في الشرق والغرب ، وحضر الحروب ، وبهذا تسنى له أن يرى أكثر بلاد الأناضول ، والروملي والقفقاس ، ووصل إلى جزيرة كريت ، وجال أيضاً في بعض أنحاء إيران بمهمة رسمية ، وذهب مرة صحبة رجال السفارة العثمانية المرسلين إلى فيينا عاصمة النمسا ، فتوجه منها إلى ألمانيا وهولاندة ، وبولونيا وروسية ، ورجع إلى استانبول عن طريق جزيرة القرم . وقد وضع في وصف رحلاته العديدة ، عشرة مجلدات كانت محفوظة برمتها في مكتبة برثو باشا في التكية السليمية في أسكدار ، طبع منها أحمد جودة صاحب جريدة أقدام في سنة ١٣١٤ هـ . وبعدها أربعة مجلدات ، ووقف بعد عن طبع البقية .

ورحلة (أوليا جلبي) تعد عند الترك من الآثار القيمة ، التي يفخرون بها ، لما تضمنته من بيان عمران البقاع ، والبلدان التي شاهدها ، ووصف مناظرها ومبانيها ،

وأحوال سكانها ، وصفاً جميلاً في أسلوبه وحسن بيانه ، تتخلله طائفة من النبذ الجغرافية والتاريخية ، والاجتماعية والفكاهية ، لولا أن فيها شيئاً غير يسير من شوائب المبالغة والأحاديث الخرافية ، التي كان يعنى الجليلي بها ، شأن رجال تلك الأيام .

ولم تفت الجليلي من الأقطار العربية الشام ومصر والحجاز . جاء مرة إلى دمشق سنة ١٠٥٨ هـ ، صحبة الوزير مرتضى باشا الكرجي المعروف بالسلحدار ، المعين نائباً على بلاد الشام ، وذهب معه لما جرد جنده لحباية الأموال الأميرية ، من الدروز وغيرهم في جنوب جبل لبنان وأحساء صفد ، وأرسله الباشا في غيرها بمهمة إلى غزة ، فر بأكثر مدن الشام الشمالية والجنوبية ، وعرفها ووصفها في المجلد الثالث الخاص برحلته هذه ، وهذا هو المجلد المطبوع الذي ظفرت به وعولت عليه . أما المجلد التاسع ، الخاص برحلة أخرى له إلى بلاد الشام والحجاز ، والذي أظن أن فيه تفصيل أوفى ، فقد ظل مخطوطاً في مكتبته . وقد قصرت يدي عن بلوغ هذا المجلد ، ولم يعد ثمة أمل برؤيته مطبوعاً ، بعد أن أبدل الترك الأحرف العربية باللاتينية ، وقضوا على فكرة طبع المخطوطات القيمة المدفونة في خزائن مساجدهم .

وقد استرعت رحلة هذا السائح التركي أنظار علماء المشرقيات في أوروبا ، فترجوا منها ما يختص ببلادهم ، إلى اللغات الألمانية والإنكليزية والمجرية . لذلك أحببت أن أحذوهم ، فأنتقل إلى لغتنا وصف البلاد الشامية ، التي زارها صحبة مرتضى باشا ، حسبها درجه في المجلد الثالث ، وفي ظني أن في ذلك ما يفيد معرفته ، من الأوضاع الجغرافية والحالات الاجتماعية التي كانت قبل ثلاثة قرون . وقد تصرف في عبارة الجليلي ، وحذفت منها ما ليس في ذكره نفع ، وعلقت عليها نبذاً في ترجمة الأشخاص ، وذكر أسماء المدن والقرى التي كانت في طريقه أو حوله ، مما فاتته بيانه ، ووصفت منها بعض ما تنسى لي زيارته ورؤيته ، أو العثور على ذكره في الكتب الجغرافية والتاريخية ، والرحلات القديمة والحديثة ، وعנית بسرد الفرق ؛ بين حالتها حينما مر بها الجليلي وحالتها الحاضرة .

وقبل الشروع بسرد الرحلة ، لابد من التنويه بأن المحبي صاحب كتاب (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) - وقد ترجم كثيراً من فضلاء الترك وأعيانهم في ذلك

العهد - لم يذكر اسم (أوليا جلبي) على الرغم من أن هذا جاء الشام ، وساح فيها ومكث في دمشق مدة ، ولم يترجم أيضاً مرتضى باشا ، الذي حضر الجلبي في حاشيته ، وظل والياً في دمشق نحو نصف سنة ، وبعد التحري وجدت ذكر هذا الباشا في كتاب (الباشات والقضاة) تأليف محمد بن جمعة المقار ، الذي منه نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسي في مكتبة مجمع اللغة العربية في دمشق ، قال : وفي سنة ١٠٥٨ هـ تولى دمشق مرتظا باشا (كذا) ، فلما جلس أمر بالمسير وعسكر دمشق بالركوب على أرض صغد ، فلما وصل نصب أوطاقيه وأعيان دمشق ، فاستقام هناك مدة ، فخرج بعض أغواته وبعض أعيان دمشق يلعبون بالجرید ، فصاب بعض أغواته جريدة فقلعت عينه ، فحقد الباشا المذكور على أعيان دمشق وبغضهم ، فهجموا على أوطاقيه وقطعوه ومزقوه ، ورجع عسكر دمشق إلى الشام ، فبعد عشرة أيام رجع ودخل إلى السراية ، فما استقر مدة إلا وجاء بعزله فعزل ، وسار إلى استانبول فصار وزير أعظم ، وما قدره الله بشيء انتهى بالحرف . وأخيراً : عثرت عرضاً في كتاب المحبي على ذكر مرتضى باشا في صدد ترجمة عبد السلام المرعشي ، أحد أعيان الجند بالشام ، وصاحب الحول والطول في ذلك العهد . قال المحبي : وكان عبد السلام لما وجهت نيابة الشام لمرتضى باشا الكرجي ثانية ، في سنة سبع وستين وألف ، وتصرف بها متسلماً اضطرب لذلك اضطراباً شديداً ، لما كان قد وقع له من المعادة في توليته الأولى ، فأخذ يدبر أشياء لمدافعته ، ثم أداه اجتهاده إلى أن جمع جمعاً عظيماً في الجامع الأموي ، وأحضر أكثر أهل البلدة ، وذكر لهم ظلمه ، وأشار عليهم بأن لا يرضوه حاكماً عليهم ، وكان نائب الشام السابق المعروف بالسلاحدار^(١) لم يخرج بعد من دمشق ، وكان مقيماً بالميدان الأخضر ، فذهب القوم إليه ، وأبرموا عليه أن يبقى نائباً وكتبوا في هذا الشأن عروضاً ومحاضر ، وأرسلوها إلى الأبواب السلطانية ، وخرج متسلم مرتضى باشا هارباً ، ولما وصل إليه وهو في الطريق ، أرسل إلى الباب السلطاني يعلمهم بما وقع . فقرر في نيابة الشام بخط شريف ، فلم يكتنوه وأظهروا الممانعة ، وجمعوا جمعاً عظيماً من أوباش الشام ، وعزموا على محاربتة ، وطلعوا إلى قرية دوما وهم في جيش عرمرم ، وكان مرتضى باشا وصل إلى القطيفة ، فلما سمع بخبرهم ولى راجعاً ولم يدخل دمشق أ هـ .

(١) كان اسمه محمد باشا ، وهو الذي رمم مأذنة جامع المعلق ، على ضفة بردى بين الحواصل ، سنة ١٠٥٨ هـ .

فيظهر من هذا ، ومما عثرت عليه في (التقويم السنوي لولاية سورية) لسنة ١٣٠٤ هـ ، أن مرتضى باشا عين لنيابة الشام مرتين ، الأولى في سنة ١٠٥٨ هـ حينما جاء معه (أوليا جلبي) ودخل بموكب عظيم ، واستقبلته جنود دمشق وأعيانها ، استقبالا فخما كما سيأتي بيانه . على أن هذا الباشا كان جباراً عاتياً ، خاصم أعيان دمشق ، كما ذكره صاحب كتاب الباشات والقضاة ، فعزل بعد أربعة أشهر ، لكنه عاد للمرة الثانية في سنة ١٠٦٧ هـ ، فلم ترض به جنود دمشق وأعيانها ، واضطروه للرجوع ، فنقمت الدولة بسبب ذلك على عبد السلام المذكور ورفقائه ، الذين قادوا هذه الفتنة ، وكان من جملتهم الأمير منصور الشهابي وابن عمه الأمير علي ، فقتلتهم جميعاً تباعاً ، وصادرت أموالهم وأملاكهم ، وفاقاً لعوائد تلك الأيام ، وأعادت مرتضى باشا ، فبقي هذه المرة خمسة أشهر ، ثم عزل ثانية .

أما الرحلة فهي كما يأتي :

كان (أوليا جلبي) يتدبر قضاء فريضة الحج ، فانتهاز فرصة سفر مرتضى باشا المعين نائباً على الشام ، وصار ندييه ورئيس المؤذنين والأئمة في بطانته . وكانت قافلة الباشا مؤلفة من مئات الحواشي والأتباع والجند ، وألوف الركائب والبغال المثقلة بالعتاد والأمتعة ، شأن قوافل الباشوات العظام في ذلك العهد ، وغادر مدينة أسكدار في غاية شهر شعبان سنة ١٠٥٨ هـ ، التي جلس فيها السلطان محمد خان الرابع على كرسي آل عثمان ، وهو بعد صبي ابن سبع سنوات ، وراح الجلبي يتنقل مع تلك القافلة في بلاد الأناضول ، كأزنيق وأسكي شهر ، وآق شهر وقونية ، وأركلي وأولوقيشلة ، ووقف برهة في نجد جبال طوروس ، ووصف طيب مناخها وجودة مراتعها ، ودخل من مضيق (كولك بوغازي) ووصف قلعته الشاهقة ، ثم أقبل على سهول آذنة ، ووصف قطعان الجواميس الضخمة ، التي شاهدها في بطائنها ، وأن منها ما هو خاص بالدولة ، تعده لجر المدافع الثقيلة ، ثم وصل إلى آذنة ، وبعد أن ذكر أنه وصفها في المجلد الخاص بسفرته إلى الحجاز ، ذكر اجتيازه جسرهما ذا الست عشرة قنطرة ، المبني على نهر سيحان ، ثم ذكر وصوله إلى قلعة مسيس . ثم قال : غادرنا مسيس واجتازنا مضيقاً اسمه (الجاق بل) ، كنا نرى فيه قلعة شاهمران على يسارنا فوق صخرة عالية ، ثم اجتازنا منزلاً اسمه (قورت قولاغلي) ومكثنا

فيه مدة ، ثم وصلنا إلى مكان مخوف وخطر ، اسمه (دمبر قبو) رأينا فيه آثار جدار عظيم ، كان فيه باب من حديد ، وهناك قلعة خربة ، فوق أكمة جرداء ، وما زال أكراد ناحية الجومة يأتون إلى هنا ويقطعون السابلة . وبعد أن اجتزنا هذا الحبل الموحش وصلنا إلى بياس .

وقد وصف (أوليا جلبي) قلعة بياس ، ودورها وبساتينها ، ودار مكسها وميناءها ، وخانها وجامعها ، الذي بناه (محمد باشا الصوقولي) الصدر الأعظم الشهير ، وأثنى على أهلها ، لأنهم كانوا يردون عادية قرصان البحر ، ويحرسون المسالك والمضائق ، الممتدة شمالي بياس وجنوبها ، من شر لصوص الجبال ، ويسهلون سبيل الحجاج والتجار المارين ببلدتهم ، من بر الترك إلى بر الشام وبالعكس ، ونوه بشدة حرها في الصيف ورداء هوائها ، واضطرار أهلها إلى الاصطياف في النجود والهضاب المحيطة بهم ، وذكر أن ألوفاً من الأكراد والتركز أصحاب قطعان الغنم والماعز يتسلقون هذه النجود في فصل الصيف ، ويطلقون مواشيهم ، ترعى أعشابها الغضة ، وتشرب مياهها النيرة .

ثم قال : وبعد أن مكثنا في بياس يومين ، غادرناها واجتزنا في جنوبها جسراً متقن الصنع ، ذا أربع منافذ من آثار محمد باشا الصوقولي ، ووجدنا في قربه على شاطئ البحر ، تكية باسم الشيخ عبد القادر الكيلاني ، عامرة الأركان أهلة بالدررايش ، ثم استأنفنا المسير نحو القبلية ، فررنا بتكية ثانية أصغر من الأولى ، فيها بضعة دراويش ، ينتسبون إلى الطريقة البكتاشية ، ثم اجتزنا جسراً نصب على نهر ، تجتمع مياهه من الأودية المنحدرة من أعالي الجبال التي ذكرناها ، وتصب في البحر . وعلى مقربة من هذا الجسر ، مررنا بقلعة تدعى قلعة المركز ، تبعد عن البحر رمية سهم بنيت في سفح جبل عال ، وهي مربعة الشكل ذات بناء جميل ، قيل إنها من عهد القياصرة . ولما مر السلطان سليم من هذا المكان سنة ٩٢٦ هـ ، وهو ذاهب للاستيلاء على مصر افتتحها بالأمان ، وهي الآن تابعة لنيابة بياس ، وفيها قائد وعدة جنود ، وحولها كروم وبساتين ، وفي داخلها جامع وبضعة بيوت لسكنى الجنود .

وبعد أن اجتزنا هذه القلعة ، مررنا في ساحل البحر بمضيق يدعى (صقال طوتان

= قابض الذقون) ، لاتنقطع والعياذ بالله منه اللصوص وقطاع الطريق ، وجلهم من أشرار الأكراد ، الذين يهبطون من ناحية الجومة من أعمال حلب . لذلك يجدر بالمجتازين من هنا ، أن يكثرُوا من الحيلة والحذر . وبعد أن مررنا بمكان يدعى (آجي جاي == النهر المر) ، وصلنا بعد ساعتين ونصف إلى قلعة أسكندرونة .

وصف الأسكندرونة - سميت هذه البلدة باسم بانيها إسكندر الكبير ، وبعد أن خربتها عوادي الزمن عمرت في أول عهد الإسلام ، ثم خربت مرة أخرى ، وصارت ملجأ لقطاع الطرق وقرصان الإفرنج ، فاسترعى هذا الحال نظر نصوح باشا الذي كان صدراً أعظم في زمن السلطان أحمد خان ، فشرع ببناء قلعة حصينة في الأسكندرونة ، ولكن السلطان نقم عليه بعد حين ، لتهامل بدى منه فقتله ، وبقيت القلعة دون إكمال ، وحبذا لو أكلت هذه القلعة ، وجدد عمران الأسكندرونة ، لأنها فرضة بحرية ، ذات مكانة وقريبة من حلب نحو مرحلتين ، وقد علمت أنه يزورها في كل عام من سفن المسلمين والإفرنج أكثر من مئتي غليون . هذا وحرمان هذه الفرضة من قلعة ، جعل الإفرنج يتقاعسون عن دفع المكوس إلى الملتزم ، الذي التزمها بمئتي حل^(١) ، وللأسكندرونة قاض يجبي من قراها خمسة أكياس^(٢) . ولها ميناء لطيف ، لولا أن غريبه مكشوف يأتي بالرميل فيحول دون اقتراب السفن من الشاطئ ، ويضطرها للرسو على بعد رمية مدفع . وإلى الغرب من ميناء الأسكندرونة ، وعلى بعد ٢٦٠ ميلاً بحرياً^(٣) ، يوجد رأس أندراوس في جزيرة قبرص ، وقد قيل لي أنه إذا اعتدل الهواء وصفا أديم السماء ، ترى من هنا جبال قبرص المجللة بالثلوج ، أما أنا فلم يتسن لي رؤية ذلك . ويكثر وجود الإفرنج والروم في الأسكندرونة ، لهذا لاتجد فيها جامعاً أو خاناً أو سوقاً سوى الحانات ، فإنها كثيرة ، وقد اعتاد الصادي والغادي إلى الأسكندرونة أن يمكث ليالي الشتاء في هذه الحانات ، حتى صارت تشبه الحانات . ويجلب الماء إلى الأسكندرونة على ظهور الحير من نبع في خارجها يدعى نبع القوافل ، وقد اعتاد الداخلون إلى هذه البلدة والخارجون منها أن يضربوا

(١) إذا كان الحمل مئة ألف قرش ، فالثمنا حمل تعادل عشرين مليوناً من القروش ، ولعل الجلي مبالغ بهذا المبلغ .

(٢) الكيس خمسة قرش .

(٣) صحيحه مئة وخمسة أميال .

خيامهم قرب هذا النبع . وفي الأسكندرونة وكلاء أو قناصل لسبع دول ، أما القناصل الأصليون فمركزهم في خان الإفرنج في حلب . ولما كانت الأسكندرونة فرضة بحرية وباب تجارة لحلب وضواحيها ، تجد بجانب جمرها مخازن عظيمة ، يقوم فيها تجار الإفرنج بالبيع والشراء دون انقطاع . حتى أنه لما مر مولانا مرتضى باشا من هنا بموكبه الحافل ، كان من سفن الإفرنج ستة وعشرون غليوناً راسياً في الميناء ، فأطلق كلها المدافع ترحيباً بجنابه ، ودام الإطلاق مدة غير يسيرة ، حتى كادت الغلايين لاترى من كثرة النار والدخان . وتحيط بالأسكندرونة مستنقعات . ثم قمنا من هنا مع الركب ، فررنا بنبع القوافل وسرنا نحو القبلة ، نحاذي الساحل تارة ، ونصعد في الجبال أخرى ، وكان المطر ينهمر علينا بشدة ، إلى أن وصلنا إلى بلدية تدعى بيلان .

وبيلان مركز قضاء يتبع أيالة حلب ، فيها نحو ثلاثة آلاف من السكان ، ودورها مبنية من الطين على طرفي جبلين متقابلين بينهما واد ، وهذه الدور يركب بعضها فوق بعض ، وتتخللها أزقة ضيقة ، وهواء بيلان جيد ، وماؤها عذب ، وصحة أهلها حسنة ، وفيها مسجد جميل له قبة مكسوة بالرصاص ، وأمامه خان عامر ، وفيها أيضاً حمام وحوانيت عديدة ، وينتج فيها فواكه وأعناب لذيذة ، فهي صالحة في الجملة للاصطياف ، ثم إن في الجبال التي تعلوها نجود ، اشتهرت بنقاء هوائها وطيب مراعيها . ثم غادرنا بيلان وسرنا نحو الجنوب ، نصعد عقبات ونهبط أودية ، إلى أن جتزنا مضيقاً فيه جنود مكلفون بحفظ الدروب ، وشاهدنا في يميننا على بعد رمية مدفع (قلعة بغراس) ، وهي قلعة قديمة تعاورتها أيدي كثير من الملوك ، إلى أن افتتحها السلطان سليم بالأمان ، حينما مر بهذا الطريق ، وهو ذاهب لقتال الملك قانصو الغوري في مرج دابق . والقلعة صغيرة القد ، خمسة الشكل ، مبنية على هضبة ، اتخذت قضاءً تابعاً لأيالة حلب ، وأقيم فيها كتخدا وقائد جند الإنكشارية ومحافظ القلعة وجنود ، وفيها جامع وخان وحمام وسوق صغيرة ، على أنها لانحرافها عن الطريق ليست عامرة ، وانحصرت الآن شهرتها بزهورها الفياحة ، لاسيما بالسنبل والمسك الرومي ، وأهلها يقلعون من جبالها وحدائقها أبصال الزهور الجميلة ، فيحملونها ويبيعونها في بقية البلدان ، وقد يصلون بها إلى استانبول .

ثم رحلنا من هنا ، وسرنا نحو القبلة ، فاجتزنا قرة مغرط إلى أن وصلنا بعد اثنتي عشرة ساعة إلى أنطاكية .

جولة أثرية (٢)

وبعد أن ذكر (أوليا جلبي) نبذة من تاريخ أنطاكية ، قبل الإسلام وبعده ، ونوه بفتحها على يد السلطان سليم العثماني عقيب معركة مرج دابق ، قال ما خلاصته : وعين السلطان إذ ذاك محمد باشا البيقلي والياً على أنطاكية ، ورامي علي أفندي قاضياً ، وهي لاتزال بيد العثمانيين ، فيها نائب ومحتسب ونقيب الأشراف وقاضي وكتخدا جند وسردار انكشارية ودردار قلعة ، وفيها جنود وعتاد وعشرون مدفعاً بين كبير وصغير ، وسور أنطاكية مبني على خمسة جبال ، ونصف قلعتها في منحدرات تلك الجبال ، ونصفها الثاني في سفوحها وقرب نهر العاصي ، ومحيط هذا السور اثنا عشر ميلاً ، وفي الحق أنني لم أر حتى الآن أسواراً وأبراجاً عالية مثلما رأيت في أنطاكية ، وربما بلغ علو السور الراكب على الجبال في الجهة الشرقية نحو ثمانين ذراعاً ، أما السور القريب من نهر العاصي فواطئ ولا يعلو أكثر من عشرين ذراعاً ، كما أنه غير ضخيم ، وإذا دخلت من بابي حلب ودمشق وصعدت ، ترى أمامك أبراجاً وقللاً يعلو بعضها فوق بعض ، أما الأحجار التي بنيت منها هذه القلل فهي جد ضخمة ، وقد ركبت وألصقت بمهارة كلية ، وعلو باب حلب المتجه إلى الشمال نحو عشرين ذراعاً ، وكان ينبجس من الصخور التي في داخله مياه فوارة ، وفي غربي هذا الباب جسر عظيم يعبر منه فوق العاصي ، ولوفرة علو الجبال المحيطة بأنطاكية ، وأرتفاع الأسوار الراكبة عليها ، لاتنتشر الشمس على هذه البلدة إلا بعد ساعتين من طلوعها .

وفي أنطاكية ثمانية قصور عظيمة ، أهمها قصر كتغاج باشا ، فيه كثير من الأبهة والغرف العديدة المزخرفة وبابه من الحديد . وأكثر دور أنطاكية الفخمة واقعة على العاصي ، وفيها من الأولياء حبيب النجار الذي يزعمون أنه كان من حواربي السيد المسيح ، وبعد قتله حفظ رأسه في تكية يزورها ويتبرك بها المسلمون والنصارى على السواء . وفي أنطاكية مدارس للعلوم الشرعية وكتاتيب للصبيان ، وفيها تكية لحبيب النجار يهبط إليها بدرج ملئت بالدراويش ، وأخرى في أعلى الجبل في مكان عال مشرف يوصل إليه في خلال ساعة ، وفيها حمامات تأتي مياهها من العاصي بالنواعير ، وفيها خانات وأسواق وحوانيت عديدة . ومياه هذه البلدة غزيرة ، تنحدر من الجبال العالية المحيطة بها ، لذلك ترى سبلها وينابيعها كثيرة ، كما أن الفاكهة تجود وتغزر أنصافها في البساتين التي تروى من النواعير الراكبة على نهر العاصي .

هذا وبعد أن انتهينا من زيارة أنطاكية ، عزمنا على السفر في صبيحة اليوم الأول من شوال سنة ١٠٥٨ هـ ، وبعد أن أدينا صلاة العيد في جامع السوق ضرب نفير الرحيل في قافلتنا ، فغادرنا أنطاكية متجهين نحو القبلية ، وبعد أن اجتزنا كثيراً من القرى العامرة ، نزلنا بعد ثماني ساعات في قرية الزنبقية على شاطئ العاصي ، وهذه القرية واقعة في واد خصب ، له كروم وحدائق ذات بهجة ، وفيها نحو ثلاثمائة بيت ، وقد اشتهرت بجودة تينها وجمال زنبقها . وهنا أقام علي باشا الجانبولاد لمرتضى باشا وليمة عظيمة لم يسمع مثلاً ، فقد أكل كل الجند الذي بمعية علي باشا وعدده كان ينيف على ستة آلاف ، وأكل خلق عظيم لا يسعه الحصر من حضر من الجوار ، ومع ذلك فقد بقيت الصحون والقدرور ملآنة بالأطعمة النفيسة . وأهدى علي باشا إلى مرتضى باشا ثلاث أفراس من عتاق الخيل ، فقابلته مرتضى باشا بفرو من السور المرصع [١] . ثم استأنفنا المسير إلى الجنوب إلى أن وصلنا إلى جسر الشجر ، وهو مكان موحش على شاطئ العاصي ، وتحيط به مروج خضراء ، وفيه خان صغير ، على أن الأمن هنا مفقود ، نرجو الله أن يوفق أهل الخير لعمران هذا المكان ، وتوطيد الأمن فيه ، ليسهل مرور الحجاج منه .

ثم سرنا إلى الجنوب ، فكنا نجتاز تارة أماكن صخرية وتارة مستنقعات وأجماً إلى أن وصلنا بعد ست ساعات إلى قلعة المضيق . وهي قلعة صغيرة من أعمال أيالة حلب ، بنيت قرب بحيرة تسمى باسمها ، فوق هضبة مشرفة على السهول والأجام المحيطة بها . ثم غادرناها فوصلنا بعد سبع ساعات إلى قلعة شيزر .

ثم وصلنا إلى حماة . وبعد أن ذكر الجلي نبذة من تاريخها ، شرع يصف حالتها في زمن مروره ، قال :

(١) من هو هذا الباشا الكبير الذي استطاع أن يقوم بتلك الولاية العظيمة ؟ لم يذكر الجلي وظيفته ، ولا من أين أتى ، وما سبب مجيئه لمقابلة مرتضى باشا ، إذ لا بد أن يكون غير علي باشا الجانبولاد المشهور الذي حكم حلب في سنة ١٠١٤ هـ ، ثم خرج عن طاعة الدولة العثمانية ، وحارب جيوشها مدة مديدة إلى أن قتل في سنة ١٠٢٠ هـ أي قبل مرور قافلة الجلي بثاني وثلثين سنة ، على مارواه المحي في خلاصة الأثر . ولما حسبته أنه والي حلب جاء يحتفي بزميله مرتضى باشا ، وجدت (التقويم السنوي لولاية حلب) يذكر في قائمة أسماء ولايتها ، أحمد باشا الدباغ في سنة ١٠٥٧ هـ ، ومصطفى باشا المستاري في سنة ١٠٦٠ هـ ، والجلي لم يذكر أحداً منها . فهل كان مخطئاً في بيان الاسم ؟

وبعد أن استلم السلطان سليم حماة بالأمان ، جعلت سنجقاً تابعاً لآيالة طرابلس الشام ، ويبلغ عدد جندها حين السفر ، مما هو في بطانة أمير لوائها ومن الجبجية الذين يقدمهم أرباب التيجار والزعامة نحو ألفين^(١) وفيها مشايخ للمذاهب الإسلامية الأربعة ، ونيقيب أشرف ووجهاء وأعيان وكتخدا يري وسردار انكشارية^(٢) وجري باشي (رئيس جند) ويوزباشي (رئيس مئة) ودردار قلعة ومحتسب ، ويجبي قاضيها من نواحيها في كل سنة ستة أكياس ، ويجبي أمير لوائها ثلاثين كيساً . وفي حماة قلعة بنيت فوق تل صناعي على شاطئ العاصي ، لكن أكثر أبراجها وأسوارها منهدمة . وفي حماة كثير من القصور الفخمة ، ذات الحدائق الغناء والأحواض والمياه الدافقة ، وأشهرها قصر محمد باشا الأرناؤوط ، وهو مبني على شاطئ العاصي ، وفيه ثلاثمائة غرفة ، وقاعات عديدة وحمامات وحدائق ، ولم أر مثل هذا القصر إلا في دمشق ، وقد أولوا فيه لمولانا مرتضى باشا ولية يعجز اللسان عن وصفها^(٣) ، واشتهر أيضاً في حماة قصر الشيخ إبراهيم أفندي بن الشيخ

(١) كانت الدولة تتخلى عن حقها في العشر والرسوم الأخرى إلى أصحاب الخاص والزعامة والتيجار ، أو توفقه على جهة من الجهات الخيرية وفقاً لطريقة الإقطاع ، التي كانت جارية في القرون الوسطى ، وتقسيم الأراضي إلى خاص وزعامة وتيجار كان باعتبار حاصلاتها المقيدة ، مثال ذلك أن الأرض التي غلاتها أكثر من مئة ألف أقة (الأقة ضرب من العملة تعادل ثلث البارة) يطلق عليها خاصاً ، وتحال على الوزراء والأمراء وغيرهم من بطانة السلطان ومقربيه ، والتي غلاتها من عشرين ألف أقة إلى مئة ألف أقة يطلق عليها زعامة ، وتحال على دفتر دار الخزينة في الآيالة ، ورئيس الألاي في اللواء ، وقواد القلاع ومن كان في منزلتهم ، والتي غلاتها من ثلاثة آلاف أقة إلى عشرين ألف أقة يطلق عليها تيجار ، وتحال على المستحقين من الجنود ، وكان كل من صاحب الخاص والزعامة مكلفاً بأن يجهز وقت الحرب عن كل خمسة آلاف أقة جندياً بعدته الكاملة ، ومصاحب التيجار مكلف بأن يجهز عن كل ثلاثة آلاف أقة جندياً واحداً . واستمرت هذه القاعدة التي كانت سائرة في البدء سيراً حسناً إلى سنة ألف من الهجرة ، ثم شابها سوء الاستعمال ، إلى أن ألغيت سنة ١٢٥٥ هـ .

(٢) كانت رتب قواد جند الانكشارية تبدأ بأقة الانكشارية ، ثم برئيس السكبان ، ثم بكتخدا القول ، وهو معاون الاغا الكبير أو رئيس أركان حربه ، ثم بكتخدا يري ، وهو وكيل كتخدا القول ، وصلة الوصل بين الاغا الكبير وجميع جند الانكشارية ، يبلغ أوامر الاغا ، بمعرفة الكتاب إلى الدردارين ، أي محافظي القلاع ، والسردارين أي قواد الجند .

(٣) ذكر (جرجي يني) مؤلف تاريخ سورية اسم باني هذا القصر مراراً في فصل طرابلس ، فما قاله : إن محمد باشا الأرناؤوطي ولي آيالة طرابلس في سنة ١٠٥٠ هـ ، وأنه بنى على نهر رشيمن قصراً ، وكلف الرعايا أموالاً ، ثم عزل وأعيد ثلاث مرات ، وذلك من شدة جوره وعسفه ، وكان في كل مرة يعاد بعد مدة وجيزة ، وفي المرة =

عبد القادر الكيلاني^(١) ، أما جوامعها فكثيرة ، منها جامع أبو عبيدة بن الجراح فاتح حماة وهو في السوق الأعلى ، قيل إنه كان في الأصل كنيسة قديمة ، وأنه بني بمال الخراج الذي أداه أهل حصص ، وقد زبرت على رخامة فيه النفقات التي صرفت في إنشائه ، وألصقت على أحد جدرانها . وهناك جامع قاسم باشا المعروف بكوزلجة ، وهو أول من حكم حماة من العثمانيين بعد فتح السلطان سليم^(٢) ، وأشهر تكاياها (تكية عبد القادر الكيلاني) ، وهي عامرة ومزخرفة ، وذات إيراد جزيل وتعج بالدرأويش^(٣) ، وأسواق حماة وإن لم تكن عامرة بقدر أسواق حلب ، لكنها حافلة بجميع أنواع البضائع القيمة ، ويكثر فيها الصياغون والحلاقون . وحر حماة شديد لوقوعها في وسط الإقليم الرابع ، وتهب من بريتها ريح سموم ، لذلك يكثر السمر في أهلها ويقل الجمال في نسائها (كذا) . ويلبس الرجال جبباً وقنابيز ملونة تكون في موسريهم من الحرير ، وفي متوسطيهم من القطن أو الصوف ،

= الرابعة أرسل إلى حماة واستقر بها أ هـ . قيل إن هذا الباشا أعقب في حماة ، وأنه لا يزال من أعقابه بعض نساء ، وأنه على الرغم من عسفه كان ولوعاً ببناء القصور والمساجد والحمامات ، فقد بنى في حماة القصر الذي ذكره الجلي ، وبالح في عدد غرفه ، ويظن أنه هو دار الحكومة التي احترقت في حادثة حماة في سنة ١٣٤٤ هـ ، ويظهر من وصف الجلي أن البناء الملاصق للدار المذكورة الذي كانت فيه مدرسة التجهيز ودور بعض السراة المجاورة ، كانت كلها من مشتملات هذا القصر الفخم . ومحمد باشا بن أيضاً في حماة جامعاً قرب جسر السرايا ، يسمى جامع المدفن ، لأنه دفن فيه وعلى قبره تاريخ وفاته في سنة ١٠٨٦ هـ ، وكان وقف له عقاراً كثيراً ، وممة الذين اتصلوا بخدمته وخدمة ابنه علي باشا ، شاعر حوي اسمه حسن الدفترى المعروف بابن قنق .

(١) الشيخ إبراهيم الكيلاني جد بني الكيلاني في حماة ، وهو على ما قيل ابن شرف الدين بن أحمد بن علي الهاشمي ، ولد في سنة ١٠٤١ هـ ، وتوفي في بغداد في سنة ١٠٦٨ هـ ، كان ذا ثروة ومكانة عظيمة ، احتجتها بتصفه ومشيخته ، بنى قصره الذي ذكره الجلي من أنقاض قلعة حماة ، وبني في جانبه جامعاً ، ولا يزال هذا القصر عامراً بأعقاب المترجم ، وهم يؤلفون أسرة كبيرة لبعض أفرادها حظ وافر من سعة الملك ووفور الثروة والوجاهة في حماة وضواحيها . والقصر على شاطئ العاصي الأمين ، في محلة تدعى جسر بيت الشيخ ، يقصده السياح لرؤية ما فيه من محاسن البناء العربي ، كالعقود والقاعات .

(٢) هذا الجامع لم يعرفه أحد من سألته في حماة ولا سمع بهذا الاسم . فمن أين أتى الجلي بذلك ؟

(٣) نفى الصابوني مؤلف تاريخ حماة وجود التكايا الآن في حماة . أما التكية الكيلانية فقد أسماها زاوية ، وقال إنها من بناء بني الكيلاني القاطنين في حماة منذ القرن السابع . والذي علمته أن الإيراد الذي ذكره الجلي اندثر ، والدرأويش لم يعد لهم أثر .

وتلبس النساء في أرجلهن أحذية طويلة الساق ، ويلتحنن بملآت بيضاء . ويصنع فيها شراشف ومناشف ومناديل حريرية . ولكثرة الشبان الذين يتجندون تكثر الفروسية بين أهلها ، ويصنع فيها سروج ولجم جميلة متقنة ، أما قحها فيأثل القمح الحوراني في الجودة ، وكذا الأمر في شعيرها وقطانيها . وتكثر في حاة الخيول الأصيلة . أما حماماتها فكثيرة وعلى غاية من الحسن وإتقان الخدمة ، أخص بالذكر حمام^(١) محمد باشا الأرناؤوط ، الذي لم أر في ديار الروم ما يماثله في الإبداع ، إلا أن يكون حمام محمد كراي ، في (بغجة سراي) عاصمة بلاد القريم .

وفي حاة نواهير عظيمة منصوبة على نهر العاصي ، يسم القادمون إلى هذه البلدة أنينها من مسافات بعيدة ، وهي دواليب مؤلفة من أخشاب وأعمدة ومسامير حديدية على غاية من الطول والضخامة . وتنصب المياه من هذه النواهير في قناطر ، تذهب بها إلى قصور البلدة ودورها وحماماتها ومساجدها وخاناتها . ولكل ناعورة أوقاف ذات إيراد وخدم ونجارون مهيئون لخدمتها . وإذا اقترب الزائر الغريب منها تكاد أذانه تصم من شدة الضجة . والأغرب من كل ذلك رؤية غلمان حاة المتشردين يتعلقون بأطراف الناعورة ويدورون بدورائها ، حتى إذا علت بهم ألقوا بأنفسهم إلى العاصي فيغوصون فيه ويسبحون . وفي حاة مئات من الحدائق والبساتين التي تروى من هذه النواهير ، ولا يخلو كل بستان من ناعورتين أو ثلاث ، على أن أعظم ناعورة بينها هي ناعورة المحمدية ، التي سارت بذكرها الركبان ، وفي حاة قبران لعالمين من الترك ، أحدهما المولى (حامد جلبي الشهير بطاشكوبري زاده) والثاني المولى (إبراهيم جلبي الآذري) وكلاهما مدفون بجوار التكية الكيلانية ، وتاريخ وفاة الجلبي الآذري سنة ٩٩٣ هـ^(٢) .

(١) هو حمام الباشا الذي كان في جانب جامع الدفن . والحمام والجامع من بناء محمد باشا الأرناؤوط الذي مر ذكره . وقد اندرس هذا الحمام منذ قرن في جملة المعالم الكثيرة التي اندرست في حاة ، وبيعت وهي عامرة للحجارين ، كدار الفرح في محلة باب الجسر كانت وقفاً للأفراح ، فمن أراد أن يتزوج مثلاً ، يأخذ مفتاحها من متوليها ثلاثة أيام ، ذكره الصابوني .

(٢) قيل إنه كان في جوار الزاوية الكيلانية مقبرة للكيلانيين درست ، وبني محلها دور ، ولعل هذين القبرين اللذين ذكرهما الجلبي كانا فيها . أما حامد جلبي فلم أعثر على ترجمته ، ولعله كان قاضياً في حاة ، ورث القضاء والعلم عن أبيه ، أو جده عصام الدين أبي الخير أحمد بن مصطفى الشهير بطاشكوبري زاده مؤلف =

وبعد أن انتهينا من حماة ، أرسل الباشا الأطواغ إلى الأمام^(١) ، ثم لحقتها القافلة في اليوم نفسه ، وما زلنا نسير في سهول فسيحة ، حتى نزلنا على جسر الرستن ، وهو جسر عظيم مبني على نهر العاصي ، وفي قربه هضبة مرتفعة شيدت فوقها قرية كبيرة تسمى الرستن ، قيل إن في جامعها ضريح المولى الشهير أبا يزيد البسطامي ، يزوره أكثر أهل هذه البلاد من العرب والترك وتبركون به . والضريح تحت قبة عالية ، وفي جوار جامعها تكية ، يأوي إليها نحو مئة من الدراويش والفقراء وأبناء السبيل ، يطعمون ويكرمون . وفي الرستن جاء من دمشق إلى لقاء مولانا الباشا كتحدا شواش دمشق ، وأمين شواشها ، وأغة جندها الإنكشاري ، وغيرهم من موظفي الديوان ، فثلوا بين يديه ، وقدموا له هدايا متنوعة ، وانضموا إلى قافلته .

ثم سرنا بعد الرستن في برار قفراء مدة ست ساعات إلى أن وصلنا مدينة حمص .
وحص مركز لواء يتبع أيلة طرابلس الشام ، وفيها أمير آلاي ورئيس جند ورئيس مئة ، ولها أرباب زعامة وتجار ، يبلغ عدد جندهم مع جند الباشا في أيام الحرب نحو

== كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، وكتاب موضوعات العلوم وغيرها ، وكان عصام الدين من أعظم علماء الترك العثمانيين ، وأفضل من ألف منهم ونظم باللغة العربية ، توفي في سنة ٩٦٨ هـ . وأذري جلبي كان على ما قاله شمس الدين سامي مؤلف قاموس الأعلام ، من الفضلاء المبرزين في عهد السلطان سليم الأول ، كان عالماً شاعراً لطيف المعشر ، سلك مسلك القضاء وما زال ينتقل في قضاء مدن شتى في الأناضول ، حتى كانت خاتمة مطافه حماة ، توفي فيها سنة ٩٩٣ هـ ، ودفن في خارجها ، وله ديوان شعر تركي سماه (نقش خيال) .

(١) إن ملوك الشرق قديماً ، ولا سيما ملوك الترك والمهند والصين ومثلهم السلاطين المماليك في مصر والشام ، على ما ذكره القلقشندي في صبح الأعشى ، كانوا يضعون على راية عظيمة ، خصلة من شعر أذناب الخيل ملونة ومدلاة ويسيرونها أمام جيشهم يسمونها (جاليش) . ثم بدل العثمانيون اسمها إلى (طوغ) على ما ذكره أحمد راسم في التاريخ العثماني المصور ، وغيروا شكلها فجعلوه رماً أو عصاً طويلة ، يربطون في رأسها أذناب الخيل الملونة بالأحمر ، ويرسلونها متهدلة ، ويجعلون في أعلاها صفائر مقتولة من الشعر الأبيض والأسود ، ثم يزينون هذه الصفائر بكرة مذهبة ، برز من وسطها هلال . وفي زمن السلاطين العثمانيين صارت هذه الأطواغ تمنح إلى ذوي المناصب العالية . وأمير اللواء كان له طوغ واحد ، وأمير الأمراء اثنان ، والوزراء ثلاثة ، والصدور العظام خمسة ، وإذا خرج السلطان إلى الحرب كان يسير أمامه سبعة أطواغ أ هـ . قلت : وكان معنى إرسال الأطواغ إلى الأمام ، وهو إعلام أهل القرى المجاورة قدوم الباشا ، ليعدوا المكان الصالح لنزول قافلته ، ويهيئوا القوت والعلف الكافيين لجنده وخيله ، والويل لمن كان يتأخر عن هذه السخرة .

ألفين ، وفيها شيخ إسلام ونقيب أشراف ومحتسب ونائب بلدة . ولوقوعها في وسط البرية ، فقد خرب الأعراب أكثر أعمالها . وقد دفن الحكماء والكهان في العصور الغابرة ، تحت أرض هذه المدينة القديمة ، طلاس ضد الحيوانات السامة كالحيات والعقارب وأمثالها ، لهذا لم يبق أثر منها ، وإن وجدت بالصدفة ولسعت الإنسان لا يكون لها أثر .

وإذا نقلت تربة حص لأبي مكان ، وألصق قطعة منها على موضع لسع الحيات والعقارب وأمثالها يزول أثرها بإذن الله ، وسمعت من أهل حص أن في أحد جوانبها مسجد ، على بابه رخامة من المرمر ، نقش عليها صورة عجينة الشكل نصفها الأعلى كالإنسان ونصفها الأسفل كالعقرب ، فإذا ألصقوا على الصورة عجينة يحصلون على مثال منها ، وبعد جفاف العجينة إذا ألصقوا قطعة منها في النار وبخروا بدخانها الرجل الملسوع من العقرب يزول عنه الألم . وقد تكرم الآغا محافظ القلعة علي بخمسين درهم منها فحفظتها عندي ، وبينما كنت ذات يوم أجول في أرمية من بلاد العجم لسع العقرب مملوكاً لي ، فأسرعت لتبخيره بدخان تلك العجينة فزال ألمه فوراً ، وسال من محل اللسع ماء أصفر .

وقلعة حص مبنية على تل اصطناعي ، تبعد نحو خمسة آلاف خطوة عن العاصي ، ليس لها خندق ، بل لها باب من الحديد متجه إلى الغرب ، وفي داخلها بيوت يأوي إليها المحافظون من الجنود ، وفيها عدد كاف من المدافع . ولما دخل مولانا مرتضى باشا إلى حص ، ضربت هذه المدافع إجلالاً له . وقلاع حص وحماة وحلب مبنية على تلال اصطناعية . ويأتي الماء إلى حص بساقية شقت من العاصي . وفي قلعة حص جامع السلطان ، وهو جامع صغير لكنه معتبر ومقصود ، لاحتوائه على مصحف سيدنا عثمان المكتوب بالخط الكوفي ، يخرجون به أيام الاستسقاء في السنين التي تشح أمطارها . وفيها مدارس وكتاتيب وتكايا وخانات وحمام واحد ، ويأتي الماء إلى هذا الحمام من ناعورة ركبت على النهر العاصي ، وينسج في حص من الحرير مناشف ومناديل وفوط وأكياس ، وفيها قبور كثير من الصحابة .

ثم غادرنا حص ، ووصلنا بعد مسير ست ساعات إلى خان يدعى (إيكى قبولى) (ذو البابين) وهو خان عظيم وسط البادية ، يستوعب عشرة آلاف رأس من الخيل ، وقد دعي ذي

الهابين لأن الغادين والصادين يدخلونه من باب ويخرجون من آخر . وفيها حصن وسط يحتوي على عدد من الجنود ، يحرسون الطريق من أشقياء الأعراب ، ثم سرنا ووجهتنا القبلة ، فوصلنا بعد سبع ساعات إلى النبك ، وهي قرية أهلة من أعمال دمشق ، ذات مياه غزيرة وكروم وبساتين وأشجار وفيها جامع ، ولو بني في جواره خان لزاد عمرانها .

ثم بعد مسير ست ساعات وصلنا إلى قلعة تدعى (خان القطيفة) ، وهو من أوقاف فاتح الين سنان باشا ، وقد وقف له نحو سبعين قرية ، والخان عظيم جداً لو دخلته قافلة مؤلفة من عشرة آلاف رجل بخيلها وجمالها لوسعها وزاد ، ففيه كثير من الغرف والاصطبلات الخاصة بالخيول ، وأخرى بالجمال ، ومقاصير للحريم ، ومستودعات للمؤونة ، وفرن وحمام وحوانيت للباعة ، ودائرة خاصة بالمتولي ، ودوائر خاصة بالباشاوات . وكل ذلك مشيد بالحجر ، وفي وسطه حوض ماء جسيم ، ويقدم فيه كل ليلة للمسافرين عشاء من حساء القمح المطبوخ باللحم ، هذا غير الخبز والشمع وغير علف الدواب . وقد أولم متولي الخان واسمه مصطفى جلي بن قاسم آغا ، وليمة عظيمة لمولانا مرتضى باشا ، والحاصل أن خيرات هذا الخان وافرة ومشهورة .

ثم سرنا إلى القبلة فوصلنا بعد مسير ست ساعات إلى قرية (حرستا) ، وهي قرية عامرة فيها ثلاثمائة بيت ، وكثير من الحدائق والكروم وجامع ، وهنا خرج كل أعيان دمشق وكبرائها لملاقاة الباشا ، يحملون إليه أنواع الهدايا من مأكول ومشروب وملبوس وغيرها كل بحسبه ، وقد قبل الباشا كل ذلك منهم ، وكان من جللتها مئة وخمسون فرساً من عتاق الخيل ، تكرم حفظه الله ووزعها على أركان حاشيته ، فأصابني منها الفرس المرسجة ، وهي هدية ابن الناشف^(١) ، وفي صباح اليوم الثاني جاءته جنود دمشق ، المؤلفة

(١) يظهر أن تقديم الهدايا للولاة عادة قديمة ، فقد قال الأستاذ الكرد علي في خطط الشام ٢٨٣/٢ : « وما يظهر ذهنية الدولة في تلك الأيام أن الوالي يجب أن تهدي إليه الخيول والطنافس والأعلاق ، وربما الدنانير والدرهم من غير تكبر . وما ندري كيف تكون الرشوة ، إن لم تكن هذه هي الرشوة بعينها » ا هـ . على أن هذه العادة لم تكن خاصة بالعثمانيين ، بل سبقهم إليها العباسيون وغيرهم أيضاً . قال جرّجي زيدان في تاريخ التمدن الإسلامي ٧١/٥ : « وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي ، فإذا تولى الأمير على بلد ، فأول ما يدخلها ، يبعث أهلها إليه بالهدايا ، من الأموال والجواري والدواب والثياب ، وهو يبعث إلى الوزير الذي ولاه أو الخليفة ، بالأموال بسبيل الهدية أيضاً ، وإذا طال مقامه ، أصبحت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة ، فإذا أمسكها عدواً إمساكه تمرداً ، عن ابن الأثير ج ٧ و ٦ » .

من الانكشارية والقبوقول والسباهية واليرلية ، توج كالبحر الزاخر ، وكلها غارق في الحديد والزرر ، فوقفت للسلام على جانبي الطريق صفوفاً متراسة ، بعضها وراء بعض ، وكانت راياتهم المتموجة ، ورماحهم المشرعة ، وسيوفهم المشهرة ، ودروعهم وخوذهم وتروسهم وبنادقهم ذات الفتائل تأخذ بالأبصار ، وأمامهم أغواتهم وضباطهم وشواشهم ، بأزيائهم وعدتهم الفاخرة ، واصطف مثلهم أمير الحاج سنان باشا^(١) بجندته وحشمه ، وكذلك عيسى وموسى أغا التركمانين^(٢) وابن قاسم أغا^(٣) وابن عبيد السلام^(٤)

(١) ذكره المحيي قال : سنان باشا الدورلي بن محمود ، نزيل دمشق ، ومتولي الجامع الأموي بها ، أمير الأمراء ، وصدر أعيان الشام في وقته ، أصله من دورلي من ضواحي قرمان ، ورد إلى دمشق في سنة ١٠٢٣ هـ في خدمة أحد الوزراء المعين نائباً للشام ، وبعدما عزل مخدومه أقام هو بدمشق ، وصار من جندها ، وما زال يرقى حتى صار أمير الحاج ، فحج بالناس سنتين سنة ١٠٥٩ هـ وسنة ١٠٦٠ هـ ، ثم عزل وبقى بحاله ، إلى أن مات منكوباً سنة ١٠٧٦ هـ .

(٢) ذكر المحيي أحدهما موسى ، قال : الأمير موسى بن محمد ، الشهير بابن تركان حسن الدمشقي الشجاع الباسل المشهور ، أمير الحاج ، وصاحب الوقعة المشهورة مع الأمير حمد بن رشيد أمير حوران ، تنقلت به مناصب الجند بالشام حتى صار باش جاويز ، ثم صار كتحدا العسكر ، وأمر بالسفر إلى محاصرة قنبدية في سنة ١٠٦٧ هـ ، واشتهر بالفروسية ، ثم وجهت إليه الإمارة ببلاد عجلون ، وكان له حسن ملائمة ومعاشرة مع البدو ، حتى صار لا ينطق إلا بلسانهم ، ولا يتزيا إلا بزيجهم ، ثم لما خرج لتأديب ابن رشيد الذي نهب ركب الحاج ، قتل في المعركة ونهزم عسكره وذلك في سنة ١٠٨١ هـ .

(٣) قلت لعله هذا الذي ذكره المحيي ، قال : مصطفى بن قاسم بن عبد المنان ، متولي أوقاف السنانية بالشام ، الدمشقي كان واحد الوقت ، في المحاورة وسرعة البداة والنكتة والنادرة ، واتفق أنه في قدمة مرتضى باشا الوزير ومن معه من العسكر ، أنه ورد إلى دمشق من أهالي حلب رجل يقال له عسكر ، وكان يعين للموسيقى ، ويتردد إلى الأعيان للاستجداء ، فكان يخاطبه إذا دخل عليه ، أتانا مرتضى الجبار بعسكر جرار ، توفي سنة ١٠٧٥ هـ .

(٤) ذكره المحيي ، ونقلنا عنه في مقدمة هذه الرحلة حديث الفتنة التي أوقدها ، ضد مرتضى باشا لما جاء ثانية إلى دمشق في سنة ١٠٦٧ هـ . قال عنه إنه كان مرعشي المولد ، ونزيل دمشق ، وأحد أعيان الجند بالشام ، كان أميراً للحاج ، ثم صار كتحدا الجند ، ثم يباباشي (٤) ، وكبرت دولته ، وانحصرت فيه أمور الشام جميعاً . وبعد الفتنة ورد الأمر السلطاني بقتله ورفقائه ، فقتلوا وضبطت أموالهم وأملأهم في سنة ١٠٦٩ هـ .

ومحمد أفندي الناشف^(١) وابن كيوان^(٢) ودفتردار الشام وكتبخدا الشام وأمين الشواش ، واصطفت أيضاً سادات دمشق ، ووجهاءها وشرفاءها وعلماءها ، ووراء كل منهم خدمه وحشمه ، وجميعهم راكبون عتاق الخيول العربية ، المعروفة أحسابها وأنسابها ، وعليها أجود السروج واللجم ، والركب الدمشقية وأثمنها ، ومترينون بأفخر الحلل والأسلحة .

تم شرعت جنود الباشا وخدمه وحشمه تمر بقضها وقضيضها ، وكان عددها يربى على الألفين ، منها جنود التفنكجية والدالاتية والمتطوعة ، والقواصون والبوابون وأرباب المشاعل والسراجون ، إلخ ... وأمين المطبخ ووكيل الخرج وتوابعها ، كل صنف منها بجببه وسراويله ، وأقييته وقلائسه أو عمامه ، أو طرايطيره الخاصة ذات الأزياء والألوان والأبعاد المختلفة ، وهم مدججون بالرماح والسيوف ، أو بالقسي والسهم ، أو بالفؤوس والمقارع أو العصي الطويلة ، ومنهم من كان يسوق الخيل والبغال التي تحمل العتاد

(١) ذكره المحبي قال : ابن الناشف محمد بن محمود ، الشهير بابن الناشف الدمشقي ، أحد الأعيان الذين رتوا بجدهم ، وأثروا ثروة طائلة ، وصار كاتباً للجند الشامي ، وسافر الأسفار الكثيرة ، ولما قدم الوزير أحمد باشا نائب الشام المعروف بالكوجك ، وعين لمقاتلة الأمير فخر الدين بن معن ، قربه إليه واستصحبه معه ، وأحل قرى ومزارع وتجاراً كثيرة فأخذها وتصرف بها ، وجمع من الكتب النفيسة ، والخيول والامتعة والأملاك ، مالا يمكن وصفه ، وملك كثيراً من المالك والجواري ، وأهدى إلى كبراء الدولة الهدايا العظيمة ، واشتهر عندهم ، وتوفي في سنة ١٠٧٥ هـ . قلت : وهذا الوصف يناسب ما ذكره الجلي عن هديته التي كانت فرساً مسرجة . وقد صار محمد أفندي الناشف بعد حين باشا . ولا يزال له في دمشق أعقاب يسمون بني الناشف ، يعدون بالعشرات يقطنون في حي الخطاب ، قرب ضريح جدهم في زقاق يدعى زقاق الناشف ، ويقطن أكبرهم سناً في دار الباشا الأصلية ، بعد أن صغرت وتغيرت معالمها ، وكل منهم يرتزق بنزر قليل بما يعيبه من أوقاف الباشا التي تجزأت وتبعثرت كثيراً .

(٢) لم يذكر المحبي سوى واحداً منهم ، قال : ابن كيوان ، إبراهيم بن عثمان المعروف بابن كيوان ، أحد أعيان دمشق المشهورين ، كان له شأن عال عند أركان الدولة ، وله خيرات وصدقات دارة . واشتهر بابن كيوان ، لأن والده كان ربيب كيوان الطاغية المشهور ، وصار أولاً من الجند ، ثم تفرغ عما بيده لأخيه خليل ، وانعزل عن الناس ، وتوفي في ١٢ جمادي الأول سنة ١٠٧٥ هـ ، وقال المرادي في سلك الدرر في ترجمة أحمد الكيواني المتوفى في سنة ١١٧٣ هـ : وبنو كيوان بدمشق ، طائفة خرج منها أمراء وأعيان وأجناد ، ونسبتهم إلى كيوان بن عبد الله أحد كبراء أجناد الشام ، وكان ظالماً طاغياً . قلت : ولا تزال أعقاب هذه الطائفة في دمشق متوسطو الحال في الجملة .

والذخائر ، والأمتعة وأدوات المطبخ ، وفي رقبائها سلاسل وجلجل ضخمة لها قرقرة ودوي ، وكان يقود كل صنف منها رؤوساؤه وأمناءه وضباطه ، ويسير كل صف من الخيالة أو المشاة ، في تراص واتساق تامين . وكان من بين هذا الجند الذي اصطف سرية مؤلفة من رجال ذوي شعور مضفرة أرخوها على رقابهم تحت قلائسهم ، وتمنطقوا بمناطق وخناجر فضية ، وأمسكوا بعصى طويلة أو دبابيس مسننة محددة ، وأصل هؤلاء من ممالك الشركس والأبازة والكرج .

ثم اعتلى الباشا حصاناً مطهماً يرفل بأهلي الحلل ، وكان هو لابساً فرو من الخمل الفاخر ، والسمور العال المزين بالأزهار المرصعة ، وسار تتقدمه أطواغه وأعلامه الخاصة به ، ووراءها تسعة من الجرد الجنائب ، ملبسة أفخر السروج والغواشي المزركشة ، يجرها سواس خاصون ، بقيادة الآغا أمير الاصطبل ، وهي تتهادى كالعرائس ، وكان يواكب الباشا غير ماعدناه من الجند أربعمئة فارس ، من رجال دائرته ، كأمناء سره وموظفيه ، وأعوانه الداخلين والخارجيين ، والشطار والمطرجية وغيرهم^(١) ، وظل سائراً والمهترخانة

(١) لاغربة في ضخامة هذا العدد والأسماء ، فقد جاء في التاريخ العثماني لمؤلفه أحمد راسم ، نقلاً عن كتاب نتائج الوقوعات : أن دائرة الوزير المتوسط الحال في تلك العصور كانت تتألف :

(أولاً) من الكتخدا وهو كأمين السر العام في أيامنا ، ومن كاتب الكتخدا وكتاب الخزينة ، وكتخدا الحريم ، وأتوات الداخل ، وعددهم أربعة وعشرون ، يرأسهم ضابط يدعى سلحدار آغا ، يلازم الباشا دائماً . وهناك آفة السلام وكتخدا الحجاب ، وهما موظفان بأمور التشريفات ، ثم أمناء الخزينة والختم والدواة ، وآفة القفطان وآفة الثياب ، والآغا الجوخدار ، وقائد المهترخانة ، هؤلاء يكونون من ممالك الباشا الخاصين وموضع ثقته . ثم وكيل الخرج ، وآفة المفتاح ، ورؤساء الأطواغ ، وأمناء التبغ والقهوة والأدوية والموائد ، ورئيس الاصطبل ، إلى آخر ما هنالك من أرباب الوظائف ، على أن لكل منهم ثلاثة من الحواشي ، مما يجعل عدد هذا الجمع ٨٠ - ١٠٠ شخص أو يزيدون .

(ثانياً) القواصون المرافقون ، وأرباب النوبة (المهترخانة) وسعاة البريد ، والسواس ، والعكامون ، وأرباب المشاعل والطهارة إلخ .. ، مما لا تتم الدائرة بدونهم ، هؤلاء لا يقلون عن ١٥٠ شخصاً . وكان في دائرة كل وزير ٤٠ - ٥٠ ساعي بريد ، يسبقون تاتار ، ينتخبون من ذوي الكفاءة في سوق الحيل وإيصال الرسائل ، لأن البريد لم يكن قد أسس على نسق أيامنا الحاضرة . أما المهترخانة فقد كانت تتألف من تسع فئات ، وكل فئة من تسعة رجال ، لكل من الصنوج والمزامير والنقارات والأنواق والبطول ، يقود كل فئة منها رئيس ، وفوق هؤلاء تسعة شواش ، يقود الجميع واحد ، يدعى رئيس الشواش الخاص ، له وظائف أخرى في استتباب النظام في دائرة الوزير ، فكان مجموع رجال المهترخانة ستون شخصاً ، وكان الشواش يحملون بأيديهم شوكانات ، وهي =

الخاصة بسعاداته ، تعزف أمامه حتى دخل بهذه الفخفخة والأهبة العظيبتين إلى دمشق ، وكان ذلك في اليوم العاشر من شهر شوال سنة ١٥٠٨ هـ وحل في قصر منجك باشا ، واستقمت معه مدة^(١) .

= عصي طويلة ، رؤوسها ذات شعب وسنان فضية ، علق حولها سلاسل وجلجل ورائحة . وكان الطبالبون يعلقون طبوهم بأكتافهم ، إلا الطبل العظيم الذي اسمه (كوس) ، فإنه كان يحمله أربعة رجال ، وكانت المهترخانة تعزف في دائرة الوزراء مرتين في كل يوم ، بعد صلاة العصر والعشاء . وكان للمهترخانات أنغام وترانيم شجية تطرب أو تهيج السامعين .
(ثالثاً) كان لكل من أغوات الداخل أربعة أو خمسة من الخدم والسواس والأتباع ، وهؤلاء يبلغ عددهم ٨٠ - ١٠٠ .

(رابعاً) كان في دائرة كل وزير رئيس تفنكجية ، وهم مشاة ، ورئيس الدالاتية ، وهم فرسان ، وهؤلاء يمثّلون الشرطة والدرك في أيامنا ، وعددهم في معية كل من الرئيسين ١٠٠ - ١٥٠ ، وكان لولاء الأيالات العظمى كحلب والشام وأرض الروم عدة رؤساء على التفنكجية والدالاتية ، يقودهم ضابط كبير يدعى سرچشمة .

(١) ذكر الهبي منجك باشا وقصره ، قال : الأمير محمد بن منجك ، نبغ في الدوحة المنجكية ، كان أميراً جليل القدر ، إلا أنه مغال في الكبر والتهب ، بذىء اللسان كثير الوقعة في الناس ، كان أولاً من أحاد الجند الشامي ، ثم زعيماً ، ثم متولياً على عمارة السلطان سليمان بالميدان الأخضر ، ثم على أوقاف عائلتهم . وقد عمر العمارات الفالقة ، منها القصر المعروف به في الوادي الأخضر أحد منتزهات دمشق ، وانتهت عمارته في سنة ١٠١١ هـ ، وفيه يقول الشيخ عبد الرحمن الرمادي الملقب ، مؤرخاً ببناءه ، ومخاطباً بانيه ، بقوله :

بنيت قصراً أم الجنـسان جرت من تحتها النهر فوقه الغرف
جاورت في سبكه السباك مع الجوزا ولم ينته له طرف

وكان الأمير منجك ابن المترجم وهب القصر المذكور لأحمد باشا المعروف بالكوجك ، لما كان كافل دمشق ، فأدرجه الكوجك في وقفه ، وهو الآن من جملة وقفه ، غير أنه لمبت به أيدي الحادثات ، فذهبت بروقه ، وكانت وفاة المترجم سنة ١٠٣٢ هـ ، ١ هـ . قلت : ويظن بعض المعمرين في دمشق ، أن هذا القصر كان مبنياً في مكان الشكنة الحميدية ، ولا يزال البستان الذي شيدت فيه تلك الشكنة ، يدعى بستان القصر .
[انتهاء رحلة أوليا جلبي الأولى]

جولتنا الأثرية

كيليكية

إن السائح القادم من الأناضول إلى الشام يصل بادئ ذي بدء إلى بلاد كيليكية ، فينفذ إليها من مضيق في جبل (بلغار طاغ) أحد أعضاء جبال طوروس ، يدعى مضيق (كولك) أو باب كيليكية Pyles cilicienne ، وهو مضيق حرج ، كان له في كل العصور مكانة عظيمة من وجهتي سوق الجيش والتجارة . مرت منه في العصور الغابرة جحافل الفاتحين ، أمثال الفراعنة والاسكندر والأكسرة والقيصرة ، ثم الأمويين والعباسيين والمجندانيين من المسلمين ، والصليبيين من الإفرنج ، وكان آخر المارين إبراهيم باشا المصري ، الذي بنى فيه أماكن للاستحكام ما برحت ماثلة . وثمة قلعة تشرف على هذا المضيق وتحرسه ، تعلو عن سطح البحر ١٦٠٠ متر ، هي الآن خراب ، وعلى طرفيه صخور شاهقة جرداء ، نبتت بينها ونمت أشجار عظيمة باسقة ، من الصنوبر والشوح . ومن مر بهذا المضيق الشاعر العربي ، الملك الضليل امرؤ القيس بن حجر الكندي ، دعاه بالدرب ، وإياه عنى في قوله :

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أننا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا

وكيليكية مجاورة لبلاد الشام ، بل إن بعض الجغرافيين يعدها جزءاً من الشام التي يوصلون حدها الغربي إلى جبال طوروس ، وقد سبق للعرب أن أقاموا في كيليكية ، ورابطوا في مدنها مدة مديدة ، وسموها (ثغور الشام) . قال ياقوت الحموي في كتابه المشترك « الثغور هو اسم لكل موضع يكون في وجه العدو ، فثغور الشام كانت أذنة وطرسوس وما معها ، فاستولى عليها الأرمن ، وصار يقال لها بلاد الأرمن اهـ » .

وسبق للعرب أيضاً في عهد المماليك أن غزوها ، وداسوها مراراً لما كانت بيد الأرمن ،
لذا رأيت أن أبحث بإيجاز عن حالتها الغابرة الحاضرة ، لشدة تعلقها بجلالتي بلاد الشام .

فكيليكية في عهدنا من أملاك الجمهورية التركية ، تشمل ولاية آذنة وتحتها من
الغرب جبال طوروس ، ومن الشمال أنتي طوروس (طوروس المناوح) ، ومن الشرق
آمانوس (كارو طاغ = جبل اللكام) ، ومن الجنوب البحر المتوسط . وفيها سهل شاسع
يسميه الترك لانخفاضه (جقوراوه) أي السهل المنخفض ، وأباه العرب فيما مضى مرج
الديباج أو مرج المصيصة ، وهو يعد من أخصب سهول بلاد الترك وأعظمها إنتاجاً ،
تستعمل فيه الآلات والأساليب الزراعية الحديثة بكثرة ، وتوجد فيه من الزروع الأعداء
القطن والحبوب والسمسم أي جودة ، لوفرة حره وغزارة ندها وأخصب تربته ، لولا أنه
وبيل الهواء ، لامتداد المستنقعات فيه من فيضان الأنهر التي تحتازه . وفي جبال طوروس
قمم شامخة تعلو نحو ٣٥٥٠ متراً ، وهضاب ونجاد عالية ذات مناظر ومراتع جميلة . وفيها
حراج الصنوبر والشوح المنقطعة النظير ، ببسوقها والتفافها وطيب أريجها . ولشدة الحر
والوبالة في مدن كيليكية ، يلجأ سكانها للاصطياف في هذه الجبال . وفي سهل
(جقوراوه) أنهار عديدة أجملها شأناً من الشرق إلى الغرب نهر (دلي شاي) وهو صغير
يخرج من جبل اللكام ، ويصب في شمالي بياس ، ونهر (جيحان) وهو أكبر أنهار كيليكية
يخرج في الشمال من قرب بلدة (ابليستين = البستان) ويمر بمرعش ، ثم بما بين جبال
طوروس وآمانوس ، ويمتاز جقوراوه ثم يصب في البحر بإزاء المصيصة . وفي معجم
البلدان لياقوت : ان عليه عند المصيصة قنطرة من حجارة رومية عجيبة قديمة عريضة .
قال أبو الطيب المتنبي :

سريت إلى جيحان من أرض آمد ثلاثاً لقد أدناك ركضاً وأبعدا

ونهر (سيحان) من أعالي نجد كبادوكية (ولاية سيواس الحالية) ويسير محاذياً
السفح الشرقي لجبال أنتي طوروس ، ماراً بمدينة آذنة ، إلى أن يصب في جنوبي طرسوس .
قال ياقوت في معجمه : وإياه عنى المتنبي في مدح سيف الدولة :

أخو غزوات ما تغب سيوفه رقايمهم إلا وسيحان جامد

يريد أنه لا يترك الغزو إلا في شدة البرد إن جمد سيحان . ونهر (طرسوس) يخرج من سفح جبل (بلغارطاغ) وبعد أن يمر بطرسوس يصب قرب مصب سيحان .

تاريخ كيليكية : سكن كيليكية في العصور الأولى شعب من الآراميين ، ثم خلفهم الفينيقيون ، ثم الآشوريون ، ثم الكلدانيون ، ثم الفرس . وبعد أن هزم اسكندر المقدوني داريوس ملك الفرس ، في معركة أيسوس ، كثر سواد اليونانيين في كيليكية ، وزادت مستعمراتهم ، وصارت هذه الكورة من ممالك الاسكندر وأخلافه السلوقيين ، لكن أهل كيليكية اهتبلوا الغرر في فساد إدارة هؤلاء الأخلاف ، فثاروا واستقلوا ، ثم اندفعوا نحو الملاحة والقرصنة ، اللتين اشتهروا بها في التاريخ . وقد استفزت أعمالهم غضب الرومانيين ، فجاءوا في عهد بومبيوس ، وحاربوهم وأخضعوهم ، وجعلوا كيليكية إحدى ولاياتهم . وكان شيشرون الخطيب المشهور من جملة ولائها . وبعد انقسام المملكة الرومانية ، دخلت كيليكية في حوزة قياصرة القسطنطينية ، وصارت تسعد وتشقى حسب الأحوال التي كانت تتقلب بهم ، إلى أن انقرضت شعوبها القديمة بالكلية ، وخلفهم شعوب مختلفة ، أتوا من بلاد الشرق ، اختلط بعضهم في بعض ، ولم يعد لهم أرومة معروفة ، وجاء العرب المسلمون في القرن الأول الهجري ، فاكسحوا بلاد كيليكية ، وقطنوها ورموا مدنها وحصونها ، واتخذوها ثغوراً ، وكانت جيوشهم في غزوات الصائفة تجتاز مضيق كولك وتوغل في بلاد الروم (الأناضول) بينا أساطيلهم كانت تمخر في سواحلها وتسود . وفي القرن الرابع اغتم البيزنطيون فرصة تنازع الخلفاء العباسيين في بغداد والفاطميين في مصر ، فجاء قيصرهم الأروع نقفور الفقاش واسمه عند الإفرنج Nicephore phocas واسترد كيليكية بأسرها ، كما انتصر على المسلمين في غاراته على بلاد الشام الشمالية ، مما سوف نذكره في حديث كل منها . وفي أوائل القرن الخامس بدأت جموع مهاجري الأرمن تتوارد إلى كيليكية من شرقي الأناضول وشماله ، وتحتلها وتؤسس إمارات مستقلة فيها .

والأرمن من الأمم العريقة في القدم ، يزعم مؤرخوهم أن أصلهم من الكلدانيين ، هاجر جددهم الأكبر (هايكوس) من بلاد بابل إلى حول جبل آرارت سنة ٢١٠٧ ق . م وأسس فيه دولة دامت عدة قرون ، وزعم آخرون أن الأرمن من الشعوب الهندية

الأوروبية ، لأن لغتهم ومخارج حروفهم آرية غير سامية ، وأنهم جاؤوا من سهول روسية الجنوبية قبل ثلاثة عشر قرناً من الميلاد ، واجتازوا البوسفور إلى آسية الصغرى فسكنوا البقاع المحيطة بجبل آارات ، ودعوها (أرمينية الكبرى) ، واختلطوا بالشعوب السامية القديمة ، حتى صاروا مزيجاً من الجنس السامي والجنس الآري (الهندي الأوروبي) . وقد كان للأرمن في العصور الأولى فيما قيل شوكة وحضارة غير يسيرتين ، وللغتهم آداب كاملة ، وأنشؤوا دولاً عديدة ، بعضها كان يتلو بعضاً ، وتسعد وتشقى تبعاً لهمة ملوكها . على أن هذه الهمة كانت ضئيلة ، والشقاء كان غالباً . وتاريخ الأرمن في العصور الأولى والمتوسطة طافح بأخبار الحروب والفتن ، التي كانت تحدث تارة بينهم وبين الأمم المجاورة كالآشوريين والفرس والمقدونيين والرومانيين والبيزنطيين ، وتارة بين هذه الأمم يكون فيها الأرمن عرضة لتناحر المتحاربين . ولغلبة الخور وسوء التدبير في قادتهم ، ودوام التنازع في عامتهم كانت الأمم المهاجمة في الغالب تنال منهم وتقتطع من بلادهم . وقد استولى الأرمن مرة على بلاد الشام في عهد ملكهم الأكبر ديكران سنة ٨٣ ق م ، وأزالوا دولة السلوقيين عنها ، ولكن حكمهم لم يدم أكثر من أربع عشرة سنة ، فأخرجهم الرومانيون منها بعد أن كانوا غلبهم في عقر دارهم وقد اضطرت تلك الحروب الأرمن أن يجلو فريق منهم إلى أقطار مختلفة ويتشتتوا . ولما جاء المسلمون اكتسحوا بلاد أرمينية الكبرى وكان البيزنطيون ينازعونهم لأجلها وينال الأرمن المضض من الفريقين . دام هذا الحال وازداد لما ظهر الترك السلجوقيون ، وامتدوا نحو الغرب ، وزاحموا الأرمن في بلادهم ، فاضطر هؤلاء أن يجلوا مرة ثانية ، فوفدت بعض جموعهم إلى بلاد كيليكية التي كانت شبه الخالية من السكان ، فاحتلوها وأطلقوا عليها اسم (أرمينية الصغرى) ، وأسسوا فيها إمارات صغيرة إقطاعية ، في حماية قياصرة الروم ، برزت منها بعد حين إمارة آل روبين ، واستظهرت على الجميع وكانت عاصمتها (سيس) . اشتهر منها ليون الأول ، وابنه طوروس الثاني المعروف عند العرب بابن ليون أو ابن لأون ، وهذا ماحمل مؤرخي العرب على تسمية كيليكية ببلاد ابن ليون . وليون الثاني الذي خلع حماية قياصرة الروم البيزنطيين ، واعتز بالصليبيين فلقبوه بالملك ، وازدهرت كيليكية في عهده ، فرقت تجارتها وزادت صادراتها ، وعمت الفنون بين الأرمن لاسيما فن البناء ، وزهت الآداب ، قال عنه ابن الأثير وابن الوردي وأبو الفداء ما ملخصه : أنه كان في آخر القرن السادس وأوائل السابع للهجرة

صاحب الدروب المجاورة لحلب ، وكان نور الدين محمود استخدمه ، وأقطع له في الشام ، وكان يعسكر معه وكان جريئاً على صاحب القسطنطينية ، وكانت بينها من أجل المصيبة وطرسوس وغيرها حروب ، وكانت بلاده حصينة كلها حصون منيعة ، والدخول إليها صعب ، لأنها مضائق وجبال وعرة . وقد ذكر هؤلاء حديث غدره بالتركان الذين استجلبهم ، وسمح لهم بالرعي في مروج بلاده ، ثم فتنك بهم ، فبعث صلاح الدين الأيوبي يثأر منه ، وبعد أن دام الملك في أسرة رويين زهاء قرنين ونصف ، انتقل بعد إلى أسرة هيتوم ، ودام زهاء قرن ، ثم إلى أسرة لوسنيان الإفرنجية ، ودام نصف قرن . وكان هؤلاء الملوك خلال هذه القرون لا ينفكون عن مناوأة المسلمين ، إما وحدهم ، أو مع جيوش الصليبيين والتتار ، في غاراتهم على بلاد المسلمين وتدميرها ، خدموا الصليبيين والتتار خدمات جلى في حصار أنطاكية وحلب ودمشق وغيرها ، يبيرونهم ويرشدونهم إلى المسالك ، والعورات التي كانوا مطلعين عليها بحكم المجاورة والاتصال ، ويقدمون لهم أرباب الصناعات الحربية التي كانوا يارعين بها ، كبناء القلاع وعارفي قواعد حصارها والدفاع عنها ، والنقابين والنفاطين ورماة المنجنيق ، وغيرهم من مستعملي آلات الهدم والحرق . لذلك بعد أن انتهى المسلمون من أمر الصليبيين شرعوا منذ عهد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ومن خلفه من السلاطين المماليك يقابلونهم بالمثل ، ويغزونهم ويدوخون بلادهم ، وقد عدت التواريخ من هذه الغزوات بين سني ٦٦٤ و٧٧٦ سبع عشرة غزوة ، خربت بها بلاد كيليكية ، وساء حال سكانها الأرمن ، إلى أن أسرليون السادس آخر ملوكهم في سنة ٧٧٦ هـ ، في عهد الملك الأشرف شعبان ، ونقل إلى مصر وسجن ، ثم سمح له بالسفر إلى أوروبا فمات فيها ، وانقرضت به دولة الأرمن إلى اليوم .

وبعد أن خلت كيليكية من دولة الأرمن ، استلمها أحمد بن رمضان أمير قبائل التركان التي كانت متوطنة في سهل العمق منذ حدود سنة ٦٢٢ هـ ، ولما استفحل أمره وحاول الاستقلال فيها ، جهزت عليه دولة المماليك المصرية سنة ٧٨٥ هـ حملة وحاربتة وأخضعته ، وبقيت الإمارة على بلاد كيليكية فيه وفي أعقابيه وأنسبائه آل رمضان مئة وتسعون سنة ، إلى أن جاء السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٢ هـ قاصداً فتح الشام ومصر فسلموه البلاد ، لكن سلاطين آل عثمان من بعده ، ظلوا يعينون من هذه الأسرة الرمضانية ولادة على كيليكية إلى سنة ٢٨٠ هـ ، التي جهزت الدولة جيشاً أخضع هؤلاء وغيرهم من

زعماء التركمان والكرد والمستبدين في سهول آذنة وجبالها ، وقضت على زعامتهم وفوضو حكمهم . وفي سنة ١٢٨٤ هـ تألفت ولاية آذنة بعد أن كان ثلاثها من الشرق تابعاً ولاية حلب ، وثلاثها الغربي ولاية قونية .

أما الأرمن فقد بقوا بعد أن استولى العثمانيون على بلادهم ، في أرمينية الكبرى والصغرى آمنين هادئين في الجملة ، خلال القرون الأخيرة ، إلى أن جاءهم في أوائل هذا القرن الدعاة من الروس والإنكليز ، يحرضونهم على القيام لاستعادة ملكهم ويعيدونهم بالمعونة ، فجاهروا في سنة ١٣١٣ هـ بمعضية الدولة في شرقي الأناضول وجنوبه ، فعاقبتهم يومئذ شر عقاب ، ثم وثبوا عليها في كيليكية عقيب إعلان الدستور فلم يفلحوا بطائل ، ثم وثبوا خلال الحرب العامة في شرقي الأناضول وثبة كبرى وحاربوها مع الروس ، ضارين أفقية الجيش العثماني في تراجعه ، فأجلت الدولة جميعهم من مواطنهم ، وأبعدتهم إلى عدوتي الفرات وأنحاء الموصل ، وشرقي القطر الشامي ، فهلك عدد عظيم منهم يقدرونه بـ ١٠٠٠٠٠ . وقد كان عدد الأرمن في البلاد العثمانية قبل الحرب العامة يقدر بـ ١٠٠٠٠٠٠ ونصف ، مبعثرين فيها بين جوع الترك والكرد ، ولما احتل الفرنسيون بلاد كيليكية عقيب انتهاء الحرب العامة سنة ١٣٣٧ هـ ، خدم الأرمن الإفرنسيين ، وألفوا كتائب خاصة دعوها كتائب الانتقام ، انضمت إلى الجيش الإفرنسي في حروبه تجاه الترك المدافعين عن كيليكية ، وأحدثوا في حلب فتنة كبيرة ذكرها المؤرخان كامل الغزي في تاريخ حلب (٧١٤/٣) ، ومحمد الكرد علي في خطط الشام (١٦٧/٣) ، وأحدثوا مثلها في ذلك الحين في الأسكندرونة . ولما اضطروا الإفرنسيون لإخلاء كيليكية وإعادة أهلها إلى الترك ، لم يشاءوا البقاء ، فجلوا منها سنة ١٣٤٠ هـ عن بكرة أبيهم ، وانتقلوا إلى أنحاء الأسكندرونة وحلب وبيروت وغيرها من مدن الشام وقطنوا فيها .

وبعد أن قاسوا من هذا الجلاء المصير ، تمكنوا بجهدهم ومضاء عزمهم ، ومعاونة الأمم والدول الغربية لهم ، من النهوض والوصول إلى حالة حسنة في الجملة ، والأرمن يتنازرون عن بقية الشعوب الشرقية بالنباهة ، وحب الكسب والتجارة ، والرغبة في العلم ، وإتقان الصناعات خاصة ما كان منها جيلاً ودقيقاً ، يهاجرون في سبيل الارتزاق ، وهم أرباب جد وصبر واقتصاد في المعيشة ، يزاحون أهل البلاد التي يهبطونها في مختلف الحرف ، مهما

علا شأنها أو تفه ، ويعيشون أينما حلوا بالاجتماع والتعاقد ، وهم وإن لم يخل الخصام بين أفرادهم وأسره ، والتناحر بين أحزابهم السياسية يتضامنون عند الطوارئ تجاه الأغيار ، وكثيراً ما يتجاوزون حد الدفاع . وقد كان الأرمن في العصور القديمة والمتوسطة يتطوعون في جيوش الرومان والفرس والبيزنطيين ، وحتى العرب لقاء أجور ، وكانت منهم أرباب الصناعات الحربية التي ذكرناها ، وما برح الجيش الإفرنسي في بلاد الشام يستخدم من متطوعتهم عدداً وفيراً ، أبلى بعضهم في إطفاء الثورة الشامية الكبرى سنة ١٣٤٤ هـ أكبر بلاء . وعدد سكان كيليكية ثلاثمائة ألف ، جلهم من الترك والتركان ، وقليلهم من الكرد والشركس ، والعرب النصيرية الذين أصلهم من جبال أنطاكية واللاذقية . وكان سواد الأرمن فيها إلى عقيب الحرب العامة نحو الخمس ، وقد قدمنا أنهم غادروها برمتهم في سنة ١٣٤٠ هـ .

وصف بلاد كيليكية : وقد اشتهرت بلاد كيليكية برقي زراعتها ووفرة غلاتها وصادراتها ، وقوة الحركة التجارية في ثغرها الوحيد (مرسين) ، وفي قاعدتها أذنة . ومن أشهر بلدانها أذنة وطرسوس ومرسين وسميس وأياس وياس وغيرها . و (أذنة) قاعدة ولاية أذنة وتعد من أمهات مدن الأناضول ، تحيط بها البساتين ، وتمتد أحيائها على ضفتي نهر سيحان ، عدد سكانها في يومنا ٧٢٠٠٠ جميعهم من المسلمين الترك والعرب والكرد ، ولها على هذا النهر جسر حجري روماني عظيم ، فيه ست عشرة قنطرة ، وفيها مساجد ومدارس عديدة ، ومعامل لحلج القطن ، وهي بندر كبير لتجارة القطن وغيره من المحاصيل والأمتعة ، لكن هواءها رديء لوقوعها في السهل المنخفض الذي وصفناه . قال ياقوت في معجم البلدان : أذنة بلد من الثغور ، قرب المصيصة مشهور ، بنيت سنة ١٤٢ هـ [ولعل المراد أصلحت ، لأنها كانت قبل ذلك] ، ثم بنى الرشيد القصر الذي عند أذنة قريب من جسرهما على سيحان ، في حياة أبيه المهدي سنة ١٦٥ هـ فلما كانت سنة ١٩٣ هـ بنى أبو سليم فرج الخادم أذنة ، وأحكم بناءها وحصنها ، وندب إليها رجالاً من أهل خراسان ، وذلك بأمر محمد الأمين بن الرشيد . قال أحمد بن الطيب : رحلنا من المصيصة إلى أذنة في مرج وقرى متدانية جداً ، وعمارات كثيرة ، وبين المنزلين أربعة فراسخ ، ولأذنة نهر يقال له سيحان ، وعليه قنطرة من حجارة عجيبة ، بين المدينة وبين حصن مما يلي

المصيصة ، وهو شبيه بالربض ، والقنطرة معقودة عليه على طاق واحد ، قال : ولأذنة ثمانية أبواب وسور وخندق ، وينسب إليها جماعة من أهل العلم . قلت : ولم يبق الآن من أبوابها وأسوارها المذكورة أثر . و (طرسوس) بلدة بين أذنة ومرسين مرتبطة بها بسكة حديدية ، عدد سكانها ٢٢٠٠٠ من المسلمين الترك والعرب النصرانية . وهي مبنية على نشر ، تحيط بها البساتين ، ولها بندر تجاري واسع ومعامل لحلج القطن ومساجد ومدارس عديدة ، بناها الفينيقيون ، وزاحت في عهدهم الاسكندرانية بعمرائها وتجارها وكانت إذ ذاك قريبة من البحر تصل السفن إليها مآخرة نهرها المدعو باسمها ، واشتهرت في عهد الرومان بمدارسها الكبرى ، ينسب إليها بولص أحد حواربي المسيح وغيره من العظماء ، ومات فيها الخليفة العباسي المأمون ، ولم يبق من آثارها القديمة سوى أطلال حصن بيزنطي ومسرح ، وأثر قديم هائل يدعونه الحجر الباهت ، هو سور وسيع في داخله صخرتان بشكل المكعب على قاعدتها قطع من الرخام الأبيض . قال ياقوت : طرسوس مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم . قال أحمد بن الطيب السرخسي : رحلنا من المصيصة إلى أذنة ، ومن أذنة إلى طرسوس ، وبينهما ستة فراسخ ، وعلى طرسوس سوران وخندق واسع ، ولها ستة أبواب ، ويشقها نهر البردان [ولعل المراد نهر طرسوس الحالي] ، وبها قبر المأمون عبد الله بن الرشيد جاءها غازياً ، فأدركته منيته فمات ، فقال الشاعر :

هل رأيت النجوم أغنت عن الماء مون في عز ملكه المأسوس
غادره بعرضي طرسوس مثل ماغادروا أباه بطوس

وما زالت موطناً للصالحين والزهاد يقصدونها ، لأنها من ثغور المسلمين ، ثم لم تنزل مع المسلمين في أحسن حال ، وخرج منها جماعة من أهل الفضل ، إلى أن كان سنة ٣٥٤ هـ ، فإن تقفور ملك الروم ، استولى على الثغور ، وفتح المصيصة كما نذكره في موضعه ، ثم رحل عنها ، ونزل على طرسوس ، وكان بها من قبل سيف الدولة رجل يقال له ابن الزيات ورشيق النسيمي مولاه ، فسلموا إليه المدينة على الأمان والصلح ، على أن من خرج منها من المسلمين وهو يحمل من ماله معها قدر عليه ، لا يعترض من عين وورق أو خرقى ، وما لم يطق حمله فهو لهم مع الدور والضياع ، واشترط تحريب الجامع والمساجد ، وأن من أراد المقام في البلد على الذمة وأداء الجزية فعل ، وإن تنصر فله الجلاء والكرامة

وتقرر عليه نعمته ، قال فتنصر خلق فأقرت نعمهم عليهم ، وأقام نفر يسير على الجزيرة ، وخرج أكثر الناس يقصدون بلاد الإسلام وتفرقوا فيها ، وملك تقفور البلد ، فأحرق المصاحف وخرّب المساجد وأخذ من خزائن السلام مالم يسمع بمثله ، مما كان جمع من أيام بني أمية إلى هذه الغاية .

هذا وسيف الدولة حي يرزق بميفارقين ، والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين ، وعطلوا هذا الفرض ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان أ هـ . و (مرسين) مدينة على البحر المتوسط ، تبعد عن أذنة ٦٧ كيلو متراً إلى الجنوب الغربي ، بنيت في منبسط من الأرض ، وفيها شوارع فسيحة وأحياء ودور جميلة على طراز مدن الساحل الشامي ، وحوها حدائق البرتقال والليمون والمشمش وغيرها من الفواكه . وبعد أن كانت في مطلع هذا القرن قرية صغيرة لردائة هوائها ، مدت السكة الحديدية منها إلى طرسوس فأذنة ، وعني بعمرائها فاردت واتسعت ، وصارت من أجل مواني الأناضول ، لاسيما بعد تأسيس الجمهورية التركية ، وانصراف مجرى تجارة الأناضول عن موافي الشام ومدنه الشمالية .

ويقطن مرسين في يومنا زهاء ٢٥ - ٣٠ ألف نفس جلهم من المسلمين الترك والعرب ، وبعض العرب نصيرية ، وقليلهم من نصارى العرب والإفرنج الذين بيدهم مقاليد التجارة . وستزداد مكانة مرسين إذا تم مشروع إنشاء مرفأ في مينائها ، وتصبح من أعظم مواني البحر المتوسط . و (سيس) بليدة تبعد عن أذنة إلى الشمال الشرقي نحو ٦٥ كيلومتراً ، بنيت فوق نجد منحدر أجرد صخري ، وفي سفح أكمة عالية بيضاء جرداء ، تعد من أول أعضاء جبال طوروس في هذه الناحية ، وهذه الأكمة محاطة بمنطقة طويلة من الاستحكامات الخربة ، التي شادها ملوك الأرمن حينما كانت سيس قاعدة ملكهم ومركز اعتصامهم . وقبل الحرب العامة لم يكن في سيس سوى ٣ - ٤ آلاف نفس من أرمن وترك . وهي عارية عن كل نضارة ، ونذر أن تجد فيها شجرة ، وحرها شديد من وهج الشمس وانعكاسه على الصخور المحيطة بها ، كما أن ماءها آسن ، وهواء ضاحتها رديء لوفرة مستنقعاتها . لهذا إذا أقبل الصيف ، يهجرها ، أهلها بالكلية ، ويصعدون إلى نجود جبال طوروس . ودور سيس في منحدر الجبل راكب بعضها فوق بعض . ولا يزال ثمة بعض

أطلال قصور ملوك الأرمن وحصنهم الراكب على ذروة الجبل مع كنيستهم الخاصة مازال ماثلاً . قال أبو الفداء : « سيس بلدة كبيرة ، ذات قلعة بأسوار ثلاثة على جبل مستطيل ، ولها نهر صغير وبساتين [ولعله أراد كروم] ، وهي بلدة ملك الأرمن وقاعدة ملكه في زماننا هذا » أ هـ . و (مسيس) أو المصيصة بليدة قديمة تبعد عن آذنة إلى الشرق نحو ثلاثين كيلو متراً ، بنيت وسط سهل أفيح على الشاطئ الغربي من نهر جيحان ، وفيها على هذا النهر جسر روماني عظيم ، واسمها القديم Moposueste ، وفي ضاحيتها أطلال وخراب قديمة من عهد ملوك الأرمن وقبلهم .

قال ياقوت : « المصيصة مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام ، بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس ، وكانت من مشهور ثغور الإسلام ، قد رابط بها الصالحون قديماً ، وبها بساتين كثيرة يسقيها جيحان ، وكانت ذات سور وخسة أبواب . وكان يعمل فيها الفراء تحمل إلى الآفاق ، وربما بلغ الفرو منها ثلاثون ديناراً » أ هـ . ونقل أبو الفداء عن ابن حوقل العبارة الآتية : « والمصيصة مدينتان إحداها تسمى المصيصة ، والأخرى كفرية على جانبي جيحان ، وبينهما قنطرة حجارة ، وهي خصبة جداً على شرف من الأرض ، ينظر منها الجالس في مسجد الجامع إلى قرب البحر نحو أربعة فراسخ » : وقال أبو الفداء عن (آياس) : « بليدة كبيرة على ساحل البحر ، وبها ميناء حسنة ، وهي فرضة لتلك البلاد ، وقد أحدث الإفرنج بالقرب منها في البحر برجاً كالقلعة ، يحتمون به ، ومن آياس إلى بغراس مرحلتان ، ومن آياس إلى تل حمدون مرحلة .

ولما استنقذ المسلمون البلاد الساحلية ، مثل طرابلس وعكا وغيرها من أيدي الإفرنج قل ووصلهم إلى الشام من جهة الموافي التي بأيدي المسلمين ، ومالوا إلى آياس لكونها للنصارى ، فصارت ميناءً مشهوراً ومجمعاً عظيماً لتجار البر والبحر » . وقال أيضاً ماملخصه : « وفي سنة ٧٣٦ هـ في رمضان قصد بلاد الأرمن ملك الأمراء بحلب علاء الدين الطنبغا في عساكر كثيرة ، ونزل في ثاني شوال على ميناء آياس وحاصرها ثلاثة أيام ، ثم قدم رسول الأرمن من دمشق ، ومعه كتاب نائب الشام بالكف عنهم ، على أن يسلموا البلاد والقلاع الواقعة شرقي نهر جيحان ، فتسلموا منهم ذلك ، وكانت آياس من جملة تلك المدن ، فخرّب المسلمون برجها الذي في البحر ، واستنابوا في تلك البلاد نواباً

وعادوا» ا هـ . قلت : وآياس في يومنا بليدة صغيرة محرومة من كل مكانة ، إلا إذا أعيد استعمال فرضة (يمور طه لق) وفتحت للتجارة بدل مرسين ، وهو مما لا يرجى . ولا تزال أطلال الحصن الأرمني الذي كان على الساحل ، والثاني الذي كان في جزيرة قريبة منه ، وكذلك أطلال مدينة نيكوبوليس القريبة منها ، كقنوات الماء والجسر والحمام وغيرها من المباني الضخمة ماثلة ، وفي جوار قلعتها مكان فيه ثلاثمئة غرفة منقورة في الصخر ، سعة كل منها ثمانية أذرع في ثلاثة ، ولعلها كانت مدافن للبوق .

هذا وفي بلاد كيليكية غير ماعدناه قلاع عديدة ، ذكرها أبو الفداء في تقويم البلدان منها : برس برت شمالي سيس ، وتل حمدون بالقرب من بلدة جيحان ، وفي شرقي تل حمدون حصن حموص وسرفندكار ، وفي شمالي جيحان عين زربة (أناوارزا) وغيرها ، مما كانت تتعاوره أيدي العرب والروم والأرمن في حروبهم وغاراتهم مدة قرون ، إلى أن ثبتت في يد الترك العثمانيين . وقد تغيرت أسماء أكثر هذه القلاع الآن ، وصارت تعرف بغيرها كقولهم طوبراق قلعة ، وبيلان قلعة ، وتوملو قلعة ، وبودروم قلعة ، وشاهمران قلعة ، وغيرها مما يضيق نطاق بحثنا عن الإحاطة به .

وفي يومنا يأتي السائح إلى كيليكية من استانبول وهو راكب قطارات (شركة سكك حديد الأناضول) ، فإذا غادر محطة بوزانطي ، ووصل إلى محطة ينيجه ، إما أن ينتقل منها إلى فرع مرسين ، أو يستأنف السير شرقاً مجتازاً سهل جقوراووه فيصل إلى (آذنة) . وبعد مغادرة آذنة ، يجتاز القطار محطات الجيرلك وكوركجيلر ومسيس وجيخان وفي قربها قلعة شاهمران ، ثم يمر بمضيق يسيل في قمره نهر جيخان ، وتشرف عليه قلعة تدعى (بيلان قلعة) ، يزعمون أن فيها حية هائلة يقدم لها قرويو هذه الأنحاء القربابن ، ثم يمر بمحطة الويسية ، فيرى السائح على يمينه قلعة عين الزربة المبنية على أكمة عالية منتصبة وسط السهل ، وفي محطة (طوبراق قلعة) يرى أيضاً قلعة تدعى بهذا الاسم . ومن ثم يغادر قاصد الأسكندرونة القطار الذاهب إلى حلب^(١) وينتقل إلى القطار الذاهب إلى الأسكندرونة ، فيمر بمحطات أرزين ، الجائمة وسط السهل الأفيج ، الذي

(١) يمر هذا القطار بمحطات دامانية ومعمورة وباغجة وفوزي باشا والإصلاحية وميدان اكبز (وفيها الحمد والمكس الشامين) وراجو وقورت قولاق وقطمة وتل أرفاد والسلمية وحلب .

حدثت فيه معركة إيسوس بين الإسكندر وداريوس ، ثم بمحطة درت يول ، وفيها بساتين جميلة وبياس ، وفي هذه يدخل الحدود الشامية الحالية .



أما المقتني أثر سائحنا (أوليا جلبي) والممتطي الرواحل أو المركبات ، إذا غادر أذنة يصل بعد خمس ساعات ونصف إلى (مسيس) التي تقدم وصفها ، فإذا خرج منها يعبر نهر جيحان فوق جسره الروماني ، ويتسلق أعضاء جبل مسيس ، ويجتاز فيها سهلاً واسعاً يصل منه إلى مضيق (ديمير قبو) الذي ذكره (أوليا جلبي) (ص ١٥) وكان اسمه قديماً Pyles ammanieds باب الأمانيين ، أي سكان جبل آمانوس ، وهو مضيق بين عدة أكام من أعضاء جبل مسيس . ثم يشرع السائح يحاذي في سيره شاطئ خليج الأسكندرونه ، فيجتاز مجرى نهر (دلي شاي) الذي حدثت فيه على بعض الأقوال معركة إيسوس بين إسكندر وداريوس . ومن ثم يغادر على يساره بلدة (درت يول) ومن بعدها يصل إلى (بياس) التي وصفها (أوليا جلبي) ص ١٥ ، قال ياقوت في معجمه : بياس مدينة صغيرة شرقي أنطاكية وغربي المصيصة [وصحيحه أنها شمالي أنطاكية وجنوبي المصيصة] بينهما قريبة من البحر بينها وبين الأسكندرية [وصحيحه الأسكندرونه] فرسخان ، قريبة من جبل اللكام . قال البحري :

ولقد ركبت البحر في أهواله وركبت هول الليل في بياس
وقطعت أطوال البلاد وعرضها ما بين سندان وبين سجاس (؟)

وإلى بياس ينسب الخشب المعروف في دمشق باسم الخشب البياسي ، وفيها وفي بلدة (درت بول) القرية منها ينتج صنف من البرتقال الجيد يدعى البياسي ، ثمرته متوسطة الحجم ، مستديرة لها قشرة رقيقة ، ولب سكري كثير العصارة وهي الآن آخر بلدة تركية متاخمة لبلاد الشام الحالية . والحد الحالي الذي تم الاتفاق عليه بين الترك والفرنسيين سنة ١٣٤٩ هـ ١٩٣٠ م يبدأ من مصب نهر بياس الصغير الذي يبعد عن محطتها إلى الشمال نحو خمسة متر . وبياس تحيط بها أشجار الزيتون والليمون والبرتقال ، وفيها حصن قديم صغير في البحر ، وقلعة في البر ، وأطلال كنيسة وجامع وحمامات وجسر قديم على نهرها . وهي تبعد عن الأسكندرونه بطريق المركبات ٢٣ كيلومتراً ، ومرتبطة بها بالسكة الحديدية أيضاً .

جبل اللكام

وجبل اللكام يدعوه الإفرنج أمانوس Amanus ، وعامة الترك (كاور طاغني = جبل الكفرة) ، ودعته حكومتهم جبل البركات ، وذكرته بعض التواريخ العربية باسم الجبل الأسود لسواد حراجه الملتفة ، وسلسلة اللكام تعبد عند أكثر الجغرافيين النخع الطبيعي بين سورية والأناضول ، ويمر الآن في وسطها من الغرب إلى الشرق الحد الذي اعتبر رسمياً بين جمهورية تركيا وبلاد سورية الواقعة تحت الانتداب الفرنسي ، وهي تنفصل عن جبال مرعش وسيس من سلسلة طوروس بوادي نهر جيحان ، وتتجه بخط مستقيم إلى الجنوب حتى مضيق بيلان الذي يفصلها عن الجبل الأحمر (قيزيل طاغ) ، الممتد شمالي أنطاكية وغربيها ، وطولها فيما قيل مئة وسبعون كيلو متراً وعرضها ثلاثون كيلو متراً .

وفي هذه السلسلة أودية ووهاد سحيقة ، ومهاوي ذات منحدرات صعبة ، ونحود ومرايع عالية صالحة للاصطياف ورعي الماشية ، لجودة هوائها وغازة مياهها ، وروعة مشاهداتها وطيب أعشابها ، ووفرة حراجها وأثمارها مما يفوق ما في لبنان أو غيره من جبال سورية ، وفيها أطواد سامية ، وقم شاهقة ، أعلاها آق قيا (الصخرة البيضاء) ٢٥٠٠ متراً ، ومغبر أو موغر ٢٢٦٧ متراً ، وألما داغ (جبل التفاح) ١٨٣٥ متراً ، ويحلب الثلج الخالد القميتين الأوليتين في معظم أيام السنة ، وتشرفان على سهول حلب وآذنة على السواء . وفي سلسلة اللكام مضائق وثنايا ذات شعاب ومسالك كأداء دعاها العرب بالدربندات ، كانت تعبر منها في العصور الغابرة جيوش الغزاة والفتاحين من الشمال إلى الجنوب وبالعكس : أجلها في الجنوب مضيق بيلان ، وفي الوسط مضيق دكر من دره (وادي الطاحون) النافذ إلى قلعة المركز ، والآتي من وادي النهر الأسود ، وفي الشمال مضيق باغجه أو أصلان بوغاز ، وقد كان ممر غزاة الصائفة في عهد الأمويين ، وصار الآن ممر السكة الحديدية الذاهبة إلى حلب . وكان القدماء أقاموا في هذه النقاط الحامية على

هذه المضائق الوعرة قلاعاً كثيرة ، كان يشحنونها بالمقاتلة لمنع الأعداء من المرور ، لاتزال أطلال بعضها ماثلة في أماكن عديدة ، كما في فنك وساقط وبكداشلي وكوندوزلي وجيلانلي ومال أوجاسي وأشميشك وغيرها . ولكن أجل هذه القلاع قدراً وشهرة في الشمال ، وفي منتصف مضيق دكر من دره الذي تقدم ذكره (قلعة حجر شغلان) صعبة المرتقى ، تشبه عش السر بمنعتها ورفعتها ، تعلو عن سطح البحر ١٢٥٠ متراً ، ومثلها في الشمال وعلى مقربة من الأسكدرونة (قلعة المركز) ، وفي الشرق على حاشية سهل العمق (قلعة دريساك) ، ومثلها في الجنوب (قلعة بنراس) .

خلاصة تاريخ جبل اللكام : ذكر المؤرخون أن بلاد سورية كانت يوم عرف تاريخها مغطاة بالأشجار ، ولا سيما في جبالها الشاهقة كاللكام واللبنانين الغربي والشرقي . فهذه الأشجار حركت مطامع الأمم الغابرة ، فكان منهم السومريون ملوك بلاد ما بين النهرين ، الذين عرفوا جبل اللكام قبل ثلاثين قرناً من الميلاد ، وقطعوا ونقلوا منه أخشاباً للبناء ، وأدخله سرجون ملك الأكاديين في حوزته ، ونقل منه إلى بلاده غراساً مختلفة كالورد والتين والتفاح ، واستولى عليه أيضاً الحثيون ، حينما بسطوا سلطانهم على معظم بلاد سورية . ولما انقضت دولتهم نشأ على أنقاضها في جبل اللكام والبقاع المجاورة له دويلات شتى لشعوب أرامية ، منها دويلة العنقي في سهل العمق ، ودويلة الكانوا أو العمانو في جبل اللكام ، الذي دعى من ذلك الحين أمانوس وأهله الأمانيون .

ولما رحل الآشوريون من بلادهم نحو الشرق اضطروا للتوقف أمام مضائق جبل اللكام . وقطع ملكهم آشور ناسيربال سنة ٨٧٧ ق.م من حراحه ، وحراج جبل لبنان ، كثيراً من أخشاب الصوبر والشوح وبعثها إلى عاصمته بينوى . ولبت ملك آخر منهم اسمه (سالامانزار) ستين يحاول اقتحام المضائق المذكورة ، التي كان سكانها الأمانيون يدافعون عنها . وفي المعركة الهائلة التي حدثت بين الإسكندر المقدوني وداريوس الفارسي في سفح جبل اللكام الغربي ، كان كل منها يسعى للمرور من مضائق هذا الجبل قبل خصمه ، ليأخذه على حين غرة . وبعد موت الإسكندر اقتتل في هذا الجبل اثنان من خلفائه وهما ديمتريوس الذي ظلك بلاد اليونان ، وسلوفوس نيكاتور الذي ظلك بلاد اسية وكانت الدائرة على ديمتريوس . وفي عهد الرومانيين قاسى شيشرون أحد ولائهم على كيليكية المصاعب في إحصاء الأمانيين الشائرين . وكان انتصاره عليهم سبباً لتسميه عرش

الأمبراطورية . وظل هؤلاء الآمانيون الجيليون القساة في عهد الدولتين الرومانية والبيزنطية شبه المستقلين ، وكانت عاصمتهم تدعى جرجومة - دثرت الآن - ، ولذا عرفهم العرب في أول عهد الإسلام باسم الجراجمة .

وكان قيصر الروم هرقل ، لما يؤس من سورية عقيب أن استخلصها المسلمون منه وسار عنها إلى القسطنطينية أخذ أهل الحصون التي بين الأسكندرونة وطرسوس ، لثلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم ، وشعث الحصون فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً . ويظهر أن هؤلاء رجعوا بعد حين إلى أماكنهم ، وصالحوا المسلمين . قال ياقوت في معجم البلدان عن هؤلاء : « إنهم عرفوا في كتب العرب بالجراجمة ، نسبة لمدينة جرجومة ، عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقة ، قرب أنطاكية ، وقد صالح الجراجمة المسلمين على أن يكونوا أعواناً لهم ، وعيوناً ومسالخ في جبل اللكام ، وكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى ، فيكاتبون الروم فيالثونهم على المسلمين ، وخرج قوم منهم في حرب مصعب بن الزبير إلى الشام مع قائد الروم ، فنفروا في نواحي الشام لاسيا لبنان ، وعرفوا بالردة ، فاضطر عبد الملك بن مروان إلى أن صالحهم » ١ هـ .

ولما استولى قيصر الروم نيقفور على كيليكية سنة ٣٥٤ هـ استولى على جبل اللكام أيضاً ، وأسكن فيه فريقاً من الأرمن ، وسلمهم قلاعه ومسالحه ، ليحرسوها له تجاه المسلمين ، ولما استتب الأمر للملك الأرمن في كيليكية على ماقدما ، أدخلوا جبل اللكام في حوزتهم ، ولما جاء الصليبيون أعانهم الأرمن في اجتياز مضائق هذا الجبل ، وسلموا بعد حين قلاعه إلى الفرسان الهيكلين^(١) ، ثم نشب الخلاف بينهم لأجلها ، وتقاتلوا مراراً

(١) كان في عهد الصليبيين في بلاد الشام جمعيتان دينيتان أو رهبنتان عسكريتان ، وكان اسم رجال الأولى الرهبان الهيكلين أو فرسان الهيكل Chevaliers du temple أو Les Templiers ، سموا بذلك نسبة لمكانهم الذي أسسوا فيه رهبنتهم سنة ١١٢٨ م وكان قرب موقع هيكل سليمان في القدس ، وذكرهم مؤرخو العرب باسم (الداوية) ، ومعناه على ما قيل في السريانية الفقراء ، وهو ما لقبوا أنفسهم به ، وكان شعارهم رداء أبيض عليه صليب أحمر . واسم رجال الثانية فرسان ماريوحنا Chevaliers de Saint jean أو Les Hospitaliers الاستبالية أو الاستبارية ومعناه المضيفون ، أسسوا رهبنتهم في القدس أيضاً سنة ١٠٢٣ م لضيافة الغرباء من بني جلدتهم ، وجعلوا شعارهم رداء أسود على الكتف اليسرى منه صليب أبيض ، وقد كان رجال هاتين الجمعيتين أو فرسانها ، من أشد الصليبيين وطأة على المسلمين ، كانوا مكلفين بحفظ القلاع ، والإغارة منها على بلاد المسلمين .

استعان في أحدها الأرمن بالتتار ضد الفرسان المذكورين . وكان كل منهم خلال ذلك يتخذها تقاطعاً للاستناد عند زحفه شمالاً أو جنوباً . وظل هذا الأخذ والرد مستمراً ، إلى أن جهز الملك الظاهر ركن الدين بيبرس في سنة ٦٦٤ هـ جيشاً لغزو سويس ، قاعدة بلاد الأرمن إذ ذاك ، وولي قيادة هذا الجيش الملك المنصور ، ناصر الدين محمد بن الملك المظفر محمود التقوي الأيوبي صاحب حماة ، فجاء واستولى على هذه القلاع ، وأباد الفرسان الهيكليين المرابطين فيها ودمرها ، ثم أتم غارته على سويس ، ورجع ظافراً غانماً ، وظلت هذه القلاع بيد المسلمين ، جعلوها نيابة من أعمال حلب مركزها في قلعة حجر شغلان ، على ماجاء في صبح الأعشى للقلقشندي . وسكان هذه الجبال الشاهقة في يومنا ترمكان سنيون لا يزالون على الفطرة ، معروفون بصدق المعاملة ، يقطنون في الشتاء في قراهم المحبأة في بطون الفجاج ، قرب السفحين الغربي والشرقي ، وفي الصيف يصعد أكثرهم كما قال (أوليا جلبي) إلى المراع والنجود المرتفعة ، لرعي الماشية وقطع الحطب وحرق الفحم ، ويحذو حذوهم جم غفير من أكراد حرة اللجة ، في شمالي العمق ، وهؤلاء رحل أهل وبر وأكارون . وجبال اللكام كانت وما تزال غنية بالحراج (١٥٠٠٠ هكتار) ، رغم انكباب الأمم الغابرة على قطعها لبناء الأساطيل والمعابد والقصور ، وآخر من انكب على ذلك إبراهيم باشا المصري ، لما شرع بإنشاء دار صناعة لبناء السفن في ميناء الأسكندرونة . وهي قد اشتهرت بوفرة ما في منحدراتها الشرقية والغربية من الصنوبر الحلبي والأرز والشوح والسنديان والبلوط والزان والقيقب ، والأشجار المثمرة البرية كالتفاح والأجاص والزعرور ، ويكثر الدلب والصفصاف المستحي ، والجوز والدردار في الأودية الرطبة ، كما أن الزمزيق والقطلب ، ولا سيما اللبنة منتشرة وكثيفة في أكثر الأماكن . وفي قرب بياس داخل حدود لواء الأسكندرونة منجم كبير ، يحوي معادن مختلفة كالحديد والكروم والأميانت والمانغانز والنجاس ، لكنها بنسبة قليلة لاتفي بنفقات الاستخراج . وقد عرف القدماء هذه المعادن ، واستثمروا منها معدن الزاج الذي ذكر المؤرخون وجوده بين بياس وبوقة .



قلعة صاري سكي ، قلعة المركز

طريق بياس - الأسكندرونة

إذا خرج السائح من بياس موازياً شاطئ خليج الأسكندرونة ، يصادف على بعد كيلو متر منها نهر بياس الذي ذكر (أوليا جلبي) جسر ، وفي ضفته اليسرى يبدأ التخم الذي اعتبر الآن رسمياً بين بلاد الشام وبلاد الترك . وهذا التخم يسير شرقاً بموازية ذلك النهر ، متسلقاً قمة مغبر ، هابطاً ضفة نهر الأسود اليسرى . ويصادف السائح في طريقه سهلاً كثير الحصى والبلان ، مبسطاً بين سفوح جبل اللكام والبحر . أما التكايا التي ذكرها الجلبي فقد دثرت وبعد مسير عشرة كيلو مترات يصادف السائح أطلال جدار يمتد من الغرب إلى الشرق ، يدعوه الفرنج (جدار السلوقيين) ، لا يزال قسم منه قرب البحر سالماً في الجملة ، وقسم آخر في سفح الجبل ، وكان هذا الجدار على ما يظهر لسد الطريق في وجه الجيوش الزاحفة من الشمال إلى الجنوب أو بالعكس . وبعد الجدار يصادف قرية اسمها صاري سكي ، لها نهر بهذا الاسم وعليه جسر ، ويمكن للسائح أن يذهب من هذه القرية لزيارة قلعة حجر شغلان التي تقدم ذكرها ، وهي لا تبعد على الماشي أكثر من ساعة ونصف . وبعد كيلو متر يصادف قلعة صغيرة تدعى (قلعة المركز) ذكرها الجلبي (ص ١٥) ، وهي لا تزال ماثلة بجدرانها وبيعض أبراجها الضخمة ، وهي إحدى قلاع جبل اللكام المنيعة التي نوهنا بها وبمصيها ، ويظهر أن هذه القلعة كانت مخصصة بحراسة باب كيليكية القريب منها ، وباب المضيق الآخذ إلى قلعة حجر شغلان المجاورة لها ، وقل من يعرفها الآن بهذا الاسم بل باسم صاري سكي القرية القريبة منها ، وكان الصليبيون يسمونها حصن كاستيم ، أو حصن كودفروا .

وبعد مغادرة قلعة المركز ، يضيق السهل الممتد في الساحل تدريجياً إلى أن يقترب ذيل جبل اللكام من البحر ، فيؤلف معبراً ضيقاً كان يسميه الرومانيون باب كيليكية Pylae ciliciae ، والصليبيون Portella ، وكان يعتبر هذا المضيق في العصور الغابرة الحد الفاصل بين الشام وكيليكية ، وكان فيه لملوك الأرمن دار للمكس . وقبل الحرب العامة

مد الألمان في وسطه سكة الحديد الآخذة من الأسكندرونة إلى (طوبراق قلعة) فحلب . ويعلو الصخور عن يمين المضيق ويساره أعمدة رخامية أثرية ، يعرفها الملاحون باسم أعمدة يونس ، ويزعمون أن الحوت الذي ابتلع النبي يونس عاد فلفظه على شاطئ هذا المضيق ، على حين أنها ليست إلا بقايا باب كبير من آثار اليونانيين أو الرومانيين ، كان معداً لسد المضيق وفتحه في وجه المارين والعابرين ، أو للإشارة إليه . وفي رواية : أن جسد الإسكندر بعد موته وضع فوق هذا الباب ، ومرت من تحته قواده وجحافلهم ، وقلعة المركز على قيد غلوة من هذين العمودين ، ولا يزال سكان هذه البلاد وهم أتراك ، يدعون المضيق والقلعة معاً باسم صقال طوتان . ثم يمر السائح من قرب قرية يقطنها مهاجرو جزيرة كريت ، ثم بعد خمسة كيلو متر يمر من قرب مزارينسب للقدّيس (جاورجيوس) يزوره اليوم الأرثوذكس في يوم معين من السنة ، ولا يزال سائراً على شاطئ البحر حتى يصل إلى الأسكندرونة .

الأسكندرونة : والأسكندرونة بلدة قديمة ، ذكرها المؤرخان اليونانيان هرودتس وكسنفون باسم ميريانندروس . إلا أن هذه كانت خارج البلدة الحالية ، وإلى الجنوب الشرقي منها ، وكانت مستعمرة لفريق من الفينيقيين . أما الأسكندرونة الحالية فقد بناها فيما قيل (أنتيفون) أحد خلفاء الإسكندر في سني (٣١٦ - ٣٥٢ م) لتجديد النصر الباهر الذي أحرزه الإسكندر على دارا ملك الفرس في معركة إيسوس التي تقدم ذكرها . وكان موقع الأسكندرونة قديماً في جوار (ميريانندروس) وقرب الحصن الكائن عند رأس عينها ، وكان البحر يصل إلى أمامها كما سيأتي ذكره في حديث هذا الحصن ، وفي القرن الثالث للميلاد جاء الفرس وخرّبوا الأسكندرونة ، وظلت خراباً إلى ظهور الإسلام . وفي زمن المسلمين لم يكن لها ذكر في الفتوحات ، إلى أن كانت خلافة هارون الرشيد فبنت زوجته زبيدة فيها حصناً ، ثم في خلافة الواثق رممها ووسّعها أحمد بن أبي داود الأيوبي ، على ما ذكره أبو الفداء نقلاً عن أحمد الكاتب الذي دعاها باب أسكندرون ، في حين أن هذا الباب هو في بيلان لا الأسكندرونة نفسها ، على ما صححه أبو الفداء فيما نقله عنه في حينه ، وظلت الأسكندرونة ممراً لغزاة الصائفة من المسلمين ، وقاصدي الإغارة على بلاد الشام من البيزنطيين ، ومحطاً للتجارة ، إلى أن جاء الصليبيون واستولوا عليها ، ففقد الأمان من حولها ، وتحول مجرى التجارة إلى السويدية ، فرضة أنطاكية ، وإلى اللاذقية

وطرابلس ، وعادت الأسكندرونة إلى خرابها ، يلجأ إليها لصوص البر والبحر حتى القرن العاشر الهجري ، ففيه التمس تجار الإفرنج المقيمون في حلب من الدولة العثمانية أن تجعلها فريضة حلب ، فأجيبوا فصارت تأتي سفنهم إلى الأسكندرونة ، وتجلب بضائعهم منها إلى حلب ، على النحو الذي وصفه (أوليا جلبي) . وكان السبب في التاسم هذا أمرين : الأول : ظلم حكام طرابلس أبناء سيفا ، الذين كانوا يعتدون على أولئك التجار وبضائعهم ، والثاني : قرب الأسكندرونة من حلب وما وراءها ، من البلاد الممتدة حتى العراق والعجم والهند ، وحسن مينائها الذي لا يضارعه أي ميناء في الساحل الشامي لوقوعه في خليج كبير مصون من الأنواء ، بيد أن فوضى الأحكام في القرن الحادي عشر كانت تغري عصابات اللصوص ، من الكرد والتركمان وسكان الجومة والعمق ، فتأتي كما نوه به (أوليا جلبي) أيضاً ، وتهاجم الأسكندرونة كلما اهتبلت الغرر ، وتحاصر قناصلها وتجارها في دورهم ، وتفرض الأتاوات عليهم ، وعلى القوافل الداخلة والخارجة . وفي القرن الثالث عشر سنة ١٢٣٨ هـ حدث فيها زلزال دمر معظمها فرمت قليلاً ، ثم عمر بها خان لم تنزل آثاره باقية ، واستقر بها تجار من الإنكليز ، اتخذوها محطة للهند قبيل فتح قناة السويس .

وفي سنة ١٢٤٨ هـ نقل إليها إبراهيم باشا المصري عتاد جيوشه ، وقطع من حراج جبل اللكام المجاورة الأخشاب العظيمة ، لينشئ فيها مصنعاً للسفن ، فالتف حولها السكان ، وصارت قرية يقطنها النصرية وقليل من الترك وتجار الإفرنج . وقد زارها بعض سياح الإفرنج (كبوجولا) في سنة ١٨٣١ م ، والأميرة (بلجيو جوزو) في سنة ١٨٥١ م ، و (دي لورته) في سنة ١٨٧٢ م ، وكتبوا عنها ونوهوا بمكانتها الجغرافية والتجارية ، ولكنهم شكوا من حرها ورداءة هوائها ، وقذارة أزقتها وحقارة بيوتها ، التي كانت مبنية بين المستنقعات ، وقالوا إن أكثرها أخصاص وأعشاش يقطنها أناس هزلى اصفرت وجوههم ، وغارت أعينهم ، وتضخمت طحالهم ، وأن تجار الإفرنج والمرفهين من أهلها ، لا يكتثون في الصيف إلا سحابة النهار ، وفي الليل يصعدون إلى بيلان ذات الهواء الجيد . وعلى الرغم من هذه الحالة فقد كان موقع الأسكندرونة الجغرافي ، وحسن فرضتها ، وكثرة توافد سفن البحر وقوافل البر يزيدها نمواً في العمران والسكان ، لا سيما بعد أن

جعلتها الحكومة العثمانية في سنة ١٢٨٢ م قاعدة ناحية تتبع قضاء بيلان ، ثم في سنة ١٢٩٥ هـ جعلتها قضاء يتبع ولاية حلب ، وشرعت بتجفيف المستنقعات ، وأتمت في سنة ١٣٠٣ هـ تعبيد طريق المركبات منها إلى حلب ، فصارت الأسكندرونة من ذلك الحين ، فرضة عظيمة لاستيراد واستصدار البضائع ، بين البحر وحلب والعراق والأناضول الشرقي ، ودام هذا النمو والعمران ، إلى أن قضت عواقب الحرب العامة بانفصال تلك البلاد الداخلية ، واقتصار الأمر على حلب وضواحيها ، كما قضت بتقريب التخوم بين الأناضول والشام ، إلى قاب قوسين من الاسكندرونة ، فقل واردها وصادرها وأفل نجمها من ذلك الحين . وبعد احتلال الإفرنسيين في سنة ١٣٣٧ هـ جعلت قاعدة لواء ألحق أخيراً بدمشق .

وبلدة الأسكندرونة في منبسط من الأرض ، ممتد على ساحل البحر ووراء المستنقعات والتلعات ، التي تصل إلى سفح جبل اللكام . عدد سكانها نحو ثلاثة عشر ألفاً ، أكثرهم من الأرمن اللاجئين ، على أثر إخراجهم من بلاد الترك بعد سنة ١٣٤٠ هـ ، ويقيم النصيرية ، ثم النصارى على اختلاف نحلهم ، وغالبهم روم أرثوذكس ، ثم الترك والعرب السنيون ، وأحيائها ومبانيها متجهة إلى الشمال نحو الخليج ، في امتداد شارعها الأعظم المتصل بطريق حلب المعبدة ، تقاطعه شوارع ثانوية ، تتجه من الغرب إلى الشرق ، ولها على شاطئ البحر الرملي شارع عريض ، هو منتزه البلد الأوحده ، وما خلا الضاحية الغربية ، المؤلفة من أكواخ خشبية حقيرة ، يقطنها فلاحون من النصيرية ، فإن أكثر مباني هذه البلدة حجرية جميلة ، من طراز بناء الساحل الشامي ، مستوفية بالآجر الأحمر ، وشوارعها عريضة مستقيمة معبدة ، وتكثر فيها دور الحكومة والفنادق والمقاهي ، وحوانيت التجار والمصارف ، ودور قناصل الدول ووكالات البواخر ، وكنائس الطوائف النصرانية والأجنبية ومدارسها ، وللمسلمين جامعان ، وقليل من المدارس البدائية ، وثمة معمل للنور الكهربائي ، وفي شرقي البلدة مرفأ صغير في قرب دار المكس ، ومستودعات ومعامل عظيمة ، لشركتي البترول وعرق السوس .

وقبل الحرب العامة ، كان الألمان وصلوا الأسكندرونة بحلب ، بسكة الحديد الممتدة من استانبول إلى بغداد ، وذلك بالفرع الذي قدمنا ذكره ، وامتداده إلى طوبراق قلعه ، بيد أن هذا الفرع الذي يمر الآن ببلاد الترك بعد اجتياز مسافة معوجة طويلة ، والمرفأ

الصغير الذي بنته شركة إفرنسية شرقي البلدة لم ينفعا الأسكندرونة بنسبة ما كانت تتوخاه .

وحر الأسكندرونة في الصيف ورطوبتها ، أشد وطأة من بيروت ، لعلو جبال اللكام المحيطة بخليجها ، ولقرعها ووقوفها كالجدار ، ولوفرة المستنقعات التي تتصاعد منها الأبخرة ، فالرياح الغربية الآتية من عرض البحر ، إذا ما اصطدمت بالجبال المذكورة ، تتف وتؤلف طبقة كثيفة ثقيلة ، تحجب أحياناً الشمس ، وإذا ركد الهواء تخال أنك في حمام . وفي الخريف والشتاء يحدث أحياناً في أعالي هذه الجبال ، ريح شرقية عاتية ، تهب بشدة ، فتخيف السفن وتضر الأشجار والمباني . على أن اختلاف الحرارة اليومي ليس بكثير . فالدرجة العظمى لاتزيد عن الـ ٣٥ وندر أن تهبط إلى الصفر . أما المطر فشديد التهطل ، تصل كميته في السنين المتوسطة إلى الثمانئة ميليمتر . وماء الأسكندرونة يؤتى إليها بأنابيب حديدية ، من ينبوع في ضاحيتها الشرقية يدعى رأس العين ، وقد ذكره سائحنا (أوليا جلي) .

ويعد رأس العين أجمل منظره في هذه البلدة ، وليس في داخل الأسكندرونة مكان أو بناء أثري . ولكن في خارجها مكانان يستحقان الزيارة : الأول ، موقع بلدة (ميرياندروس) القديمة ، وهو في شرقي التل المشرف على نبع رأس العين ، وفي أرض مرتفعة متسعة ، عثروا فيها على قواعد أعمدة وآبار متصلة بقنوات ونواويس وقبور وفسيفساء وأسس جدران وكهوف ، استخرجوا منها فيما قيل كثيراً من العاديات ، بعضها أواني وأدوات نحاسية ، وبعضها حلي ذهبية ، والمكان الثاني ، أطلال حصن الأسكندرونة ، وهي في يمين طريق حلب في بستان كاتوني أحد وجهاء هذه البلدة . وهذه الأطلال مؤلفة من سور واسع ، مثن الأضلاع ، ومن أبراج متعددة ، وكان هذا الحصن مبنياً على شاطئ البحر ، قبل ابتعاده عنها بعداً يبلغ الكيلومتر في عهدنا .

وما برح أهل الأسكندرونة يذكرون حلقات الحديد التي كانت في جدران الحصن لربط السفن ، وقد زعم أثري ألماني أن هذا الحصن من بناء البنادقة ، وفي ظني أنه الحصن الذي بنته زبيدة زوجة هارون الرشيد ، وجدد في خلافة ابنه الواثق على ما نقلته عن أبي

الفداء . وهواء الأسكندرونة وبيل لوفرة المستنقعات بها . وسبب وجود المستنقعات أن البحر كان يصل إلى الحصن ، الذي قدمنا ذكره . ثم لما جزر عنه شيئاً فشيئاً من وفرة الرمال التي كان يلفظها على ساحله ، والظمي الذي كانت تأتي به السيول المتساقطة من الجبال المحيطة بالأسكندرونة ، سدت المجاري النافذة إلى البحر ، واستغدرت المياه وراءه في الأرض التي بقيت في منسوبه أو أدنى ، وإذا هطلت الأمطار في الشتاء ، ومعد لها السنوي كما قلنا عظيم في هذه البقعة ، فاضت على تلك الغدران وصارت مستنقعا عظيماً تتصاعد منه الأبخرة الفاسدة ويتولد على طحله أسراب البعوض علة الوبالة . وكانت هذه المستنقعات تحيط بالأسكندرونة ، وتتخلل أحياءها وأزقتها ، وتجعل هواءها وبيلاً والإقامة فيها خطيرة . دام هذا الحال إلى أوائل القرن الهجري الحاضر ، لما مدت الحكومة العثمانية سكة حديدية صغيرة ، كانت تنقل بها التراب من الأكمة المشرفة على رأس العين ، وتطم بها تلك المستنقعات ، وظلت العناية بالطم قائمة إلى الآن ، وفتحت من عهد قريب في شرقي البلدة قناة مشيدة بالإسمنت ، تجرف السيول التي ذكرناها إلى البحر ، حتى زال كثير من المستنقعات ، وحسن المناخ عما قبل وما برج .

ولواء الأسكندرونة يتألف من ثلاثة أقضية ، الأسكندرونة وقرق خان وأنطاكية ، لكل منها نواح عديدة ، سيأتي ذكرها . وفيه شعوب مختلفة المذاهب والمشارب ، منها الترك والتركان الذين يؤلفون ٣٥ - ٤٠ في المئة من مجموع سكان هذا اللواء ، البالغ زهاء ١٥٤ ألفاً ، وفيه العرب النصيرية والنصارى ، وفيه الأرمن والشركس ، والكرد والسريان ، والكلدان واليهود . وهذا اللواء يتبع دولة الشام التي عاصمتها دمشق ، لكن له إدارة خاصة ، فماليته ومعارفه وزراعته وأشغاله العامة مستقلة ، واللغات الرسمية فيه العربية والتركية والإفرنسية ، ناهيك عن الأرمنية والرومية والكردية والشركسية ، التي تسمعها كثيراً في أسواق مدنه ومنعطفات قراه .

ويقطن النصيرية في الأسكندرونة والساحل الممتد منها إلى بليدة عرسوس ، وفي نفس أنطاكية ، والجبال والأودية الممتدة منها غرباً نحو ميناء السويدية ، ويقطن الأرمن في جبل موسى ، وأعضاده الممتدة حتى ساحل البحر ، وفي ناحية كسب ، وفي بليدة قرق خان ، وبعض المستعمرات التي أنشئت لأجلهم في قضائه ، ويقطن الشركس في قرى حران

والريمانية ، وعم (يني شهر) وبدركة من سهل العمق ، ويقطن الترك والتركمان في جبل اللكام ، وأعضاده الممتدة شمالي الأسكندرونة وشرقها ، وفي بعض سهل العمق وجبل القصير ، وفي الجبل الأحمر وأعضاده الممتدة إلى جنوبي عرسوس وكسريك ، ويقطن الكرد في حرة اللجة شمالي السهل المذكور .

السفر من الأسكندرونة إلى حلب : يمكن أن يذهب السائح من الأسكندرونة إلى حلب في عدة طرق :

أولها في السكة الحديدية التي تقدم ذكرها في بحث كيليكية ، وهذه الطريق معوجة طويلة (٢٧٥ كيلومتراً) وشاقة ، لأن معظمها يجتاز البلاد التركية من المحطات التي مر ذكرها في بحث كيليكية في الصفحة ٤٤ ، وثمة انتقال من قطار إلى قطار ، في محطة طوبراق قلعة . فالأحسن منها ركوب السيارات .

٢ - طريق السيارات الحديثة (طولها ١٤٧ كيلومتراً) وهذه معبدة أحسن تعبيد ومعتنى بها ، تمر بمضيق بيلان وسهل العمق ، وجبل باريشا وسهل الحلقة ، وسهل حلب الغربية .

٣ - طريق المركبات القديمة (طولها ١٧٢ كيلومتراً) وهذه أيضاً معبدة ، وهي تسير في الطريق الأولى إلى ما بعد سهل العمق ، ثم تظل سائرة نحو الشرق الشمالي فتمر بجسر عفرين ، وشمالي جبل سمعان وسهل حلب الشمالية . هذا ويتفرع من الطريق الثانية عند طوب بوزاز طريق تذهب نحو (أنطاكية) ، طولها ٣٠ كيلومتراً ، ويتفرع منها أيضاً في شرقي العمق الطريق التي يسير فيها القادمون من حلب إلى أنطاكية ، (طولها ٤١ كيلومتراً) . وسنصف الطريق الحديثة والقديمة ، وما ينشط منها ، ثم نعود لخطبة جولتنا الزاهية نحو أنطاكية وما بعدها .



الأسكندرونة - المدينة والمرقأ وجبل اللكام

وصف طريق الأسكندرونة - طوب بوغاز (٢٧ كيلومتراً)

هذه الطريق معبدة ومعتنى بها ، وهي من أنزه الطرق وأجملها . يغادر السائح مستوى البحر في الأسكندرونة ، حيث الحرارة والرطوبة شديداً الوطأة ، فيمر من أمام رأس العين ، وعلى قيد غلوة منه إلى اليسار ، المكان الذي يظن أنه كانت فيه مدينة (ميرياندروس) ، ثم يشرع بتسلق أعضاد جبل اللكام ، وكلما اعتلى يجد الهواء العليل والمشهد النضر ، وفي الكيلومتر ١٠ يرى على يمينه الطريق الصاعدة إلى قرية صوغوق أولوق ، علوها ١٠٠٠ متر وسكانها أرمن ، وفي غربيها قرية الناركيلك علوها ٥٠٠ متر وسكانها ترك ، ويقصد أهل الأسكندرونة وحلب هاتين القريتين للاصطياف ، حيث يجدون المناخ الطيب ، والمنظر الجميل ، والحراج الغضراء ، والفواكه الطيبة ، والفنادق الجميلة ، ناهيك عن زرقة البحر ومرآه الرائع . وفي الكيلومتر ١١ مفترق الطريق الصاعدة إلى قرية عاتق الأرمنية ، علوها ١٠٠٠ متر ، وهي وإن لم تضارع جارتها بالحراج والفنادق ، لكنها تفوقها بالينابيع الباردة وجمال المناظر في الصرود الشاهقة بقرىها ، كثنية كوزبل^(١) (١٦٠٠ متر) ، وقمة شاكشاك (١٨٣٥ متراً) ، وفيها مشاهد تأخذ بمجامع القلوب . فالواقف إذا تطلع إلى الشرق يرى آكام جبل اللكام تنحدر أمامه نحو سهل العمق ومستنقعاته ، وبحيرة أنطاكية الزرقاء ، وما في شرقها من الجبال والهضاب ، كجبل الأعلى وجبل باريشا وجبل سمعان وجبل الكرد ، وغيرها الممتدة في الأفق البعيد حتى سهول حلب الغربية ، وإذا تطلع نحو الشمال يرى قمماً في جبل اللكام تناطح السحاب كأنها طباغ (١٨٣٥ متراً) وداز طباغ (١٧٠٧ امتار) وأق قيا (٢٥٠٠ متر) ومغبر (٢٢٦٧ متراً) ، ويرى بينها نجاداً ومرايع متسعة ، انتشرت فيها ألوف من قطعان الغنم والماعز ، ترعى الأعشاب والأنجم الغضة ، ويرى في الغرب سلسلة جبال طوروس التي تنفصل عن

(١) قال ياقوت : الثنية كل عقبة في الجبل مسلوكة .

آمانوس ، بسهول كيليكية الفسيحة ، ويرى خليج الأسكندرونة ، وما في شاطئه من الموانئ كميس وبياس ومبانيهما وحدائقهما ، ويرى البحر الخضم ، وقد سترت الغيوم البيضاء زرقة ، فزادت في روعة المشهد .

وهذا ما حمل ياقوت في معجم البلدان أن يذكر جبل اللكام قائلاً : هو الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون ، والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور . ا هـ .

بيلان : هذا وفي (الكيلومتر ١٣) يصل السائح إلى بيلان . وهي بليدة جميلة المنظر ، طيبة الهواء ، غزيرة المياه ، علوها ٥٠٠ متر ، يشطرها الوادي السحيق الفاصل ما بين جبل اللكام وجبل الأحمر إلى شطرين ، بنيت دورها في سفحي الوادي بعضها فوق بعض ، سكانها ثلاثة آلاف ، ثلثها من الترك والثلث من الأرمن ، ولغة الجميع التركية . لم يذكر جغرافيو العرب بيلان ! اذ لم تكن عامرة في زمنهم ، وربما هي التي كانت تدعى باب أسكندرون . قال أبو الفداء : « باب أسكندرون في زماننا ، هو (دربند) بلاد سيس من جهة حلب ، وهو على دون مرحلة من بغراس ، وليس هناك مدينة بالأصالة ولا قرية ، وبين بغراس وباب أسكندرونة اثنا عشر ميلاً » ا هـ . قلت : والعمران كان منحصراً بقلعة بغراس ، أما الدربند ، أو الباب الذي كان يدعوه الإفرنج باب سورية Pylea Syriae ، ومنه مرت في العصور الغابرة أكثر جيوش الفاتحين الواردين على الشام ، أو الخارجين منه ، فقد كان يتدئ في الغرب من قرب الأسكندرونة ، من قرية اسمها أشقر بكلي ، ويمتاز الموضع المعروف باسم عاتق بويني (رقة عاتق) . وكان هذا الطريق المهجور مرصوفاً بالحجارة الضخمة ، التي لاتزال ماثلة للعيان ، شأن الأرصفة الرومانية المنتشرة في كثير من مسالك الشام والأناضول ، وكان فيه في موقع يدعى يوقاري كديك (المضيق الأعلى) باب في سد عظيم خراب ، عرضه عشرة أذرع ، يظن أنه هو الذي ذكره جغرافيو العرب باسم باب أسكندرون ، وذكره الإفرنج باسم باب سورية . ويظهر أن هذا الطريق تشعث بعد حين ، وصار وعراً يقاسي فيه المسافرين مشقات زائدة ، لاسمها عند وصوله إلى قرية جقاللي . وكانت بيلان في تلك العصور خالية من السكان ، مكسوة أرضها بالغابات ، يلجأ إليها قطاع الطريق ، ويتعرضون لأبناء السبيل وينهبونهم . فبلغ خبرهم السلطان سليمان القانوني العثماني ، وذكر له مكانة موقع بيلان من ناحيتي سوق



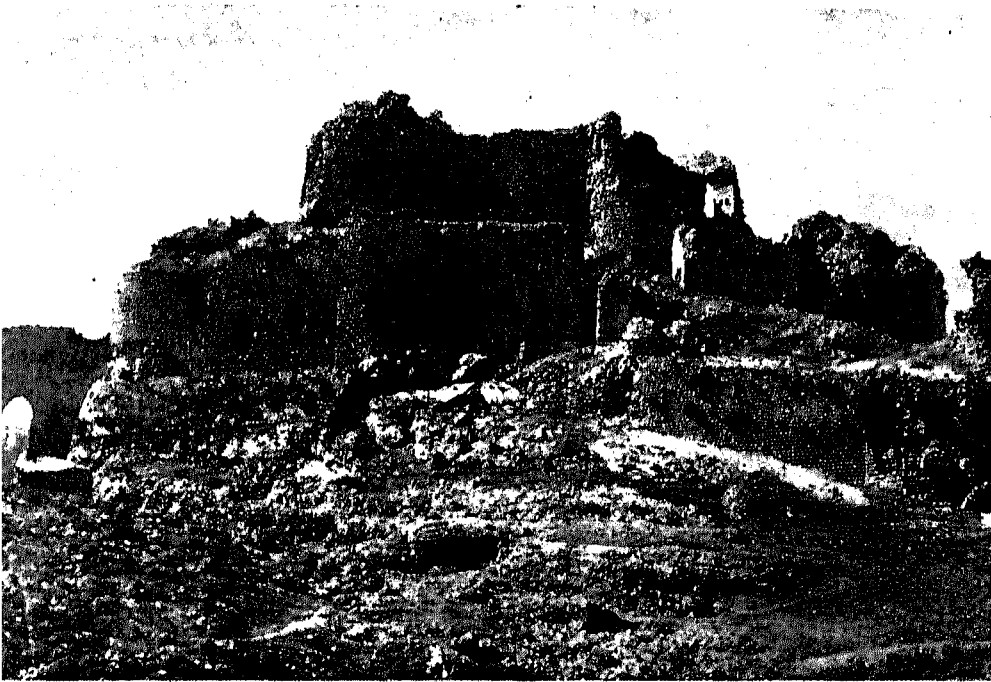
بيلان

وبعد مغادرة بيلان ، يظل السائح صاعداً في مضيق بيلان ، أو دربند بغراس إلى
منتهاه في (الكيلومتر ٢٦) حيث العلو ٧٠٠ متر ، فيشرف من هذه الروابي النظرة على
منظر غاية في الروعة والبهاء ، فهو يرى في الشرق سهل العمق ومستنقعاته وبحيرته ،
والجبال والآكام المحيطة به ، فيخلق في سماء التفكير ، ويتذكر كيف مرت من هنا جحافل
الآشوريين والفرس ، والمقدونيين والرومانيين ، والبيزنطيين والمسلمين الأولين بقيادة
ميسرة بن مسروق العبسي ، ومن بعدهم غزاة الصائفة من الأمويين والعباسيين ، والحملة
الصليبية الأولى ، وجيوش المماليك والتركمان والتتر ، وإبراهيم باشا المصري الذي كسره
سنة ١٢٤٨ هـ الجيش العثماني بقيادة السردار حسين باشا ، عقب معركة هائلة ، جرت في
هذه الروابي والهضاب ، ويتذكر كيف وقف فيه القيصر البيزنطي هرقلوس المفجوع
بانتصار العرب على جيوشه ، وبخسرانه سورية كلها ، وقال مودعاً : سلام عليك يا
سورية ، سلام مودع ، لا يرجو أن يرجع إليك أبداً ، وقال أيضاً : ويحك أرضاً ،
ما أنفعك لعدوك ، لكثرة ما فيك من العشب والخصب ، ثم مضى إلى القسطنطينية . وبعد
المضيق يبدأ الطريق بالانحدار ، ففي (الكيلومتر ٢٦) موقع جقالي ، وفيه مخفر للدرك ،
يؤمنون السابلة في هذه المسالك المخوفة ، وهنا يلمح السائح على يمينه (قلعة بغراس)
رابضة فوق رابية ، تشرف على هذا الطريق . وفي (الكيلومتر ٢٧) ضويدة تدعى طوب
بوغاز ، واقعة في سفح الجبل وأول سهل العمق ، وفيها مفرق الطريق الذاهبة جنوباً نحو
أنطاكية .

قال أبو الفداء : بغراس من جند قنسرين ، ذات قلعة مرتفعة ، ولها أعين وواد
وبساتين . قال ابن حوقل : وبغراس على طريق الثغور ، وكان بها دار ضيافة لزييدة ،
وهي في الجبل المطل على عمق حارم . وفي معجم البلدان لياقوت : بغراس مدينة في لحف
جبل اللكام ، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ ، ذكرها البحري في شعر مدح به أحمد بن
طولون ، الذي حاصر سوا الطويل التركي صاحب أنطاكية في سنة ٢٦٤ هـ ، وجرت بينهما
حروب كثيرة ، ببلاد جند قنسرين والعواصم .

قال البحري :

سيوف لها في كل دار غداً ردى وخيل لها في كل دار غداً نهب
علت فوق بغراس فضائق بما جنت صدور رجال حين ضاق بها درب



قلعة بفراس

كانت تدعى هذه القلعة في زمن الروم حصن لوقا ، وهي في يومنا خراب في
الجملة ، على أن أطلالها لا تزال ماثلة ، وهي كبيرة كانت تسع زهاء ألفي جندي ، وكان لها
سوران وكنيسة وهو كبير ، وأربع طبقات من القاعات المعقودة سقوفها ، وكثير من
المستودعات والاصطبلات والغرف والآبار ، وكان لها قناطر علوها ثمانية عشر متراً تأتي
بالماء من الجبال إلى القلعة ، والبناء الحالي إسلامي ، يتخلله بعض آثار للروم
وللصليبيين . قال (الكولونيل جاكو) مؤلف كتاب أنطاكية ماخلاصته : « إن لقلعة
بغراس مآسي مفجعة في تاريخ المسلمين ، منها أن الروم لما جاؤوا بقيادة القيصر (نيكفور
فوكاس) في سنة ٢٥٨ هـ ، وغزوا بلاد الشام حتى حمص وعرقا وطرابلس وجميع الساحل ،
وأعملوا فيها النهب والحرق والخراب ، عادوا ومعهم من سبايا المسلمين مئة ألف صبي
وصبية ، ولما ساقوا هؤلاء المساكين أمامهم ، ليأخذوهم إلى القسطنطينية اشتدت أنواء
الشتاء ، وسدت المسالك في جبال آمانوس وطوروس فاضطروا للوقوف بهم في قلعة
بغراس . ولما لم تكن الأقوات ووسائل الإيواء والتدفئة كافية فني معظمهم بالجوع والبرد
والأمراض ، وقبروا في سهول العمق ، ثم سيق من بقي منهم إلى القسطنطينية » ا هـ .
قلت : وبعد ثلاث سنوات تمكن الروم من فتح أنطاكية ، بخيانة أهل بغراس ، الذين بعد
أن التجؤوا إلى أنطاكية ، تقبوا الأسوار ومكنوهم من الدخول . وحينما جاء الصليبيون في
الحملة الأولى ، أخذوا بغراس فيما أخذوه من بلاد الشام الشمالية ، وجعلوها مع قلعة دربساك
وحارم وأرتاح في جملة الحصون المكلفة بالدفاع عن أنطاكية ، إلى أن جاء السلطان
صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ ، فحاصر بغراس ودربساك وقتلها بشدة حتى افتتحها
بالأمان ، وأخرب بغراس ، لكن الداوية ، أي الفرسان الهيكليين رجعوا إليها بعد حين ،
وعمروها إلى أن جاءهم سنة ٦٣٥ هـ عسكر حلب مع المعظم توران شاه عم الملك العزيز
حفيد صلاح الدين بن أيوب ، فحاصروا بغراس ، وأشرفوا على أخذها ، ثم رجعوا عنها
بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية ، وبعد بضعة أعوام جاء ملك الأرمن ابن لأون فدخل
بغراس ودربساك وظلا بيده تارة ، ويبد الفرسان الهيكليين أخرى إلى أن استولى الملك
الظاهر بيبرس عليها نهائياً سنة ٦٦٧ هـ ، عقيب فتحه أنطاكية عنوة . وقد مر ابن
بطوطة سنة ٧٢٥ هـ ببغراس ، فقال : « حصن بغراس حصن منيع لا يرام ، عليه البساتين
والمزارع ، ومنه يدخل إلى بلاد سيس ، وهي بلاد الأرمن ، وأمير هذا الحصن صارم الدين

ابن الشيباني ، وقد لقيت هذا الأمير ، ومعه قاضي بغراس ، بموضع يقال له العمق ، متوسط بين أنطاكية وتيزين ، وبغراس ينزله التركان بمواشيهم لخصبه وسعته « ا هـ . وقال شيخ الربوة شمس الدين محمد الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ، في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر : « ومن الثغور الساحلية الجبلية ، دركوش ودربسك ، وبغراس وحجر شغلان ، والأسكندرونة وقصير أنطاكية ، وينرا ولها بحيرة حلوة من النهر الأسود بينها وبين بغراس « ا هـ . هذا ولم يبق من القرية في أسفل القلعة من العمران الذي ذكره (أوليا جلبي) سوى ثلاثون أو أربعون داراً منتشرة على طول الوادي ، والعيون والبساتين التي ذكرها أبو الفداء وابن بطوطة يسكنها فلاحون من النصيرية والتركان .

طريق حلب بعد طوب بوغاز

بعد مغادرة طوب بوغاز ، يلمح السائر على يمينه عن بعد قرية (صوغوق صو) الأرمنية المظلمة بأشجار الدلب ، وفيها أطلال ومدافن قديمة . ثم يعلو مرتفعات تفصل بين نهري كوزبل وقرق خان المنصبين على العمق . ثم يدخل وادي قرق خان ، الطويل الظليل الغزير المياه والأرجاء ، والبساتين والكروم ، ثم يصل في (الكيلو ٣٩) إلى قرق خان (الخان المكسور أو الأربعين خان) .

وقرق خان قرية على سيف العمق الغربي الشمالي ، أدركتها سنة ١٣١٨ هـ في طريقي من كلس إلى الأسكندرونة ، حين لم يكن فيها سوى خان كبير ، تنزله قوافل المسافرين ، وعدد يسير من الدور والأكوخ الخفية ، التي شادها عامئذ مهاجرو جزيرة كريت المسلمين . وقد هلك بعد هؤلاء المساكين ، من وبال المرتع في جوار أجام العمق ، ولم يبق منهم إلا القليل . ومرت سنة ١٣٤٣ هـ بقرق خان ، فوجدتها قد صارت بليدة ، حافلة بالدور والمنشآت المبنية من اللبن والقصب ، والفنادق والمقاهي المبنية من الحجر وغيرها ، اصطنعت على المنشآت حول الطريق العام الذاهب إلى حلب ، لاتسع فيها سوى اللغتين التركية والأرمنية . وقد أن تطرق أذانك كلمة عربية ، لأن نحو نصف قطائعها البالغين ٥٠٠٠ هم من الأرمن الذين جلوا من كيليكية ومرش ، وألبقية أخلاط من تركان وأكراد . وفي قرق خان دار حديثة لحكومة القضاء وجامع وثلاث كنائس ، وأربع مدارس وسبل عديدة ذات مياه عذبة ، لكن هواءها مابرح رديئاً ، وحى البرداء سائدة ، وحر الصيف ورطوبته شديدا الوطأة . وفي قضاء قرق خان ، أربع نواح هي : قرق خان (وادي نهر الأسود الأسفل) وحاجيار (وادي نهر الأسود الأعلى) وبيلان (الجبل الأحمر) وريحانية (سهل العمق) . ويقطن التركان والكرد في النواحي الثلاث الأولى ويكثر سواد العرب في ناحية الريحانية ، وهؤلاء العرب مزارعون لدى سرة التركان المنتسبين لآل مرسل الملقبين بالأغوات ، وثمة بضع مئات من مهاجري الشركس ، جاؤوا منذ نصف قرن ،

ومثلهم مهاجرو الأرمن الذين اختطت لهم السلطة الإفريقية في شرق العمق مستعمرات ،
في سنة ١٣٤٧ هـ سيأتي ذكرها .

وصف سهل العمق : حدود سهل العمق تبدأ في الغرب من قرى : طوب بوغاز
فقرقخان ، فالحمام فالريحانية ، فيني شهر فوزوازة ، فحجر الحديد فعلاء الدين ، فالآخان
فبغلامه ، فبغراس فشمبيك . تبلغ مساحته ١٦٠٠٠٠ هكتار منها ٣٠٠٠٠ هكتار مما لا يمكن
استغلاله يدخل فيه ٢٢٠٠٠ هكتار للمستنقعات ، و ٩ - ١٠ آلاف هكتار لبحيرة
أنطاكية .

ويصب في هذا السهل ثلاثة أنهر ، تأتيه من جبال عينتاب والكرد وجبل اللكام ،
وهي عفرين ونيغرا والنهر الأسود ، وثمة أنهار صغيرة ، تنبجس عيونها في الشرق من الجبل
الأعلى ، كنهر أرتاح ونهر عم ونهر حارم وغيرها . قال القلقشندي في صبح الأعشى :
« بحيرة أنطاكية ، وهي بحيرة بين أنطاكية وبغراس وحارم ، في أرض تعرف بالعمق ، من
معاملة حلب شمالي أنطاكية ، على مسيرة يومين من حلب في جهة الغرب عنها . وفيها
مصب نهر عفرين والنهر الأسود ، ونهر نيغرا ودورها نحو مسيرة يوم ، وأجام القصب
محيط بها ، وفيها من الطير والسمك نحو ما تقدم ذكره في بحيرة آفامية » اهـ . قلت :
هذه البحيرة مثلثة الشكل ، طولها من الشرق إلى الغرب نحو أربعة عشر كيلومتراً ، ومن
الشمال إلى الجنوب عشرة كيلومتر ونصف ، وسبب وجود هذه البحيرة عسرة خروج
مياهها من مخرجها الذاهب إلى العاصي ، حيث الميل لا يزيد في الكيلومتر عن عشرة
سنتيمتر .

وهذا المخرج ضيق يمتد من الشمال إلى الجنوب ، ويجري ماؤه متشاقلاً ببطء زائد ،
وهو يلتوي كالأفعى ، إلى أن يلاقي العاصي ، وماؤه أصفر اللون لزج ، مملوء بالخنكليس ،
الذي يصطاد بكثرة ويملح ويصدر إلى البلاد . وجل صخور العمق طباشيرية ، وأراضيه
طينية كلسية إلا في قليل من المواضع تكون صلصالية ، والصخور حرية (بازلتية) ،
وكية أمطاره لا تزيد في السنة على الخمسة مياثر ، وهواؤه وبيل ، ووطأة الحرفيه أشد
منها في الساحل ، وتفوح من مستنقعاته رائحة تعافها الأنفس ، تنشأ من تفسخ نباتات
الآجام ، وتنتشر فيه سحب قائمة من أسراب البعوض ، هي علة الوبالة (حمى البرداء)

التي تفتك في أهله . وسبب وجود هذه المستنقعات ، كون ماء البحيرة لا يندفع بسهولة في المجرى الخارج منها إلى العاصي ، وثمة سكور أقامها البعض ، لاصطياد السمك ، لا سيما الحنكليل والسلور ، يدعونها داليان ، هي أيضاً من العثرات الواقعة في وجه الماء . وهذه السكور التي أغرقت قرى ، وعطلت أرضين كثيرة ، أقامها في عهد السلطان عبد الحميد العثماني أحد أقارب وزرائه ، واستدر منها ريعاً عظيماً ، ثم جاء في سني الحرب العامة قائد تركي ، ففسدها بالديناميت وخرّبها ، ثم بعد الاحتلال الافرنسي ، أعادها بعض ذوي الجشع ، وأعاد بذلك الأضرار التي كانت تحدث من جرائها ، وما برح النضال مستمراً بين من يروم بقاءها أو زوالها . ويقال : أن مستنقعات العمق كانت قديماً أقل سعة مما هي عليه الآن ، ويعزى ازديادها إلى الفتك بجراج جبل اللكام ، مما أدى إلى انهيار التربة من سطحه وسيرها مدفوعة بالسيول الجارفة نحو السهل ، فرسبت في طريق أنهره الثلاثة وتبسّطت ، ولم يبق ثمة المخدر كاف لجريان الماء بسهولة ، فحدثت المستنقعات ، وما زالت تكثر بمرور الأعصر ، والاستمرار على تجريد الجبال من أشجارها ، حتى بلغت سعتها الحاضرة . ولو تسنى تجفيفها لطاب المناخ ، وأمكن استغلال هذه المساحة الشاسعة بمختلف لزروع ، كالقطن وقصب السكر والأرز وغيرها . ويرى العارفون أن التجفيف يكون بإزالة السكور التي تقدم ذكرها ، وبكري قاع البحيرة ، ومجرى العاصي حتى أنطاكية ، وتعميقها ليسهل جريان الماء ، ويفتح أخاديد واسعة ، تحصر فيها مياه الأنهر الثلاثة وغيرها من الينابيع الواردة إلى العمق لتسيل فيها كما ينبغي .

تاريخ العمق : لا يزال وسط العمق تلال بارزة ، كانت فيما مضى قرى عامرة ، كما أن في وسط بحيرة أنطاكية برجاً يسميه الصيادون المأذنة ، مما يدل على ما كان عليه هذا السهل الأفيح من العمران ، أيام كان مملكة العنقي Ungui الآشورية ، أو Amykion Pédon اليونانية . وللعق ومستنقعاته ذكريات عديدة في تاريخ أمم الشرق والغرب ، التي استولت أو جاءت تستولي على أنطاكية ، عاصمة شمالي الشام ، وعروس مدنها في العصور القديمة . فالآشوريون والحيتيون ، والفرس واليونان ، والرومان والمسلمون ، والصليبيون والمصريون بقيادة إبراهيم باشا ، مروا من هذا السهل ، ذي المكانة الحربية الكبرى ، أو تطاحنوا فيه بمعارك دامية . عرفه من ملوك المسلمين ابن طولون في حروبه جولة أثرية (٥)

مع سما الطويل صاحب أنطاكية سنة ٢٦٤ هـ ، كما ذكرناه في بحث بغراس ، ووصف المتنبي مجاري العمق ووحوله في إحدى قصائده ، يمدح بها سيف الدولة ، لما عزم على السفر من أنطاكية إلى حلب ، في أيام شديدة الأمطار في سنة ٣٥٥ هـ ، وكان أوقع في العمق ، بأهل أنطاكية الذين عصوا عليه ، قال :

وما أخشى نبوءك عن طريق وسيف الدولة الماضي الصقيل
وكل شـــــــــــــــــواة غطريف تمنى لسيرك أن مفرقهـــــــــا السبيل
ومثل (العمق) مملوء دمــــــــاء مشت بك في مجاريه الخيول
إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحول

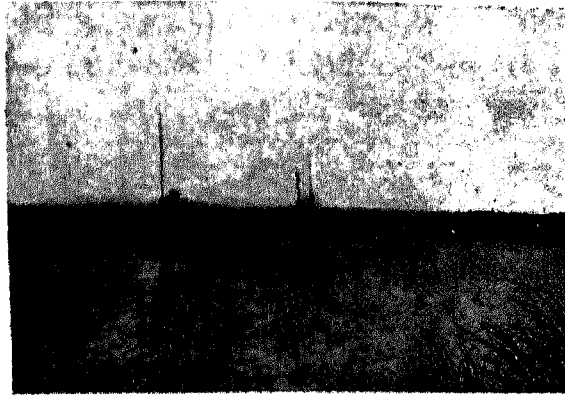
وعرفه (منجوتكين) قائد جيش الفاطميين ، الذي أوقع ببجيش نائب قيصر الروم في أنطاكية ، وذلك في سنة ٣٨٤ هـ ، وتعرف بوقعة المحاذرة . وحصلت فيه سنة ٤٧٨ هـ بين آخر أمير عربي في شمالي الشام ، شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي وسليمان بن قتلش السلجوقي صاحب قرنية وأقسري ، الذي استخلص أنطاكية من يد الروم سنة ٤٧٧ هـ وملكها . وكان مسلم باغياً فدارت الدائرة عليه في المصاف الذي جرى في العمق ، وقتل وانتهت به آخر أمانة للعرب ، وتولاها الترك من حينها . وحصلت في العمق بين نور الدين محمود زنكي وصليبي أنطاكية حروب كثيرة ، أخصها المصافين اللذين حدثا في سنة ٥٤٣ هـ في أرض يغرا ، فانكسر نور الدين في الأول ثم انكسر الإفرنج في الثاني ، هذا عدا عما جرى له حول قلاع حارم وارتاح وع ، وعما جرى لصالح الذين الأيوبي وللظاهر بيبرس حول أنطاكية ودرساك وبغراس وكلها من قلاع العمق المخصصة لحفظ أنطاكية .

وفي وسط سهل العمق وبين آجام القصب والأسل والخلفاء الباسقة فيه ، انتشرت مئات من الضياع الصغيرة ، ذات أسماء غريبة تركانية في الغالب ، تشهد بما للتركان النازلين فيه منذ القرن السابع الهجري ، من الأثر كباشا هيوك (جبل الباشا) وجقال تبه (ابن آوى) ، وبعضها عربية ك (سلام عليكم والذي) . وقرى العمق لا يمكن الوصول إلى معظمها في زمن الفيضان ، إلا بقوارب رقيقة خاصة ، وييوها أشخاص من القصب ، المطلي بمحبي البقر الجاف ، مكتظ بعضها ببعض ، بين الأوحال والأدغال ، وأهلها وجلهم من المزارعين العرب ، وبعضهم من التركان صفر الوجوه ، هزلى من وبال المرتع ، لكنهم

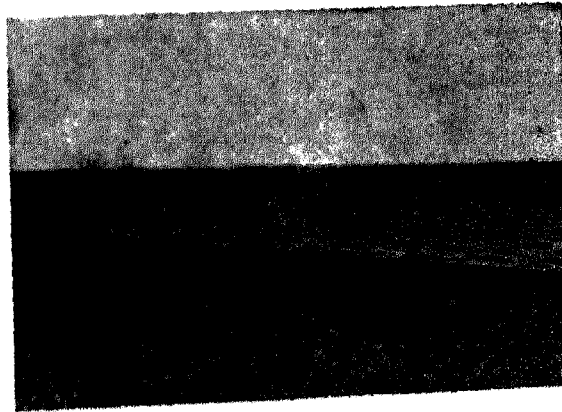
مرزوقون في الجملة ، فهم يقلعون عرق السوس الذي ينبت بكثرة ، ويستندرون ألبان الجواميس ، ويصطادون طيور الماء وأسماكها ، ويبقى لهم قدر غير يسير من الغلال بعد اقتطاع ما يصيب ملاكي القرى ، الذين تقدم ذكرهم ، وبين هؤلاء طبيب أرمني حلي طائل الثروة ، يستعمل الأساليب والآلات الزراعية الحديثة في أراضيه . والزروع الشتوية والصيفية في العمق تربو وتبسق كثيراً ، لزكاء تربته الرسوبية السوداء - وقد نوه بذلك ابن بطوطة - ، والعمق على علاته ما برح منذ القديم ملجأ المعوزين ، من سكان السهول والجبال الممتدة في شرقي حلب وجنوبها ، يفدون إليه أفواجاً أفواجاً في السنين التي يصيبهم المحل فيها ، كما جرى في سني ١٣٥١ و ١٣٥٢ و ١٣٥٣ هـ ، فيؤجرون من العمل في مزارعه الخصة ، ويقتاتون ويمتارون بفضلات حصائده وأعشابه ثم يرجعون .

وفي ضياع العمق غير الفلاحين العرب المذكورين ، قليل من صعاليك الأعراب النصف رحل ، ينتقلون بمضاربهم ، ويحترفون رعي الماشية ، بالاشتراك مع أصحابها ، وهم ينتسبون لقبائل وبطون شتى ، منازلها الأصلية في أعمال حلب الشرقية والجنوبية ، كالعقيدات والقبيعات ، والبقارة والأبوشعبان ، والجنيدات والحسينات ، والمجادمة والأبو خميس ، وبني سعيد وأبو جابر ، وأبو سلطان وغيرهم ، ممن كثرت أسماؤهم وتشتت أنسابهم .

وفي شمالي قرق خان على بعد خمسة كيلو متر منها ، في الطريق الذاهبة إلى ناحية حاجيلر في وادي نهر الأسود الأعلى قرية تدعى آلاي بكلي ، تشرف عليها من على أطلال قلعة دربساك ، التي تقدم ذكرها في حديث قلعة بغراس . ودربساك مبنية فوق أكمة صخرية ، قائمة اللون منفصلة عن الجبل المجاور لها ، لا تتصل به إلا بجسر ما برح واقفاً . وقد كانت هذه القلعة تحرس طريق حلب ومضيق بيلان ، وتحرس أيضاً الثنية ، أي الطريق الجبلية الذاهبة إلى خليج الأسكندرونة مباشرة ، من وسط مضائق أشميشك وآيلان يايلاسي وحجر شغلان . ومن هذه الثنية سر - فيما قيل - الملك الظاهر بيبرس ، حينما غزا بلاد سيس . قال أبو الفداء في تقويم البلدان : « دربساك من جند قنسرين ، ذات قلعة مرتفعة ، ولها أعين وبساتين ، وهي خصبة ولها مسجد جامع ومنبر ، ولها من شرقيها مروج متسعة ، حسنة كثيرة العشب ، ير فيها النهر الأسود ، وهي عن بغراس في الشمال ، بميلة إلى الشرق ، وبينها نحو عشرة أميال ، وفي شرقي دربساك يغرا ، وهي قرية



قوارب الصيادين في العمق



قطعان الجواميس في العمق

أهلها نصارى ، صيادون يصيدون السمك ، وهي على بعض مرحلة من دربساك ، والطريق من الشام إلى دربساك وبغراس على يغرا المذكورة « ا هـ . قلت : ويظن أن يغرا هي الآن قرية قالا ، التي اختص أهلها بصيد السلور ، في بحيرة يغرا ، والتي تدعى الآن كول باشي ، وهي إلى الشمال من جسر مراد باشا ، الذي سيأتي ذكره في بحث طريق حلب . وقد ذكر ياقوت بحيرة يغرا في مادة عين السلور ، قال : « وهو السمك الجري بلغة أهل الشام » . قال البلاذري ، « وكانت عين السلور وبحيرتها لمسلمة بن عبد الملك ، ويقال لبحيرتها بحيرة يغرا ، وهي قرب أنطاكية ، وإنما سميت عين السلور لكثرة هذا النوع الذي بها من السمك » ا هـ .

وفي قرية آلاي بكلي المذكورة مسجد قديم ، فيه ضريح أو مقام لولي ، اسمه أبا يزيد البسطامي ، يزوره الأهلون في هذه الرباع^(١) ، وكان هذا المسجد أشرف على الدثور ، فرممه سنة ١٣٠٨ هـ صاحب خير من سراة تركان العمق . وفي شمالي قرية آلاي بكلي ، قرية أخرى تدعى كوندوزلي ذات مياه سارية وطواحين ، في قربها أكمة صخرية من أعضاد جبل اللكام ، تشرف على وادي نهر الأسود ، وعلى حرة اللجة^(٢) ، حفر الأقدمون فيها كهوفاً عظيمة ، بعضها يعلو بعضاً ، تحتوي على قبو ونواويس ، وعلى أبواب هذه الكهوف كتابات يونانية ، وأفاريز بارزة راكبة على أعمدة ذات تيجان ، وكلها منحوت في صخر الأكمة غير منفصل عنه . وفوق هذه الكهوف ، تماثيل منحوتة في الصخر أيضاً ، يتعذر الوصول إليها لعلوها ، تمثل خمسة الأشخاص واقفين ، وفي الجبل المناوح للكهوف المذكورة ، خرائب كوندوزلي المشهورة ، وهي أطلال بلدة خربة ، فيها شوارع مرصوفة ، وأسس دور متهدمة ، وأعمدة متكسرة ، ونواويس وأجران ماء ، وتماثيل وغيرها من الآثار .

وبعد مغادرة قرق خان الواقعة في (الكيلو متر ١٠) عن طوب بوزغاز ، يرى السائر

(١) لهذا الولي الفارسي ضريحان آخران أحدهما في الرستن قرب حمص ، والثاني في قرحتا قرب دمشق ، وسيأتي ذكرهما .

(٢) الحرة في اللغة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت ، والجمع الحرات ، كحرة اللجة في شمالي العمق ، وحرة اللجا في شرقي حوران .

في (الكيلو متر ٤٢) ضيعة طرون على يسار الطريق ، ثم يجتاز في (الكيلو متر ٤٥) جسرين على نهر الأسود ، ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي فيجتاز في (الكيلو متر ٥٢) جسر مراد باشا ، وهو جسر قديم ، مستطيل مستقيم الظهر ، ذو سبع عشرة قنطرة ، شيد فوق نهر يغرا ، الذي يأتي من الشمال من بحيرة يغرا ، ويصب في الجنوب في بحيرة أنطاكية . ثم يستأنف اجتياز سهل العمق ، إلى أن يدخل في بقعة محصورة بين أكتين ، فيرى السائر قرى قسطل الباشا ومثليك كوى وعين البيضاء . وفي (الكيلو متر ٦٤) ينحرف نحو اليمين ، فيترك على يساره طريق المركبات القديمة بين الأسكندرونة وحلب المارة من الحمام وقطما ، وفي (الكيلو متر ٧٤) عند قرية المشرفية ، يجتاز جسر عفرين وطوله ٤٥ متراً ، ثم يتجه نحو الجنوب على خط مستقيم ، إلى أن يوافي في (الكيلو متر ٧٩) أرتاح التي كان فيها حصن ، عده ياقوت في معجمه ، من أمتع الحصون في العواصم ، وله ذكر في تاريخ الحروب الصليبية ، وقد دثر هذا الحصن ، ولم يبق من رسمه إلا اسمه ، وصار في غريبه قرية تدعى ريحانية ، يسكنها الشركس ، مؤلفة من عدة أحياء كأرتاح وأفنير أو ألف نير . وفي جنوبي الريحانية في (الكيلو متر ٢٨) قرية أخرى ، يقطنها الشركس أيضاً اسمها يني شهر (البلدة الحديثة) ، وفي هاتين القريتين ينابيع سارية ، ورباع مروية خصبة ، يزرعون فيها أنواع البقول التي تحصل باكراً ، وترسل إلى حلب . وأصل اسم يني شهر : عم ، ولا تزال بركتها تعرف باسم بركة عم ، واسمها الروماني : Imma . قال ياقوت : « عم بكسر أوله وتشديد ثانيه ، قرية غناء ذات عيون جارية ، وأشجار متدانية بين حلب وأنطاكية ، وكل من بها نصارى ، وقد نسب إليها قديماً قوم من أهل العلم والحديث . قال ابن بطلان في رسالته التي كتبها في سنة ٥٤٠ هـ ، إلى ابن الصايي : وخرجنا من حلب إلى أنطاكية فبتنا في بلدة الروم ، تعرف بعم ، فيها عيون جارية ، يصاد فيها السمك ، ويدور عليها رحى ، وفيها مشارير للخنازير ومباح النساء والزنا والخمور أمر عظيم ، وفيها أربع كنائس وجامع يؤذن فيها سراً » ا هـ .

قلت : وكانت عم في العهدين اليوناني والروماني ، الخاصين بأنطاكية تعد دفنة الثانية ، لكثرة ما كان فيها من الفنادق والقصور ، وأماكن اللهو والفجور . وظلت مكانتها في هذا المضار دائمة إلى العهد البيزنطي الثاني ، الخاص بأنطاكية ، حسبما ذكره ابن بطلان . وكان لعم أيضاً مكانة هامة من ناحية سوق الجيش ، لأنها حاكمة على رصيف باب

الهوا ، ومضيق عين دلفة في طريق حلب وأنطاكية ، وعلى الطريق الآتية من شمالي وادي عفرين والأناضول ، نحو أنطاكية أيضاً . لهذا فقد حدثت فيها فيما مضى معارك هائلة ، منها المعركة التي جرت بين زنوبيا ملكة تدمر ، والقيصر أورليانوس الروماني في سنة ٢٧٢ م ، وكانت الدائرة على جيش زنوبيا ، ومنها المعركة التي جرت بين منجوتكين قائد جيش الفاطميين ، وبين نائب قيصر الروم في أنطاكية في سنة ٣٨٤ هـ ، دارت الدائرة على النائب ، وتعرف بوقعة الخاضة ، ومنها المعارك العديدة التي كانت تجري بين الصليبيين والمسلمين ، أحرقتها مرة نجم الدين إيلغازي ، وانتصر حولها مرة بودوين الثالث ، وتتابع انتصارات نور الدين محمود لما استولى على حارم . وفي زلزلة سنة ٥٥٢ هـ خرب حصن عم بالمره ، وأفل نجمها من ذلك الحين ، وما زالت خراباً تعرف باسم البركة ، إلى أن وفد مهاجرو الشركس في غرة هذا القرن إليها وإلى حران والريحانية المجاورتين لها ، فلم يعد بوجود هذا الشعب الورع مكاناً لرجوع الحالات التي وصفها ابن بطالان قط .

وبعد يني شهر (ع) بقليل ، مفترق الطريق الذهاب إلى أنطاكية والفرع الناشط منه نحو حارم ، وما وراءها (وسنعود لوصفها) . أما طريق حلب فتتد بعد يني شهر نحو الشرق ، وسط وادٍ عريض ، فيلمح السائر على يمينه في لحف الجبل قريتي حران العرب وحران الشركس . وبعد قليل يصادف التخم الفاصل بين لواء الأسكندرونة وولاية حلب . ثم في (الكيلو متر ٩٢) في سفح جبل باشا عين دلفة ، وفيها مخفر لجنود الدرك ، وعين جارية تسيل في المنحدر الكائن على يمين الطريق ، وفي هذا المنحدر كثير من الأطلال الدارسة من العهد البيزنطي ، أحدها طلل كنيسة عظيمة ، لا يزال بعض أنقاض الحنايا ، وكثير من الأعمدة المكسرة الخاصة بها ظاهراً ، وعلى يسار الطريق وادٍ جاف ، فوقه بنائان من أحجار ضخمة ، راكب بعضها فوق بعض . ثم يتغلغل الطريق في مضيق دلفة ، الممتد بين آكام جبل باريشا ذي الصخور السنجابية ، ففي (الكيلو متر ٩٣) على اليمين ، وفوق الطريق بقليل ، مغارة كبيرة فيها نبع ، يزعمون أن زيارتها تنفع الأمراض العاجزات عن الإرضاع ، وفي (الكيلو متر ٩٤) على يسار المضيق ، منفرج بسيط فيه أطلال قصر البنات . ويظهر أن أصل هذا القصر دير كبير ، من القرن الخامس الميلادي لإيواء حجاج بيت المقدس ، ولوقوعه في هذا المضيق المخوف كان محصناً . وهذا القصر

مؤلف من مباني ، اجتمعت حول باحة كبيرة ، يشرف عليها برج ذو ست طبقات ، علوه أكثر من ثلاثين متراً . وفي كل طبقة غرفة كبيرة وغرفتان صغيرتان ، والنوافذ صغيرة ، ولا يزال في بعض الغرف آثار ملاط الكلس ، وعليه نقوش هندسية ملونة . وحول الباحة ثلاثة مباني ، كانت على ما يظهر دوراً للضيوف ، ووراءها في لحف الجبل بناء طويل ، وربما كان صومعة الرهبان . وفي يمين الباحة كنيسة طولها ٢٦ متراً في ٢٠ متراً منهدمة بالمرّة ، يرى فيها أحجار وتيجان أعمدة ، على أحدها كتابة يونانية قرأ الأثريون فيها ، أن مهندس هذه الكنيسة اسمه كيريس ، ولعله مهندس كنائس قريتي بابسقا ودار قيطا ، في جبل باريشا التي سيأتي ذكرها .

وبعد قصر البنات بمئتي متر على يسار الطريق ، في أضيق مكان من المضيق ، نقر في الصخر من عمل الرومانيين ، ثم على حافة الطريق كتابتان زبرتا على الصخر ، الأولى تهنئة بظفر القيصر ماركوس أورليوس ، والثانية بيان عن نخوم قريتين في هذه البقاع ، وفي (الكيلو متر ٩٧) برج المدخر ، وعلى يمين الطريق شعب في الجبل ، يوصل القاصد إلى خرائب جبل باريشا ، وهنا تظهر للسائر أنقاض وخطوط الرصيف الروماني ، الذاهب من أنطاكية إلى قنسرين فحلب ، وفي (الكيلو متر ٩٩) باب الهوا المبني على تخطيط الرصيف الروماني ، وتحت قوس نصر كبير استند على ركيزتين كبيرتين . ولم يعرف تاريخ هذا البناء وسببه بعد ، وقبل الباب على اليمين أطلال كنيسة ، وعلى اليسار أطلال دار ضيافة ، مع حوض ماء منقور في الصخر ، ينزل إليه بدرج . وإلى اليمين من باب الهوا ، على مرتفع مخفر حديث لجنود الدرك ، وبعد باب الهوا يدخل الطريق سهل الحلقة ، الذي يحتوي على عدة قرى أعداء اشتهرت بخصبها وجودة قطنها ، وهي سرمدا وتل عقبرين ، ودانا ودير حشان ، وترمانين وتل عدة ، وأطمسة وعقربات ، وكفل دين وتيزين العتيقة ، وفي تيزين بيعة تاريخها سنة ٥٨٥ م لا تزال الطبقة الأولى والجدار القبلي من واجهتها سالمة ، تشبه في تخطيطها بيعة دار قيطا ، وكانت تيزين تدعى تيزين العمق أيضاً ، لقربها منه ، وتييزاً لها عن تيزين ثانية غربي حماة ، وإلى الأولى كانت تنسب الكورة . وفي (الكيلو متر ١٠٢) على اليمين يلمح السائر سرمدا ، كان لها ذكر في فتوحات أحد فراعنة مصر تحوتمس الثالث ، وفي أيام الصليبيين كانت من مخافهم الأمامية . وفيها بناء كان مدفناً ، فيه عامودان كورنثيان ، مرتبطان فوق قاعدة مرتفعة ، جعلت أمام

باب ضريحين تحت الأرض ، وتاريخ هذا البناء سنة ١٣٢ م . وفي (الكيلومتر ١٠٤) على يمين الطريق قرية تل عقبرين ، وكان للصليبيين فيها حصن ، ولا يزال يظهر في أعلى القرية بناء ذو طبقات مع نوافذ ذات أفاريز جميلة ، وفي جنوبها كنيسة جدارها الجنوبي منقور في الصخر .

ومن تل عقبرين طريق لاجب^(١) تصل إلى دانا وترمانين ، ففي دانا مدافن كثيرة منقورة في الصخر ، في أعلاها بناء عجيب الشكل ، محمول على أربعة أعمدة ، كان يعلوه أهرام دثر معظمه الآن ، وقد قرأ الأثري دي فوكه في سنة ١٨٦٠ م على أحد أقواسه تاريخ ٣ آذار سنة ٣٢٤ م . وفي ترمانين دور أثرية ومدافن تحت الأرض لها أدراج ، وعلى بعد نصف ساعة في شمالي ترمانين دير مانين القديم ، وهو بناء عظيم ، ربما كان دار ضيافة للمسافرين ، له طابقان وأمامه باحة مبلطة وحوضان للماء ، وفي جانبه كنيسة ذات أعمدة مندثرة بالكلية . قال ياقوت عن هذا الدير : « وهو بين حلب وأنطاكية مطل على بقعة تعرف بسرمد ، وهو دير حسن كبير ، إلا أنه خراب وآثاره باقية » اهـ .

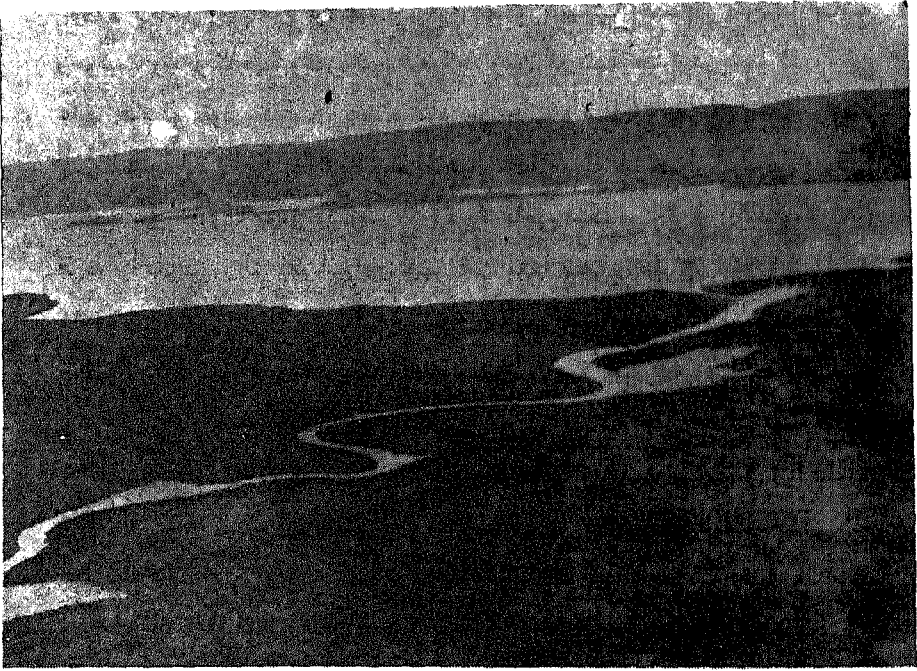
وفي (الكيلومتر ١٠٦) يلمح السائح على يسار الطريق الرصيف الروماني القديم ، وهو باق هنا على جدته ، رغم كره الدهور ، طوله ١٢٠٠ متر ، مبلط بأحجار ضخمة يبلغ طول بعضها متران في ١,٢٠ متر ، وكانت هذه الأحجار قديماً منقورة ، لمنع انزلاق أرجل الدواب ، لكن هذا النقر زال بمرور الزمن ، وأحدثت المياه في بعض أماكنه حفراً عميقة . وعرض الرصيف ستة أمتار ، وعلوه عن الأرض نصف متر ، ولا يعلم العهد الذي بني فيه هذا الرصيف العجيب ، الدال على همة الأقدمين القعاء ، لكنه من آثار الرومانيين دون ريب ، لأنهم مدوا مثله كثيراً من الأرصفة في مختلف البقاع ، التي سيأتي ذكرها في جولتنا ، وهو من القرن الثاني الميلادي ، الذي حدثت فيه أعظم غارات الرومانيين في شرقي بلاد الشام ، وبعد الرصيف بمسافة ينتهي سهل الحلقة ، ويدخل الطريق في واد ، بين آكام صخرية ، التي على اليمين من أعضاء جبل باريشا ، والتي على اليسار من أعضاء

(١) عنيت باللاجب واللجب الطريق غير المعبدة الصالحة لمرور السيارات وهو ما يدعونه بالفرنسية Piste ، وبالطريق المعبدة ما يدعونه Chaussé ، وذلك ريثما تقرأ الجامع اللغوية العربية على كلمات تقابل هذه المصطلحات المصرية فندرج عليها .

جبل سمعان . وبعد انتهاء هذا الوادي في (الكيلو متر ١١٠) على يمين الطريق قرية كفر كرمين ، المحاطة بأشجار الزيتون ، وفيها أطلال وآثار ، وهي أول قرية في حدود قضاء جبل سمعان . ثم تجتاز الطريق سهلاً أفيح ، في (الكيلو متر ١١٢) منه قرية الأثارب ، بنيت حول تل اصطناعي علوه خمسون متراً ، فوق قفته أطلال حصن قديم ، وجميع دورها قباب مخروطية الشكل ، وقد كانت الأثارب في العصور الغابرة ذات مكانة هامة من ناحية سوق الجيش ، لوقوعها في نقطة حاكمية على طريق أنطاكية وحلب . وقد ورد اسمها في قائمة البلدان التي سطرت في عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية باسم Lirabou ، وذكرها الرومان باسم Litarba ، ولا يزال فيها كثير من الأنقاض والآثار القديمة .

وفي عهد الصليبيين استولى عليها (تانكرد) وجعلها خلفاءه من حصونهم الأمامية ، الحصنة لحراسة أنطاكية من غارات المسلمين . وكان أول من استردها منهم نجم الدين إيلغازي في سنة ٥١٧ هـ ، ثم استرجعها بودوين . وفي تاريخ ابن الأثير أن الإفرنج بعد أن استلموا هذا الحصن ، اشتد ضرره على المسلمين ، حتى أن من كان به من الفرنج ، صاروا يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية ، حتى على رحا لأهل حلب ، فلما رأى ذلك عماد الدين زنكي قصده ، فلما علم الفرنج بذلك خرجوا والتقوا به ، فانكسروا كسرة شنيعة ، وتسلم المسلمون الحصن ، وأخبره عماد الدين وجعله دكاً . وفي (الكيلومتر ١٢٠) أورم الصغرى ، ضيعة فيها مخفر للدرك ، وتخم عليه كتابة ، تدل على افتراق الطريق من هنا نحو اللاذقية عن طريق إدلب ، ونحو حماة عن طريق سراقب والمعة ، ونحو أنطاكية والأسكندرونة عن طريق دلفة ويني شهر . وفي (الكيلومتر ١٢٥) أورم الكبرى ، وهذه القرية على نثر ، مشرف على ماحوله من سهول حلب الغربية ، الشاسعة الأعزاء ، الحمراء التربة ، الممتدة جنوباً نحو مطخ قنسرين ، وكل الأراضي المجاورة لأورم الكبرى ، تحتوي على آثار قديمة ، منقورة في الصخر ، وفي شرقيها بناء قديم عال ، مستطيل الشكل ، مشيد بأحجار ضخمة منحوتة ، يظهر أنه مدفن على شكل برج ، وقيل أن فيه مزار النبي شمعون . وفي (الكيلومتر ١٢٨) خان العسل ، قرية وسط واد ، وفيها على يسار الطريق قرب العين ، أطلال خان عربي قديم ، وعلى بابها كتابة . وفي هذه القرية مخفر لجنود الدرك ، وفي (الكيلومتر ١٤١) على يسار الطريق ، ضيعة اسمها بنيامين ، ذات قباب ، وفي (الكيلومتر ١٤٤) على يسار الطريق مفرق الطريق اللاحب ، الآخذ إلى قلعة جبل

سمعان الأثرية . ثم يصل الطريق إلى نشز من الأرض ، يشرف منه السائر على حلب ، التي تتجلى أمامه بقلعتها الشاهقة ، وأحيائها المكتظة ، ودورها وقصورها الحجرية الجميلة ، وإذا هبط من ذلك النشز ، يجتاز السكة الحديدية الزاهية إلى حماة ، ويترك على يمينه الطريق اللاحب القديم ، الزاهب إلى حماة ، ماراً بخان طومان ، ثم يدخل حلب في (الكيلومتر ١٤٧) ، من حي الجميلية في جنوبها الغربي^(١) .



بحيرة أنطاكية ومخرجها الزاهب إلى العاصي

(١) لم أشأ البحث عن حلب ، التي تحتاج هي وضوحها لمقال خاص ، ربما حاولت تدوينه بعد .

طريق المركبات القديمة بين الأسكندرونة وحلب

ترك هذه الطريق القديمة الطريق الحديثة وسط سهل العمق في (الكيلومتر ١٠٨)
(ابتداءً من الأسكندرونة) ، وتستأنف السير نحو الشرق الشمالي ، فتمر بقرية عرب
كوى ، ثم تصل إلى الحمام التي تعد آخر قرى العمق ، ييوتها أخصاص ، وفيها جامع
وحوانيت ومدير ناحية ومخفر لجنود الدرك ، وعين كهربيتية حارة درجتها ٤٢ ، أنشئ
عليها حمام ذو عقود وخلوات ، يقصده الناس من حلب وأعمالها ويضربون الخيام ، وقد
أنشأت بلدية القرية من عهد قريب فندقاً جميلاً ، صار ينزله المستحمون الموسرون . وهنا
ينتهي سهل العمق ، وفي (الكيلومتر ٩١) قرية حاجي اسكندر ، ثم في (الكيلومتر ٨١)
قرية جاندريس ، التي ذكر استرابون بأنها كانت ملاذاً لقطاع الطريق ، وفي (الكيلومتر
٩١) شيخ عبد الرحمن ، وعلى مقربة منه ضيعة تل حمو ، وهنا يمكن لمن بيده نظارة
مكبرة أن يرى دير سمعان الذي يدعى قلعة سمعان ، ماثلاً بجدرانها وقناطره وحناياه
وصوامع الرهبان ودور الضيفان المجاورة له ، ويلمح في أعلى قمة جبل سمعان مقام الشيخ
بركات ، وبعد أن يجتاز الطريق قرى تلفل وكفر بطرة وبابليت ، يصل في (الكيلومتر
١٠٥) إلى جسر نهر عفرين الحديدي ، وعلى يساره نشز صخري كان فوقه خان كبير
تنزله القوافل ، ثم دثر وبني مكانه وحوله منذ بضع سنوات بليدة حديثة سميت عفرين ،
وجعلت قاعدة لقضاء كرد طاغ كما جرى بقرق خان ، وعدد سكان هذه البليدة ثمانية ،
ثلثاها من الساميين والثلث من الأرمن الجالين من كليس وغيرها . وفي عفرين طريق
لاحب نحو الجنوب ، يمر بقرية طورندة ويصل إلى حصن الباسوطة ، أحد حصون
الصليبيين الذي كان يحرس مسلك عفرين ، لا تزال أطلاله ماثلة .

وقضاء كرد طاغ قضاء واسع ، من أعمال ولاية حلب ، قام مقام ناحية الجومة التي
كانت فيما مضى من أنحاء قضاء كليس ، وهذا القضاء ملآن بالجبال والهضاب المكسوة

بالغابات المختلفة الأشجار ، وبكروم الزيتون والعنب ، وفيه مياه جارية ، ورباع مسقوية ، وتربة خصبة ، وغلاته كثيرة متنوعة ، أجلها الزيت المشتهر بجودته ، لكن أهله وهم من أقحاح الأكراد ، وبعضهم يزيدي من عبدة الشيطان فيما قيل ، لا يزالون على جهلهم وجفائهم المطبقين ، يسودهم نفر من سرائهم الملقبين بالآغوات ، على طراز الحكم الإقطاعي الذي كان في العصور المتوسطة ، ويستبدون بهم وبثرات أتعابهم ، والخر والميسر منتشران بين سكان هذا القضاء ، وقتل النفس وأخذ الثأر لآفته سبب من أسهل الأعمال لديهم ، يرتكبونه ويلجؤون إما إلى جبالهم الوعرة ، أو إلى الحدود التركية القريبة . وقد ردد (أوليا جلبي) في رحلته الشكوى من أسلافهم مرارا (ص ١٥ ، ١٦) . وبعد عفرين تقترب الطريق من السكة الحديدية عند قرية عرش قيباز ، ثم تصعد في منعطفات شقت في الأضلاع الشمالية من جبل سماعيل ، إلى أن تصل في (الكيلومتر ١٢١) إلى قرية قطما ، وهي على نشز في يسار الطريق ، وفي قربها محطة السكة الحديدية الآتية من أذنة إلى حلب ، ومخفر محصن فيه جنود إفرنسيون . ويمكن أن تعد هذه الطريق القديمة إلى هنا حداً فاصلاً بين البقاع المتكلمة باللغة العربية ، وهي على يمينها ، والمتكلمة باللغتين التركية والكردية وهي على يسارها . وبعد قطما بمسافة مفترق الطريق الذاهبة إلى أعزاز (١٦ كيلومتراً) ، ثم إلى كليس التي تعد أول بلدة في الحدود التركية . وفي طريق أعزاز يجتاز السائر السكة الحديدية ، ثم يمر بقرية سيجراز إلى أن يصل أعزاز . وأعزاز قرية كبيرة تعلو عن البحر ٦٠٠ متر ، سكانها ٥٠٠٠ ، ثلثاها من العرب وثلثها من الأرمن ، وهي قاعدة قضاء واسع ، كثير القرى المتدانية ، الممتدة في سهول شاسعة أعزاء حراء ، زكية التربة ، وافرة الغلات ، تخصب حتى في السنين التي تحمل فيها بقاع حلب ودمشق ، كسنة ١٣٥٢ هـ التي زرت أعزاز فيها وأعجبتني زروعها ، وأعزاز في سفح تل صناعي عال ، يكاد يزول كان فيه حصن لم يبق منه أثر ، لأنه كان مبنياً باللبن والمدر ، دمرته الزلزلة سنة ٣٦٣ هـ . ملك الصليبيون أعزاز ودعوا Hazart ، وأتبعوها أولاً بالرها ثم بأنطاكية ، ورموا حصنها ، وجعلوها من المخافر الأمامية في وجه المسلمين في حلب ، إلى أن استردها منهم نور الدين محمود زكي سنة ٥٤٦ هـ ، وبعد أن رمها الملك الظاهر غازي الأيوبي صاحب حلب ، وعمر قلعتها ومسجدها الجامع ، خربها التتار في سنة ٦٥٨ هـ شأنهم في كل قلاع الشام ، فنزح أهلها عنها إلى كليس وغيرها من البلاد ، فاضمحلحت حتى صارت قرية

حقيرة . قال ياقوت : « والعزاز الأرض الصلبة ، وهي بلدة فيها قلعة ، ولها رستاق شمالي حلب ، بينها يوم واحد ، وهي طيبة الماء عذبة الهواء لا يوجد بها عقوب » ا هـ . وصحيحه أن هواء أعزاز يفسد في بعض السنين التي تزرع فيها ضاحيتها ، وليست كل مياهها عذبة ، وفي أعزاز جامع قديم كبير ، له صحن واسع فسيح ، في شماليه رواق وفيه مأذنة ضخمة ، وفي وسطه حوض يهبط إليه بدرجات ، يأتي مأؤه من قناة ، وحرم الجامع واسع ، له قباب محمولة على ركائز ضخمة ، وقد قرأت على باب الجامع ، أنه أمر بعمله الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن أيوب في سنة ٦٦٤ هـ .

وبقيت أعزاز على خرابها شبه قرية ، وكانت تتبع قضاء كلس ، إلى أن جعلت سنة ١٣٤٠ هـ عقيب تأليف الدولة العربية في حلب قاعدة قضائها الحالي ، وأتيح لها قائم مقام فتحوا فيها شوارع ، وأسواق ذات حوانيت كثيرة ، وشادوا دوراً للحكومة ، والمدرسة وحديقة عامة ، وأتوا إليها بالماء القراح ، فأتسعت مرافقها وكثر عدد قطائنها من الأرمن وغيرهم ، حتى أصبحت بلدية حسنة في الجملة . وفي قضاء أعزاز عدة أماكن تستحق الزيارة والبحث ، منها قرية دابق التي حدثت في مرجها المعركة الهائلة الحاسمة بين قانصو الغوري والسلطان سليم سنة ٩٢٢ هـ .

هذا ثم تنحرف طريق حلب بعد قطعاً نحو الجنوب ، فتمر في سهول شاسعة أعزاء ، فيها قرى مالكية ومرعناز ومنق ، وتصل في (الكيلومتر ١٣٢) إلى كفر أنطون ، وهذه القرى من أعمال قضاء أعزاز . ثم تستأنف الطريق السير فتمر بقرية تل حجر ، وفي (الكيلومتر ١٣٩) طريق لاجب نحو قرية تل أرفاد ، التي لها ذكر في تاريخ الآشوريين ، وفيها محطة السكة الحديدية الآتية من أذنة ، وقد اشتهرت ببطيخها الأحمر ، ثم تمر الطريق بقرى : دير جمال ومعرة الخان ، ونبل وبيانون ، وحيان وعندان وحريتان ، وكلها من أعمال قضاء جبل سمعان ، وفي جوار عندان مزار النبي أرميا ، يقصده المرضى للاستشفاء . وفي (الكيلومتر ١٦٣) على يسار الطريق بناء هرمي ، شاده الإنكليز ، عليه كتابة مألها أنه في تاريخ ٢٦ تشرين الأول سنة ١٩١٨ م حدثت في هذا الموقع ، آخر معارك الشرق الأدنى ، خلال الحرب العالمية الكبرى بين فرسان الإنكليز

والجيش التركي ، وعلى الوجه الشرقي من الهرم أسماء القتلى وبينهم مسلمون هنود ، وبعد أن
تجتاز الطريق قرى كفر حمزة وبليرمون ، تصل إلى حديقة السبيل في ضاحية حلب ، ثم
إلى حي الجميلية في حلب في (الكيلومتر ١٧٢) .

طريق يني شهر - حارم

بعد يني شهر (م) ينحرف الطريق نحو الجنوب ، محاذياً أعضاد جبل الأعلى ، التي تضمحل عند سيف العمق ، وعند قرية الشيخ علي ينفصل الطريق ، فالغربي يذهب نحو أنطاكية ، والقبلي (وطوله أربعة كيلو مترات) نحو حارم .

وحارم بليدة في سفح جبل الأعلى ، تبعد عن أنطاكية ٤١ كيلو متراً ، وتعلو عن البحر ١٢٨ متراً ، سكانها نحو الألفين من المسلمين العرب ، وفيها مبان حديثة لدار الحكومة ودائرة الدرك والمدرسة والمستشفى ، ومعمل حديث الطراز والأدوات لعصر بزر الزيتون ، وعين صافية جارية ، تحدث جدولاً يصب في العمق ، ودور وحوانيت ، وجامع وبساتين عديدة ذات أشجار ويقول جيدة ، تنتج باكراً وترسل إلى حلب . لكن هواءها رديء لوقوعها في شرقي العمق وعلى سيفه ، وفيها تل عال فوقه قلعة ، لا تزال أطلالها المدرسة ماثلة . قال ياقوت : حارم حصن حصين وكورة جلييلة تجاه أنطاكية وهي الآن من أعمال حلب ، وفيها أشجار كثيرة ومياه ، وهي لذلك وبئة . ويذكر المؤرخون أن حارم كانت قبل الفتح الإسلامي حظيرة للمواشي ، ودامت على ذلك في صدر الإسلام ، إلى أن ملكت الروم أنطاكية سنة ٢٥٨ هـ فبنوها حصناً لحي مواشيهم من غارات العرب ، ثم صاروا يزدون فيه ويوسعونه ، واستمرت حارم في أيديهم إلى سنة ٤٧٧ هـ ، وفيها استولى عليها سليمان بن قتلمش ، لما استولى على أنطاكية وأعمالها كما بيناه في تاريخها ، وبقيت حارم في أيدي المسلمين إلى سنة ٤٩١ هـ ، وفيها ملك الفرنج أنطاكية وحارم وغيرها ، وزادوا في تحصين حارم ، وجعلوها من القلاع المخصصة لحراسة أنطاكية ، وملجأ لهم إذا شنوا الغارات على المسلمين في ضواحي حلب . ولم تزل في أيديهم إلى سنة ٥٥٩ هـ ، وفيها أخذها نور الدين محمود زنكي منهم بعد معركة هائلة ، وأقطعها لأخيه في الرضاة مجد الدين أبي بكر ابن الداية ، ووضع فيها منارتين تشتعلان كل الليل ، لهداية أسرى المسلمين المنهزمين من أيدي الإفرنج .

ولما آلت حارم للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، أقطعها لمسدير دولته سعد الدين كشتكين ، ثم قتل سعد الدين فقصدها فرنج أنطاكية طمعاً بقلعة حاميتها وحاصروها أربعة أشهر ، ثم صالحهم الملك الصالح على مال ورحلوا عنها ، وكان من بها قد امتنعوا على الملك الصالح بعد قتل كشتكين ، فأرسل إليهم الملك الصالح جيشاً شدد عليها الحصار بعد رحيل الفرنج ، فسلموها إليه فاستناب بها مملوكاً كان لأبيه اسمه سرخك . فلما كانت سنة ٥٧٩ هـ قصدها صلاح الدين بعد فتح حلب وبها المملوك المذكور ، فرأسله صلاح الدين أن يسلمها إليه ، ويعطيه عوضها ماشاء ، فجار في الطلب وقصد مراسلة الفرنج ، فخاف أصحابه أن تصير القلعة بيد الفرنج ، فقبضوا عليه وأرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون الأمان فأجابهم ، وتسلم القلعة وترتب بها بعض خواصه . ثم صارت بعد صلاح الدين لولده الملك الظاهر غازي ، فاهتم بشأنها وحصن قلعتها واسمها مكتوب على بابها ، وكانت هذه القلعة قديماً مثلثة الشكل ، فغيرها الملك الظاهر ، وجعلها من جهة القبلة مدورة ، وبني أبراجها مربعة . وفي سنة ٦٥٧ هـ استولى هولاكو على شمالي الشام وأخذ حارم ، وقتل جميع من فيها حتى البهائم خنقاً ، وأخربها عن آخرها ، فظلت عدة قرون ليس فيها سوى أطلال خافية ورسوم بالية ، إلى سنة ١٢٤٣ هـ بدأ عمرانها والتفت حولها السكان ، وفي أواخر القرن الهجري الماضي نقل مركز القضاء من الريحانية إليها ، فتضاعف عمرانها ، ثم نازعتها بليدة كفر تخاريم هذا المركز ، لردائة هواء حارم وجودته في كفر تخاريم ، وظل هذا الأخذ والرد مدة إلى أن عاد واستقر في حارم منذ بضع سنوات .

أما قلعة حارم فبنية فوق تل منفرد ، منتصب وسط السهل كحارس جبار ، يكلاً حارم بعين عنايته ، وهذا التل منفصل عن آخر عضد في جبل الأعلى المجاور له وهو طبيعي ، لكن منحدراته مرصوفة بالبلاط ، ما خلا المنحدر الشمالي العمودي ، وكان حول التل خندق ، قسم منه محفور في الأرض ، وقسم منقور في الصخر ، ولا يزال بعض البلاط والخندق ظاهراً . وفي ذروة التل المذكور بنيت القلعة ، على شكل نصف دائرة ، ما خلا شماليها فإنه على خط مستقيم . وسور القلعة خراب ، وزاد خرابه لما تحصن في هذه القلعة الجند الإفرتسي ضد عصابات الأهلين التي كانت تهاجمه من حين إلى آخر في سني ١٣٤٠ و ١٣٤١ هـ . وفي السور أطلال أبراج بارزة ، مربعة الشكل ممتدة على طول نصف الدائرة

جولة أثرية (٦)

التي تقدم ذكرها . أما القسم الشمالي المستقيم ، فكان مصنوعاً بالمنحدر العمودي . ويصل القاصد إلى هذه القلعة من شعب في منحدرها الغربي ، أصلحوه قليلاً منذ بضع سنوات ، فیدخل من باب واطئ ذي عتبة مستقيمة ، بين برجین عريضین . ولم يبق في باحة القلعة من الأطلال ما يستحق الذكر سوى البرج الكبير المستطیل الشكل ، فقد أقيم في الزاوية الشمالية الشرقية في أضعف نقطة الدفاع عن السور . وفي هذا البرج ترى أجل الأنقاض والأطلال والجدران ، وفي أسفل الجدران حشي كثير من أعمدة الروابط . ومن غريب ما يوجد في هذه القلعة أنه ينزل في جوف تلها ، من سرداب عمودي له ١٥٠ درجة ، يصل إلى مستوى أرض البلدة ، إلى حيث تنبع عين جارية تفيض على الخندق ثم تتفرع إلى الأرباض ، كان المحاصرون يشربون منها .

وقد شهد العالم الأثري (فان برشم) ، في كتابه (رحلة في الشام) ، بأن قلعة حارم عربية البناء ، من طراز الهندسة العسكرية السائدة في عهد الملوك الأيوبيين ، يدل على ذلك انتظام شكل باحتها ، ورصف منحدراتها بالبلاط ، على النحو الذي يشاهد في قلاع حص وحماة وشيزر وحلب وقلعة المضيق ، وأن تخطيط سور قلعة حارم ، ورسمه على نصف دائرة جعلها تشبه قلعة بصرى حوران التي بنيت في عهد الأيوبيين ، حول مسرح روماني قديم ، وشكلها العام جعلها تشبه أيضاً شكل قلعة المضيق ، ووضع المدخل وطرازه يشبه ما في مدخل قلعة حلب . واستنتج العالم المذكور بأن ليس في قلعة حارم أقل أثر لهندسة الصليبيين العسكرية ، لأنهم لم يكتفوا فيها أكثر من نصف قرن . هذا ويمتد نظر الواقف في هذه القلعة إلى الأطراف ، فيرى في الشمال بليدة حارم ومبانيها البيضاء ، والطريق المعبدة المذهبة منها إلى حلب ، وفي الشرق منحدرات جبل الأعلى العمودية الصعبة المرتقى ، وفي الجنوب الآكام المشرفة على وادي العاصي القادم من سهل الغاب ووادي دركوش ، وفي الغرب سهل العمق الأفيح وضياعه المنتشرة فيه ، وقد ازدان أفقه البعيد ببحيرة أنطاكية الزرقاء ، وبعدها قم جبل اللكام التي تناطح السحاب ، ومثلها جبل موسى والجبل الأقرع ، أما أنطاكية فقد اختفت وراء أعضاء جبل القصير .

وحارم قاعدة قضاء واسع كثير الخيرات ، غزير المياه ، امتد معظمه في جبل الأعلى وجبل باريشا وقليله في سهل العمق ، وفيه قرى كبيرة تعد من الأمهات تشبه المدن بعمرائها ، وفيه أربع نواح سلقين وكفر تخاريم وباريشا وترمانين .

طريق حارم - إدلب (٥٥ كيلو متراً)

ومن حارم طريق لاحب تجتازه السيارة ، يذهب نحو الجنوب الشرقي ، ويشرع بتسلق أعضاء جبل الأعلى المشرفة على سهل العمق ، فبعد حارم بعشرة كيلومترات بليدة جميلة تدعى سلقين ، من أهبج وأنزه مارأيته في أعمال حلب . عدد سكانها ٣٠٠٠ مسلمون عرب ، علوها عن البحر ٢٥٠ متراً تشرف على سهل العمق ، بنيت على ضفتي واد جميل ظليل ، فيه أشجار باسقة مثمرة وغير مثمرة ، منها بضع سروات عظيمة عريقة في القدم ، وثمة بساتين تنتج أثماراً وبقولاً جيدة ، وعيون وأرجاء ، وجامع كبير حسن ، وحمام وسوق حافل ، ودور أنيقة رحبة ، أصحابها ذوو وجهة وحفاوة يلقبون بالآغوات ، معظم ثروتهم من الزيتون الذي يكثر وجوده في هذه الهضاب .

وبعد سلقين تأخذك السيارة نحو الشرق الجنوبي في طريق لاحب فتحوه من عهد قريب ، فوق هضاب جبل الدويلي أحد أعضاء جبل الأعلى الملآن بأشجار الزيتون الغضراء ، فتصل بعد عشرة كيلومتر إلى بليدة تدعى كفر تخاريم ، واقعة وسط واد عريض من أودية الجبل الأعلى ، عدد سكانها ٣٠٠٠ مسلمون عرب ، وهذه أيضاً جميلة ذات بساتين وعيون ، وحمام وجامع وسوق حافل ، ودور رحبة أنيقة ، ومعاصر زيتون كثيرة ، وأسر ذات وجهة ، وفيها في الأكمة المشرفة عليها دار حكومة ، ومستودع لجند الرديف لما كانت مركز القضاء ، هجراً فأشرفاً على الخراب . وقد اشتهرت هذه البليدة في تاريخ الثورات التي قام بها الأهليون عقيب الاحتلال الفرنسي ، وظلت مدة عرضة لتناحر العصابات والجند . ثم تأخذك السيارة نحو الجنوب في واد طويل ينتهي عند سهل الروج ، الذي سيأتي ذكره ، فتصل بعد خمسة كيلومتر إلى بليدة تدعى أرمناز عدد سكانها ٣٠٠٠ مسلمون عرب ، ذات أسواق ودور حافلة وجامع وحمام ، ولأرمناز ذكر في التاريخ ، اشتهرت منذ القديم بمعامل الزجاج ، فكان يصنع فيها أنواع الظروف والأواني الزجاجية ، على ألوان

وأشكال مختلفة بديعة ، ولم تنزل أرمناز مركز هذه الصناعة في شمالي الشام ، حتى ظهر الزجاج الإفرنجي ، وقضى على صناعة أرمناز وأفقر أصحابها . والطريق بعد أرمناز تمتد في الوادي المذكور المحصور بين أعضاء الجبل الأعلى والجبل الوسطاني ، ثم تنحرف في أول سهل الروج ومستنقعاته ، عند تل شامرون الأثري ، ثم تتسلق أول هضاب جبل الزاوية ، إلى أن تصل إلى إدلب .

وفي قضاء حارم جبلان عظيمان ، أولهما يدعى جبل الأعلى ، والثاني جبل باريشا والجبل الأعلى مزدان بأشجار الزيتون ، بينما جبل باريشا يكاد يكون أجرداً للين الصخور والتربة في الأول ، وقسوتها في الثاني . ويكثر سواد الدروز في الجبل الأعلى الذي كان اسمه فيما مضى جبل السماق ، وقراهم هي بنابل وقلب لوزة ، وبشندلايا وجد عين ، وعبريتا وكوكو ، وحلة وكفر مالس ، وتل تيتا ، ويقطن بعضهم مع السنيين في قرية كفر كيلا وبشندلتي ودير سلونة . وهؤلاء الدروز لا يتجاوز عددهم الألفين فيما قيل ، وهم أهل كد ومعرفة بالزراعة وتربية الماشية ، وعندهم كرم وآداب يتمازون بها ، إلا أنهم ضعفاء النفوذ في هذه الديار في الجملة . هذا ولا يصل القاصد إلى قرى الجبل الأعلى إلا إذا امتطى الرواحل ، أو سار على قدميه لعدم تديد طرق السيارات فيها بعد . وهذا الجبل وقراه مملوء بأطلال المصانع الدائرة البيزنطية ، من القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، تروى الزائر بضخامة أحجارها وحسن هندستها وزخرفها ، بعضها صوامع وبيع وأديرة ، وبعضها قصور ودور ، ما برح كثير منها على جدته وروائه في الجملة ، جدير بالزيارة والإمعان ، وإن الإنسان ليستغرب بقاءها حتى الآن سالمة ، رغم مرور خمسة عشر قرناً ، حدثت خلالها في هذه الديار ضروب الكوائن ، وتقلبت شتى الشعوب . وربما كان لوعورة هذه الجبال ، وكؤودة مسالكها فضل في ذلك .

هذا وأشهر ما في الجبل الأعلى من تلك الآثار ، بيعة قلب لوزة التي تعد أبداع بيع الشام طراً . وتليها بيعة كفر كيلا ، وفي بشندلايا مدفن (طيساريوس كلوديوس صوصاندروس) ، في جوف مغارة تحت الأرض ، تقرت في الصخر ، وفي كوكنايا كثير من الدور والمدافن القديمة العجيبة بهندستها وجسامتها ، وفي باقوزا دور عديدة ، ما برحت ماثلة وبيعة جميلة ، وفي الدويلي أطلال حصن خراب ، وفي جبل باريشا اشتهرت قريتا

دير سيتا وباقوزا بأطلال القصور والدور ، ودار قيتا بكنائسها ، هذا عدا عن قصر البنات ، الذي ذكرناه مع غيره من مصانع هذا الجبل في بحث طريق حلب . وثمة من الأديرة التي ذكرها ياقوت دير بلاط قال : « من أعمال حلب مشرف على عم ، فيه رهبان لهم مزارع ، وهو دير قديم مشهور » اهـ . ولم يتسن لي تحقيق موضع هذا الدير ، وفي قول ياقوت دليل على أن هذه الأديرة التي عددناها ، كان بعضها إن لم يكن جلها ، عامراً وأهلاً برهبانه ، إلى القرن السابع الهجري الذي عاش فيه ياقوت .

طريق يني شهر — أنطاكية (٤١ كيلومتراً)

يجتاز السائر في هذه الطريق جنوبي سهل العمق ، ويمر بضياعه وضويعاته العديدة ، التي تقدم وصفها وحالة أهلها ، وبالمستعمرات الأرمنية الحديثة التي أسست سنة ١٣٤٧ هـ ، وفي (الكيلومتر ٢٢) يجتاز جسر الحديد المبني على العاصي ، وفي جواره مخفر لجنود الدرك ، وبضعة مبان وأكواخ . وكان هذا الجسر في العصور المتوسطة ذا مكانة جليلة من ناحية سوق الجيش ، تفوق أمثالها في شمالي الشام ، سيما في أمر الدفاع عن أنطاكية .

وكان له برجان عظيمان أبوابهما من الحديد . ولما أقبلت الحملة الصليبية الأولى حاول مسلمو أنطاكية أن يوقفوا سيرها في هذا الجسر ، لكن الصليبيين استبسلوا واقتحموه ، ويظهر أنه خرب في تلك المعركة ، أو في غيرها من المعارك التي توالى ، فرمه أحد ملوكهم (بودوين) ، وكان هذا الجسر من الحجر وذا تسع قناطر ، ويظهر أن الزلازل خربته ثانية في القرن الماضي ، فرم في سنة ١٢٣٨ هـ على حالته الحاضرة ، وطوله اليوم سبعون متراً ، وله أربع قناطر ، وظهره مستقيم ومبسط ، وفي طرفه الشرقي بني برج مربع ، له سقف ذو انحنائين وتحتة سابات معقود ، يغلق عند اللزوم تجتازه السيارات والقوافل . ثم يمر السائر في سهل العمق في (الكيلومتر ١٧) بضويعات أخرى ، تابعة لناحية قصير التحتاني ، كالعبدية ومدنبو ، ثم بقرية مهاجر ، وهنا يلمح عن بعد بحيرة أنطاكية ، وفي (الكيلومتر ١٠) يمر بقناطر ماء أثرية ، ويحاذي كوعاً للعاصي ، وفي (الكيلومتر ٩) يقترب العاصي من الطريق عند قرية إيليجة ، وفي (الكيلومتر ٥) على اليسار مفرق الطريق اللاحب ، التي افتتحت حديثاً بين أنطاكية وجسر الشمر ، وسيأتي وصفها ، ثم قرية كوزل برج على ضفة العاصي ، ثم في (الكيلومتر ٣) الطريق الذاهبة إلى الستاديو وحمامات فالنسيوس ، وفي (الكيلومتر ٢) مكان باب القديس بولص ، وبركة الماء التي ما برحت تتدفق ، ثم يدخل السائر أنطاكية .

طريق طوب بوغاز — أنطاكية (٣٠ كيلومتراً)

في أسفل قلعة بغراس وشرقيها ضيعة صغيرة تدعى قره مغرط ، في جوارها خان قديم كبير ، دثر في العهد الأخير ونقضت أحجاره ، بعد أن كان عامراً وصالحاً لإيواء القوافل والمسافرين . والطريق من طوب بوغاز إلى أنطاكية تسير محاذية لسفوح الجبل الأحمر التي يتركها السائح على يمينه ، ويرى على يساره سهل العمق الفسيح ، وبحيرة أنطاكية الزرقاء ، والمستنقعات الواسعة الممتدة حولها . وهو بعد مغادرة الطريق الصاعدة غرباً إلى قره مغرط وقلعة بغراس التي ترى عن بعد ، يمر في (الكيلومتر ٦) حذاء ضويعة تدعى بعلامه ، تعد فرضة على شاطئ مستنقعات العمق المتصلة بالبحيرة ، وفيها القوارب الرفيعة التي تروح وتغدو في هذه المياه ، والمسالك المنشقة بين قصب الأجام ، يركبها الصيادون الذين يفدون في الربيع لقنص الأوز والبط ودجاج الماء والشقب وغيرها من الطيور المائية ، وأسراها تفوق الحصر ، وثمة الثعالب والخنازير البرية وكلاب الماء أيضاً . ثم تحتاز الطريق وادياً عريضاً حافلاً بالبسانين ، فيه في (الكيلومتر ١١) قريتا بدركة العرب وبدركة الشرکس ، ثم قريتا ياقاري وسردلي . وهنا يرى السائح في الأفق الجنوبي جبل القصير ، وفي الأفق الغربي جبل الأقرع الشامخ ، كاهرم فوق البحر ، إلى علو ١٧٥٩ متراً ، وفي (الكيلومتر ٢١) يجتاز أراضي قرية عواقية ، ويودع المستنقعات ، ويدخل الأرضين المحروثة والمزروعة من سهل العمق ، فيرى على يساره مخرج البحيرة الضيق ، وسكوره التي تقدم وصفها . وهنا يشاهد عن بعد في الأفق الجنوبي جبل (حبيب النجار = اوسيلبيوس) المشرف على أنطاكية ، وفي الأفق الغربي جبل موسى ، معقل أرمن هذه الديار ، ثم يسير في (الكيلومتر ٢٨) محاذياً الضفة اليمنى لنهر العاصي ، الذي انعطف عند جسر الحديد نحو الغرب ، واتجه قاصداً أنطاكية . وفي (الكيلومتر ٣٠) يصل إلى أنطاكية ، نافذاً إليها من جسرهما القديم الروماني .

تاريخ أنطاكية : لما مات الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٣ ق . م اقتسم خلفاؤه مملكه الواسعة ، فكان أنتيغونوس في مقدونيا وآسية الصغرى ، وبطلميوس في مصر وفلسطين ، وسلوقس نيكاتور في بابل وفارس . وبني أنتيغونوس سنة ٣١٧ ق . م بين العاصي وخرج بحيرة أنطاكية فيما قيل بليدة دعاها أنتيغونيا ، وأسكن فيها قوماً من الأكراد ، وهم بقية جيوش الآشوريين ، الذين ظلوا في هذه البقاع يحترفون الصيد والرعي . ثم لما انتصر سلوقس نيكاتور على أنتيغونوس وقتله سنة ٣٠١ ق . م ، وبسط سلطانه على معظم البلاد الآسيوية ، شاد سنة ٣٠٠ ق . م مدينة أنطاكية تكريماً لاسم أبيه أنطيوخس ، كما شاد لاثوديسيا (اللاذقية) لاسم أمه ، وأقاميا (قلعة المضيق) لاسم امرأته ، وبدا له أن يغير موقع أنتيغونيا ، فأمر ببناء أنطاكية في سفح جبل سيلبيوس ، ونقل إليها أنقاض أنتيغونيا بعد أن دكها ، وأسكن فيها مزيجاً من الكرد واليونانيين المقدونيين واليهود . وقد اهتم سلوقس بإنماء أنطاكية وعمرانها ، ومنح من يأتي إليها من الغرباء حقوق اليونانيين وامتيازاتهم ، فاكتظت بالسكان من مختلف الشعوب والعناصر ، وازدهت وصارت عروس الشرق ، وعاصمة الممالك التي كانت تتألف منها الدولة السلوقية العظيمة ، الممتدة من سواحل البحر المتوسط إلى حدود الهند .

وتاريخ العهد اليوناني السلوقي طافح بالحروب والفتن والكوارث ، التي حالت دون بقاء هذه الدولة أكثر من ٢٢٦ سنة . فمن العوامل التي أدت لزوالها بهذه السرعة ، اقتتال الأنتيغونيين والسلوقيين والبطالسة ، وتنازعهم على امتلاك بلاد آسية ومقدونيا وكالسيريا (أنحاء البقاع ودمشق) ، وتنافس أعضاء الأسرة المالكة على العرش وتناحرهم ، وبعد أنطاكية عن مقدونيا ، وأثر هذا البعد في إضعاف قوة العنصر اليوناني الذي كان دعامة السلوقيين ، وتنوع القوميات والعصبيات في أنطاكية وتنازعها ، ووجود اليهود بينها يوقظون الفتنة كلما رقدت ، ودسائس البطالسة أصحاب مصر ، الذين كانوا يرومون ضم ملك السلوقيين إليهم ، فيرشون القواد والأمراء ، ويحرضون نساء البلاط اللواتي كان بعضهن من أصل مصري على الشغب وتسميم الملوك ، ليتسنى لهم التداخل والاصطياد في الماء العكر .

ولم تسعد أنطاكية كما ينبغي ، إلا في زمن أنطيوخس الكبير (٢٢٣ - ١٨٧ ق . م) ،

فقد تحالف هذا الملك مع أقيال الهند ، وبسط سلطانه على ولاياته الشرقية النائية التي كانت شقت عصا الطاعة ، ثم استعد لاستخلاص مصر من يد البطالسة ، ففتح في طريقه وسط الشام وجنوبه ، لكن الرومانيين ظهروا في تلك الحقبة ، وكان استفز غضبهم ، فشغلوه واضطروه بعد معركة مغنيسيا ، أن يتخلى عن أملاكه في آسية الصغرى ، وأن يسلمهم بوارجه الحربية وأفياله التي كانت في أفامية (معاهدة أفامية سنة ١٨٨ ق . م) . وبعد أنطيوخس الكبير ، تعاقب على عرش أنطاكية عدة ملوك ضعفاء في فترات قصيرة ، فابتلع الفرثيون^(١) جزء المملكة الواقع شرقي الفرات ، وامت الفوضى الجزء الذي بقي للسلوقيين ، وظهر زعماء محليون في أجزاء مختلفة من الشام ، ومنهم أمراء آل شمسغرام في حص . وحدث مرة أن وثب اليونانيون على الملك ديمتريوس الثاني (سنة ١٤٥ ق . م) فاستنجد بيهود فلسطين ، فجاءه منهم جيش أحرق أنطاكية ونهبها ، وقتل من أهلها فيما قيل مئة ألف نفس ، ثم أجهزت الزلزلة التي حدثت في السنة التالية عليها . وبعد أن عادت الأمور إلى استقرارها مدة ، رجعت الفوضى ، وكثر القتال بين القواد والملوك رجالاً ونساء ، وتوالى الحريق والنهب في أنطاكية ودفنة وهياكلها ، ولما ضاق ذرع الأنطاكيين بل كل الشاميين ، كتبوا إلى ديكران ملك الأرمن ودعوه لإنقاذهم فجاء هذا سنة ٨٣ ق . م ، واستحوذ على شرقي كيليكية وشمال الشام وفينيقية حتى عكا ، مدة أربع عشرة سنة فحسب . لأن الرومانيين غلبوه في عقر داره ، واضطروه لمغادرة الشام ، فاسترد السلوقيون ملكهم ، لكن الرومانيين ظلوا يتدخلون في شؤون السلوقيين ويدسون ، حتى تسنى لأحد قوادهم بوميوس في سنة ٦٤ ق . م أن يقضي على دولتهم بالمرة .

ورغم الكوارث والمساوئ التي حدثت في عهد السلوقيين ، فقد كان لهم همة محدودة في تشييد المدن وعمرانها ، على تخطيط منتظم وهندسة رائعة . أورد المؤرخون وصف أنطاكية ومبانيها في عهدهم الذي لم يبق منه أثر ، فقالوا : إنها كانت محاطة بسور عظيم ، في داخله أربعة أحياء منفصل بعضها عن بعض ، وشوارع عديدة مرصوفة ، أكبرها الشارع المستقيم الذي

(١) الفرثيون أو البارثيون : شعب كان يقطن في شمالي بلاد إيران الحالية ، عرفوا بشدة مراسهم وصبرهم في الكر والفر . أسسوا لهم دولة في منتصف القرن الثالث ق . م ، وخلفوا الفرس في تقليدهم ومناوئهم لليونان ، على أنهم لم يخلوا من الفتن والقلاقل ، إلى أن وثبت عليهم الأسرة الساسانية وقضت دولتهم .

يغرق المدينة من الشرق إلى الغرب ، كان جيلاً ومزينا بأروقة ذات أعمدة ، وكان لنهر العاصي إذ ذاك فرعان ، بينهما جزيرة كبيرة ، كان فيها أحد الأحياء الأربعة ، وفيه القصر الملوكي ، وشادوا في المدينة عدة هياكل ، غاية في الفخامة للكواكب التي كانوا يعبدونها كالشمس والمريخ ، ومثلها تماثيل الآلهة والملاعب (السيرك) ، والمسارح (التياترو) ، والمدرج (الأنفيتياترو) ، والحمامات ودور الكتب والمتاحف ، ودار الشيوخ (السنا) والدور والقصور الفخمة ، وبعضها كان يرصف بالفسيفساء ، وملؤها هي ودفنة بأماكن القصف واللهو . وما زال هذا العمران زاهاً حتى قضى عليه اليهود والزلزلة سنة ١٤٥ ق . م كما قدمنا . ثم أعيد بعضه في أواخر العهد السلوقي ، وزيد فيه في العهد الروماني .

العهد الروماني (من ٦٤ ق . م إلى ٣٩٦ م . م) : لما فتح (بومبيوس) الروماني أنطاكية ، جعلها عاصمة بلاد الشام الرومانية ، وميزها بأن تدير أمورها بنفسها ، وكان ولاية أنطاكية الرومانيون من أبرز رجالاتهم في الجاه والمقدرة ، ومنهم من كان يرتقي منها إلى عرش رومية . جاء إلى أنطاكية من هؤلاء (بومبيوس) و (يوليوس قيصر) و (أنطونيوس) وزوجته كليوباترة (سنة ٢٨ ق . م ، ثم رأت أنطاكية (هيرودتس الكبير) و (أوكتاو الظافر) و (طيباريوس) ، وكل منهم كان يقلد أنطاكية كلما أتاه بالأسوار المنيعة والتأثيل ، والأروقة والهياكل ، والحمامات والمسارح والمدرج وغيرها . ودخلت النصرانية إلى أنطاكية سنة ٢٣ م . وصارت تنازع الوثنية وتنتشر ، وكثرت الزلازل والحجاعات والحرائق ، خلال القرن الأول الميلادي ، وفي غرة القرن الثاني شرع الأمبراطور (تراجان) باضطهاد النصارى ، وفي سنة ١١٥ م حدثت فيها زلزلة هائلة ، دامت أربعين يوماً خربت بها أنطاكية وغيرها من مدن الشام ، وهلك ٢٥٠٠٠٠ نفس ، وسقطت من جبل كاسيوس (الجبل الأقرع) قطعة كبيرة في البحر ، وغاض أحد فرعي نهر العاصي الذي كان محيطاً بجزيرة أنطاكية ، حتى أن القيصر (تراجان) لم ينج يومئذ من الهلاك إلا بأعجوبة . على أن أنطاكية أعيدت إلى رونقها الأول ، وبنيت لها قناطر الماء العظيمة الآتية من دفنة ، وفي عهد (أنطونين) نالت أنطاكية حقاً بضرب السكة ، ومدت في أعمالها الأرصفة^(١) التي لاتزال ماثلة إلى يومنا . ومهدت الطرق ونشطت

(١) كالرصيف الباقي بعضه في سهل الحلقة على طريق حلب وقد وصفناه ، والرصيف الآتي من أقمية بل من حصص والذاهب إلى الأناضول والقسطنطينية ، وغيرها من الأرصفة التي بحثنا عنها في أماكنها .

تجارتها ، حتى صارت مركز تجارة بلاد الشام المتوسطة ومهد الثقافة اليونانية . على أن تأثير الشرق الروحي ظل نافذاً ، وظلت الديانة الوثنية غالبية على النصرانية .

وفي سنة ١٩٣ م حاول أهل أنطاكية وجندها أن يقيموا واليهم مكان الأمبراطور (سبتيموس سيفيروس) فلم يفوزوا ، ونالوا جزاء عملهم ، ورفعت الامتيازات التي كانت لبلدتهم ، وأعطيت إلى لائوديسيا (اللاذقية) ، لكن بعد موته أزرت زوجته (جوليا) دومنا أنطاكية ، لأنها كانت شامية من حصص ، وحملت ابنها (كراكلا) المولود في حصص ، على أن يرد إلى أنطاكية ماحرمها أبوه من الامتيازات ، واستفادت أنطاكية كثيراً من انتصار (اليوكال) على (مكرينوس) الذي اغتال أبا (كراكلا) ، إذ كان في ذلك انتصار القضية الشرقية على القضية الغربية الرومانية . وفي القرن الثالث سنة ٢٣١ م أدب (إسكندر سيفيروس) جنود أنطاكية الذين اختل نظامهم ، واتخذوا غابات دفنة بؤرة لردائلهم . وفي تلك السنة فاجأها سابور ملك الفرس بجيوشه ، وفتحها عنوة ، وأحرقها ونهبها .

وعقب هذه الكارثة ، استطاع النصارى أن يشيدوا لهم كنائس ، لأن الوثنيين كانوا يمنعونهم من ذلك ، بتهمة أنهم مسببو الزلازل ، وفي سني ٢٤٨ - ٢٥٤ م شقت أنطاكية عصا الطاعة ، وشرعت تجي الضرائب ، وتضرب السكة ، وكثر الفساد بين جندها . واهتبل الفرس هذه الفوضى ، فجاؤوا سنة ٢٥٨ م ذات يوم على حين غرة ، وكان سكان أنطاكية مجتمعين في إحدى دور التمثيل ، فما راعهم إلا وأحد الممثلين المولي وجهه نحو الجبل يصيح مرتاعاً : أحلم ما أراه ، أم هؤلاء هم الفرس ؟ وما أن تم كلمته ؛ إلا وكانت سهام الفرس تتساقط على المتفرجين كالطر ، ونال الفرس وقتئذ من أنطاكية بالنهب والتدمير ، إلى أن جاء القيصر (فاليريانوس) سنة ٢٥٩ م ، وسعى في ترميمها فنشطت من عثرتها . وفي سنة ٢٦٦ م دخلت أنطاكية في حوزة زنوبيا ملكة تدمر العربية ، ونقشت صورة هذه الملكة في سكتها . ودام حكم التدمريين إلى أن قضى القيصر أورليانوس على زنوبيا ، واقتادها بالسلاسل ، وعرضها في أحد ميادين الألعاب في أنطاكية على أنظار سكانها الشامتين بها .

وانقضى القرن الرابع وضروب الفتن مستعرة في أنطاكية ، والأوبئة والجحاعات والزلازل تنتابها ، إلى أن جاءها (ديوكليتيانوس) في أواخر ذلك القرن ، وأعاد السلام

والاطمئنان إليها ، لأنه كان يقضي أكثر أيامه فيها ، وشاد في جزيرتها قصرأ ملوكياً عظيماً ، وقلد أنطاكية حسب عادة الملوك السابقين بجامين كبيرين ، لكنه في سنة ٣٠٣ م اضطهد النصارى ، وفضع فيهم شأن أسلافه من قياصرة الرومان ، ومن بعده توالى الأوبئة والمجاعات ، وغارات الفرس ووثبات الجند ، ومظالم الولاة . ثم عادت أنطاكية وسعدت في عهد القيصر (قسطنطين) الكبير ، فإنه لما جاءها سنة ٣٢٧ م أباح لأهلها دخول النصرانية ، فكانت هذه الإباحة فاتحة عصر ديني جديد ، تقوضت فيه دعائم الوثنية من البلاد الشامية ، واعتزت النصرانية ، وصار لبطاركة أنطاكية مكانة عظيمة ، وكثر عدد الكنائس ومنها الكنيسة الذهبية التي يضرب بفخامتها وزينتها المثل ، ظلت زاهية إلى زلزلة سنة ٥٢٦ م . ولما مات قسطنطين ، واقتسم بنوه المملكة الرومانية بينهم ، كان أحدهم (قونسطانس) ملك المشرق ، جاء إلى أنطاكية سنة ٣٣٨ م ، واستقر فيها وأصلح جندها ، ورد به غارات الفرس ، الذين كانوا لا يتوانون عن مناصبة الرومان العداء ، وعفي بعمرائها ، فصارت ترفل بعظمتها ومحاسنها ، وضارعتها بذلك فرضتها سلوكية ، لأنه وسع ميناءها فصارت أكبر ميناء في الساحل الشامي . وفي سنة ٣٦٢ م كان فيها القيصر (يوليانوس) فلحقت بها المجاعة التي عمت الشرق ، واحترق هيكل (أبولون) فاهتم (يوليانوس) في تخفيف الويل ، وترك للأهلين المتأخر من الضرائب . وحاول هذا القيصر إرجاع الوثنية إلى بلاد الشام ، وأحيا أعيادها وحفلاتها ، لكن النصرانية كانت قد عمت وتأصلت في النفوس ، حتى أن خلفه (جوفيانوس) اعتنقها واتخذها ديانة رسمية للإمبراطورية ، مع إقراره حرية الاعتقاد للوثنيين ، وكان من عادة أهل أنطاكية أن يشوروا كلما أريد بهم شر ، منها أن القيصر (ثيودوسيوس) كان أفرغ خزائنه لكثرة الأعياد التي أقامها لنفسه ، فعمد سنة ٣٨٧ م إلى سد النقص بفرض ضرائب جديدة ، فثار الأنطاكيون وكسروا تمثال القيصر وغيره ، وقتلوا الجند ففتك بهم ، ولم يزل حتى عفى القيصر عنهم بشفاعة الأسقف ، بعد أن حرّمهم امتيازاتهم وحقوقهم . وظهر في غضون ذلك في أنطاكية القديس (يوحنا فم الذهب) الشهير بصلاحه وطلاقة لسانه ، ومواعظه التي كان يلقيها على أهل أنطاكية ، إلى أن نفى ومات في طريقه إلى المنفى . وجملة القول أن العهد الروماني الذي دام ٤٦٠ سنة (من ٦٤ ق . م إلى ٣٩٦ م . م) كان كثير الشقاء قليل الهناء ، توالى فيه الحروب الخارجية والداخلية ، ومعاصي الجند ووثباته

والمنافسات والمناحرات الدينية ، بين أنصار النصرانية والوثنية ، ناهيك عن المجموعات والأوبئة ، والحرائق والزلازل الهائلة . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت أنطاكية في ذلك العهد ذات ميزات واعتبارات جمة ، ورأت بقدر الخطوب التي نالتها ، سعوداً وحظوظاً وفيرة ، جعلتها قبله أنظار العالم القديم ومملكة الشرق . منها أنها كانت قاعدة حربية للدفاع والتجاوز ، المكلف بها الفيلق الروماني المرابط فيها ، تجاه الدول والشعوب الآسيوية ، كالأرمن في الشمال ، والفرس في الشرق ، والعرب في البادية ، واليهود في الجنوب ، لذا كانت أنطاكية ملأى بالشكنات والمسالخ ، ودور الصناعات الحربية ، ثم كانت مركزاً تجارياً هاماً ، ومستودعاً ومراً عظيمين ، لختلف السلع والمحاصيل الواردة من كل أقطار المعمور في الشرق والغرب ، وكانت معقل الوثنية ، ثم مهد النصرانية بعد (أورشليم) تناحرت فيها الديانتان ، وتنازعت من نخل النصرانية الكتلركة والمهرطقة والآريوسية وغيرها ، والتجأ إليها بعض الحواريين كبطرس وبولص وبرنابة ، وكانت مقر عظماء البطاركة ، وكبار القديسين والوعاظ ، ومصدر الدعاة والمبشرين بتعاليم المسيح ، وكانت أيضاً مدينة الصناعات والفنون ، ومحجة طلاب الثقافة في تلك العصور ، تنهافت إلى نوادي الآداب والفنون اليونانية فيها ، الفلاسفة والخطباء والعلماء ، ويقصدها خاصة رواد علوم البلاغة والبيان ، كما كان يقصد وقتئذ طلاب علم الحقوق ببيروت . وكانت مساحة أنطاكية في العهد الروماني أكثر من عهدنا بعشر مرات ، وعدد سكانها اقترب من نصف مليون ، بينهم عدد وافر من الغرباء المتقاطرين إليها ، من كل أنحاء آسية وأوروبا وأفريقية .

وكانت أنطاكية مخططة ومشيدة بإحكام عجيب ، كان فيها فيا قيل ثلاثة شوارع عظيمة مستقيمة ، تتقاطع مع شوارع وطرقات ثانوية لا يحصيها العد ، ولا تختلف عن الأولى إلا بالقد ، وكان على جانبي العظيمة منها ، أروقة ذات أعمدة ضخمة مزدوجة ، وكل الشوارع كانت مبلطة ، وعلى جانبها أرصفة تعلو عن البلاط ، وكانت المياه الآتية من دفنة لقناطر (تراجان) ، تنحدر من أعلى جبل (سيليبوس) وتتوزع بقنوات متقنة ، على كل الأحياء والدور والمعاهد ، وتتدفق أو تفور في أحواضها ورياضها ، وكان في ملتقى الشوارع ميادين واسعة ، تتخذ للاجتماعات العامة ، أما القصور والدور ، والهياكل والكنايس ، والمسارح والمدارج ، والحمامات والمدارس ، والمتاحف والتأثيل ، فحدث عن

عظمتها وجمالها ، وكثرتها ماشئت . وقيل إن أجمل هذه المباني وأفخمها كان في حي الجزيرة وفي دفنة الممتازين بسكنى طبقة العطاء والأثرياء . وكانت الأيام المشهودة في أنطاكية أيام الاحتفاء بقدم قياصرة الرومان ، الذين كانوا يدخلونها بركباتهم الحربية ، وأفيالهم الضخمة ، وجنودهم المتنوعة الألوان والقامات والأزياء والأسلحة ، وكانت أفخم الأعياد وأبهج الحفلات تجرى في ضاحية دفنة . وكثيراً ما شكى قديسو النصرى ما كان عليه أهل أنطاكية في تلك العصور ، من القصف والتهتك ، وارتياح المسارح والملاعب ، يسمعون شجى الأحن ، ويشهدون تمثيل الروايات والألعاب الأولمبية ، وعراك المصارعين ، وسباق المركبات والخيول ، واقتتال الوحوش مع الأبطال أو الأسرى .

العهد البيزنطي (من ٣٩٦ م إلى ٦٣٨ م) ٢٤٢ سنة : بعد أن قسم (قسطنطين) دولة الرومان في سنة ٣٩٦ م إلى دولتين شرقية وغربية ، واتخذ القسطنطينية عاصمة للشرقية ، مضت سنون طويلة في أنطاكية دون حادث ، إلى سنة ٣٤٩ م خرجت فيها القيصرة (أوفدوكسيا) زوجة (ثيودوسيوس الثاني) لزيارة القدس والتبرك بقبر المسيح ، وكانت امرأة متعلمة أدبية ، فلما وصلت إلى أنطاكية تذكرت ماضيها ، فجلست على تحت من الذهب مرصع بالجواهر ، وألقت على الشعب خطاباً في مديح أنطاكية ، وأشارت في ختامه إلى أن أصل المدينة يوناني ، لأن الذي اختطها أحد قواد الإسكندر ، وأنها هي يونانية الأصل ولذلك هي أحببتها كل المحبة ، ثم أنشدت شعراً من الإلياذة موافقاً للمقام ، فتحمس السامعون ، ودعوا لها بالتوفيق والإجلال ، ونصبوا لها تمثالين أحدهما من البرونز وآخر من الذهب ، وأقاموا الأول في دار التحف ، والثاني في دار مجلس الشيوخ ، فقابلت القيصرة ذلك بالشكر ، وغمرت أنطاكية بعطاياها وإنعامها ، صرف منها قسم في تحسين حمامات (فالنسيوس) وآخر في مشترى مؤن للفقراء . وفي سنة ٤٥٨ م حدثت زلزلة عظيمة قلبت مبانيها الحديثة ، التي كان التجار انتقلوا إليها وتجمعوا ، فأعان القيصر (لئون) الأهلين على ترميم المدينة ، وأعفاهم من بعض الضرائب ، وإلى هذا القيصر ينسب بناء دير القديس سمعان العمودي ، المائل حتى الآن في جبل سمعان ، كما ينسب إلى هذا العهد البيزنطي ، بناء الأديرة والبيع ، والقصور والدور ، والحمامات والقبور ، التي لاتزال ماثلة في الجبل الأعلى ، وجبل باريشا وجبل الزاوية ، كما بيناه في حديث كل منها . وفي

سنة ٤٩٤ م تزلزلت أرض أنطاكية ، فخربت هي ومنبج واللاذقية ، وثار سكانها على الوالي ، فزادوا الخراب خراباً . وفي سنة ٤٩٤ م هاجم أعراب البادية ضواحي أنطاكية ونهبوها ، وأعقب ذلك غارات الجراد ، وفوضى أحكام ومنازعات دينية ، وفي سنة ٥٢٦ م حدثت زلزلة هائلة نشأ من جرائها حريق عظيم أيضاً ، كادت تخرب أنطاكية بأسرها ، وهجم أهل الضواحي والجبال ، للسلب والنهب ، ولإلجهاز على من بقي سالمًا من أغنيائها ، وقيل إن هذه الكارثة أودت بحياة ٢٥٠٠٠٠ نفس ، وقضت على كنيسة قسطنطين العظمى . ثم بعد سنتين حدثت زلزلة أخرى ، هدمت ما أبقت الزلزلة الأولى ، وقضت على حياة الألوف أيضاً ، فأشار يومئذ أحد النساك بتسمية أنطاكية (ثيوبوليس) أي مدينة الله ، أملاً بدفع المصائب عنها فقبلت مشورته . وشرع (يوستينانوس) وكان أعظم قياصرة البيزنطيين ، وأبسطهم يداً في العمران والبنيان ، في ترميم المدينة وصرف في هذا السبيل أموالاً طائلة . وما كاد يتم أعماله حتى هاجم (كيخسرو) ملك الفرس أنطاكية في سنة ٥٤٠ م فأضرم فيها النار ، فاحتترقت برمتها ، ماعدا الحي المدعو (ستراتيوم) والكنيسة العظمى ، بعد أن سلب جنوده حلي هذه الكنيسة وبلاطها ، كما سلبوا تماثيل المدينة وأعلقتها النفيسة ، وساق كيخسرو ألوفاً من الأسرى إلى شرقي الفرات ، وحملهم على إشادة مدينة حديثة مثل أنطاكية ، دعيت بعد حين بالمداين . وعقب هذه الكارثة الفادحة نشط (يوستينانوس) مرة أخرى لترميم أنطاكية على تخطيط حديث يناسب أوضاع أرضها ، وطرق الدفاع عنها ، فجدد أسوارها المنيعه الباقية أطلالها حتى الآن ، وشوارعها وسككها ، وبلطها تبليطاً حسناً ، وحفر خندقاً عميقاً بين العاصي والأسوار وحول بعض العاصي إليه ، لكن الإهمال قضى على هذا الخندق ، وأصبح مكانه مستنقعاً . وبنى على الأسوار ٣٦٠ برجاً ، وسبعة أبواب ، وزين المدينة بمجسمات جميلة وقصور ، وكنائس ومستشفيات عديدة ، وجدد قنوات الماء ، وأقام لمياه الشتاء التي كان من عاداتها أن تأتي المدينة بأضرار سدوداً متينة ، قادرة على وقاية المدينة أذى المياه . ومرت فترة بين سني ٥٤٠ - ٥٧٣ م رأت أنطاكية فيها راحة وطمانينة لم يشهها إلا تمزق النصارى شيعاً ، وزاد انكباب الأنطاكيين خلالها على القصف والكسب ، وتغيرت حالتهم عما قبل ، فأصبحوا لا يحفلون إلا بملذاتهم وأرباحهم ، وانتقلت الأبحاث العلمية والفلسفية ، إلى مجادلات دينية عقيمة ، ألهمت روح التعصب والاضطهاد . وكانت بلاد الشام في تلك الحقبة

مالت حضارتها وعظمتها إلى الزوال . لأن الفرس كانوا لا يتوانون عن مهاجمتها كلما اهتبلوا الغرر ، فيغيرون ويعيثون ، ويرجعون مثقلين بالغنائم والأسرى . نهبا سنة ٥٧٣ م دفنة ، وأحرقوا ضاحية عين جاموس ، وعادت الزلازل تقوض دعائم أنطاكية ، فقد قضت زلزلة سنة ٥٨٩ م على الكنيسة العظمى ، وقتلت ٦٠٠٠٠ نفس . وفي القرن السابع في سنة ٦١٠ م أخرج اليهود أحد الأساقفة ، فوثب الجند عليهم وأعمل فيهم الذبح . وفي السنة التالية جاء الفرس ، وهاجموا أنطاكية كجاري عادتهم ، وبعد رجوعهم انصرف من بقي من سكانها إلى التشاحن والتناحر على خلافات مذهبية ، وسادت الفوضى ، وفقد الأمن ، وبارت الأرضون ، وتعطلت الصناعات ، وعم البؤس والشقاء ، واختلت شؤون الدولة البيزنطية ، وكثر فساد عاملها وجورهم ، وما زالت هذه الأسوء تترى في الثلث الأول من القرن السابع ، والضجر والقلق آخذين بخناق الشاميين عامة ، إلى أن أقبلت طلائع الجيوش الإسلامية .

العهد الإسلامي : فتح المسلمون أنطاكية سنة ٦٣٨ م ، على يد أبي عبيدة بن الجراح ، بعد حصار قليل انتهى بالصلح ، وظلت أنطاكية في يد المسلمين وثرأ من ثغورهم ، جعلوها من أعمال جند قنسرين ، ثم اتخذوها حينا قاعدة للعواصم ، كما اتخذوا منبج حينا أيضا . والعواصم فيما قيل ، هي البلاد التي تعصم مادونها من بلاد الإسلام من العدو ، وهي غير الثغور التي كانت في كيليكية ، وأسكن معاوية وعبد الملك بن مروان في أنطاكية قوماً من الفرس والزط . ورأت أنطاكية السلام والرخاء في زمن الأمويين في الجملة ، لولا الزلزلة التي حدثت سنة ٩٣ هـ وكانت عامة . وفي زمن العباسيين كانت أنطاكية من أعمال (جند حلب وقنسرين والعواصم) تتعاورها أيدي ولاتهم ، وكان منهم (سيا الطويل) أحد قوادهم ومواليهم البارزين ، جاءه سنة ٢٦٤ هـ أحمد بن طولون الذي أعلن استقلاله في مصر والشام ، فجفل منه سيا إلى أنطاكية ، فحاصره ابن طولون وفتحها عنوة ، وقتل سيا واستولى على حلب وأنطاكية وبلاد كيليكية ، وظلت أنطاكية بيد الطولونيين إلى أن زالت دولتهم ، فرجعت إلى العباسيين ترى من تقلب الأحوال ماتراه حلب وغيرها من المدن الشامية ، إلى أن دخلت في حوزة الأخشيديين سنة ٣٢٩ هـ ، ثم في حوزة سيف الدولة ابن حمدان أمير حلب . وفي سنة ٣٥٣ هـ عصت أنطاكية لجور لحقها ، وجاء منها ثوار حاصروا حلب في غياب سيف الدولة ، فدافعهم نائبه ، ثم جاء

سيف الدولة بنفسه وقاتلهم في سهل العمق ، وقتل مقدميهم وصادر أعيانهم ، ثم رجع في أيام شديدة الأمطار ، كما قدمناه في حديث السهل المذكور .

العهد البيزنطي الثاني : واهتبل الروم البيزنطيون هذه الفوضى الناشبة بين المسلمين وأمرائهم ، فجاء القيصر (تقفور الفقاش) سنة ٣٥٥ هـ ، واستخلص كيليكية من المسلمين كما قدمنا ، ثم حاصر أنطاكية ، لكنها دافعت دفاعاً مجيداً وصدته ، فعاث في أعمالها ورجع ، وعاد في سنة ٣٥٨ هـ ، ووصل في غاراته إلى حماة وحمص وطرابلس ورجع يقود مئة ألف صبي وصبية من سبايا المسلمين ، وأقام على حصار أنطاكية أحد قواده (ميخائيل البرجي) فتمكن هذا سنة ٣٥٩ هـ من الاستيلاء عليها ، بعد حصار طويل ، وبفضل خيانة أهل بغراس ، الذين كانوا تظاهروا بالالتجاء إلى أنطاكية ، ومكنوه من الدخول كما قدمناه في بحث بغراس ، ففتك بأهلها المسلمين ، وسب منهم عشرة آلاف صبي وصبية ، وأرسلهم إلى القسطنطينية للبيع . وفي سنة ٣٨١ هـ لما حاضر (منجوتكين) أحد قواد الفاطميين أبا الفضائل بن حمدان في حلب ، استنجد هذا (ببسيل) ملك الروم فلباه الملك ، وحرر لنائبه في أنطاكية أن يسير لنجدته ، فالتقاء (منجوتكين) عند جسر الحديد على نهر العاصي ، وكسره شر كسرة ، ثم حاصره في أنطاكية ، لكنه لم يفز بطائل ، وفي سنة ٣٨٤ هـ جرت بينهما معركة ثانية في سهل العمق ، دارت الدائرة فيها على الروم ، وتعرف بوقعة المخاضة ، ونهب (منجوتكين) رساتيق أنطاكية وأحرقها . واستمرت أنطاكية بيد الروم ١٢٢ سنة .

العهد السلجوقي : وفي سنة ٤٧٧ هـ استنقذ أنطاكية من الروم (سليمان بن قتلمش) السلجوقي ، أحد ملوك آل سلجوق ، بمخامرة الحاكم بها من جهة الروم ، كما هي العادة في هذه المدينة الحصينة ، التي كانت لا تؤخذ في الغالب إلا بالمخامرة .

وكتب سليمان إلى السلطان (ملكشاه بن آلب أرسلان) بخبر فتحها فسر به ، فقال الأبيوردي يخاطب ملكشاه :

لمعت كناصرية الحصان الأشقر	نار بمعتلج الكثيب الأحمر
وفتحت أنطاكية الروم التي	نشزت معاقلها على الإسكندر
وطئت مناكبها جيادك فائشت	تلقي أجنتها بنات الأصفر

جولة أثرية (٧)

وسار شرف الدولة (مسلم بن قريش) العقيلي من حلب ، ليدفع سليمان عنها لأنه لم يدفع له الجزية التي كان يتقاضاها من روم أنطاكية ، فقابله سليمان في سهل العمق وكسره وقتله سنة ٤٧٨ هـ ، وهاقت المسمون على سكنى أنطاكية ، لكنهم لم يستقروا فيها أربع عشرة سنة ، حتى دهمتهم الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩١ هـ ، بعد أن استولت على مرعش ووادي عفرين وجسر الحديد في سهل العمق .

العهد الصليبي : داهم الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩١ هـ ، وحصروها وكان فيها (ياغيسيان بن محمد بن آلب أرسلان) السلجوقي ، فدافع دفاعاً جيداً مدة تسعة أشهر ، حتى واطأ الصليبيون فيروز الأرميني ، أحد محافظي الأبراج مما يلي الجبل فأطلعهم على البرج ليلاً بالرجال ، فهاجموا وفتكوا بأهلها فتكاً ذريعاً ، قيل إنهم قتلوا مئة ألف نفس وجفل (ياغيسيان) ثم مات من قهره في الطريق . ولما شاع أخذ أنطاكية دون قلعتها التي ثابرت على الدفاع سار (كربوغا) صاحب الموصل مع بعض أمراء المسلمين من دمشق وحصن وحلب ، وحاصروا الصليبيين في أنطاكية حتى عدم القوت منهم وأكلوا الميتة ، ثم إن (كربوغا) أساء السيرة فيمن معه وخبث نياتهم ، وكان ضاق ذرع الصليبيين ، فاستبسوا وهاجموا على ضعفهم ، فكسروا المسلمين شر كسرة على قوتهم ، وتشدد الصليبيون بما غنوه من القوت والسلاح ، فساروا به يفتحون ويعيشون ، إلى أن وصلوا إلى بيت المقدس ، وكان منهم ما ذكره المؤرخون .

ظل الصليبيون في أنطاكية زهاء ١٧٠ سنة ، جعلوها قاعدة إمارة باسمها ، وهي إحدى الإمارات الأربع الصليبية التي أقاموها في حملتهم الأولى . وأول من ملكها منهم (بوهيوند) التارناتي وكانت مدة ملكه عشر سنوات ، ثم ضمها (بودوين) الثاني إلى مملكة (أورشليم) مدة ثماني سنين ، غير أنه أرجعها إلى (بوهيوند) الثاني سنة ٥٢٠ هـ ، وبعد وفاة المذكور انتقلت إلى بيوت مختلفة ، فصلتها كتب التاريخ . وكانت أجل الأحداث التي وقعت في عهد الصليبيين في أنطاكية توالي المجاعات والزلازل عليها ، وانشغال هؤلاء بمهاجمة المسلمين أو مدافعتهم دون انقطاع ، يناوشهم في الحالتين أمراء المسلمين في حلب وحماة ، نخص بالذكر (نجم الدين إيلغازي) و (عماد الدين زنكي) وابنه (نور الدين محمود) ثم (صلاح الدين الأيوبي) ثم (الظاهر بيبرس) ، وانشغالهم أيضاً بمدافعة القياصرة

البيزنطيين ، الذين كانوا يرومون بسط سلطانهم على أنطاكية ، ويأتون إليها من حين لآخر ، وبمدافعة أمراء الأرمن الكيليكين الذين كانوا يحاولون السيادة على مضائق جبل اللكام وحصونه . وكان يعتمد الصليبيون في صيانة أنطاكية تجاه المسلمين على ثلاثة خطوط ، كان الأول أمام جسر الحديد على العاصي وشرقي سهل العمق ، وكان فيه حصون حارم وعم وأرتاح ويغرا . وكان الثاني حول جسر الشجر وفيه من الحصون القصير وكفر دبين وبلميس والشجر وبكاس وقسطون وبرزوية . أما الثالث فخافر أمامية مكلفة بسد المنافذ والمسالك النائية الآتية من حلب أو حماة ، كالتى كانت في أعزاز وحصن الباسوطة في وادي عفرين ، وحصن الأثارب ، وقصر البنات في جبل باريشا ، وكفر كيلا في جبل الأعلى والبارة في جبل الزاوية ، ومثلها معرة النعمان ، وكفر طاب وأفامية . وهذا غير حصون جبل اللكام المكلفة بسد المنافذ الشمالية تجاه البيزنطيين والأرمن كدربسك وبغراس وحجر شغلان التى تقدم ذكرها . وقد قضى المسلمون مئة وخمسون سنة يجاهدون في إسقاط هذه الخطوط الواحد تلو الآخر ، حتى قضوا عليها وتمكنوا من الوصول إلى أنطاكية سنة ٦٦٦ هـ ، في عهد الملك الظاهر بيبرس ، فإنه بعث بادئ بدء جيشاً بقيادة الملك المنصور صاحب حماة ، ودوخ بلاد كيليكية كما قدمناه في (ص ٣٧ و ٤٩) ، فقصم بذلك ظهر الأرمن ، وأزال أسباب نجاتهم لأنطاكية . ولما تم له ذلك ، سار في سنة ٦٦٦ هـ بنفسه إلى أنطاكية ونازلها ، وبعد أن فشلت مساعيه في حمل من كان فيها على الاستسلام ، فتحها عنوة بعد حصار أربعة أيام وقتل من أهلها فيما قيل ١٧٠٠٠ وأسر ١٠٠٠٠٠ ، وغنم منها أموالاً وأعلاقاً عظيمة ، وكانت أنطاكية للبرنس (بوهيموند بن يوهيموند) وله معها طرابلس لما فتحت أنطاكية ، فأرسل إليه الملك الظاهر كتاباً مطولاً يصف فيه كيفية أخذه أنطاكية ، وما فعل جنده فيها من فتك وتدمير ، وحرق وأسر ، وسبي ونهب وسلب ، إلخ ..

وهوت أنطاكية بعد هذا الفتح ، وانحط شأنها كثيراً ، وصارت في عهد المماليك ولاية صغيرة ، تتبع نيابة حلب ، يحكمها موظف صغير ، يكون تارة جندياً وتارة أمير عشرة ، وربما أضيفت إليه القصير (صبح الأعشى للقلقشندي ٤ / ٢٣٠) ، وبعد خلوها وأعمالها من الصليبيين ، جاءها المسلمون وجلهم من التركان ، الذين كانوا قد كثروا في شمال الشام على

عهد الدولتين النورية والصلاحية ، قطن حضرم في أنطاكية وقراها ، وظل رحالهم في سهل العمق ، يرتزقون من تربية أرجال الخيل السائمة .

على أن التواريخ العربية سكنت من يومئذ عن التحدث بأخبار أنطاكية ، فحول شأنها وانحطاط عمرانها ، وبوار الأرضين التي حولها ، لعدم عناية التركان الذين حلوا في سهل العمق بالزراعة ، وزوال أسباب مرور القوافل والتجار منها ، بسبب انسداد فرضة السويدية التي خربها الملك الظاهر ، حتى غدت أنطاكية بلدة صغيرة ، منعزلة وراء أسوارها الباقية ، خوف غارات تركان العمق ، الذين استفحلت شرورهم ، لما عمت الفوضى في أواخر دولة المماليك ، ومثلهم أعراب البادية وأكراد الجومة (قضاء كرد طاغ في يومنا) ودامت هذه الحالة أيضاً بعد الفتح العثماني ، والتواريخ لا تحفل بأنطاكية ، فاحتجن أناس من هذه العزلة والفترة ، اللتين طالتا أحقاباً ثروة زراعية أورثوها لأعقابهم ، فنشأت في أنطاكية أسر تحتال الآن بعدد ضياعها ، وبسطة جاهها ، وعراقة نسبها ، وجلها من أصل تركاني ، كآل شمس الدين وآل ملك وآل جيوه لك وآل خلف وآل المسكي ، وإحداها من أصل عربي كآل بركات ، وأخرى من أصل فارسي كآل يحيى ، وثالثة من أصل كردي كآل القصيري . وفي سنة ١٢٣٨ هـ حدثت فيها زلزلة دمرت معظمها ، وفي سنة ١٢٤٨ هـ افتتحها إبراهيم باشا المصري ، وبنى فيها الثكنة العسكرية من أحجار الأسوار والأبراج القديمة ، ثم عادت إلى حكم العثمانيين ، وفي سنة ١٢٩٠ هـ حدثت فيها زلزلة قوية ، دكت ثلثي مبانيها ، كما هلك كثير من سكانها ، وانهدم قسم من الأسوار ، وانشق الجسر الروماني القديم .

غابر أنطاكية : وإليك ما وصفه الجغرافيون والرحالون العرب أنطاكية : قال ابن حوقل في القرن الرابع في كتابه (المسالك والممالك) : « أنطاكية أنزه بلد الشام بعد دمشق ، عليها سور من صخر ، يحيط بها وبجبل مشرف عليها ، يمر بظاهرها العاصي والنهر الأسود مجموعين ، وتجري مياهها في دورها ومساكنها ، ومسجدها الجامع ، ومأوها يستحجر في مجاريه حتى لا يؤثر فيه الحديد ، وشربه يحدث رياح القولنج ، والسلاح بها يسرع إليه الصدا ، ويذهب ريح الطيب بالملكث فيها ، ولها ضياع وقرى ونواح خصيبة جداً ، وهي إحدى كراسي بطارقة النصارى ، ولها عندهم قدر عظيم » .

وقال ابن بطلان في رسالة إلى أحد أصدقائه في بغداد ، يصف أنطاكية في القرن الخامس سنة ٤٤٠ هـ ، حينما كانت بيد الروم البيزنطيين : « وخرجنا من حلب طالبين أنطاكية ، وبينها يوم وليلة ، فوجدنا المسافة التي بين حلب وأنطاكية عامرة ، لا خراب فيها أصلاً ، ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير ، تحت شجر الزيتون ، قراها متصلة ، ورياضها مزهرة ، ومياها متفجرة ، يقطعها المسافر في بال رخي ، وأمن وسكون ، وأنطاكية بلد عظيم ذو سور وفسيل ، ولسوره ثلاثئة وستون برجاً ، يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس ، ينفذون من القسطنطينية من حضرة الملك ، يضمنون حراسة البلد سنة ، ويستبدل بهم في السنة الثانية ، وشكل البلد كنصف دائرة ، قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مع الجبل إلى قلته ، فتم دائرة ، وفي رأس الجبل داخل السور قلعة ، تبين لبعدها من البلد صغيرة ، وهذا الجبل يستر عنها الشمس ، فلا تطلع عليها إلا في الساعة الثانية ، وللصور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب وفي وسطها بيعة القسيان ، وكانت دار قسيان الملك ، الذي أحيا ولده بطرسُ رئيس الحواريين ، وهو هيكل طوله مئة خطوة وعرضه ثمانون ، وعليه كنيسة على أساطين ، وكان يدور الهيكل أروقة يجلس عليها القضاة للحكومة ، ومتعلمو النحو واللغة ، وعلى أحد أبواب هذه الكنيسة فنجان للساعات ، يعمل ليلاً ونهاراً دائماً اثنتي عشرة ساعة ، وهو من عجائب الدنيا ، وفي أعلاه خمس طبقات ، في الخامسة حمامات وبساتين ومناظر حسنة تخر منها المياه ، وعلة ذلك أن الماء ينزل عليها من الجبل المطل على المدينة . وهناك من الكنائس ما لا يحصى ، كلها معمولة بالذهب والفضة ، والزجاج الملون والبلاط المحزق ، وفي البلد بيارستان ، يراعي البطريك المرضى فيه بنفسه ، ومثل ذلك يفعل الملك والرؤساء التماس التواضع . وفي المدينة من الحمامات ما لا يوجد مثله في مدينة أخرى لذاذة وطيبة ، لأن وقودها الآس ، ومياها تسعى سيحاً بلا كلفة » اهـ .

وقال ياقوت في (معجم البلدان) يصفها في أوائل القرن السابع ، بعد أن ذكر أنها كانت قصبة العواصم من الثغور الشامية ، وأنها الآن (أي في عهده) في أيدي الإفرنج : وهي من أعيان البلاد وأمهااتها ، موصوفة بالنزاهة والحسن ، وطيب الهواء وعذوبة الماء ، وكثرة الفواكه وسعة الخير . (وبعد أن نقل عن ابن بطلان ما نقلناه آنفاً قال :) « وبين أنطاكية والبحر نحو فرسخين ، ولها مرسى في بليد يقال له السويدية ، ترسي فيه مراكب

الإفرنج ، يرفعون منه أمتعتهم على الدواب إلى أنطاكية ، وبأنطاكية قبر حبيب النجار ، يقصد من المواضع البعيدة ، وقبره يزار ، ويقال أنه نزلت فيه ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ [يس : ٢٠] . وقال شيخ الربوة في القرن الثامن : « أنطاكية قصبة السواحل ، وكانت إحدى كراسي الروم ، وتسميها الروم تعظيماً لها مدينة الله ، كما تسمى الأرض المقدسة ، وأنطاكية من المدن القديمة ، ويحيط بها سور كبير ، يحيط على أربع جبال وشعاري ، ولها بساتين ، وحبيب النجار منها ، وله قصة في سورة يس في القرآن الحكيم ، إلخ .. » . ومرابن بطوطة بأنطاكية في ذلك القرن في سنة ٧٢٥ هـ ، فقال عنها : « مدينة عظيمة أصلية ، وكان عليها سور محكم ، لانظير له في أسوار بلاد الشام ، فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها ، وأنطاكية كثيرة العمارة ، ودورها حسنة البناء ، كثيرة الأشجار والمياه ، وبخارجها نهر العاصي ، وبها قبر حبيب النجار ، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد وللصادر » ا هـ . فيظهر من كلام ابن بطوطة ، أن أنطاكية نشطت بعد الدمار الذي لحقها في فتح الملك الظاهر ، وصارت (كثيرة العمارة حسنة الدور) كما قال . ولم يظهر بعد شيخ الربوة من الشرقيين ، من جاء ووصف لنا أنطاكية في القرون المتأخرة ، سوى سائحنا (أوليا جلي) الذي - راجع صحيفة ١٨ - وصف أسوارها وأبراجها العظيمة ، وقد كانت ماثلة في عهده ، ووصف قصورها وجوامعها ، وتكايها وأسواقها ، ومياها وفواكهها ، فدلنا بذلك على ما كانت عليه هذه البلدة في أواسط القرن الحادي عشر الهجري .

وفي عهدنا تكلم عن أنطاكية كامل الغزي المتوفى سنة ١٢٥١ هـ في كتابه (نهر الذهب في تاريخ حلب) فقال : « قضاء أنطاكية واسع معمور ، كثير الخيرات وافر البركات ، غزير المياه عظيم المنتزهات ، فيه السهل والوعر ، والغالب على أهله الثروة ، لأن لهم من حقوله عدة مواسم من الحبوب ، والحرير والزيتون ، والبرتقال والرمان ، والتين والعنب ، والتفاح وبقية الفواكه اللذيذة ، وكلها تنتقل إلى البلاد شرقاً وغرباً ، واللغة العامة في قضاء أنطاكية التركية ثم العربية ، ثم الكردية ثم الأرمنية ، ويوجد في كل أمة منهم من يعرف لغة مواطنيه ، وهواء أنطاكية جيد ، لولا ما فيه من الرطوبة ، وذلك لأن مهبة من الجهة الغربية ، فيمر على البحر أولاً ، ثم على السويديّة ، وما فيها من العيون والمياه ، ثم على نهر العاصي فيكتسب رطوبة ظاهرة الأثر ، وقلما يبيت الطعام المطبوخ في أنطاكية ،

وهي كثيرة الأمطار والبروق والصواعق ، وربما حصل ذلك في الصيف أيضاً ، وكثيراً ما تتلبد سماءها بالغيوم ، في إبان الصيف ، ليلاً أو نهاراً ، فيحبس الريح ويشد الحر ، وينتشر البعوض ويبقى الإنسان في اضطراب عظيم ، وشرب سكان أنطاكية من العاصي ، أو من العيون المنحدرة إليها من جبل حبيب النجار ، وكان لمدينة أنطاكية خمسة أبواب مشهورة : هي باب بولس وباب الكلب وباب دوكة وباب العاصي وباب الحديد ، وسورها العظيم باق حتى الآن لكنه في غاية التوهن ، ويبلغ محيطه اثني عشر ميلاً ، وذلك مسيرة ثلاث ساعات تقريباً ، وهو محيطها من جهة الشرق والجنوب ، والعاصي من شمالها وغربها . وقال أيضاً : « أول ما يترأى للمطل على مدينة أنطاكية من جهة حلب جبل حبيب النجار ، فيرى منازل وعمائر منبثة بين الحدائق والبساتين ، ثم لا يلبث القادم حتى يسمع من جهتها نعر النواخير الدائرة بقوة مياه العاصي ، الشبيهة بنواخير حماة ، وقد يستقبل النسيم القادم إليها في فصل الخريف ، بأرج الآس النابت في جبالها وهضابها ، القريبة والبعيدة ، وبعد أن يجتاز إليها ذلك الجسر القديم ، يرى بلداً عظيماً حسن المباني ، بعضها من الأخشاب وبعضها وهو الأكثر من الحجارة المنهدمة ، قد تعلق في كثير منها سواق خشبية ، يجري فيها ماء النواخير إلى أماكن لكل منها قسط معلوم » . وقال أيضاً : « أهل أنطاكية متدينون ، والجمال غالب في نسائهم ، وقد اشتدت في وجهائهم وأعيانهم محبة الجاه والتقرب إلى الحكومة ، ليتكفوا من إخضاع مزارعهم ، وصون حقوقهم وغلاتهم منه ومن غيره ، من أرباب الصولة في البر . وما انفردت به أنطاكية من الفواكه المشمش العجمي المعروف بشكر باره ، والدراقن والسفرجل ، والأكي دنيا وقصب السكر ، والبرتقال واللبون ، وأنواع البطيخ الأصفر ، والعنب والرمان ، وحب الآس والعناب ، وانفردت أيضاً بلبن الجاموس ، وما يعمل منه كالزبدة والجبن ، فهذا مما لا نظير له في غيرها ، وانفردت بتبغها وفليفلتها الحمراء ، وصابونها الجيد » اهـ .

هذا وما يذكر أن هذه المدينة موطن (أميانوس مرشليينوس) و (أرخيلاس وليبيانوس) و (القديس يوحنا في الذهب) ، وينسب إليها جماعة من أهل العلم وغيرهم من المسلمين في القرن الثالث والرابع ، عد منهم ياقوت في معجمه أسماء (عمر أبو حفص العتكي) صاحب كتاب المقبول و (عثمان بن خرداذ) محدث مشهور ، له رحلة و (إبراهيم أبو يحيى) الأزدي الفقيه المقرئ ، ونبغ في القرن العاشر الهجري في أنطاكية الطبيب

الأشهر (داود بن عمر البصير) الأنطاكي (٩٥٠ - ١٠٠٨ هـ) ، كان متوقد الذكاء ، بارعاً في الرياضيات والطبيعات ، والطب واللغة اليونانية . دعي إلى مكة ليطبب فكانت منيته فيها ، له عدة مؤلفات أشهرها (التذكرة) المعروفة باسمه .

وفي القرن الخامس الميلادي لقب أسقف أنطاكية بطريركاً وكان في الرتبة بعد أساقفة رومية والقسطنطينية والإسكندرية ، ولم يزل في الكنيسة اليونانية يحسب بعد بطريركي القسطنطينية والإسكندرية . ويطلق لقب بطريرك أنطاكية على ثلاثة من بطاركة الكنيسة الكاثوليكية ، وهم بطريرك الموارنة ، وبطريرك الروم الكاثوليك ، وبطريرك السريان الكاثوليك ، وما من أحد من هؤلاء مقيم في أنطاكية .

وزار أنطاكية كثير من السياح والمستشرقين الإفرنج ، ك (فولناي) في سنة ١٧٧٢ م ، و (بوجولا) سنة ١٨٣١ م و (بارتلت ويوزر) الإنكليزيين سنة ١٨٣٥ م ، والأميرة (بلجيوجوزو) سنة ١٨٣٥ م و (فان برشم) سنة ١٨٩٥ م و (موريس باريس) سنة ١٩١٤ م وكلهم لاسيا الأولون الذين زاروها قبل قرن أو بعض قرن ، وصف حقارة مبانيها المركومة ، وضيق أزقتها المعوجة ، وأقذارها وأوحالها ، ووطوء دورها ، واشتباك أفنيتها وصغر نوافذها ، وجفوة أهلها وتعصبهم . إلى آخر ما هنالك من الازدراء بمحاضرها ، قياساً على ما عرفوه من غابرها ، وقالوا إن مشاهد أطلالها الفخمة ، وذكريات ماضيها ، وما مر بها من طوارئ الحداث ، ومسرات وأحزان ، تثير الشدة والشجو . وخاض أحدهم (موريس باريس) في حديث صليبي أنطاكية ، وأشاد بعزم وصولتهم ، ورفههم وهو نسائهم في حدائق العاصي .

حاضر أنطاكية : وأنطاكية في يومنا ، تعد من أجل مدن الشام هواءً وماءً وعمراناً ، وعدد سكانها ٣٥٠٠٠ ، منهم ٢٣٠٠٠ سنيون و ٨٠٠٠ نصيرية و ٤٠٠٠ نصارى ينتسبون لنحل شتى ، وقد تم استجلاب مياه دفنة العذبة إليها ، ضمن أنابيب حديدية ، كما قد تم تنويرها بالكهرباء ، وفيها ٢٤ مسجداً للمسلمين ، أكبرها الجامع الكبير وجامع حبيب النجار ، وأربع كنائس للنصارى ، وكنيس لليهود ، وفيها ستة حمامات ، وتكية لأهل الطريقة المولوية ، ومدرسة تجهيزية كبيرة جميلة البناء ، ويقام فيها سوق عام كل يوم خميس ، وهي مركز قضاء تتبعها نواحي قره مغرط والحريية ، والقصير الفوقاني والقصير

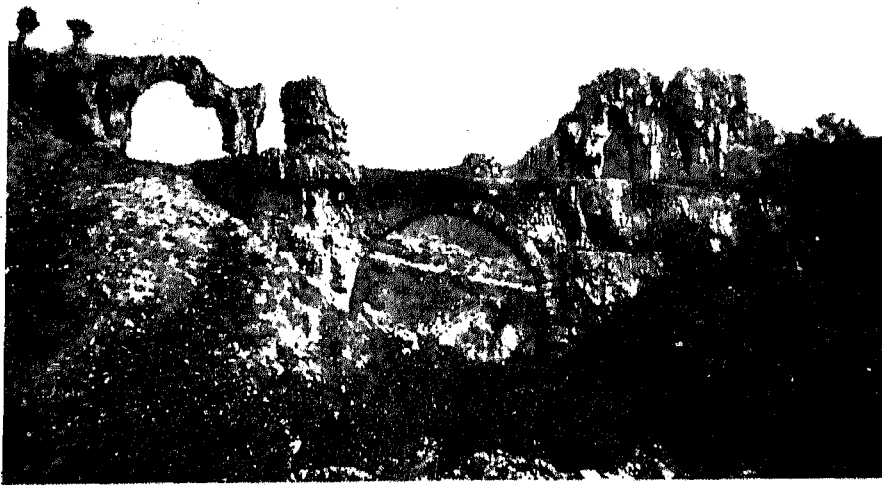
الوسطاني والقصير التحتاني ، والأردو وكسب والسويدية ، وأكثر ماتصدر أنطاكية الصابون ثم فيالج الحرير والسمك ، والصوف والحبوب ، وزيت الزيتون والقطن ، والقطران وزيت الغار ، والجلود والفواكه الطيبة ، وغيرها ، وفيها صناعات غزل الحرير ، وعمل الصابون والدباغة ، ونسج الأقمشة والبسط ، ونجارة الأثاث المعمولة من خشب الجوز ، وتجارة النقود والآثار القديمة التي ينبشها الأهليون فيها وضواحيها .

وأنطاكية وإن لم تعل عن سطح البحر أكثر من ثمانين متر ، لكن لها في واديها الأفيح الممتد من الغرب إلى الشرق ، بين جبل موسى وجبل حبيب النجار ، وفي قرب البحر مجال متسع ، لجريان الرياح الغربية البليلة ، مما يجعل هواءها في فصل الصيف منعشاً ، يستهوي رواد الاصطياف والنزهة . وفي الربيع حدث ولا حرج عن نضرة سهولها ، وخضرة حزونها ، وغناء رياضها ، وحمرة ووفرة مياه عاصيها ، ولذة وكثرة أثمارها ، وفوحان أزهارها . وإذا أراد السائح أن يتلى بمنظر أنطاكية من أقرب وأعلى مكان ، عليه أن يذهب ويقف فوق تل جبرائيل الذي على يمين العاصي وقرب مدرسة التجهيز ، وقد كان هذا التل مقراً لأكبر قواد الحملة الصليبية الأولى ، ثم بنى عليه (كودوفروادوبويون) حصناً ، ثم اتخذوه المسلمون مقبرة . ومن أراد زيارة داخل البلدة ، يصل إلى جسرهما الروماني القديم ذي القناطر الأربع ، وقد كان فيما مضى ضعفي طوله الحالي . فإذا وقف فيه يتمتع ناظريه بنهر العاصي ، فيراه أضخم وأعرض وأرغى وأزبد مما كان في حماة ، ويشنف آذانه بأنغام النواعير ، ويشاهد على ضفته اليمنى مقاهي امتدت تحت أشجار الدلب العظيمة ، واكتظت بالأهلين واللاعبين والساجين ، وثمة مدرسة التجهيز ومقر البعثة الإفريقية ، ومعمل التنوير الكهربائي ، وحدائق عديدة ، والطريق الذاهبة إلى طوب بوغاز والأخرى الذاهبة إلى السويدية . وفي الضفة اليسرى حيث المدينة كلها ، يسير السائح في شارع عريض ، يمتد من الشرق إلى الغرب ، باعوجاج نحو الجنوب ، يدعونه شارع السرايا ، امتدت في جانبه أفخم مباني أنطاكية وأجلها ، المبنية على الطراز الحديث كالمقاهي والمرائب ، والمطاعم والفنادق ، والنوادي والمصارف ، ودار البلدية ودار الحكومة ، التي في باحتها عاديّات غير يسيرة ، جديرة بالرؤية ، وتتفرع من هذا الشارع شوارع ثانوية ، تذهب جنوباً نحو داخل البلدة ، حيث الجوامع والكنائس والمدارس لختلف الملل والنحل ، وبين الأحياء والدور أزقة ضيقة مرصوفة بالحجارة ، أنظف مما ذكرها

سياح القرن الماضي ، أما الدور فبنية بأنقاض هذه المدينة التاريخية ، التي سطوا عليها الأهلون ونقضوها وشوهوها وما برحوا . وجل دور أنطاكية تشبه في الجملة دور حلب إلا أن سقفها مغطاة بأجر بلدي ، يسود بمرور الزمن ، ويكتئب منظره . وفي شرقي الجسر الذي ذكرناه ، تمتد الطريق المعبدة إلى حلب - تقدم وصفها - وعليها قرب الجسر دار للبرق والبريد ، وبعض المباني والمعامل ، ثم تبدأ الضاحية الملأى بالحدائق الغناء . واللغة السائدة في أنطاكية التركية عند المسلمين السنية ، ثم العربية عند النصارى والنصيرية . والترك والنصارى في رغد من العيش والتجمل العصريين في مظاهرم ومساكنهم . ومن الترك كثير من المثقفين في مدارس استانبول وأوروبا . وتعد أنطاكية معقل الترك في لواء الأسكندرونة ، وهم هنا ذوو ثلاث نزعات متباينة ، فالخاصة صاحبة الثروة والوجاهة ومثلة الإقطاعية تناصر الوضع الحاضر الملائم لاستدرا مغانمها ، وبعض العامة وعلى رأسها رجال الدين ، تفضل الانضواء تحت راية الانتداب الإفرنسي على أتباع النزعة الكمالية العلمانية ، وبين هذه وتلك الشبيبة المثقفة في مدارس استانبول المتسكة بالنزعة المذكورة كل التمسك ، والعاملة على إلحاق أنطاكية بل لواء الأسكندرونة كله بجمهورية أنقرة . أما العرب فعلى كثرتهم ضعفاء في كل شيء ، في القومية وفي الثقافة . فالنصارى مشتتو الأهواء بحكم اختلاف نحلهم ، وتضارب مبادئهم التي لقنوها في مدارس الأغيار ، لا يدرون أي وجهة يولونها ، والنصيرية وإن أعلنت الدولة المنتدبة قدرهم وأسمتهم (علويين) ، وعهدت إلى بعض نبهائهم بالوظائف الكبيرة ، واتخذتهم أنصاراً لها ، لكنهم وقد بقوا أحقاباً بعيدين عن التحضر والتعلم ، ما برحوا معدومي الثقافة ، محرومي الرفه والرغد العصريين ، ليس لهم زعماء يحسنون إرشادهم ، وتوجيه أميالهم نحو الخطيرة القومية ، لذلك ظلوا حيارى حول هذه الخطيرة لا يستقرون على حال . فهذه الأمور في أنطاكية خاصة ، ولواء الأسكندرونة عامة معقدة مضطربة ، تتقاذفها الأهواء والدعايات ، والنزاع سائد بين الفكرتين العربية والتركية ، كما أن النفور ضارب أطنابه بين السنية والنصيرية . ولكل من اللغات الرسمية في هذه الديار نصراء ، فالترك ومن وراءهم جمهورية أنقرة ونوابها وصحافتها يدافعون عن اللغة التركية ويصخبون ، وعمال الدولة المنتدبة ذوو السلطان الواسع في هذه الديار عن الإفرنسية ، والموظفون الشاميون القلائل الضعاف في الحول والطول عن العربية ، ولا يعلم إلى أي مدى يبلغ هذا التعقد والتنازع ، وكيف ومتى ينتهي .



منظر أنطاكية العام



أنطاكية قناطر تراجان في طريق دفنة

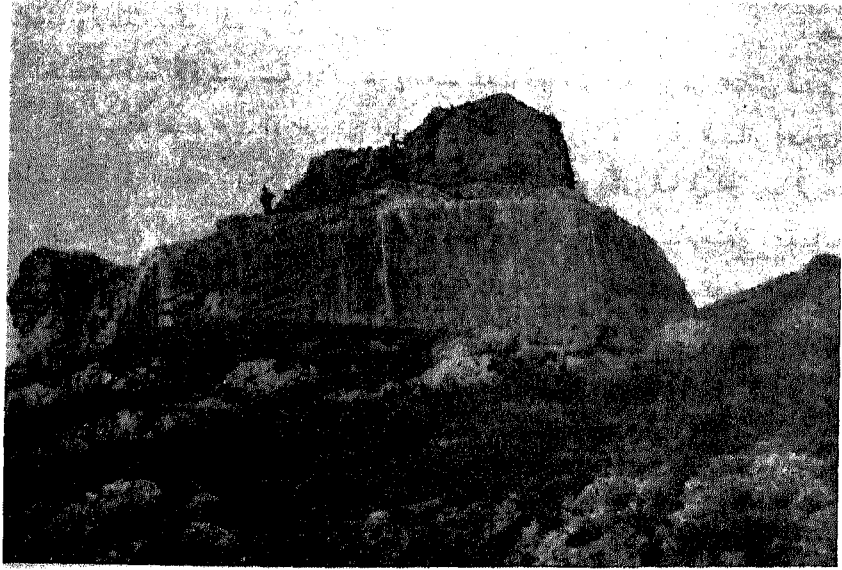
والنصيرية في قضاء أنطاكية يؤلفون السواد الأعظم في نواحي السويدية والحربية وقره مغرط ، أي في كل وادي العاصي بين أنطاكية والبحر ، تمتاز ضياعهم بوجود القباب البيضاء التي تعلو الأماكن المرتفعة ، وتحت كل منها مزار يحجون إليه في أوقات خاصة . وهؤلاء على ما يظن نزحوا في أحقاب متوالية من مواطنهم الأصلية في جبال اللاذقية ، فاختلط هنا بعضهم ببعض ، ولم يعد لهم عصبية خاصة ، كما هي الحال في مواطنهم المذكورة . ومهنة هؤلاء الفلاحة والبستنة ، وتربية الماشية ودود الحرير ، قل من امتلك أرضاً واسعة ، بل جلهم أجراء وشركاء لدى (الأغوات والبكوات) الترك الأنطاكيين ، الذين ما برحوا يمثلون العهد الإقطاعي القديم ، ويحتفظون بمظاهره وتقاليده .

التطواف حول الأسوار وزيارة الآثار : كانت أسوار أنطاكية سالمة في معظمها إلى حين مجيء إبراهيم باشا المصري ، فإنه قضى عليها قضاءً مبرماً ، واتخذ أحجارها في إشادة ثكنات عظيمة لجنوده ، وسطاً من بعده الأهلون عليها وما برحوا . وكانت هذه الأسوار حيناً بناها (تئودوس) كبيرة ، ثم بعد خرابها بالزلازل والحروب رمها (يوستينانوس) وصغر دائرتها ، وأبقى في خارجها الجزيرة التي كانت تحوي القصر الملكي . وإذا فجميع أحجار وأطلال الأسوار من العهد البيزنطي ، ولهذه الأسوار واجهتان من الحجر المنحوت ، وقد كان عرضها فيما قيل إلى حدٍ يمكن أن تسير فيه مركبة ذات أربعة خيول ، ولعل هذا الإمكان كان مختصاً ببعض الأقسام لا كلها . ومن مسافة إلى أخرى بنيت على الأسوار أبراج عظيمة شاهقة ، ذات ثلاث طبقات ، لاتزال أطلال البعض منها ماثلة . ولدثور معظمها ، صار يستحيل تقدير عدد هذه الأبراج ، التي قال ابن بطران فيما نقلناه عنه ، أنها كانت ٣٦٠ برجاً ، ولعل هذا العدد مبالغ فيه ، وكان في داخل كل منها درج داخلي وحوض ماء .

وقاصد الطواف حول الأسوار يتوجه بادئ بدء إلى طرف المدينة الجنوبي الغربي في طريق دفنة ، فينحرف عن هذه الطريق قبل الثكنة بقليل ، وقد كان عند هذا المنحرف فيما مضى باب الخضر (القديس جورج) وكان من أعظم المنافذ إلى أنطاكية ، ويصعد نحو الجنوب الشرقي في شعب يرى فيه أطلال الأسوار الزاهية صعداً نحو منحدرات جبل (سيليبوس) . وبعد قليل يرى خارج الأسوار جسراً خرباً ، وبعده أربع قناطر من قناة

تراجان الآتية من دفنة ، وهي تحتاز هناك وادياً يدعى زويبة ، ثم يرى في مكان فوق القناطر ، أطلال برج عظيم خمس الأضلاع يدعى برج الأختين ، وهو الذي أطلع منه فيروز الأرمني الخائن الصليبيين ، ويرى أيضاً هناك كثيراً من الكهوف التي كانت فيما مضى ملجأ الحبساء والنساك . ومن كان قديراً على الدرج والتصعيد يلزم في سيره الأسوار بعد البرج المذكور حتى إذا وصل إلى قمة الجبل ، يراها قد اعوجت نحو الشمال الشرقي في اتجاه القلعة . وكذلك يمكن للسائر أن يجوز خط الأسوار ، ويتجه نحو الجنوب الشرقي ، فيجد لحباً اختطه الجند الإفرنسي سنة ١٣٤٠ هـ يصعد بتعاريج متوالية ، ويعبر بحوض قديم ، كانت تأتي مياهه بقناة تحت الأرض من ينابيع في الجبال المجاورة ، ويصل السائر أخيراً في صعائد شاقة إلى القلعة ، وشكل هذه القلعة مثلث متطاوّل ، وكان لها في الجنوب أربعة عشر من الأبراج الصغيرة المدورة . على أنها لم تكن في الجملة ذات بناء متين ، صالح للدفاع ، بل كل مناعتها منحصرة في أنها في ذروة لاترام . بناها القيصر (تقفور الفقاش) البيزنطي ، وبعد أن قضت عليها الزلازل رمها (باسيلوس الثاني) ، وكان يدخل إليها من سرداب سري من الزاوية الجنوبية . والواقف في أعلى هذه القلعة ، يطل على مناظر تستهوي الأبواب بتنوع أنوانها وروعة مشاهدتها . فهو يرى أمامه مدينة أنطاكية ، ونهر العاصي وواديها ، والجبل الأحمر وجبل موسى وأعضادهما ، ويرى على يمينه سلسلة أمانوس وسهل العمق وبحيرة أنطاكية الزرقاء ، يتوهج سطحها بأشعة الشمس ، كصفيحة من اللجين ، فيحلق في سماء التفكير ، ومسارح الخاطر ، ويستعرض مامر على هذه المدينة الدهرية وضواحيها ، من طوارئ الحدثان وعوادي الزمان .

وبعد القلعة يصادف السائر في الجبل تلعات مائلة ، ومهاوسحقة ، تمتد حتى الوادي الذي فيه باب الحديد . ويصل إلى هذا الوادي من شعب ذي مهابط عديدة ، وفي أسفل الوادي يجد الأسوار ممتدة بشكل الدرج ، وهي هنا تكاد تكون سالمة . ثم تحتاز الأسوار وادياً ضيقاً ومعوجاً ، يجري فيه الماء كان يدعى قديماً (أونونيكلس) . وكان هذا الوادي فيما مضى يكثر ماؤه فجأة ويطغى ، فيحدث في أنطاكية أضراراً جمة عند خروجه من مضيقه . ولإزالة هذا الضرر صنع له القيصر (يوستينيانوس) سداً من الحديد يفتح ويغلق حسب اللزوم . ويمكن للذي لا يخشى دوح الرأس أن يحتاز الوادي المذكور ، فوق الأسوار فيطل من أعلاها على مشهد رائع ، وبعد وادي الحديد تمتد الأسوار نحو الشرق ،



برج الأختين في أنطاكية

فتصل إلى قرب الجبل المدعو جبل (ساتوريس) ، ثم تنحرف نحو الشمال ، وتهبط حسب المنحدر الأرضين ، حتى تصل إلى باب (القديس بولص) . وبعد هذا الباب بقليل تنعرج نحو الغرب ، وتسير بموازية قناة مستقيمة من بناء (يوستنيانوس) مشتقة من العاصي ، وكان في هذه الجهة من الأسوار باب الكلب وباب دوكة ، لم يبق من آثارهما إلا أنقاض مبعثرة بين البساتين ، وهكذا إلى أن تصل الأسوار إلى باب الجسر ، حيث مدخل البلدة الحالية .

وفي شرقي باب الحديد ، يشاهد السائح أطلال المسرح الكبير ، الذي فيه فاجأ سابور ملك الفرس سكان أنطاكية وهم لاهون ، وبعد هذا المسرح يصادف مغارة في حضيض جبل ستوريس ، تدعى مغارة القديس بطرس ، تجري من بعض جدرانها مياه ، يقصدها النصارى للاستشفاء ، وقد تسلط الآباء الكبوشيون على هذه المغارة ، فلا يسمحون بزيارتها في كل الأوقات ، وفي رواية أن النصارى الأولين كانوا يلجئون إليها في زمن القديس بطرس . وإذا سار السائح نحو الشرق ، يرى في حضيض الجبل المذكور أطلالاً غريبة لقناة تحت الأرض ، كانت تجري فيها مياه دفنة ، وكان لهذه القناة فتحات في كل مسافة وأخرى ، يؤخذ منها الماء لإسقاء الأرضين على ما يظن . وعلى بعد ثلاثمائة متر من مغارة القديس بطرس ، يصل السائر إلى أمام حجر كبير منقوش نقشاً غريباً يشبه الطلامس ، وفيه صورة رأس امرأة ، ويعزى هذا الطلمس إلى دفع الأوبئة ، أو درء الزلازل عن أنطاكية أم الكوارث والنوائب .

وعلى بعد ثلاثة كيلو متر من المدينة ، وفي اتجاه طريق حلب حلب ينحرف إلى اليسار ، يأخذ السائح بعد خمسة كيلو متر إلى الملعب الروماني القديم (الستاديو) ، وطوله مئتا متر ، وهو محاط في يومنا بالمستنقعات . وما برحت المداميك السفلى للمراتب الخاصة بقعود المتفرجين بارزة ، ومثلها أنقاض السدود وغيرها . وبعد هذه الأطلال بمسافة ، وفي الجهة الجنوبية الشرقية ، يزور السائح أنقاض الحمامات التي بناها القيصر (فالنسيوس) في وقت واحد مع الستاديو . وهذه الحمامات بناء مستطيل الشكل ، مقسم إلى حجرات عديدة ، يحيط بها من الخارج شبه السرداب . وإذا رجع السائح إلى طريق حلب ، يجد قبل أنطاكية بنحو كيلو متر مكان الباب القديم المسمى باب (القديس

بولص) الذي خرب بزلزلة سنة ١٢٩٠ هـ ، وفي جواره بركة ماء ما برحت تتدفق منذ أحقاب . وكان في قرب هذا الباب دير قديم للقديس المذكور ، لم يبق منه إلا أطلال ضئيلة مبعثرة تحت أشجار التين .

متنزهات أنطاكية : دفنة (الحربية) ، تبعد عن أنطاكية تسعة كيلو متر للجنوب الغربي ، في الطريق المعبدة الذاهبة إلى كسب واللاذقية ، والحربية قرية أهلها نصيرية ، بعثرت دورها بين البساتين الغناء . ومكان النزهة يدعى (بيت الماء) في منحدر يهبط إليه في بضع دقائق ، فيجد فيه القاصد طواحين تدور ، وشلالات تدفق ، ومياه تنحدر مارة بين الصخور الدهرية والأطلال الأثرية ، ولها خرير ورغو رائعين يبهجان السمع والبصر ، وثمة آكام شاهقة ، وأودية سحيقة متتابعة ، تمتد نحو الغرب بسقت فيها أشجار الدلب والخور والغار ، ونمت الأعشاب والأنجم الغضراء ، وهنا وهناك مقاه ومقاعد ختبت بين الينابيع ، وتحت ظلال الأشجار الوارفة ، التف حولها رواد النزهة ، وراغبو التلي بجمال الطبيعة من أهل أنطاكية وحلب وغيرها . وهذه المشاهد والمياه حملت فيما مضى اليونانيين والرومانيين في أنطاكية على تجميل دفنة بالهياكل والمسارح ، والفنادق والحمامات ، حتى غدت أبدع وأنسب مكان في العالم القديم كله ، للنزهة والقصف والفسق .

فا من معبود وثني إلا وأقيمت له فيها الهياكل ، وما من قيصر روماني إلا وشاد لنفسه فيها دسكرة أو قصرأ ، وأقام فيها أفخم الأعياد وأبهج الحفلات ، حتى أن (كليو باترة) ملكة مصر عشيقة (أنطونيو) و (جوليا ابنة أوغسطس) جاءتا وقضتا فيها أياماً . أما الآن فلم يبق من عظمتها السالفة التي أختت عليها طوارئ الحداث سوى روائعها الطبيعية ، (ماء وظل وأزهار وأشجار) ، وسوى بضعة كسور أعمدة ، وبقايا أسس جدران مبعثرة بين الحدائق . وقد شيدوا منذ عهد قريب في دفنة فندقاً كبيراً ، مستوفياً كل شروط الراحة والرفه .

وحول أنطاكية من أماكن النزهة الحاوية على فوائد أثرية أيضاً ، جبل موسى معقل أرمن هذه الديار ، وفيه من قراهم ، بتياس وخضر بك ، وحاجي حبيبلي ويوغون أولوق ، وسور وطمة وكابوسية ، ووقف ، وهذه القرى ذات مناظر رائعة ، وحراج وكروم فاتنة ، وجداول مناسبة ، يربي أهلها دود الحرير ويصنعون الأمشاط من خشب

البقس وغيره ، وهؤلاء الأرمن عريقون في قدمهم الذي يرجع لعهد ملكهم (ديكران) ، متمسكون بلغتهم وخصالهم القومية ، حدثوني لما زرت بتياس في ربيع سنة ١٣٥٠ هـ أنهم في سني الحرب العالمية ، لما أجبرتهم الحكومة العثمانية على الجلاء كما أجلت بقية أبناء جلدتهم من كل بلادها ، أبوا الخروج واعتصموا بقمم جبلهم المنيع وحراجه الملتفة ، وحاربوا الحملة التي هاجتهم ، واستبسوا إلى أن توصلوا للاتفاق مع سفن الأسطول الإفريقي ، التي كانت تمخر بين الأسكندرونة واللاذقية ، فركبوا رجالاً ونساء ، وانتقلوا إلى بورسعيد في القطر المصري ، وهناك ألقوا الكتائب الأرمنية التي زحفت مع جيوش الحلفاء سنة ١٣٣٧ هـ ، ودخلت مدن الشام وكان منها مذكرته في بحث الأرمن .

ومن أجمل قرى جبل موسى بتياس ، تقوم في إحدى الهضاب المرتفعة من جبل موسى ، تشرف من عل على أنطاكية وضواحيها وسهولها ، وتكثر فيها أشجار الفاكهة وكروم التوت ، تعلو عن سطح البحر ٥٠٠ متر ، وعدد أهلها ألف ، يقصدها رواد الاصطياف من حلب ، لنقاء هوائها ، وعدوية مياهها ، وروعة مناظرها ، وثمة في أعلى القرية كنيسة لم يتم بناؤها ، شيدت على أنقاض كنيسة قديمة ، وفي قربها كنيسة أخرى أثرية باسم القديس (يوحنا فم الذهب) ، الذي ظل فيما قيل مدة مديدة حبساً في كهوف جبل موسى ، قبل نزوله إلى أنطاكية ، وهناك بيت متوهن وضريح لقنصل إنكليزي يدعى (الميستر باركر) وجد في أنطاكية قبل قرن ، وخدم هؤلاء الأرمن خدمات جلى بالتعليم والإرشاد ، وأدخل إلى هذه الربوع كثيراً من أشجار الفاكهة التي كانت مجهولة . وقرية خضر بك أيضاً من قرى الأرمن الجميلة ، سكانها ثمانية قائمة في لف جبل ، وبيوتها راكب بعضها فوق بعض ، بين أشجار التوت والبرتقال وغيرها ، المنتشرة في جرف ، تتوالى من أسفل الجبل إلى أعلاه ، وفي مدخل القرية نبع ماء غزير ، حوله شجرة دلب عظيمة محيطها لا يقل عن اثنين وعشرين متراً . وفي غربي أنطاكية على ساحل البحر بالقرب من مصب العاصي (السويدية) وهي قرية عظيمة ، تبعد عن أنطاكية ٢٨ كيلومتراً أهلها نصيرية ونصارى ، بيوتها جميلة منفردة ، مبعثرة بين الحدائق والكروم ، وعلى مقربة منها خرائب سلوقية ، يزورها السياح لإمتاع النظر في أطلالها العجيبة ، وقنواتها الفخمة الممتدة تحت الأرض ، وقد كانت سلوقية فيما مضى فرضة أنطاكية ، ومن أعظم مرافئ الساحل الشامي ، وظلت في زهوها إلى أن ردم الملك الظاهر بيبرس ميناءها ، بعد جولة أثرية (٨)

استخلاص أنطاكية من أيدي الصليبيين ، حذراً من أن يعودوا فأفل نجمها من ذلك الحين . وناحية السويدية من أنزه أنحاء الساحل الشامي ، بحسن مناظرها ، وغزارة مياهها ، ووفور غلاتها ، من أنواع البرتقال والفواكه ، والزيتون والتين ، والرمان والحريز ، والحبوب المختلفة . ومن أجمل متنزهاتها (جوليك) ، يقصده السياح ويضربون فيه الخيام ، ويتمتعون بمجودة هوائه ومائه ، وجمال مناظره .

ومن الأماكن الجديرة بالزيارة حول أنطاكية (حصن القصير) ، وهو في شرقي دفنة ، وفي الهضاب الوعرة المطلة على (صوفيلر) إحدى قرى كورة القصير التي سيأتي ذكرها ، يبعد عن أنطاكية ١٦ كيلومتراً ، وله شعاب كداء توصل إليه . وقد كان هذا الحصن في عهد الصليبيين من المعامل المخصصة لحراسة أنطاكية من الجنوب ، وهو مبني فوق رابية منفردة ، تحيط به وهاد سحيقة وخندق ، ولا يزال بعض أبراجه وأسواره قائماً ، مر به ابن بطوطة واستحسنه ، وذكر اسم أميره وقاضيه .



شلالات دفنة (الحربية)

طريق أنطاكية - جسر الشغر (٦٩ كيلومتراً)

هذه الطريق الحديثة تفتقر عن طريق حلب في (الكيلومتر ٥) بعد قرية إيليجة ، ثم تتسلق عقبات جبل القصير ، وتعلو هضابه ، فتمر بقرى عديدة كالمشوقية ونارليجة وقورية وفنك ، والفاتكية في (الكيلومتر ٢٢) ، وصورية وجنيد وفي (الكيلومتر ٢٥) ، وقليزان ومزرعة التركان ، وفلنجان وكفر عابد ، وسفريه وقاريياز ، وبدرهون وهذه في آخر حدود قضاء أنطاكية ، ثم تدخل الطريق حدود قضاء جسر الشغر فتمر بقرية القنية في (الكيلومتر ٥٥) وفيها لحب يذهب شمالاً نحو دركوش ، ولحب آخر يذهب شرقاً نحو حمة الشيخ عيسى ، وبعد القنية تنحدر الطريق رويداً رويداً ، وتمر بجسر نهر الأبيض ، وله ١٢ قنطرة ، ثم تصل في (الكيلومتر ٦٩) إلى جسر الشغر ، وهذه الطريق كانت تمر بعض القوافل ، فقد سلكها الرحالة ابن بطوطة في سنة ٧٢٥ هـ ، حينما مر بمحصن القصير ، ثم بمحصن الشغر وبكاس ، وبعض القوافل - كقافلة (أوليا جلبي) - كانت تمر شرقي هذه الطريق ، من ضفة العاصي اليسرى ، فتبدأ من عند جسر الحديد ، وتمر بقرى تلبل الشرقي وبخشين وشاخورة ، التي تشرف عليها من الغرب قرية الزيارة المحاطة بالزيتون ، ومن الشرق على يمين العاصي العلاني من قرى ناحية سلقين ، ثم تهبط وادي العاصي فتمر بتل حاجي باشا وبازمرين وبالمزبقي التي ذكرها (أوليا جلبي) باسم الزنبقية ومدحها (صفحة ١٩) ثم بدركوش ، ثم تتسلق بعد مسافة عقبات الجبل مارة بضياح زرزور وخربة العمود ، وتلاك والدويسات ، إلى أن تصل إلى القنية ومنها إلى جسر الشغر .

جبل القصير : والقصير كورة جبلية خضراء ، يحدها من الشمال والشرق وادي العاصي ، ومن الغرب البحر ، ومن الجنوب جبل الأكراد التابع حكومة اللاذقية ، وينابيع نهر الكبير الشمالي ، وهي تشمل الآن ناحية الحربية ، والنواحي الثلاث : القصير الفوقاني والوسطاني والتحتاني ، وناحية الأردن وكسب . وهذه النواحي الست تتبع قضاء

أنطاكية ، وثمة ناحية دركوش تتبع جسر الشفر ، وفيها سلسلتان من الجبال ممتدتان من الشمال إلى الجنوب ، تتصل بها فروع وأعضاء كثيرة ، تجعل هذه الكورة ذات حزون ونجود متوجة ، يتراوح علوها من ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ متر في الأكثر ، وفيها نهران يصبان في العاصي ، الأول نهر الأبيض يخرج من هضاب الأردن مياهه عذبة ، والثاني نهر البواردة ، يخرج من قرب قلعة القصير ، ويصب في الشمال ، جنوبي جسر الحديد ، وهي في الغرب في جهات الأردن وكسب ، مزدانة بمختلف الحراج الجميلة ، أخص أشجارها الصنوبر الحلبي واللبننة والبلوط ، أما في الشرق فهي خالية من ذلك ، ولكن أوديتها ومنحدراتها ملائمة بالأنجم والأعشاب البرية الدائمة الاخضرار ، ومغروسة بمختلف الأشجار المثمرة ، لاسيما الزيتون يأتي بعده التوت واللوز ، والتين والمشمش ، وفي منخفضاتها الرطبة ، الحور والدلب والصفصاف والدفلي ، وهذه الكورة كثيرة الغلال وافرة الخيرات ، تتوالى على سكانها المواسم ، وأجل موسم فيها الزيتون ، ويصدر زيتة الجيد إلى أنطاكية لصنع الصابون ، ثم يأتي بعده الحرير والبطيخ ، والتين والعنب ، والجبن والسمن ، والحنطة القصيرية مشهورة في هذه الربوع ، ومفضلة على غيرها ، وطيور الصيد ودوابه كثيرة ، ويبلغ سكان هذه الكورة في النواحي التي عددناها زهاء ٤٥٠٠٠ ، معظمهم من التركمان السنيين ، ويأتي بعدهم العرب السنيون ، ثم النصيرية ، وثمة قرى للأرمن ، وأخرى للروم الأرثوذكس سيأتي ذكرها ، وواحدة للإسماعيلية تدعى جندالية . وتاريخ هذه الكورة مرتبط بتاريخ أنطاكية ، وقد كانت تمر منها الجيوش الزاحفة نحو هذه العاصمة ، من اللاذقية أو من جسر الشفر ، وفيها من الحصون المنيعة التي كانت تخفر أنطاكية من جنوبها ، القصير ودركوش والشفر وبكاس وكفردبين . وفيها الآن من أمهات القرى : قرية الشيخ ، وهو الشيخ إسماعيل القصيري الكردي الأصل ، كان معدوداً من الأولياء ، وضريحه لا يزال مقصوداً بالزيارة ، ولأحفاده في هذه الديار حرمة زائدة ، وقد اتخذت هذه القرية قاعدة لناحية قصير الفوقاني ، وفي غربيها نجود هي أعلى ما في هذا الجبل ، لها منظر جميل وهواء تقي ، تشرف على وادي العاصي والجبل الأحمر ، وسهل العمق والجبال المحيطة به ، وقرية باطرون قاعدة ناحية القصير الوسطاني ، وقارصو قاعدة ناحية القصير التحتاني ، وفي الغرب قرية الأردن وهي قصبة الناحية ، وأهلها تركمان ، ثم كسب وأهلها أرمن ، وفيها دير كبير للرهبان الفرنسيين ، ومنها يمكن الصعود إلى جبل الأقرع

الشامخ ، وقاربياز وأهلها تركان وعلوها ٨٠٠ متر ، وتمعد أكبر وأخفى قرى القصير اشتهرت بمنبها الفاخر ولوزها ، وجنيدو وأهلها روم أرثوذكس ، يقام فيها في فصل الصيف سوق عام كل يوم خميس ، اشتهرت بكثرة العاديات التي وجدت فيها ، ومنها جرة مملوءة نقوداً ذهبية بيزنطية ، وفي غربيها شعب يأخذ إلى قلعة القصير ، التي ذكرناها في بحث أنطاكية ، وصورية وهي كبيرة وأهلها روم ، وفيها مدرسة وكنيسة ، ومعاصر زيتون وكروم زيتون واسعة ، وفي قريها بني جسر حديث على طريق السيارات ، في جواره كهوف ومدافن أثرية ، والفاتكية وأهلها مسلمون ، اشتهرت بكثرة أشجارها وأثمارها .

وفي الشرق من الأمهات دركوش ناحية تابعة لقضاء جسر الشفر ، وعدد سكانها ٢٥٠٠ عرب مسلمون ، تعد من أجمل بلدان العاصي وأنزهها ، واقعة في واد يمر فيه العاصي ، شاهق العدوتين إلى علو ٣٠٠ - ٤٠٠ متر ، الشرقية من جبل الأعلى ، والغربية من جبل القصير ، ولحرها وسعة بساينها التي تروى بخمس نواعير ، كالتي في حماة وأنطاكية ، تنتج فواكه جيدة ، كالشمش المعروف بشكر بارة ، والتفاح والرمسان ، وأنواع البقول ، وجلها يرسل إلى إدلب وحلب ، ودورها كدور المدن حجرية بيضاء ، وفيها أسواق وأزقة مبلطة ، وحوانيت وجوامع وحمام ، وأسرات وجاهة ، ولكن حرها شديد ، لاختفائها في أضيق مكان من وادي العاصي ، بين تينك العدوتين الشاهقتين . ودركوش بلدة قديمة ، عدها شيخ الربوة من الثغور الساحلية الجبلية ، وقال عنها ياقوت : « دركوش حصن قرب أنطاكية من أعمال المواسم » ا هـ . وقال القلقشندي : « وأكثر زرع أرضها العنب ، أخبرني بعض أهل تلك البلاد أن حبة العنب فيها ربما بلغت في الوزن عشرة دراهم ، وبها قلعة عاصية ، استولى هولاء على قلاع الشام ماعداها فإنه لم يصلها » ا هـ . وقد زالت أثار هذا الحصن المنيع ، كما زال كثير من أطلال دركوش القديمة ، ولم أتمكن من معرفة سبب هذا الزوال ومسببه ، وزمن حدوثه ، إذ لم أجد في دركوش لما زرتها في ربيع سنة ١٣٥٢ هـ من يستطيع إجابتي عن ذلك ، ولم أر فيها سوى عتبة فوق باب حمامها ، زبر عليها أن مجدد الحمام (جان بولاد بك) (؟) سنة ٩٦٦ هـ ، وتحتها حجرة زبر في وسطها بالكوفية آية ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب .. ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، مما يدل على نقلها من محراب جامع خرب ، وذكر لي أن في الجبل الأعلى القريب من دركوش ، أماكن

ذات آثار قديمة كتورين وخراب سلطان والفساق ، وأن على مقربة من قرية الدويلي حصن خراب يعرف باسمها . ويذكر في قرب دركوش على العاصي قرية الزنبقية ، التي مر بها (أوليا جلي) ، وفيها أطلال خان خراب من العهد التي كانت تمر بها القوافل بين أنطاكية وجسر الشجر .

وثمة في مرتفعات جبل القصير القريبة من جسر الشجر ، قرية جميلة تدعى القنية ، هواؤها نقي ، ومناظرها المشرفة على سهل الغاب والجبل الوسطاني رائعة ، ودورها حجرية ولكن ماءها قليل ، وفي غربيها قرية أخرى أعلى منها تدعى اليعقوبية ، من غريب مشاهدته في هاتين القريتين أن أهلها كانوا في الأصل أرمن ، ثم بتوالي الأحقاب وتأثير البيئة العربية استعربوا تماماً ، ثم صاروا لاتين بتأثير الرهبان الفرنسيين الذين شادوا في القنية ديراً عظيماً سنة ١٢٩٠ هـ ، وفيه مدرسة للصبيان وأخرى للبنات ، ومتحف أثري صغير ، وهنا لا بد من السؤال ، هل يستعرب الأرمن الذين قدموا عقيب الاحتلال الإفرنسي من بلاد الترك إلى بلاد الشام ، كما جرى بأرمن القنية واليعقوبية ، وكما جرى بكثير من الشعوب الغربية المسلمة والنصرانية ، التي وفدت تباعاً في العصور الغابرة إلى الشام ، ولم تعدم أن ذابت في البيئة العربية ؟ ذلك ماسوف يظهره المستقبل . وفي شرقي القنية ضيعة مسلمة تدعى كفردين على رابية ، كان لها حصن ذكره ياقوت . وفي شرقي القنية أيضاً طريق لاحب طوله سبعة كيلومتر ، يهبط في آخره في شعب ذي منحرجات مخوفة إلى حمة الشيخ عيسى ، وهي في واد سحيق يمر به العاصي ، وهذه الحمة ذات مياه معدنية حديدية حارة درجتها ٣٥ ، تنفع للاستشفاء من داء المفاصل وغيره ، يقصدها الناس من كل الجهات ، ولو شيدت فيها أبنية للاستحمام والمبيت ، أحسن مما هو موجود ل زاد الإقبال عليها .

جسر الشجر : وجسر الشجر بليدة جميلة فيها من السكان أربعة آلاف ، عرب أكثرهم مسلمون ، وفيها دار للحكومة جديدة ومساجد ومدارس ودور للأهلين مبنية بالحجر الأبيض حسنة في الجملة ، ويمر من وسطها طريق السيارات الذاهبة من اللاذقية إلى حلب ، ولكن هواها رديء لقرب مستنقعات الروج والغاب منها .

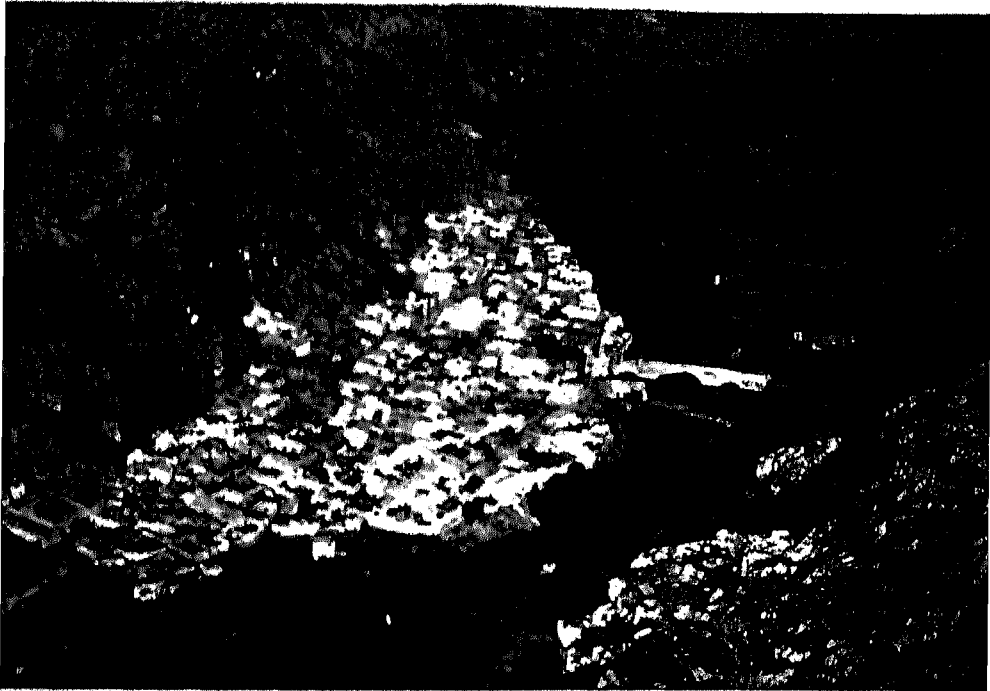
ومن الغريب أن جغرافي العرب لم يذكروا عن هذه البلدة شيئاً ، إذ لم تكن

موجودة في زمنهم ، وكان الاسم لقلعتي الشجر وبكاس اللتين في قريهما قرية ما برحت تدعى الشجر القديم ، بينما مؤرخو الإفرنج يزعمون أنه كان في مكان جسر الشجر بلدة اسمها Niaccuba أو Séleucie ad Bellum يظهر أنها دثرت قبل الفتح الإسلامي ، وقد اكتفى أبو الفداء بذكر السوق العام الذي كان يقام قرب جسرهما ودعاه جسر كشفهان ، ويظهر مما ذكره السائح (أوليا جلبي) (ص ١٩) أنه لم يكن قرب الجسر حين مروره في سنة ١٠٥٨ هـ بلدة معمورة ، بل خان صغير ، وقد تبنى الجلبي وقتئذ العمران والأمان لهذا المكان الموحش فاستجيبت منيته ، لأن (محمد باشا الكوبرلي) الشهير الذي كان باشا أيالة طرابلس الشام ، قبل أن يصبح صدر أعظم ، مر من هنا بعد بضع سنين من مرور الجلبي ، فرمم الجسر الكبير المعقود فوق العاصي ، وقيل إنه هو أيضاً بنى الجامع الكبير ، وخاناً وحماماً ، فعمرت بلدة الجسر على يد هذا الوزير الخطير . وجسر هذه البلدة مكانة عظمى من ناحيتي سوق الجيش والتجارة ، فقد كان يمر منه الرصيفان الرومانيان ، الأول الذهاب من اللاذقية إلى حلب ، والثاني الذهاب من أفامية إلى أنطاكية ، وسأقي على ذكره ، وليس هذا الجسر مستقيماً بل في وسطه كوع جعل لمقاومة دفع العاصي ، كما أن ظهره أفقي ليس فيه الاحديداب الذي يرى في معظم جسور البلاد الشامية ، وطول هذا الجسر أربع مئة متر ، معقود على أربع عشرة قنطرة ، تدل حجارته على أنه رمم مراراً ، وفي منتصفه وعلى أحد جانبيه حجرة زبرت عليها كتابة عربية فيها اسم جقمق ، ولعله الملك الظاهر جقمق الشركسي (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ) ، هذا وفي أواخر القرن الماضي ، جعلت بلدة جسر الشجر مركزاً لقضاء ، يشمل قسماً من سهل الغاب وجبال النصيرية ، ومعظم سكان هذا القضاء من العرب السنيين والنصيرية وقليل من التركان في مرتفعات جبل القصير ، والكرد المستعربين في حدود جبل الأكراد من أعمال حكومة اللاذقية ، ومن اللاتين في قريتي القنية واليعقوبية ، ومن الروم الأرثوذكس في قرية أنكزيك ، ومن الأعراب الفلاحين في قرى الروج والغاب . وتكثر أشجار الزيتون في بقعة التركان ، والأشجار المثمرة والكرمة في قرى بداما والجسر ودركوش والقنية ، وزراعة الأرز والقطن في سهول قسطنون وما جاورها ، وفيه من المحاصيل بزر الخردل ، وجذور الحمودة المعروفة في الطب باسم (سقمونيا) ، واشتهرت فيه قرية اشتبرق بمحداثها وينابيعها ومنتزهاتها ، وأنكزيك وأهلها روم أرثوذكس بجودة هوائها وصلاحها للاصطياف ، وزعينة بحراجها ومياها ومصائدتها ،

وقسطنون بنحصب تربتها ، وبلميس ومشمشان وكفردين بذكرياتها التاريخية . وكان لبلدة الجسر على بعد ساعة في شاليها ، قلعة حصينة مقابلها أخرى يقال لها بكاس على رأس جبلين بينها واد كالخندق ، كل واحدة تناوح الأخرى ، وفوق الوادي جسر كان يعبر من فوقه من إحدهما إلى الأخرى . مر ابن بطوطة في سنة ٧٢٥ هـ بحصن الشجر وبكاس وقال : « إنه منيع في رأس جبل شاهق ، وذكر اسم أميره وقاضيه ، ونوه بفضل الأول وأن الثاني من أصحاب ابن تيمية » . وقال أبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ : « الشجر وبكاس من جند قنسرين ، قلعتان حصينتان ، بينهما رمية سهم ، على جبل مستطيل ، وتحتها نهر يجري ، ولها بساتين وفواكه كثيرة ، ولها مسجد جامع ، ومنبر ورستاق ، وهما بين أنطاكية وأفامية على قريب منتصف الطريق بينهما ، وفي شرقيهما على شوط فرس جسر كشفهان ، وهو جسر على النهر ، وهو مشهور وله سوق يجتمع الناس فيه في كل أسبوع ، والشجر وبكاس في جهة الشرق والشمال عن صهيون ، وفي الجنوب عن أنطاكية وبينهما الجبال » ا هـ .

فيستدل من هذا الوصف ، أن كشفهان ربما كانت هي بلدة جسر الشجر الحالية ، وكانت الشجر وبكاس وما حولهما من المخافر ، في سهل الروج وجبل الزاوية ، من معاقل الصليبيين المخصصة لحراسة أنطاكية ، ومركز اتصال قواتهم ، بقوات قص طرابلس وملك القدس ، ومن هنا كانوا يغيرون على المسلمين في شيزر وحماة عن طريق أفامية ، وفي حلب عن طريق برج هاب وسرمين . وظل هذا الحال إلى أن شرع المسلمون يأمون شعثهم ، وبدؤوا يهاجمون معاقل أنطاكية وخطوطها الأمامية ، فكان أول ضربتهم لما انتصر (نجم الدين إيلغازي بن أرتق) صاحب ماردين ، ومتولي حلب في سنة ٥١٤ هـ على الإفرنج في ذات البقل (؟) من بلد سرمين (أبو الفداء ٢ / ٢٤٣) ، وثاني ضربة لما انتصر نور الدين محمود سنة ٥٤٤ هـ على (ريموند دوبواتيه) صاحب أنطاكية ، في قرية أنب في سهل الروج ، وعزز نصرته هذه في السنة التالية ، بالاستيلاء على أفامية ، والثالثة لما جاء السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ ، فافتتح طرطوس وجبله ، وصهيون والشجر ، وبكاس وسرمانية ، وبرزية ودربساك ، وبغراس ، فأصبحت أنطاكية بعد فقدان هذه المعاقل ، كما قال في الروضتين (معدومة الأطراف قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف) . ولم يبق الآن من آثار الشجر وبكاس إلا أسس الجدران وأحجارها المتهدمة ، وعلى بعضها

كتابات عربية ، وعلى مقربة من القلعتين قرية تدعى الشفر القديم ، تحيط بها المزارع
والحدائق ، وفيها مسجد يحوي بعض أحجار ذات كتابات كوفية .
وفي قضاء الجسر من أفاريق الأعراب ، المشتغلين بالفلاحة أو الرعي بضعة أفناد ،
تنسب لقبائل شتى : كأبي جرادة والهنادي ، ونعيم ومسدهيش ، وجيس ومجادمة ،
وقييعات وجلهم في أنحاء الغاب أو الروج .



نهر العاصي في دركوش

طريق جسر الشجر — حلب

(١١٢ كيلو متراً)

تبدأ هذه الطريق المعبدة المزفتة من اللاذقية وطولها ١٩٨ كيلو متراً ، وهي إذا خرجت من اللاذقية تجتاز سهلها الفسيح ، وتصادف في (الكيلومتر ٢٤) نهر الكبير الشمالي ، وعليه جسر عظيم حديث ، ثم تشرع بتسلق هضاب جبال النصيرية الغضراء ، فتارة تحاذي نهر الكبير المذكور ، أو غيره من الأنهر ، وتارة تدخل في ثنايا ، أو تعلو أكامات متسلسلة ، وكلها مزدان بحراج الصنوبر والسنديان والقطلب ، وغيرها من الأشجار والأنجم الخضراء ، التي تبتهج العين بمرآها ، مما قل نظيره في بقية طرق الشام ، إلى أن تصل في (الكيلومتر ٥٧) إلى مكان اسمه شق العجوز ، على يمينه خربة قلعة عيدو ، التي كان لها ذكر في تاريخ الصليبيين ، ذكرها ياقوت بإيجاز قال : « قلعة بنواحي حلب » اهـ . وفي (الكيلومتر ٦٣) التخم الفاصل بين حكومة اللاذقية ، وقضاء جسر الشجر من توابع حكومة الشام ، ثم تمر الطريق بأرضين قرى بداما وزعنية وأنكريك التي مر ذكرها ، وفي أنكريك أكمة عالية ذات منظر رائع ، يشرف على جبل النصيرية والجبل الأقرع وحق جبل اللكام ، ثم ينكشف للسائر فجأة جبل الزاوية ، والجبل الوسطاني ، ثم سهل الغاب ، ثم يهبط في منعطفات مخوفة إلى أن يصل إلى جسر الشجر في (الكيلومتر ٨٦) .

وبعد مغادرة جسر الشجر تصعد الطريق نحو تلعات الجبل الوسطاني ، فتسير في سفحه القبلي ، وتمر في (الكيلومتر ٩٢) من ضيعة فريكة ، بيوتها أخصاص من القصب ، تشرف على سهل الغاب ووادي العاصي ، وفيها مفرق للحب الذهاب جنوباً نحو قلعة المضيق ، ثم تمر في (الكيلومتر ٩٥) بضيعة سلي ، وإذا تسلق السائح تلعات الجبل الوسطاني ، التي في شمالي سلي ، يصادف بعد كيلومترين المكان الذي يظن أنه كان فيه الحصن المشهور في عهد الصليبيين ، باسم الحصن الأحمر ، أو حصن الروج Chastel rouge المكلف بحراسة طريق أنطاكية في سهل الروج ، ومثله في شماله حصن أرزكان ، ولم يبق

من هذين الحصنين وغيرهما أقل أثر ، بعد أن قضى عليهما نور الدين محمود ، وثمة بينهما ضيعة تدعى بشلمون ، ذكرت أيضاً في تاريخ الصليبيين . وبعد أن تنتهي الطريق من الجبل الوسطاني ، الحائل بين وادي العاصي وسهل الروج ، تدخل في سهل الروج المشتهر بخصبه ، وكثرة منافعه ، ورداءة هوائه .

سهل الروج : مساحة سهل الروج ٢٠٠٠٠ هكتار ، تؤلف بقعة مستطيلة ، تمتد من جنوبي الوادي الآتي من أرمناز إلى جنوبي قسطون ، وتنحصر بين الجبل الوسطاني في الغرب ، وأعضاء جبل الزاوية في الشرق . وفي هذا السهل ينابيع عديدة غزيرة المياه ، تنبجس من حضيض تلك الأعضاء ، أغزرها ينابيع عري الشمالية والجنوبية ، وتسيل نحو الجبل الوسطاني ، فتجتمع في بطائح تدعى البرك ، لها فوهات في حضيض الجبل المذكور تسمى بالوعات ، ثلاث منها كبيرة وواحدة صغيرة ، ثم تتسرب من نفق في جوف الجبل المذكور ، له نافذة في غريبه ، تتصل منها بمياه نهر العاصي في عين زعموا أنها عين البيضاء بين جسر الشغفر ودركوش . وقد كانت مياه عري في العصور الغابرة ، تروي سهل الروج الفسيح بمجداول منتظمة ، ما برحت آثارها ماثلة . وكانت البواليع والنفق إذ ذاك مفتوحة تغور المياه الزائدة فيها بسهولة ، ثم صارت تنسد على كر العصور ، والمياه تتجمع ويعلو مستواها ، حتى ألفت بحيرة ، أو أجمة عظيمة دعوها غاب عري . ثم ازداد الانسداد ، حتى صارت المياه في الشتاء ، تتعدى شواطئ الغاب ، وتغمر ضياع الروج المجاورة الواحدة تلو الأخرى ، وما لم تصل إلى مبانيها تغمر مزارعها ، ثم تنسحب رويداً رويداً في الربيع ، وتخف بعد أن تجعل تلك المزارع مرازغ تنبعث منها أسباب وخامة المرتع ووبالة الهواء . وقد بلغني أن فوهات البواليع بعد أن كانت ظاهرة للعيان ، انسدت منذ بضع سنوات انسداداً تاماً ، وعزوا ذلك إلى عطل خفي طرأ على النفق المذكور آنفاً ، وقد ارتفع من ذلك الحين القريب ، مستوى الماء في غاب عري من نصف متر إلى مترين في أيام الشح ، وإلى ثلاثة أمتار ونصف في أيام الفيض ، واتسعت مساحة المرازغ ، وازداد فساد الهواء ، وغرقت أرضون ست قرى من جديد . وقد اهتم بهذا الغاب بعض أولياء الأمور ؛ فارتأى من ينظر إلى الناحية الصحية ، وجوب تخفيفه بأن توسع الفوهات التي تغور فيها المياه ، ويعاد السيلان إلى سابق عهده ، وارتأى من ينظر إلى رقي الزراعة وجوب الاحتفاظ

بالمياه ، في خزانات تنشأ في الروج ، لرى الأرضين المجاورة للغاب ، وكلا الرأيين ما برحا قيد التصور ، ومثلها الرأي الذي أرادوه في جر ماء عين عري لشرب إدلب الظمآنة . وقد كان في سهل الروج في العصور المتوسطة ، أي قبل أن تغمره المياه ضياع كثيرة ، بعضها كان من الخافر المحصنة لحراسة طريق أنطاكية . قال ياقوت : « الروج كورة من كور حلب المشهورة في غربيها ، ولها ذكر في الأخبار » اهـ . ولم يبق في أطراف الروج من هذه الضياع ، سوى تل أعور وأنب ، وجدراية وشاغوريت ، وعين لاروز وحميات ، وموزرة ، والبقية هجرها أهلها لوخامة مرتعها ، ووبالة هوائها ، وقطنوا قرى جبل الزاوية كبسمة وعين شيب ، وبرج هاب وحيل ، وكفرميد والكنيسة ، وغيرها مما هو أعلى منها ، وتصل وبالة هواء الروج وأضرارها في الشمال ، إلى قرى كبتة وكوارو ، وملس وبيرة أرناز مما يتبع قضاء حارم . وتربة سهل الروج طينية دبالية ، سوداء خصبة ، وحره زائد عما يحاوره ، لذلك تجود فيه الزروع الشتوية والصيفية ، وأخصها القطن وتبسق في السنين المعتدلة الأمطار ، ويكثر فيه الكلاء في الربيع ، فتلجأ إليه الأعراب بأغنمها ، ويرتزق أهله مع الزراعة بصيد السلور والسمك ، والعلق والخنزير البري ، وكلب الماء والطيور المائية المختلفة . وفي غاب عري يكثر الأسل والحلفا ، والبردي والقصب ، وغيرها من النباتات المائية التي تضمنها الحكومة ، فيأخذها أهل إدلب ويصنعون منها الحصر والمكانس ، ويحشون برادع الحخير والبغال . وقد اشتهرت من ضياع الروج ، أنب بالنصرة العظيمة التي حازها نور الدين محمود على (ريموند دوباتية) برنس أنطاكية سنة ٥٤٤ هـ ، فهنا القيسراني الشاعر في قصيدة مطلعها :

هذي العزائم لاماتدعي القضب وذي المكارم لاماقالت الكتب
ومنها :

ياساهد الطرف والأجفان هاجمة وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ومنها :

قل للطغاة وإن صمت مسامعها قولاً لصم القنا في ذكره أرب
مايوم أنب والأيام دائلة من يوم يغرا بعيد لا ولا كشب



نهر العاصي في جسر الشغور

يشير إلى النصر العظيمة التي أحرزها الإفرنج على نور الدين في يغرا العمق في سنة ٥٤٢ هـ ، ثم ثأره منهم أولاً في يغرا نفسها ، وثانياً في أنب الروج . وقد أخطأ البستاني في دائرة المعارف ، في ظنه أن أنب هذه هي عناب الواقعة في الضفة الغربية من سيف الغاب ، إحدى ضياع ناحية عين الكروم ، حيث لا مجال لحدوث مثل هذه المعركة العظيمة ، على ما تحققته بنفسه في جولتي ، في تلك الأنحاء في ربيع سنة ١٣٥٣ هـ وذلك لاتصال مستنقعات الغاب بمضيض جبال النصيرية التي فيها عناب المذكورة . كما أن أنب هذه ليست أنب إحدى قرى قضاء أعزاز التي ذكر في خطط الشام للكرد علي (٢ / ٢٣) أن المعركة المذكورة حدثت فيها . وذكر أبو الفداء في تاريخه (٤ / ٤٣) علاروز ، وأنه جبل مطل على قسطون ، مرض فيه سنة ٦٩٨ هـ في صيد النسر الملك المظفر ،. التقوي الأيوبي ، صاحب حماة ، وحمل وتوفي بسبب ذلك .

وبعد مغادرة آخر ضيعة في الروج ، اسمها محبل في (الكيلو متر ١٠٥) تشرع الطريق بتسلق هضاب جبل الزاوية ، وتتغلغل في منعطفاته العديدة ، التي شقت لها منذ عهد قريب في صخوره الصماء ، ثم تعود للهبوط إلى أن تصل إلى واد فسيح في وسطه قرية أورم الجوز ، في (الكيلو متر ١١٤) ، وفي غربيها كهوف أثرية ومدافن ، وكانت عظام موتاهما لما شاهدتها بارزة مبعثرة .

وفي (الكيلو متر ١١٩) ريحا ، وهي بليدة جميلة نزهة في سفح جبل الأربعين ، تعلو عن البحر ٤٥٠ متراً ، عدد سكانها ٦٠٠٠ مسلمون ، وهي قاعدة ناحية تشمل كل جبل الزاوية وسهل الروج ، وفيها مساجد عديدة ، وسوق كبير وأزقة مبلطة ، وحوانيت ودور حجرية جميلة ، وشرب أهلها من صهاريج يحرز فيها ماء المطر ، وتنحدر إليها قناة صغيرة من جبل الأربعين . واسم هذا الجبل من مقام فيه يعرف بمقام الأربعين ، وهو صحيح الهواء طيب الماء ، ذو مناظر رائعة ، تشرف على سهول إدلب الشاسعة الحمراء ، المزدانة بغابات الزيتون الخضراء ، وينوفي هذا الجبل كثير من الأشجار المثمرة عذياً ، أخصها الكرز والويشنة ، والكثرى والتفاح ، والتين والعنب ، واللوز والجوز ، وهو من أحسن أماكن الاصطياف في ديار حلب ، لو بنيت فيه دور وفنادق صالحة لذلك . قال ياقوت : « ريحا بدون ألف هي بليدة من نواحي حلب أنزه بلاد الله وأطيبها (!) ، ذات

بساتين وأشجار وأنهار ، وليس في نواحي حلب أنزه منها ، وربما فرق بين أريحا القدس وهذه ، وهذه بدون ألف التي في أول الأولى » اهـ .

جبل الزاوية : وجبل الزاوية يتبع ناحية ريحا ، وهو جبل مستطيل الشكل ، طوله من ريحا إلى قلعة المضيق نحو خمسين كيلومتراً ، وعرضه من سهل الروج إلى طريق حلب - حماة نحو ثلاثين كيلومتراً ، ويسمى طرفه الشمالي جبل الأربعين ، وطرفه الجنوبي شحشو ، ويتبع قممه الشمالي قضاء إدلب وقسمه الجنوبي قضاء المعرة ، وكان يعرف قديماً بجبل (بني علم) نسبة لقبيلة بهذا الاسم كانت فيه على ما يظهر ، ثم اشتهر منذ القرن السابع بجبل الزاوية بعد انقراض بني علم . زعموا أن سبب هذه الشهرة ، وجود زاوية في قرية منه تدعى (مرعيان) أنشأها فيما قيل أحد أولاد السيد عبد القادر الكيلاني . وليس في هذا الجبل أسناد شاهقة ، أو وهاد حسيقة ، أو أنهار جارية ، أو حراج غيباء كما في غيره ، فهو أجرد إلا من أشجار الزيتون والتين والعنب في بعض أماكنه ، وواطئ لا تعلو قمة النبي أيوب فيه عن ٩٠٠ - ١٠٠٠ متر ، وينابيعه قليلة ، وسطحه منبسط في الجملة ، على أنه تكثر فيه التلعات الصخرية الكلسية ، الرمادية اللون ، ذات الصدوع الواخزة ، تتخللها بقاع تصغر تارة وتكبر أخرى ، تربتها حمراء خصبة إذا جادها الغيث ، وهذه التلعات والصدوع ، جعلت أكثر قراه كمعاقل حربية لا ترام ، ودعت أهلها أن يكونوا أجلاذاً برزا ببسالتهم في المعارك التي جرت في سني ١٣٣٩ و ١٣٤٠ هـ في أعمال حلب الغربية ، بين عصابات الأهلين والجند الإفرتسي . ولا تزال قرى هذا الجبل بدون طرق لاجبة ، توصل السيارات إليها ، وبدون مدارس توصل الثقافة إلى أهلها .

وأشهر هذه القرى وأكبرها البارة ، ويظهر أنها كانت فيما مضى قصبة هذا الجبل ، قال عنها ياقوت : « البارة بليدة وكورة من نواحي حلب ، وفيها حصن ، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة (كذا) » اهـ ، ولعل اسم جبل الزاوية اشتهر من عهد ياقوت في القرن السابع . وعدد سكان البارة (١٠٠٠) ، ويليها في هذا الجبل في العدد والكبر ، كل من أورم الجوز ، ومرعيان واحسم ، وكنصفرة وكفرلاشا (٨٠٠ نفس) ، ثم الرامة وبساموس ، ونحلة ومنطف ، ومعترم (٦٠٠) ، تم بليون وبلشون ، وجوزيف

وموزرة ، وكفر شلايا وسرجة (٤٠٠) ، ثم المغارة وأبلين (٣٠٠) ، وما بقي فضياع صغيرة ، لا يزيد سكانها عن (٥٠ - ٢٠٠) ، وقرى هذا الجبل الشمالية أغزر ماء وأذكى تربة من الجنوبية ، لذلك يعتمد سكان الشمالية ، كأهل كفر لاثا خاصة على زراعة البقول والأشجار ، لاسيما الزيتون ، أما الجنوبية فعلى أراضيهم القليلة المساحة المبعثرة بين الصخور ، وأهل القرى الغربية تعتمد على مالها من الأراضي في سهل الروج ، ويغلب على أهل هذا الجبل ، طول القامة وعرض الهامة ، واستمرار الوجه واستدارته ، مع بروز الوجنتين ، وهي أوصاف رأيتها في الأكثر في أهل البارة .

وهذا الجبل المنيع غني بخرائب وآثار ، من عهد النصرانية الأول ، جديدة بالزيارة والاعتبار ، ليس بينها مصانع عامة كالأديرة ودور الضيفان ، ما خلا بعض البيع . أما الدور والقصور الخاصة والحمامات فكثيرة ، وكلها قوراء ، وذات غرف وأبهاء عديدة ، ومبنية بأحجار ضخمة ومنحوتة ومزخرفة ، مما يدل على رفاه أهلها وغناهم ، لا ينقصها لتسكن إلا وضع الأبواب والنوافذ الخشبية ، وجميعها يعود إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين .

صور خلت من ساكنيها فما بها	سوى الأدم تمشي حول واقفة الدُمي
تجيب بها هام الصدى ولطالما	أجاب القيان الطائر المترغما
كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى	بها الوفد جميعاً والخيس عرمرما

وقد استغربت هنا ، كما استغربت في جبلي باريشا والأعلى ، سلامة هذه المصانع والقصور من عوادي الزمان وعبث السكان ، أهل العصور المتوسطة ، وكيف أن أهل العصر الحاضر ، ومنهم أهل قرية البارة الحاضرين ، يكسرون ويعبثون بهذه الأطلال الثينة ، ويخربونها ليعمروا بها بيوتهم ، وتذكرت أنشد قول القاضي أبو يعلى المعري ، لما اجتاز فيما قيل ببلدة شياث ظاهر معرة النعمان - ولعل شياث كانت في جبل الزاوية - والناس ينقضون بنيانها ، ليعمروا به موضعاً آخر ، فقال :

مررت برسم في شياث فراغني	به زجبل الأحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما	رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أبتلفها شلت عيّنك خلها	لمعتبر أو زائر أو مسائيل

منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم أر أحلى من حديث المنازل
وتساءلت ، هل كان الأولون يحملون قدر هذه الآثار ، ويعرفون التذكارات المطبوعة
بطابع الأسلاف والأجيال ، المشبعة بدلائل نبوغهم وفيض قرائحهم ، أكثر من الحاضرين ؟
وقد تعذر علي حل هذه الأسئلة وما برح متعذراً .

وصلت في خريف سنة ١٣٤٩ هـ إلى البارة ، عن طريق إدلب وريحا وأورم الجوز ،
وفي قرب أورم الجوز التي تقدم وصفها ، سلكت السيارة لخباً جبلياً بين كروم الزيتون إلى
مكان عجزت فيه عن التقدم ، في أسفل قرية مرعيان ، وهناك تركتها ، وتسلفت عقبات
هذه القرية المحصنة مشياً ، ومنها امتطيت راحلة ، فررت بقريتي الرامة واحسم ، كنت
أرى فيها كثيراً من النواويس والقبور والأعمدة والأحجار المنحوتة المبعثرة ، وبعد ساعتين
وثلت وصلت إلى خربة البارة ، وعلى بعد بضع مئات من الأمتار ، قرية البارة الكبيرة
الآهلة بنحو ألف من السكان الجبلي الطباع والأجسام .

تحيط بخرائب البارة وتتخللها كروم وأشجار وزروع أهل البارة الحاضرين ،
والتطواف بها غير يسير ، لوفرة أطلالها المتهدمة ، وأحجارها المركومة التي نشبت فيها
الأنجم والأعشاب الشائكة ، بيد أن البارة في جملتها ، لاتزال على جدتها وروعة هندستها ،
تشبه مدينة (يومبي) الإيطالية فيما قيل ، وبلاط أزقتها وجدران وسقوف أكثر مبانيها
لاتزال محفوظة ، وهي تمتد في ساحة واسعة ، وسط واد مستطيل ، لاتقل دورتها عن
أربعة كيلومتر . وكانت هذه المدينة الجميلة مقسومة إلى حين ، أحدها في الغرب ، والثاني
في الجنوب ، وفي الأول أطلال كنيستين ، إحداها كبيرة والثانية صغيرة ، وفي كل منها
مدرسة وصومعة رهبان وما إلى ذلك ، وبين الحين وعلى نشز من الأرض ، قصر ذو
طابقين ، مازالا محفوظين يسمى دير سوباط ، وصحيحه أن يقال قصر سوباط ، فيه
معمل للخمر لاتزال دنانه الحجرية في أمكنتها ، وفي حديقة القصر مدفن يشبه الهيكل ،
محمول على عدة أعمدة وفيه نواويس . وبين هذا القصر وقرية البارة ، باحة كبيرة محاطة
بصفوف من الأعمدة ، لعلها كانت حديقة عامة مسورة ، وفي الحي الغربي أيضاً كنيسة ،
يشرف على الأولى منها حصن عربي ذكره ياقوت في معجمه وقيل أن اسمه حصن أبي
سفيان ، فيه برج كبير ، حوله أبراج صغيرة ، مربعة بارزة من سور الحصن ، مما يدل على
جولة أثرية (٩)

أن العرب قطنوا البارة ، وحصنوها وحفظوا آثارها ، وفي جنوبي هذا الحي مقبرة ، وفيها قبور عجيبة الشكل عليها كتابات يونانية و صلبان ، وثمة ثلاثة مبانٍ مربعة الشكل ، يعلو كل منها هرم حجارته مصفوفة كالقرميد ، وفي داخلها نواويس ، وأكبر هذه المباني الثلاثة مزين في واجهته بعضائد بعضها فوق بعض ، وفوق كل منها تيجان ومداميك ، ومثلها عتبة الدار مزخرفة ومحفورة على شكل أوراق الأشجار ، وثمة مدافن منقورة في الصخر ذات حجر وقبور ، وأجل ما يستدعي العجب في خرائب البارة الرائعة ، دورها الخاصة القوراء التي لاتزال على روائها ، وبعضها لا يزال محتفظاً بسقوفه وغرفه ، ونوافذه وحدائقه ، وبقية منافعها ، وكلها من الحجر الصلد الضخم المنحوت ، يكفي أن يوضع الخشب في الأبواب والنوافذ لتسكن ، ويغلب أن يكون لهذه الدور دهليز خارجي فيه مقاعد ، ومنه يدخل إلى باحة الدار ، والباب الأصلي مستطيل الشكل في الغالب ، محاط بأعمدة مزخرفة ، وفوقه عتبة منقوشة نقشاً جميلاً . قرأ الأثري (دي فوكي) على إحدى هذه العتبات جملة (ليحرس المولى مدخلك ومخرجك الآن وفي العصور المقبلة) ، وثمة بهو واسع ، يسمونه الدار الكبيرة طوله نحو ٢٥ متراً ٧ × ٧ متر ، كله منحوت في صخرة واسعة ، له سقف محمول على عوارض بارزة من الحجر ، وقد طلي بدهان لطيف لم تغير السنون لونه ، ونقش في بعض جدرانها صليب . وفي جدار دار أظنهم ذكروا أن اسمها المزوقة ، عثرت على كتابة عربية قديمة ، ذات خط سقيم فيها بعد البسملة ، الملك لله وحده ، كتبه سلطان بن معد رجب من سنة سبعون وسبعمئة ، ولم أجد غيرها رغم بحثي الكثير . هذا ولا يعلم شيء عن تاريخ البارة ، وكيفية عمرانها الغابر ، وأسماؤها بناتها وسكانها الأولين ، وسبب هجرها ، وإشادة قرية البارة الحاضرة على مقربة منها ، لاسيما ولم يذكرها جغرافيو العرب ومؤرخوهم إلا قليلاً ، على أنه يظهر من كلام ياقوت الذي نقلناه ، أنها كانت في عهده ، وقبله أهلة جعلت قصبة الكورة في هذا الجبل ، وبنى العرب فيها الحصن الذي ذكرناه ، ومؤرخو الإفرنج لا يذكرون عنها سوى أن الصليبيين استولوا عليها في سنة ١٠٩٨ م ، واتخذوها مركزاً أسقفية ، وفي سنتي ١١٠٤ و ١١٢٣ م هاجمها المسلمون ونهبوها (كذا) .

وفي جنوبي البارة ، وعلى بعد ساعة عنها قرية الحاس ، من أعمال قضاء المعرة ، وافيتها في سنة ١٢٥٠ هـ من جهة المعرة ، مشياً من قرية كفر روما ، وهي في جنوبها ،

وفي الحاس مبانٍ قديمة ، كثيرة جميلة ، منها عدة قصور ، ما برحت سالمة ، وثمة برج وكان مرقباً ، وكنيستان خربتان . ومقابر الحاس غريبة الشكل ، نزلت إلى إحداها في درج عريض ، وكان للبواب مصراعان حجريان منقوشان ، وفي الداخل كهف منقور في الصخر الصلد ، تجمعت فيه مياه المطر وكانت صافية عذبة ، رويت ظمئي منها وقتئذ . وثمة مدفن ذو بناء جميل فوق الأرض ، ذو مصراعين من الحجر الحرّي الأسود المنقوش ، يشبه أبواب مصانع حوران ، وفيه رمز المسيح ، وعتبة الباب مزخرفة على شكل أوراق الخرشوف . وفي الشمال الغربي من البارة خربة سرجيلة ، فيها حمامات لاتزال سالمة فيها البهو الخارجي والمتوسط والداخلي ، وحول هذا خلوات الاستحمام ، والأقيم المعقود ، وحتى المسرح المخصص لجلوس الموسيقيين محمول على أعمدة ، وأقنية الماء البارد والبخار الساخن . وفي هذه القرية أيضاً كنائس ودور محفوظة كما كانت ، قيل إن في حدود سنة ١٣٢٥ هـ حضر إلى هنا جماعة من الألمان وحفروا موضعاً فيها ، فانفرج لهم عن رقعة كبيرة من الفسيفساء غاية في الروعة وحسن الصنعة ، فاقتلعوا منها قسماً كبيراً ، وحاولوا أخذه ، لكن الأهليين أو موظفي الحكومة الذين كانوا يراقبونهم ، عارضوهم بل قيل كسروا مأخذوه وصرفوهم .

وفي الشمال الغربي من سرجيلة دير سنبل ، فيه مبان خربة ومدافن سالمة ، فيها آثار من النقوش والرسوم الملونة ، وتواريخ ترجع فيما قيل لسني ٣٩٩ و ٤٠٨ و ٥٢٠ م ، ومثلها في قرية رويحة ، وثمة خربة تدعى دللوزة فيها قبور ، وقصر لا يزال سالماً وآخر أقل سلامة . وفي قرية مجدليا دور كثيرة أنيقة لها مطابخ تحت الأرض واصطبلات وأدراج من حجر ، وفيها ناووس كبير عليه كتابة يونانية ، وقبور منقورة في الصخر . في مدخل القرية بهو كبير منقور في الجبل ، وأطلال بيعة ذات أضلاع كثيرة .

وفي قرية المغارة مغاور قديمة ، كانت تتخذ مساكن ، متصل بعضها ببعض ، بسراديب منفرجة تضل الغريب . وفوق المغاور قبور منقورة في الصخر ، وفي غربي المعرة على بعد ساعة قرية دانا - وهي غير دانا جبل سمعان - وفيها أطلال كنيسة وقبور غريبة ، لأحدها هرم وباب كبير ، وفي شمالي المعرة أيضاً خرائب جرادة ورويحة ، وفي رويحة أطلال أبنية ضخمة ، من جملتها كنيسة عظيمة مبنية وسط سور ، لها أربعة أقواس

عالية ، وثمة قبور غربية لها قبب . وفي جبل الزاوية في طرفه الشمالي الشرقي كفر لاثا ، قرية جميلة نزهة ، فيها بساتين وعيون جارية ، تعلو عن البحر ٧٥٠ متراً ، ولها منظر جميل ، يشرف على سهول حلب الغربية الممتدة في الأفق البعيد ، يصلها الطريق اللاحب المفتوح حديثاً من ربحا ، وهي تعد من أماكن الاصطياف ، وفيها مبان ومدافن أثرية ، ومعاصر زيت كثيرة . هذا ماتسنى لي رؤيته وتدوينه عن هذا الجبل المنيع ، وخرائبه الأثرية البديعة . ولم يتح لي زيارة قسمه الجنوبي المسمى بشحشو ، ولعل هناك آثاراً ومشاهد تستحق الزيارة والكتابة .

عود إلى طريق حلب : وبعد ربحا ، تنفرج الطريق نحو الشمال ، وتجتاز منخفضات وتلعات متوجة ، تكثر فيها كروم الزيتون ، فتر في (الكيلومتر ١٢٧) بقرية المسطومة ، بيوتها قبب مخروطية ، ثم تصل في (الكيلومتر ١٣٤) إلى إدلب .

إدلب : وإدلب بلدة حسنة ، تعلو عن البحر ١٩٠ متراً ، عدد سكانها ١٥٠٠٠ ، معظمهم من المسلمين وقليلهم من النصارى ، وهي قاعدة قضاء كبير ، يشمل نواحي ربحا ومعرة مصرين وسراقب . وقد اشتهرت هذه النواحي بما فيها من القرى الجسية ، وباتساع سهولها الأعناء ، ذات التربة الحمراء المغللة ، وبانتشار ورقي زراعة القطن المعروف بالبلدي ، ناهيك عن بقية الزروع المنتجة ، ورقي زراعة شجر الزيتون ، وحسن تربيته وتعهده ، وكثرة معاصره وجودة زيت ، وفي نفس إدلب محكمة بداية ، ودار حكومة كبيرة حديثة ، بنيت سنة ١٣٤٩ هـ ، وثكنة عسكرية ، ومدرستان للذكور والإناث ، وجوامع ومساجد عديدة ، وكنيسة وأسواق ، وحوانيت كثيرة ، ومصاين ومعاصر زيت ، ومطاحن ومحاليج قطن نارية ، ومقاهي وحمامات ، وهي من أجمل مراكز أفضية حلب ، لولا قلة مائها ، وهو ماء المطر المخزون في الصهاريج ، وقد أدت قلته لانتشار القرع والرمد في أهلها . رغم استجلاب ماء عين مارتين إليها لأنه غير كاف . ولم يكن لإدلب شأن في العصور القديمة والمتوسطة إذ كانت قرية صغيرة ، والشأن والعمران كانا لجارتها سمرين ، قاعدة هذه الكورة فيما مضى ، وظلت إدلب كذلك ، إلى أن اشتراها (محمد باشا الكويرلي) في القرن الحادي عشر من الدولة ، وجعلها وقفاً على الحرمين ، وبنى فيها مبان باقية حتى الآن ، كما عمل في جسر الشفر ، ومن ذلك الحين بدأت إدلب تعظم وتتسع ، ويغرس في

برها الزيتون والكرم والتين ، وانتقل إليها عدد كبير من قطان سرمين ، وصارت مركز مديرية تابعة قضاء ريجا ، ثم صارت مركز قضاء ، وجعلت ريجا مركز مديرية تابعة لها .

وفي شمالها على بعد عشرة كيلومتر معرة مصرين ، قرية كبيرة قديمة ، ذكرت كثيراً في التاريخ ، لاسيما في عهد الحروب الصليبية ، اشتهرت بزراعة القطن والزيتون أيضاً ، وشرب أهلها كما في إدلب من الصهاريج ، وكان لها سور قديم دثر ، وفيها خمسة مساجد ، ودار لمديرية الناحية وجنود الدرك ، عدد أهلها ٣٠٠٠ مسلمون بعضهم شيعة ، قال ابن حوقل في القرن الرابع : « معرة نسرین مدينة متوسطة ، وما حولها من القرى أعداء ، ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين ، وكذلك أكثر ما بجميع جند قنسرین أعداء ، ومياهم من السماء » اهـ .

وفي هذه الناحية قرية كبيرة تدعى الفوعة ، صارت بعد زوال التشيع عقيب انقراض دولة بني حمدان ، وما برحت موطن الشيعة في شمالي الشام ، ومبعث دعائه ، وفي قضاء أعزاز من قرى الشيعة أيضاً النغالة ونبل . وبعض جبل باريشا الذي تقدم ذكره ، تابع هذه الناحية ، فيه قرى يقطنها الدروز ، أخصها معرة الأخوان .

ومن الأماكن القديمة ، التي لها ذكر في التاريخ ، في قضاء إدلب سرمين ، وهي قرية كبيرة ، عدد سكانها ٢٥٠٠ ، قال أبو الفداء : « سرمين من أعمال حلب ، بلدة ذات أشجار كثيرة ، زيتون وغيره ، وليس لها ماء ، إلا ما يجتمع من الأمطار في الصهاريج ، ولها ولاية وعمل متسع ، وهي ذات خصب ، وأسواق ومسجد جامع ، وليس لها سور ، وهي على منتصف الطريق بين حلب والمعة » اهـ . وذكر ابن بطوطة في رحلته : « أن في سرمين يصنع الصابون الآجري ؟ ويجلب إلى مصر ودمشق ، ويصنع الصابون المطيب ، وينسج بها ثياب قطن حسان ، وأهلها سبابون يبغيضون العشرة ، ولا يذكرون كلمة العشرة ، ومسجدها تسع قباب ، ولم يجعلوها عشرة قياماً بمذهبهم » . وقال ابن الشحنة : « إنه كان لسرمين سور دثر ، ومساجد كثيرة معمورة بالحجر النحيت ، دثرت ولم يبق سوى المسجد الجامع ، وأكثر أهلها إسماعيلية ، ولهم بها دار دعوة ، ولم يزالوا حتى أزال يدهم الملك الظاهر سنة ٧٦٥ هـ . » قلت : سرمين من البلاد التي أخفى عليها الدهر ، فحرمها عزها الغابر ، فهي بعد أن كانت قصبة الكورة نازعتها إدلب بذلك ، وبعد أن رضيت

ببقائها قصبة ناحية ، وممر قوافل الحجاج والتجار بين حلب وحماة ، نازعتها سراقب بذلك أيضاً ، لما ظهرت المركبات قبلاً والسيارات أخيراً ، وأبعدت الطريق المعبدة إلى الشرق . وليس الآن في سرمين سوى ٢٥٠٠ من السكان كلهم سني لا أثر لغير نخلة فيها . وفي ضاحيتها كثير من الصهاريج والكهوف ، تقرت في الصخور ، أكبرها مقسم إلى أهباء عديدة ، فيها أعمدة منقوشة ، وعدد مساجدها ستة ، ماعدا أربعة خراب ، وفيها حمامان عامران ، لكل منها بئر عميقة تصل إحداها إلى ١٠٥ أمتار ، والثانية إلى أقل ، وفيها سبع خانات مهجورة ، وجامعها ذو تسع قباب كما قال ابن بطوطة ، وهي على صفين ، والمأذنة مربعة الشكل ، مبنية منذ قرن ونصف ، لأن المأذنة القديمة خربت ، ولا يزال حجران أو ثلاثة منها ، فيها كتابات ومراسم تظهر على جدارها الغربي . ويكثر في سرمين الزيتون ، ثم التين ثم العنب ، وتجود في أرضها الحبوب ، ولا سيما القطن والسمن ، والبطيخ وغيرها .

وبعد مغادرة إدلب ، تستأنف طريق حلب السير نحو الشمال الشرقي في سهل إدلب الحمراء الشاسعة ، فتجتاز في (الكيلومتر ١٤٣) قرية بنش ، وهي كبيرة عدد سكانها ٢٥٠٠ ، وفيها جامع وعدة مساجد ، وحمام وحوانيت ، وفي جنوبها وعلى بعد ستة كيلومتر منها قرية سرمين ، وقد تقدم ذكرها ، وفي (الكيلومتر ١٤٧) طعوم ، وفي (الكيلومتر ١٥١) تفتناز ، وهنا مفرق الطريق الذاهب نحو سراقب والمعرة وحماة ، وفي (الكيلومتر ١٧١) أورم الصغرى ، حيث ملتقى الطريق الآتية من الأسكندرونة ، وقد تقدم وصفها وذكر تتمتها حتى حلب (في الصفحة ٧٦) ، ومن أورم الصغرى إلى حلب ٢٧ كيلومتراً .

طريق جسر الشغفر - قلعة المضيق

(٤٥ كيلو متراً)

هذه طريق لاجبة صالحة لسير السيارات في الصيف فقط . يسير الخارج من جسر الشغفر في طريق اللاذقية - حلب المعبدة ، وبعد خمسة كيلو متر عند ضيعة فريكة التي تقدم ذكرها ، يتلى بمشاهدة سهل الغاب العظيم الذي ينساب العاصي في وسطه ، ويلج في الغرب في الجبل المقابل قرية إشتبرق المار وصفها ، وغاني والشيخ سنديان ، وهذه على حدود حكومة اللاذقية ، وثمة في وسط الغاب على العاصي قرى الكفير وقرقور والزياره . وقرقور هي Quarquaron التي ذكرت في تواريخ الآشوريين بمحدث معركتين فيها ؛ الأولى سنة ٨٥٤ ق . م في عهد سلمنازار الثاني ؛ والثانية سنة ٨٢٠ ق . م في عهد سرجون الثاني ، انتصرت فيها الجيوش الآشورية على جيوش ملوك الشام المتحالفين .

وبعد فريكة يودع السائر طريق حلب المعبدة عند مفرق بينها وبين ضيعة تدعى سلمي ، وينحرف إلى الجنوب فيدخل سهل الروج من غريبه ، ويمر بأرض قرية الزبادية ، ثم بأرض قرية قسطون في (الكيلو متر ١٦) ، وهذه تعد من أخصب قرى الروج وأكثرها غللاً ، وكان فيها حصن قال عنه ياقوت « قسطون حصن كان بالروج من أعمال حلب ، نزل فيه أبو علي الحسن العقيلي في سنة ٤٤٨ هـ ، فاستولى عليه وخربه » ا هـ . قلت : ثم رمه الصليبيون واتخذوه من حصونهم الأمامية ، إلى أن استولى عليه نجم الدين إيلغازي ودكه .

وبعد قسطون ينتهي سهل الروج ، ويدخل السائح سهل الغاب ، متتبعا الرصيف اليوناني الروماني القديم ، وهو صنع الذين بنوا مدينة أفامية ، ومدوه منها إلى أنطاكية فاستأنبول ، ولا تزال أحجار هذا الرصيف وأمياله ماثلة للعيان ، في مواضع كثيرة من سهل الغاب ، تغيب تارة وتظهر أخرى ، فتسير في أعضاد جبل الزاوية ولا تفارقه ، وترى عليه كثيراً من جلاميد الصخور المتدرجة بفعل العوامل الطبيعية على كر

الدهور . وأعضاء جبل الزاوية وفرعه الجنوبي المسمى شحشبو^(١) واقفة كالجدار شرقي سهل الغاب ، كما أن جبال النصيرية التي كان يدعوها الرومانيون برجيليوس ، ودعاها أبو الفداء جبل الخيط واقفة في غريبه .

سهل الغاب : أما المستنقعات والآجام التي أشار إليها (أوليا جلي) (ص ١٩) ، فهي بطائح سهل غاب أفامية وأدغاله ، وهذه تنقلب في فصل الشتاء إلى بحيرة عظيمة ، كانت تدعى بحيرة أفاميا ، تحصل من نهر العاصي الذي لا يجد متسعاً عند قرية قرقور وما بعدها ليجري براحة في زمن طغيانه ، ثم من الأنهر والينابيع الكثيرة التي تنبجس من سفوح الجبال المحيطة بذلك السهل من الشرق والغرب . وبحيرة أفاميا ما برحت كما وصفها أبو الفداء « يحيط بها القصب والصفصاف من كل جانب ، وفي وسطها غابة من القصب والبردي ، وبها من أنواع الطيور مثل الثايت « مثلثة الشاء » والغريرات ، والبجع والأصواغ ، والأوز والطيور آكلة الأسماك ، أمثال البخلط والأبيضانيات ، وغير ذلك من طيور الماء . وفي الربيع ينبت فيها النيلوفر الأصفر حتى يغطي مجموعها » اهـ . وقال القلقشندي في صبح الأعشى (٤ / ٨٤) : « بحيرة أفامية ، وهي عدة بطائح في الغرب بميلة إلى الشمال عن أفامية ، بين غابات من القصب ، يصب فيها النهر العاصي من جهة الجنوب ، وبها بحيرتان جنوبية وشمالية يصاد فيها السمك ، فالجنوبية منها بحيرة أفامية المذكورة ، وسعتها بالتقريب نحو نصف فرسخ ، وقعرها قريب قامة ، وأرضها موحلة لا يقدر الإنسان على الوقوف فيها ، وبوسطها جم قصب وبردي ، وحولها القصب والصفصاف ، وبها من أنواع الطير ما لا يحصى كثرة ، وينبت فيها في زمن الربيع اللينوفر الأصفر ، حتى يستر الماء عن آخره بورقه وزهره . والبحيرة الشمالية من عمل حصن برزوية بقدر بحيرة أفامية بأربع مرات ، ووسطها مكشوف وينبت اللينوفر بجانبها الجنوبي والشامي ، وبينها وبين بحيرة أفامية المذكورة زقاق ، تسير فيه المراكب من إحداها إلى الأخرى » . قال في (تقويم البلدان) : ويعتبر طول هذه البطائح وعرضها بأفامية » ، وقال شيخ الرتبة : « بحيرة أفامية بحيرة كبيرة يدخلها العاصي ويخرج منها ، ولها سكر

(١) نسبة لقرية ذكر ياقوت في معجمه أنها من قرى أفامية ، وليس لها الآن أثر ، بل هناك قرية اسمها بعربو ، أما اسم شحشبو فلا يزال يطلق على الجبل .

يصاد فيه نوع من السمك شبيه بالحيات يسمى إنكليس ، لحمه شبيه بالإلية المشوية ، وللناصرى (لعله يعني الملك الناصر محمد بن قلاوون) فيه زغبة عظيمة ، يحمل في المراكب إليهم (كذا) داخل البحر ، ضمانه في السنة نحو ثلاثين ألف درهم » . وقال في موضع آخر : « بحيرة أفامية يشقها العاصي ، ولا يلتقي أحدهما بالآخر ، وفيها من السمك الإنكليس والسلور ما لا يوجد بغيرها » اهـ .

ومن الغريب أن جغرافي العرب ، كياقوت وشيخ الربوة وأبي الفداء والقلقشندي اكتفوا بوصف بحيرة أفامية ، ولم يذكروا اسم سهل الغاب ولا وصفوه ، حتى أنه لم يرد في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ إلا مرة ، (طبع جامعة برنستون صفحة ٢١٨) في حكاية (انهم فيها السبع إلى الغاب) ولم أفهم أي غاب كان يعني ، لأنه ذكر هذا السهل في موضع آخر (ص ٥٨) باسم مرج أفامية ، وأنه استاق منه غنية كبيرة من الجواميس والبقر والغنم . أما كتبة الفرنج فقد قالوا : إن سهل الغاب كان في زمن السلوقيين محففاً ، يزرع ويستثمر ، وأن (استرابون) أطنب بخصبه ووفرة غلاله ، وبما كان يربى فيه من قطعان الجواميس والخيل ، وأن القدماء أقاموا فيه سدوداً وحفروا خنادق ، لمنع طغيان العاصي . ذكر السائح الإفرنسي (كيليوم راي) أنه شاهد منها في سنة ١٨٦٠ م سداً له فتحات . وفي جنوبي الغاب ووسط مياهه ضيعة تدعى الخندق ، في جوارها خندق قديم كان خاصاً بتصريف المياه نحو العاصي ، وكانت برزية تفرق عن أفامية ببخيرة تحصل من سد ، على النحو الذي ذكره أبو الفداء ، فيما ننقله عنه في وصف برزية .

هذا وقد درس مهندسو الإفرنج في زمننا مشروع تخفيف الغاب ، وتنظيم طرائق ريه ، وإعداده للحرث والزرع ، ولا يعلم متى يمكن البدء بالعمل . قال أحدهم في سنة ١٣٤٤ هـ ما خلاصته : « بعد أن يجتاز نهر العاصي حاة ، يجري في وادٍ يختلف سعة وضيقاً بين مكان وآخر ، ثم يسيل في مضيق عميق الغور ينفرج فجأة في بدء سهل متسع يبدأ من قلعة شيزر ، وعلى بعد عشرة كيلو متر من هذه القلعة ، يصبح السهل مستنقعاً ويدعى (الغاب) ، وهو يبدأ من قرية تل سلحج ، وينتهي قرب قرية قرقور ، وطوله ستون كيلو متراً وعرضه عشرة كيلو متر ، ومساحته ٦٠٠٠ هكتار ، وأرضه تتألف من تربة عميقة ، ينساب العاصي فوقها ، محاطاً بالمستنقعات الكثيرة ، وهي في الضفة اليسرى أكثر

منها في البنى . لكن هذه التربة تصبح بعد قرية قرقور ، مؤلفة من صخور البازلت (الحرة) ، فيعود العاصي للجري في واد ضيق تحيط به الجلاميد العظيمة العالية . يبقى العاصي هادئاً ، سالكاً مجراه خلال أشهر الصيف ، فإذا جاء الشتاء يرتفع مستواه ، فيطفو على الأرضين المحيطة به ، وهي مساوية له في الارتفاع ، فيغمرها إلى مسافات بعيدة . ناهيك بالأمطار التي تهطل هنا أي تهطل ، والسيول التي تتساقط من الجبال المجاورة ، والينابيع التي تنبجس من سفوحها .

وتجفيف سهل الغاب واستثماره حسب الأساليب الزراعية الحديثة مشروع عظيم ، ينفع بلاد الشام ويدر عليها أرباحاً جزية ، لأن أرضه مؤلفة من طمي البازلت المعروف بخصبه ووفرة مواده الغذائية . ولأجل ذلك ينبغي منع فيضان العاصي عليه ، ثم تجفيفه بإقامة مجار كثيرة للصرف ، ثم ريه خلال أشهر الصيف بشبكة من القنوات . ففيضان العاصي يمنع بتعميق مجراه ، وإقامة جدرانته ، وتخفيض السد الموجود أمام قرية قرقور ، ولا صعوبة في هذا العمل ، لولا أنه كثير النفقات ، ويقام سدان عظيمان من التراب على ضفتي العاصي ، يبعد الواحد عن الآخر ٤٠٠ - ٥٠٠ متر ، حتى إذا ما طغى العاصي كان للماء من سعة الأرض بين السدين ، ما يحول دون انهدامها ، ويحفر في جانبيها الأسر ، وفي قاعدتيها خنادق ، أو مصارف للمياه المنصبة من السهل ، فتوصلها إلى العاصي في نقاط مناسبة منه . وقد حسبوا كمية مياه العاصي في أوائل الخريف بالأمطار المكعبة وفي الثانية ، فبلغت عند خروجه من شيزر ١٨ وفي مصبه عند قرقور ٢٧ ، وتغذي هذه الزيادة الينابيع الكثيرة التي تنبجس من سفوح الجبال ، وتنبع في جوانب السهل ، وأهمها نبع (باب الطاقة) في الضفة اليمنى ، فإن قوة مائه لا تقل عن المترين المكعبين في الثانية ، هذا وليست الأراضي القابلة للري منحصرة في سهل الغاب ، بل هناك سهول واسعة تمتد من قلعة شيزر على ضفتي نهر العاصي ، يسهل ريها ، فيقام لهذه الأراضي في زور (التريسة) سد قليل العلو ، يسقي قناتين ، الواحدة لري أرض الضفة اليمنى ، والثانية لري الضفة اليسرى ، وطول كل منها ٧٥ كيلومتراً ، ثم يبنى في تقاطع مختلفة ، وعلى طول هاتين القناتين مأخذ يجري الماء منها إلى قنوات ثانوية ، ومن هذه إلى قنوات التوزيع على الحقول ، فيصبح الغاب مخترقاً بشبكة من القني ، تسوق الماء إلى مختلف مواقعه وأراضيه ، وما فاض منها يصب في العاصي أمام قرقور . والمساحة الممكن ريها بعد إتمام هذا المشروع

الكبير ، تقرب من تسعين ألف هكتار ، وهي تنتج أحسن الغلال من القطن وغيره لزكاء التربة كما أسلفنا ، وغزارة مياه الري ، وجودة الإقليم ، إذ السهل لا يعلو عن سطح البحر أكثر من ٢٠٠ متر ، وجبال النصيرية تدرأ عنه الرياح الغربية « ١ هـ .

صيد السلور : أما صيد السلور فقد ذكره من مؤرخي العرب ابن الشحنة وابن العديم ، في تاريخيهما الباحثين عن حلب ، وشيخ الربوة والقلقشندي فيما نقلناه عنهما ، وذكره من مؤرخي الإفرنج (كودفروا دويومين) في كتابه (الشام في عهد المماليك) وكلهم متفق على مكانة صيد السلور . ويظهر مما ذكره أبو الفداء ، أن ضمان هذا الصيد عمل قديم ، فقد قال (٣ / ١٩٦) « إنه في سنة ٦٥١ هـ سمح الملك الظاهر يوسف الأيوبي صاحب دمشق لأحد أبناء أعمامه ، الملك الناصر داود صاحب الكرك - وكان ناقماً عليه ومضطهده ومعتقله في قلعة حمص - بريع بحيرة أفامية وغيرها ، مقدراً ذلك بمئة ألف درهم ، فلم يحصل للناصر داود من ذلك إلا دون ثلاثين ألف درهم » ١ هـ . قلت : وصيد السلور مورد عيش لأهل الغاب ، يرتزق به عدد وفير منهم ، وهو أيضاً ريع للحكومة لا يستهان به ، ناهيك عن أن السلور غذاء نافع ولذيذ .

وهذا السلور لا يوجد في مجاري العاصي في حمص أو حماة ، بل هو خاص ببحيرات الغاب والروج والعمق وينايعهما . وفي الغاب عدة أماكن ذات مياه دافئة ، يلجأ إليها السلور حينما يقرس الشتاء وتبرد مياه العاصي فيصا ، وكلما قرس البرد جاد الصيد ، والعكس بالعكس . وأجل أماكن الصيد في الغاب هي بحيرتا الشريعة والتويني ، اللتان تحدثان من فيضان العاصي ، ونبع باب الطاقة الذي ينفجر من حضيض جبل شحشبو ، يليه عين حواش في الضفة الشرقية ، التي تنفجر أيضاً من حضيض جبل شحشبو ، ونبع الجراص وناعور شطحة اللذان ينفجران في الضفة الغربية ، من حضيض جبال النصيرية .

وطريقة استثمار السلور في عهدنا ، تكون بأن يضمنه ضامن من الحكومة ، لمدة ثلاث سنوات بالمرزاد العلني . ومدة الصيد أربعة أشهر ونصف ، تبدأ في تشرين الثاني وتنتهي في منتصف آذار . ولا يصاد السلور بعد ذلك لأنه يبدأ بالاستفراخ ، وطرائق الصيد تختلف حسبها تكون في البحيرات العميقة الدائمة ، أو البحيرات الموقفة أو في الينايع . ففي الأولى يؤق بنوتين من جزيرة أرواد ، لفقدان أهل هذه الحرفة في الغاب ، يركبون زورقين

كبيرين ، للضامن في كل منها تسعة نوتية ، يدون شبكة كبيرة طولها مئة متر تدعى جارووف ، وفي الثانية يستعملون زهاء مئتي زورق صغير ، طول الواحد ثلاثة أمتار في عرض متر ، وقعره مستو يدعى الجرف ، يسرون به دفعاً بعضاً طويلة ، يركب في كل منه صيادان من أهل الغاب ، يلتقط أحدهما السلور شكاً بحربة قصيرة ، ويدفع الثاني الجرف ، ثم يتبادلان العمل ، والصيد يجري في الفجر أو بعد الغروب بقليل ، لأن قطعان الجواميس التي ترعى في مياه الغاب ، تخيف أسماكها وتضطرها للاختفاء . وفي الثالثة وهي أبسطها تجري في الينابيع المتفجرة من أسفل الصخور كما في باب الطاقة ، يقف الصياد على بعد بضعة أمتار من الشاطئ ، حاملاً بيده نصاب من القصب ، طويل في رأسه مذراة ، ذات ثلاثة أسنان مستقيمة أو منحرفة ويصطاد بها ، يساعده على ذلك صفاء الماء وكثافة جموع السلور . وإذا اصطيد السلور بإحدى الطرائق المذكورة ، يقطع رأسه فوراً لأنه مستكره ، ويحمل ويسلم إلى الضامن . وهذا الصيد يشغل نحو سبعمئة عامل في موسمه ، وقد يصطاد أحدهم في المواسم الباردة ٢٠ - ٣٠ رطلاً في النهار ، ويختلف سعر السلور حسب سعر اللحم ، وهو يباع في أول الموسم الرطل بأحد عشر قرشاً ذهبياً ، ثم يهبط إلى ثمانية ، ثم إلى ستة وأقل . وتختلف المدن الشامية بكمية ماتستهلكه منه ، قيل إن حمص تستهلك في المئة ٤٥ ، وحماة ١٠ وحلب ٣٠ ودمشق ١٠ وزحلة ٣ وبيروت ٢ ، ويحمل السلور في الغالب إلى حماة ، ومنها يرسل إلى البلاد ، ضمن أخراج كبيرة معمولة من الأسل . وقد خسر الضامن الذي كان في سنة ١٩٢٦ م = ١٣٤٤ هـ بسبب الثورة الشامية (٤٥٠٠) ليرة ذهبية ، وربح سنة ١٣٤٥ هـ (٦٠٠٠) ليرة ذهبية ، وفي سنة ١٣٤٦ هـ (١٠٠٠) ليرة ذهبية ، فتنوسط أرباح السنين الثلاث كانت ٢٥٠٠ ليرة ، وتتابع الخسائر بعد ذلك ، بسبب الأزمات المالية العامة وشح الأمطار . ومن الغريب أن النصيرية والإسماعيلية لا يأكلون السلور قط .

جبال النصيرية المشرفة على الغاب : وجبال النصيرية المشرفة على سهل الغاب من علو ١٦٥٠ متراً فما دون ، تنحدر نحوه بميل سريع ، فتؤلف بقاعاً جبلية ، تسمى بأسماء مختلفة ، نسبة لسكانها كجبل الأكراد (غربي جسر الشغفر) ، وجبل دريوس وجبل العمامرة ، وجبل النواصرة وجبل بودي ، وجبل القراحلة وجبل القدموس ، وجبل الكلبيّة وغيرها . وتؤلف هذه الجبال في ذرواتها العليا بقعة وعرة يدعونها الشعرة ، فيها وهاد

سحيفة وعقبات كأداء ، تزينها غابات غير كثيفة من مختلف الأشجار والأشجار ، وتسرح فيها النمر والدب ، والذئب وبنات آوى وقطعان الخنازير البرية يقصدها غواة الصيد منذ القديم . وفي حضيض هذه الجبال على سيف الغاب ، مما يتبع قضاء صهيون من أعمال حكومة اللاذقية ضياع صغيرة كالسنديانة وسرمانيا ، وقلعة برزية وعين الحمام ، وفريكة ونبول ، وشحطة وأستري .

وصف أبو الفداء برزية وقلعتها فقال : « حصن برزية من جند قنشرين ، قلعة صغيرة في ذيل الجبل المعروف بالخيطة من شرقيه ، مطلة على بحيرات فاميا ، ويتصل بها مياه البحيرات والأقصاب إلى تحت برزية ، وليس بها كائن ساكن ، إلا المرتبون لحفظ القلعة ، ويعتصم بها أهل البلاد في أيام الجفل ، وهي عن فامية في جهة الشمال والغرب على نحو مرحلة في الماء ، فإن بحيرات فامية واقعة بينها ، وبرزية في جهة الجنوب عن الشجر ، وبكاس على مرحلة قوية » اهـ . قلت : هذه القلعة قديمة ، تعاورتها أيدي السلوقيين والرومانيين ، والمحمدانيين من المسلمين ، ثم الصليبيين إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ واستخلصها ، هي وسرمانية من أيدي الصليبيين ، ولا تزال أكثر أبراجها ذات الشكل المربع سالمة ، وكذا أسوارها وشرفاتها وعقودها . وكذلك في حضيض هذه الجبال على سيف الغاب مما يتبع قضاء مصياف ، ضياع مرداش وعين الكروم ، وعناب وبلونة ، والجورة وقلع الشيخ ملوخ ، وفقرو ورشة ، وكل سكان هذه الضياع نصيرية ، تحيط بهم الحراج الغبية ، وتتدفق من سفوح جبالهم ينابيع عذبة باردة ، أخصها في الشمال عين الحمام وعين جورين وعين سلمو ، وفي الجنوب مما رأيته وشربت من بعضه في صفر سنة ١٢٥٣ هـ ، نبع الطيب ونبع السوس ، والفوار وعين الجراص ، وثمة نهير يدعى البارد عند قرية رشة ، وآخر يدعى تل سلحب عند قرية تل سلحب ، يصب في العاصي ، وقلع الشيخ ملوخ المذكورة ، واقعة قرب عين الجراص ، وقد لاح لي أنها مكان حصن الجراص ، الذي استخلصه أبو الحسن علي بن منقذ من الروم ، قبل أن يستلم منهم شيزر في سنة ٤٧٤ هـ . هذا وفي الطرف الغربي المطل على البحر من هذه الجبال ، قلاع تاريخية ذكرت في وقائع الصليبيين ، منها عيذو وقد تقدم ذكرها ، وصهيون والمهيلة (بلاطنس) ، وهذه ذكرها ياقوت هكذا : أفلاطنس وقال : « إنها حصن عال منيع في جبل وهرا غربي حلب » ، وذكر عيذو فقال : « قلعة بنواحي حلب » . قلت : وبعد أن

بقيت جبال النصيرية هذه في السنين الخالية في منعزل ، لاتنالها أيدي الجيوش إلا بالعناء ، لوعورة مسالكها وجلفة أهلها ، ذللت في العهد الأخير صعايبها ، ومهدت بعض شعابها ، وجعل في بعض قراها المرتفعة الجيدة الهواء والماء والمنظر كصلنفة ، أماكن للاصطياف والقصف على الطراز الحديث .

والنصيرية عرفوا بهذا الاسم منذ القرن السادس والسابع ، وهم ذوو عقائد وعوائد خاصة ، يضيق نطاق بحثنا عن الخوض بها ، لم تحسن سياستهم في القرون الغابرة ، ولم تستعمل الحكمة والموعظة الحسنة في إرشادهم ، حتى ظلوا في ناحية من الحظيرة القومية ، وهم يقطنون في أنحاء كيليكية والأسكندرونة وأنطاكية ، كما قدمناه في أبحاثنا ، وفي جبال اللاذقية وطرابلس ، وأوعار حماة وحمص وسهولها الشرقية ، لاسيما في القرى الخاصة بدولة الشام (قرى أملاك الدولة) شرقي سلمية وحمص ، ومنهم فئة قليلة في صالحيه دمشق وجنوبي قضاء دوما ، وفي قرى : عين فيت وزعورة وغجر في غربي قضاء القنيطرة . وقد عطف عليهم الدولة المنتدبة بعد دخولها ، وأسمتهم (العلويين) وجعلت لبعض نبهائهم مناصب ووظائف ، وجندت كثيراً من شبانهم في جيشها المربط في بلاد الشام ، لكن ما برح سوادهم الأعظم في غاية من الجهل والبؤس ، والانقياد الأعمى لكبرائهم ذوي الزعامة الزمنية ، ومشايخهم ذوي الزعامة الروحية ، وهؤلاء يستثمرون فطرة أتباعهم ، فيرهقونهم بمختلف الخدمات والآثاوات . ومعظم النصيرية مزارعون لدى كبار أو صغار الملاكين من السنينين أو النصاري ، في ألوية اللاذقية وحماة ، وحمص وطرابلس ، وهم ينقسمون إلى قبائل شتى ، النسبة في أسائها إما إلى أشخاص منهم معروفين عندهم ، أو إلى قرى وأماكن معروفة في أرضهم ، وهذه القبائل ترجع إلى أربعة أصول كبيرة ، وما عداها فروع منها ، وهي الخياطون والحدادون ، والكلبية والمتاورة ، فالخياطون يقطنون في الغالب في قضائي صافيتا وبانياس ، والحدادون في قضائي جبلة وطرشوس ، والمتاورة في قضائي صافيتا ومصيف ، وأجل الفروع شأناً : بنو علي والقراحلة ، والنواصرة والرشاونة ، والرسالنة والعمامرة ، والمهالبة والدراوسة ، والمحارزة إلخ .. ، ومهما يكن ، ما برح الأمل عظيماً في رجوع هذه الطائفة الباسلة إلى الحظيرة القومية ، كلما زاد عدد متعلميها ومثقفيها ، كما هو الحال في بقية الفرق الإسلامية .

ضياح الغاب : في سفح جبل الزاوية على سيف الغاب الشرقي ووسطه ، ضياح عديدة يراها السائح عن كثب ، وهو سائر فوق الرصيف اليوناني الروماني ، الممتد من أنطاكية إلى أفامية ، أو يمر بطرفها . وهي بعد قسطنطين (٢٤ كيلومتر) ، والعنقاوي (٢٦ كيلومتر) ، والعمقية (٢٨ كيلومتر) ، وحواش (٢٩ كيلومتر) ، ثم الحويجة والحويز . وأهل هذه الضياح أعراب يقيمون في أخصاص من القصب ، يزعمون أن جدودهم جاؤوا إلى هنا من بطائح الفرات في العراق . وفي شرقي هذه الضياح في ذرى جبل الزاوية ومرتفعاته ، ضياح منها : قوقفين وسفوهن ، وفيلفل وجب سليمان ، والقدادين وكوكبة ، وشبللين وغيرها . ثم يمر السائح في الغاب بضياح سكانها من أولئك الأعراب أيضاً ، منها العريى (٣٨ كيلومتر) ، والجماسية والشرية (٤١ كيلومتر) ، والتويني (٤٣ كيلومتر) ، والأخيرتان من أجل مراكز صيد السلور كما قدمنا . ثم يصل في (٤٥ كيلومتر) إلى قلعة المضيق أو حصن أفامية . وفي غربي الحويز ، في وسط بحيرات الغاب ضياح أخرى ، لا يراها السائح لبعدها ، تكون في أيام الفيضان كالجزائر ، لا يوصل إليها إلا بالجروف المستعملة لصيد السلور ، منها الجيد والرصيف ، والقرم والخندق والشجر ، وسكان هذه الضياح نصيرية . وإن أنسى لأنسى سفرقي إلى الجيد والرصيف ، مع بعض موظفي قضاء المعرة في ربيع سنة ١٣٥٠ هـ ، وركوبنا عدداً من الجروف ، كانت تمخر بنا تلك البحيرات الشاسعة ، في أزقة مشقوقة وسط أدغال من القصب والأسل ، المرتفعين كأشجار الحراج ، والنيلوفر الممتد كالسباط ، بورقه الضخم المدور وزهره الجرسى الأصفر ، وكنا لاندري ، لتعرج تلك الأزقة وضيقها ، ووحشة منظرها كيف يسار بنا ، وهل يتاح لنا سلامة الرجوع إلى اليابسة ، وكنا نصادف أحياناً قطعان الجواميس السوداء السابحة ، يقودها راع راكب جرواً ، أو معتلي ظهر جاموسة ، وهيئة وجهه المكتئب وشعره المسترسل ، أوحش من هيئة رعيته ، وأحياناً نصادف أسراباً وأفراداً من طيور الماء ، التي ذكرها القلقشندي ، وكل منها في طول وشكل ولون مختلف ، وقد حسبت نفسي إذ ذاك ، كرواد ينابيع النيل ، أو ماخري بحيرات خط الاستواء في أواسط أفريقية ، وكان أهل الضيعة أو الجزيرتين المذكورتين المنقطعين أشهراً عديدة في السنة عن العمران وأهله ، ينظرون إلينا لما أقبلنا عليهم في دهشة واستغراب ، كما نظر سكان جزائر أميركا المتوسطة ، إلى كريستوف كولومب وجماعته .

وكل ضياع الغاب الواقعة في طرفه أو وسطه ، بيوتها أخصاص حقيرة ، تحيط بها الأدغال والمياه ، وأهلها صفر الوجوه سقام الأجسام من وبال المرتع ، يتنقلون كسكان أواسط أفريقية في الجروف التي ذكرناها ، يرتزقون من تربية الجاموس وصيد السلور وغيره من السمك ، وصيد الطيور المائية التي ينتفون ريشها ويلتقطون بيوضها ، ومن زرع الحبوب الشتوية في الأرض الشرقية المرتفعة عن مستوى الماء ، والذرة البيضاء في الأرض التي تنحسر عنها المياه في الصيف .

تاريخ أفامية : أفامية مدينة قديمة عظيمة ، كان يدعوها مؤرخو العرب تارة باسم فامية وتارة أفامية ، وقد ذكرت في شعر أبي العلاء بالألف ، حيث قال : ولولاك لم تسلم أفامية الردى . قال عنها ياقوت في المشترك : « أفامية مدينة عظيمة قديمة ، على نشز من الأرض ، لها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب » . وقال في معجم البلدان : « أفامية مدينة من سواحل الشام ، وكورة من كور حمص » اهـ . كان اسم هذه المدينة قديماً (فارناك) ، ثم دعاها الإسكندر المكدوني (بللا) باسم البلدة التي كانت عاصمة أبيه فيليب ، وولد هو فيها ، وبعد موته دخلت في حوزة (سلوقس نيكاتور) مؤسس الدولة السلوقية ، فزاد في عمرانها وتحسينها ، ودعاها باسم امرأته الأميرة الفارسية أباميا ، وجعلها موقعاً عسكرياً مجهزاً بجميع العُدَد والعُدَد ، والمصانع والاصطبلات ، وشاد فيها مدرسة حربية للفرسان ، ولخصب سهل الغاب القريب منها ، ووفرة مراعيه ، ذخر فيها مئات من الفيلة المجلوبة من الهند ، وعشرات الألوف من الجياد والجواميس . وظلت أفامية في عهد السلوقيين زاهية ، بعظمتها وجمالها ، ووفرة سكانها ورفههم ، تحسب الأولى بين مدن الشام الشمالية ، بعد العاصمة أنطاكية ، وفي عهد الرومانيين كانت أفامية قاعدة ولاية سورية الطيبة Salutaris Syria ، أو سورية الثانية ، كما كانت أنطاكية قاعدة سورية الأولى ، ومنبج قاعدة سورية الثالثة ، أو سورية الفراتية . وكانت حدود سورية الثانية تنحدر إلى جوار حمص ، فيلحق بها آراتوسة (الرستن) ، ومريمين ورفانية ، واييفانيا (حماة) . وظلت أفامية في سعداء الزاهر ، إلى أن جاءها (كيخسرو الثاني) ملك الفرس في سنة ٥٧٣ ميلادية ، فنهبها وأحرقها وسبى أهلها ، وجاءت الزلازل فقصت على ما بقي منها قائماً ، ولم يرتفع لها شأن بعد ذلك ، ولم يبق الدهر من تلك المدينة الجميلة سوى حصنها ، الذي كان مبنياً فوق تل قريب في غربيها ، دعي بعد حين باسم قلعة المضيق .

ولما فتح المسلمون هذه الديار ، شاهدوا أفامية خراباً ، كما هي الآن ، فاكتفوا بحصنها ولم يعمروها قط ، وهم إذا ذكروها عنوا حصنها ، والقرية المبنية داخله . قال البلاذري : « سار أبو عبيدة في سنة ١٧ هـ بعد افتتاح شيزر إلى أفامية ، فتلقيها أهلها بالصلح ، فصالحهم على الجزية والخراج » ١ هـ . وسكنها بعد من المسلمين قوم من عذراء ومهراء ، على ما في كتاب البلدان لليعقوبي . وذكر ياقوت حادثة جرت في أيام العباسيين للمتولي عليها ، وكان رجلاً كردياً ، أغرى القرامطة في سنة ٢٩٠ هـ بأهل المعرة ، فقتلوهم قتلاً ذريعاً ، فلما انقلبت الآية وقتل رئيس القرامطة ، عوقب الكردي فهرب ، وألقى بنفسه في بحيرة أفامية ، فقال فيه أحد شعراء المعرة :

توهم الحرب شطرنجاً يقلبها للقمر ينقل منه الرخ والشاهها
جازت هزيمته أنهار فامية إلى البحيرة حتى غط في ماها

وفي العهد العباسي ظلت تتعاور قلعة أفامية أيدي العباسيين ، ثم ثبتت مدة بيد الفاطميين . وفي عهدهم جرت فيها من الكوائن التي ذكرتها التواريخ ، المعركة التي حدثت في سنة ٢٨٢ هـ بين جيش الفاطميين الذي كان يقوده (منجوتكين) ، وبين جيش الحمدانيين الذي أرسله (سعد الدولة بن سيف الدولة) ، وكانت الدائرة على الحمدانيين . وفي سنة ٣٨٧ هـ وقعت النار فيها ، واحترق ما كان فيها من القوت ، فسار أبو الفضائل ابن سعد الدولة الحمداني صاحب حلب وقاتلها مدة ، ثم رجع عنها لما سار إليها دوقس أنطاكية (داميانوس دالاسانوس) وحاصرها أشد حصار ، فاستنجد الملايطي المقيم بأفامية ، بوالي دمشق (جيش بن الصمصامة) فجاء ومعه ألف فارس من بني كلاب ، ونزل بإزاء عسكر الروم ، وبينه وبينهم نهر العاصي ، ثم التقى الفريقان فانكسر المسلمون بادئ بدء ، وثبت البعض واستولى الروم على كراعهم ، وعطفت بنو كلاب على أكثر ذلك فنهبوه^(١) ، ورأى من في حصن أفامية ما أصاب إخوانهم فأيسوا ، قالوا : وكان (الدوقس)

(١) بنو كلاب قبيلة من الأعراب ، جاءت من نجد إلى ديار حلب في سنة ٢٥٢ هـ ، وقطنت فيها واستقرت نحو أربع قرون . رددت التواريخ أحداثها ، ووثباتها العديدة ، واستباحتها حتى المعمور ، واشراكها بكل انتفاض ، ونواهلها من الغريب والقريب على السواء . إلى آخر ما هو معروف من طبائع أهل السادة في كل زمان ومكان ، ورددت ماجرى بينها وبين سيف الدولة بن حمدان . وأبنائه ملوك حلب ، نبغ منها صالح بن مرداس ، وأسس في حلب وشمال الشام دولة بني مرداس . التي دامت من سنة ٤٠٦ هـ إلى سنة ٤٧٢ هـ . نقل =

بعد أن تراجع المسلمون ، وعلى رأسه راية ، وبين يديه ولده وبعض مرافقيه ، فقصدته أحمد الضحاك الكردي ، على فرس جواد ، فظنه الدوقس مستأناً ، فلما قاربته طعنه الكردي فقتله ، فانهزمت الروم وتراجع المسلمون ، فركبوا أقفيتهم قتلاً وأسرًا ، وألجؤوهم إلى مضيق في الجبل ، (لعله يعني : المضيق الذي في شمالي القلعة) وأسروا ولد الدوقس . وفي سنة ٤٢٢ هـ أقبل الروم ، ومعهم الأمير البدوي حسان بن مفرج الطائي وهو مسلم ، وكان قد هرب إليهم ، حين انهزم على الأردن ، من عسكر الخليفة الفاطمي الظاهر ، فسار مع الروم إلى الشام ، وعلى رأسه علم فيه صليب ، ووصلوا إلى أفاعية وكبسوها ، وغنوا ما فيها وملكوا قلعتها ، وأسروا وسبوا ، وفي سنة ٤٧٥ هـ دخلت أفاعية في حوزة السلطان ملكشاه بن آلب أرسلان السلجوقي ، بعد أن استولى على حلب ، واستلم اللاذقية وكفر طاب ، وشيزر وأفاعية ، من الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر . وذكروا في أحداث سنة ٤٧٩ هـ ، أن متولي أفاعية من جهة رضوان بن تتش السلجوقي ، كان يميل إلى مذهب خلفاء مصر ، فكاتبهم في الباطن في أن يرسلوا من يسلم إليهم فامية وقلعتها ، فطلب الأمير البدوي خلف بن ملاعب الكلبي ، الذي كان طرده تتش السلجوقي من إمارة حمص ، لسوء سيرته ، والتجأ إلى الفاطميين في مصر ، أن يكون هو الذي يرسلونه ليستلم فامية ، فأرسلوه في سنة ٤٨٢ هـ ، وتسلم فامية وقلعتها ، وبعد أن استقر خلع طاعة الفاطميين ولم يرع حقهم ، وأقام بفامية يقطع الطرق ويخيف السبل ، كما كان يعمل في حمص ، فاتفق قاضي فامية وجماعة من أهلها ، وكاتبوا الملك رضوان السلجوقي صاحب حلب ، في أن يرسل إليهم جماعة ، ليكبسوا فامية بالليل ، وأنهم يسلمونها إليهم ، فأرسل رضوان جماعة فأصعدهم القاضي والمتفقون معه بالحبال إلى القلعة ، فقتلوا ابن ملاعب وبعض أولاده ، وهرب البعض واستولوا على قلعة فامية ، ثم سار الفرنج بقيادة (تنكرد)

= القلقشندي عن مسالك الأبصار (٢٣١/٤) وصف هذه القبيلة ، فقال : وهم عرب أطراف حلب والروم ، ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لاتعد ، ولا تزال تباع بنات الروم وأبنائهم من سباياهم ، ويتكلمون بالتركية ويركبون الأكاديش (!) وهم من أشد العرب بأساً وأكثرهم ناساً . قال : ولإفراط نكايتهم في الروم ، صنفت السيرة المعروفة (بدلمة والبطال) ، منسوبة إليهم بما فيها من ملح الحديث ولح الأباطيل إلخ .. ، قلت : دام ذكر هذه القبيلة إلى أواخر القرن الثامن ، ثم انقطع ، مما يدل على تشتت شملهم ، وانطفاء خبرهم ، واندماج فلولهم في بقية القبائل ، شأن أعراب البادية التي تتغير أسماؤها ، في كل قرنين أو ثلاثة .

برنس أنطاكية إلى فامية ، وحاصروها وملكوا البلد والقلعة ، وقتلوا القاضي المتغلب عليها
(أبو الفداء ٢ / ٢٣١) .

وظلت فامية في يد صليبي أنطاكية ، وجعلوها من جملة معاقل عاصمتهم هذه ، على
ماقدمنا مدة ، يناوشون منها مسامي شيزر وحماة ، ويناوشهم هؤلاء . وقد ذكر أسامة بن
منقذ في كتابه (الاعتبار) ، عدة كوائن جرت له ولأهله حول فامية تثير العجب . ومن
أحداث سنة ٥١٧ هـ أن الأمير محمود بن قراجا صاحب حماة ، سار إلى فامية وهاجم
ربضها ، فأصابه سهم من القلعة في يده ، فعاد إلى حماة وعملت عليه يده فمات . ودام
الحال على هذا المنوال مدة نصف قرن ، إلى أن جاء نور الدين محمود زنكي ، في سنة
٥٠٤ هـ واستخلصها من الصليبيين . قال ابن الأثير في حوادث هذه السنة : « وفيها سار
نور الدين محمود زنكي إلى حصن أفامية ، وهو للفرننج أيضاً ، بينه وبين حماة وشيزر
مرحلة ، وهو حصن منيع ، على تل مرتفع عال ، من أحسن القلاع وأمنعها ، وكان من به
من الفرننج يغيرون على أعمال حماة وشيزر وينهبونها ، فسار نور الدين إليه ، وحصره
وملكه ، وحصنه بالرجال والذخائر ، وكان قد اجتمع الفرنج وساروا ليرحلوه عنه ، فلكه
قبل وصولهم ، فلما بلغهم فتحه تفرقوا » ا هـ . وفي الزلزلة الهائلة التي حدثت في سنة
٥٥٢ هـ ، خربت قلعة أفامية ، فيما خرب من بقية الحصون والمدن في شمالي الشام ، فرمها
نور الدين ، وإليه ينسب معظم مبانيها . وبعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي في
سنة ٥٨٩ هـ ، استقرت هذه القلعة ومثلها منبج ، وقلعة النجم وبرزية ، وكفر طاب
وبعيرين ، بيد الأمير عز الدين إبراهيم بن المقدم ، ولما توفي هذا في سنة ٥٩٧ هـ ، استقرت
في يد أخيه شمس الدين عبد الملك ، لكن لم يكد يستقر عبد الملك بمنبج ، حتى سار إليه
الملك الظاهر غازي ، صاحب حلب في سنة ٥٩٧ هـ ، فاستخلص منه منبج وقلعة نجم
قسراً ، واعتقله بعد أن استأمن ، ثم سار إلى كفر طاب فأخذها ، وحاصر أفامية وكان فيها
قراقوش نائب عبد الملك ، فامتنع قراقوش ، فأمر الملك الظاهر بضرب عبد الملك ضرباً
شديداً ، جعله يستغيث ، فأمر قراقوش فضربت النقارات على قلعة فامية ، لئلا يسمع
أهل البلد صراخه ، ولم يسلم القلعة ، فرحل عنها الملك الظاهر ، وتوجه إلى حماة ثم إلى
دمشق ، وحاصرها بشدة لم يفز منها بطائل (أبو الفداء ٣ / ١١٥) ، على أن قراقوش عاد
في السنة الثانية ، وسلم أفامية إلى الملك الظاهر ، لقاء إعطاء عبد الملك إقطاعات تعادها .

ولما زالت دولة الأيوبيين عن الديار الحلبية ، انتقلت قلعة أفامية كغيرها إلى أيدي السلاطين المماليك . ولا يعلم إذا كان جيش هولاكو التتري وصل إليها في ذلك العهد ونال منها . وفي سنة ٦٦٦ هـ جاء الملك الظاهر بيبرس إلى قلعة أفامية ، وجمع جيوشه فيها ، ثم زحف منها إلى أنطاكية واستولى عليها ، وفي أيام الملك المنصور قلاوون ، كانت قلعة أفامية في حوزة الأمير الشائر سنقر الأشقر ، وبعد خروج الصليبيين وزوال الحاجة للدفاع ، لم يبق لهذه القلعة مكانة حربية ، بل ظلت كما هي الآن عبارة عن قرية يعتمص أهلها فيها من هجات الأعراب والنصيرية ، وهؤلاء كثيراً ما كانوا يغيرون عليها وعلى غيرها من القرى ، أيام الفتن في عهد المماليك والعثمانيين .

وصف أفامية : هذا ومدينة أفامية لاتزال على ما فعل بها الفرس خراباً ييبأ ، تروع الزائر وتدهشه ، بفخامة أطلالها ، وجمال رسومها وعظمة مساحتها البالغة مثني هكتار أو أكثر . ففيها : أنقاض سورها القديم ، وكان عليه أبواب لم يبق منها إلا الباب الشمالي ، الذي قنطرته وأطلال البرجين المحيطين به ماثلة . وثمة شارع عظيم مستقيم يمتد من الشمال إلى الجنوب طوله يزيد عن ١٦٠٠ متر ، كان على جانبه صفان متقابلان من الأعمدة الجسية ، لاتزال قواعدها أو بعض أقسامها المهشمة ظاهرة ، وهناك شوارع أخرى مستقيمة ، تتشابه في مواقع عديدة مع الشارع الأعظم . وحول هذه الشوارع تجد أينما سرت ، دوراً وقصوراً متهدمة ، وجدراناً متداعية ، وأحجاراً منحوتة مبعثرة ، وقواعد وتيجان أعمدة ، وأعمدة طويلة ضخمة متددة أو منتصبة ، سطوح بعضها مستوية و سطوح الأخرى مخرمة ، بخطوط مقورة أو ناتئة ، مستقيمة أو حلزونية ، وكلها من الصخر الجيري الأشهب ، الذي قضه الطحلب ، وفعل فيه كر الدهور .

وقد كانت أفامية في عهد أسامة بن منقذ على هذه الحالة ، إذ يقول في كتابه (الاعتبار صفحة ٤٧) « وسرنا إلى أفامية ، فلقينا فارسهم وراجلهم - يعني الإفرنج - في الخراب الذي لها ، وهو مكان لا ينصرف فيه الخيل ، من الحجارة والأعمدة ، وأصول الحيطان الخراب » ا هـ . وبعد أن ظلت أفامية طول القرون الخالية على هذه الحالة ، طمر التراب معالمها فدفنها ، وبما النسيان ذكرها أو كاد ، قبيض الحظ لها في عهدنا ، بعثة أثرية بلجيكية ، قامت منذ خريف سنة ١٣٤٨ هـ بحفر خرائبها ، فكشفت آثار عديدة ،



الأعمدة المزخرفة في خربة الفارسية (عن مجلة العاديات الحلبية)

أمكن مجموعها من تخطيط المدينة ، ورسم شارعها الأعظم وبعض مبانيها ، وكشفت طريقة توزيع المياه فيها ، مع بعض الآثار الخاصة بالعبادات . وبما أفاد البعثة في توجيه حفرياتهما ، خارطة جوية أخذت من إحدى الطيارات ، فشملت جميع الأطلال ، ومكنت المهندسين من إلقاء نظرة إجمالية على المدينة بكاملها ، وظهرت المدينة على شكل إهليلجي ، يستطيل من الشمال إلى الجنوب ، ويتصل من الغرب بالتل القائمة عليه اليوم (قلعة المضيق) . وكشفت الحفريات الأعمدة المنتشرة على جانبي الشارع الأعظم ، ولم يكن يظهر قبل الحفر إلا رؤوسها ، أو حلقات منها ، وقطر العمود منها يبلغ ١٢٠ سنتيمتراً . وكشفت أيضاً قواعد هذه الأعمدة التي كانت مطمورة على عمق ٣ - ٧ أمتار ، فإذا هي مزخرفة بنقوش لطيفة ، على شكل أوراق اللبلاب والخرشوف . ويبلغ عدد الأعمدة الألف على صفين متقابلين ، وطول الشارع بين العمود والآخر ثلاثة أمتار ، إلا عندما تنفرج الأعمدة فتخلي المكان لشارع آخر ، فتتألف ساحة في المفرق ، وعندما تنفرج أمام واجهة الصرح الكبير ، القائم على أعمدة تشبه السابقة . وهذا الصرح من أهم مباني أرامية ، لأنه غريب في هندسته اليونانية ، ولم يعرف هل كان معبداً أم قصراً أم دار حكومة . وكشفت أنقاض مسرح روماني ، وركن مزخرف يمثل مشاهد وأشخاصاً تتعلق بعبادة الكرم . وناووس من الحجر عليه نقوش رومانية وغيرها . ومن أجل الآثار التي اكتشفتها البعثة ، قناة الماء الكبيرة الآتية من الشمال من مكان مجهول ، وهي محمولة على قناطر ضخمة وأركان قوية ، ثم تدخل إلى المدينة في نفق مدت فيه أسطوانات ضخمة حجرية ، يبلغ قطرها الداخلي ٥٠ سانتيمتراً والخارجي ٩٠ سانتيمتراً ، والعجيب فيها أنها كلها من الحجر الصلد المحفور ، حتى منعرجاتها وزواياها . ويتفرع من تلك الأسطوانات قساطل فخارية صغيرة ، تتفرع في جميع أنحاء المدينة ، على أسلوب غاية في الإتقان . وهذه البعثة دائبة على العمل في خريف كل سنة ، وعساها تتوفق لإظهار دفائن هذه المدينة التاريخية الجميلة .

أما قلعة أرامية ، فلا تزال فوق تلها الكبير العالي ، تشرف في الغرب على جبال النصيرية ، وعلى سهل الغاب ووادي العاصي ، وفي الشمال على جبل الزاوية ، وفرعه الجنوبي المسمى شحشبو ، ويظهر في إحدى قمم هذا الجبل ، قبة بيضاء قيل إنها مقام الصحابي أبو هريرة ، وتشرف في الجنوب والشرق ، على سهول ناحيتي الطار وخان

شيخون . وكان يحيط بالتل خندق عظيم زال معظمه ، على أنه ليس في هذا الحصن قلعة كبيرة ، كما في حصن شيزر وحصن الأكراد ، بل سور عظيم على هيئة مضلع غير منتظم ، تتخلله أبراج كثيرة مربعة الشكل ، وفي أسفل السور رصيف من الحجارة ، كان التل مصفحاً به ، كما في قلعتي حلب وحمص وغيرها . وقد خرب القسم الغربي من السور ، كما أن المباني التي كانت تعلوه دثرت بالكلية . وفي شمالي القلعة برج جميل البناء ، في وجهه القبلي كتابة تحوي اسم الملك الظاهر غازي صاحب حلب تاريخها ٦٠٤ هـ ، وفي قبليه باب كبير ذو قنطرة يدخل منه إلى القلعة ، يحرسه برجان متقاربان ، وعلى الباب كتابة تحوي اسم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ، وهو حفيد الظاهر غازي تاريخها ٦٥٤ هـ . وهاتان الكتابتان ، وفقدان كل أثر للسلوقيين والصليبيين ، وشكل الأبراج المربعة وأقسامها الداخلية ، والأعمدة التي حشيت في عرض جدرانها ، وشكل برج الباب اللذين يؤلفان ما يسمى في كتب العرب باشورة ، كل ذلك يدل على أن بناء هذا الحصن عربي صرف ، وكذلك طراز هندسته ، وهو من آثار نور الدين محمود بن زنكي ، والأيوبيين من أعقاب صلاح الدين حكام حلب . هذا والقرية التي في داخل الحصن كبيرة ، يبلغ عدد سكانها نحو ألفين ، حافلة بالدور المبنية من أنقاض السور والأبراج وخرائب أفامية ، وأهلها يصعدون وينزلون كل يوم إلى مزارعهم ومراعيتهم التي في أسفلها وجوارها . ويشربون من الينابيع التي في سفح التل ، وشأنهم في الهزال واصفرار الوجوه ، شأن بقية قرى الغاب إلا قليلاً . وفي خارج الحصن على مقربة من بابه القبلي ، جامع صغير حسن البناء ، مستطيل الشكل في وسطه قبة ، وعلى طرفيه عقدان ، وفي غربيه مأذنة جميلة بيضاء ، ويدل بناء هذا الجامع على أنه عثماني ، وقد أصبح الآن خراباً مهجوراً ، وفي أسفل الجامع خان عظيم خراب ، من آثار الوزير العثماني سنان باشا الشهير^(١) ذو فناء واسع وأقبية معقودة كبيرة ،

(١) ترجمه الهي في خلاصة الأثر فقال : « سنان باشا صاحب الآثار العظيمة في البلاد ، من جملتها الجامع المنسوب إليه في دمشق خارج باب الجابية ، والحمام والسوق المتفق على وضعهم ودقة صنعم (كذا) ، وله مثل ذلك في كل من القطيفة وسمع ، وعيون التجار وعكة ، مع خانات ينزلها المسافرون ، وله بيولاقي جامع عظيم ، ومثله بالبن والقسطنطينية ، وغيرها من البلاد جوامع ومساجد ، ومدارس وخانات ، وحمامات تنيف على الملة . وبالجملة فهو أكثر وزراء آل عثمان أثراً ونفعاً ، وفي الحكومة بمصر في زمن السلطان سليم بن السلطان سليمان ، وتولى الوزارة العظمى عدة مرار ، إلى أن توفي في آخر مرة في سنة ١٠٠٤ هـ » . وقال في خطط =

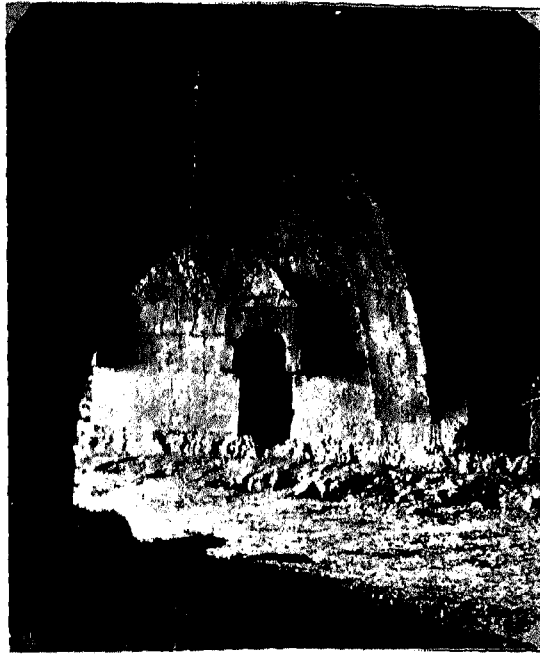
في جدرانها مداخل متقنة ، كانت تأوي إليه قوافل التجار والحجاج ، القادمة من أنطاكية إلى حماة وما وراءها . وقد صار الآن مأوى للغنم في الشتاء ، ولصناع الأواني الخزفية في الربيع . وقد اتخذت قرية قلعة المضيق قاعدة ناحية ، ألحقوها في السنين الأخيرة بقضاء المعرة ، بعد أن كانت تابعة قضاء جسر الشغور ، تتبعها القرى التي تقدم ذكرها في بحث سهل الغاب . ولا يعرف العهد الذي تبدل فيه اسم حصن أفامية ، وهو المصطلح عليه في عامة التواريخ القديمة ، فصار قلعة المضيق ، ولم أعث في كتبنا القديمة على كلمة المضيق إلا عرضاً ، في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، عند ذكره الموقعة التي جرت حول أفامية في سنة ٢٨٧ هـ ، لما حاصرها الروم وضائقوا أهلها ، وجاء جيش بن الصمصامة والي دمشق لاستخلاصها ، فكسر الروم وقتل ملكهم ، قال : « وكانت الوقعة في مرج أفيح ، يطيف به جبل يعرف بالمضيق ، لا يسلكه إلا رجل في إثر رجل ، ومن جانبه بحيرة أفامية ونهر المقلوب ، فلم يكن للروم مهرب في الهزيمة » اهـ . فيظهر من ذلك ، أن سهل الغاب كان يدعى (مرج أفامية) ، وقلعة المضيق (حصن أفامية) ، والوادي الضيق المنحدر المحصور بين آخر عضد من جبل شحشبو ، وتل القلعة الذي ينفذ منه السائر إلى سهل الغاب (المضيق) ، ونهر العاصي (النهر المقلوب) .

= الشام (٢ / ٢٤٣) : « وسانن باشا فاتح البين ، كان من العتاة الطغاة ، أنشأ هذه المعاهد الخيرية التي تقدر نفقاتها بمليون ليرة ، بالأموال التي كان يستصفها ، بقتل الأنفس وتخريب البلاد » اهـ . وعندي أنه - على علته - كان أنسب بقية الوزراء الذين خربوا ونهبوا ، وذهبوا دون أن يأتوا بعمل ما .

طريق قلعة المضيق - قلعة شيزر

(٢٧ كيلو متراً)

بعد قلعة المضيق ، يجتاز السائح وادي الجفار ، ويتجه جنوباً فيغادر ولاية حلب ، ويدخل ناحية الطار ، من أعمال لواء حماة التابع ولاية دمشق ، ويمر في سهول بعيدة الأطراف ، لا شجر فيها ولا حجر ، ذات تلعات متوجة ، وتلال بعثرت فيها ضياع أو ضويعات ، بيوتها أخصاص ، وحولها كثير من مضارب الأعراب ، كالجرنية وحيالين ، وجامة وتل ملح ، ويرى على يمينه على سيف الغاب الصقيلية ، ذات الدور البيضاء ، وهي كبيرة وأهلها روم أرثوذكس ، يبلغون الألفين ، ويشبهون النصيرية بلهجتهم وأزيائهم ، وجمال نسائهم ، وقد اشتهرت حنطتهم بالجودة ، تتخذ للبذر في أكثر الديار الحموية ، قاوم أهلها العصابات التي كانت تحارب الجند الإفرنسي في سنة ١٣٤٠ هـ فنهبوها ، وثمة من الضياع : صلبا والعونية وكفر يهود ، وعلى العاصي : عمورين والعشارنة ، والتريسة أو تل الترمسي كما قال أسامة ، وفي العشارنة على العاصي ، يجتازه قاصدو جبال الكلبية وقراها ، وطاحونة وناعورتين ، تسقيان زوراً كبيراً في شماليها . وفي شرقي هذه الطريق ، كفر نبوذا ومغير ، وكرناز وبريديج ، والشيخ حديد وجبين والزلاقيات . وهكذا إلى أن يهبط السائح وادي العاصي ، ويصل إلى جسر شيزر وقلعتها . وكل هذه الضياع التي عدناها ، ذات تربة رملية طينية حمراء ، معروفة بخصبتها وإنباتها الزروع الصيفية والشتوية عذيا ، وبيوتها في الضياع تكون أكواخاً مستطيلة ، من القصب والقش يدعونها طامات ، وفي القرى دور حجرية . ذكر ياقوت في معجمه ، من هذه عمورين ، وسماها عمورية ، ودعاها بليدة ، وهي الآن ضيعة صغيرة ، قال : « عمورية بليدة على شاطئ بين فامية وشيزر ، فيها آثار خراب ، ولها دخل وافر ، ولها رحي تغل مالا » ا هـ . وذكر أسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار) أسماء كفر نبوذا وتل ملح وتل التلول ، وقال : إن تل ملح كان مكنأ للإفرنج عند إغارتهم على شيزر . وقد تحررت فلم أجد أساساً ومصدراً لكلمة الطار ، التي سميت هذه البقعة بها ، وقيل إنها قديمة ، فهل



داخل خان قلعة المضيق (عن مجلة العاديات الحلبية)

هناك تحريف عن كلمة (طاب) التي سميت بها بليدة (كفر طاب) التي ذكرتها التواريخ مراراً ، وقد كانت في شرقي هذه الناحية ، بينها وبين خان شيخون ، وقد ضاع رسمها وتنوسي اسمها ، ذلك ما يحتاج للتحقيق . وأغلب سكان ضياع الطار وفلاحيه أعراب ، يدعون الصاطية ، ويعدون من الأنفاد الملتحقة بقبيلة الموالي .

تاريخ شيزر : أما شيزر فقد قال عنها ياقوت : « شيزر قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة ، بينها وبين حماة يوم ، في وسطها نهر الأردن (!) ، عليه قنطرة في وسط المدينة ، وتعد من جند حصص » . وقال أبو الفداء : « شيزر من جند حصص ، ذات قلعة حصينة ، والعاصي يمر من شماليها (وصوابه من شرقيها) ، وينحدر عندها على سكر ، ارتفاعه يزيد على عشرة أذرع ، يسمونه الخرطلة ، وهي ذات أشجار وبساتين ، وفواكه كثيرة ، أكثرها الرمان ، ولها سور من لبن وثلاثة أبواب » . وقال الأصبخري : « وشيزر وحماة فإنهما مدينتان صغيرتان نزهتان ، كثيرون الماء والشجر والزرع » . وقال شيخ الربوة : « وشيزر مدينة حصينة وبية (وبيلة أو وبيئة) ، تشرب أهلها وأرضها من النهر العاصي ، ولها قلعة طولها ظاهر ، تسمى عرف الديك ، محاطة من ثلاث جهات بالعاصي » . وجاء في (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب) المنسوب لابن الشحنة الحلبي ، من رجال القرن التاسع طبع بيروت ص ٢٣١ « شيزر مدينة قديمة ، ذات قلعة وكورة حسنة ، ولها معاملات ، وقراها في إقطاعات جند حلب ، يجري بها نهر العاصي ، وهي قريب من حماة ، ولها نائب من قبل السلطان ، وقاضي يوليه قاضي حلب ، وهي معروفة بالوخم » . وجاء في ذيل تاريخ أبي الفداء لابن الوردي في حوادث سنة ٧٤٥ هـ : « وزاد نهر حماة ، وأغرق دوراً كثيرة ، ولطم العاصي خرطلة شيزر فأخذها ، وتلفت بساتين البلد لذلك ، ويحتاج إعادتها إلى كلفة كبيرة » ا هـ .

قلت : لم يبق في شيزر من الفواكه التي ذكرها أبو الفداء أثر يذكر ، ماعداً قليل من الرمان ، وحالة الأزوار والبساتين أيضاً وسطى ، وسكر الخرطلة الذي خرب سنة ٧٤٥ هـ تنوسي اسمه ، والبلدة ذات السور والأبواب الثلاثة التي كانت في أسفل القلعة قد عفت رسومها ، ولم يبق منها إلا بعض أسس الجدران ، وكسور الحجارة والأعمدة ، وصار مكانها

بضعة قباب حقيرة ، بين الجسر وباب القلعة . يقطنها العمال في أزوار شيزر ، والبلدة العليا التي كانت في داخل القلعة خربت ، وصار مكانها قرية ، بنيت بركام الأنقاض ، يقطنها فلاحو الأرض العذبة ، ولا يزيد عدد الجميع عن الأربعمئة جلهم من السنيين ، وقليلهم من النصيرية . والإسماعيلية .

وخلاصة تاريخ شيزر ، أن فراعنة مصر عرفوها ، وذكروها في رقم تل العمارنة المسارية باسم (سنزار) ، وعرفها اليونان وسموها (لاريسا) ، قيل إن لسوقس نيكاتور فضلاً في ترميمها وتحصينها ، وذكرها امرؤ القيس في قوله :

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بسير يضج العود منه يمنه أخو الجهد لا يلوي على من تعذرا

وذكرها عبيد الله بن قيس الرقيات في قوله :

قفوا وانظروا بي نحو قومي نظرة فلم يقف الحادي بنا وتغشرا
فوا حزناً إذا فارقونا وجاوروا سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا

ولما قدم أبو عبيدة بن الجراح سنة ١٧ هـ ، بعد أن فتح حمص وحماة خرج إليه أهل شيزر يقلسون ، وصالحوه على صلح حماة أي الجزية لرؤوسهم ، والخراج على أرضهم . وجعلت شيزر بعد من أعمال جند حمص . وكان سكانها في القرن الثالث الهجري قوم من كندة ، على ما في كتاب البلدان لليعقوبي . ولما كانت شيزر وجارتها أفامية على الطريق الذي تسلكه أكثر القوافل والجحافل القادمة من شمالي الشام أو جنوبيها ، ولتسلطها على وادي العاصي ، كانت لها مكانة جليلة من وجهتي سوق الجيش والتجارة ، وكانت شيزر خاصة تعد مفتاح بلاد الشام ، لذلك ظلت عرضة لهجمات الروم البيزنطيين المتتابة ، التي تقدم ذكر أسبابها ونتائجها ، في أبحاث كيليكية وأنطاكية ، ولما زحف قيصر الروم (تقفور الفقاش) على حلب وأنطاكية ، وغيرها من مدن الشام الشمالية ، وعاث وأفسد ، لم يجد سيف الدولة ملجأً يعتم به أحسن من شيزر ، لكنه أصابه فيها مرض شديد ، مات على أثره ، ونقل جثته إلى عاصمته حلب في سنة ٣٥٦ هـ . وفي السنة التالية ٣٥٧ هـ وصل القيصر المذكور إلى شيزر ، واستولى عليها وأحرق جامعها . وفي سنة ٣٥٩ هـ اصطلى هذا

القيصر مع قرعويه ، متولي حلب من قبل سعد الدولة بن سيف الدولة ، على عشرة قناطير ذهب ، يحملها قرعويه إلى القيصر كل سنة ، على خراج بلاد عديدة منها شيزر وحلب ، وقنسرين وحص ، وحماة وجوسية ، وسلمية والمرة ، وكفر طاب وفامية ، وجبل السباق ومعرة مصرين ، والأثارب وغيرها . لكن سعد الدولة لم يشأ الاعتراف بهذه المعاهدة المذلة ، وسعى للتخلص منها ، فأخرب الروم إذ ذاك حص ، ليضطروه إلى الإذعان وجاءه الخوف من زحف الفاطميين نحوه ، ونواهم من ملكه ، فأذعن وأدى الجزية في سنة ٣٧٣ هـ . وحدث ماخشي منه سعد الدولة ، فجاء سنة ٣٨٢ هـ (منجوتكين) قائد جيش الفاطميين ، وحاصر شيزر واستخلصها من قائدها الحمداني ، ثم استخلص فامية وغيرها كما قدمنا . ولما استنجد أبو الفضائل بن سعد الدولة بالقيصر (باسيلوس) لينقذه من (منجوتكين) ، زحف القيصر في سنة ٣٨٣ هـ وحاصر فيما حاصره شيزر ، واستخلصها من قائدها الفاطمي منصور بن قراديس ، وأقام القيصر في شيزر حامية قوية من جند الروم . لكن شيزر عادت وسقطت بيد والي دمشق ، الفاطمي (جيش بن الصمصامة) الذي قتل (دوقس) أنطاكية ، وكسر جيشه في معركة أفامية ، التي جرت سنة ٣٨٧ هـ كما قدمنا ، وسلم شيزر لقائد اسمه (حلمان بن قراديس) ولعله أخو منصور المذكور آنفاً . على أن القيصر (باسيلوس) خف بنفسه في سنة ٣٨٨ هـ ، وشرع بحصار شيزر ، وخرب القناطر التي كانت تأتي بالماء إلى القلعة ، ودافعت حاميتها دفاعاً مجيداً ، إلا أن فقدان الماء اضطرها أخيراً إلى الاستسلام ، على أن تؤمن على أرواحها وأموالها . ونزح أكثر السكان المسلمين ، فأقام القيصر مكانهم جالية من الأرمن ، واستلم بعد ذلك حصن أبو قبيس بالأمان ، واستقرت شيزر وأعمالها في أيدي الروم البيزنطيين ، نحو ٨٢ سنة حتى سنة ٤٧٤ هـ ، ففي سنة ٤١٥ أقطع (صالح بن مرداس) صاحب حلب البلاد المجاورة لشيزر ، إلى بني منقذ الكنانيين ، أما شيزر فقد ظلت بيد الروم .

وبنو منقذ المذكورون ، كانوا أمراء أعزاء ، يكرمهم ملوك الشام في ذلك العهد ، ويجلون قدرهم ، ويقصدهم شعراء عصرهم ويمدحونهم ، أول من عرف منهم واشتهر ، أبو المتوج (مقلد بن نصر بن منقذ) الكناني كان صاحب كفر طاب ، وكانت حدود بلاده تصل جنوباً إلى وادي العاصي ، وهو الذي بنى رأس الجسر ، المعروف بجسر بني منقذ غربي شيزر . ولما توفي سنة ٤٥٠ هـ في حلب ، وحمل إلى كفر طاب خلفه ابنه أبو الحسن

(علي بن مقلد) الملقب سديد الملك . وكان ينزل في جوار شيزر بقرب الجسر المذكور ، وكانت القلعة بيد الروم ، فحدثته نفسه بأخذها ، فشرع سنة ٤٦٨ هـ بعمارة حصن الجسر الذي لم يدركه أبو الفداء ، بل ذكر عنه في تاريخه ، أن موضع الحصن في زمنه كان تلاً خالياً من العمارة ، وأنه غربي شيزر على مسافة قريبة منها . وسبب عمارة هذا الحصن ، هو أن يمنع شيزر من استقدام الميرة ، ويضطر أهلها الروم إلى التسليم . وقد جاء في كتاب أرسله إلى بغداد ، يصف كيفية استيلائه على شيزر سنة ٤٧٤ هـ : « نظرت إلى الحصن ، فرأيت أمراً يذهل الأبواب ، يسع ثلاث آلاف رجل ، بالأهل والمال ويمسكه خمس نسوة ، فعمدت إلى تل بينه وبين حصن آخر للروم ، يعرف بحصن الجراص ، ويسمى هذا التل تل الجسر ، فعمرتة حصناً ، وجمعت فيه أهلي وعشيرتي ، ونفرت نفرة على حصن الجراص ، فأخذته بالسيف من الروم ، ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم ، أحسنت إليهم وأكرمتهم ، ومزجتهم بأهلي وخلطت خنازيرهم بغني ، ونواقيسهم بصوت الأذان ، فرأى أهل شيزر فعلي ، فأنسوا بي ، ووصل إلي منهم قريب نصفهم ، فبالغت في إكرامهم ، ووصل إلي (مسلم بن قريش العقيلي) فقتل من أهل شيزر نحو عشرين رجلاً ، فلما انصرف مسلم عنهم سالموا الحصن إليّ » ا هـ .

ويظهر من كلامه ، أن شرف الدولة (مسلم بن قريش العقيلي) صاحب الموصل وحلب الذي تقدم ذكره ، وخبر قتله في بحث العمق وأنطاكية ، كان يطمع بفتح شيزر ، وأنه حاول ففشل . لهذا لما تملك (علي بن منقذ) شيزر حسده على ذلك ، فأرسل إليه جيشاً من حلب ، بقيادة أخيه مؤيد الدولة علي بن قريش ، فأخذ هذا في طريقه حصناً لابن منقذ ، يقال له أسفونا غربي كفرطاب ، وكان ابن منقذ قد تأهب للغار ، وحل من الجسر إلى شيزر ، ما يكفي لمن فيه مدة طويلة من سائر الأشياء . وحاصره (علي بن قريش) مدة إلى أن جاء شرف الدولة مسلم بنفسه ، سنة ٤٧٥ هـ ، ثم ترك عسكره في حصار شيزر ، ورحل إلى حمص . فتطارح ابن منقذ عليه ، وسير ابنه وامراته وأخته إلى حمص ، مع مال جزيل ، فأنفذ إلى عسكره ورحله عن شيزر . وذكر مؤرخو الإفرنج ، أن شيزر كانت إلى حين استيلاء ابن منقذ عليها في حوزة القيصر البيزنطي (ألكسي كومنين) ، وأن ابن منقذ استولى عليها ، بعد معاهدة عقدها مع مطران البارة المقيم في شيزر ، وأنه سمح للحامية البيزنطية بالخروج منها حرة . وذكر مؤرخو العرب أن

(علي بن منقذ) هذا ، كان شاعراً مجيداً قوي الفطنة . ولما توفي خلفه ابنه عز الدولة أبو مرهف (نصر بن علي) ، وكان تقياً كريماً ، مغرمّاً بالفنون . وكانت مملكة شيزر في عهده ، تحوي أفامية وكفر طاب واللادقية ، وفي سنة ٤٧٩ هـ لما قدم السلطان ملكشاه السلجوقي واستولى على حلب ، أرسل إليه الأمير نصر بن علي ، ودخل في طاعته ، فأجابه السلطان إلى المسألة وترك قصده ، وأقر عليه شيزر (أبو الفداء ٢ / ٢٠٧) وفي زمنه حوصرت شيزر مراراً ، فلم ينل أحد منها طائلاً . منها في سنة ٤٨١ هـ جمع قسم الدولة آق سنقر صاحب حلب (أبو عماد الدين زنكي) عسكره ، وسار إلى قلعة شيزر ، وضيق على صاحبها نصر بن علي بن منقذ ، ونهب الربيض ، ثم صالحه ابن منقذ المذكور ، فعاد آق سنقر إلى حلب . ومات نصر دون عقب سنة ٤٩١ هـ بعد زمن قليل من استيلاء الصليبيين على أنطاكية ، وكان عهد بالإمارة بعده إلى أخيه الأصغر مجد الدين أبو سلامة مرشد (٤٥٨ - ٥٣١ هـ) والد أسامة الذي سيأتي ذكره . لكن مرشداً كان ولوعاً بالصيد والخط ، فتنازل عن الإمارة إلى أخيه الأصغر عز الدين أبو العساكر سلطان (٤٦٤ - ٥٤٨ هـ) . أما الأمير مجد الدين مؤيد الدولة أبو المظفر (أسامة بن مرشد) الأديب الشاعر ، والبطل المغوار ، فقد ولد سنة ٤٨٦ هـ ، وهو مؤلف كتاب الاعتبار^(١) الذي جمع فيه أخبار وكوائن شتى ، عن طرز الحياة والصيد ، وقاتل الصليبيين حول بلدته شيزر ، التي هجرها سنة ٥٢٠ هـ ، ولم يعد إليها إلا بعد وفاة أبيه في سنة ٥٢٨ هـ .

وفي زمن أبي العساكر سلطان هوجمت شيزر مراراً ، من قبل صاحب دمشق وثم أعراب بني كلاب النازلين في براري حلب ، والإسماعيلية والبيزنطيين والصليبيين ، وفي كل مرة كانت تنجو من السقوط ، بفضل مناعتها الطبيعية ، وحصانة قلعتها ، وبسالة أصحابها بني منقذ ، جاءها في سنة ٥٢٧ هـ شمس الملوك (إسماعيل بن بوري بن طغتكين) صاحب دمشق بعد أن حاصر حماة في تلك السنة ، واستولى عليها ، فحاصر شيزر ، ونهب بلدها ، وحصر القلعة ، فصانعه أبو العساكر سلطان بمال حمله إليه ، فعاد عنها وسار إلى دمشق .

(١) له أيضاً كتاب (المعصاة وأزهار الأنهار) و (كتاب البديع في علوم الشعر) واختصر (سيرة عمر بن الخطاب) تأليف ابن الجوزي البغدادي ، وله (التاريخ البديري) و (أخبار البلدان) و (ذيل على خريدة القصر) للباخرزي ، وكانت لديه مكتبة عامرة تشغل على غرر المخطوطات ونفائسها ، تبلغ أربعة آلاف مجلد ، اغتصبها الإفرنج في البحر ، حينما استقدمها مع عائلته وأولاده ، فأسف عليها كثيراً .

وجاءها في سنة ٥٣٢ هـ القيصر البيزنطي (حنا كومنن) في جيش من الروم ، ونصب على جبل (جريجيس) المشرف على القلعة ثمانية عشر منجنيقاً ، وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان إلى عماد الدين زنكي يستنجد به ، فنزل زنكي على حماة ، فكان يركب كل يوم في عساكره ويسير إلى شيزر ، بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ، ثم يعود آخر النهار ، وكان الروم والفرنج قد نزلوا على شرقي شيزر ، فأرسل إليهم زنكي يقول لهم ، إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء ، حتى نلتقي فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها ، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم ، ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم ، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم ، فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله ، فتمنع وخاتل ، وكان زنكي يرسل الفرنج والروم كل منهم على حدة ، ويلقي الشحنة بينهم ، إلى أن استشعر كل منهم من صاحبه ، فرحل ملك الروم عن شيزر ، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها ، فغنها زنكي ، وكان المسلمون في بلاد الشام قد اشتد خوفهم ، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر ، لا يبقى لمسلم معهم مقام ، لاسيما مدينة حماة لقرىها . ومن أحداث شيزر التي تذكر ، أنه نزل الإفرنج (صليبيو أنطاكية) في بعض السنين على شيزر ، وكان الماء بين شيزر وبينهم عظيم ، لا يمكن خوضه^(١) وما كان من سبيل لهم إلى شيزر ، فلما تبينوا ذلك ، أنتشروا في الأرض ، ودخلوا البساتين يرعون خيلهم ، فجاء منهم نفر إلى البستان الموجود على جانب الماء ، ومعهم خيلهم فتركوها ترعى القصيل في البستان وناموا ، فتجرد رجال من أصحاب بني منقذ ، ونزلوا من سرداب القلعة المتصل بالعاصي ، الذي يستقي منه سكانها ، وقد تهدم الآن معظمه ، وسبحوا إليهم ومعهم سيوفهم ، فقتلوا منهم وجرحوا بعضهم ، وانتشر الصياح في الفرنج وهم في خيلهم ، ففزعوا وجاؤوا مثل السيل ، كل من ظفروا به قتلوه ، وانتهى بعضهم إلى مسجد مما يليهم ، يعرف بمسجد أبي المجد بن بسمية ودخلوه ، ثم خرجوا منه ، وانصرفوا عن شيزر بعد ذلك ، ومن أحداثها أيضاً أن الإسماعيلية وثبوا سنة ٥٣٥ هـ على حصن مصيف الذي كان لبني منقذ ، واحتالوا على مملوكهم فيه وقتلوه ، وملكوا الحصن ، وكان تمادى بهم الطمع ، وجاؤوا سنة ٥٠٢ هـ إلى

(١) هو ماء العاصي ، الذي كان يقذف من الخندق المحفور قبلي القلعة ، بعد سد سكر الخرطلة كما سيأتي بيانه .

شيزر ، في وقت كانت القلعة خالية فيه من أمراء بني منقذ ، الذين ذهبوا لحضور حفلات عيد الفصح في حماة^(١) فملكوا القلعة ، وبادر أهل المدينة إلى الباشورة ، وأصعدهم النساء بالحبال من الطاقات ، وأدركهم الأمراء بنو منقذ على أثر وصول الخبر إليهم ، ووضعوا السيف في الإسماعيلية ، فلم يسلم منهم أحد . (أبو الفداء ٢ / ٢٣٥) .

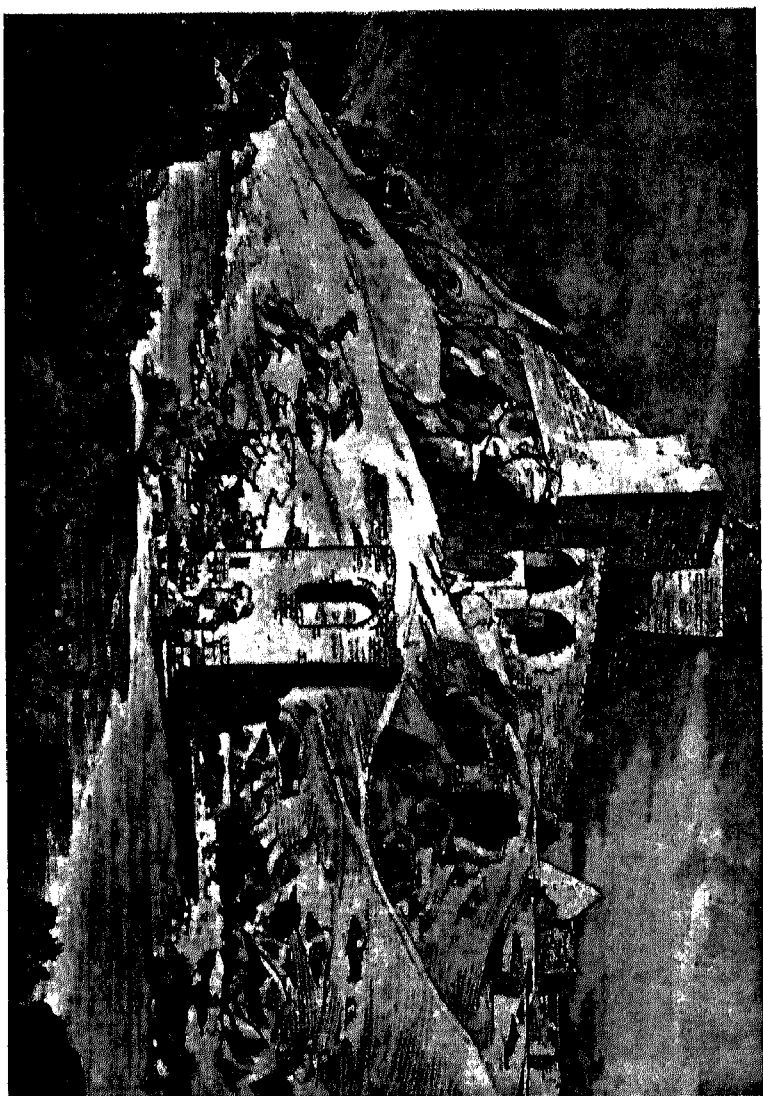
وكانت حصلت نفرة بين سلطان وأخيه مرشد بسبب أولادهما ، ولما توفي مرشد بادأ سلطان أولاد أخيه علي وأسامة بالسوء ، وأخرجهم من شيزر ، فقصدوا نور الدين محمود زنكي ، وشكوا إليه ما لقوا من عمهم ، فغاضه ذلك ، ولكنه لم يمكنه قصده ، وإعادتهم إلى وطنهم لاشتغاله بجهاد الإفرنج (ابن الأثير) . ولما مات سلطان سنة ٥٤٨ هـ خلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد ، إلى أن هلك بالزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ٥٥٢ هـ ، وأخربت كثيراً من مدن الشام الشمالية ، وكان أشدها كما قال ابن الأثير في حماة وشيزر ، وكان بنو منقذ مجتمعين في ولاية ختان ، فهلكوا ولم ينج أحد من كان منهم داخل القلعة ، إلا امرأة أخرجت من تحت الردم . وكان أسامة غائباً في دمشق ، فجاء بعد الزلزلة وعانين ما فعلته الزلزلة بشيزر وأهله ، فبكاهم ورثاهم بغرر القصائد . وحاول إذ ذاك الصليبيون أن يملكوا قلعة شيزر المهذومة المهجورة ، لكن الإسماعيلية هبطوا من مصيف ، فطردوهم واستولوا على شيزر . ثم جاء نور الدين محمود زنكي ، وطرد الإسماعيلية من شيزر ، ورمها وجددها فيما جدده من بقية الحصون ، وأقطعها إلى أخيه في الرضاة (محمد الدين أبو بكر بن الداية) ولما مات أبو بكر ، انتقلت لأخيه (سابق الدين عثمان) الذي ظل فيها ، وفي حصن أبي قبيس ، إلى بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي ، فصار من عمال ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب . ولما مات سابق الدين انتقلت شيزر لابنه عز الدين مسعود ، ثم لحفيده شهاب الدين يوسف . وفي سنة ٦٣٠ هـ تجاهر هذا بالعصيان ، فجاء الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي ، وحاصره واسترد شيزر وأبا قبيس منه ، فهنأه يحيى بن خالد القيسراني بقوله :

يا ملكاً عم أهل الأرض نائله
لما رأت شيزر آيات نصرك في
وخص إحسانه الداني مع القاصي
أرجائها ألقت العاصي إلى العاصي

(١) سنائي على وصف هذه الحفلات في بحث حماة .

ولما جاء التتار بقيادة هولوكو ، هدموا أكثر القلاع التي كانت للأيوبيين ، ولا بد أن يكونوا نالوا أيضاً من شيزر ، لأنها ذكرت في جملة القلاع التي زارها الملك الظاهر بيبرس مراراً ورمعها . ولما جلس الملك المنصور قلاوون الصالح في سنة ٦٧٩ هـ ، ظلت شيزر كجارتها فامية مدة في يد الأمير سنقر الأشقر ، الذي عصى ونازع قلاوون السلطنة ، ثم استرجعها قلاوون منه صلحاً ، في سنة ٦٨٠ هـ ، على أن تبقى في يد الأمير سنقر ، الشجر وبكاس فحسب . ورمم قلاوون بعض أركان شيزر ، وظلت في حوزة أخلافه المماليك ، وكانت في عهدهم نيابة من أعمال حلب ، ونائبها أمير عشرة . وذكرت إذ ذاك شيزر في التواريخ (خطط الشام ج ٢) أن نائب حلب سافر سنة ٧٤٨ هـ لتسكين فتنة ببلد شيزر بين العرب والكرد ، قتل فيها من الكرد خمسمئة نفس ، ثم ذكرت في جملة البلاد التي نهبها (نعيم بن جبار) أمير آل فضل (أجداد أمراء الموالى الحاليين) في سنة ٧٩٣ هـ ، وكان مع منطاش ، الثائر على الملك الظاهر برقوق ، خائضاً غمار فتنته ، ولعل خرابها بدأ منذ تلك الفتنة ، وظل الحال على هذا المنوال إلى أن دخل العثمانيون . ومها يكن فإن شيزر بعد استيلاء العثمانيين على بلاد الشام كلها ، وزوال الحاجة للدفاع ، لم يبق لها كما قلنا في أفامية مكانة حربية ، بل ظلت كما هي الآن ، قرية يعتصم أهلها من الأعراب والنصيرية ، الذين كانوا يغيرون عليها أيام الفتن في عهد المماليك والعثمانيين .

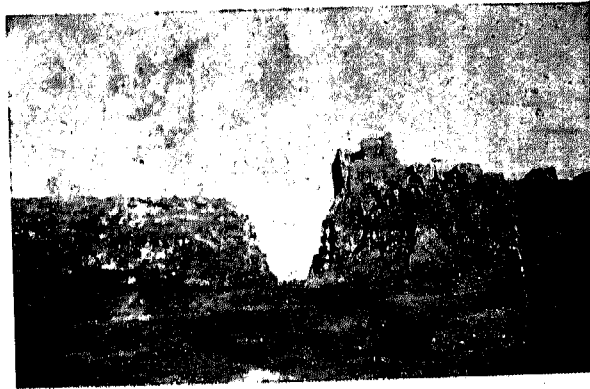
وصف قلعة شيزر : بنيت قلعة شيزر على ظهر أكمة صخرية ، تمتد من الجنوب إلى الشمال ، منتصبة على يسار العاصي ، شبهها العرب لنتوتها بعرف الديك ، ويمر نهر العاصي من شرقي هذه الأكمة ، بعد أن يلتوي في منعرج ذي زاوية قائمة ، ويجري في وهدة عميقة . فالقلعة منفصلة عما يجاورها ، في شرقيها وشمالها وغربيها ، بفضل المنحدرات الصخرية العميقة المحيطة بها ، والتي تعلو نحو ٤٠ - ٥٠ متراً . أما في الجنوب فقد كانت أكمتها متصلة بالجبل المجاور ، إلى أن حفر القدماء فيه خندقاً عريضاً وعميقاً ، فصلوها به عنه ، وبنوا فوق الخندق برجاً كبيراً ، سيأتي وصفه ، وفي رواية أنهم كانوا عند مهاجمة الأعداء يرون مياه العاصي من هذا الخندق ، بعد سد مجراه بسكر ، لعله سكر الخرطلة ، الذي نوه به أبو الفداء ، فإذا مرت هذه المياه ، وطغت على السهل الغربي ، تصبح شيزر كجزيرة ، لا يعود بإمكان العدو الاقتراب منها .



واجه قلعة شیر



مدخل قلعة شيزر



البرج الكبير والخندق في جنوبي قلعة شيزر

وقلعة شيزر خراب في الجملة ، لم يبق منها سائلاً إلا طرفاها الشمالي والجنوبي . يدخل القاصدون من بابها الكائن في الجهة الشمالية ، بعد أن يمتازوا جسراً حجرياً بني فوق وادٍ ضيق وعميق . وكان هذا الجسر في العصور الوسطى من الخشب ، وهو ثقيل يرفع عند اللزوم . أما الحالي فحجري ، يعلو طبقتين من القناطر ، ولشدة الانحدار جعل ممشاه ذا درج مرصوف ببلاط كبير ، وجعل على طرفيه درابزين ، يوشك أن يتداعى . أما مدخل القلعة ، فقد جعل في جوف باشورة مربعة الشكل ، بارزة إلى الأمام ، بنيت بقطع ضخمة من الحجارة ، التي يدعوها البناؤون (أحجار التشبيك) و (الأحجار السورية) ، والثانية منسوبة للأسوار تكون ناتئة في وسطها ، وحشي بين هذه الحجارة قطع من الأعمدة ، لتشد ارتباط المداميك بعضها ببعض .

وفي المدخل فجوة يعلوها قوس من النوع الذي يدعوه البناؤون (قوس منكسر) ، وفي جوف الفجوة باب ذو عتبة مستقيمة ، وفوق القوس كتابة عربية طويلة ، فيها اسم الملك المنصور قلاوون الصالحي في سنة ٦٨٩ هـ ، على أحجار الجدار الظاهرة ، وفوق الكتابة بقليل زغلوان لرمي السهام ، ونافذة مربعة الشكل ، وفي الطابق الأعلى من الباشورة ، نافذة أخرى مربعة ، لا يزال يعلوها زافرتا مرمى ، كان مخصصاً لحراسة المدخل ، وقد هدمت الباشورة حتى وصلت إلى مستوى هاتين الزافرتين ، وعلى يمين الباشورة قلة هرمية الشكل ، أقسامها العليا مهدومة ، وأقسامها السفلى راكبة على سفح عريض مبلط ، أحد جوانبه يلتصق ويحيط بالباشورة التي تقدم ذكرها ، والضلح الجسم الشمالي الغربي لهذا السفح المستدق قطع وأعرض ، وذلك لدفع شرمة السهام والنقابين . وتحت الباشورة ساباط معقود ، يدخل منه إلى ساحة القلعة ، التي ملئت ببيوت القرية المبنية من أحجار السور المهديم ، ووراء الباشورة وأطلالها سراديب معقودة متداعية ، كانت توصل من القلعة إلى العاصي . وثمة طريق ضيق بين بيوت القرية يأخذك إلى قبلي القلعة فتجد فيها البرج الكبير الذي يسميه الأهليون هنا قصر البردويل ، ولا يعلم من هو هذا البردويل ؟

وهذا البرج في أضعف نقطة من نقاط الدفاع ، فوق الخندق الذي تقدم ذكره ، لذلك بني بعناية خاصة ، فأحجاره أحجار تشبيك وسورية ، وهي هنا أضخم وأدق عملاً

من حجارة الباشورة ، وفي عرض جدرانها حشيت قطع كثيرة من أعمدة الروابط ، لتزيد انضمام الأحجار الخارجية بالداخلية ، وشكل البرج منشور ذو وجوه مستطيلة ، وله في جهته الشمالية بروز قليل فيه المدخل ، وقد جعل هذا المدخل في مخرق زاوية ، معرضة للقذائف المتشابكة ، التي تلقى من طوابق البرج العليا ، وهذا من قواعد الهندسة العربية في المباني العسكرية ، وعلى جدار البرج كتابة باسم الملك العزيز محمد صاحب حلب سنة ٦٣٣ هـ ، والصاعد من درج المدخل يصل إلى طابق تحته أقبية معقودة ، لعلها كانت صهاريح ماء أو مخازن مؤونة ، وثمة درج يؤدي إلى طابق ثان ، ثم إلى السطح ، وفي الطابق الأول غرفتان كبيرتان عقودهما مرتكزة على عضادات ، وجدرانها مثقوبة بكوى للنور ، وزغالييل غريبة الأشكال ، ويشتمل الطابق الثاني على الأوضاع ذاتها ، أما السطح فقد هدم منه جدار الدفاع الذي كان مضرساً بشراريف عديدة .

قال الاثري (فان برشم) في كتابه (رحلة في الشام) الذي اعتمدنا عليه في وصف شيزر : « إن باشورة باب القلعة من آثار نور الدين محمود دون غيره ، على الرغم من أن الملك المنصور قلاوون استكتب اسمه فوق الباب ، إذ لم يكن له فضل في غير ترميم بعض أركانها ، وأن القلة والسفح من آثار الملك الظاهر بيبرس ، والبرج الكبير القبلي ربما كان من آثار نور الدين محمود دون غيره ، لأن الكتابة التي فوق بابه زبرت بعد البناء ، ولعل الملك العزيز محمد رمم المداميك العليا فقط » . وقال أيضاً : « إن الصليبيين على الرغم من مهاجتهم شيزر مراراً ، لم يستطيعوا اقتحامها ، وإذا تكون هذه القلعة عربية بحثة . من آثار مهندسي العرب دون سواهم ، في القرنين السادس والسابع ، وبرهاننا على ذلك تخطيط سورها ، ورفع الحيطان الجامعة بين أبراجها ، وهذه الأبراج المربعة القليلة البروز ، وشكل بناء الباشورة ، والبرج الكبير المحشوة جدرانها بأعمدة الروابط ، وأقسام البرج في الداخل ، وانتساق مراكز الدفاع فيه ، وفقدان أي قطعة مرخنة أو مهندمة على الطراز الغربي » اهـ .

قلت : وهذه إحدى شهادات هذا العالم الأثري الأوروبي الذي اختص ، بدراسة المباني العربية القديمة ، تدل على ماكان عليه أسلافنا من البراعة في تشييد القلاع والحصون ، وإحكام وسائل الدفاع والحصار فيها ، مما ينبغي له علم غزير وخبرة واسعة في

فنون الحرب والهندسة والبنيان . ومن أكبر دواعي الأسف أن لانعرف أسماء المهندسين العسكريين الذين خططوا قلعة شيزر وأمثالها ، من القلاع العربية في القرن الخامس والسادس والسابع ، وصورة إنشائها بهذا التأليف البديع والإتقان الغريب ، وأن نجعل القواعد والمسميات التي كانوا يتبعونها ويتداولونها في تشييد الأسوار والأبراج والثقوب والمرامي ، وأقسامها البارزة والغائرة فيتعذر علينا تعريب ما كتبه عنها علماء الآثار من الإفرنج بالحرف . ولو سمح الدهر بإبقاء شيء من مؤلفاتهم ، التي لابد أن يكونوا عنوا بوضعها^(١) ، أو لو اكتثرت مؤلفو كتب التراجم هؤلاء المهندسين والبنائين وغيرهم من أرباب الصناعات الدقيقة ، مثل اكتراثهم بترجمة الشعراء والكتاب ، والزهاد والمتقشفين ، إذاً لعرفنا شيئاً من قواعدهم ومسمياتهم ، فتكنا من وصف ما بنوه وصفاً علمياً هندسياً ، تعرف به خطوطه ومقاييسه ، وأشكاله وأوضاعه ، وجنس المواد والحجارة التي يتألف منها ، وكيفية تركيبها وترتيبها ، والغايات المنشودة من اختلاف الأبراج والقلل ، والنواف والمرامي ، وكبرها وصغرها ، وتقويمها وتدويرها ، وما كان يوضع أو يعمل في أرجائها إلخ .. لا كما يذكره كتابنا الذين يهيمون في وادي الخيال ، فيقولون كما قال شهاب الدين محمود في وصف حصن : « حصن قد تفرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ، ورسا أصله إلى النجوم ، تحال الشمس إذا علت أنها تنتقل في أبراجه ، ويظن من سها إلى البها أنها ذبالة في سراجها . إلخ » ما هنالك من الإغراق ، الذي ليس فيه شيء مما يدل على هندسة هذا الحصن ، وكيفية بنائه ، وكلهم نحاً هذا المنحى .

هذا وقيل أن بين شيزر وقرية الزلاقيات التي تبعد عنها نحو أربعة كيلومتر إلى الشرق ، قناة قديمة متفرعة من العاصي ، تسير في نفق محفور في لحف الجبل ، إلى أن تصل قرب القلعة ، إلى فوهة يدعونها الشلقة تعلو بضعة أمتار فينحدر منها الماء كالشلال ، بهدير قوي ، وهي تسقي زور العريض ، غربي مقام أبي عبيدة .

وجاء في (كتاب الاعتبار) لأسامة اسم بندرقتين ، وأنها كانت قرية عند المدينة ، والآن لا يعرف لها خبر ولا أثر . وجسر شيزر عظيم ، ذو قناطر عديدة ، رمم مراراً في الماضي ، وبني قسمه الجنوبي مجدداً في سنة ١٣٤١ هـ ، وفيه طاحونة على يمين بابها حجرة

(١) ومنها كتاب القلاع والحصون للأمير أسامة بن منقذ ، ليس له اثر .

ضائع نصفها ، زبر عليها مرسوم عربي ، فهمت منه بعد الجهد ، أنه لإزالة بعض الضرائب عن أهل الصقيلية ، وتاريخها من القرن الثامن ، وما لاريب فيه ، أنه ليس هو جسر بني منقذ ، الذي كان حوله تل وحصن ، ذكرها أسامة في مواضع عديدة ، وكان موضع حصن الجسر في زمن أبي الفداء تل خال من العارة ، وهو غربي شيزر على مسافة قريبة منها (أبو الفداء ٢ / ٣٣) وذكرها قبله جده أبو الحسن (علي بن منقذ) الكنايني ، وهو باني الحصن قبل نقرته على حصن الجراس ، واستيلائه على حصن شيزر كما أسلفنا .

قال (فان برشم) : « بحثنا كثيراً ، فلم نعثر على أثر لحصن الجسر ، الذي يفهم من كلام أسامة ، أنه كان في ضفة العاصي اليمنى ، أقيم لحماية جسر بني منقذ . ونظن أن هذا الحصن والجسر ، كانا في موقع يبعد عن شيزر للغرب نحو كيلومترين ، حيث ترى دعامتين بارزتين من العاصي ، تقاومان جريانه الشديد » اهـ . قلت : ويؤيد عبارة (فان برشم) ما جاء في ص ٢١٨ من (كتاب الاعتبار) : « أن حصن الجسر كان كثير الصيد ، يذهب إليه والد أسامة وأبناءؤه ، ومعهم البزاة والفهود والكلاب ، يصطادون الطيور والدواب التي قدمنا ذكرها ، وأنهم كانوا يعودون من الصيد ، وينزلون على بوشير ، وهو نهر صغير بالقرب من الحصن . فلو كان حصن الجسر في قرب القلعة كما ظننه بعضهم ، لما اقتربت طيور الصيد ودوابه ، كما أنه ليس في قرب الجسر الحالي نهر أو جدول يدعى بوشير ، بل جدول يدعى الفجرة يحصل من طغيان العاصي ، ويستحيل على أبي الحسن علي جد أسامة ، أن يبني مثل هذا الحصن في جوار القلعة لما كانت بيد الروم ، ثم يناوشهم منه » ، ويؤيد عبارة (فان برشم) أيضاً أبو الفداء في تاريخه (٢ / ٣٣) « من أن موضع حصن الجسر كان في زمنه تلاً خالياً من العارة ، وهو غربي شيزر ، على مسافة قريبة منها » .

هذا والواقف فوق سطح البرج ، يطل على مناظر عديدة ، منها في الشرق الهضبة العالية ، التي يفصل العاصي بينها وبين أكمة عرف الديك ، وكانت قواد الجيوش المحاصرة لشيزر ، تجعل مخيمها في هذا الموقع المشرف على القلعة ، وتنصب فيه المنجنيقات وتضربها منه ، وفي شرقي هذه الهضبة قبة فيها مسجد ، وضريح ينسب إلى أبي عبيدة ، وصوابه أن أبا عبيدة لما جاء ليفتح شيزر ، خيم فيه ، فاتخذه الناس بعد مقاماً له ، وبثوا هذا الضريح

وذلك المسجد . قيل إن في جدار المسجد حجراً زبرت عليه كتابة ، تدل على أن منشئ هذا المكان ، هو السلطان مراد بن السلطان سليمان العثماني ، الذي حكم بين سنتي ٩٨٣ - ١٠٠٣ هـ . وإذا تطلع الواقف نحو العاصي ، يراه خارجاً من الوهدة العميقة المحصورة بين الجبلين ، ليلقي السهل الفسيح الممتد في الغرب ، جارياً بهدير قوي ، لشدة الانحدار هنا . ويتجه النظر مع العاصي ومتعرجاته ، التي تكثر في هذه البقعة ، فيرى أزوار شيزر وقبتين بيضاوين ، تحتها مقام النبي أيوب (؟) ، في قريها حظيرة مزرعة لأحد سراة حماة ، وعلى بعد خمسة كيلو متر قرية التريسة وأزوارها ، وفي شاليها تل الطويل ، ولعله تل التلول الذي ذكر محرفاً في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، وبعدها قرية الصفصافة وجسر الفجرة ، ثم بطائح الغاب وآجامه ، وهي علة وخامة المرتع في هذه الربوع .

وفي السهول والتلعات الغربية والجنوبية ، الممتدة من قرب شيزر إلى سفح جبال النصيرية الغضراء ، الشاخنة كالجدار ، بين هذه البقاع والبحر ، قرى وضياح عديدة تتبع قضاء مصياف ، من أعمال حكومة اللاذقية ، أهلة بالنصيرية . نخص بالذكر منها في السهل تل سلحب ، وهي كبيرة مستوبلة ، تحيط بها بطائح الغاب من الشرق والشمال ، ودير شميل وسلوقية ، وجب رملة وكنفو ، وقرية دير شميل كانت من حصون الفرسان الأستاريين ، فيها دار حكومة منذ كانت قاعدة الناحية ، وفي شاليها حصن خراب ، نظن أنه حصن الخريبة ، الذي ذكر أسامة أنه كان عليه للإفرنج ديداناً ، يكشف مسلمي شيزر إذا أرادوا الإغارة على أفامية ، مع ملاحظة أن البعد بين هذا الحصن وشيزر ثلاثة عشر كيلو متراً . وفي غربي دير شميل على رأس أحد أذيال الجبل المرتفعة ، حصن آخر خراب أكبر من الأول ، يدعى أبا قبيس ، يطل على وادٍ يجري فيه نهر أبي قبيس ، أحد روافد الغاب . وقد مر ذكر هذا الحصن في تاريخ شيزر ، وهو أحد قلاع الدعوة الإسماعيلية المنتشرة في هذه الجبال منها - غير ماعدناه سابقاً - مصياف والكهف ، والعليقة والمنيقة ، وبكسراثيل وغيرها . وفي جنوبي دير شميل في طريق قلعة مصياف قرية اللقبة ، التي في قريها شلال كبير يدعى جاميدون ، يفتكر الحويون بجره إلى حماة للشرب . وفي سهول قضاء مصياف وجباله قرى كثيرة مما عدناه وغيره ، يقطن أكثرها النصيرية ، وأقلها الروم والسنية ، وفي مصياف وحدها الإسماعيلية ، وقد اشتهرت هذه القرى بعنبتها وتينها ، ودود حريرها ، وحراجها وينايعها المتدفقة .

هذا وبعد أن انتهت في ربيع سنة ١٣٥١ هـ من زيارة هذه القلعة ، والإحاطة بما وصفته آنفاً ، تأملت وأنا على سطح ذلك البرج ، في حاضر شيزر وغابرها ، ورحت في فضاء التفكير ، أجل قدر الذين انتقوا هذا الموقع الحربي الهائل ، وأنجّل المعارك الطاحنة التي كانت تدور تحت أقدامه بين الجيوش المحاصرة والمدافعة عنه ، وأكاد أسمع قراع الرماح ووقع السيوف ورنين القسي ، وأرى القتلى والجرحى ملؤوا السهل ، فجبلت هذه التربة الحمراء بدمائهم ، أو صبغ العاصي بها .

وأذكر الوقائع التي كانت تجري في هذه الضواحي لبني منقذ الأشاوس ، لاسيما لنا بغيتهم البطل العالم الشاعر أسامة صاحب (كتاب الاعتبار) ، وكيف كانوا شجراً في حلوق الروم والصليبيين ، يستبسلون رجالاً ونساءً في دفع غاراتهم ، وغارات الأعراب والإسماعيلية وغيرهم ، وكيف كانوا يصطادون (الأحجال والأرانب في الجبل قبلي البلد ، وطير الماء والدراج ، والبحامير والغزلان على العاصي ، في الأزوار غربي البلد) ، وأخيراً كيف قضت عليهم الزلازل ، فأفنتهم وخربت هذا الحصن الهائل المرأى ، فجعلته كما قال أسامة (متهيلاً مثل النقا المتهيل) ، وأتصور نور الدين محمود في سنة ٥٥٢ هـ ، والملك العزيز محمد صاحب حلب ، ومعه ابن عمه الملك المظفر محمود صاحب حماة في سنة ٦٣٠ هـ ، والملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ هـ ، والملك المنصور قلاوون في سنة ٦٧٩ هـ ، يأتون كل في يومه ووراءه وزراؤه وقواده وحرسه الخاص بزيته وأهنتهم ، يصعدون إلى هذه القلعة ، ليعاينوا مافعلته الزلازل والحروب في أسوارها وأبراجها ، ويتجولون بين أطلالها وركامها ، متأسفين ومحقلين ، فيأمرون بإحضار المهندسين والبنائين ، ليرموا ويجددوا مافعلته فيها طوارئ الحدثان . فتنفذ أوامرهم وتحقق رغائبهم فوراً . وتأمل بلدة شيزر السفلى ، ذات السور والأبواب الثلاثة ، والمتنزهات والبساتين والزروع ، والفواكه الكثيرة التي كانت فيها ، وأسأل كيف عفت عوادي الزمان رسومها ، فأصبحت ضويدة صغيرة وبيلة ، والبلدة العليا التي كان ينزلها أمراء وجنود أعزاء يعدون بالألوف . كيف أصبحت الآن كالأطلال الدارسة ، سكانها قلائل فلاحون ، بينهم بيت قديم يعرف بشيزري ، باعوا قريتهم وموئل سؤدهم لبعض سراة حماة ، فأصبحوا صعاليك مفاليك ، غاية في البؤس والجهل ، لاسيما في معرفة ماكانت عليه هذه القلعة ومن سادوا وشادوا فيها . فسبحان الذي يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء .

طريق شيزر - حماة

(٢٤ كيلو متراً)

بعد أن يصعد السائح من وادي شيزر ، يجتاز سهولاً شاسعة ، ذات تربة حمراء ، فيمر من غربي قرية كبيرة ، تدعى محردة قصبة ناحية الطار ، ذات دور حجرية بيضاء ، جميلة أهلها من طائفتي الروم والسريان ، يبلغون ثلاثة آلاف ، وهي قريبة من العاصي ، عرفت بجمال نسائها ، وإجادتهن السباحة في العاصي ، وبسعة كرومها الممتدة عن يمينها ويسارها ، وبأن أهلها على خلاف الصقيلية ، يشبهون بأزيائهم ولهجتهم قروبي الديار الحموية ، وفي شرقيها قرية كبيرة أخرى ، تدعى حلفايا ، أشير في إحدى الخرائط الحديثة إلى قناة ماء مندثرة تأتي إليها ، من حول قرية معر زاف ، وتسير شمالاً مجتازة العاصي إلى قرية اللطامنة فورك ، ولم أتحقق من صحة هذه الإشارة . والعاصي القادم من حماة ، بعد أن كان يتجه من الجنوب إلى الشمال ينعطف نحو الغرب بين قريتي حلفايا واللطامنة ، عند طاحونة الوعرة ، وبعد أن يجتاز من شمالي حلفايا ومحردة ، على مقربة منها ، يتجه نحو شيزر ، كل ذلك في وهاد سحيقة ومنعرجات عديدة . والباحث عن العاصي ويجراه في هذه الربوع ، لا يسعه إلا أن يتساءل عن موقع دير القديس مارون ، أبو الطائفة المارونية ، الذي قيل إنه كان على العاصي بين شيزر وحماة . قال عنه المسعودي في (كتاب التنبيه والأشراف) ص ١٦٣ : « شرقي حماة وشيزر ذو بنيان عظيم ، حوله أكثر من ثلاثئة صومعة ، فيها رهبان ، وكان فيه من آلاف الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم ، فخرّب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن ، وهو بقرب من نهر الأرنت نهر حص وأنطاكية » اهـ . والموارنة كما ذكرناه في بحث جبل اللكام آراميو الأصل ، كانوا يقيمون في وادي العاصي على مقربة من هذا الدير ، ثم انتشروا بين أفامية والمعرة وشيزر وحماة ، إلى أن زاحمهم السريان اليعاقبة ، واضطهدوهم فاضطروا قبيل الفتح الإسلامي أن يهاجروا في أزمنة متوالية إلى شمالي لبنان ، واتخذوه موطناً لهم . قال البلاذري في (فتوح البلدان) عنهم (ص ١٦٤) : « خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك ، فوجه صالح بن

علي بن عبد الله بن العباس من قاتل مقاتلتهم ، وأقر من بقي منهم على دينه ، وردهم إلى قراهم ، وأجلى قوماً من أهل لبنان » . ويظهر أن الروم البيزنطيين في القرن الأول للهجرة ، لما خربوا هذا الدير وذبحوا رهبانه ، عفوا رسومه بالكلية ، فأصبح لا يعرف له أثر ولا خبر ، ومن الغريب أن ياقوت لم يذكر في معجمه هذا الدير العظيم ، الذي كان له في القرن السادس والسابع الميلاديين شهرة ومكانة جليلتين ، مع أنه أفاض في وصف أديرة كثيرة ، اشتهرت في بلاد الشام ، منها ما كان خرباً ومنها ما كان مأهولاً بالرهبان .

هذا وبعد محردة يغادر السائح على يمينه ضياع عديدة ، منها تل سكين قعادة ومعرزاف ، وقد ذكرها أسامة بن منقذ في كتابه . وبعد المجدل يجتاز نهر الصاروت ، أحد روافد العاصي وعليه جسر قديم ، وهذا النهر يتألف من أودية وجداول ، تنحدر نحوه من أذيال جبل الكلبية بين بعرين ومصيف ، ثم يرى على يساره من الضياع الشير ، وعلى يمينه كفر أمين وتل سكين الصاروت ، وكفر الطون وتيزين ، وفي غربي هذه القرى ، يلمح التويم وأم الطيون ، وفي جنوبي تيزين الربيعة ومتنين . وفي تيزين أطلال عالية لقصر قديم ، قيل إنه كان مصيفاً للملك المظفر محمود .

وبعد أن يترك السائح على يساره ، قرى الشير وشيحا وأراضي معردفتين ، وعلى يمينه في سقي العاصي بساتين وغياض ملتفة ، تروى بالنواعير تدعى أزوار ، منها زور أبو زيد وزور الناصرية ، وزور الجديد وزور خطاب ، وأرزة ، يرى أمامه في وادي العاصي كازو ، وفي شرقيها قحانة والظاهرية ، تمر منها سكة حديد حماة - حلب ، وهكذا إلى أن يدخل أرض العشر ، ويمر من جوار محطة السكة الحديدية ومقابر حماة ، وأحيائها القريبة منها ، ثم يهبط وادي حماة المنخفض .

طريق حلب - حماة

يمكن أن يذهب السائح في يومنا من حلب إلى حماة في طريقين : الأول في السكة الحديدية (طولها ١٤٣ كيلو متراً) ، والثاني في الطريق المعبدة (طولها ١٤٨ كيلو متراً) . فالسكة بعد خروجها من حلب تمر بمحطات عديدة ، منها في (الكيلومتر ٢٩) محطة الحميدي ، ثم تدخل مطبخ قنسرين ، وتشطره إلى شطرين ، فتمر فيه في (الكيلومتر ٥٠) بتل الجينة ، وفي (الكيلومتر ٥٨) بأبي الضهور ، وهي محطة ذات مكانة عسكرية ، تجاه حركات البدو وتنقلهم ، ولذا قلما تخلو من الجنود ، ثم تدخل كورة العلا ، وتجتاز أوعارها وسهولها الشاسعة ، فتمر فيها في (الكيلومتر ٨٥) بأم الرجم ، وفي (الكيلومتر ١٠١) بالحدانية ، وفي (الكيلومتر ١١٥) بكوكب ، وهنا تنتهي كورة العلا ، وتدخل السكة ضاحية حماة ، فتمر في (الكيلومتر ١٢٩) بالمحانة ، ثم بعد أن تجتاز نهر العاصي فوق جسر كازو ، تمر بنشز يدعى الشرفة ، يطل على وادي حماة ؛ يرى فيه راكب القطار منظرًا رائعاً من مناظر حماة ، فيه عاصيها ونواعيرها الدائرة ، وبساتينها وقلعتها ، وأحياءها الشرقية والبراري الممتدة بعدها ، ولا يزال حتى يصل إلى محطة حماة في (الكيلومتر ١٤٣) .

والذي يفضل السيارة على القطار ، يسلك في يومنا الطريق المعبدة ، الآتية من الأسكندرونة ، وقد تقدم ذكرها في (ص ٧٦) ، فيمر في (الكيلومتر ٣) عن حلب ، بالطريق اللاحب الآخذ إلى قلعة جبل سمعان (دير القديس سمعان العمودي) وفي (الكيلومتر ٦) بضبعة بنيامين ، وهي على اليمين . وفي (الكيلومتر ٩) يهبط الوادي الذي فيه خان العسل وقريته ، وفي (الكيلومتر ٢٢) يجتاز أورم الكبرى ، وفي ٢٧ أورم الصغرى ، وهنا مفرق الطريق الذاهبة نحو الأسكندرونة ، وفي (الكيلومتر ٤٧) تفتناز ، وهنا أيضاً مفرق الطريق الذاهبة إلى إدلب وجسر الشجر واللاذقية ، وقد تقدم ذكرها في (ص ١٢٢) ، وبعد تفتناز تتجه الطريق نحو الجنوب ، ففي (الكيلومتر ٥٣) خربة

كبيرة تدعى تيزر ، كانت عامرة في القرن السابع أيام ياقوت ، قال عنها : « تيزر قرية كبيرة من أعمال سرمين ، وأهلها إسماعيلية ، وفي (الكيلو متر ٥٧) قرية أفز ، وفي (الكيلو متر ٦٢) على يسار الطريق سراقب ، وهي قرية كبيرة ، نازعت سرمين المكانة ، وجرت إليها طريق السيارات ، ثم مركز الناحية ، وبنت بلديتها في غربها ، على حافة الطريق ، بناء حديثاً للناحية ، وبعد سراقب ضيعة جوباس ، وفيها تل وبرج ، وبعد قليل في (الكيلو متر ٧٢) على اليسار قرية معردبسة ، وفي (الكيلو متر ٧٥) قرية خان السبيل ، وفيها خان كبير من الخانات القديمة المحصنة ، التي مدحها ابن جبير الأندلسي ، في أعلاه كتابة فيها اسم الملك الأشرف شعبان في سنة ٧٧٠ هـ ، وعلى يسار قنطرة بابه شبه كأس من الحجر ، وهو من شعار السلاطين المماليك ، والقنطرة مؤلفة من أعمدة حلزونية صغيرة ، كثيرة العدد ملتصقة ببعضها ، على شكل قوس جميل . وفي هذا الخان بابان صغيران ، الأول على يسار الباب الأصلي ، والثاني في داخل البناء الواسع المرتفع وراء الخان ، وكلاهما بنيا على النسق البيزنطي الجميل ، مما يدل على أنها غربيان ، نقلا إلى هنا من مكان آخر . وفي (الكيلو متر ٧٧) أطلال باب أيلة أو بايلا ، وفيها بقايا عضائد وعتبات ، وأسس جدران كثيرة ، ويظن أن عمران المعرة كان يصل إلى هذه الأطلال . ثم يتقدم السائر وهو يرى على يمينه هضاب جبل الزاوية ، وصخورها المتصدعة الرمادية الجرداء ، إلى أن يصل في (الكيلو متر ٨٢) إلى معرة النعمان .

وكانت القوافل في العصور الغابرة ، والمركبات التي أدركنها ، إذا خرجت من حلب قاصدة حماة ، تخرج من جهة أرض الفيض ، في جنوبي حلب إلى الغرب ، وتمر بقرية كبيرة من ضواحي حلب تدعى الأنصاري نسبة للصحابي عبد الله الأنصاري ، اشتهرت بسعة أرضها ، ومقدرة أهلها في الفلاحة ، ثم تجتاز تلعات وأودية صخرية جرداء ، إلى أن تصل إلى قرية طومان ، وفيها خانان قديمان كبيران ، الأول من القرن التاسع ، والثاني من القرن السابع الهجريين وكلاهما على وشك الدثور . وبعد خان طومان تمر الطريق بقرية الزربة ، وفيها مدير ناحية ومخفر لجند الدرك ، وفيها يلمح السائر في الجنوب جبل النبي عيص ، المطل على خربة مدينة قنسرين . ثم تنحرف الطريق نحو الجنوب ، مارة بضياح ذات أرضين حمراء أعذاء ، التي على اليسار تدعى (الية) من الأملاك الخاصة بالدولة ، والتابعة لشعبة قنسرين ، وسيأتي وصفها ، والتي على اليمين ، من عمل ناحية

سراقب ، التابعة قضاء أدلب . ولا تزال الطريق سائرة إلى أن تصل إلى سراقب ، التي تقدم ذكرها . وبعد أن ظلت هذه الطريق مجاز السيارات أيضاً إلى سنة ١٣٤٨ هـ ، رأت إدارة الأشغال العامة التي تعنى بالطرق ، أن تصل طريق حماة بطريق إدلب في تفتناز ، فعبدت ما بين سراقب وتفتناز ، وهجرت طريق خان طومان .

وفي العصور الغابرة كانت الجيوش الزاحفة من حلب نحو حماة وحص ودمشق تفضل الابتعاد عن طريق سراقب والمعرة ، مخافة الاصطدام مع حماة هذه البلاد العامرة ، ورغبة بالحصول على مياه ومراع لخيولها ، كانت تجددها متوفرة في طريق شرقية على سيف البادية ، وهي الخارجة من جنوبي حلب نحو شرقي مطخ قنسرين ، وشرقي كورة العلا ، حيث الآن من القرى : بلاس وكفر عبيد ، وبره ده والبياعيات ، ثم الخرايج وتل حلاوة ، والحراء وسلمية ، وسنذكر في بحث الحراء وسلمية ، أسباب تفضيل الجيوش هذه الطريق الشرقية على الغربية .

قنسرين : قنسرين بلدة تاريخية ، واقعة في سفح جبل النبي عيص ، الذي تقدم ذكره ، وهو جبل صغير يستطيل من الشرق إلى الغرب ، في ذروته قبة بيضاء كان أصلها بيعة خربة ، اتخذت بعد مدفناً لرجل زعموا أنه النبي عيص . وثمة قرية بيوتها قباب مخروطية ، يقطنها أعراب فلاحون تدعى العيص ، بنيت فوق أطلال مدينة قنسرين . قيل : إن لفظة قنسرين سريانية أصلها قنشرين ، ومعناه قن النور . وكانت هذه المدينة قاعدة كورة واسعة في شمالي الشام ، وكانت حلب من بعض أعمالها ، ذكرها ابن جبير في رحلته ، لما مر بها سنة ٥٧٩ هـ قال : « وقنسرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان ، لكنها خربت وعادت لم تغن بالأمس ، فلم يبق شيء من أثارها الدارسة ورسومها الطامسة ، ولكن قراها عامرة منتظمة ، لأنها على محرث عظيم ، مد البصر عرضاً وطولاً وتشبهها من البلاد الأندلسية جيان ، ولذلك يذكر أن أهل قنسرين عند استفتاح الأندلس نزلوا جيان ، تأسأ بشبه الوطن وتعللاً به ، مثل ما فعل في أكثر بلادها حسبها هو معروف » ا هـ . وقال أبو الفداء في (تقويم البلدان) : « قنسرين من قواعد الشام القديمة » وقال في (اللباب) « وقنسرين كان الجند تنزلها في ابتداء الإسلام ، ولم يكن لحلب معها ذكر . وكانت قنسرين من أجناد الشام ، ثم ضعفت بقوة حلب وخربت ،

وهي الآن قرية صغيرة ، وتحتها يصب نهر قويق في المطخ ، وربوة قنسرين مشرفة عليها ، ومنها إلى حلب مرحلة صغيرة « ا هـ .

قيل الذي بنى قنسرين (سلوقس نيكاتور) ودعاها Chalcis ad bellun ، أي شاليس العاصي ، تميزاً لها عن شاليس لبنان (مجدل عنجر ، شرقي البقاع) ، ومكانة قنسرين كانت ناشئة من بقائها حتى القرن السابع مر القوافل الزاهية من حلب إلى دمشق ، أو إلى أنطاكية ، حتى أن الرصيف الروماني بين أنطاكية وحلب ، الذي تقدم وصفه في الصفحة ٧٣ كان يمر بها . وكانت قنسرين مشرفة على كورة واسعة تدعى Chalci dème ، أي شالسيديا ، فيها أخصب سهول شمالي الشام ، زارها في سنة ٣٧٣ م القديس (جروم) ، فوجدها مدينة ذات مكانة كبرى ، غنية بغلاتها الزراعية وصادراتها التجارية ، وكان حصنها يحرس المدينة وأرباضها ، من غارات أعراب البادية ، وفي سنة ٥٥٠ - ٥٥٥ م بنى (يوستينانوس) سورها أو رممه . وفي سنة ١٧ هـ فتحت قنسرين على يد أبو عبيدة ، قال البلاذري في (فتوح البلدان) : « ثم أتى أبو عبيدة قنسرين ، وعلى مقدمته خالد بن الوليد فقاتله أهلها ، ثم لجؤوا إلى حصنهم ، وطلبوا الصلح ، فصالحهم أبو عبيدة على مثل صلح حمص ، وغلب المسلمون على أرضها وقرائها ، وكان حاضر قنسرين لتنوخ مند أول ماتنخوا بالشام نزله ، وهم في خيم الشعر ، ثم بنوا به المنازل ، فدعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم ، وأقام على النصرانية بنو سليح بن قضاة » . وقال في مكان آخر : « واستم أبو عبيدة أمر حمص فكانت حمص وقنسرين شيئاً واحداً » ثم قال « ولم تزل قنسرين وكورها مضومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية ، فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج وذواتها (كذا) جنداً ، فلما استخلف هرون الرشيد ، أفرد قنسرين بكورها ، فصير ذلك جنداً واحداً ، وأفرد منبج ودلوك ، ورعبان وقورس^(١) ، وأنطاكية وتيزين ، وسماها العواصم لأن المسلمين يعتصمون بها ، فتعصمهم وتمنعهم ، إذا انصرفوا من غزوهم ، وخرجوا من الثغر ، وجعل مدينة العواصم منبج » ا هـ . وقال ياقوت في معجمه « وسمي الجند جنداً لأنه جمع كورة ، والتجنيد التجميع ، وقيل سميت كل ناحية جنداً ، لأنهم كانوا يقبضون فيه أعطيائهم ، إلخ ...

(١) دلوك ورعبان وقورس حصون كانت قرب مدينتي عينتاب وكليس ، داخل الحدود التركية في يومنا .

فيستدل من هذا ، أن الأمويين والعباسيين لما رأوا مالموقع قنسرين الجغرافي من المكانة ، اتخذوها مركزاً لجيوش المسلمين ، المراقبة في شمالي الشام ، ودعوا البلاد المرتبطة بها جند قنسرين ، أو بعبارة عصرنا الحالي (منطقة قنسرين العسكرية) . ولم تنزل قنسرين عامرة أهلة ، وحلب تابعتها ، تتقلب عليها الولاة من الأمويين والعباسيين ، وثب أهلها في سنة ٩٥ هـ فعوقبوا ، وفي سنة ١٥٠ هـ في خلافة المنصور ضربت فيها سكة وفي سنة ٣٣٣ هـ تواقع في أرضها سيف الدولة بن حمدان والأخشيذ محمد بن طنج ، قيل لم يظفر أحد العسكريين بالآخر ، وقيل إن الدائرة دارت على سيف الدولة ، ودخل الأخشيذ حلب ، وعاث أصحابه في أنحائها . وفي سنة ٣٥١ هـ استولى الروم على حلب ، لعجز سيف الدولة يومئذ ، وقتلوا جميع من كان بربضها ، فخاف أهل قنسرين ، وتفرقوا في البلاد ، فطائفة عبرت الفرات ، وطائفة نقلها سيف الدولة بن حمدان إلى حلب ، كثر بهم من بقي من أهلها . قال ياقوت بعد أن ذكر ذلك : « وليس بها اليوم (أوائل القرن السابع) إلا خان ينزله القوافل وعشار السلطان وفريضة صغيرة » . وقال بعضهم : « كان خراب قنسرين في سنة ٣٥٥ هـ ، قبل موت سيف الدولة بأشهر ، كان قد خرج إليها ملك الروم ، وعجز سيف الدولة عن لقاءه ، فأمال عنه فجاء إلى قنسرين وخربها ، وأحرق مساجدها ولم تعمر بعد ذلك ، وحاضر قنسرين بلدة باقية إلى الآن » ا هـ . وفي سنة ٥٦٤ هـ نقل نور الدين محمود أعمدة سورها إلى جامع حلب ، ولم تنزل قنسرين خراباً يباباً ، إلى أت عمريت فوق رسومها الطامسة قرية ، لما أسست إدارة المزارع السلطانية ، المعروفة في يومنا باسم (أملاك الدولة) في أواخر عهد السلطان عبد الحميد فيما قيل ، وسميت العيص ، باسم النبي الذي يزعمون أن ضريحه في ذروة الجبل المجاور لها ، وتنوسي اسم قنسرين ، إلا من أحد أبواب حلب ، الذي كان يخرج منه قاصدوها .

وأثار قنسرين الدارسة ، تمتد على مسافة بعيدة في سفح جبل النبي عيص ، من جنوبه وشرقه ، إلى قرب جسر برنة على نهر قويق ، تدل أسس جدرانها العريضة وكسور أعمدتها الضخمة ، على أنها كانت مدينة عظيمة ، ذات عمران وازدهار غير يسيرين . وفي جنوبي هذه المدينة تل صناعي يعلو نحو خمسين متراً ، يشرف في جنوبه وشرقه على سهل المطخ الأفيح ، ويشرف في غربه على ضياع البقعة المرتفعة الحمراء الشاسعة التي يطؤها قاصد قنسرين من سراقب ، واسمها في عرف أعراب هذه الديار (البية) ، وفي جنوبه على

- ١٧٧ -

جولة أثرية (١٢)

مناطق المطخ ومروجه - لما كانت فيه مناطق ومروج - ، وما بعد المطخ من تلععات كورة العلا وهضباتها ، وفي شرقيه يلمح السكة الحديدية القادمة من حماة نحو حلب ، وبعدها السهل الفيح الممتدة من المطخ إلى حضيض جبل الأحص ، الواقف على ضعته ، كالجدار في الأفق الشرقي ، وقد كان قوق تل قنسرين حصن دثر ، وسطح هذا التل متسع مستو ، يحيط به سور عريض ، كانت أسس جدرانه ماثلة ، لما زرته سنة ١٣٤٥ هـ ، رغم انكباب أهل قرية العيس على قلع أحجارها لبناء دورهم بها . ويلحظ الباحث أن هذا السور كان محصناً في زواياه بالأبراج والقلل المربعة ، وأنه كان في داخل السور مساكن وأزقة ، لاتزال خططها مشهودة . وفي الجهة الشرقية ينفصل عن سور الحصن جدار مستقيم ، ينحدر في لحف التل ، وكان هذا الجدار يحيط بالمدينة السفلى من جهة الجنوب ، وكانت هذه المدينة تصل إلى أول مرتفعات جبل النبي عيص ، وكذلك في الجهة الشمالية ينفصل جدار آخر يمتد نحو الشمال ، حتى يصل إلى سفح الجبل المذكور ، ولا يزال أساس هذا الجدار ماثلاً للعيان . وكان الجداران المذكوران يؤلفان قسماً من سور المدينة ، الذي قد دثرت بقية أقسامه ، وهو من بناء (يوستنيانوس) . وفي كل المنحدر القبلي لجبل النبي عيص حفر الأقدمون مقالع جسية ، فيها كثير من المداخن . وقد تقرت الصخور ، حتى صارت كالمصفاة التي لاتعد ثقوبها ولا تحصي ، وكل منها مدخل لمدفن في جوف الصخر ، ويظهر أن استئثار المقالع كان قبل وجود هذه المداخن . وفي غربي القرية الحالية ضريح تحت قبة قديمة ، زعموا أن ضريح الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ، المعروف أنه مات في دابق شمالي حلب ودفن فيها ، ولما سألتهم البرهان على زعمهم وجوا ، ثم قالوا : إن حجرة كانت على عتبة باب هذا الضريح رفعت ونقلت ، قلت إذن لعله أحد ولاية جند قنسرين في زمن بني أمية .

ومطخ قنسرين بطيحة في جنوبي قنسرين ، منخفضة عما حولها ، تتجازها السكة الحديدية الآتية من حماة إلى حلب ، تصب فيها فضلة مياه نهر قويق حينما كان له شأن وحياة ، فتصل هذه المياه إلى حيث لاتجد لها منصرفاً ، تستمر فيه بحكم ارتفاع الأرضين المحيطة بالمطخ ، فتستغدر خلال الشتاء ، وتنبطح إلى مسافات شاسعة ، تظهر للرائي كالبحر الخضم ، فيروي فلاحو ضياع المطخ منها زروعهم الشتوية ، وإذا أقبل الربيع تغور وتجف ، فيزرعون أماكنها قطناً وذرة وغيرها ، فتجود أي جودة ، لكن المياه المستغدرة

تنبت فيها الأعشاب المائية ، وتنمو أسراب البعوض المسببة لحى البرداء ، فيقع أهل ضياع المطبخ في براثنها ، لذلك تراه صفر الوجوه ، هزلى من وبال المرتع ، وليست كل مياه المطبخ من قويق وحده ، بل في جنوبه وإد يأتى من أنحاء المعرة يدعى الهرماس ، يحمل سيول جبل الزاوية ، وفي شماله الغربي وإد آخر ، يأتى من قرية برقوم وما حولها ، هذا عدا عن العيون الغزيرة الدائمة ، في قرى تل طوقان وتل السلطان ، ورأس العين وتل كلبة وغيرها ، وكلها مما يزيد طينة المطبخ بلة . وتقدر مساحة المطبخ بعشرين ألف هكتار ، وترتبه طينية رملية حارة ، تخصب إذا غرثها مياه قويق وغيرها . وروتها ، وإلا فالجذب واقع لاحالة ، إذ لاتقنع هذه التربة بمياه المطر منها هطلت . لأنها تربة قعر بحيرة ، تتشقق وتبتلع كميات عظيمة من الماء . وقد تهادى هذا الجذب في يومنا منذ سنة ١٣٤٥ هـ ، وقل ورود مياه الأودية التي عددناها ، وانقطع قويق بالمرّة ، بعد أن استبد به الترك في ينايره العليا في أنحاء عينتاب ، ولم يبق له سوى بعض العيون في شمالي حلب وقبليها وهي غير كافية ، وقويق في إبان مجده كان ضعيفاً ، يستهزئ به الشعراء قائلين :

إذا ما الضفادع نادينه قويق قويق أبى أن يجييا
وتمشي الجراد فيـه فلا تكاد قوائمهـا أن تغييا

فما بالك الآن ، وقد صار هو وسهل المطبخ في خبر كان ، وساء حال فلاحي هذا السهل الخصب ، وصاروا يتمنون وبال المرتع ، الذي زال بزوال الماء ، وعندهم الهزال مع الرزق المقنع ، أفضل من الصحة مع الفقر المدقع .

وأجل ضياع المطبخ التي كانت تتمتع بمياه قويق ، وتزكم زروعها بفضلها ، العيس وبانص ، وتليلات ووريدة ، وتل باجر والعزيزية ، ومكحلة ومريودة ، وتل ممو والحوير ، والزيرة وتل علوش ، ودريكية (وصاحب هذه حلبي ، يستعمل في زراعته الأساليب والآلات الإفرنجية الحديثة) ، وأم القراميل . وفي أطراف المطبخ ضياع أخرى تستفيد من هذه المياه إذا فاضت عن الضياع الأولى ، كزمار وجزرايا ، وعثانية وتل عقارب ، وتل الوز وتل الفخار ، وبراغيدي والواسطة ، وطرفاوي وكفر حداد ، والعطشانتين الشرقية والغربية ، ودلامة والتويم . وفي جنوبي المطبخ ، ضياع غنية بالينابيع والعيون السارية ، كالطويحيني وأبي الظهور ، وتل السلطان وتل الطوقان ورأس العين .

وتلوث ضياع المطبخ صناعية ، كانت فيما مضى عامرة بالقرى أو الحصون ، أجلها مساحة وقدراً تل السلطان ، الذي كان في القرون الغابرة منزل بعض الجيوش الزاحفة نحو حلب ، والخارجة منها لوفرة الينابيع والمروج الممتدة حوله ، ذكر ياقوت « أن فيه خاناً ومنزلاً للقوافل ، وأنه كان يعرف بالفنيدق ، وفيه كانت وقعات ، أولها في سنة ٤٥٢ هـ ، بين (ناصر الدولة بن حمدان) الذي أرسله الفاطميون لاستخلاص حلب من يد (محمود بن نصر بن مرداس) ، وكانت الدائرة على ناصر الدولة ، ولما جاء السلطان ملك شاه السلجوقي إلى شمالي الشام نزل فيه ، في سنة ٤٧٩ هـ برهة ، فدعي من ذلك الحين بتل السلطان . والوقعة الثانية في سنة ٤٨٧ هـ بين تاج الدولة (تتش السلجوقي) الذي جاء من دمشق لفتح حلب ، وبين (آق سنقر أبي عماد الدين زنكي) وحلفائه ، وكانت الدائرة على آق سنقر ، أسر فيها وقتل ، قيل إن ملتقاهم كان عند نهر سبعين ، قريباً من تل السلطان على ستة فراسخ من حلب (أبو الفداء ٢ / ٢١٤) ، ولا يعرف الآن هناك نهر باسم سبعين ، فهل هو النهر الذي ينبع قرب تل السلطان ، ويغور في المطبخ ؟ والوقعة الثالثة في سنة ٥٧١ هـ بين السلطان (صلاح الدين الأيوبي) و (سيف الدين غازي) بن مودود بن عماد الدين زنكي ، وكانت الدائرة على سيف الدين ، واشتهر تل الطوقان بهذا الاسم فيما زعموا ، لحدوث معركة قبل قرن أو قرنين بين قبيلة الموالي وفريق من الأعراب يدعون الطوقان ، سمي التل باسمهم ، ثم بعد المعركة انضم الطوقان إلى الموالي ، وصاروا من أبنائهم وما برحوا .

وفلاحو قرى المطبخ أعراب ، يزعمون أن منشأهم من سقي الفرات وأزواره ، وهم ينتسبون إلى قبائل وأفناد شتى ، لاصلة بينها ، منها الشاهر وزويفات ، ومداهيش والأبو شيخ ، والأبوليل والأبوشعبان ، إلخ ... وأجل هذه الأفناد شأناً ، تلك التي تنتمي إلى قبيلة الحديديين ، وتعد من (اللحقة) المضومة إليها ، كالأبرز والأبو شهاب الدين والأبو عاص . وشيخ الحديديين الأكبر نواف الصالح ، يقطن في قريته طويحيني (جنوبي المطبخ) ، وحوله أبناء عشيرته الأقربين آل إبراهيم . وكان أبوه صالح وجدته جرخ إبراهيم ، يقطنان في زمنها في ضيعة تدعى البويدر في سيف البادية إلى الشرق الجنوبي من المطبخ .

هذا ولا يسع الملاحظ حالة هذا المطبخ الغابرة والحاضرة ، إلا أن يسأل كيف كانت قراه إبان عمران قنسرين وازدهارها ، وحالة مجاري الري المشتقة من قويق في تلك الأعصر ، ومقادير الغلال والمنافع التي أوجبت إنشاء هذه التلول الصناعية الضخمة فيه ، وكيف كان (الحرث العظيم مد البصر طويلاً وعرضاً) الذي أدركه الرحالة ابن جبير (القرن السادس) ، وكيف أصبح المطبخ الآن خلال السنوات الأخيرة ، غير المطبخ الذي أدركناه قبل عشر سنوات ، جفاف بعد ري ، وجذب بعد خصب ، ونقاء هواء بعد وخامته ، ترى أيDOM هذا الحال سنين طوال ، أم هو عرضي وقي ؟ ثم لا يسع الملاحظ إلا أن يعجب بتسمية ياقوت المطبخ بأجم ، قال : « أجم بالتحريك ، موضع بالشام قرب الفرديس [؟] من نواحي حلب » . قال المتنبي

الراجع الخيل محفاة مقودة من كل مثل وبارشكها أرم
كتل بطريق المغرور ساكنها بأن دارك قنسرين والأجم
والأجم في اللغة مكان الشجر الملتف ، أو النبت الناهض المنتشر ، فهل كان المطبخ في عهد المتنبي (القرن الرابع) وياقوت (القرن السابع) غير مزروع ، مهملاً حتى نمت فيه الأشجار والأشواك والتفت ؟ وكيف نوفق بين قولها هذا وبين قول ابن جبير عن عمل قنسرين « الحرث العظيم مد البصر طويلاً وعرضاً » ؟

وفي غربي المطبخ بقعة مرتفعة ، ذات أرضين حمراء أعذاء ، تدعى في عرف أهلها ، وهم أعراب أيضاً (الية) بتشديد الميم ، وهي أنقى هواء من المطبخ ، فيها ضياع عديدة ، كرم قنسرين وأم عتبة ، وطلافح وسلامين ، وخواري وأباد ، وتل باجر ودهبية . وغيرها مما يمتد جنوباً إلى حدود كورة العلا . وفي شرقي المطبخ أيضاً ، سهول شاسعة تمتد إلى سفح جبل الأحص ، تتخللها بضع أكبات وتلعات ، انتشر فيها كثير من الضياع ، كانت تخصب تربتها الصفراء ، في سني الإقبال أي خصب ، أشهرها من الشمال إلى الجنوب ، كفر عبيد وبره ده ، وبلاس والبويضة ، ومشرفة الحلاج والجفرة ، وغراريقة وتل ماسح ، وهذه ذكرها ياقوت قال : « تل ماسح قرية من نواحي حلب » اهـ . ولا يزال فيها أطلال وآثار تدل على قدمها ، ولها ذكر في تاريخ سيف الدولة بن حمدان ، مر بها سنة ٣٤٤ هـ حينما قصد بني كلاب وغيرهم ، من أعراب البادية الذين عصوا عليه وتكل بهم .

وجميع هذه الضياع التي عددها ، في المطخ وفي غربيه وشرقيه ، من (أملاك الدولة) التي ذكرناها ، وكان لها إدارة خاصة تدعى شعبة ، كان مركز موظفيها الأخير في محطة أبي الظهور . وفي جنوبي ضياع أملاك الدولة هذه ، تمتد في الشرق إلى حدود البادية ضياع أخرى عديدة ، أحصاها البياعية الكبيرة والبياعية الصغيرة ، وبويدر وحرملة ، والخرايج وغيرها ، وأهل هذه الضياع أيضاً أعراب ، ينتهي أكثرهم إلى الحديديين ، وثمة في بعض ضياع أملاك الدولة ، كأرجل ورجيلات ، أعراب يدعون للهييب ، ينتنون إلى الموالي ، اشتهروا بالشراسة والصوصية .

وقاصد الوصول من حلب إلى قنسرين ، يخرج من أحد أبواب حلب الأثرية المسمى باب قنسرين ، ويجتاز نهر قويق في الشمال الغربي من قرية الشيخ سعيد ، ثم يعلو أكمة فيها قرية المغارة ، ثم يجتاز سهلاً يلمح في يمينه عن بعد قريتي زيتان وقلعجية ، إلى أن يجتاز نهر قويق مرة أخرى فوق جسر برنة ، في غربيه قرية برنة ، وفي شرقيه قرية الحاضر ، وهي حاضر طيء ، أو حاضر قنسرين ، التي يقول فيها أحد الشعراء :

سقى الله إخواناً ورأى تركتهم بحاضر قنشرين من سبل القطر
وذكر ياقوت موضع في هذه الأنحاء أسماء الفراديس ، وليس له الآن رسم ، ولا
اسم ، قال : « الفراديس موضعاً قرب حلب بين برية خساف (؟) ، وحاضر طيء من
أعمال قنشرين » وإياها عن المتنبي بقوله ، وقد اجتاز بها فسمع زئير الأسود ، فقال :

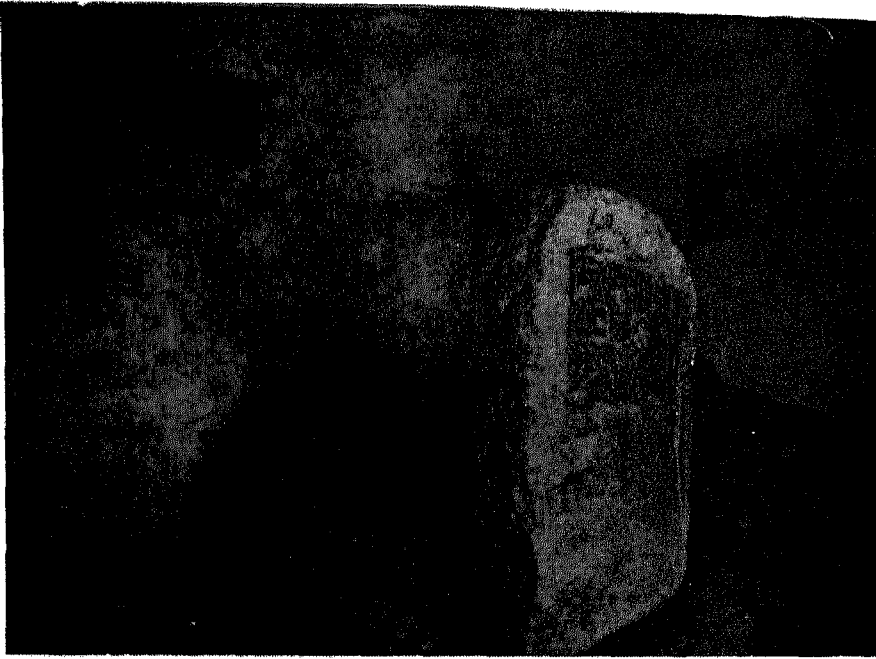
أجارك يا أسد الفرديس مكرم
ورائي وقدامي عداة كثيرة

فتسكن نفسي أم مهملان فسلم
أحاذر من لص ومنك ومنهم

المعرة : المعرة بليدة بنيت على نثر ، يتصل في الغرب بالتلعات الصاعدة نحو جبل الزاوية ، وتحيط بها من بقية جهاتها أودية وسهول ، كانت فيما مضى مغارس للتين والزيتون ، والفسق واللوز ، لم يبق من ذلك إلا أثر ضئيل ، والفسق فقد بالمرّة . وهيئة المعرة تماثل حلب ، على نسبة مصغرة ، لتشابه دورها الحجرية الشهباء ، ويبلغ عدد سكانها نحو ٥٠٠٠ مسلمون ، وفيها دار حديثة لحكومة القضاء ، بنيت في جانبها الشرقي ، وجوامع ومساجد عديدة ، أجلها شأناً الجامع الكبير ، وأربع حمامات ومعاصر للزيت ، ومطاحن تدار بالدواب ، وسوق صغير له قناطر ، وأحيائها وأزقتها مبلمطة ، وفيها عدة

سباييط ، ولا تخلو ناحية فيها من الأنقاض الأثرية ، المستعملة في تضاعيف المباني ، أخصها تيجان أعمدة من كل الأشكال المعروفة ، كما أنه مامن محل يحفر في المعرة إلا وتظهر فيه أسس جدران وكسور أحجار وخزف تدل على أن البلدة الحالية مبنية فوق أنقاض المعرة القديمة التي خربت مراراً كما سنبينه في تاريخها .

وفي المعرة أثران عربيان كأنهما من صنع معمار واحد ، الأول مأذنة الجامع الكبير ، والثاني المدرسة الشافعية . وثمة في شرقي البلد خان كبير ، على بابه كتابة فيها : قد بنى هذا الخان لوجه الله تعالى ، حامي دفاتر ديوان السلطان (مراد جلبي) فن ينعم فقيراً ودوابه شتى ، فعليه لعنة الله والناس بطرق شتى ، سنة ٩٧١ هـ ، وثمة خان آخر يدعى خان (أسعد باشا العظم) أحدث من الأول ، فهو من عام ١١٩٦ هـ ، وفي المعرة جامع فيه مقام للنبي يوشع ، وجامع آخر فيه غار ، يشتمل على قبر عطا الله بن رباح ، حامل لواء النبي ﷺ ، أما الجامع الكبير ، فواقع في منخفض ، يهبط إليه بدرج عريض ، وهو يشبه في جملة الجامع النوري في حمص ، إلا أن مأذنته أجمل وأبدع ، تشبه مأذنة الجامع الأموي في حلب . وهي من سنة ٤٢٧ هـ ، مربعة الأضلاع ، ومؤلفة من سبعة أبراج ، نقش عليها كتابات عديدة ، تعذر قراءتها كلها ، فالأولى بقلم ريجاني ، والثانية التي في البرج الثالث تحوي (محمد بن قانت بن قاهر بن علي) ، والثالثة في البرج السابع ، وعلو هذه الأبراج متساو فيما يظهر ، فهو في كل منها ٣,٨٥ متراً ، فيكون علو المأذنة كلها ٢٦,٩٥ متراً . وفي صحن الجامع حوض كبير للوضوء ، مغطى بسقف كالقبة ، له أعمدة بيزنطية جميلة ، وحوض آخر قديم ، اتخذ مزولة . أما المدرسة الشافعية ، فلها باب يشبه باب البيمارستان النوري في حلب ، وعليه كتابة تاريخها ٥٩٥ هـ ، واسم الملك المنصور ناصر الدين صاحب حماة . وفي داخل المدرسة غرفة سقفاها قبة مزخرفة ، وعلى قنطرة الباب حجارة ضخمة طويلة ، متنوعة الألوان ألصقت ببعضها ، واستدارت حول القنطرة في شكل جميل . وأجل أثر في المعرة يستحق الزيارة ، هو ضريح الفيلسوف العربي ، الطائر الصيت أبي العلاء المعري التنوخي (٣٦٧ - ٤٤٩ هـ) ، يقع في بناء قديم خال عن كل بهاء ، من يزره يتصور صاحبه العظيم بشكله الذي أودعه الواصفون ترجمته . والضريح في غرفة منه صغيرة ، كتب على شاهدته بالكوفية (أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان) ، وفي جدار هذه الغرفة خط هذان البيتان :



ضريح أبي العلاء المعري

(عن مجلة العاديات الحلبية)

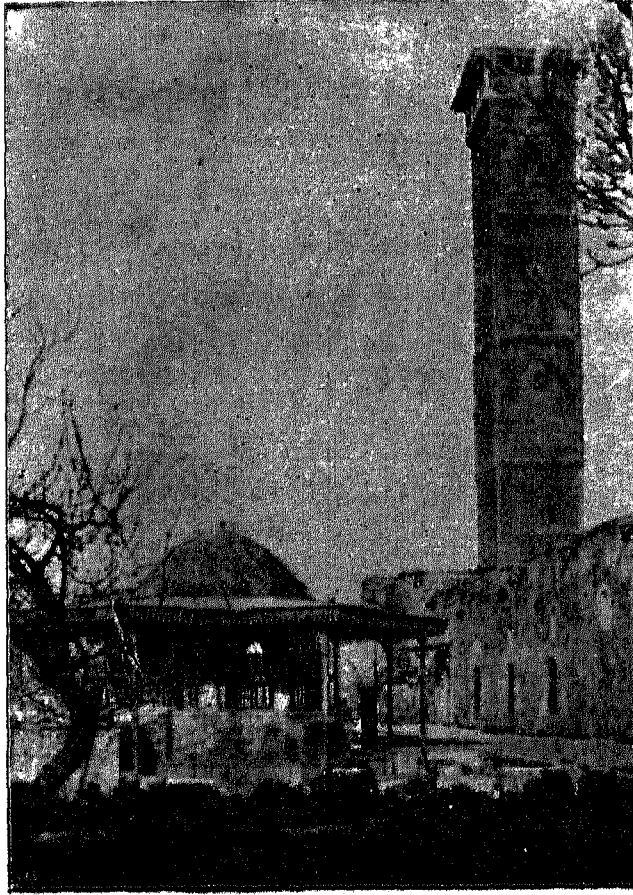
قد كان صاحب هذا القبر جوهرة نفيسة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيرته منه إلى الصدف

وفي غربي المعرة ، وعلى مقربة منها ، قامت قلعتها ، فوق أكمة مرتفعة ، منفصلة عما
حولها ، قيل إنها كانت فيما مضى وسط البلدة ، وهي الآن خراب ، آخر من رممها وأحكم
صنعها في سنة ٦٣١ هـ الملك المظفر بن الملك المنصور صاحب حماة ، ثم خربها الملك العزيز
صاحب حلب نكاية به ، لهذا لم يبق فيها الآن سوى جدران متوهنة ، وأطلال دارسة ،
انتشرت بينها دور لبعض الفلاحين هي أشبه بأحجار الضواري ، منها بمساكن بشر ، وثمة
جامع قديم في وسطه حجر منقوش نقشاً جليلاً ، هذا وأطلال أسوار المعرة ، تدل على أنها
كانت بلدة عظيمة ، وكان لها من جهة القلعة باب يدعى باب النبي شيث ، ومن جهة
الشمال باب أيلة ، وهو الآن بعيد في طريق حلب ، وسيأتي ذكره ، ومن جهة الشرق باب
منس ، لأنه يخرج منه إلى منس ، وهي قرية معروفة في كورة العلا ، كان ظهر فيها
عاديات زجاجية وأسس ضخمة ، ومن جهة القبلة باب آخر يدعى باب نصره ، عنده تل
كبير ، زعموا أن فيه كنزاً . وقال آخرون ، إن المعرة كان فيها في عهد السلاطين المماليك
سبعة أبواب : باب حلب والباب الكبير وباب شيث وباب البستان وبابان باسم حصص ،
وماء المعرة من الآبار ، وهي عميقة جداً ، أو من ماء المطر المخزون في الصهاريج ، وهو أقل
من حاجتها ، واستخراجه غير يسير ، ولم أدر ما الذي حدا بأبي العلاء لمدحه ، لما كان في
العراق في قوله :

ياماء دجلة ما أراك تلذلي شوقاً كما معرة النعمان

ولعل ذلك من نتائج حنينه لوطنه ، وفي رواية يعسر تصديقها ، أنهم جلبوا له بعد
قوله هذا ماء من المعرة ، فلما ذاقه عرفه فقال : هذا ماءؤها فأين هواؤها ؟

وفي شرقي المعرة على بعد نحو عشرة كيلو متر منها ، ضيعتان متجاورتان تدعى
إحداها الدير الشرقي ، والثانية الدير الغربي ، في الشرقي منها ضريح يقال إنه ضريح
الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، زرته في ربيع سنة ١٣٥٠ هـ ، فوجدته تملؤه قبة
مكشوفة الجوانب ، ولم أجد فيه كتابة ، تؤيد اسم صاحب الضريح ، إن كان عمر بن
عبد العزيز حقاً أم غيره . والضريح مهممل غير معتنى به ، أحاطت به الأشواك



الجامع الكبير في مكة (عن مجلة العاديات الحلبية)

والأعشاب ، واعترى الوهن أحجاره ، شأن جل أرضحة أسلافنا وعظائنا ، الذين شادوا لنا هذا المجد التليد ، فبخسناهم حقهم ، ومن الغريب أن يموت الخليفة المذكور في خناصرة التي كان يقوم فيها ويدفن بدير سمعان ، على أن أبا الفداء يقول في تاريخه : (١ / ٢١٢) « وقيل توفي بدير سمعان ودفن به ، قال القاضي جمال الدين بن واصل ، والظاهر عندي ، أن دير سمعان هو المعروف الآن بدير النقيرة ، من عمل معرة النعمان ، وأن قبره هو هذا المشهور » اهـ . فيظهر من ذلك ، أن ضيعتي الدير الشرقي والدير الغربي كان فيهما ديران ، أو دير باسم دير سمعان أو دير النقيرة ، وذكر ياقوت دير النقيرة ، وأنه في جبل قرب المعرة ، وأن فيه قبر للشيخ أبي زكريا يحيى المغربي الصالح ، وأنه يزار في أيام ياقوت ، وقد زاره صلاح الدين الأيوبي حياً ، في عوده إلى حلب سنة ٥٨٤ هـ ، فكيف السبيل لحل هذا التناقض ، وتحقيق صحة دفن عمر بن عبد العزيز ، هل كان في المعرة أم في حص التي له في شرقها أيضاً ضريح باسمه ، وسمعان هذا من قديسي النصارى ، وله عدة أديرة بنيت على اسمه ، منها هذا الذي ذكرناه ، وآخر في أنحاء أنطاكية ، جنوبي السويدية على البحر ، ومنه يصعد إلى الجبل الأقرع ، وثالث في جبل سمعان الذي تقدم ذكره في الصفحة ٧٦

وإليك مقالته الرحالون والجغرافيون عن المعرة : قال (ناصر خسرو الفارسي) في القرن الخامس سنة ٤٢٨ هـ « وبعد ستة فراسخ من سرمين ، تقول لك معرة النعمان . هاأنذه ، وهي مدينة أهلة بالسكان كثيراً ، ويحيط بها سور من حجر ، وشاهدت بالقرب من هذه المدينة ، سارية من الحجر زبرت عليها كتابة بحروف ليست بعربية ، فسألت أحدهم عن ذلك ، فأجابني أن هذا طلسم يحول دون العقارب ودخول المدينة والبقاء فيها . فإذا جيء بعقرب من الخارج ، وأطلق يفر ويبتعد ، وقدرت أن هذه السارية كان علوها عشرة أرش (لعله ذراع) . وأسواق المعرة طافحة بالأرزاق والخيرات ، وجامعها الأعظم مبني على أكمة ، قامت وسط المدينة ، ومن أي جهة اتجهت إلى هذا الجامع ، كان عليك أن ترتقي سلباً ذا ثلاث عشرة درجة ، ولا يزرع في هذه الجهات إلا الحنطة ، وتغل غلة حسنة ، ويكثر في قراها أشجار الزيتون والتين ، والفسق واللوز والكرمة ، ومياه المعرة تجمع من المطر ، أو تمتاح من الآبار » ، إلى آخر ما ذكره عن أبي العلاء ، وكان حياً يرزق آنئذ . وقال ابن جبير في القرن السادس في رحلته سنة ٥٨٨ هـ بعد أن غادر قنسرين : « ثم

نزلنا بموضع يعرف بباقدين ، في خان كبير ، يعرف بخان التركان^(١) وثيق الحصانة ، وخانات هذا الطريق كأنها القلاع ، امتناعاً وحصانة ، وأبوابها حديد ، وهي من الوثاقة في غاية . ثم رحلنا إلى أن رأينا عن يمين طريقنا المعرة ، وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين ، والفسق وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها ، وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً « ا هـ . وقال ياقوت في القرن السابع « معرة النعمان مدينة كبيرة ، قديمة مشهورة ، من أعمال حصص ، بين حلب وحماة ، مأوهم من الآبار ، وعندهم الزيتون الكثير والتين . ونعمان هو النعمان بن بشير الصحابي ، اجتازها فمات له ولد بها فدفعه ، وأقام عليه فسميت به . وهذا في رأيي سبب ضعيف ، ولا تسمى بمثله مدينة ، والذي أظنه أنها مسماة بالنعمان وهو الملقب بالساطع بن عدي . وفي جانب سورها ، في قبلي البلد قبر يوشع بن نون عليه السلام ، في بركة فيما قيل ، والصحيح أن يوشع بأرض نابلس ، وبالمعرة أيضاً قبر عبد الله بن عمار بن ياسر الصحابي « ا هـ . وقال ابن بطوطة في القرن الثامن في رحلته سنة ٧٢٥ هـ : « والمعرة مدينة صغيرة ، أكثر شجرها الزيتون والفسق ، ومنها يحمل إلى مصر والشام ، وبخارجها على فرسخ منها ، قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ولا زاوية عليه ولا خدم له ، وسبب ذلك أنه وقع في بلاد صنف من الرافضة أرجاس ، يبغضون العشرة من الصحابة ، ويبغضون كل من اسمه عمر ، وخصوصاً عمر بن عبد العزيز ، لما كان في فعله في تعظيم علي » . وفي نهاية الأرب في أخبار العرب للقلقشندي : « ذكر الحمداني أن المعرة من بلاد الشام ، هي صليبية تنوخ ، وأن تنوخ حي من الين من القحطانية ، وأنهم سموها بذلك ، لأنهم حلفوا على المقام بمكان الشام ، والتنوخ المقام ، ومعنى صليبية تنوخ أن بها جمعهم المستكثر » . وقال شيخ الربوة في القرن الثامن أيضاً : « معرة النعمان وتعرف بذات القصرين ، ولها عمل من أحسن الأعمال ، وهو شعراء ممدودة ، وغالب شجرها التين والفسق ، واللوز والمشمش ، والزيتون والرمان ، والتفاح وكثير من الفواكه ، وسائرها يشرب من ماء السماء ، لا يعتنى في فلاحه بأكثر من الحرث تحته ، وجبل السماق من أعمار الأرض وأعملها فلاحاً ، من رآه ورأى الأندلس ، لم يفرق بين فلاحتها وفلاحة الأندلس » ا هـ .

(١) لم يتسن لي تحقيق موقع هذه القرية وخانها ، فهل هو خان السبيل الحالي ؟

واسم المعرة قبل الإسلام كان عرة arra ، ثم صارت معرة ، وفي العهد الإسلامي ضيف إليها كلمة النعمان ، لسبب اختلاف الروايات في تعليقه ، كما اختلفت أيضاً بتسميتها بمعرة حمص ، وبذات القصور ، أو بذات القصرين ، بيد أن جميع المؤرخين والجغرافيين القدماء اتفقوا على أن المعرة كانت حتى القرن السادس (زمن مرور ابن جبير) والسابع والثامن (زمن شيخ الربوة وابن بطوطة) شعراء ممدودة ، أي ذات شجر كثير عدواً أسماؤه ، وأن قراها كانت عامرة متدانية ، وأرضها كثيرة الأرزاق ، وأن أهلها كانوا في القرن الثالث ، من بني تنوخ إحدى القبائل العربية المنتصرة الثلاث ، التي كانت في شمالي الشام قبل الفتح ، ثم أسلمت وهي : تنوخ وبهراء وتغلب ، ومنهم أبو العلاء المعري ، وأنها كانت ذات أسوار وحصون ، وأعمدة عليها كتابات لعلها يونانية من العهد البيزنطي ؛ وأن جامعها الكبير الذي يهبط إليه في يومنا ، كان يرتقى إليه في القرن الخامس ، بسلم ذي ثلاث عشرة درجة ، كما ذكره (ناصر خسرو) مما يدل - إذا صح الخبر ، ولم يكن ثمة خطأ في نسخ أو ترجمة رحلة السائح الفارسي المذكور - على أن المعرة خربت وعمرت مراراً ، وأن مبانيها الحالية في مستوى يعلو عن أسطحة المباني القديمة . وتاريخ المعرة قبل الإسلام ما برح غامضاً ، لم نثر عليه فيما قبلناه من الأسفار ، وهي لابد أن تكون قد تأثرت مما جرى في تلك العصور ، في أنطاكية وأفامية ، وقنسرين والبارة ، وغيرها من المدن المجاورة لها ، التي بحثنا عن أحداثها ، أما في العهد الإسلامي فإليك ما التقطناه من بطون التواريخ ، لما جاء أبو عبيدة سنة ١٧ هـ إلى المعرة ، خرج أهلها يقلسون ، أي يهلبلون ويرحبون ، وأذعنوا للجزية والخراج ، وتبعت المعرة بادئ بدء حمص ، كما كان حالها في عهد البيزنطيين ، ثم لما أحدث جند قنسرين ، صارت من أعماله ، ورأت في عهد الأمويين ما رآته قنسرين ، من تقلب الولاة والأحوال ، ولما مات الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ ، دفن في جوارها ، في مكان اختلفت الروايات فيه ، وكذلك كان حالها في أوائل عهد العباسيين ، ففي سنة ٢٠٨ هـ ولي الخليفة المأمون - بد الله بن طاهر بن الحسين - على جند قنسرين ، وكلفه أن يطفأ فتنة نصر بن شبيب العقيلي ، الذي كان غضباناً لقتل الأمين ومتوثباً ، فجاء عبد الله وكسر نصر بعد وقائع كثيرة ، وهدم عدة أسوار من مدن شمالي الشام ، ومنها أسوار المعرة ، ودك عدة حصون في عملها كحصن الكفر وحنك . وفي سنة ٢٤٥ هـ حدث زلزال عظيم في الشام ، وسقطت من ذلك كنيسة حنك الكبرى وغيرها .

ولما ضعف شأن العباسيين ، واستولى أحمد بن طولون عامل مصر وأبنائه على الشام (٢٦٤ - ٢٩٢ هـ) ، دخلت المعرة في حوزته . وفي عهدهم سنة ٢٦٩ هـ حفر أحد ولايتهم ، واسمه لؤلؤ خندقاً على المعرة ، وفي آخر عهدهم سنة ٢٩٠ هـ جاء القرامطة ، بقيادة (الحسين بن زكروية) صاحب الشامة ، ففعلوا في المعرة مثلاً فعلوا في حماة ، مما ذكرناه في بحثها من قتل وتفظيع ، أغرام في المعرة على ذلك المتولي على المعرة ، وكان كردياً ذكرنا مصيره في بحث أفامية أيضاً . وفي سنة ٢٩١ هـ جاءت جيوش الخليفة المكتفي ، واشتبكت مع القرامطة في قرية التانعة من عمل المعرة ، ومزقت شملهم . وبعد أن عاد العباسيون وقبوا سيطرتهم في الشام مدة ، ظهر الأخشيديون في مصر والشام (٣٢٣ - ٣٥٧ هـ) ، ودخلت المعرة في حوزتهم . وفي عهدهم سنة ٣٢٥ هـ وردت أعراب بنو كلاب من نجد ، وانتشروا في شمالي الشام ، وأغاروا على المعرة ، وأسروا واليها وأكثر جنوده ، إلى أن خلصوه من أيديهم . وفي عهد (سيف الدولة بن حمدان) دخلت المعرة في حوزته ، وبعد موته جاء قيصر الروم (تقفور الفقاش) ، الذي تقدم ذكره مراراً ، واستولى سنة ٣٥٧ هـ على المعرة ، وأحرق جامعها الكبير ، وخرب قسماً من أسوارها ، ومبانيها وعاث . ولما تعاهد قرعويه مولى (سيف الدولة بن حمدان) مع القيصر المذكور في سنة ٣٥٩ هـ ، دخلت المعرة بحكم هذه المعاهدة في ملك قرعويه . وكان (سعد الدولة بن سيف الدولة) غير معترف بهذه المعاهدة التي ذكرناها ، في بحث شيزر أيضاً ، وظل برهة في معرة النعمان ، فأخرب الروم حصص ، حتى يضطروه إلى الإذعان ، لكنه بعث وعمرها . وفي سنة ٣٦٤ هـ ملك (بكجور) حلب بعد أن خلع قرعويه ، مولى سيف الدولة وأسره ، وحاصر المعرة . وكان فيها عامل قرعويه ، وأحرق أحد أبوابها المسمى باب حصص ، ونهب جيشه وحلفائه بنو كلاب المعرة . وفي سنة ٣٩٢ هـ عزل لؤلؤ السيفي أحد عمال بني حمدان من أرواح ، (؟) مخافة أن يقصد فيها .

وبعد أن دالت دولة الحمدانيين ، وانتقلت المعرة إلى حوزة بني مرداس الكلايين الذين ملكوا حلب ، أولهم أسد الدولة (صالح بن مرداس) - وكان بدوي الطباع غشوماً - وصل سنة ٤١٨ هـ إلى المعرة ، وأمر باعتقال أكابرها ، وسبب ذلك ، أن امرأة صاحبت في الجامع يوم الجمعة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغصبها نفسها ، فنفر كل من في الجامع ، وهدموا الماخور ونهبوه ، وكان صاحب الماخور قريباً لوزير صالح

(ثادرس النصراني) ، فاشتكى له . فحضر صالح بعسكره إلى المعرة ، واعتقل أكابرها وضادهم ، فخرج أبو العلاء إلى ظاهر المعرة ، ليشفع ، فما خاطب به صالحاً قوله : مولانا السيد الأجل أسد الدولة ، ومقدمها وناصحها ، كالنهار المانع ، اشتد هجيره ، وطاب إبراده ، وكالسيف القاطع ، لان صفحه ، وخشن حداه ، خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين . فقال صالح : قد وهبتهم لك أيها الشيخ . فقال أبو العلاء بعد ذلك في اللزوميات ، هذه الأبيات :

ستير العيوب فقيـد الحسـد	تغيبت عن منزلي برهــــة
وحـم لروحي فراق الجســــد	فلما مضى العمر إلا الأقل
وذاك من القـوم رأي فسـد	بعثت شفيعاً إلى صـالـح
واسمع منه زئير الأسـد	فيسمع مني سجع الحمـام

وفي سنة ٤٥٢ هـ جاء معز الدولة (ثمال بن صالح بن مرداس) بجيشه إلى المعرة ، لقضاء قسم من فصل الشتاء ، وكانت وطأته على أهل المعرة شديدة . وفي سنة ٤٦٢ هـ جاء الترك السلجوقيون إلى أنحاء حلب ، ووصلوا إلى المعرة ، وعاثوا وأفسدوا كثيراً . وفي سنة ٤٧٢ هـ زحف تاج الدولة (تتش) السلجوقي ، بجيش من دمشق نحو شمالي الشام ، فأحرق أعمال جبل السماق ، وبني عليم ، وغرم أهل سمرين ومعة مبالغ طائلة ، وأنهب القرى في شرقي المعرة ، وحاصر تل منس دون أن يفوز منها بطائل ، وأحرق معر تاريجا في كورة كفر طاب (؟) . وفي سنة ٤٨٨ هـ أقطع (رضوان بن تتش) مدينة المعرة وأعمالها إلى (سقمان بن أرتق) أخي نجم الدين إيلغازي الذي تقدم ذكر بلائه في الحروب الصليبية مراراً .

وفي سنة ٤٩١ هـ بعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية ، جاؤوا إلى المعرة وحاصروها ، ودافع أهلها في أسوارها ، حتى داخلهم الجزع ، فتحصنوا بالدور وتركوا السور ، فللكه الإفرنج ، ودخلوا عليها ، فاستباحوها ثلاثة أيام ، وأقاموا بها أربعين يوماً ثم ساروا . (ابن خلدون ٥ / ١٨٤) . قال (ميشو) في تاريخ الحروب الصليبية : إن الفرنج قتلوا جميع من كان في المعرة من المسلمين ، الذين اعتصموا بالجوامع ، واختبئوا في السرايب ، فأصبحت خاوية على عروشها ، وهدموا أسوارها وأبراجها ، وأحرقوا المساجد

وكسروا المنابر ، وهدمو الدور ، وفقد الصليبيون بسبب ذلك الزاد ، وساءت حالهم ، ثم وقع الخلاف بينهم ، وصاروا في رواية يأكلون جثث الموقى ، ثم ساروا منها . وقيل إن الإفرنج توفقوا في الاستيلاء على المعرة ، بمعونة الأرمن الذين جاؤوا معهم ، ومخامرة نصارى المعرة وتل منس ، وأنهم قتلوا من أهلها ما يزيد على مئة ألف ، وسبوا مثلهم ، وأنهم عاثوا في أرباضها ، وقطعوا أشجارها ، وخف أعراب بني كلاب وقتلوا ، لنجدة أهل المعرة ، فأجهزوا على ما بقي من الصليبيين ، فكان ضررهم أشد . وفي ذلك يقول بعض المعريين :

معرة الأذكياء قد حردت عنا وحق المليحة الحرد
في يوم الاثنين موعدهم فأنجنا من خميسهم أحد

وفي سنة ٤٩٦ هـ استرد (رضوان بن تتش) السلجوقي بعض الحصون التي ضبطها الصليبيون ، ثم عقد معهم في سنة ٥١٤ هـ معاهدة ، أبقى لهم بموجبها المعرة وكفرطاب ، والبارة وقسم من جبل السماق . وفي سنة ٥٣٤ هـ أخذ عماد الدين زنكي المعرة وكفرطاب من الصليبيين ، فحضر أهل المعرة وطلبوا تسليم أملاكهم التي أخذها الصليبيون ، فطلب منهم كتب أملاكهم ، فذكروا أنها عدمت ، فكشف من ديوان الخراج في حلب ، وأفرج عن كل ملك كان عليه الخراج ، لمن بقي من أعقاب أصحابه ، ثم نقض عماد الدين أسوار المعرة كلها . ونالت الزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ٥٥٢ هـ من المعرة ، كما نالت من بقية مدن الشام وهدمتها ، وقد تقدم ذكر ذلك في حديث كل منها . وفي سنة ٥٨٢ هـ ألحق السلطان (صلاح الدين الأيوبي) المعرة بإقطاع ابن أخيه (المظفر تقي الدين عمر) الذي جعله ملكاً في حماة وتوابعها .

وبعد وفاة السلطان صلاح الدين ، نشب الخلاف بين أخيه الملك العادل ، وأولاده وأولاد إخوته وأمرائه على ما تركه من الممالك ، ومنها المعرة التي صارت بعد علة الشحنة بين أبناء الصلاحيين ملوك حلب ، وأبناء ابن أخيه التقويين ملوك حماة ، كما صارت أيضاً سلمية علة الشحنة بين هؤلاء التقويين وأبناء أعمامهم الأسديين ملوك حمص . وفي أكثر الأحيان كانت صفقة ملوك حماة خاسرة . فالمعرة بعد وفاة المظفر تقي الدين عمر ستة ٥٨٧ هـ انتقلت إلى ابنه (المنصور ناصر الدين محمد) ، فبني فيها سنة ٥٤٥ هـ المدرسة

الشافعية التي تقدم ذكرها ، وفي سنة ٥٩٦ هـ استلم الأمير (عز الدين إبراهيم بن المقدم)
خمساً وعشرين ضيعة من المعرة ، فوق ما كان له من الإقطاعات ، ولما توفي سنة ٥٩٧ هـ ،
انتقلت هذه الإقطاعات إلى أخيه (شمس الدين عبد الملك) ، إلا أن صاحب حلب الملك
(الظاهر غازي بن صلاح الدين) سار فوراً إلى المعرة ، واستخلصها من المنصور ، وأقطع
بلادها ، واستولى على كفر طباب ، وكانت لعبد الملك بن المقدم المذكور ، ثم سار إلى
أفامية وفعل فيها وببعد الملك ما ذكرناه في حديث أفامية ، ومنها توجه إلى حماة ،
وحاصر فيها المنصور ، ثم غادرها إلى دمشق ، وحاصر فيها أيضاً ابن عمه (المعظم بن
العادل) ، ولكنه لم يفز من المدينتين بطائل ، ثم رجع . وفي سنة ٥٩٨ هـ وصل الملك
العادل إلى حماة ، وبلغ الظاهر غازي بحلب ، أن قصده محاصرته وتأديبه ، فلاطفه
وصالحه على شروط ، منها إعادة ضياع المعرة إلى المنصور صاحب حماة . أما المعرة فظلت
بيد الظاهر غازي ، بدليل وجود اسمه فيها ، في كتابة تاريخها ٦٠٤ هـ ، ولما توفي المنصور
في سنة ٦١٧ هـ ، انتقلت حماة وتوابعها إلى ابنه (الناصر قليج أرسلان) الذي ولاه وزراء
أبيه ، وخانوا أخاه المظفر ، ولما جاء المعظم صاحب دمشق في سنة ٦١٩ هـ لمحاصرة ابن
أخته الناصر المذكور ، لإخلافه في دفع المال المشروط عليه ، استخلص منه وقتئذ سلمية
والمعرة ، ثم في سنة ٦٢١ هـ أعاد المعرة إليه ، وأعاد سلمية إلى أخيه المظفر ، ثم في سنة
٦٢٦ هـ لما استرد المظفر حماة من أخيه سلمت المعرة إليه . وفي سنة ٦٣١ هـ أتم المظفر بناء
قلعة المعرة ، وشحنها بالسلاح والرجال ، فكان ذلك سبباً لخروجها من يده ، لأنه في سنة
٦٣٥ هـ أرسل العزيز صاحب حلب جيشاً ، استخلص المعرة من صاحب حماة ، انتقاماً
منه ، لمعاونته الملك الكامل صاحب مصر ضده ، وخرّب قلعتها التي كان بناها المظفر .
وظلت المعرة تابعة إلى حلب مدة ، إلى سنة ٦٥٨ هـ التي جاء فيها التتر ، وأجهزوا على
ما بقي من قلعة المعرة . ثم في تلك السنة ، انتصر المظفر قطز على التتار في (معركة عين
جالوت) ، وكان المنصور بن المظفر صاحب حماة معه ، فأحسن قطز إليه ، وأمر بإعادة
المعرة عليه . لكنه أمر أيضاً بنزع سلمية منه ، وإقطاعها إلى الأمير مهنا آل الفضل كما
ذكرناه في بحث سلمية . فظلت المعرة بيد التقوين أصحاب حماة إلى سنة ٧١٤ هـ ، التي
أمر فيها السلطان محمد بن قلاوون أن تنزع من يد الملك المؤيد أبي الفداء ، وتسلم إلى
الأمراء المماليك ، الذين أبعدها وقتئذ ، بسبب أبي الفداء من حماة إلى حلب ، وظلوا دون
جولة أثرية (١٣)

إقطاعات كافية (أبو الفداء ٤ / ٧٤) . ولكن وفي سنة ٧١٦ هـ سافر أبو الفداء إلى مصر ، وحظي برعاية السلطان ، ومنها إعادة المعرة إليه ، لكنه ما كاد يفرح بها ، ويتقبل تهاني الشعراء ، إلا وصدر الأمر بإقطاعها إلى الأمير محمد بن عيسى بن مهنا ، ليحضر إلى الطاعة بعد عسيانه مع أخيه مهنا . ولما كان القلقشندي يؤلف كتابه (صبح الأعشى) ذكر المعرة في جملة ولايات نيابة حماة ، وأن واليها جندي (صبح الأعشى ٤ / ٢٣٩) ، ولعله أخذت بعد حين من يد الأمير المذكور ، وأودعت إلى نواب حماة ، الذين تولوها بعد موت أبي الفداء ، وخلع ابنه الأفضل . وكانت المعرة في تلك الأيام منزلاً للبريد البري ، وبريد حمام الزاجل الجوي ، للذين كانا متصلان من مصر إلى حلب . وفي سنة ٧٠٠ هـ عاود التتر قصد الشام ، فجفل المسلمون منهم ، وخلت بلاد حلب ، فأقاموا في بلاد سرمين والمعرة والعمق وغيرها ، ينهبون ويقتلون نحو ثلاثة أشهر ، ثم عادوا إلى بلادهم .

ومن الغريب بعد النوائب والحروب التي نزلت بالمعرة لاسيما ما أصابها من الروم والصليبيين والتتر عدة مرار - أن تبقى فيها أشجار الزيتون والفسق ، واللوز والتين وغيرها ، إلى حين مرور ابن جبير في سنة ٥٧٩ هـ ، وابن بطوطة في سنة ٧٢٨ هـ ، وشيخ الربوة في سنة ٧٢٧ هـ ، وأن تبقى الجبال والبراري المجاورة لها (شعراء ممدودة) و (من أعر الأرض وأعملها فلاحاً) ... إلى آخر ما ذكره ، مما يكاد المرء يرتاب بصحته ، أو يختار في تعليقه ، ويضطره للتسائل عن قاطعي تلك الأشجار ومبيديها ، بعد أولئك السياح ، وزمن القطع والإبادة .

وفي القرن الثامن كانت اختلت إدارة السلاطين المماليك في مصر والشام ، وازدادت فتن الأمراء آل عيسى بن مهنا ، أجداد آل أبي ريشة ، أمراء الموالي الحاليين ، ووثب بعضهم على بعض قرب سامية في سنة ٧٤٨ هـ « وجرى على بلد المعرة وحماة وغيرها ، من النهب وقطع الطريق ، ورعي الكروم والزرع ، والقطن والمقاتي ، ما لا يوصف » (تاريخ ابن الوردي) ، وكما خربت سامية وضواحيها ، بسبب تلك الفتن ، خربت أيضاً قرى العلا القريبة من المعرة ، ولعل أشجار الزيتون والتين ، والفسق وغيرها التي ذكرها الجغرافيون القدماء ، انقرضت خلال ذلك جلها ، إن لم يكن كلها ، ولو لم يصرح بذلك ابن الوردي . وجاء في السنة التالية الطاعون الهائل ، الذي اجتاح بلاد الشرق الأدنى ، ومنها مصر

والشام ، لكنه لم يفعل في المعرة ، كما فعل في غيرها ، وقد علل ابن الوردي في تاريخه ذلك ، بأن الطاعون رأى المعرة حينئذ مثقلة بضروب الجور والمظالم ، ففعل عنها (كذا) ، لكنه لم يفعل عنه ، بل أودى به .

وفي عهد العثمانيين ، ظلت المعرة تابعة إيالة حلب وازداد انحطاطها ، وسكنت التواريخ بعد عن التنويه بمحديتها ، وزارها بعض سياح الإفرنج في أوائل القرن الماضي ، والذي قبله ، وأجمعت أقوالهم على وصف المعرة ، بأنها بليدة شبه قرية صغيرة الشأن قليلة السكان ، يديرها حكام وأغوات من أهلها شبه مستقلين . وقضاء المعرة يعد في الدرجة الثانية ، بين أقضية ولاية حلب ، في السعة وكبر القرى وغناها ، وهو يحتوي على قسم كبير من جبل الزاوية ، وفرعه الجنوبي المسمى شحشبو ، وعلى قسم كبير من كورة العلا وما وراءها من الحرب العامرة والدائرة ، والبراري الفيح الممتدة حتى الأندرين ، وأسما نواحيه الأربع ، المعرة وخان شيخون ، وقلعة المضيق وخوين الكبيرة .

وقد أنجبت المعرة فيما مضى ، غير أبي العلا عدداً من الشعراء والفضلاء ، لبعضهم أبيات يجدر بنا ذكرها ، لاحتوائها على أسماء أماكن في المعرة وأكنافها ، فمنهم أبو الفتح الحسن بن أبي حصينة المعري ، المتوفى حدود الخمسة هجرية ، قال :

وزمان لهو بالمعرة مونق بشياثا وبجاني هرماسها
أيام قلت لذي المودة سقني من خندريس حناكها أو حاسها

فالحاس وشياث تقدم ذكرهما في بحث جبل الزاوية ، والهرماس واد غربي المعرة ، تصل مياهه إذا فاضت إلى مطبخ قنسرين ، وحناك حصن في ضاحيتها ، تقدم ذكر تخريبه سنة ٢٠٩ هـ ، والخذريس الحجر المعلقة . ومنهم أبو المجد محمد حفيد أخ لأبي العلا ، قال متغزلاً بما جرى له في باب حناك :

يامغاني الصبا يباب حناك لايبايي الغضا ووادي الأراك

إلى آخر ما ذكره ياقوت .

ومنهم أبو يعلى بن حصين ، مدح محمود بن نصر بن مرداس لما افتتح حصن أسفونا ،

قال :

عدائك منك في وجل وخوف يريدون المعاقل أن تصونا
فظلوا حول أسفونا كقوم أتى فيهم فظلوا أسفيناً

ومنهم عمر بن الوردى المتوفى في طاعون سنة ٧٤٩ هـ ، صاحب (شرح ألفية ابن مالك) ، وتاريخ اسمه (تمة المختصر في أخبار البشر) ، من شعره قصيدة يذكر فيها أماكن مشهورة بالمعرة ، تقتطف منها :

رعى الله عيشاً بالمعرة لي مضى حكاه ابتسام البرق إذ هو أو مضى
وعصر شباب في شياث قطعته وفي أرض حندوثين في ذلك الفضاء
أعاذل لو شاهدت باب جناها لما كنت يوماً ناهياً بل ممرضا
لقد طال بالهرماس عهدي ومائه إذا ماجرى كالسيف أحمر منتضى

إلى آخر القصيدة التي فيها أسماء أماكن عديدة كأرض حندوثين ، باب الجنان ، وادي فضالة ، عين معراتا ، البيدرین ، جريا ، القلعة ، عين زريق ، عليات العسل ، مشهد يوشع ، دير سمعان ، ملك فارس ، الهرماس . وغيرها مما يحتاج للتحقق من بقائها أو فنائها حتى الآن .

وفي ناحية المعرة عدة قرى ، تبدأ بكلمة معر ومعرة ، كمعر شارين ومعر شمشة ، ومعر شورين ومعراته ، وفي ناحية خان شيخون : معر زيتا ومعرة ماثر ، ومعرة حرمة ومعرة صين ، وذكر ياقوت في معجمه في هذه الناحية معرات أخرى ، لم نتحقق مواضعها ، كمعرة بيطر ومعرة بحولين . والمعرات في قضاء إدلب أيضاً عديدة منها في ناحية سرمين : معرة الحاسكة ومعرة العليا ، ومعر دبسة ، وفي ناحية معرة مصرين : معرة مصرين ومعرة الأخوان ، ومعر بونه ومعر بليت ، ومعرزاف وفي قضاء جبل سمعان : معرة الأرتيق . ولا يعلم الآن قرية باسم أسفونا بل باسم سفوهن ، وهي في غربي قضاء المعرة .

والخارج من معرة النعمان ، يظل مجتازاً السفوح الشرقية لجبل الزاوية ، ومبصراً هضاب هذا الجبل ، المكسوة بالصخور الرمادية ، وفيها في بعض الأماكن المتفرقة ، أشجار الزيتون ، تتخللها خرائب وأطلال قديمة . ثم تدخل الطريق في سهول شاسعة ، ذات تلعات متوجة ، إلى أن تصل في (الكيلو متر ١٠٦) إلى خان شيخون .

وخان شيخون تعد أعظم قرى هذه الربوع ، عدد أهلها ٣٠٠٠ ، فيها مدير ناحية
وغفر لجنود الدرك ، بيوتها قبب مخروطية مزدحمة ، وكان اسمها القديم Ashanie ، وفي
شرقيها خان كبير من عهد المماليك ، وفي شاليها تل عظيم مرتفع ، تقبته بعثة الكونت
(مسنيل دوبويسون) سنة ١٣٤٩ هـ ، فوجدت في أحشائه ، أطلال بلدة ترجع إلى قبل
عشرة قرون من الميلاد ، وتحتها آثار مبان مصرية ، من عهد تحوتس الثالث ، ترجع إلى
قبل خمسة عشر قرناً من الميلاد ، وتحت الكل آثار أربع مدن من الدور الحديدي ، ترجع
إلى القرن العشرين ق.م . وفي الشمال الغربي من خان شيخون ، على بعد بضعة كيلومترات
مكان ، يظن أنه كانت فيه قرية كفر طاب التي تقدم معنا ذكرها في أبحاث أفامية
وشيزر ، اشتهرت بقلعة مائها إذ لم يكن لها ماء شرب ، إلا ما يجمعونه من الأمطار . قال
ياقوت : وبلغني أنهم حفروا نحو ثلاثمائة ذراع فلم ينبسط لهم . وقد استرعت هذه الحالة
عجب أبي العلاء ، وكان بلغه إذ ذاك أن أهل بالس - وهي التي تدعى الآن مسكنة شرقي
حلب على الفرات - عجزوا من غارات الفرات وحفر أرضهم . فقال :

أرى كفر طاب أعجز الماء أهلها وبالس أعياها الفرات من الحفر
كذلك مجرى الرزق واد بلا ندى وواد بــــه فيض وآخر ذو جفر

وقال أبو الفداء في تقويم البلدان : « كفر طاب من جند حمص ، وهي بلدة صغيرة
كالقرية ، قليلة الماء يعمل فيها القدور الخرف ، وتجلب إلى غيرها ، وهي قاعدة ذات
ولاية ولها عمل ، وهي على الطريق بين المعرة وشيزر » قال في العزيزي « ومدينة كفر
طاب أهلها أخلاط من البين ، بينها وبين شيزر ١٢ ميلاً ، وكذلك بينها وبين المعرة »
ا هـ . قلت : ومن الغريب أن تندثر أطلال ورسوم بلدة ككفر طاب ، فلا يعرف الآن
أحد مكانها على الضبط ، ولما ينقض عليها بعد من عهد أبي الفداء ستة قرون ، وأن
لا يذكر أحد من جغرافيي العرب ومؤرخيهم اسم خان شيخون قط ، رغم كبر هذا الخان
وقريته ، وقدمها الظاهرين . وفي غربي خان شيخون لحب ، يأخذ السيارة إلى قلعة
المضيق ، عن طريق قريتي الهبيط وكفرنودة (طوله ٢٥ كيلو متراً) ، وفي شرقي خان
شيخون على بعد عشرة كيلو متر قرية التامنة ، أو تمنع ، التي حدثت فيها المعركة الفاصلة
بين جيش الخليفة العباسي المكتفي والقرامطة ، وقد ذكرناها في أبحاث حماة وسلمية .

وبعد خان شيخون بقليل تنتهي حدود قضاء المعرة من ولاية حلب ، وتبدأ حدود قضاء حماة من ولاية دمشق . وتظل الطريق سائرة في سهول العلا الشاسعة ، العارضة عن كل شجرة أو نضرة ، ما خلا حقول مزروعة ، تظهر كالغيطان الخضراء في البوادي الفقراء . وتتخلل هذه السهول أحياناً تلعات ومنخفضات قليلة التوج ، انتشرت فيها من مكان إلى آخر تلال جلها صناعي أثري ، وفي (الكيلو متر ١١٤) مورك وهي قرية كبيرة قديمة ، كان اسمها Murmurik ، فيها تلان أحدهما عظيم ذو طبقتين ، وفي داخل القرية بعض أحجار أثرية ، وقد اشتهرت مورك بجودة بطيخها الأحمر وضخامته ، وفي غربي مورك لحب يأخذ السيارة نحو الغرب ، إلى قلعة المضيق ، وقرى ناحية الطار عن طريق قريتي كرناز وكفر زيتا (طوله ٢٩ كيلو متراً) ، وبعد مورك تظل الطريق مطردة المناظر ، إلى أن تجتاز في (الكيلو متر ١٢٥) بصوران ، وكان اسمها Shouroun ، وفيها قبة الشيخ أربعين ، زعموا أنها قامت مقام بيعة الأربعين شهيد ، وفي الشمال الغربي من صوران ، تل اسمه تل ماصين ، تقبته سنة ١٣٤٩ هـ بعثة الكونت (مسنيل دوبويسون) ووجدت فيه فيما قيل أطلال بلدة يرجع عهد بعضها إلى ما قبل عشرين قرناً ، وبعضها إلى ما قبل ثلاثين قرناً من الميلاد . ثم تمر الطريق من عربي قرية الطيبة ، وتدعى طيبة العلا ، وهي آخر قرية في كورة العلا ، فيها مسجد كبير ذو مأذنة عالية . وبعد أن يغادر السائح على يمينه قرية القمحانة ، يمر من غربي قرون حماة .

وقرون حماة جبلان متقاربان من الحجر الحري الأسود ، يبعدان عن حماة إلى الشمال نحو عشرة كيلومتر ، يدعى الكبير منها زين العابدين (٦٣١ م) والصغير كفرراع (٦٤٥ م) ، وفي شرقي الأول ضيعة الهاشمية ، وفي شمالي الثاني ضيعة كفرراع ، وفوق الأول جامع مهجور ذو قبتين بيضاوين من آثار الملك الأشرف (قايتباي) في سنة ٨٨٣ هـ ، وفي الجامع مقام يسمى زين العابدين (؟) ، تقصده النصيرية من جبالهم الغربية بالزيارة في شهر نيسان من كل عام . وقد اشتهر جبل زين العابدين بالمصاف الذي وقع حوله في سنة ٥٧٠ هـ بين السلطان (صلاح الدين الأيوبي) وصاحب حلب (إسماعيل بن نور الدين محمود زنكي) وأبناء أعمامه الذين جاؤوا من الموصل ، لنجدة وكانت الدائرة عليهم ، وبالمصاف الذي جرى في الربع الثالث من القرن الماضي بين قبيلتي الموالي والحديديين ، وكانت الدائرة على الموالي ، وقتل أميرهم محمد الخرفان . وبعد أن يجتاز

السائر السهل الممتد من سفح قرُون حماة إلى حاضرها ، يصل إلى هذا الحاضر ، ويهبط منه وادي حماة المنخفض .

كورة العلا : تمتد في شرقي طريق حماة - حلب وقسم من غربيه كورة تدعى كورة العلا ، ذكرها ياقوت في معجمه « بأنها ؛ كورة من عمل معرة النعمان من جهة البر ، تشتمل على قرى كثيرة ، ويطؤها القاصد من حلب إلى حماة » اهـ . وفي الحق أنها كورة واسعة طولها من الشمال إلى الجنوب نحو تسعين كيلو متراً وعرضها نحو ثلاثين كيلومتراً ، ينتهي طرفها الشرقي عند الآكام المشرفة على (السلايل) ، وهي البطاح والمروج الممتدة من سامية نحو الحمراء ، فتل حلاوة فالخرايج ، وينتهي طرفها الشمالي عند الآكام المشرفة على مطخ قنسرين وسهول الية ، حول قرى العوجة وزفر ، ومغارة وكريسان . أما طرفها الغربي ، فمنهم من يوصله إلى طريق حماة - حلب ، أي إلى سفح جبل الزاوية ، ويمتد به إلى ناحية الطار التي تقدم ذكرها ، ومنهم من يقصره عن ذلك ببضعة كيلومترات ، وينتهي طرفها الجنوبي عند الآكام المشرفة على طريق حماة - سامية .

وهذه الكورة إنما سميت بالعلا لأنها تؤلف هضبة منبسطة ، تعلو على البقاع التي في شماليها وشرقيها . وتنتهي الأكناف الشرقية والجنوبية في هذه الهضبة بآكام متسلسلة جرداء ، لا يزيد علو أسماها على الستئة متر ، منها في الشرق جبل الحوايس ، وفي الجنوب جبل الفانات وجبل كيتلون وجبل كاسون . وفي أماكن متفرقة من هذه الهضبة تلون بارزة ، أشهرها : تل شميميس وتل خنزير ، وتل المقطع وتل العوجة ، وتل الذيب وتل القراطي وتل عمارة ، وفي الشمال رجم عال يدعي رجم صراع . على أن جل هذه الهضبة سهول شاسعة مترامية الأطراف ، تربتها في الجهة الغربية حمراء وفي الشرقية صفراء ، وهي خصبة في الجملة ، تنجب حنطة جيدة تفضل على غيرها بالقيمة ، وكذا الزروع الصيفية لاسيما البطيخ الأحمر الذي يوجد خاصة في قراها الغربية . ومحاصيل هذه الكورة من حبوب وأصواف وسمون تساق إلى بندر حماة ، وبعضها إلى بندري حلب والمعرة ، وتجتاز السكة الحديدية الآتية من حلب هذه الكورة من الشمال إلى الجنوب ، في محطات العوجة وأم رجم ، والحمدانية وكوكب ، وبهذا يصح قول ياقوت ، أن القاصد يطؤها من

حلب إلى حماة ، ويصح أيضاً إذا ثبت أن الحد الغربي لهذه الكورة هو طريق القوافل والسيارات المارة بمجرة النعمان التي تقدم ذكرها .

والعلا كما قال ياقوت يشتمل على ضياع وقرى كثيرة من أقضية المعرة وسلمية وحماة . ولذلك قسم في عهدنا إلى قسمين ، الأول علا الشمال أو علا المعرة ، نسبة لوجوده داخل قضاء المعرة ، والثاني علا الجنوب أو علا سلمية ، نسبة لوجوده داخل قضاء سلمية ، كما أن علا الشمال يقسم إلى قسمين غربي وشرقي ، فالشرقي يحوي القرى الآهلة بأعراب الموالي ، ويدعى علا الموالي ، والغربي يحوي القرى التابعة ناحيتي خان شيخون والطار ، ويدعى علا الطار أو طار العلا ، وبين هذين القسمين من القرى التي جملها كبير ، معصران وتل دبس ، وجرجناز وتل منس ، ومعرشورين ودير شرقي ، والتح والتانعة ، وخوين الكبيرة والحدانية ، وتل مراق وخان شيخون ، وصوران ومورك ، واللطامنة ومعرّس ، وكفر زيته والطيبة ، وكوكب ومعرشحور ، وكاسون .. إلخ . وكلها من العلا .

وليس في العلا أرضون مسقوية أو عيون سارية ، لأن أرضه بركانية وحجارتها حرية ، ما خلا بعض أودية فيه تجف في الصيف ، كوادي شطيبي ووادي سمقة ، وهذا يتجه شمالاً ماراً بقرية خوين الشعر ، إلى أن يصب في مطبخ قنسرين . وثمة عيون صغيرة في ضياع الطامة والهلبة ، على أنه في بعض القرى الجنوبية : كالفركة وقراح ، وزغرين وسمنة ، والفان القبلي والشهب ، ومعرشحور والرويضه ، قنوات قديمة فتح بعضها أخيراً ، وشرعوا ينتفعون بمياهها ، أخصها قناة معرشحور التي حاولوا منذ عهد قريب أن يجروها إلى حماة للشرب فأخفقوا .

وجل ضياع العلا الشرقية في زماننا صغير ، كان أكثرها لمضي نصف قرن ملكاً لقبيلة الموالي ، وبعضها لقبيلة الحديديين ، والباقي لغيرهما من القبائل ، كبني خالد والتركي والعقيدات . تملك هؤلاء الأعراب هذه القرى ، على أثر الاهتمام الذي أظهرته الحكومة العثمانية في العقد الرابع من القرن الهجري الماضي بتحضيرهم وإسكانهم في كورة العلا ، كما أسكنت غيرهم من القبائل في جبل الأحص وسهول مطبخ قنسرين ، وقضائي الباب ومنبج ، وكان القائم بهذا العمل النافع إذ ذاك ، أحد عمالها البارزين واسمه أصلان باشا ، الذي له أيضاً يد طولى في تأسيس لواء دير الزور وتحضير قبائله ، لما كان متصرفاً فيه في

سنة ١٢٨٧ هـ ، وعلى أثر هذا الإسكان ، احترف بعض هؤلاء الأعراب الفلاحة والزراعة ، ومنهم من ترك الخيام وسكن الدور والقباب ، وظل غالبيتهم متبدياً يرتزق بتربية الغنم ورعيها ، يشاركون بها سكان المدن كحلب وحماة ضمن شروط خاصة ، يشرقون في الشتاء إلى البادية انتجاعاً للدفء والكلأ ، ويغربون في الصيف إلى قرأهم في الحاضرة . على أن القرى التي ملكتها الحكومة هؤلاء الأعراب في العلا لم تثبت طويلاً في أيديهم ، لأنهم تخلوا عن أكثرها بعد حين ، بحكم التبذير وسوء التدبير المستحكمين في طباعهم ، وباعوها تباعاً إلى سراة حلب والمرة وحماة ، ورجعوا إلى عيش البداوة إلا قليلاً .

وأشهر قبائل العلا هي (الموالي) ، أقدم القبائل العربية في شمالي الشام ، وأشدها شراسة وفروسية ، وأمراؤها المنتسبين لأسرة تدعى (بيت أبو ريشة) ، معروفون بعقوبة النسب وأثالة الحسب ، وأنهم يردون النقا ويعطون الصحب ، كرؤوساء قبائل البادية الكبرى ، وإذا اجتمع هؤلاء الرؤوساء في المؤتمرات التي تعقد الحين بعد الحين في سلمية أو تدمر ، أو خلافها من البلاد التي على سيف البادية ، لفض الفتن التي لا تخلو من النشوب بين القبائل ، يحل أمراء الموالي صدور المجالس ، بينما رؤوساء بقية قبائل الحاضرة ، المعروفون بـ (عربان الديرة) عليهم الوقوف في أبوابها والإصغاء لما يقرر فيها ، وقد استرعى نظري هذا الحال ، ورحت أبحث عن حسب أمراء الموالي ونسبهم ، اللذين يجهلونهم هم ويا للأسف ، ويزعمون أنهم عباسيون ، من أعقاب شقيق بن الخليفة هارون الرشيد (كذا) ، وهو زعم فاسد لا دليل له ولا أساس ، إلى أن توصلت بعد الجهد ، وبعد العثور على قبر أحد أجدادهم في مقبرة الشيخ فرج في سلمية ، من تحقيق أنهم متحدرون من جبار بن مهنا بن عيسى بن مهنا آل الفضل من بني ربيعة من طي من كهلان من القحطانية ، وأن آل الفضل وخاصة فخذ عيسى بن مهنا كانوا في زمن السلاطين الأيوبيين ، سياً في دولة المماليك ، كما قال القلقشندي في صبح الأعشى (رؤوساء أكابر ، وسادات العرب ووجوهها ، ولهم عند السلاطين حرمة كثيرة ، يحلونهم فوق كيوان ، وينفقون لهم أجناس الإحسان » ، وتبين لي : أن آل عيسى أجداد أمراء الموالي كان لهم مداخلة في إدارة بلاد الشام الشمالية وسياستها ، في تلك القرون ، وأثر عظيم في زوال عراياها ، وانحطاط شأنها ، نخص بالذكر المرة وحماة وسلمية ، وذلك حينما اختلت الأمور في آخر دولة المماليك ، ولم تصطلح في عهد العثمانيين ، وأن سلمية كانت عاصمة

ملكهم ، ظلوا فيها سبعة قرون ، ثم نزحوا إلى العلا ، كما سنبينه في حديث سلمية . ولا يزال في جنوبي دمشق في قضاء القنيطرة ، أمراء أعزاء يدعون أمراء الفضل ، هم كما ثبت لي أقارب أمراء الموالي وأبناء أعمامهم ، نزحوا في القرن التاسع أو العاشر من أنحاء سلمية ، وتديروا غربي القنيطرة ، وظلوا محتفظين باسمهم القديم .

وفي زمننا يقطن أمير الموالي الأكبر الشايش بن عبد الكريم في قرية قطرة شرقي المرة ، وهم ينقسمون إلى شاليين وقبليين ، ويعد من أفناد الشاليين المشارفة (في ضياع بريصة والسرّج ، وسحال وفرجة ، ومشيرفة ولوييدة) ، وبني عز (في خوين الكبيرة وتلحرق ، وأبو عمر وأبو دالي) ، والدولة (في أم خلاخيل وخربة الدجاج) ، والجماجة (في الشعرة وأعجاز ، وكراتين وربيعة وقطرة) ، والشويرتان (في صقيعة وأم رجم) ، والشريف (في ينحة ودربية) ، والطوقان (في أبو حية) ، والدوانة (في أم جلال) ، والكلكل (في سرجة وكفريا ، وأبو شرجي وتل دم) ، والغازي (في حران وقراطي ، وهلبة وكرستنة) ، أما أفناد الحسو والشليوط ، والفنير والخليفة ، والكواويس والخراشين ، وأخوة وضحة فهم سيّارون في ضياع العلا الشرقية ، وثمة أفناد تنضم إلى الموالي عند الحاجة ، يدعونهم (لحقة الموالي) ، كالصماطية (في ناحية الطار) ، وبني عز الرعية والبشام والكندوش (في جنوبي وشالي قضاء سلمية) .

أما الحديديون ، فأصلهم من ديار الموصل ، وهم أكثر قبائل شمالي الشام عدداً وثروةً ، وأميزها بإتقان تربية الماشية وصنع السمن المعروف بالحديدي ، المنقطع النظير في الجودة والنفاسة . وهم منقسمون إلى شاليين وقبليين ، ويعد من أفنادهم الإبراهيم ، وفيهم المشيخة ، يقطن الشيخ الأكبر منهم في ضيعة تدعى الطويحيني ، جنوبي مطبخ قنسرين ، والأبو صليبي (في بعض ضياع العلا : كالربدة والحزم ، وعرفة ودومة وقصر العلي) ، والأبو جميل (في الشطيبي والمشهد ، وصريع وجهان) ، والمعاطة (في حوا) ، والبقارة (في ريع الهوى وصراع) ، أما بقية الأفناد كالمراسة والحجاج ، وأبو زليط والأبوفاتنلة ، والأبو حربة ففي الضياع التي تمتد من السلايل ، إلى جنوبي جبل الأحص وجنوبي مطبخ قنسرين . وثمة أفناد تنضم إلى هؤلاء يدعونهم (لحقة الحديديين) ، كالنعميات والولد علي ، والكيار والمعاطة ، والجميلة والأبوقعيرات ، والأبوشهاب الدين والغناطسة ، والأبرز

والجلان ، والأبو عطيري والأبو حسن والسرхан ، وهؤلاء منتشرون في أقضية جبل سيمان وإدلب ، والباب وناحية الحمراء . وبنو خالد قبيلة قديمة في شمالي الشام ، كثيرة العدد والأفناد ، أغلبها في العراق وبعضها في حوران ، وفريق غير يسير منها في ديار المعرة وحماة وحمص ، من أفنادها في قضاء المعرة في ضياع جبل شحشو ، التويني والشقرة ، والبلوة والمضخى ، والغايب والرفيعي ، والصواجبة والفياضي ، وفي جنوبي المعرة الرويعي والعرار .

والفتن الناشئة بين الموالي والحديدين قديمة ، سببها أن أمير الموالي محمد الخرفان الذي كان في غرة القرن الثالث عشر اضطهد الحديدين ، رغم أنهم كانوا حلفاءه وأنصاره ، فقتلوه ، ولما ترعرع ابنه محمد الخرفان الثاني ، الذي سمي باسم أبيه حاول أن يثأر منهم ، فغزاهم مراراً ، وجرت المعركة الأولى بينهم في منتصف القرن المذكور في تل حلاوة شمالي الحمراء ، وكانت الدائرة على الموالي ، وجرت المعركة الثانية في أواخر القرن المذكور ، في سفح جبل زين العابدين شمالي حماة ، فقتل فيها محمد الخرفان وانكسر الموالي ، ثم تلى ذلك صلح طويل ، دام عشرات من السنين ، تصاهر فيه رؤساء القبيلتين ، إلى أن كانت سنة ١٣٣٩ هـ ، نشبت الفتنة بسبب سرقات تافهة ، قام بها البعض من قبيلة اللهيبي ، المنتية إلى الموالي ، وجرت المعركة الأولى حول قرية عقيربات غربي جبل البلعاس ، ثم دامت المعارك نحو سبع سنوات ، راح فيها لأهل المدن والقرى في ديار حماة والمعرة وحلب ما لا يحصى من الصامت والناطق ، وبعد أن رقدت الفتنة مدة ، عادت في سنة ١٣٤٩ هـ ، ونشبت لأسباب نسائية ، وما برحت تحبو نارها تارة وتشب أخرى ، وليس من يطفئها كما ينبغي .

والخرائب الأثرية في العلا كثيرة ، لم يتح لي زيارتها كما ينبغي ، لأجيد وصفها ، ذكر لي منها في الشمال في قضاء المعرة ، أماكن تدعى بالقصور ، وليس لها من ذلك إلا الاسم ، منها : قصر الأبيض وقصر السرج ، وقصر البرج وقصر أبو شرقي ، وقصر سرجة وقصر أبو حنايا ، وقصر تل الذهب وقصر الشاوي ، وقصر نوى وقصر الخرم ، وقصر أبو سمرة وقصر أبو حية ، وقصر الفواعة وقصر الشطيب ، وقصر العلي ، وثمة في ضياع القليعات وتل خزنة ، وتل تين وتل دم ، وأعجاز وعجيز ، وفرجي وسنجر ، وصقيعة

وأما موييلات ، مبان صغيرة أثرية تشبه المخافر أو الحصون . على أن أغنى ضياع العلا الشمالية بالخرائب ، هي قرية كراتين التجار ، التي فيها حقل واسع من الأطلال الدائرة ، تدل الكتابات اليونانية الكثيرة التي فيها ، على عمران العلا كله في القرنين الرابع والخامس الميلاديين والشوارع في كراتين التجار هي على خلاف ما في خرائب جبل الزاوية ضيقة ، بينما الدور واسعة . وفي شمالي العلا أيضاً غير ماعددناه ، خرائب خدفة وحراكي ، وكريسنطة ومعراته ، ومرعايا وعوجة ، وأما هلاهيل وأما موييلات ، وصراع وسنجر ، وتجة وتلون إلخ ...

ومن الخرائب في شرقي العلا اصطبيل عنتر في شمالي جبل الحويس . وهذا الاصطبيل الخرب ، مبني فوق أكمة ، وله باحة قليلة الاتساع ، وفي غربيه غرفة لم يبق منها إلا بعض الجدران المتداعية ، وقد كانت مبنية بأحجار حرية ضخمة ، وعلى طرفي باب الاصطبيل المتجه إلى الجنوب عضادتان ضخمتان تعلوها عتبة ، قيل في الطبوغرافية التاريخية لدوسسو ، أن هذا الاصطبيل كان حصناً ، وأن تاريخه سنة ٥٥٧ م . وإلى الشرق الشمالي من جبل الحوايس قلعة الحوايس ، في قريها ضيعة تسمى باسمها ، وهذه القلعة مبنية على هضبة عالية ، يصل إليها القاصد مشياً لتعذر صعود الخيل إليها ، وهي قد دثرت ونقلت جميع أحجارها ، ولم يبق منها سوى آثار سورها المردوم . وليس ثمة ما يلفت النظر سوى جب الماء المحفور ، يهبط إليه بدرج لولي عريض ، يسع شخصين وثلاثة معاً ، وقد هدمت بعض أحجاره ، وعمق هذا الجب نحو مئة وخمسون متراً ، فإذا وصل القاصد إلى قعره ، يجد أطرافه مبنية بأحجار متينة ، وفيه ماء نقي شروب .

وأجل الخرائب في جنوبي العلا (علا سلمية) ، في ضيعة تدعى طوبا ، وهي ذات أطلال واسعة ، ثم في قصر التكم وقلعة الربا وقلعة طراد . وقلعة الربا قامت على قمة رابية عالية ، وسط أرض بطحاء ، وللقلعة سور كبير من حجارة ضخمة ، والباحة التي داخل هذا السور واسعة ، تبلغ نحو ستة هكتار ، وفي سفح الرابية مغارة صناعية كبيرة لا يعرف آخرها ، ويذكر أيضاً في جنوبي العلا من القرى التي فيها آثار دنين والرحية ، (وسيأتي وصف قلعة الرحية في طريق سلمية - الحراء) والبردونة والمشيرفة ، والدوسة والعنز ، وأبو القدور وسباع والطيبة وتل الذهب ، وقيل أن في قرية علي كاسون ، باب غريب

الشكل ، له قنطرة كبيرة من القرن السادس الميلادي . هذا وما برحت أطلال القصور والمباني المذكورة في العلا ماثلة ، لكن معظمها هدمت جدرانها ، على كر الدهور ، واتخذ أهل القرى المجاورة أحجاره في إشادة مساكنهم . وجل الضياع الجنوبية في هذه الكورة ملك لسراة حماة ، والشمالية لسراة المعرة وحلب ، وفلاحوها في الشمال سنية أعراب أو حضر ، وفي بعض قرى الجنوب نصيرية .

الطريق من حلب ، إلى سفيرة وخنصرة وجبلي الأحص والشبيث

يخرج السائح من شرقي حلب ، ويسير بادئ بدء في الطريق المعبدة الزاهية نحو دير الزور ، وفي (الكيلو متر ٨) ينحرف عنها نحو اليمين ، ويسلك لجنباً ير بعد قليل بشمالي قرية النيرب ، التي بني فيها منذ سنتين أماكن لطائرات الجيش الإفرنسي ، وقرية النيرب مبنية فوق أطلال بليدة قديمة ، لاتزال بعض آثارها ظاهرة في جنوبي القرية ، وقد كانوا وجدوا فيها في سنة ١٢١٠ هـ سائتين^(١) ، عليهما كتابات آرامية ، نقلتا وقتئذ إلى متحف اللوفر في باريس . وفي سنة ١٢٤٧ هـ تقبت بعثة المدرسة الأثرية الإفرنسية في القدس ، فكشفت في النيرب مدافن من القرنين السادس والسابع قبل الميلاد ، وعثرت على ألواح فيها كتابات باللغة البابلية من عهد بختنصر ، نصوصها عبارة عن صكوك مقاولات ، وعاديات وضع بعضها في متحف حلب الأثري ، منها ناووسان وجرار من الخزف ذات شكل غريب ، وتماثيل صغيرة جداً ، تمثل محاربين وفرسان وكاهنات عاريات أو لابسات إلخ ... ثم في (الكيلو متر ١٧) يمر السائح بقرية تل حاصل ، وفي (الكيلو متر ٢٢) بتل عرن ، وأهل هاتين القريتين أكراد ، وكانوا وجدوا في تل عرن عاديات من الخزف ، وفي (الكيلو متر ٢٥) سفيرة .

وسفيرة قرية جسيمة ، سكانها ٤٠٠٠ مسلمون عرب ، باحات دورها واسعة جداً ، في طرف كل باحة صف من القباب المخروطية الواسعة ، منها ماهو للبقر أو الغلال ، وفيها سوق ذو حوانيت عديدة ، وقد بني فيها منذ سنتين دار للبلدية جميلة ، تقطنها البلدية ومدير الناحية ، لأن سفيرة قاعدة ناحية كبيرة ، تشمل جبلي الأحص والشبيث والسهول

(١) السائتين تعريب كلمة buste الإفرنسية ، والسائتين Statue ، والنصب Stèle

المتددة حولها ، وتتبع قضاء جبل سمرعان الذي يكثر قائم مقامه في حلب ، وفي سفيرة تل كبير ، نقبه سنة ١٣٤٧ هـ أحد الأثريين ، فعثر فيه على بدن ضم من الحجر الحري الأسود ، في ظهره كتابة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، نقل إلى متحف حلب ؛ ثم وجد قبواً فيه هياكل بشرية ، وعلى مقربة منه باب كبير من أبواب الحصون بني بالحجر الحري المنحوت ، دل على أنه أحد أبواب سور مدينة سفيرة القديمة ، التي كان اسمها فيما يظن Sipri ، وأن هذا السور كان مبنياً من اللبن ، وعرضه أربعة أمتار ، وأنه كان فيه أبراج مدورة في كل أربعين متراً ، وأن سفيرة تعد أول ما اكتشف في شمالي الشام من المدن القديمة المحصنة ، على الطراز الآشوري الحي . والأرضون حول سفيرة واسعة مستوية ، ذات تربة رملية كسبية صفراء ، حفرت فيها آبار كثيرة تستخرج مياهها ، بما يدعونه غراف ، تدوره دابة . وأهل سفيرة رغم عراقتهم في الفلاحة ، لا يزالون وسط بين أهل البادية والحاضرة ، في معارفهم وأطوارهم وأزيائهم ، ينقسمون إلى أفناد (حمائل) شقي ، لا يخلو التنافر من بينها ، ولم أر في خلال زيارتي العديدة ، مما يزيل هذا التنافر في هذه القرية الجسية المغللة ، سوى مدرسة ابتدائية ، ذات ثلاثة صفوف لاتتفع غلة .

هذا ومن سفيرة لحب طوله ٩٥ كيلو متراً ، يأخذ القاصد نحو الشرق إلى مسكنة (باليس) في سقي الفرات ، فيمر به من جنوبي بحيرة الجبول ، بضياح بعضها يتلو بعضاً ، كأبي جرين وعقربوز ، وأبو دريخة وتل جلفوم ، وحقلة وجنيد - وفيها ضريح الشيخ جنيد - وأم عمود ، ولكل من هذه الضياح تلال صناعية ، تختلف بالكبر والصغر ، وأهلها جوالي ، نزحت من سفيرة تباعاً ، وقطنت . وبعد أم عمود ، تضيق الطريق بين سفح جبل الأحص وشاطئ بحيرة الجبول ، إلى أن تصل إلى بوز الخنزير ، وهو طرف جبل الأحص ومنتهاه ، ممتد كخيشوم الخنزير نحو الشرق ، ذو صخور حرية سوداء . وهنا تنحرف الطريق نحو الجنوب ، محاذية السفح الشرقي لجبل الأحص ، فتمر بضياح ، منها رسم النفل البقي في غربيها واد ، فيه رسوم بليدة ، تحتوي على أنقاض ثلاث كنائس ، وآثار رصيف وقناة ، ثم تمر الطريق بضياح : شلالة الكبيرة وشلالة الصغيرة ومزرعة الراهب ، إلى أن تصل إلى خناصره .

ومن أراد استئناف المسير شرقاً ، يمر بشاطئ بحيرة الجبول الجنوبي ، ويجتاز أوحالها

الجافة ، ويغادر على يمينه السهل الأفيح ، المحصور بين جبلي الأحص والشبيث ، وفيه في أنحائه الشرقية ضويعات تخص مجحم بن مهيد ، شيخ قبيلة الفدعان ، إحدى شعب عنزة ، الضاربة في شرقي ديار حلب . وفي جب علي ، وهو اسم إحدى هذه الضويعات ، أطلال كنيسة ذات أعمدة . وتسير الطريق نحو الشمال الشرقي ، فتمر في سفح جبل الشبيث الشمالي ، بقرية زبيد ، وهي في باب واد عريض ، وفيها أطلال ثلاث كنائس ، لاتزال الشمالية منها واقفة ، ويحيط بالتالي في الشمالي الغربي سور ، وقد استخرج لصوص العاديات من أهل حلب وسفيرة كثيراً من العاديات ، من زبد وباعوها لتجارها وغواتها ، وبعد زبد يذهب السائح في بركة قفراء معطشة ، لا يرى فيها إنساً ولا حساً ، سوى جمال البدو وبعض مضاربهم ، إلى أن يصل إذا قدرت له السلامة منهم ، في (الكيلو متر ١٢٠) عن حلب إلى مسكنة (بالس) .

ومن سفيرة إلى خنصرة حلب ثاني ، يمر بادئ بدء في سهل سفيرة ، بضريح الشيخ براق (؟) ، ثم يدخل أحد أودية أو منافذ جبل الأحص العريضة ، فيمر بضبعة اسمها المذينة بضم الميم وفتح الدال وسكون الياء ، ثم بزنيان ثم بعقربة ، ثم ينحرف للحب نحو الجنوب الشرقي ، ويشرع بتسلق منحدرات جبل الأحص ، فيصل في أعاليه إلى نجد شاسع ، طلق الفضاء تقي الهواء ، أول ضياعه برج أسامة ، وفيها برج قديم مربع ذو أحجار ضخمة ، لا يزال على بعض جدته ، وعلى يسار الحب الصالحية وبرج أنطاش ، ورسم عميش والحوير ، وعلى يمينه سحور وكفر حوت ، وسويان وغيرها ، وبعد الحوير ينتهي النجد ، ويهبط للحب واد ذي منغطفات عسيرة ، فيه من الضياع جب الأعمى والحبس ، والهربيكية ، ثم خنصرة في (الكيلو متر ٤٠) تقريباً عن حلب .

وخنصرة قرية في منتهى العمران على سيف البادية ، وفي سفح جبل الأحص الشرقي ، كانت قبل الفتح الإسلامي وبعده بليدة عامرة ، تدل على ذلك كثرة ما فيها من أسس الجدران ، وكسور الأعمدة والعتبات الضخمة ، بعضها عليه كتابات يونانية ، وكان حولها سور كبير لاتزال أسسه ظاهرة ، وكانت فيما مضى منزل بعض الخلفاء الأمويين كعمر بن عبد العزيز والوليد بن عبد الملك ، وكانت تسمى خنصرة الأحص . قال عدي بن الرقاع لما وفد فيها على الوليد :

وإذا الريح تتابعت أنواؤه فسقى خنصرة الأحص وزادها
نزل الوليد بها فكان لأهلها غيثاً أغاث أنيسها وبلادها

وظلت خنصرة وقرى جبل الأحص التابعة لها ، عامرة إلا قليلاً ، إلى القرن السابع ، إذ يقول ياقوت عنها : « خنصرة مدينة كان ينزلها عمر بن عبد العزيز ، وهي صغيرة ، وقد خربت الآن ، إلا اليسير منها » ويقول أبو الفداء في (تقويم البلدان) : « خنصرة وهي في طرف البرية شرقي حلب ، بميلة إلى الجنوب على مرحلتين منها ، قال ابن حوقل : كان يسكنها عمر بن عبد العزيز ، أحد خلفاء بني أمية » اهـ . ولا يعلم العهد الذي خربت به خنصرة وقراها بالكلية ، ولعله قبيل الفتح العثماني أو بعده ، وقد ظلت خراباً يباباً ، لاسكان فيها سوى أعراب البادية ، الذين يرون بها مروراً إلى أن كانت سنة ١٣٢٠ هـ ، جاء فريق من مهاجري الشركس من قبيلة القبارطاي ، فأسكنتهم الحكومة العثمانية فيها ، فعمروها وردوا عيث البادية عنها بسواعدهم ، وبنوا بأحجارها القديمة دوراً حسنة نظيفة ، وحفروا آباراً وأحدثوا قليلاً من البساتين ، لكنهم وقد تمادت سنو المحل على ديارهم الفقيرة بالأمطار ، أصبحوا في أيامنا هذه يتمنون لو يهاجروا مرة أخرى إلى أرض تروي عطشهم ، وتزيل سغبهم ؛ ولولا أن أسعفتهم الصدف في السنة الماضية بالعثور على قناة رومانية قديمة ، شرعوا بكرمها ، وإرواء بعض الزروع بمياهها ، لساءت حالتهم كثيراً .

وفي جنوبي خنصرة تمتد سباسب وقفار ، تصل إلى جبل البلعاس ، فيها على بعد ٥٦ كيلو متراً عن خنصرة ، خرائب الحمام وأسرية والأندرين ، التي بحثنا عنها في حديث سلمية ، يمكن الوصول إليها من خنصرة ، بعد اجتياز تلك السباسب التي تتخللها سباح ، وحولها مضارب الأعراب وجماهم السارحة ، وأحياناً في سني الخوف أرجال من غزاة البادية .

وجبل الأحص الذي تقدم ذكره جبل بركاني ، ذو أحجار حرية سوداء ، عظيم المساحة ، واسع الامتداد في ظهره ، يؤلف نجداً مرتفعاً عما حوله ، لكنه لا يعلو عن سطح البحر أكثر من سبعمئة متر ، وهو يشرف في الشمال على سهول قريتي سفيرة وعسان ، وبحيرة الجبول وسهول نهر الذهب ، الممتدة إلى الباب وبزاعة ، وفي الشرق على السهل المحصور بينه وبين جاره جبل الشبيث ، وفي الغرب على السهل الممتد بينه وبين مطبخ
جولة أثرية (١٤) - ٢٠٩ -

قنسرين ، وفي الجنوب على القرى الممتدة نحو الخرايج والسباسب ، الزاهبة نحو الأنسردين وجبل البلعاس . والنجد المتسع في جبل الأحص ، ذو تربة رملية طينية حمراء ، خالية من الأحجار في بعض المواقع ، وكثيرتها في بعض ، وهي عذى لاعيون سارية ولا مياه جارية ، وكميات الأمطار تتراوح بين ٣٠٠ - ٤٠٠ ميلتر ، وتقل كلما ابتعدت نحو الشرق ، وأجل قرى الأحص : بنان وسميرية ، والحاجب والجعارة ، وكفر أكار والزراعة ، وبلوزة وسرج فارح ، وأم جرن وبرج عزاوي ، والمغيرات والطيبة ، والقنيطرات وطاط ، ومنعيا وسويان ، والحوير وبيشة ، ورسم عيش والمنطار ، وغيرها . ويتفرع من هذا النجد أودية ووهاد عريضة ، قليلة العمق أو كثيرته ، اختبأت في الجنوبية منها الحبس والمربكية ، وجب عليس ودار الباقيات ، وجب الأعلى وغيرها . وتربة هذه القرى خصبة ، وحنطتها المعروفة في حلب بالأحصية مشهورة بمجودتها ، ولو كان قطان هذا الجبل غير هؤلاء الأعراب الصعاليك ، لدر من الخيرات ما يثير العجب . لأن هؤلاء رغم سكنهم في القباب الخروطية الشكل ، منذ عهد أصلان باشا الذي تقدم ذكره في بحث كورة العلا ، أي منذ نحو ثلثي قرن ، ما برحوا في أزياء البداوة وجلفتها ، وجهلها وإعراضها عن النظافة ، في السكن والملبس ، وعن إجادة الحرث وتعمد الزرع ، لم يتح لهم بعد من ينورهم ويرشدهم ، إلى مافيه صلاح دينهم ودنياهم ، وهم لنقاء هواء الأحص ، وجودة مائه ، طوال القامة عراض الهامة ، مقتولو السواعد ، على خلاف أهل مطبخ قنسرين ، ذوي الوجوه المكتئبة والأجسام السقيمة ، والأيدي المرتجفة . وأعراب جبل الأحص منقسمون إلى قبائل وأفناد شتى ، لاصلة بينها ولا أرومة معروفة لمنشئها ومحل ورودها ، هل هو من سقي الفرات كما يزعمون ، أم من غيره ، وهل أحد من هؤلاء متحدر من آل بشار الذين ذكر القلقشندي (صبح الأعشى ٤ / ٢٣٤) أن منازلهم في عهده - القرن الثامن - كانت في الأحص . وأجل قبائل الأحص عدداً ومكانة (السكن) ، ولا يعرف معنى لهذا الاسم ، هل هو لأنهم أسكنوا بعد ترحالهم ، أم لسبب آخر . وكل قرى الأحص من (أملاك الدولة) كقرى مطبخ قنسرين ، وكان لها إدارة خاصة تدعى شعبة ، مركزها في قرية بنان ، وكان لهذا المركز بناء كبير ذو طبقتين ، خاص بالموظفين ، ودور خاصة بأسرهم ، ظلوا فيها نحو أربعين سنة إلى أن بدا للحكومة منذ عهد قريب ، إلغاء هذه الشعب ونقلها إلى حلب ، فألغتها فقضي بذلك على مباني بنان ، أو كاد .

وجل ضياع الأحص بنيت فوق أطلال دارسة ، ورسوم طامسة ، لضياع سابقة تدل آثارها على عمران هذا الجبل وازدهاره ، اللذين داما في ظني ، إلى القرن السابع ، أو الثامن الهجريين . وتكاد لا تخلو ضيعة فيه ، من أحجار منحوتة ، وأبار وكهوف محفورة ، وقطع أعمدة وعتبات مسكرة مبعثرة ، أجملها في برج عزاوي التي فيها أطلال كنيسة بيزنطية ، لا يزال أحد أبوابها ماثلاً ، وفوقه عتبة عليها كتابة يونانية ، وفي ضيعة بناوي أطلال كنيسة ، وجدوا فيها فيما قيل منبر عليه كتابة باللغة السريانية القديمة ، وفي قرب عقربة أكمة فيها سور مدور غريب الشكل .

وما يدل على عمران جبل الأحص فيما مضى ، ما ذكره ياقوت في معجمه ، قال : « الأحص كورة كبيرة مشهورة ، ذات قرى ومزارع بين القبلية وبين الشمال من مدينة حلب ، وأما شبيث فجبل في هذه الكورة ، أسود في رأسه فضاء ، فيه أربع قرى ، وقد خربت جميعها ، ومن هذا الجبل يقطع أهل حلب وجميع نواحيها حجارة رحيهم ، وهي سود خشنة تعرف بالشبيثية ، وهو الذي ذكره النابغة الجعدي في قوله :

فقال تجاوزت الأحص وماءه وبطن شبيث وهو ذو مترسم

وأنشد الأصمعي لرجل من طيء ، وكان له ابن اسمه زافر ، مات في دمشق فقال :

ولا أب ركب من دمشق وأهلـه ولا حص إذ لم يأت في الركب زافر
ولا من شبيث والأحص ومنتهى الد طاييا بقنسرين أو بخناصر

وتشوق ابن أبي حصينة المعري إلى الأحص ، فقال :

لج برق الأحص في لمعانه فتذكرت من وراء رعانه^(١)
فسقى الغيث حيث ينقطع الأو عس من رنده ومنبت بانه^(٢)
أو ترى النور مثل مانشر البر د حوالي هضابه وقنانه
تجلب الرياح منه أذكى من المس لك إذا مرت الصبا بمكانه « اهـ

(١) الرعان : القمم البارزة في الجبال ، ومفردها رعن .

(٢) مكان أو عس : ماتت كب عن الغلظ والأرض لم توطأ (المحيط للفيروزآبادي) ، والرند شجر ذو رائحة ، والبان شجر جوز الطيب .

وجبل الأحص في يومنا أجرد ، لم أرفيه حرجة ، حتى ولا شجرة أو نجمة يستظل بها ، ولا رندة أو بانة تشم رائحتها ، وأهله الأعراب أعداء لكل خضرة ونضرة ، لا تمكنهم جفوة البداوة من غرس شيء من ذلك ، حتى ولا من إنشاء كروم العنب واللوز ، والتين وأمثالها ، مما تعيش عذياً وتدر ريعاً ، يدرئون عنهم بعض ما يعانونه من المسغبة ، وإذا سعى بعضهم ، وأنشأ في رقعة صغيرة ما يسوغ التمزق به ، لا يتورعون عن استئصاله ، وحرمان صاحبه في أول فرصة أو ثورة . وربما كان لتكون هذا الجبل البركاني ، وقسوة صخوره الحريية السوداء ، التي لا تمتص ولا تحفظ الرطوبة ، أثر في تجرده عن الحراج والينابيع ، وتجرد سكانه من الدماثة والكياسة .

طريق حلب - الباب

(٤١ كيلو متراً)

من يخرج من حلب قاصداً الباب ، يمر بادئ بدء في (الكيلو متر ٩) بكروم ضيعة تدعى النقارين ، ثم في (الكيلو متر ٢١) بضيعة صوران ، على الطريق المعبدة حديثاً ، وكنا لمضي سنتين ، نمر في هذه الطريق بضيعة مران إلى الشمال الغربي من صوران ، ثم بضياح سرجة في (الكيلو متر ٢٦) ، فالمديونة في (الكيلو متر ٧٩) ، فدير قاق في (الكيلو متر ٣٢) ، فالباب في (الكيلو متر ٤١) . وليس في هذه الطريق سوى سهول ، ذات تلعات ومنخفضات متوجة ، وهي جرداء مطردة المناظر ، وأرضها صفراء رقيقة في الغالب ، وبيوت ضياعها قباب مخروطية ، والسائر في هذه الطريق ، يلمح في الأفق الجنوبي جبل الأحص ، الذي تقدم وصفه ، يراه ممتداً من الشرق إلى الغرب ، كجدار رمادي اللون ، متواضع في علوه ، وفي شماليه سبخة الجبول ، تظهر كصفحة من اللجين .

الباب وبزاعة وتادف : الباب بليدة حسنة نزهة ، تحيط بها كروم العنب وبساتين الأشجار والبقول ، فهي وجارتها بزاعة وتادف ، كالغوطة الخضراء في برية قفراء ، عدد سكانها ٩٠٠٠ مسلمون عرب ، خلا عدد ضئيل من جالية الأرمن ، تعلو عن البحر ٣٧٠ متراً ، وفي غربيها أنشئت دار حكومة حديثة جميلة ، وفي داخلها مدرسة ابتدائية حديثة ، وعشرة جوامع ومساجد ، وحمامات وأسواق حافلة بالحوانيت والأفران والمقاهي والمصايغ والمعاصر . والباب تمتاز على غيرها من مراكز الأقضية في ولاية حلب ، بنقاء هوائها ، وجودة وغزارة مياهها ، وكثرة بساتينها وكرومها ، ووفرة بقولها ، ولذة أعنايا ورمانيها ، ودورها حجرية على طراز دور حلب ، وأزقتها مبلطة ، فهي تصلح للاصطياف لو تيسرت فيها الوسائل .

قال أبو الفداء في تقويم البلدان : « الباب وبزاعة ، من جند قنسرين . الباب بليدة

صغيرة ، ذات سوق وحمام ومسجد جامع ، ولها بساتين كثيرة نزهة ، وبظواهرها مشهد به قبر عقيل بن أبي طالب ، وهي على مرحلة من حلب في الجهة الشمالية الشرقية « ا هـ . قلت : إن هذا المشهد على ظهر أكمة مرتفعة غربي الباب ، فيها مسجد ذو مأذنة ، ودور يقطنها خدام المشهد مع أسرهم ، تظهر من كل الأنحاء البعيدة عن الباب .

وقال عن بزاعة : « وأما بزاعة فضويعه من أعمال الباب » ا هـ . على حين أن بزاعة في يومنا قرية كبيرة ، تبعد عن الباب إلى الشرق نحو أربعة كيلومتر ، بينها أرض بطحاء متسعة ، أسماها القدماء وادي بطنان ، وذكروا رياضها ومياهها . قال ياقوت : « وبطنان اسم واد بين منبج وحلب ، بينه وبين كل واحد من البلدين مرحلة خفيفة ، فيه أنهار جارية وقرى متصلة قصبته في بزاعة » . وقد ذكر امرؤ القيس في شعره بعض قراه :

ألا رب يوم صالح قد شهدته بتصادف ذات التسل من بطن طرطرا

وفي شمالي الباب تل صناعي أثري ، . يعرف بتل بطنان ، تحريفاً عن بطنان ، حوله كروم عنب واسعة ، وفي جنوبها قرية تدعى أبو طلطل ، وهي طرطرا الواردة في شعر امرئ القيس ، وكان على تل بطنان في القرون الغابرة دير ، يقال له دير حبيب ، نسبة إلى حبيب بن مسلمة الفهري . وفي وادي بطنان هذا ، يسيل نهر الذهب ، الذي يبتدئ من عيون في بزاعة ، ثم ترفده في الباب عيون أخرى تجري في قنوات قديمة ، كالتي ذكرنا وجودها بكثرة في سلمية ومنبج ، فيعظم ماؤه ، وترتوي منه بساتين الباب ، وما لم يرتو منه ، يروى بالآبار والغاريف ، ثم يمر بتادف وأبي طلطل ، ثم ترفده عيون أخرى إلى أن يصير قادراً على تدوير بضعة أرحاء ، ثم يصب في الشتاء في سبخة الجبول ، لاستغناء أهل القرى التي على ضفتيه عن السقي شتاء ، فلا يزال الماء في السبخة إلى زمن الصيف ، فيهب عليه الريح الغربي فيجف الماء شيئاً فشيئاً ، ويرسب الملح ، فتمتار منه البلاد ، قيل ، وسمي هذا النهر بنهر الذهب لأن أوله بالقبان ، وآخره بالكيل - والآن بالقبان أيضاً - أي أنه يزرع عليه في أوله الحبوب والبقول التي توزن بالقبان ، وآخره يصير ملحاً ، وهذا أيضاً يكال أو يوزن . وكان اسم هذا النهر قديماً فيما قيل Dardax .

قال ياقوت عن بزاعة : « بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان ، بين منبج وحلب ، وفيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة . قال فيها شاعر حلبي :

لو أن بزاعة جنة الخلد ما وفي رحيلي إليها بالترحل عنكم

وكان يعمل في بزاعة الكرباس ، وهو ضرب نسيج القطن ، ويحمل إلى مصر ودمشق ، قيل وكانت الباب وبزاعة قريتين عظيبتين ، في كل واحدة منها منبر ، ولها بساتين نزهة جميلة ، ولكل منها وال وقاض ، وكانت بزاعة حصناً منيعاً له خندق ، لم يبق منها الآن أثر ، وكان الروم استولوا على هذا الحصن سنة ٣١٣ هـ بالسيف ، ثم رحلوا عنه ، وعادوا في سنة ٥٣٢ هـ وفتحوه بالأمان ، ثم غدروا بأهله ، ونادى مناديه من تنصر فهو آمن ، ومن أبي فهو مقتول أو مأسور ، فتنصر منهم أكثر من خمسة إنسان ، وانقطعت الطريق على بزاعة ، وصارت على طريق بالس ، وضاق بالمسلمين الخناق ، إلى أن استنقذه الأتابك (عماد الدين زنكي) سنة ٥٣٣ هـ ، وخرب الحصن ، وأبقى بزاعة عامرة ، وقيل بل الذي خرب حصن بزاعة في سنة ٥١٤ هـ (جوسلين) الإفرنجي صاحب الرها ، وأما الباب فقد كانت كما هي الآن ، أكثر عمارة من بزاعة ، وكان فيها مغاير تعصم أهلها من العدو ، وكان بها طائفة كثيرة من الإسماعيلية ، هوجوا فاعتصموا في المغاير ، إلى أن استخرجوهم بالدخان ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة .

وتادف في جنوبي الباب بينهما نحو ثلاثة كيلو متر ، وهي قرية كبيرة ذات أسواق وأحياء ودور حافلة ، وحوها بساتين نزهة ، فيها عنب ورمان لذندان ، وهوؤها وماؤها كالباب ، لولا أن مجاري الأقدار المكشوفة ، المنتشرة في أزقتها تفسد هواءها ، وفي تادف كنيس فيها مغارة ، في داخلها مقام للعزير ، الذي أملى التوراة على بني إسرائيل بعد فقده على ما يقول اليهود ، لذلك كثيراً ما يأتونها ويصطفون فيها ، ويحتفلون فيها بعيد المظال احتفالاً عاماً .

وفيها يقول أبو عبد الله القيسراني :

مازلت أخدع عن دمشق صبابتي حتى مررت بتادف فكأنني بالنيريين

وفي جنوبي قضاء الباب ، على بعد نحو ٣٦ كيلو متراً ، تقع سبخة الجبول أو مملحة الجبول ، تجتمع أكثر مياهها من نهر الذهب الذي تقدم ذكره ، وأقلها من الأودية المنحدرة من جبل الأحص ، فتنبطح في أرض السبخة ، وتصير رقراقاً متسعاً ، يستطيل من

الشرق إلى الغرب ، بين قرية الجبول شمالاً ، وقرى ناحية سفيرة الواقعة في سفح جبل الأحص - التي تقدم ذكرها في بحثه - جنوباً ، يحيطه نحو خمسين كيلو متراً ، فإذا جاء عليه شهر تموز جف الماء ورسب الملح ، وهو في غاية الجودة ونساعة البياض ، وصدق الملوحة وسرعان الذوبان في الماء ، ومملحة الجبول تنتج للحكومة في العام نحو ثمانية إلى عشرة ملايين كيلو غراماً من الملح ، تحصره إدارة بيت المال ، ولها في قرية الجبول مبان وموظفون ، يسهرون على حفظ الملح وجمعه ، تجدد الملح أمام تلك المباني ، قد جمع على هيئة أكوام عظيمة ، أعلى من بيادر الغلال ، تصعد إليها الجمال المثقلة ، فتفرغ أحمالها ، وتعود أدرأجها إلى وسط البحيرة ، وهو بعد تبعثته بالأكياس ووزنه ، يرسل إلى حلب لبيع فيها ، أو يوزع على مختلف البلاد الشامية . وبحيرة الجبول هذه لا يوجد فيها شيء من الحيوانات المائية ، سوى أنه عشية كل ليلة من فصل الربيع ، يرحل إليها للبيت ، أسراب عديدة من الأوز والبط ، تضي سحابة نهارها في بحيرات العمق ، لتقتات من حيواناتها ، فتقبل إليها صباحاً ، وترحل عنها إلى بحيرة الجبول مساءً فترقد فيها ، لا ينغصها فيها شيء من الهوام ، التي توجد في البحيرات العذبة ، كالبعوض والقمل ، إذ لا توجد لها فيها أثر بسبب ملوحة مائها .

وفي قضاء الباب كثير من القرى ، التي يقطنها أعراب ، لا يزالون على الصعلكة ، وكثير من عادات البداوة ، بعضهم فلاحون مقيمون ، وبعضهم رعاة رحالون ، أجملهم عدداً وقدرأً الحديديون ، من أفنادهم : الغناطسة والعصيبيات ، والتويمات والبوكردي ، والبوغيث ، والأبو ثابت ، والأبو عطيري ، ثم الوهب والكيار ، وبني زيد والمجادمة ، والأبو بطوش والهنادي - وهؤلاء أعقاب أعراب الهنادي المصريين ، الذين جاؤوا في جيش إبراهيم باشا سنة ١٢٤٨ هـ - والأبو عاصي والأبو جميل ، والفردون والأبو سبيع ، وفي شمالي قضاء الباب ، ناحية تدعى صوسنباط ، فيها نحو خمس عشرة قرية يقطنها أكراد ، ينتسبون لقبائل أسماؤها ؛ قره كيچ وكدكان ، وشيخان وبش التي ، وقرى عديدة أخرى يقطنها تركان ، فاتني ضبط أسماء قبائلهم . وفي جنوبي هذا القضاء أيضاً ، ناحية دير حافر ، تمتد قراها إلى جنوبي الطريق الآخذة من حلب إلى باليس (مسكنة) حيث سيف البادية .

طريق الباب - منبج (٤٥ كيلو متراً)

يخرج السائر من شرقي الباب ، ويمتاز الوادي المتسع النضر ، الممتد بينها وبين بزاعة ، وبعد أن يغادر بزاعة على يمينه ، ينطلق نحو الشمال الشرقي في برار جرداء ، أعذاء مطردة المناظر ، بعثرت فيها كثير من الضياع والضيعات ، ذات القباب المخروطية ، منها الخفية والعجمي وجب البرازي ، على يساره في الجهة الغربية الشمالية ، وزرزور وأم شكيف ، وأم عدسة وتل تورين ، على يمينه في الجهة الشرقية الجنوبية . ثم يمر في (الكيلو متر ٢٣) بضبعة تدعى العريمة ، مبنية فوق رسوم دارسة ، ممتدة على مسافة غير يسيرة ، تدل على عمرانها ومكائنها الزائدتين فيما مضى ، لكن لم نعثر على أصل لهذه الحربة ولا خبر ، حتى أن الأثري (كيليوم راي) الذي زارها في حدود سنة ١٨٦٠ م ، لم يجد فيها وقتئذ سوى كتابة مدثورة على حجر ، استطاع أن يفهم منها ، أن هذا الحجر لإعلام مسافات الطريق ، وأن عليه اسم الأمراطور تراجان . ولا تزال آثار هذا الطريق الروماني ظاهرة بين الباب ومنبج . وفي العريمة مخفر بني حديثاً لجنود الدرك . ثم يمر السائر بأرض العوسجلي الصغيرة ، ويترك على يساره الشورقلي ، ثم يحتاز أرض أم عدسة ، ويترك على يساره كواكب آبار عظيمة ، لقناة قديمة كبيرة ، ممتدة من الغرب إلى الشرق ، إلى أن يشرف على بحيرة منبج ، وبلدتها ومبانيها الغربية الحديثة .

منبج : منبج بليدة صغيرة ، كان لها شأن وذكر غير يسيرين ، قبل الإسلام وبعده ، تبعد عن حلب إلى الشمال الشرقي زهاء ٨٠ كيلو متراً ، وعن شاطئ الفرات الأيمن ١٥ كيلو متراً . وهي تقع في فضاء واسع ، مرتفع عما حوله قليلاً ، ينتهي بتلعات ومنبسطات متوجة ، تنحدر نحو الفرات في الشرق ، وتمتد نحو نهر الساجور في الشمال ، ونهر أبو قلقل في الجنوب ، وهما من روافد الفرات ، وتتجه نحو ضياع وضواحي بليدتي الباب وبزاعة في الغرب . ومنبج تعلو عن البحر ٤٤٧ متراً ، سكانها ٣٨٠٠ منها ١٨٠٠ شركس و ١٠٠ أرمن ، والبقية عرب أخلاط من حلب والباب وغيرها . وقد بني في غربيها

منذ سنتين دار حديثة جميلة للحكومة ، ومثلها للبلدية ، وبني قبل عشر سنوات مدرسة للبنين ، وفيها سوق صغير يحتوي على حوانيت ومقاهي بنسبة الحاجة ، وفي غربها بحيرة صغيرة ، مياهها من رشح القنوات القديمة الكثيرة ، يقام على شاطئها كل يوم جمعة سوق عام لبيع وشراء الدواب . وفي منبج مسجد جامع قديم من آثار نور الدين محمود زنكي ، بني سنة ٥٥١ هـ كما زبر على حجرة في مأذنته ، ربه السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٣٠٤ هـ بعد أن كان داثراً ، وفي جنوبها مسجد آخر فيه قبر الشيخ عقيل المنبجي . وهواء منبج جيد ، وماءها شروب وغزير ، ولا يشوبها سوى الرياح الغربية التي تهب في الربيع والصيف بشدة هائلة ، تنثير الغبار وتعمي الأبصار ، ولو عمرت ضاحيتها ، وزادت مساحة مغارسها ، لخف ضرر هذه العواصف في الجملة .

منبج بلدة حثية وآرامية ، واسمها الحالي مشتق من كلمة Mabbog مبوج ، الذي اصطلح عليه منذ أقدم العصور سكان شمالي الشام ، ولما جاء اليونانيون السلوقيون سموها Hierapolis هيرابوليس ، ومعناه المدينة المقدسة ، لأنها كانت العاصمة الدينية لكل بلاد الآراميين . وقد أسهب المؤرخ (لوسيان) في وصف ما كان عليه هيكل (هيرابوليس) من الفخامة والغنى ، وأنه كان أعظم معابد الآراميين في بلاد الشام في تلك الأحقاب ، كان يعبد فيه رب العواصف (هاداد) ، ورب المياها (آتراكتيس) التي كانت تعد أيضاً ربة بلاد الشام . وكان تمثال هذه الربة ، يمثلها راكبة على مركبة تجرها الأسود ، وفي يدها آلة موسيقية وعلى رأسها تاج . وكان ألوف من الحجاج ، يتوافدون في أيام الأعياد ، لزيارة هذه الأرباب والاحتفال بها . حتى كانوا يضعون لها الأطفال ، يضعونهم في أكياس ، ويقذفون بهم إلى البحيرة من أعلى أروقة الهيكل . وكان حول الكاهن الأكبر كثير من الكهان الصغار ، الذين يتقبلون النذور ، وكانوا لا يكتفون بذلك . بل ينتقلون بعد الأعياد في البلاد ، كالمسولين ويحبون الصدقات . وقد أثرت ديانة (هيرابوليس) في عقول اليونانيين ، وانتشرت وقتئذ عبادة الربة (آتراكتيس) في أوروبا . وذلك تارة على يد اليونانيين المتطوعين في خدمة ملوك الشام ، الذين كانوا يرون تلك العبادة ويعجبون بها ، وتارة على يد التجار الشاميين ، الذين كانوا يتجولون ويصلون إلى بلاد الغرب .

وخلا المكانة الدينية ، فقد كان لمنبج مكانة حربية ، وصارت من أهم مراكز الجيش الروماني ، الذي كان يفد إلى فرضة السويديّة ويمر بأنطاكية ، ثم يأتي إلى منبج ، ليتوزع

منها ، ويساق للغارة على ما بين النهرين وبلاد الفرس . وكانت منبج مدينة محصنة ، شاد فيها (يوستنيانوس) أسواراً منيعة ، عجز عن اقتحامها (كيخسرو) ملك الفرس لما جاء لمهاجرة مدن شمالي الشام ، فاكتمى بمطالبة أهلها بثلاثة آلاف دينار . ولما مر القيصر (يوليانيوس) في القرن الرابع الميلادي بمنبج ، وجد هيكلاً خراباً ، ولا يعلم سبب وزمان خرابه .

ولما جاء المسلمون ، قَدَّمَ أبو عبيدة بعد فتح حلب وأنطاكية عياض بن غم إلى منبج ، ثم لحقه ، وقد صالح أهلها على مثل صلح أنطاكية ، فأنفذ ذلك ، وجعلت منبج في عهد الأمويين من أعمال جند قنسرين ، وفي زمن هارون الرشيد جعلت مدينة العواصم ، كما قدمنا ذكره في بحث قنسرين . وتقلبت بمنبج الأحوال كما جرى في متبوعتيها قنسرين وحلب ، وتعاورتها أيدي كثير من ملوك المسلمين وأمرائهم . لكن مؤرخي العرب لم يذكروا من أخبارها إلا تنفأ التقطناها ، منها أنه في سنة ١٣٢ هـ جاءها عبد الله بن علي بن عباس فاتح الشام للعباسيين ، لاحقاً مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فنزل بها ، وراسل منها أهل حلب بالبيعة للعباسيين . وفي سنة ١٧٣ هـ لما تولى ابن أخيه عبد الملك بن صالح بن علي جند قنسرين ، أقام في منبج ، وابتنى فيها قصرًا لنفسه ، وبستاناً إلى جانبه كان يعرف به ، وابتنى أخوه عبد الله مثله في سامية ، كما ذكرناه في حديثها ، وكما بنى أبوها من قبل قصر بطياس ، شرقي باب النيرب في حلب . وفي سنة ٢١٥ هـ سار الخليفة المأمون لغزو الروم ، ووصل إلى منبج ، ثم إلى أنطاكية ، ثم إلى المصيصة وطرسوس ، ودخل منها إلى بلاد الروم ، وغزا وعاد . وفي سنة ٢٢٣ هـ بلغ المعتصم أن العباس بن المأمون ، يريد أن يثب عليه ويأخذ الخلافة منه ، فدعاه وسلمه إلى أحد قواده ، فلما وصل إلى منبج ، طلب العباس الطعام فأكل ومنع الماء ، حتى مات بمنبج . وفي سنة ٣٥١ هـ أسر الروم الشاعر الشهير الأمير أبا فراس الحرث بن سعيد بن حمدان من منبج ، وكانت إقطاعاً له متقلداً بها ، من قبل ابن عمه سيف الدولة ، وحملوه إلى القسطنطينية ، وظل في أسرهم أربع سنوات ، وهو يرسل سيف الدولة بغرر القصائد ، ويطلب فكاهه حتى افتكه . وفي سنة ٤٦٢ هـ استولى الروم على منبج ، وكانت في حوزة محمود بن نصر بن مرداس ، وقتلوا أهلها ونهبوها ، وخرّبوا أسوارها ، ثم رحلوا عنها لجوعهم ، وفي سنة ٤٧٩ هـ جاء السلطان ملكشاه السلجوقي إلى شمالي الشام ، وقصد منبج

فملكها ، وكانت في حوزة شرف الدين مسلم بن قريش العقيلي وسار منها إلى حلب . وفي سنة ٥٠٤ هـ سار الإفرنج بقيادة (تنكرد) صاحب أنطاكية ، وملكوا الأثارب وزردنا ، وقتلوا أهلها . ثم ساروا إلى منبج وبالس ، فوجدوها قد أخلاها أهلها ، فعادوا عنها . وذكر مؤرخو الإفرنج ، أن معركة هائلة حدثت حول أسوار منبج في سنة ١١٤٢ م ، بين (جوسلين) الإفرنجي صاحب الرها و (بلك بن بهرام بن أرتق) صاحب حلب ، وأن الدائرة دارت على (بلك) ، ولم يذكر مؤرخو العرب هذه المعركة ، بل ذكروا أن جوسلين في سنة ٥١٤ هـ أغار على جموع العرب والتركمان ، وكانوا نازلين بصفين ، فغنم من أموالهم ومواشيهم شيئاً كثيراً ، ثم عاد إلى بزاعة فخر بها ، وذكروا أنه في سنة ٥١٥ هـ كان بين (بلك بن بهرام بن أرتق) وبين (جوسلين) حرب انتصر فيها بلك ، - ولعل ذلك كان حول أسوار منبج ، وكانت النتيجة على خلاف قول مؤرخي الإفرنج - وقتل من الفرنج وأسر جوسلين ، وأسر معه ابن خالته (كليام) ، وجماعة من فرسانه المشهورين ، إلى أن فكهم في سنة ٥١٧ هـ الإفرنج قسراً ، من المكان الذي كانوا محبوسين فيه . وفي سنة ٥١٨ هـ قتل بلك ، وسببه أنه قبض على الأمير (حسان البعلبكي) صاحب منبج ، وسار إلى منبج ، فملك المدينة وحصر القلعة ، فبينما هو يقاتل ، إذ أتاه سهم فقتله ، لا يدري من رماه ، فاضطرب عسكره وتفرقوا . وخلص حسان صاحب منبج ، وعاد إليها وملكها . وفي سنة ٥٧١ هـ سار السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى منبج ، فحصرها وصاحبها قطب الدين (ينال بن حسان) المنبجي ففتحها عنوة ، وأسر ينال ، وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه . وفي سنة ٥٨٦ هـ أقطع السلطان صلاح الدين منبج وقلعة نجم ، إلى ابن أخيه الملك المظفر (تقي الدين عمر) ، زيادة على ما بيده في حماة والمعة وسلمية وغيرها . وبعد وفاته انتقلت إلى ابنه المنصور ، إلى أن تنازل عنها في سنة ٥٩٦ هـ بأمر الملك العادل ، إلى ابن المقدم الأمير (عز الدين إبراهيم) ، ولما توفي عز الدين إبراهيم في سنة ٥٩٧ هـ ، انتقلت إلى أخيه (شمس الدين عبد الملك) . وما كاد يستقر هذا في منبج ، حتى سار إليها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي صاحب حلب ، وحاصرها وملك منبج ، وعصى عبد الله بالقلعة ، فحاصره ، ثم أنزله بالأمان واعتقله ، وملك قلعة منبج ، ثم سار إلى قلعة نجم ، وبها نائب ابن المقدم فحصرها ، وملكها أيضاً . وأرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماة ، يبذل له منبج وقلعة نجم ، على أن يصير معه على عمه الملك

العاقل ، فاعتذر صاحب حماة باليمن التي في عنقه للملك العادل ، فلما أيس الملك الظاهر منه ، سار إلى المعرة وكفر طاب وفامية وحماة ، وأجرى في هذه البلاد ما ذكرناه في أبحاثها . وفي سنة ٥٩٨ هـ خرب الملك الظاهر قلعة منبج ، خوفاً من انتزاعها منه ، وأقطع منبج بعد ذلك عماد الدين (أحمد بن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب) . وفي سنة ٦٣٨ هـ كثر عبث الخوارجية وفسادهم ، في بلاد حلب ، بعد أن كسروا عسكر حلب مع المعظم (تورانشاه بن صلاح الدين) ثم ساروا إلى منبج ، وهجموها بالسيف ، وفعلوا من القتل والنهب والفحش ، مثلاً ارتكبه التتر ، ثم رجعوا إلى بلادهم . وفي سنة ٧٤٤ هـ وقعت زلزلة عظيمة ، خربت بحلب وبلادها أماكن لاسياً منبج ، أقلت ساكنيها ، وأزالت محاسنها ، وجعلت ابن الوردى يقول فيها :

منبج أهلها حكو دود قز عندهم تجعل البيوت قبوراً
رب نعمهم فقد ألفوا من شجر التوت جنّة وحريرا

مما يدل على أن منبج كانت متقدمة في تربية دود الحرير وزراعة التوت . وذكر ابن الوردى في حوادث سنة ٧٤٩ هـ التي اشتد فيها الطاعون الهائل : أنه ظهر بمنبج على قبر النبي مقي ، وقبر حنظلة بن خويلد أخي خديجة - رضي الله عنها - ، وهذان القبران بمشهد النور خارج منبج ، وعلى قبر الشيخ عقيل المنبجي ، وعلى قبر الشيخ ينوب ، وهما داخل منبج ، وعلى قبر الشيخ علي ، وعلى مشهد المسيحات شمالي منبج ، أنوار عظيمة حتى انبهر لذلك أهل منبج .

فيظهر مما ذكرناه ، أن المحاصرات والكوارث المتوالية ، لاسياً زلزلة سنة ٧٤٤ هـ ، وطاعون سنة ٧٤٩ هـ ، جعلت أكثر منبج خراباً ، كما أيد ذلك ابن جبير وأبو الفداء أيضاً ، فيما نقله عنها ، إلى أن جاء تيمورلنك سنة ٨٠٤ هـ ، فأجهز عليها بالكلية ، وجلا عنها من سلم من أهلها ، واستمرت خراباً يباباً ، يأوي إليها رحالة الأعراب والتركمان إلى سنة ١٢٩٥ هـ ، وفيها قدم على حلب فريق من قبيلة أبزاخ الشركسية ، مهاجرة من بلاد القفقاس ، فأقطعهم الحكومة العثمانية خبرة منبج ، فتديروها وبنوا لهم من أنقاضها بيوتاً سكنوها . وفي سنة ١٣٠٢ هـ أمر السلطان عبد الحميد بترميم جامع منبج ، وبناء مدرسة على نفقة خزينته الخاصة ، ثم تهافت على منبج أخلاط من العرب ، من أهل حلب والباب

وغيرها ، تجار وصناع ، حتى فاقوا الشركس في العدد ، وتقدمت منبج في العمران . وبعد أن كانت محرومة من البساتين والأثمار والبقول ، أخذ أهلها منذ عشر سنوات ، يغرسون فيها البساتين ، ويحفرون الآبار ويزرعون الخضر ، حتى كادت تستغني عن غيرها في ذلك . ولوتسنى لهم كربي بعض القنوات العظيمة القديمة ، التي كانت سبب عمران منبج ، وازدهارها فيما مضى ، وإسالة مياهها ، كما يعملها أهل سامية بقنواتهم القديمة ، المشابهة بالطول والإتقان وكثرة العدد لما في منبج ، لاستفادوا وأثروا ، وأعادوا عمران منبج الغابر ، إلى ماكان عليه جله ، إن لم يكن كله .

واسع الآن كيف يصف الرحالة الأندلسي ابن جبير عمران منبج ، لما مر بها في سنة ٥٧٩ هـ ، قال : « منبج بلدة فسيحة الأرجاء ، صحيحة الهواء ، يحف بها سور عتيق ، ممتد الغاية والانتهاء ، جوها صقيل ومجتلاها جميل ، ونسبها أرج النثر عليل ، نهارها يندي ظلها ، وليلها كما قيل فيه سحر كله ، تحف بغربها وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار مختلفة الثار ، والماء يطرد فيها ، ويتخلل جميع نواحيها ، وخصص الله داخلها بآبار معينة ، شهيدة العذوبة سلسيلة المذاق ، تكون في كل دار منها البئر والبئران ، وأرضها أرض كريمة ، تستنبط مياهها كلها ، وأسواقها وسككها فسيحة متسعة ، ودكاكينها وحوانيتها ، كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً وأعلى سوقها مسقوفة ، وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات . لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الأحقاب ، حتى أخذ منها الخراب ، كانت من مدن الروم العتيقة ، ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها ، ولها قلعة حصينة في جوفها تنقطع عنها وتنحاز منها » ا هـ .

أما ياقوت في سنة ٦٢١ هـ فيقول : « منبج بلد قديم ، وما أظنه إلا رومياً ، ذكر بعضهم أن أول من بناها كسرى ، لما غلب على الشام - هذا خطأ من ياقوت - ، والرشيد أول من أفرد العواصم ، وجعل مدينتها منبج ، وأسكنها (عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس) . وهي مدينة كبيرة واسعة ، ذات خيرات كثيرة ، وأرزاق واسعة ، في فضاء من الأرض ، كان عليها سور مبني بالحجارة محكم ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ ، وشرهم من قني تسيح على وجه الأرض ، وفي دورهم آبار أكثر شرهم منها ، لأنها عذبة صحيحة ، وهي لصاحب حلب في وقتنا هذا » . ومنها

البحثري ، وله بها أملاك ، وقد خرج منها جماعة من الشعراء ، فأما المبرزون فلا أعرف غير البحثري ، وإياها عنى المتنبي بقوله

قيل بمنبج مشواه ونائله في الأفق يسأل عن غيره سألًا

وقرأت بخط ابن العطار : « منبج بلدة البحثري وأبي فراس ، وقبلها ولد بها عبد الملك بن صالح الهاشمي ، وكان أجل قريش ، ولسان بني العباس ، ومن يضرب به المثل في البلاغة ، وكان لما دخل الرشيد إلى منبج ، قال له هذا البلد منزلك ، قال : يا أمير المؤمنين هو لك ولي بك ، قال : كيف بناؤك به ، فقال : دون بناء بلاد أهلي وفوق منازل غيرهم ، قال : كيف صفتها ، قال : طيبة الهواء قليلة الأدواء ، قال : كيف ليها ، قال : سحر كله ، قال : صدقت إنها لطيبة ، قال : طبابت يا أمير المؤمنين وأين يذهب بها عن الطيب ، وهي برة حراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء ، في فياف فيح ، بين قيصوم وشيخ ، فقال الرشيد : هذا الكلام والله أحسن من الدر النظيم » ا هـ .

وأما أبو الفداء فيقول في تقويم البلدان : منبج ، من جند قنسرين . قال في الأنساب « ومنبج إحدى بلاد الشام ، بناها بعض الأكاسرة الذي غلب على الشام ، وسماها منبه ، وبني بها بيت نار » - وهذا خطأ أيضاً - . قال ابن حوقل « وهي في البرية الغالب على مزارعها الأعذاء وهي خصبة . أقول : وهي كثيرة القني السارحة ، والبساتين وغالب شجرها التوت لأجل القز ؛ ودور سورها متسع كبير ، وغالب السور والبلد خراب » ا هـ .

وبليدة منبج الحالية ، لا تبلغ خمس القديمة بالجسامة والعمران ، يدل على ذلك عظمة سورها ووسعته . وكان هذا السور على شكل مضلع غير منتظم ، مفتوح نحو الجهة الغربية الشمالية ، وكانت البحيرة على يسار مدخله . وقد صغرت هذه البحيرة الآن عما كانت عليه ، لما وصفها المؤرخ (لوسيان) لدثور القنوات التي كانت تغذيها ، وقلة ماء ما بقي منها سالماً . وكان في هذه البحيرة سمك مقدس ، معلق في بدنه حلي ، وكان الهيكل العظيم الذي تقدم ذكره ، وسط هذه البحيرة ، وهو من المرمر الناصع ، كانت الحجاج تصله سباحة ، وتقدم ندورها له ، وفي الأعياد الكبيرة كان يؤتى بأصنام بقية الآلهة ، وتصف حول شاطئ البحيرة ، وتقام معالم الأفراح والقصف واللهو . ولم يبق الآن من

أطلال منبج القديمة وآثار مجدها الغابر ، ما يستحق الذكر سوى كسور أحجار وأعمدة وقواعد وتيجان أعمدة ، يعثر عليها الأهلون أثناء الحفر ، تقع عليها عين الزائر بكثرة ، عند دخوله هذه البلدة ، وتجواله في أحيائها . وثمة في خارج منبج إلى الغرب ، أطلال قصرين قديمين ، ينسبان للبناء ، أحدهما لأصحابه من الشرکس ، والثاني لأصحابه من العرب ، فهل هما قصور (عبد الملك بن صالح العباسي) ؟ . وكان أحسن الأطلال حالاً لمضي عشر سنوات سور منبج ، إلى أن نبشته دائرة الآثار الإفريقية في حلب ، بأيدي المسجونين ، وبعثرت مشخصاته ، لعلها تعثر بينها على عاديات ، حتى غادرته كالرسوم الدائرة ، وقيل إنها لم تعثر على ما يستحق الذكر . وما عثر عليه غيرها في منبج ، من قبل ومن بعد ، نقل الخفيف الحمل ، الغالي الثمن منه ، إلى خارج البلاد ، وأبقى الغث ، أمام دار الحكومة ، وهي أنصاب أشخاص موقى . أو أرسل إلى متحف حلب ، ومنها في هذا المتحف تمثال من الحجر الحري الأسود ، لكاهن منبج الأكبر ، يقدم نذراً للآلهة ، ورداؤه كرداء الكهان العظام ، مهذب بمخملات جرسية الشكل . وكان الأثري الإفريقي (كيليوم راي) زار منبج في حدود سنة ١٨٦٠ م ، ووجد قرب البحيرة تلة أنقاض تعود للهيكل ، عثر بينها على تمثال صغير للإلهة (أتراكاتيس) الذي ذكرنا أوصافه . ولا يعلم الآن مصير هذا التمثال .

واللغة السائدة في منبج العربية ، تنازعها التركية والشرکسية والكردية ، لوفرة المتكلمين بهذه اللغات ، فيها وفي قضائها . وما خلا نفس منبج وبضعة قرى تدعى الحر في الجنوب ، يكاد يكون كل قضاء منبج من (أملاك الدولة) ، التي كان لها فيه شعبتان ، واحدة لمنبج ، والثانية لمسكنة ، كان مركزهما في قرية أبي قلقل على بعد نحو ١٧ كيلومتراً إلى الجنوب من منبج ، وفي قرية أبي قلقل ينبوع كبير ، أنشئ في جواره منذ نصف قرن ، بستان عظيم ، فيه أشجار باسقة متنوعة ، وبقول وافرة ، وفي طرفه دور خاصة ، بأسر موظفي أملاك الدولة ، وبناء خاص بالشعبتين فيه مسجد ومدرسة ، ظل هذا الحال منذ عهد السلطان عبد الحميد ، إلى أن ألغت الحكومة منذ عهد قريب شعب هذه الأملاك ، ونقلتها إلى مراكز الأقضية ، وبدلت شكلها السابق ، وكان هو الأنسب ، فالت الدور والبساتين إلى الخراب ، وأفل نجم القرى والمزارع ، بعد العناية والرعاية اللتين كانت لها ، وساء حالها ، بعد أن توالى سنو الجذب ، وتكررت الأزمات والنوائب المالية والزراعية .

وقضاء منبج واسع الأنحاء ، فيه ثلاث نواح : منبج ، أبو قلقل ، ومسكنة (باليس) ، وهو وافر المحاصيل الشتوية فحسب ، في أرضينه الأعذاء ، لتعذر استغلال الصيفية ، بحكم اصفرار أو بياض تربته ورقتها ، وقلة أمطاره بالنسبة لأقضية حلب الغربية ، إلا في سقي الفرات المسمى (الزور) ، فالزروع الصيفية تجود أي جودة ، رغم سذاجة وسائل الري وضعفها فيه ، ولو تسنى حفر وتفجير القنوات القديمة المنتشرة بكثرة حول منبج ، وفي بعض قرى الجنوب ، كالخفسه وما جاورها ، لتوسعت الزراعة المسقوية ، وانفجر العسر الضارب أطنايه في هذه الرباع . وجل فلاحي هذا القضاء أعراب ، لا يزالون على الصعلكة ، وكثير من عادات البداوة ، رغم مرور أكثر من ثلثي قرن على تحضيرهم ، وهم ينتسبون لقبائل وأفناد شتى ، كالعون والأبي سلطان ، والأبي دبش والحمدون ، والغنام وأولاد علي ، والأبي بطوش وبني سعيد ، وبني عصيد والغلاظ ، والأبي بنا والهنادي . وهؤلاء أعقاب أعراب الهنادي المصريين ، الذين جاؤوا في جيش إبراهيم باشا سنة ١٢٤٨ هـ . والتويجات والأبي حسن ، والأبي مانع والأبي صالح ، والأبي مسرة والغام ، وغيرهم .

والشركس القاطنون في منبج ، لا يزالون محتفظين بكيانهم وطابعهم ، يجدر بنا - وقد تكرر ذكرهم - أن نبحت عنهم قليلاً ، فالشركس موجودون في بلاد الشام ، في شرقي حلب في منبج وخناصرة ، وفي غربيها في سهل العمق ، في قرى حران وعم (يني شهر) ، والريحانية وبدركة ، وفي ولاية دمشق في قضاء سلمية ، في قرى : تل سنان وتل عدا وذيل العجل ، وفي قضاء حمص في غربي العاصي ، في تلليل ، وفي شرقيه : في عسيلة ودير فور ، وأبي أمامة وتل عمري .، وعين ظباط ومريج الدر ، وفي قضاء القنيطرة : في المنصورة والقنيطرة ، والصمدانية وعين زيوان ، وعين صرمان وصرمان ، ومومسية وبئر عجم ، وبريقة وجويزة ، وفزارة وخشنية وفحام ، ولهم قرب جبلية اللاذقية قرية عرب الملك ، وفي شرقي دمشق : مرج السلطان ، وفي شمالي لجأ حوران ، بلاني وبويضان ، وفي البلقاء (شرقي الأردن) الزرقاء والرصافة ، وعمان وعين صويلح ، ووادي السير والناعور ، وجرش ، وفي فلسطين غربي طبريا : كفر كما ، وفي قرب صفد : الريحانية . والشركس في أوطانهم في بلاد القفقاس ، مؤلفون من قبائل شتى ، تدعى : بزادوخ وأوبوخ ، ونوتوخاج وشابسيغ ، وآبازاخ وناقوغاي ، وقبارطاي وبسلني ، وآبازطة

- ٢٢٥ -

جولة أثرية (١٥)

وحاتوقواي ، وجامكواي ، اختلط هنا بعضهم ببعض ، وانضم إليهم من قبائل الداغستان والشاشان ، والقراشاي والقوصحة ، ذوي اللغات والطباع المختلفة أيضاً ، جمع خالطهم بحكم الضرورة ، كما في القنيطرة ، أو سكن لوحده ، كما في دير فور شمالي حصص ، ورأس العين في الجزيرة الفراتية وغيرها . وهؤلاء هاجروا من ديارهم في بلاد القفقاس ، بعد أن قضوا أكثر من سبعين سنة يذودون عنها ، ضد هجمات جحافل الروس ، ويستبسلون استبسالاً فاقوا به جميع الشعوب الإسلامية ، التي زادت عن حماها في القرنين الماضي والحالي . ولما أعيتهم القوة والكثرة ، وخذلتهم الدولة العثمانية في جهادهم كله ، ولم تف أنكلترة أيضاً بالمعونة ، التي كانت إذ ذاك تمنيهما سراً ، نكاية بأخصامها الروس ، لم يشاؤوا البقاء تحت نير الاستعمار والاستعباد ، فجلوا عن أوطانهم أفواجاً أفواجاً ، وتباعاً منذ سنة ١٢٧٧ هـ ، وهاجروا إلى البلاد العثمانية ، فأقطعتهم الدولة قرى كثيرة مبعثرة ، في أنحاء مختلفة من شمالي الأناضول ، ووسطه وغربيه ، وشرقي بلاد الرومي . لكنها - وقد كان ذلك في عهد السلطان عبد العزيز الطافح بالفوضى - لم تحسن توزيعهم وإيواءهم ، في الأماكن المناسبة لهم ، فزادت في تمزيق شملهم ، وتشتيت صدعهم ، فوق مانالهم من ذلك خلال هجرتهم ، وهلك معظمهم يومئذ بالبؤس والجوع والأمراض . ثم عادت عقيب الحرب الروسية التي جرت في سنة ١٢٩٣ هـ ، وأجبرت من كانت أسكنته في بلاد الرومي على هجرة ثانية ، نزولاً عند أحكام عهدة برلين ، التي قضت بإخراجهم من تلك البلاد ، ونقلت معظم هؤلاء إلى بلاد الشام ، وأحلتهم في القرى التي عددناها . وقراهم هذه كانت خراباً يباباً ، وجلها على سيف البادية الشرقية ، فعمروها ، بعد أن هلك كثير منهم ريثاً تمكنوا من الاطمئنان إلى مناخ هذه القرى وبيئتها ، وريثاً ردوا عيث البادية بسواعدهم عنها .

والشركس رغم مرور أكثر من نصف قرن على سكناهم في الشام ، ما برحوا محتفظين بلغاتهم ، وأكثر أزيائهم وطبائعهم وعاداتهم ، وهم يمتازون في كل مكان عن مجاورهم ، بالرشاقة والأناقة ، والنفس الأبية والعصبية ، والفروسية ونظافة المسكن والملبس ، وقليل من العناية بالحراثة ، وتربية الماشية ، لكن ليس بينهم إلا عدد يسير من المتعلمين تعليماً أولياً أو متوسطاً ، وندر من أكمل العالي ، وأقل من ذلك من أتقن العربية كتابة وإلقاءً ، ونحوه أيضاً من انصرف إلى الصناعة والتجارة ، أو احتجن ثروة من الزراعة . وكانت

أفئدتهم قبلاً مع العثمانيين ، وهوى أكثرهم في الجندية ، نشأ بينهم ضباط وقواد ، برزوا بوفائهم وحسن بلائهم ، في خدمة الدولة العثمانية . ولا يزال هذا الهوى في زماننا ، يحدو برجالهم نحو مسالك الشرطة والدرك ، وسرايا المتطوعة المرتبطة بعمال الدولة المنتدبة ، في شمالي - الشام وجنوبه - ، أو خفارة المزارع ، ووكالة الضياع ، وغيرها مما فيه ركب وضرب وطعن ، يصدقون الخدمة ، ويتفانون في سبيلها ، ويكاد هذا الهوى الضار ، يقرضهم أو يضعفهم .

مغارة أم السرج : في جنوبي منبج ، وغربي أبي قلقل ، مغارة عظيمة صناعية ، كنت بحثت عنها في مقال درج في الجزأين ١١ و ١٢ من المجلد السادس (سنة ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م) من مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق ، أنقله هنا لمناسبته . قلت : لأعادر في سياحاتي ، في البحث عن الآثار القديمة والمشاهد الطبيعية . وذلك توصلًا لاكتنائه غوامض التاريخ والجغرافيا ، اللذين لا يزال كثير من أوابدهما في بلادنا ، محتاجاً للتحقيق . فبينما كنت أتجول في قضاء منبج - شمالي شرقي حلب - خلال شهر تموز ١٩٢٦ م ، ذكر لي : أن هنالك مغاور تخلب الألباب بعظمتها ، ودقة صنعها ، وغرابة منظرها . ولما كنت قد زرت في القسطنطينية مغارة (كوجك جكمجة) إحدى محطات سكة حديد الرومي ، ورأيت ماحوته من الآثار الجيولوجية البديعة ، أملت أن أشاهد ما يشبهها في المغاور التي ذكرت لي ، فأسرعت إلى زيارتها . وهي تبعد عن منبج نحو ١٧ كيلو متراً إلى الجنوب ، وعن حلب ٨٨ كيلو متراً إلى الشرق .

استصحبت من القرية القريبة للمغاور ، واسمها (مقبله حسن آغا) أدلاء ومصاييح . فسرنا نرتقي جبلاً مستطيل الشكل ، يمتد من الغرب إلى الشرق . وبعد أن سرنا نصف ساعة ، وصلنا إلى ذروته ، فأشرفنا على ماحوله من السهول الشاسعة ، رأينا في شرقنا نهر (الفرات) ، ينساب عن بعد ، حاملاً مياه بلاد الترك والكرد ، إلى ثغر العراق والخليج الفارسي ، وفي شمالنا بلدة (منبج) تندب مجدها القديم ، وحولها هضبات متسلسلة حتى نهر (الساجور) ، أحد فروع الفرات ، وما وراءه من تخوم تركيا الحديثة ، وشاهدنا في الغرب قريتي تاتف وبزاعة ، الشهيرتين في تاريخ الإسرائيليين والصليبيين ، وقد علتها أكمة قام فوقها مسجد ، ذو مأذنة عالية باسم أحد الصلحاء ، المسمى (الشيخ

عقيل) وهو عقيل بن أبي طالب فيما قيل ، ورمقنا في الجنوب ، براري وفيافي ، تضعيع بعد حين ، في الأفق الغارب في بادية الشام .

في ذروة هذا الجبل ، المطل على تلك المناظر الجميلة ، والمخوفة بذكريات عريقة ، في قدم التاريخ ، استقبلنا شقاً كثير الطول والعرض ، نقر في الصخر ، كما تنقر أخاديد السكك الحديدية في أيامنا ، وجعل على ما يظهر ، منفذاً لما بعده ، تقف فيه الحراس ، وتحول دون تحطيط الغرباء منه ، وبعد أن عبرنا الشق دون عائق ، انتهينا إلى وسط ساحة فسيحة ، تحيط بها جدران عالية من الصخر الأبيض ، نقرت فيها كهوف منتظمة ، بعضها بجانب بعض ، وهي تشبه باصطفافها حوانيت الأسواق في المدن ، وربما كانت خاصة بشراء الحاجات وبيعها ، من سكان المغاور التي نحن بصدها . وبعد أن اجتزنا الساحة ، أشرفنا على أعظم المغارات ، وأجلها شأناً ، وهي المسماة (مغارة أم السرج) . سميت بذلك ، لأن شدة ظلامها ، تجعل استعمال السرج فيها لازماً . وفوهة هذه المغارة واسعة ، بقدر خمسة عشر متراً ، ملئت بجلاميد الصخور المتكسرة ، والمتدحرجة من سقف الفوهة وقمة الجبل . وقد تشعث بذلك باب المغارة ، وردم درجها بأسره ، فأصبح النازل محتاجاً للزحف على إتيته تارة ، والاستمساك بهذا وذاك من الأحجار تارة أخرى .

انحدرنا من الفوهة - على النحو الذي ذكرته - مقدار خمسين متراً ، إلى أن وصلنا إلى مستوى المغارة حيث قل النور ، وأرخصى الظلام سدوله . فأضاء الأدلاء المصاييح ، وساروا أمامنا ، وتبعناهم نتوكاً على العصي التي حملناها ، وتلمس الجدران بأيدينا ، وأخذنا نجتاز مضائق ، ومعاطف ، ونجتاز مخارم وفجاجاً ، ونصادف أقباء عظيمة وأهباء وسيعة . وكل ذلك محفور في الصخر ، وآثار الحفر ونقر الدبابير والمطارق والأزاميل بارزة ، تكاد تظهر أن الحجارين والنحاتين قد انتهوا من أعمالهم وخرجوا في تلك الساعة . وتجد في وسط الجدران كلها كوات صغيرة ، بعضها فوق بعض ، تمتد من الأرض إلى السقف ، وهي تشبه ما يعمل في جدران الآبار لوضع الأرجل أثناء الصعود والنزول إليها ، وتجد في محلات عديدة أيضاً كوات أكبر منها لوضع السرج أو المصاييح ، ولا تزال آثار الدخان ظاهرة فيها حتى الآن .

وقد وجدت سعة كل بهو ، لاتقل عن استيعاب مئتي شخص أو أكثر ، كانوا يجتمعون

فيها على ما يظهر ، لاستماع الخطب أو العظات الدينية ، أو للمداولة في أمورهاامة .
وذلك لأن بعض الأبهة يحوي في صدره مقاعد ومصاطب منقورة في الجدار ، جعلت
الجلوس على القوم ، وفوق الجمع مقعد كالأريكة ، كان خاصاً بالقائد ، أو الكاهن الأكبر في
الغالب .

وقد تذكرت وأنا أجوس خلال تلك الدهاليز والغيران ، حالة السائحين اللذين
وصفهما الروائي الإفريقي الشهير (جول فرن) ، في إحدى رواياته العلمية المسماة (رحلة
تحت الأرض) . فقد دخل السائحان كهفاً في جبال الألب ، وظلا يسيران في أحشاء
الأرض ، ويجتازان أجوافها وسرايبها المظلمة ، ويشاهدان عجائب تكون طبقات
الأرض ، وأدوارها الجيولوجية الأربعة ، وما حوته من أحافير النباتات والحيوانات ،
وأجناس الصخور والمعادن ، إلى أن قذفتها التقادير - بخارقة لاتسعتها إلا مخيلة الروائيين -
من فوهة بركان جزيرة إسلاندة في أقصى الشمال الغربي من قارة أوروبا . وما كان قصد
(جول فرن) من هذه الرواية ، إلا حمل مطالعها على تفهم دقائق علم الجيولوجية ، بهذا
الأسلوب اللطيف . شأنه في سائر رواياته ، التي يبحث في كل منها عن أحد العلوم
الطبيعية .

ولما بلغ منا التعب والظلمة مبلغه ، وتمنينا جرعة من الماء ، صادفنا في أحد الأقباء
بئرين ملائين ماءً عذباً بارداً ، شربنا منها ، وغسلنا الأوجه والأيدي ، واسترحنا مدة .
وقد حاولنا أن نسبر غورها فلم نتوفق لوفرة عمقها . وهذان البئران من أعجب ما يذكر
عن هذه المغارة ، ولولاهما لما استطاع حافروها وساكنوها العمل والمقام فيها .

هذا وقد بقينا نحو ساعتين ، في ذلك الظلام القاتم ، ندخل في بهو ونخرج من قبو ،
ونصعد درجاً ونجتاز سرداباً ، ولا يستطيع أحدنا أن يبتعد عن دليله أو رفيقه ، خشية
الضياع والهلاك . ونحن في أشد الحيرة من عمل أولئك الذين بذلوا الهمم الشماء ، في نقر
هذه الصخور الصماء ، وتمهيدها وتقسمها على هذا النحو ، في أحشاء هذا الجبل الشامخ ،
وتحت عمق لا يقل عن ٧٠ - ٨٠ متراً ، وطول وعرض هائلين ، لا مجال لتقديرها . فكم
فرقة من فرق العمال عملت في الحفر ، وكم ألوف من الدنانير أنفقوها في هذه السبيل ؟ ذلك
ما كنت أفتكر به ، ولا أصل إلى حله .

ومن الغريب ، أنني رغم التحقيق والتفتيش في الجدران والسقوف ، لم أعث على أثر لكتابة أو نقش أو رسم ، لأستدل منه على سبب حفر هذه المغارة الهائلة وتاريخها ، واسم ساكنها وحافريها الأقدمين ، ولا على شيء من العلام الجيولوجية ، كأحافير النباتات والحيوانات ، وأعمدة الستلاكتيت ، والستلاكتيت التي توجد في أشباه هذه الكهوف - إذا كانت طبيعية - ولم أجد معنى لدفن هؤلاء الناس أنفسهم في هذه الهوة السحيقة ، ومكوثرهم في هذه الأقباء والغيران المدهمة الرطبة . إلا أن يكون ذلك لغرض ديني أو سياسي ، فهم إما أنهم كانوا يستعملونها كمعبد خفي ، يقيمون فيه شعائر ديانتهم السرية ، بدليل وجود المصاطب والأرائك التي ذكرتها ، وإما أنهم كانوا يتخذونها حصناً ، يلجؤون إليه عند إحاطة الأعداء بمدينتهم ، التي يشاهد بعض طولها خارج المغارة ، وعلى السفح الجنوبي للجبل . أو أنهم كانوا يسجنون فيها من غضبت عليه ملوكهم أو كهانهم ، أو وقع أثناء الحروب في قبضتهم ، فيعتقلون السجناء أو الأسرى في هذه الظلمة والرطوبة ، اللتين تهدمان أشد الأبدان قوة وصحة .

ولم تحرم هذه المغارة العجيبة من سكنى الأحياء والاستئناس بهم ، فقد كنا نصادف ألوفاً من الخفافيش المعتادة حياة الظلمة والرطوبة ، جاثمة على الجدران والصخور ، وشاهدنا زرقها الذي ظل يتراكم منذ مئات من السنين ، فأصبح أكوماً كالبيادر . وقد أفهمت القرويين الذين رافقوني ، منافع هذا الزرق ، وأنه من أنفع الأسمدة المؤدية لخصب الأرض ، وأن الأوروبيين يستجلبون مثيله من جزر أميركا الجنوبية ، ويدعونه (غوانو) ، ويبيعونه حتى في بيروت بأعلى الأثمان ، ونصحتهم بأن يخرجوا منه ما يكفيهم ، ويسمدوا حقولهم وكرومهم به ، فوعدوني بالإيجاب .

هذا وما زلنا في صعود وهبوط ، ودخول وخروج ، حتى أعيينا ، وخشيننا أن نصل إلى فوهة بركان قد لا يرحنا ، كما رحم سائحي رواية (جول فرن) فلا يقذفنا سالين . لاسيما وقد أخذت منا قشعريرة الرطوبة في تلك الكهوف الظلماء كل مأخذ ، فاكثفينا بما رأيناه ، وعدنا أدرأجنا إلى فوهة المغارة ، وشرعنا بالصعود رويداً رويداً ، نستعين باليدين والرجلين ، إلى أن من الله علينا بالوصول إلى سطح الأرض ، ورؤية النور والشمس ، فانتصبنا ننفض عنا آثار حياة الآخرة ، ونهني بعضنا بعضاً بالسلامة .

وقد ظهر لي ، أن الذي أعان القوم على النحت والتنقيب ، هو لين الحجر الذي يتكون منه الجبل ، لأنه من الصخور الطباشيرية البيضاء ، المنتسبة للدور الثلاثي من أدوار الجيولوجيا . ولو كان من الصخور البركانية ، كالبازلت الأسود ، لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . على أن لين هذا الصخر ، جعله بحيث يتأثر على كرا الأحقاب بفعل العوامل الطبيعية من حر وقر ، ولذا ترى السيول تصدعه ، وتجزئه رويداً رويداً . وهذا ماجعلني أرى في أكثر الأقباء جلاميد عظيمة ، ساقطة من أعلى السقوف والجدران ، وقد سدت بعض الأنهاء والدهاليز ، أو شعنت الدروب .

ثم إن الأدلاء قادوني إلى مغارة ثانية ، أصغر من الأولى بكثير ، وفيها ماء عذب ، يرشح من نبع بسقفها ، ويسيل بلا انقطاع ، القطرة تلو القطرة ، وقد وضع الأقدمون في موضع سقوطه على الأرض ، جرنأً تجتمع فيه القطرات ، فيتكون منها كمية من الماء ، تكفي لشرب عشرات من الرجال . وقادوني إلى مغارة ثالثة ، فيها سرداب قليل العمق ، ينبع من جداره ماء عذب ، حفروا له حوضاً يستقون منه عند اللزوم . ولا يزال رعاة الغنم والإبل السائمة في هذه الجبال ، وبعض الأشرار الهاربين من يد القضاء ، يلجؤون أحياناً إلى هاتين المغارتين ، ويتمتعون بمياههما .

وقد سألت الأدلاء ، وصاحب القرية القريبة لهذه المغاور ، عما إذا كان دخلها قبلي أحد من مفكري البلاد ، أو من السياح الأوروبيين ، فأجابوني عن الأولين بالسلب ، وعن الثانيين بأنه لم يزرها إلا سائحان ألمانيان قبيل الحرب العامة ، ذهبا على أمل الرجوع للبحث والتنقيب فيها ، فحالت الحرب دون عزمهما . وذكروا خرافة عن سائح مغربي ؛ قالوا أنه قرأ وهو في بلاده في أحد الأسفار القديمة ، خبر مغارة أم السرج ، وعلم بأنها تحوي كنزاً عظيماً ، ف جاء إليها ، واستصحب أدلاء من القرية ، ولكنه لما وصل بعد البحث والتنقيب الطويلين إلى باب الكنز ، وحاول فتحه ، هوت صخرة عظيمة من سقف القاعة فسدت . ولما عجز عن زحزحتها أو تحطيتها ، رجع خائباً .

وبعد مغادرتي تلك الربوع ، راجعت كتب التاريخ والآثار ، التي تبحث عن الديار الحلبية ، فلم أجد ذكراً لهذه المغاور ، سوى بيان موجز لما كانت عليه بلدة منبج Hiérapolis ، من العمران والرقى ، في العصور القديمة والمتوسطة ، درجته في بحث منبج .

فبلدة مقدسة كنج ، هذه حالتها في تلك العصور من الرفه والعمران ، لا يبعد أن يقوم سكانها ، ويحفروا على مقربة منهم هذه المغاور التي وصفتها ، ويتخذونها إما معبداً أو حصناً أو معقلاً ، هذا إذا لم يكونوا جعلوها مدفناً لعظمائهم ، أو مذخراً لكنوزهم ودفائنهم ، التي لم يسعدني الحظ بالعثور عليها ويا للأسف . ولعله يقوم غيري من أرباب الولع أو يأتي أمثال اللورد (كارنارفون) ، فيبذل من المتاعب والنفقات ، ماعسى أن يوصله لما يشبه كنوز (توت عنخ آمون) ، وكل مفعول جائز .

قلعة النجم : في شمالي منبج ، على ضفة الفرات اليمنى ، التي تدعى (الشامية) ، قلعة عربية جليلة الشأن ، جديدة البناء في الجملة ، تدعى قلعة النجم ، مر ذكرها كثيراً في أبحاثنا السابقة ، أتيح لي زيارتها في صيف سنة ١٣٤٥ هـ ، ذكرها ياقوت في معجمه فقال : « قلعة النجم ، بلفظ النجم من الكواكب ، وهي قلعة حصينة مطلة على الفرات ، على جبل ، تحتها ربض عامر ، وعندها جسر يعبر عليه ، وهي المعروفة بجسر منبج ، ويعبر على هذا الجسر القوافل من حران إلى الشام ، وبينها وبين منبج أربع فراسخ ، وهي الآن (سنة ٦٢١ هـ) في حكم صاحب حلب الملك العزيز بن الملك الظاهر بن الملك الناصر يوسف بن أيوب » ا هـ . وذكرها آخرون ، بأنها كانت قديماً تعرف بجسر منبج ، وكان الجسر على شاطئ الفرات ، وكانت بلدة صغيرة ، إلى أن كانت بعد الثلاثئة ، عمرها نجم غلام الصفواني ، قلعة حصينة ، لها ظاهر باهر الطرف ، يقصر عنه الوصف ، ملكها بنو حمدان ، ثم بنو مرداس ، ثم كانت لبني نير ، ثم تعاورتها الأيدي ، إلى أن أخرجها التتر . وذكر مؤرخو الإفرنج ، أن مكان قلعة النجم ، كان يدعى في عهد الرومانيين Caeciliana ، وأن هذه القلعة قديمة ، تعاورتها كثير من أيدي الدول ، وخربت إلى أن رمها نور الدين محمود ، ثم رمها ترميماً حسناً الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي ، ثم خربت بعده ، وأن أكثرها كان في القرن الثامن الهجري خراباً ، وأن هذا الخراب زاد سنة ١٢٣٧ هـ ، لما تحصنت فيها قبيلة من الأعراب ، كانت عاصية ومتنعة عن أداء الضرائب ، فجاء الجند العثماني ، وأطلق مدافعه عليها في القلعة .

ومر ابن جبير الأندلسي بقلعة النجم ، وهوأت من حران ، فقال عنها : « وكان وصولنا إلى الفرات ضحوة النهار ، وعبرنا في الزواريق المقلّة ، المعدة للعبور إلى قلعة

جديدة على الشط ، تعرف بقلعة نجم ، وحولها ديار بادية ، وفيها سوقية يوجد فيها المهم من علف وخبز ، فأقننا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول المذكور (سنة ٥٧٩ هـ) ، خلال ماتكمل القافلة العبور ، وإذا عبرت الفرات حصلت في حد الشام ، وسرت في طاعة صلاح الدين إلى دمشق ، والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر » ا هـ . ومن الغريب أن لا يذكر ابن جبير عبوره الفرات على الجسر ، ولعله كان خراباً سنة ٥٧٩ هـ ، ورمم في عهد الملك الظاهر غازي ، لأن هذا الجسر كان موجوداً من قبل كما قدمنا ، وياقوت ذكر وجوده في سنة ٦٢١ هـ أي بعد ابن جبير بإحدى وأربعين سنة .

ومن مراجعة ماذكرناه في تواريخ كل من أفامية وشيزر وحماة ومنبج ، تظهر الأحداث والتقلبات التي كانت تصيب قلعة النجم ، المرتبطة أقدارها مع تلك البلاد ، لاسيما مع جارتها منبج ، ويتبين ما كان لقلعة النجم من الشأن ، من وجهتي سوق الجيش والتجارة ، باعتبارها مدخل بلاد الشام ، للجحافل والقوافل القادمة من شمالي العراق وبلاد الجزيرة العليا . وكان صاحب إقطاعها يتقاضى رسوماً ومكوساً وافرة ، من المارين والعابرين فوق جسرهما أو معبرها ، ناهيك عن أن بقاءها في يد ملوك حلب وأصحاب منبج ، كان لازماً لسلامة هاتين البلدين . لذلك تعاورها كثير من أيدي الملوك والأمراء المسلمين ، إلى أن استقرت في يد ملك حلب الظاهر غازي ، فجدها على حالها ، الذي ما برح أكثره ماثلاً بجباله ، رغم فعل التتر ، وهز الزلازل وخرب المدافع ، لكنه توفي رحمه الله سنة ٦١٢ هـ قبيل إتمامها ، وذهب قبل أن يسر برآها .

وقلعة النجم تبعد عن منبج زهاء ٢٩ كيلو متراً ، وهي لاتزال على جدتها ، وروعة بنيانها العربي ، رابضة فوق أكتفها العالية ، ذات الصخور البيضاء الهشة المكسر ، تشرف في الشرق على نهر الفرات العظيم ، الذي كان فيما مضى ، يغسل أقدامها عن كثب ، لما كانت في شامخ عزها وفتوتها ، ثم ابتعد عنها نحو ٦٤٠ متراً إلى الشرق ، وهجرها لما شابت وتداعت ، وهذا من خصائص الفرات يغير مجراه من حين إلى آخر ، وتشرف في الجنوب على عدوتي الفرات ، وفيها ضياع عديدة ، أقربها إلى القلعة في الشامية ضيعة قلعة النجم ، وهي السوقية أو الرض اللذين نوه بها ياقوت وابن جبير ، ثم ضيعة الزيارة ، وفي هذه أضرحة وقبور إسلامية قديمة ، من الغريب أنها هي وشواهدا لاتزال سالمة ، ومن بعدها

جرن الكبيرة وجرن الصغيرة ، وتشرف في الشمال والغرب على آكام صخرية بيضاء ، بين القلعة وبينها واد سحيق عريض ، ووراءها تحتفي ضياع ، منها في العدو الشامية ، خشفة وبيرخلو ، وتشرف في الشرق على الهضاب المنحدرة من براري الجزيرة الفيح ، وفيها تجاه القلعة برج شبه المنارة ، وقمة واد أو مدخل يدعى مدخل القيعق . وكانت القوافل والجحافل القادمة من الرها وحران في الجزيرة ، تمر إلى الشامية من فوق الجسر الذي كان تحت القلعة ، وقد دثر منذ عهد بعيد ، وزالت آثاره بتاتاً ، ولا يزال شيوخ ضيقة قلعة النجم ، يحدثون عن جدودهم ، خبر اقتلاعهم الرصاص من مداميك الجسر المذكور ، حينما كانت أسسه ماثلة . فتكون الحكمة من بناء قلعة النجم فوق المدخل والجسر المذكورين ، التحكم على تلك القوافل والجحافل ، التي لم يكن لها مجاز إلى حلب وما وراءها غير هنا .

وفي لحف الآكام المرتفعة في شمالي وغربي القلعة مغاور ، ربما كانت ملجأً للماشية والرعاة ، وما خلا الهوة السحيقة التي تفصل هذه الآكام والمغاور عن أكمة القلعة ، حفر حول القلعة خندق عمقه خمسة أمتار وعرضه خمسة وعشرون متراً ، وهو متهدم في بعض جوانبه ، ومملوء بأنقاض القلعة وحجارتها المتدرججة في جوانبه الأخرى ، كما أن أهل الضياع المجاورة حفروا فيه أماكن كثيرة ، يستخرجون تربة يدعونها الحوارة ، لطلاء جدران بيوتهم .

والقلعة مستطيلة الشكل في الجملة وذات طبقتين ، طولها من الشرق إلى الغرب نحو ١٧٠ متراً ، ومن الشمال إلى الجنوب ١٣٠ متراً ، ولها ثلاثة جدران ضخمة عالية ، فالأول : الخارجي الراكب على طرف الأكمة ، المنحدر علوه ١٨ متراً ، وعلو الثاني المتوسط : ثمانية أمتار وعلو الثالث خمسة أمتار ، لأنها بشكل مدرج (امفيتياتر) والجدار الأول بني بشكل غريب ، وهو أن المدماك الأسفل يركب المدماك الثاني على ثلثيه ، والثلث الآخر يبقى ناتئاً وهكذا . بحيث يتألف من بناء الجدار كله شبه درج ، لكنه عسير التسلق . ويتراعى للمدقق في حالة الجدار المذكور أنه رمم ثلاث مرات ، وذلك من التباين والترقيع الظاهرين في أحجاره . وهذه القلعة لاتزال تظهر للزائر عامرة ، وعلى جدتها في الجملة ، ما خلا القصر والبرج الرابض في طرفها الغربي ، في أضعف نقاط الدفاع ، فإنه خرب

ودمر ، ولعل ذلك حصل في سنة ١٢٣٧ هـ بتأثير المدفع ، أو بتأثير الزلازل التي تكررت في القرون الأخيرة ، وأكثر أحجار غرف هذا البرج ساقطة ، وسط الخندق الذي تقدم ذكره ، وأيدي التحطيم تفعل فيها ، وتنقل كسورها إلى القرى المجاورة .

أما مدخل القلعة المتجه إلى الشرق ، فلا يزال سالماً وشاخاً بروعته ، والباب مرتفع نحو مترين ؛ ولدثور الدرج لا يمكن التسلق والوصول إليه إلا بصعوبة . وقد زبر على عتبته العليا بالخط النسخي سطران هما : (تجددت في دولة مولانا السلطان الملك الظاهر ، لمدة أولها بسنة خمس وستئة ، وآخرها سنة اثني عشر وستئة) . وبعد الباب بخمسة أمتار ، دهليز قام في طرفيه جداران متقابلان ، علوهما نحو عشرة أمتار ، في الشمالي الأيمن منهما باب ذوقوس شاهق ، جميل البناء ، ينفذ إلى غرفة خفراء الباب ، وفي خارج هذا القوس زبر على الجدار كتابة قرأت منها الكلمات الآتية : (بلعه المنصو ... صنعها إبراهيم بن نان المنبجي الملك الظاهري رحمه الله تعالى) ا هـ . ويقابل هذه الكتابة في الجدار المقابل أخرى ، لم أتمكن من قرائتها لفرط علوها . وغرفة خفراء الباب سالمة على جدتها ، وفوقها الجامع الذي سيأتي وصفه . وفي الجدار الجنوبي الأيسر مدخل القلعة الأصلي . ومن هذا المدخل تنفرج الدهاليز والممرات الضيقة بعرض مترين ، وكلها معقود بالأحجار المنحوتة ، وينفذ من هذه الدهاليز إلى قاعات وغرف مظلمة ، وأبهاء واسعة واصطبلات ومستودعات ، وكل هذه أيضاً معقود بالأحجار المنحوتة ، وفي وسط عقودها كوات ينفذ منها النور ، يقابلها في أرض الغرف والأبهاء مثلها تنير ما في غرف وأبهاء الطابق الأسفل . وفي الناحية الجنوبية الغربية باحة ، كانت تقوم فيها دار شمسية قوراء ، في وسطها إيوان جميل ، على أطرافه القاعات ، وكلها متهدم . أما الجامع فإن جدرانها الثلاثة سالمة ، في أعلى هذه الجدران القسم الأسفل من سطر غير مقروء كتب بالخط النسخي ، وعلى يمين محرابه دائرة فيها اسم الجلالة ، والجدار الرابع في الجامع وكذا سقفه متهدمان ، ماعدا غرفة الإمام ، التي هي في شمالي الجامع ، لاتزال سالمة وصالحة للسكن . وقد كتب على عتبة باب الجامع تاريخ عملت فيه أيدي الجهلة ويا للأسف ، فكسرت حروفه ومنعت قراءته ، ووراء غرفة الإمام درج يرقى به إلى سطح الجامع ، ويظهر أن مأذنة كانت تقوم في ذلك الركن . وثمة في كثير من الجدران آبار عميقة ، تنفذ من الطابق الأعلى إلى الأسفل وما تحته ، بإحكام غريب لا يعلم قرارها

والراجع من زيارة هذه القلعة العربية الجميلة ، لا يسعه إلا أن يترحم على بناتها ،
بهذا الإحكام والإتقان البديعين ، في هذا المكان الذي دلت مكاتنه ، وتنوسيت معها
سمعته ، وإلا أن يستطر شأبيب الغفران على الملوك الأيوبيين عامة ، الذين أينما توجهت
في بلاد الشام ، تجد آثارهم من القلاع والأسوار والمساجد وغيرها ، لاسيما على ذلك الملك
الهامم الظاهر غازي ، الذي كان فيما يظهر بطاشاً وقائداً محنكاً ، وذا ولع وعلم بارزين في
إشادة المباني العسكرية ، على هندسة حربية خاصة بتلك الحقبة ، ومثله إلا قليلا كان ابنه
العزیز محمد ، وحفيده الناصر يوسف ، وقد نوهنا بذلك في أبحاث قلاع حارم وأفامية ،
وشميس ومسجد إزاز ، ناهيك عن قلعتي حلب وبصرى حوران ، اللتين لم نبحت عنهما
بعد ، وإلا أن يستطر تلك الشأبيب أيضاً على إبراهيم بن نان المنبجي المذكور اسمه في
قلعة النجم ، وكان على ما يظهر من أخص مهندسي ومعماري الملك الظاهر ، حتى أضاف
على اسمه كما قدمنا (الملك الظاهري) ويتنى المرء لو أن مؤلفي كتب التراجم عندنا ، عنوا
بذكر هذا النابغة العربي ، وأمثاله من أهل الفنون والصناعات ، كنصف عنايتهم بذكر
الأدباء والشعراء ، والزهاد والمعتوهين ، والثرثارين والمتسولين . إذأ لعرفناهم ، وعرفنا شيئاً
من فنونهم ومصطلحاتهم ، ويردد غير ذلك ، من التأملات التي نوهنا ببعضها في حديث
قلعة شيزر .

تاريخ حماة

حماة من أمهات مدن الداخل في الشام ، تعلو عن سطح البحر ٣٠٨ أمتار ، وهي في وهدة سحيقة من وادي العاصي ، ولذا كانت حارة ورطبة ، تمر منها سكة حديد رفاق - حلب (طولها ٣٣٢ كيلومتراً) ، وطريق السيارات المعبدة الممتدة بين دمشق وحلب (طولها ٣٥٩ كيلومتراً) ، وتبعد حماة عن حمص ٥٨ كيلومتراً ، وعن حلب في سكة الحديد ١٤٣ كيلومتراً .

وقد وردت حماة في التوراة مراراً ، باسم حث الكبرى ، تمييزاً لها عن حث الصغرى في كيليكية ، وذلك تنويهاً بذكرى حاثي من أبناء كنعان ، الذي ينسب بناؤها إليه . وكانت على ما قيل الحد الشمالي للأرض الموعد إعطاؤها لبني إسرائيل . وتاريخ حماة في كل العصور ، لاسيما في القديمة منها ، مرتبط بتاريخ حمص ، التي كانت متقدمة عليها بال عمران ومتبوعتها . فقد سكن حماة كما سكن حمص بادئ ذي بدء العمالقة ، أو الروتانيون ، أو اللوذيون أعقاب لوذ بن سام ، ثم سكنها الحثيون ، ويظن أنها سعدت في عهدهم ، بدليل العثور على بعض كتاباتهم فيها^(١) ، وقد قاست حماة كما قاسته حمص

(١) ذكروا أنه لما زار السائح الإنكليزي (بروكهارت) حماة سنة ١٨١٢ م ، لفظ في أحد أسواقها حجراً منقوشاً عليه رسوم ورموز عديدة ، ظنها هيروغليفية ، لكنه وقد غمت عليه ، قال بأنها تختلف عن الرسوم والرموز الهيروغليفية المصرية . وقد بقيت كلمة (بروكهارت) عشرات من السنين ، دون أن تسترعي أنظار أحد من الأثريين ، الذين كانوا يصرحون في كتبهم ، بأن حماة خالية من العاديات الهامة ، وفي سنة ١٨٧٠ م وافاها العالمان الأمريكان (أغسطس جونسون) قنصل الولايات المتحدة في دمشق ، والمبشر البرتستانتي (زسوب) فبلغها أن في حماة أحجاراً كثيرة منقوشة غير الحجر الذي رآه (بروكهارت) ومن نوعه . ولما حاول أن يستنسخ نقوشها ، لم يشعر إلا والنوغاء تتراكم نحوها ، تبني الفتك بها ، فاضطرا للفرار ، ومفادرة حماة فوراً . إلا أن القنصل عاد واتفق مع رجل ينتحل التصوير ، على أن يستنسخ له تلك النقوش ، فجاء هذا وقام بالمهمة ، ولما وصلت النسخ إلى دمشق نشر القنصل بعضها ، فأثارت على نقصها ، اهتماماً عظيماً لدى علماء الآثار ، وعرفوا أنها من آثار الحثيين . فنشطوا من ذلك الحين ، لزيارة حماة ومشاهدة أحجارها وأثارها ==

وغيرها ، من مدن الشام الشمالية ، العائدة للحثيين ، من توالي غارات فراعنة مصر ، وملوك آشور ، ودفاع الحثيين واستبسالهم ، في معارك طاحنة دامت قبل الميلاد عدة قرون ، إلى أن انقرضوا ، وخلفهم الآراميون ثم الإسرائيليون ، ثم اليونانيون السلوقيون ، وقد سماها أحد ملوكهم (أنطيوخس أيفانوس الرابع) أيفانيا ، وظلت معروفة بهذا الاسم في دولة السلوقيين ، ولما زالت رجع الناس إلى استعمال اسمها القديم ، ثم جاء الرومانيون .

لا جرم أن بلاد الشام الشمالية في عهد اليونان والرومان تقدمت في العمران ، وكان نصيب حماة أن زاد عدد القنوات في براريها الشرقية ، ونصبت النواعير على العاصي ، فازدهرت الزراعة ، وانتشرت القرى العامرة في شرقي سمية ، وحول الأندرين ، وظل هذا العمران إلى أواخر عهد البيزنطيين ، الذي اختلت فيه إدارتهم ، وخربت أكثر المدن والقرى الشرقية المذكورة ، بسبب فوضى أحكامهم ، وتوالي حروبهم مع الفرس ، فساء حال حماة من جراء ذلك . ولما كان الفتح الإسلامي ، جاءها أبو عبيدة في سنة ١٧ هـ فصالح أهلها على الجزية لرؤوسهم ، والخراج على أرضهم ، وجعل كنيستهم العظمى جامعاً ، وهو الآن الجامع الكبير ، وسيأتي وصفه . وجعل الخلفاء الراشدون حماة من أعمال جند حصص ، للسبب الذي تقدم ذكره . ومن الأحداث التي حصلت فيها في أواخر القرن الأول ، في خلافة عبد الملك بن مروان ، إرسال قيصر الروم (يوستينيانوس) قائدين اسمهما (موريق وموريقان) جاءا وخربا دير القديس مارون الذي كان على العاصي بين شيزر وحماة وقتلا رهبانه البالغين خمسة وستة شمل أتباع هذا القديس .

ولما انتقلت الخلافة من يد الأمويين إلى العباسيين ، في سنة ١٣٢ هـ من القرن الثاني ، أورث انتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد فتوراً في الشام ، لأنها أصبحت بعيدة

= الحثية ، وكان السباقون إلى ذلك الإنكليز ، أمثال (دراك وبرتون وفريكت وساييس ودلويس) . وقد قص منهم (ساسي) في كتابه الخاص بتاريخ الحثيين وممالكهم وكتاباتهم ، المطبوع سنة ١٨٨١ م ، كيف توصلوا لاستخلاص تلك الأحجار ، من أيدي أهل حماة الأشداء على الأجانب (كذا) ونقلها ، وقد كان لتلك الأحجار فضل غير يسير في توجيه أنظار علماء المشرقيات والعاديات ، نحو البحث عن الأمة الحثية ، ودرس تاريخها المجيد ، الذي كان مجهولاً بالكلية . كما أن مكانة حماة في ذلك التاريخ ، حدث أخيراً بالعالم الأثري (أنكولد) الدنماركي ، أن يحفر قلعة حماة ، وينفذ إلى أعماقها ، أملاً بالوصول إلى أحجار تحوي الأبجدية الحثية ، لكنه رغم جهوده الجديرة بالإعجاب ، لم يظفر بضالته بعد .

عن نظر الخلفاء ، الذين قل اكترائهم بها ، يحكمها العمال حسب أهوائهم ، فكان ذلك مدرجة لانحطاط شأنها . وفي القرن الثاني وفي النصف الأول من الثالث ، اشتركت حماة مع متبوعتها حص ، في الفتن والحروب الأهلية ، التي كانت تحدث تارة من تأجيج نار العصبية بين القيسيين واليانيين ، وتارة من الوثوب بالعمال ، ومجيء جيوش الخلفاء لتأديب المتوثبين . وفي النصف الثاني من القرن الثالث ظهرت بوادر الضعف في العباسيين ، وصار المتغلبة من أولئك العمال ، ينزعون إلى الاستبداد في الأمر ، وكان أولهم عامل مصر أحمد بن طولون ، فقد نزع ربة الخلافة ، واستولى على الشام ، فأخذ حماة فيما أخذه ، وعقبه ابنه خمارويه وحفيده جيش . وفي سنة ٢٩٠ هـ جاء القرامطة بقيادة (الحسين بن زكرويه) الملقب بصاحب الشامة من دمشق إلى حص ، فتغلب عليها ، وخطب له على منابرها ، وتسمى بالمهدي ، ثم سار منها إلى حماة ومعرة النعمان وغيرها ، وقتل النساء والأطفال ، ثم سار إلى بعلبك ، فقتل عامة أهلها ، حتى لم يبق منهم فيما قيل إلا اليسير ، ثم سار إلى سلمية (الطبري ١١ / ٣٨١) . وفي سنة ٢٩١ هـ شخص الخليفة المكتفي من بغداد إلى الرقة ، وبث جيوشه فيما بين حلب وحص ، لحرب صاحب الشامة ، فساروا إليه ، وجرت الواقعة الفاصلة في قرية تمنع - التانعة قرب خان شيخون ، وشرقي طريق السيارات بين حماة وحلب - وكانت الدائرة على القرامطة . وفي أواخر القرن الثالث ، زالت دولة بني طولون على يد الخليفتين المعتضد والمكتفي ، اللذين لم يتوانيا عن القضاء على كل خارجي ، فظهرت بعدها دولة الأخشيد (محمد بن طنج) في مصر والشام ، ورأت البلاد مآرائه ، من اقتتاله سنة ٣٢٨ هـ مع عامل الخليفة ابن رائق ، وسنة ٣٣٣ هـ مع سيف الدولة بن حمدان ، وبعد زوال الإخشيديين في منتصف القرن الرابع ، دخلت حماة في حوزة سيف الدولة بن حمدان ، وأعقبه من بعده ، وتبعته حلب . وجاء الفاطميون إذ ذاك في سني ٣٥٨ - ٣٦٠ هـ ، ينازعون العباسيين الخلافة ، واستولوا على مصر والشام ، ورأت البلاد البلاء العميم من دوام الحروب بين جيوشهم ، والمتوثبين من العمال والأهلين في بلاد الشام ، الذين كان هوامم مع العباسيين . على أن الحمدانيين خطبوا للفاطميين ، أبناء مذهبهم الشيعي ، فظلت السلطة في شمالي الشام ومنها حص وحماة بيدهم . وكان الروم ينتهزون فرصة تطاحن المسلمين بعضهم مع بعض ، فيغيرون من حين إلى آخر ، على شمالي الشام ، ويصلون إلى حماة وحص وما حولها ، فيعيشون وينهبون ،

ويسبون ويعودون ، كما قدمنا في أبحاث كيليكية وأنطاكية ، وفامية وشيزر .

هذا والذكر إلى ذلك الحين إنما كان لحمص ، فكانت حماة تبعاً لغيرها من الممالك ، تارة تضاف إلى دمشق وتارة إلى حلب . ولما زالت دولة بني حمدان في أوائل القرن الخامس سنة ٤٠٦ هـ ، وزاد ضعف الفاطميين ، وتقسمت القبائل العربية بلاد الشام ، تبعث حماة (صالح بن مرداس) الكلابي صاحب حلب ، فبقيت في يده ويد أعقابه إلى أن زالوا ، ثم تبعث حص سنة ٤٣٧ هـ ، في عهد واليها شجاع الدولة (جعفر بن كلند) ، ثم في عهد (خلف بن ملاعب) الكلابي ، ولما استولى السلجوقيون في تلك الحقبة على بلاد الشام ، أقطع السلطان (ملكشاه) حماة إلى عامله (آق سنقر) ، وهو أبو عماد الدين زنكي فتبعث حلب . وفي غرة القرن السادس سنة ٥٠٤ هـ ، دخلت في حوزة الأتابك (طغتكين) صاحب دمشق ، وفي سنة ٥٠٩ هـ ، أرسل السلطان ملكشاه عسكرياً لمحاربة طغتكين ، فمروا بحماة وحاصروها ، وفتحوها ونهبوها ثلاثة أيام ، ثم سلموا حماة إلى الأمير (قيرخان بن قراجا) صاحب حمص ، فولى هذا على حماة ابنه محمود ، وكان ظالماً عسوفاً ، ذهب في سنة ٥١٧ هـ إلى أفامية وحاصرها ، ولكنه أصيب من قلعتها بسهم في يده ، فمات من ذلك ، فلما سمع طغتكين الخبر ، أرسل إلى حماة عسكرياً ، وملكها فاستقرت في يده زمناً تخللته برهة ، تولاهما (أقسنقر البرسقي) ، ومن بعده ولده (عز الدين مسعود) ، ثم رجعت إلى (طغتكين) ومن بعده إلى ابنه (بوري) فولى هذا عليها ابنه (بهاء الدين سوينج) ، وفي سنة ٥٢٣ هـ جاء عماد الدين زنكي بن آق سنقر من الموصل ، لحرب الإفرنج في شمالي الشام ، واستنجد ببوري صاحب دمشق ، فبعث لنجدته ابنه (سوينج) ، مع عسكره ، فغدر عماد الدين بسوينج واعتقله ، وجاء إلى حماة واستولى عليها ، ثم سار منها إلى حمص ، وكان قد غدر بصاحبها (قيرخان بن قراجا) وأحضره صحبته إلى حمص ممسوكاً ، وأمره أن يأمر ابنه وعسكره بتسليم حمص ، فأمرهم قيرخان فلم يلتفتوا ودافعوا ، فلما أيس منها رحل عنها إلى الموصل ، وظلت حماة في يد عماد الدين زنكي ، إلى سنة ٥٢٧ هـ ، جاء شمس الملوك (إسماعيل بن بوري) صاحب دمشق وحاصر حماة ، وملكها وحصر القلعة ، ولم تكن إذ ذاك حصينة ، فإنها حصنت فيما بعد ، في عهد تقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين ، واستولى شمس الملوك على القلعة ، ولكن عماد الدين زنكي عاد واستردها بعد مدة ، وظلت في يده إلى سنة ٥٤١ هـ حين وفاته ،

فلكها بعده ابنه نور الدين محمود . وفي زلزلة سنة ٥٥٢ هـ الهائلة ، خربت حماة وقلعتها ، فرمها نور الدين ، وبني أسوارها وأعاد قلعتها ، وبني فيها الجامع والمستشفى المعروفين باسمه .

وفي سنة ٥٧٠ هـ استخلص صلاح الدين الأيوبي حماة ، من عمال الملك الصالح (إسماعيل بن نور الدين) ، وولى عليها خاله (شهاب الدين الحارمي) ، وبعد موته أقطبها في سنة ٥٧٤ هـ إلى ابن أخيه الملك المظفر (تقي الدين عمر بن شهنشاه بن أيوب) ، وأضاف إليه في سنة ٥٨٢ هـ منبج والمعة وكفرطاب وميفارقين ، وفي سنة ٥٨٤ هـ اللاذقية ، ولما توفي تقي الدين عمر في سنة ٥٨٧ هـ وخلفه ابنه الملك المنصور (ناصر الدين محمد) ، غير أن صلاح الدين أخذ منه البلاد التي افتتحها أبوه ، وأبقى له منبج وأقامية وسلمية والمعة ، وفي زمنه حاصر حماة في سنة ٥٩٧ هـ الملك الظاهر (غازي بن صلاح الدين) حصاراً شديداً ، انتقاماً من المنصور ، الذي لم يتحد معه في محاربة عمها الملك العادل ، لكنه لما لم يفز منها بطائل ، اضطر لمصالحة المنصور ، على مال يحمله إليه ، واضطر بعد لإعادة المعة إليه ، بعد أن كان أخذها ، وذلك خوفاً من عمه الملك العادل الذي خف لتأديب الظاهر ، ثم استرضاه هذا ، فرضي وعاد . ويذكر للمنصور ظفراً باهراً على الإفرنج في بعين ، عقيب معركة جرت في سنة ٥٩٩ هـ ، وفي آخر عمره عهد بالملك لولده المظفر محمد ، وحلف الناس على ذلك ، لكنه لما توفي سنة ٦١٧ هـ خالفه وزرائه ، ولوا ابنه الثاني الناصر (قليج أرسلان) ، فذهب المظفر إلى مصر ، واستجار بالسلطان الملك الكامل ، أعظم ملوك الأيوبيين في مصر والشام في تلك الحقبة ، وأقام في خدمته . وفي سنة ٦١٩ هـ جاء الملك المعظم عيسى ، صاحب دمشق ، وحاصر ابن أخته الناصر صاحب حماة ، لإخلاف الناصر في دفع مال مشروط ، ولما لم ينل مأربه ، ارتحل إلى سلمية ، واستولى على حواصلها العائدة للناصر ، وأقام مدة فيها يتأهب لحصار حماة ، إلى أن جاءه أمر الملك الكامل بالارتحال عنها فارتحل ، وأمر الملك الكامل بإبقاء حماة بيد الناصر ، وتسليم سلمية إلى أخيه المظفر ، ثم في سنة ٦٢٦ هـ جاء الملك الكامل إلى سلمية ، وبعث منها إلى حماة بجيش ، سلم قيادته إلى (أسد الدين شيركوه) صاحب حمص ، وأمره بحصار حماة ، فاستسلم الناصر ، وسلم حماة ، فأمر الملك الكامل بإعادة المظفر إليها ، على أن تنزع سلمية منه ، وتسلم إلى الناصر ، فلم يبق لحماة تواضع سوى المعة ، وقصد الإفرنج

حماة في سنة ٥٢٧ هـ ، فخرج المظفر وواقعهم عند قرية أفيون وكسرهم ، وذهب المظفر إلى شير سنة ٦٣٠ هـ ، لمعاونة الملك العزيز صاحب حلب ، لاستخلاصها من يد صاحبها (يوسف بن الداية) فاستخلصوها منه كما قدمناه في بحث شير ، وذهب مع الملك الكامل إلى محاربة (كيقباز السلجوقي) فانكسرت حملتها ورجعا خائبين ، وعمر المظفر قلعة المعرة ، وجعلها كما ذكرناه في حديثها . ولما توفي المظفر سنة ٦٤٢ هـ ولي حماة بعده ابنه المنصور محمد ، ولما جاء (هولاكو) ملك التتر ، واستولى على حلب ، وأفحشت جنوده فيها فجعل المنصور وغادر حماة ، فأجمع سكان حماة على الاستئمان ، فأمنهم هولاكو ، وكان التجأ إليه الأشرف (موسى بن إبراهيم بن شيركوه) صاحب حمص ، فأمره بعد رجوعه من بلاد الشام ، أن يعود إلى حمص ، ويمر بحماة ، ويهدم أسوار قلعتها ومدينتها ، فهدم الأشرف أسوار القلعة ، وأحرق ذخائرها وبعثر كتبها ، ولما حاول هدم أسوار المدينة توسل أهلها بنائب هولاكو فنعه من ذلك . وكان هولاكو يتقصد تخريب جميع قلاع بلاد الشام ، لم يعف عن واحدة منها ، إلا قلعة دركوش فإنه لم يصلها ، كما قدمناه في بحثها . وبعد معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، التي انكسر التتر فيها ، قرر المظفر قطز المنصور صاحب حماة في بلده وتوابعها ، وهي بعين والمعرة . وفي سنة ٦٥٩ هـ ، اشترك المنصور في المعركة الهائلة التي جرت شمالي حمص بين المسلمين والتتر ، وانكسر فيها التتر ، وفي سنة ٦٦٤ هـ ، سار على رأس الجيش الذي جهزه الملك الظاهر بيبرس لغزو الأرمن في جبل اللكام وكيليكية ، ورجع ظافراً كما قدمناه في أبحاث هذه الأماكن ، ولما توفي المنصور سنة ٦٨٢ هـ ملك حماة وتوابعها بعده ، ابنه (المظفر شادي) من قبل (المنصور قلاوون) سلطان مصر والشام ، وحضر بجنده مع السلطان المذكور فتح المرقب وطرابلس وعكا ، ولما توفي المظفر في سنة ٦٩٨ هـ ، في أيام السلطان الناصر (محمد بن قلاوون) ولي مكانه (قرا سنقر الجوكندار) أحد الأمراء المماليك ، نائباً على حماة . وبذلك خرجت حماة من يد التقويين الأيوبيين . وكان العادل زين الدين كتبغا ، بعد خلع من السلطنة في مصر ، قد استقر نائباً في صرخد ، فنقله السلطان الناصر (محمد بن قلاوون) إلى حماة بعد هزيمة (غازان) ملك التتر ، وجعله نائباً بها إلى سنة ٧٠٢ هـ التي مات فيها . فولى الناصر مكانه ، من أمرائه (سيف الدين قبجق) ثم صرفه عنها ، وولى مكانه سيف الدين (أسندمر) ، ثم صرفه عنها بعد عوده من الكرك ، وولى فيها الملك المؤيد عماد الدين

(إسماعيل بن الأفضل) على عادة من تقدمه فيها ، من الملوك التقويين الأيوبيين ، فبقي فيها إلى أن توفي في سنة ٧٣٢ هـ ، فولى السلطان الناصر مكانه ابنه الأفضل محمد ، فبقي فيها حتى عزل عنها ، في سلطنة المنصور (أبي بكر بن محمد بن قلاوون) في سنة ٧٤١ هـ لسوء سيرته ، واستقرت حماة بعده نيابة ، يتولى عليها نواب السلاطين المماليك في مصر ، نائباً بعد نائب ، كغيرها من الممالك الشامية .

فيظهر مما ذكرناه ، أن حماة ظلت في يد البيت التقوي الأيوبي ، مدة ١٦٨ سنة ، تخللتها فترات ، إلى أن انتهى ملكهم بخلع الملك الأفضل محمد بن أبي الفداء ، على أنه لم يكن لأبناء هذا البيت من الملكية إلا الاسم والأبهة فقط ، وكانوا فعلاً تحت إمرة أبناء أعمامهم آل البيت الصلاحي الأيوبي ، وإمرة السلاطين المماليك ، الذين خلفوا الأيوبيين في مصر والشام . على أن حماة نالت في عهدهم ، حظاً موفوراً من العمران ، قضى على بعضه (هولاء) في القرن السابع ، وعلى جلّه (تهورلنك) في أوائل القرن التاسع ، ذكر حيدر الشهابي في تاريخه في حوادث سنة ٨١٣ هـ أن أهل حماة ، بعد أن استأمنوا لولدي (تهورلنك) وأضافوها ، قتلوا النائب التتري الذي أبقياه ، فارتد أحد الولدين ، لاستيفاء ثأر النائب فأحرق غالب حماة وقتل أكثر سكانها ، ولما عجز عن القلعة التي اعتصم فيها كثير من المحويين ، أنجده أبوه بجيش ، فأخذها أيضاً ودكها ، وأحرق وقتل ونهب .

فبعد أن جرى بحماة ما ذكرناه ، وأعقب ذلك انتشار فوضى الأحكام في آخر عهد المماليك ، واقتتال الأمراء آل الفضل أبناء عيسى بن مهنا (أجداد أمراء الموالى الحاليين) وعيشتهم في براري حماة وسلمية والمعة ، وتخريبهم قراها ، انحط شأنها وتضاءل عمرانها ، وظلت في عهد المماليك يديرها نوابهم ، فتسعد وتشقى ، تبعاً لصلاح هؤلاء أو فسادهم . وفي القرن العاشر دخلت في ملك العثمانيين ، وصار يتولاها المسلمون والباشات ، الذين يوظفهم ولاية طرابلس أو دمشق ، حسبها تكون حماة مرتبطة بهذه أو بتلك ، فنالها في العهد العثماني ما نال القطر الشامي كله من الإهمال وسوء التدبير ، إلى أن حسنت الحالة في الجملة ، في أواخر القرن الماضي ، فجعلت حماة متصرفية ، ألحقت بها إذ ذاك أقضية حمص وجبل الكلبية ، ثم تبعتها سلمية في مطلع القرن الحالي .

وما يستحق الذكر ، أن الصليبيين حاولوا الاستيلاء على حماة مراراً ، ففشلوا لاسيما

في مرتين كاد يتم الأمر لهم . الأولى في سنة ٥١١ هـ في عهد واليها (شهاب الدين محمود) فإنهم انتهزوا فرصة خسوف القمر ، فوصلوا إلى أرباض حماة وحاصروها ، والثانية في سنة ٥٧٢ هـ انتهزوا فرصة غياب صلاح الدين في مصر ، ومرض عاملها خاله (شهاب الدين الحارمي) فحاصروها ، لكنهم في المرتين أجبروا على الرجوع . على أنهم عند ضعف المسلمين وتنازع ملوكهم ، كانوا - ونحن نخص بالذكر الفرسان الاستباريين المرابطين في حصن الأكراد - لا يتوانون عن الإغارة على حماة ، فينالون من ضواحيها ، ويغرمون أحياناً ملوكها وعملها ، بمبالغ طائلة ، وأحياناً كانوا ينكسرون ، ويعودون خائبين .

هذا وقد حاولت أن أجد وصف حماة في القرون الغابرة ، لأنظر كيف كان عمرانها في أدوار متعاقبة ، فلم أعثر على أقدم من وصف القرن الثالث أثقله عن ياقوت ، قال : « وذكر أحمد بن الطيب فيما ذكره من البقاع التي شاهدها في مسيره مع المعتضد من بغداد إلى الرملة . فقال بعد ذكره حصص : وحماة قرية عليها سور حجارة ، وفيها بناء بالحجارة واسع ، والعاصي يجري أمامها ، ويسقي بساتينها ، ويدير نواعيرها » وكان قوله هذا في سنة ٢٧١ هـ فسامها قرية اهـ . قال أحمد الصابوني المحوي في كتابه (تاريخ حماة) المطبوع في سنة ١٣٣٢ هـ ما خلاصته : « أن أحمد بن الطيب ، سمى حماة قرية ، وليست هي قرية كما قال ، ولكن من يشاهد بغداد في زمن المعتضد ، لا يستغرب منه تسميته حماة قرية ، لأن العباسيين لما أخذوا الخلافة ، لم يكن لهم عناية إلا بإعمار بغداد والعراق ، فأهلوا شأن البلاد الشامية ومنها حماة ، ولتوالي هذا الإهمال والفتن ، خربت الكور والقرى ، التي كانت حماة تستقي منها موارد ثروتها ، مثل كورة البلعاس ، والأندرين ولطمين وصوران ويعرين وغيرها حتى صارت حماة ، تسمى قرية في نظر أحمد بن الطيب » اهـ . وقال الأصبخري في أواسط القرن الرابع ما يدل على صغر حماة إذ ذاك ، ومضارعتها شيزر : « وأما شيزر وحماة فإنها مدينتان صغيرتان نزهتان ، كثيرتا الماء والشجر والزرع » .

ومر ابن جببر في القرن السادس سنة ٥٧٩ هـ ، بعد أن مضى على زلزلة سنة ٥٥٢ هـ ، التي خربت حماة بالمرة نحو ربع قرن ، وكانت نشطت من عثرتها ، بفضل الدولتين النورية والصلاحية ، لكنها لم ترق كثيراً عيني ذلك الأندلسي المتهتجة ، برأى غرناطة وقرطبة والحراء ، فلم تعجبه أفنيته الضيقة ، ومبانيها المزدهجة ، ولم ينشرح إلا

لحسن العاصي وجمال البساتين ، وهاك ماقاله : « حماة مدينة شهيرة في البلدان ، قديمة الصلبة للزمان ، غير فسيحة الفناء ، ولا رائقة البناء ، أقطارها مضومة ، وديارها مركومة ، لا يهش البصر إليها عند الإطلال عليها ، كأنها تكن بهجتها وتخفيها ، فتجد حسنها كامناً فيها ، حتى إذا جست خلالها ، ونقرت ظلالتها ، أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً ، تتسع في تدفقه أساليبه ، وتتناظر بشطيه دواليه ، قد انتظمت طرفيه بساتين ، تهدل أغصانها عليه ، وتلوح خضرتها عذاراً بضفتيه ، ينسرب في ظلالتها ، وينساب على سمت اعتدالها ، وبأحد شطيه المتصل بربضها ، مطاهر منتظمة ، بيوتاً عدة ، يحرق الماء من أحد دواليبه ، جميع نواحيها ، فلا يجد المغتسل أثر أذى فيها ، وعلى شطه الثاني ، المتصل بالمدينة السفلى ، جامع صغير ، قد فتح جداره الشرقي عليه طيقاناً ، تحتلي منها منظراً ، ترتاح النفس إليه ، وتتقيد الأبصار لديه ، وبإزاء ممر النهر بجوفي المدينة قلعة حلبية الوضع ، وإن كانت دونها في الحصانة والمنع ، سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها ، فلا تخاف الصدى ، ولا تنهيب مرام العدى . وموضع هذه المدينة في وهدة^(١) من الأرض ، عريضة مستطيلة ، كأنها خندق عميق ، يرتفع لها جانبان ، أحدهما كالجبل المطل^(٢) ، والمدينة العليا متصلة بسفح ذلك الجانب الجبلي ، والقلعة في الجانب الآخر ، في ربوة منقطعة ، كبيرة مستديرة ، قد تولى تحتها الزمان ، وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان ، والمدينة السفلى^(٣) تحت القلعة ، متصلة بالجانب الذي يصب النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان ، وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العالي الجبلي ، ويطيّف بها وبالمدينة السفلى سور يحدّق بها من ثلاثة جوانب ، لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج إلى سور ، وعلى النهر جسر كبير^(٤) ، معقود بصم الحجارة ، يتصل من المدينة السفلى إلى ربضها^(٥) ، وربضها كبير فيه خانات وديار ، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته ، إلى أن يفرغ لدخول المدينة ، وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى ، وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات » اهـ .

ولم ينبه ذكر حماة بعد خموله ، وتسعد إلا في عهد أبناء تقي الدين (عمر بن أيوب) فإنهم لما آل إليهم ملك حماة وضواحيها ، عمروها بالأبنية الضخمة ، والقصور

(١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥) : سيأتي التعليق عليها في متن الصفحة المقابلة .

الفخمة ، والأسواق الحافلة ، والأسوار المحكمة ، يدلنا على ذلك ما ذكره ياقوت في أوائل القرن السابع قال : « حماة مدينة كبيرة ، كثيرة الخيرات ، رخيصة الأسعار ، واسعة الرقعة ، حفلة الأسواق ، يحيط بها سور محكم ، وبظاهر السور حاضركبير جداً ، فيه أسواق كثيرة ، وجامع مفرد ، مشرف على نهرها المعروف بالعاصي ، عليه عدة نواعير ، تستقي الماء من العاصي ، فتسقي بساتينها ، وتصب إلى بركة جامعها ، ويقال لهذا الحاضر السوق الأسفل ، لأنه منحط عن المدينة ، ويسمون السور السوق الأعلى . وفي طرف المدينة قلعة عظيمة ، عجيبة في حصنها ، وإتقان عمارتها ، وحفر خنادقها نحو مئة ذراع وأكثر ، وهي مدينة قديمة جاهلية ، ذكرها امرؤ القيس في شعره (أوردناه في بحث شيزر) إلا أنها لم تكن قديماً ، مثل ماهي اليوم بسلطان مفرد ، بل كانت من عمل حمص » اهـ . ويدلنا على تلك العناية أيضاً ، ما ذكره ابن بطوطة في القرن الثامن « حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة ، ومداينها البديعة ، ذات الحسن الرائق ، والجمال الفائق ، تحفها البساتين والجنات ، ويشقها العاصي ، ولها ريبض يسمى بالمنصورية ، أعظم من المدينة ، فيه الأسواق الحافلة ، والحمامات الحسان ، وبحماة الفواكه الكثيرة ، منها المشمش اللوزي الشهير » اهـ .

وقد حاول الصابوني في تاريخ حماة أن يفسر ما ذكره ابن جبير وياقوت فقال : « كانت حماة قسمين ، قسم في محلة باب الجسر ، وقسم في المدينة ، وبالنظر لارتفاع المدينة عن باب الجسر ، كانت تسمى القسم الأعلى ، وسوقها السوق الأعلى ، وكذا جامعها كان يسمى الجامع الأعلى ، وكانت مسورة بسور من الحجر الأبيض عظيم ، يمتد إلى تل العريصة ، وله أبواب عديدة منها : باب النصر وباب المغار ، وباب النهر وباب العميان ، وباب الغربي وباب القبلي ، وكان لمحلة باب الجسر سور يحيط بها من جهة ، والعاصي يحيط بها من الجهة الأخرى ، وعلى العاصي الجسر الكبير ، له باب من جهة الشمال الغربي ، وباب آخر في مبدئه من جهة القبلة ، ولسورها أبواب منها : باب تدمر وباب النقي وباب حمص » . وقال شرحاً لما ذكره ابن جبير وأشارنا إليه « برقم (١) ، الوهدة : المكان المنخفض ، فإن حماة في واد عميق ، كانت أرضه مساوية لأرض النهر ، ولكثرة الزلازل ، وتراكم التراب ، ارتفعت الأرض عن النهر . وعن الرقم (٢) أنه تل العريصة ، و (٣) محلة باب الجسر ، و (٤) جسر محلة باب الجسر ، و (٥) كان في محلة الدهشة ، في

بستان يسمى الآتون حوانيت وخانات ، ينزل فيها المسافرين إذا جاء ليلاً ، وأبواب السور مغلقة ، ويسمى مثل هذا ربضاً ، وكان بنيان محلة المدينة أوسع ، وأسواقها أحفل من أسواق محلة باب الجسر ، وكان بين القسمين طريق ، مما وراء القلعة من البستان ، الذي يسمى الآن بستان الخضر ، ثم امتد العمران لجهة الحاضر ، فحدثت محلات عديدة ، كما امتد البنيان في زمن نور الدين الشهيد ، حتى باب حصص ، جانب رحي المسرودة ، أما مكان السوق فقد كان مرتفعاً من الشمال ، ومنخفضاً في الجنوب ، وكان فيه مقابر ، وإذا طغى العاصي ، فاض على هذا القسم المنخفض وملأه . فلما ضاقت البلد بالسكان ، مشى الناس بالبنيان ، إلى موضع السوق ، فبنوا البيوت والحوانيت ، ولما ولي الملك المنصور حماة ، بنى هذا السوق ، وكان يعرف بسوق المنصورية « اهـ . قلت : وشكل حماة الذي ذكر الصابوني قد تغير بالكلية ، واندرست حدوده ومعالمه ، فلم يعد يعرف أين كانت تبدأ الباشورة ، وخندق القلعة وينتهيها ، وليس في حماة اليوم من يستطيع أن يعين مواقع الأبواب التي ذكر الصابوني وجودها ، في كل من محلة باب الجسر والمدينة ، ولا آثار سوريتها ، التي لم يبق منها إلا بعض الأجزاء في أحد أحياء حماة الغربية ، المتطرفة القريبة من محطة السكة الحديدية ، وهي تظهر تارة وتختفي أخرى . وفي أقصى هذا الحي برج كبير من بقايا أبراج السور ، مابرج مائلاً بجدرانه وأحجاره الضخمة ومراميه الرفيعة ، وفي داخله ضريح رجل تزوره العامة .

وكان ينتظر من الملك المؤيد (أبي الفداء) أن يصف لنا عاصمة ملكه حماة في كتابه (تقويم البلدان) ، وصفاً كافياً ، يطلعنا به على الرقي والعمران ، اللذين نالتهما في عهده ، وعهد أجداده التقويين الأيوبيين ، في القرنين السابع والثامن ، ولكنه رحمه الله لم يشذ عن الإيجاز ، الذي سار عليه في وصف بقية البلدان ، فاكتمى بقوله : « حماة من الشام بين حصص وقنسرين ، وحماة مدينة أزلية ، ولها ذكر في كتب الإسرائيليين ، وهي من أنزه البلاد الشامية ، والعاصي يستدير على غالبها ، من شريقها وشمالها ، ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة ، وفي داخلها الأرحية على الماء ، وبها نواعير على العاصي ، تسقي أكثر بساتينها ، ويدخل منها الماء إلى كثير من دورها » قال الهروي في كتابه المعروف بالزيارات : « وحماة بلد قديمة ، مذكورة في التوراة ، وهي وشيزر مختصتان بكثرة النواعير ، دون غيرها من بلاد الشام » اهـ ..

وبعد أن نقلت وتقدت ماسبق ، رأيت القلقشندي ينقل في كتابه (صبح الأعشى (١٤٠ / ٤) عبارة تقويم البلدان على شكل آخر ، ولم أدر أي العبارتين أصح صدوراً من أبي الفداء ، قال : قال في (تقويم البلدان) : « ولها ذكر في التوراة ، وهي على ضفة العاصي ، مكيئة البناء ، ولها سور جليل ، وبيوت ملوكها وشرفاتها مطلة على النهر العاصي ، وبها القصور الملوكية ، والدور الأنيقة ، والجوامع والمساجد ، والمدارس والربط ، والزوايا والأسواق التي لاتعدم نوعاً من الأنواع ، وبها قلعة منيعة بالحجارة الملونة ، وغالب مبانيها العلية ، وآثار الخير والبر الباقية فيها ، من فواضل نعم الدولة الأيوبية ، وبها نواخير مركبة على العاصي ، تدور بجريان الماء ، وترفع الماء إلى الدور السلطانية ، ودور الأمراء والأكابر والبساتين ، وفي بساتينها الغراس الفائق ، والثمار الغريبة ، ولم يكن لها في القديم نباهة ذكر ، وكان الصيت لمحص دونها ، ثم تنبه ذكرها في الدولة الأتابكية زنكي ، فلما آلت إلى ملوك بني أيوب مصروها ، بالأبنية العظيمة والقصور الفائقة ، والمساكن الفاخرة وتأمير الأمراء ، وتجنيد الأجناد فيها ، وعظموا أسواقها وزادوا في غراسها ، وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كل من فاق في فنه ، إلى أن كملت محاسنها ، وصارت معدودة من أمهات البلاد ، وأحسن الممالك ، وهي في غاية رفاهية العيش ، إلا أنها شديدة الحر ، محجوبة الهواء ، ويعرض لها في الخريف تغير تنسب به إلى الوخامة ، ولا يبقى بها الثلج إلى الصيف كما يبقى في بقية الشام ، وإنما يجلب إليها مما يجاورها ، وحولها مروج فيح ممتدة ، يكثر فيها مصايد الطير والوحش ، وليس بالممالك الشامية بعد دمشق لها نظير ، ولا يدانيها في لطف ذاتها من مجاورتها قريب ولا بعيد » اهـ . وقال في صبح الأعشى أيضاً : قال في التعريف : « وحدها من القبلة مدينة الرستن وما سامتها ، أخذاً بين سلمية وقبة ملاعب ، إلى حيث مجر النهر والآثار القديمة^(١) ، وحدها من الشرق البر ، أخذاً على سلمية إلى ما استفل عن قبة ملاعب ، وحدها من الشمال ، آخر حد المعرة من الغرب ، وحدها من الغرب مضافات مصياف وقلع الدعوة ، ولها ثلاثة أعمال : عمل برها وهو ظاهرها وما حولها ، وعمل بارين ، وعمل المعرة

(١) لم أتمكن من معرفة مكان قبة ملاعب هذه ، ويظهر من كلامه أنها كانت شمالي سلمية وشرقي الحمراء التي سيلقي ذكرها ، وقد دثرت هذه القبة ، وضاع رسمها واسمها في تلك الربع ، كما أنني لم أفرق أي نهر ومجر قصد ، ولا أي آثار قديمة عنى ١ .

وقال شيخ الربوة في القرن الثامن أيضاً : « حماة حماها الله ، بها سلطان ملك - لعله يعني الملك المؤيد أبا الفداء - ونائب مستقل ، وهي مدينة حسنة خصبة ، كثيرة الخير والأرزاق ، يحوطها النهر العاصي ، ويأتيها جاريماً من بين جانبيها ، ويجمع بين الجانبين قنطرة ، وعلى العاصي نواعير كبيرة ، التي لم ير في الآفاق مثلهن ، يحملن من العاصي أنهاراً من الماء ، يسقون به البساتين والأماكن ، وهي كثيرة الثمار ، وبها المشمش الكافوري اللوزي ، الذي لم ير في سائر الآفاق مثله ، ومن أعمالها الكبار بعرين ، وتسمى بارين وهي قلعة منيعة ، وسامية وهي على سيف البرية - بناها عبد الله بن صالح وعلي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم - ولها قناة كبيرة تحمل من سامية إلى حماة ، تسقي بساتينها وأراضيها ، وهو نهر مليح » . وقال أيضاً عن حماة ، في فصل أعياد النصاري ومواسمهم : « وفي عيد الفصح تبطل أهل حماة مدة ستة أيام ، أولها يوم الخميس الكبير ، وهو خميس العهد ، وآخرها يوم الثلاثاء ثالث الفصح ، وتنتقش فيه النساء ، وتلبس فيه الكساوي الفاخرة ، ويصبغون فيه البيض ، ويعملون الأقراص والكعك ، المسلمون أكثر من النصاري . ويرد إلى حماة أهل سائر البلاد المجاورة لها ، مثل حمص وشيزر ، وسامية وكفر طاب ، وأبي قبيس ومصيف ، والمعرة وتيزين ، والباب وبزاعة ، والفوعة وحلب ، ويطلقون جميعاً إلى العاصي ، ويضرب لهم أهل حماة على شطوطه خياماً ، ويركبون في المراكب بالمغاني ، ويرقصون في المراكب النساء ، والرجال على الشطوط ، حتى تنتهك الخلائق ، ويمضي لهم ستة أيام لا يرى في الوجود مثلها ، وكذلك يبطلون أول يوم صوم النصاري ، ويقولون قد طلوعوا يلتقون الراهب ، ويبطلون أيضاً يوم نزول الشمس برج الحمل ، ولم أر هذا في مدينة غيرها . وفي ليلة عيد الميلاد ، يوقد أهل حماة ، كبيرهم وصغيرهم ، وجليهم وحقيهم ، وجندهم وأميرهم ، من القناديل فوق الأسطحة ، ومن القنب والشيخ شيئاً عظيماً ، ويوقدون من البارود والنفط أنواعاً شتى ، وكذلك في عيد الختان ، ويسمونه الميلاد الصغيرة ، وربما يوقدون فيها أكثر من الكبيرة » ١ هـ .

قلت : نهبت هذه الجملة التي نقلتها عن كتاب شيخ الربوة أفكار منوري حماة الذين قرؤوها ، حينما نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (ج ١٠ / مجلد ١٢) وعرفوا منها أن بلدتهم كانت فيما مضى سباقاً في مضار هذه الحفلات السنوية ، فقاموا وعملوا في ربيع سنة ١٣٥٣ هـ في يوم خميس المشايخ عيداً قومياً ، كان على بدائته ذا روعة وإتقان ، وقد

عولوا على زيادة تنظيمه في السنين المقبلة ، وقد حمدني بعض هؤلاء على تنبيهي ، وإفادتي حماة بذلك .

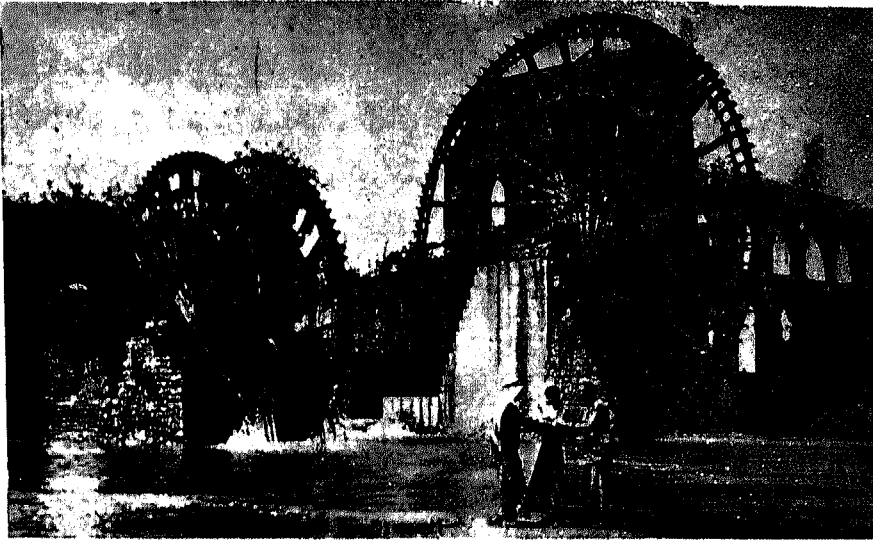
وفي كتاب (الدر المنتخب في تاريخ حلب) لابن الشحنة ، بعد أن كرر وصف حماة على نسق من تقدمه ، قال : « ولها قلعة معظمة في المدينة ، لكنها خربت منذ زمان . وكانت حماة قديماً مضافة إلى حصص ، ثم أضيفت إلى حلب ، كما تقدمت الإشارة إليه ، ثم عظم شأنها بالملوك الأيوبيين الذين كانوا سلاطينها ، وإن كانوا تحت يد ملوك مصر ، ومن ثم عظم قدر نوابها ، وصار بها قضاة أربعة وحجاب وأمراء ، وأرباب وظائف من كاتب سر وناظر جيش بدار النيابة » . قال ابن فضل الله : « حماة مدينة قديمة ، وهي في وحدة من الأرض حمراء ممتدة » . قلت : ليست ممتدة بل هي إلى الاستدارة أقرب . ثم قال : « وعليها نشران عالبيان يسميان قرون حماة » . قلت : وليس هن عليها ، بل بعيد عنها ، وإنما سميا بذلك ؛ لأن قاصدها من جهة الشمال يراها من بعيد ، فيستدل بذلك على القرب منها . ثم قال - بعد أن أثنى عليها وعلى كثرة خيراتها ، ونواحيها ورخاء أسعارها - « خلا أنها ذات وعر (وغر) في الصيف ، لحجب الهواء عن اختراقها ، ويعرض بها في الخريف تغير ، فتنسب إلى الوخم ، ولا يبقى بها الثلج في الصيف ، كما يبقى في بقية بلاد الشام مدخراً إلى الصيف ، ولكنه يجلب إليها من غيرها ، وحول حماة مروج ممتدة وبرفسيح ، يكثر به مصائد الطير والوحش ، وليس لها سوى عمليْن : عمل بارين ، وعمل المعرة » .

أما قناة سلمية التي ذكرها شيخ الربوة ، فقد كانت تصل إلى حماة ، وتسقي الأرض الفسيحة العذبة ، الممتدة في شماليها ، وقد درست وتنوسي خبرها . أما الزوارق فقد أدركنا منها أثراً ضئيلاً ، كان قاصدو النزهة من الحمويين ، يركبونها من جسر المراكب ، الذي صار يدعى جسر السرايا ، حيث العاصي زائد العمق في الجملة ، يذهبون إلى مكان في شرقي البلدة يدعى البشريات ، نسبة إلى دفين بجانبها ، يسمى الشيخ بشر ، فيه ناعورتان كبيرتان تسقيان البساتين . ولم يبق في حماة من الفواكه التي ذكرها ابن بطوطة وشيخ الربوة إلا النادر ، وفقد منها الشمس اللوزي ، الذي مازال موجوداً في دمشق والقطر المصري ، ومعروفاً بالحموي ، وناب عنه صنف من الشمس الطيب ، يسمونه

المشبه ، إنغا لقلته يكاد لا يكفي حاجة حماة نفسها ، وليس في بساتين حماة وأزوارها إلا الزروع المسقوية ، من الحبوب والبقول الواسعة الغلال ، وقليل من الأشجار غير المطعمة ، وما ذلك إلا من إهمال ملاكي هذه البساتين ، وانصرافهم لزيادة عدد ما يقتنونه من القرى العذية ، دون العناية بإتقان العمل .

وفي القرن التاسع في دولة المماليك ، وفي القرن العاشر في زمن العثمانيين ، كسدت بضاعة العلوم الدنيوية ، فلم يشأ أحد من الرحالين أو الجغرافيين ، ينبئنا عما كان عليه إذ ذاك عمران حماة وغيرها من مدن الشام ، مما تقدم معنا ذكره أو تأخر ، أو أنه نشأ ولم نعثر على ما كتبوه ، وكذلك لم ينشأ في القرن الحادي عشر سوى سائحنا (أوليا جلي) ، الذي وصف حماة على قدر ما وعاه فهمه . على أن المعروف من التواريخ ، أن حماة بعد زوال دولة الأيوبيين التقويين ، والحرب الذي أصابها من (هولكو وتيمورلنك) ، واستمرار فوضى الأحكام في عهد المماليك ، ودثور سلمية وغيرها من القرى الشرقية ، التي لاحتها حماة إلا بها ، وفصل المرة عنها أفل نجم حظها ، وفي عهد العثمانيين دام هذا الأفول ، لتوالي جور المسلمين ، الذين كان يرسلهم الولاة من طرابلس أو دمشق ، وفتن الأجناد وعسفهم ، حتى هاجر كثير من المحويين على مارواه المحبي ، إلى بقية مدن الشام الأكثر اطمئناناً ، فخلت حماة من رجالها ، وانحط شأنها كثيراً . وفي القرن الماضي ، ولا سيما في عقده الأخير دأبت الأسر الكبيرة التي أوجدتها أحداث ذلك العهد ، على استصفاء العقارات في المدينة ، والمزدرعات في القرى بشق الوسائل ، حتى لم يبق منها لاسيما في البرية من الأرضين المملوكة لأهلها إلا ماندر ، وأصبح المحويون من جراء ذلك فريقين متباينين ، العظامي الذي يسير فخوراً لسعة أملاكه ووفرة أرزاقه ، تدر عليه وهو مستريح ريعاً ، ينفقه في نعمه ورفهه ، والعصامي وهم السوقة والفلاحون ، الذين يكدون مدى العمر ، للحصول على كفاف العيش ، والأجور التي حققت عليهم لأولئك العظاميين . والشحناء من جراء هذه التباين ، مستحكة الحلقات بين الفريقين.

ومنذ قرن ونصف ، توافد رحالة الإفرنج على حماة ، فأعجبهم جمالها الطبيعي ، ومنظرها الأثري ، واستغربوا انسياب عاصيها ، وشذو نواحيها وأزياء أهلها وأطوارهم ، فكتب بعضهم ، ومنهم (فولنباي) في سنة ١٧٨٣ م ، و (بركهسارت) سنة ١٨١٢ م ،



نواعير حماة

و (إيزامبر وشوفة) سنة ١٨٨٢ م ، و (فان برشم) سنة ١٨٩٨ م ، و (موريس باريس) في سنة ١٩١٤ م ، و (موناشرشة) سنة ١٩٣٢ م ، مأوحتة إليه قريحتة الغربية . وخلاصة ماكتبوه ، بما يكادون يتفقون في مآله ، أن حماة اختبأت في منخفض العاصي ومنعرجاته ، لا يتميزها القادم من بعيد ، إلا من قرونها ، وأنها احتضنت العاصي بجسورها ، وأغست فيه دورها وقصورها ، وأطنبوا بنضرة رياضها ، وزهو أشجارها وأزهارها وروعة عاصيها وانسيابه الهادئ ، ووصفوا نواحيها ، معجبين بشكلها وعظمتها ، ودورانها وشذوئها المطرب ، وصعوبة اعتياد الغريب عليه في لياليه الأولى ، وانتشار الماء منها ، وانصبابه في القناطر الممتدة إلى الأحياء والبساتين ، وتمثلوا العصور الوسطى عند رؤيتهم مباني حماة الأثرية المركومة ، التي لم يخالطها حتى الآن بناء حديث ، وأسواقها المعقودة ، ودكاكينها المزدهمة بالقرويين والبدو ، وتمثلوها أيضاً عند نظرهم إلى أطوار سكان حماة ، وأزيائهم العربية المتنوعة الألوان والأشكال ، وشكوا فقدان الفنادق والمطاعم ، وحرمان أسباب الرفه الجالبة للسياح ، وأن حماة بلدة منكشة ، بعيدة عن الاتصال بحضارة الغرب ، قليلة الترحاب بالأجانب ، وأهلها متعصبون ، والحياة الاجتماعية فيها - لاسيما عند أسرها الكبيرة التي بيدها الملك كله - تذكر عهد الإقطاع ، وأن من المباني الأثرية التي تستحق الزيارة في حماة ، قصور بني العظم وبني الكيلاني ، والجامع النوري وجامع الحيات ، والقلعة . إلخ ...

ومما قاله أحدهم وهو (موناشرشة) صاحب (الدليل الأزرق) : « وحماة مثل أكثر مدن الشام ، لا يحتاج المتجول فيها ركوب المركبة ، فضياع الوقت يكاد لا يذكر ، ناهيك أن الماشي يتلى أكثر بمشاهدة الطرق . فالأحياء المبنية في ضفة العاصي اليسرى ، أكثر امتداداً واستتاعاً منها في ضفته اليمنى . وإذا غادر السائح جسر السراي يسير شمالاً في شارع عريض ، يوازي العاصي^(١) ، فيمر من تحت قناة ناعورة كبيرة^(٢) ، ثم يصل إلى قصر بيت العظم ، وكان مسكناً لأسعد باشا العظم ، الذي حكم حماة إلى سنة ١٧٤٢ م^(٣) ، وقد اتخذ

(١) يعني شارع أبي الفداء .

(٢) هي ناعورة المأمورية .

(٣) تاريخ بناء القصر سنة ١١٥٣ هـ .

الآن مدرسة أهلية ، دعيت دار التعليم والتربية . وهذا القصر أصغر وأقل بهاءً ، من قصر بيت العظم في دمشق ، له فنآن أحدهما علوي ، والثاني سفلي ، وفي العلوي قاعة ذات قباب ، أمامها صف من الأعمدة ، ونجارة الخشب فيها ودهانه وشبهه من طراز القرن الثامن عشر ، وفي جنب القاعة غرفة فيها رسوم جميلة ، أحدها يمثل مدينة حلب بمنظرها العام^(١) . وأجل ما في القصر موقعه ، فإن الواقف في فنائه العلوي ، يشرف على مشهد جميلة ، في ضفتي العاصي ، وعلى أحياء حماة التي في ضفته اليمنى^(٢) . وبعد الخروج من القصر ، يسير السائح شمالاً ، فيمر من قرب ناعورتين عظيمتين جداً^(٣) ، ثم من تحت ساباط ، إلى أن يصل إلى جسر على العاصي في قربه ثلاث نواير ، ويشاهد على ضفة العاصي اليمنى قصرًا ذا قبة ، لآل الكيلاني ذوي الوجاهة في حماة^(٤) ، والواقف على هذا الجسر ، تفر عينه بمنظر الحدائق الجميلة ، وصوت النواير المطرب ، وثمة في الضفة اليسرى حمام عربي قديم^(٥) . وإذا رجع السائح في الطريق الصاعدة من الجسر ، يزور الجامع النوري . . وبعد أن وصف هذا الجامع - قال : « ثم يصل إلى التل الذي كانت تعلوه القلعة المندرسة ، والواقف في ذروة هذا التل ، يتمتع بمشاهدة حماة كلها ، وفي جنوبي هذا التل جامع صغير له قبة مضلعة ، تدعى قبة الحسينين ، وفي الجامع كتابة تذكر تجديدده ، عقيب الزلزلة الهائلة ، التي حدثت في سنة ١١٥٧ م . ثم يصل إلى الجامع الكبير » - وبعد أن وصف هذا الجامع وضريح الملك المطفر - قال : « وإذا استأنف السائح السير في ذلك الطريق ، وعرج نحو الين يواجه العاصي ، ويرى الناعورة المحمدية الكبرى^(٦) ، المبنية في القرن الرابع عشر ، وهي تسقى الجامع الكبير . فإذا اجتاز الجسر^(٧) ، وعليه طاحونة

(١) في هذه القاعة ثلاثة أبناء تحت ثلاث قبب ، وفي البهو المتوسط بركة صغيرة جميلة ذات فسقيات من المرمر ،

والنقش والدهان الدمشقيين جميلين جداً ، لا يزالان على غالب جدتها ، وقد جدد البهو الغربي سنة ١٢٩٤ هـ ،

في عهد نصح باشا بن أسعد باشا ، وللبهو المتوسط ثريا جميلة ، وفيه وشي مذهب ، غاية في الإتقان .

(٢) يعني الحاضر .

(٣) هما الجعبرية والمأمورية .

(٤) بحثنا عن هذا القصر في هامش الصحيفة ٢١ .

(٥) حمام صغير بسيط يدعى حمام السلطان ، بناه فيما قيل الملك المنصور بن الملك الظاهر (تقي الدين عمر) ،

وكان حمامه الخاص به .

(٦) في باب النهر .

(٧) يعني جسر باب الجسر .

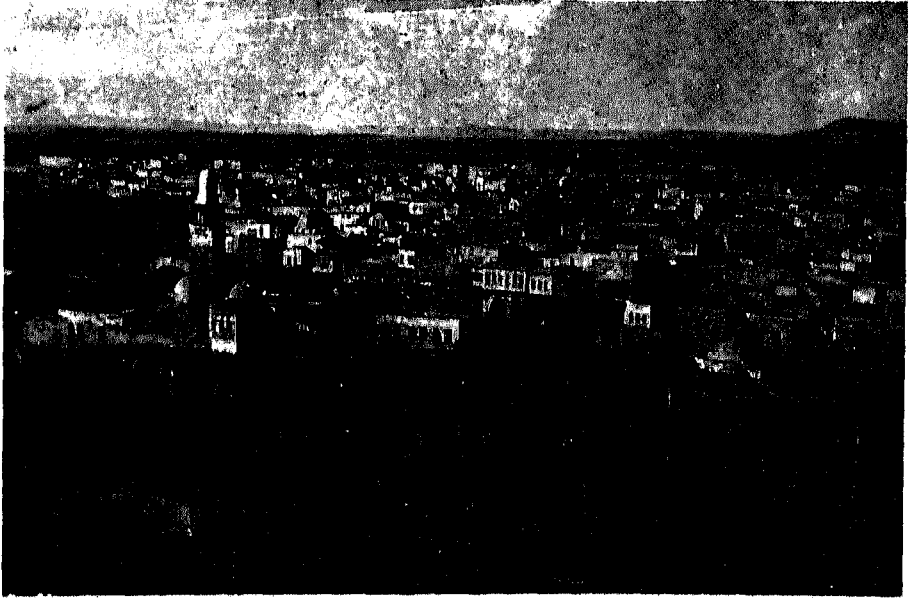
قديمة ، يلاقي وسط الحدائق جامع الحيات « ، - وبعد أن وصف هذا الجامع ، وضريح أبي الفداء - قال : « وبناء هذا الجامع خال من الإقتان الصناعي ، لكن منظره من الجسر المجاور له ، وخیاله المنعكس على مياه العاصي ، الذي تحيط به الحدائق ، يجعل له منظراً من أروع مناظر حماة . ويعود السائح من جامع الحيات إلى المدينة ، بعد أن يمر من سفح تل القلعة ، ويجتاز ساحة خالية وسبعة ، تمتد أمامه^(١) ، ثم ينفذ إلى أسواق حماة ، التي لا تختلف كثيراً بحركتها وجلبتها ، عن أسواق دمشق وحصص ، وتفوق تلك بأنها لاتزال محتفظة بوضعها وبنائها الأثريين^(٢) » اهـ . ووصف الصابوني قلعة حماة فقال : « بنيت قلعة حماة على صورة قلعة حلب ، فوق تل صناعي عال ، فقد كانت على هيئة من الإقتان غريبة ، ينظر الداخل إلى باب لها مشمخر بجارة عظيمة ، على خمسة جسور مرتفعة فوق الخندق ، ثم يدخل إلى منعطفات الأبراج ، فيرى البلد من النوافذ المفتوحة للحراسة ، الواسعة من الداخل والضيقة من الخارج ، ومن فوقها النوافذ الواسعة ، التي سدت بشبك من الحديد عظيم ، وبعد اجتياز المدخل ، بنايات عظيمة من دار الحكومة ومحل الذخائر وبيوت السكن ، يحيط بها سور عظيم مرتفع ، وفي مقابلته جامع أبي الفداء ، وجامع للقلعة ذي منارة شاذخة ، ومنه إلى الجهة القبليّة بمسافة واسعة ، حمام كبير جداً ، وفي طرفها الشرقي المطل على طريق باب الجسر بئر واسعة فيه ماء عذب جداً ، يأتي من مكان خفي من نهر العاصي ، ولها طريق تحت الأرض ، يصل إلى العاصي من جهة الشمال ، ماراً من تحت بستان الدواليك ، متصلاً ببعض البيوت ، وكانت القلعة مرصوفة بالحجر الأملس ، من أسفل الخندق إلى حيطان السور لئلا يصعد إليها العدو ، وللقلعة خندق دائر حولها عميق جداً ، وكان العاصي مرتفعاً عنه ، ولهذا الخندق طريق إلى الماء ، من المكان المسمى الآن جسر الهوا في مدخل محلة باب الجسر ، كانوا إذا أرادوا الحصار ، يفتحون منه ماء العاصي فيملئ الخندق ، وقد أشار إلى ذلك ابن جبير وياقوت » اهـ . قلت : وقد ظلت هذه القلعة على هذا المنوال إلى أن جاء (هولوكو) طاغية التتر في سنة

(١) يقام في هذه الساحة سوق عامة كل يوم خميس ، تجمع كل ضروب السلع والأقوات والبقول ، وقد شادوا حديثاً في وسطها ، بناء جميل لمدرسة التجهيز الأميرية .

(٢) أزالته بلدية حماة منذ عهد قريب سقف سوق حماة المفقود ، ثم استبدله بتجار هذا السوق ، بسقف من معدن التوتياء ، جعلوه أعلى من القديم ، وذا نوافذ لجريان الهواء ودخول النور ، فضاع بذلك الموضع والبناء الأثريان اللذان يتطلّبهما السياح .

٦٥٨ هـ ، وهو كما ذكرنا مراراً لم يدع قلعة إسلامية إلا وكان يتقصدها بالدك والنقض ، فخرّب قلعة حماة ، وأحرق ما فيها من الذخائر والعتاد ، ثم أعاد ملوك حماة الأيوبيون ترميمها ، إلى أن قضى عليها ابن تيمورلنك في سنة ٨٠٣ هـ القضاء الأخير كما قدمنا ، وأمست من ذلك الحين ليس فيها إلا بعض بيوت وجدران قائمة ، وسجن للحكومة وأنقاض ، إلى بعد مرور (أوليا جلي) في القرن الحادي عشر . وفي القرنين الماضيين جردت الأطلال وتقتضت الأحجار ، واستعملت في بناء قصور الكيلانيين والعظميين وغيرها ، فأضحى سطح التل قاعاً صفصفاً ، ليس فيه من تراث الأقدمين ، إلا بعض كسور الأحجار وأسس جدران من الآجر ، إلى أن جاءت في سنة ١٣٥٠ هـ بعثة أثرية دانباركية ، برئاسة العالم الأثري (أنكولد) الذي تقدم ذكره ، وأن ضالته العثور على الأجدية الحثية ، وشرعت تحفر في تل القلعة ، فكشفت بادئ بدء في الطبقة العليا من آثار العرب عدداً غير يسير ، من الأواني الخزفية وقطع الفسيفساء ، والقنابل اليدوية الخزفية ، التي كان يستعملها العرب في حروبهم ، وكشفت عدداً يسيراً من الأنصاب والعاديات الرومانية والبيزنطية ، وإلهين مصريين ، ودأبت في ربيع كل عام على الحفر ، أملاً بأن تصل إلى الضالة المنشودة ، ولما تصل بعد .

وفي حماة جوامع ومساجد كثيرة ، نخص بالذكر منها (الجامع الكبير) ، ليس في حماة جامع مثله في اتساعه وعظمته ، وهو في محلة المدينة ، وجدة من عهد أبي عبيدة ، وكان يسمى الجامع الأعلى ، قيل أنه جدد في خلافة المهدي ، من خراج حصص ، على ما نقش على رخامة فيه ، ثم جاء المظفر عمر ، فزاد فيه ، وبني مدرسة بجواره ، ثم جاء إبراهيم الهاشمي ، فأنشأ منارته الشمالية سنة ٨٢٥ هـ ، كما زبر ذلك على رخامة فوق بابها ، وبني أيضاً الحرم الصغير في جانب المسجد من جهة الشرق ، ورواق الجامع أيضاً بناه سنة ٨٣٢ هـ ، وفي غربي صحن هذا الجامع قبة صغيرة ، تدعى بيت المال أو الخزنة ، تشبه قبة جامع بني أمية في دمشق ، بنيت على ثمانية أعمدة ذات تيجان يونانية ، وتحتها بحرة مئنة الأضلاع ، وعلى الأعمدة كتابة عربية قديمة لم يتسن لي استنساخها ، وللجامع حرم واسع جداً ، فيه منبر خشبي من عهد (زين الدين كتبغا) ، الذي بعد أن كان ملكاً ، صار نائباً في حماة سنة ٧٠٢ هـ كما قدمنا ، وهذا المنبر آية في جمال الحفر وبراعة النقش ، المشكلين على خطوط ودوائر هندسية ، تعد من أبداع نماذج فن النجارة الجميلة العربية . ومن آثار



حي الحاضر في حماة

لنصرانية أو الوثنية في هذا الجامع ، جدار حرمه الغربي ، كان فيه باب عريض مسدود ، فوقه عتبة منقوشة نقشاً بديعاً ، وعلى العتبة قوس ، وعلى طرفي الباب في أصل الجدار ، محاريب صغيرة ، ذات زوافر وأعمدة منقوشة أيضاً . وسدة الحرم مزينة بالوشى والدهان الدمشقيين الجميلين ، ويرجع عهد هذه السدة إلى قرنين ، وهي راكبة على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض ، يظهر أنها منقولة من مكان آخر . وفي غربي صحن هذا الجامع ، باب ينفذ منه إلى حديقة ، فيها ضريح المظفر وابنه ، عليهما تابوتان ، عملا من الخشب المنقوش والمرصع نقشاً وترصيعاً بديعين ، وللجامع في جهة القبلة ، منارة مقطوعة الرأس ، بابها من الحجر الحري الأسود ، وكان لهذا الجامع أوقاف كثيرة اندرست ، ولم يبق إلا القليل .

وصف الأثري (هرزفيلد) هذا الجامع فقال : « أن أصل حرمه كان كاتدرائية للنصارى ، غربية الشكل ، وله ثلاثة أفنية مختلفة السعة ، وثمانى دعائم ، وخمس قباب ، ومن كل ناحية خمسة عقود أو أقبية ، ويظهر أن الجدار الغربي كان حائط رواق الكنيسة ، والجدار الجنوبي من العهد السابق للنصرانية ، كما هو الحال في جامع دمشق ، كان معبداً ثم بيعة ثم جامعاً . وإلى جهة الشرق ، قامت منارة قديمة منفردة ، وهي مربعة الزوايا ، زبرت عليها كتابة كوفية ، ذات ثلاثة أسطر ، ربما كانت من القرن الخامس . وتحيط بصحن الجامع الجليل أروقة معقودة ، وهناك مصلى بحرايين أمام الحرم ، ومصلى آخر له حوض ماء ومحراب منفرد في الرواق الشمالي ، وخزنة قائمة على ثمانية أعمدة قديمة ، وفي الرواق الغربي حرم صغير له نوافذ كبيرة ، فيها قضبان صلبة معمولة من النحاس من عهد المماليك ، ومن الرواق الشرقي يصل الإنسان إلى قبة الملك المظفر محمود ، وله تابوت معمول بالخشب الجميل المنقوش ، وهناك منارة ثمانية قامت وسط الرواق الشمالي ، ويستدل من كتابتها وشكلها أنها من عهد المماليك ، وفي جامع حماة تجلت خاصية من هندسة منارته القديمة ، وذلك أن ظاهرها الحيطان مزين بنقوش ، رسمت بألوان تشبه الفسيفساء ، لمراوحتهم في صفها بين الحجر الحري الأسود والحجر الكلسي الأبيض » اهـ . ومن جوامع حماة (جامع الحيات) في باب الجسر ، كان متسعاً وقد هدم من جهة الغرب ، فذهب نصفه وعدا عليه الجوار ، فأخذوا من أرضه الشرقية ربعه . بناه أبو الفداء ، وعمل لحرمه من جهة الشرق شباك كبيران ، بينها عمود كبير من الرخام ، على شكل أفاعٍ ملتفة ،



الجامع الكبير في حماة

ولهذا سمي جامع الحيات ، وعمل فيه خزانة كتب كبيرة ، كان فيها سبعة آلاف مجلد فذهبت فيما ذهب منه ، ونقش حرمه بالذهب والفضة والرخام الملون في جدرانه وأرضه ، وعمل له من الغرب شباك ، كما في جهة الشرق ، غير أنها هدمت وأدخلت في البستان المجاور له . وعلى يمين مدخل الجامع الذي ينزل إليه بدرج ، غرفة فيها ضريح الملك المؤيد (أبي الفداء) المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، أصلحها بعد دثورها منذ سنتين ، العالم المصري المرحوم أحمد زكي باشا . وبنى أيضاً رجل حموي متوسط الحال ، يدعي الانتساب إلى السلطان بدر الدين حسن أخي أبي الفداء ، منارة جميلة في جانب الضريح ، مكان المنارة القديمة المندثرة . و (جامع السلطان) في محلة الدباغة ، بناه السلطان حسن شقيق أبي الفداء ، على هيئة جامع الحيات ومشتلاته ، و (الجامع النوري) في محلة باب الناعورة ، بناه نور الدين محمود في سنة ٥٥٨ هـ ، بعد الزلزال الكبير الذي هدمت فيه حمة ، وأوقف له أوقافاً كثيرة ، لم يبق منها أثر ، وكان له باب شاهق من الغرب درس ، وباب آخر من الشرق باق حتى اليوم ، وبين هذين البابين تاريخ بناء الجامع ، محفور بخط جميل وحروف ضخمة . وصفه (هرزفيلد) فقال : « هذا الجامع على الشاطئ الأيسر من العاصي ، في أرض منحدرية وفوق ساباط معقود . بني هذا الجامع على عهد نور الدين ، وعلى مادخله من الترميمات الكثيرة ، تشاهد فيه إلى اليوم أجزاء مهمة من البناء القديم ، ولا سيما الحرم الطويل الذي عقوده حديثة العهد بالنسبة لمجموع الجامع ، وكذلك القباب الثلاث من الرواق الشمالي المختلفة الأشكال ، والأبنية التحتانية من الجهتين الشرقية والشمالية ، والحايط الخارجي الشمالي من الجامع » وربما كان الجزء الأسفل من المنارة بما فيه الحجارة المنحوتة البيضاء والسوداء قديم العهد أيضاً ، وفي هذا الجامع بقايا منبر جميل ، عمل من الخشب ، يرد إلى زمن نور الدين ، ثم محراب زين أجل زينة ، فيه أعمدة من الرخام المجزع ، من عهد الملك المظفر محمود (٦٢٦ - ٦٤٢ هـ) ، وفي مكان آخر من الشرق محراب ذو أعمدة من المرمر ، زبر في تيجانها اسم أبي الفداء .

هذا ويبلغ عدد سكان حمة الآن أربعين ألفاً ، تسعة أعشارهم من المسلمين ، وأكثر البقية من الروم الأرثوذكس ، وأقلها من السريان القدماء ، والسريان الكاثوليك والبرستانت . وحمة ما برحت قاعدة لتصرفية ، كان يتبعها أقضية حمة وحصص وسلمية ومصيف ، ثم فصلت عنها حصص وجعلت متصرفية ، وألحقت مصيف بحكومة اللاذقية ،

ولم يبق لحماة سوى قضاءها المركزي وقضاء سلمية ، يتبع الأول نواحي : حماة وطار العلاء ، والحيري والحراء ، ويتبع الثاني نواحي : علي كاسون ومعر شحور ، وعقيربات وسلمية ، وحماة بلدة زراعية أكثر منها صناعية ، وجل علائق سكانها مع الفلاحين والبدو ، فإذا جادت السماء بالأمطار ، وأقبلت المواسم حسنت حالتهم ، وإن شحت حصل الجذب وعم الضيق . أما صناعاتها فهي البياض ومنسوجات الحرير ، وقد كان لها في الماضي القريب مكانة كبرى ، وكان المرتزقون منها في حماة - ومثلها في حمص ودمشق ، وحلب وطرابلس - يعدون بالآلوف . ذكر في (التقويم السنوي لولاية الشام) لعام ١٣٠٥ هـ : « أنه كان في حماة ٥٠٠ نول ، يشتغل بها ٨٠٠ عامل ، يصنعون في كل عام ٣٠٠٠٠ من عدة الحمامات ، كالمناشف والفوط ، و ٣٦٠٠٠ ثوب من البياض و ١٠٠٠٠ شرف فراش ، مما كان يبلغ ثمنه ٧٠٠٠٠ ذهب عثماني » ا هـ . بدأ هذا الوارد يتضاءل منذ اليوم ، الذي كثر فيه إقبال الشرقيين على استعمال الثياب والفرش الإنجليزية ، وزادت ضآلته بعد الحرب العامة ، على أثر فصل بلاد الشام عن الأقطار المجاورة ، التي تروج فيها هذه المصنوعات ، وأخصها بر الأناضول والقطر المصري ، وزيادة رسوم المكس عليها ، إلى أن بطل استعمالها في الأناضول ، وتعذر تصديرها إلى مصر ، فماتت هذه الصناعة أو كادت ، وساء حال مرتزقيها .

وتصدر حماة للخارج أعتاق الخيول العربية ، وأنواع الحبوب والسمن الحديدي الفاخر المشهور ، والصوف والجلد ، وفيها كثير من الجوامع والكنائس والمدارس الأميرية ، إحداها مدرسة تجهيز بني لها أخيراً دار فخمة في سوق الخيس ، والمدارس الخاصة كدار العلم والتربية ، التي تقيم في قصر بني العظم الأثري ، وفيها الصيارف والأطباء ، والصيدليون والحامون ، وتجار السلع المختلفة ، ومن هذه السلع ماهو خاص بالبدو . ويكثر في أهل حماة القرع وأمراض العيون ، لكثرة العجاج وشدة الحرارة والرطوبة في الصيف ، وقلة العناية بالصحة . وأهيج الفصول في حماة الربيع ، تزدان فيه حقولها وحدائقها وأزوارها بجللها السندسية ، ويقصد الجويون آنئذ المنتزهات ، ويضربون الخيام في الأماكن العليا ، المشرفة على تلك المرتبعات ، ويقضون فيها أياماً وأسابيع ، ويجلب الأعراب الذين يكثر وجودهم في براري حماة اللبن الخاثر الجيد ، ومشتقات الحليب كاللباء والزبد والكثأة ، وجميعه مما تباهي حماة بوفرته وجودته . وأردأ الفصول فيها الصيف والخريف ، فإنها

شديدة وطاتها . وقد أنجبت حماة في العصور الغابرة علماء وأدباء كثيرين ، ذكروا في كتب التراجم ، وما برح أهلها في الجملة ذوي شغف بالدراسة ، وبينهم الآن - لاسيما في الطبقة الوسطى - عدد غير يسير من حملة الشهادات المتوسطة والعالية في مختلف المسالك . هذا وينقص حماة لتحسين جمالها الطبيعي ، تغيير شكلها الموروث منذ قرون ، وذلك بتنظيم شوارعها وتنظيفها ، وتشبيد المباني على الطراز الحديث ، وإيجاد الفنادق والمطاعم ، والمسارح التي تجذب إليها الغرباء والسائحين ، وجلب الماء القراح ونور الكهرباء ، وإصلاح بساتينها وإعادة الفواكه التي ذكرها ابن بطوطة وشيخ الرتبة ، إلى آخر ما هنالك من وسائل العمران ، التي قصرت فيه عن بقية مدن الشام .

طريق حماة — سلمية

(٣٢ كيلو متراً)

الطريق من حماة إلى سلمية لحب ، لم يتم تعبيده بعد . وقاصد سلمية بعد أن يخرج من حي الحاضر في حماة ، تارة يعلو تلعات متوجة ، وتارة يهبط أودية ، أحدها يدعى العميق ، تنحدر مياهها في الشتاء نحو العاصي ، ليس بينها ذو ينابيع ، وأشجار قليلة سوى وادي عين القصارين . والسائر في هذه الطريق يلمح بادئ بدء في الشمال قرية جبرين وقرية عين البارد ، التي وجد فيها أخيراً أرض كنيسة بيزنطية مبلطة بالفيسفساء ، فيها أغصان واقفة عليها طواويس ، ويرى السائر أعضاء جبل العلا ، الممتدة من الغرب إلى الشرق ، منها جبل الفانات (٥٦٤ متراً) ، في جنوبه قرية معرشمور ، وجبل القرم (٥٧٩ متراً) ، وجبل كاسون (٥٨٦ متراً) ، في سفحه الجنوبي قرية كاسون الجبل ، وفي جنوبي هذه آثار قناة آتية من أنحاء سلمية ، تدعى قناة العاشق ، تتجه نحو الشمال ، يزعمون أنها ذاهبة إلى أفامية . وثمة من الضياع الصغيرة التي يملكها سراة حماة ، على يسار الطريق ، مباركات وأم جرن ، وصاخ وشحلة وغيرها . ويرى السائر على يمينه في غربي العاصي جبل الأربعين (٦٩٤ متراً) ، وجبل تقسيس (٦٨٥ متراً) ، وفي سفحه في منخفض العاصي ، تختفي قرى الجاحية وسريحين ، وجنان والجربية وتقسيس ، وبينها أزوار تروى بالنواعير . وتربة الأرضين في طريق حماة وسلمية ، تميل إلى الاصفرار والبياض ، كلما ذهبتم مشرقاً . ومن غريب أمر آكام جبل العلا المؤلفة من الحجر الحري الأسود ، الموحشة لتجردها عن الأشجار والأنجم ، بل كل اخضرار . أن امتدت في بعض منحدراتها وسفوحها الوعرة ، سلاسل من الأحجار من صنع الأقدمين ، مما يحمل على الظن بأنهم كانوا يملؤون أجوافها بالغراس والكروم . ترى هل ضاقت هذه السهول الشاسعة وقتئذ بسكانها ، حتى اضطروا للتعليق بأذيال الجبال ، وكيف كان يتم لهم ذلك ، وهذه البقاع الفقيرة بالأمطار لاسبيل لنمو الغراس والكروم الأعزاء فيها ؟ هذا وبعد أن يجتاز السائر قرية الكافات ، يشاهد عن بعد قلعة شميمس ، تطل من وراء الآكام المحيطة بها ، ثم بقرية تل الدرة ، وأهل هاتين القريتين إسماعيلية ، وبيضة طواحين في جنوبها مرج القريم ،

وبعين ماء كبيرة تدعى عين الزرقاء ، إلى ان يدخل في سهل أفيج ، مترامي الأطراف ، جثت فيه سلمية .

سلمية : سلمية بليدة قديمة ، كان لها شأن وذكر قبل الإسلام ، ولا سيما بعده في عصوره الأولى والمتوسطة . ففيها جرت المعركة الحاسمة التي قضت على دولة الأمويين وآمال أتباعهم ، ومنها نشأت الدعوة الإسماعيلية في الشام وانتشرت ، وفيها ولد أول خليفة فاطمي ، وفيها كان مقر أعظم أمراء أعراب البادية ، الذين أثروا كثيراً في العصور المتأخرة ، في زوال عمران شمالي الشام . وهي الآن قرية كبيرة ، في شرقي حماة إلى الجنوب ، وشرقي حمص إلى الشمال تبعد عن الأولى ٣٢ كيلو متراً وعن الثانية ٤٠ كيلو متراً . تقع في سهل أفيج ، مترامي الأطراف ، مطرد المناظر ، تنتهي في الشرق البعيد ، عند سفح جبل البلعاس ، حيث آخر العمران ، وفي الشمال يتصل بالبراري الممتدة نحو خرائب قصر ابن وردان والأندرين ، وفي الجنوب بالتلعات والمنبسطات الذاهبة نحو حمص . وتشرف على سلمية من الغرب وعن كثب ، سلسلة آكام من أعضاء جبل العلا ، وهضبات متوجة ، تضحل عند سقي العاصي الآمين . وهي في يومنا قاعدة قضاء ، من أعمال لواء حماة ، يقطنها زهاء سبعة آلاف من الإسماعيلية ، أهل الحرث والزرع ، يضاف إليهم نحو ألفين من الغرباء ، هم موظفون أو باعة ، أو صناع أو بستانيون . وفي قضائها قرى وضياع عديدة ، يقطن أكثرها الإسماعيلية والنصيرية ، وأقلها الأعراب المتحضرون والشركس . ويشتد فعل الرياح الغربية في سلمية ، لوقوعها في ذلك السهل الأفيج ، فتثير العجاج وتحول دون نمو الأشجار . وقد يصل البرد في الشتاء إلى درجة الصفر ، كما أن حر الصيف قد يبلغ الأربعين ، على أن جفاف الهواء ، يخفف وطأتها ، فلا يشعر بها كما في حماة ذات الوادي المنخفض . وكية الأمطار السنوية لاتنيف عن الأربعمئة ميليمتر في معظم السنين . ولذا لا تخلص تربتها الرملية الكلسية الصفراء ، إلا إذا جادها الغيث بكثرة ، ولا تنمو الزروع الصيفية والأعشاب في مستهل نموها ، والأشجار في كل حياتها إلا إذا رويت . وقد اشتهرت سلمية بسعة كرومها وبساتينها ، وأراضيها الأعذاء ، وأجل غلالها التي تصدرها إلى بندر حمص ثم حماة ، الحنطة والشعير ، والقزح والبصل ، والكمون وصنف من العنب يدعى البياضي ، يتأخر نضجه حتى أواخر الخريف . ويستخرج ماء سلمية من الآبار ، وهو قريب المنال ، ووسط في عذوبته . ويرجع الفضل في عمران سلمية إلى القلي القديمة الممتدة

فيها وفي أعمالها ، كخيوط الشباك ، مما لانظير له في بلاد الشام ، إلا في أقضية منبج ودوما والقطيفة . وهذه القني من العجائب الشاهدة بمقدرة الأقدمين في نقر الصخر الصلد ، ورسوخهم في علم استنباط المياه وجرها^(١) ، يكري أهل سامية الحاليون هذه القني ، وقد برعوا في تتبع آثارها ، وتنظيف أسرارها وآبارها ويسيلونها ، ويوشك إذا دامت هذه العناية ، أن تصبح كورة سامية غوطة مصفرة ، ويعود إليها مجددها الغابر الذي ذكره جغرافيو العرب ، ونعتوه بكثرة المياه والشجر ، ووفرة الخصب والرخاء .

ومن البواعث التي وجهت أنظار الغابرين والحاضرين نحو سامية ، هذه المروج الممتدة في شمالها وغربها ، وأجلها شأناً المسماة بالخصمية وبالقرم ، وهي واسعة مستوية ، يزكو فيها الكلاً ويسبق في سني الخصب ، ومياهها وفيرة وفي متناول اليد إذا حفرت لها حفائر . وقد كانت هذه المروج في العصور الماضية ، ممر الجيوش الزاحفة من حلب نحو دمشق ومصر ، أو بالعكس ، أو محط القاصدة حصار حماة أو حمص ، فترع خيلها وتريح جندها ، لاسيما والطريق من حلب إلى سامية المار من سيف البادية (الخراج ، تل حلاوة ، الحمراء) تكثر فيه البطاح والغدران ، وتقل فيه دواعي الاصطدام مع حماة العمور ، وهما أمران غير متوفران في طريق المعرة وحماة . ثم إن قبائل الأعراب كانت وما برحت تقيظ في هذه المروج ، وترتع فتزيد خصبها ، بتراكم روث أنعامها .

وأكثر دور سامية ، قباب مخروطية الشكل من اللبن والتراب ، كما هو الحال في القرى الممتدة شرقي حمص وحماة وحلب ، على أنها صارت تبدل منذ ربع قرن بدور حجرية ، جلها من الطراز القروي البسيط ، وفي منتصف هذه البلدة ساحة واسعة ، تلتقي فيها طرق الأحياء الضيقة المعوجة غير المرصوفة ، وتحيط بها حوانيت الباعة ومرائب السيارات ، وقد قامت وسطها دار الحكومة ، وفندق حوله حديقة ، وبجانبا جامع للسنية حديث البناء ، وكذا الدار والفندق المذكوران ، وثمة في جنوبي سامية مدرسة

(١) الغالب أن الحثيين والآراميين هم أول من خطط وفجر قني سامية كما فجروا أيضاً قني منبج وأنشؤوا بمياهها بحيرتها المقدسة (راجع الصفحة ٢٢٣) ولا ريب في أن الأمم التي خلفتهم سارت على غرارهم فزادت كمية هذه القني وأتقنت كفيته . وإذا لا يصح أن تنسب هذه القني إلى الرومانيين دون غيرهم . لأن للأمم التي سبقتهم آثار بارزة في بلاد الشام في القني والسدود والقلاع والحصون ينبغي أن لا تبخس حقوقها فيها .

ابتدائية رسمية ، ذات بناء جميل ، وأخرى في غربيها زراعية عملية ، أنشئت سنة ١٣٢٨ هـ ، وقامت أبنيتهما العديدة وسط أرض فسيحة خاصة بها ، والمدرستان أنشئتا بإيعاز الحكومة العثمانية ، تبرع الأهليون بأرضيهما ، وأنفقوا قسماً من الأموال التي يرسلونها عادة إلى الهند في تشييد مبانيها . وقد سبق لكاتب هذه السطور ، جهود جمة في فتح المدرسة الزراعية وإعمارها وإدارتها قبل الحرب العامة ، ولا سيما بعدها لما أحرقت وأغلقت ، عقيب انسحاب الترك ، فتمكنت رغم المنغصات والمثبطات التي كانت تعترضني ، من تعليم التلامذة الذين كانوا يتقاطرون من مختلف أنحاء الشام ، وتدريبهم على الأساليب الزراعية الحديثة ، ووضعت المناهج والمصطلحات ، وألفت بعض الكتب في الفنون التي لم يسبق تدريسها في العربية ، وأنشأت الكروم والبساتين ، والمشاتل الزاهية حتى الآن ، وخرجت خلال السنوات السبع التي مكثت فيها ، عدداً غير يسير من الأخصائيين ، استلمت طائفة منهم زمام العمل فيها ، وغيرها من المعاهد والدوائر الزراعية في مختلف الأقطار العربية ، فكان منهم بعض النفع في خدمة هذه الحرفة . وبعد أن غادرت هذه المدرسة وسدت أمورها إلى غير أهلها ، فأمعنوا فيها خطباً وخطباً حتى اضطروا الحكومة في سنة ١٣٥١ هـ إلى إلغائها ، وإبقائها كمركز للاختبار الزراعي فحسب ، وبذلك خسروا سلبية معهداً علمياً كان على علته سبب اشتهاها ، ومصدر رقيها الثقافي والزراعي ، ناهيك عن نفعه ببقية البلاد الشامية ، التي كانت ترسل أبناءها للاعتراف من ينبوعه .

وسلمية بليدة عريقة في القدم منذ العصور الأولى ، بدليل العثور على كثير من عاديات الأمم الغابرة فيها وضواحيها ، ينبشها الأهليون ، من الأطلال والمدافن القديمة ، ويبيعونها من غواتها بأثمان جيدة ، فهي إذاً لا بد أن تكون كحاة ، وقطننا (المشرفة) ، وأرتوزيا (الرستن) ، تبعت حصص عاصمة هذه الديار في تلك العصور ، وشاطرتها على نسبة مصفرة أذوار الإقبال والإدبار ، في عهد اللوزيين والحثيين ، والآراميين والسلوقيين ، ولا يبعد أن تكون تبعت إمارة (آل شمسغرام) العربية ، التي سادت تحت إشراف السلوقيين في حصص والرستن ، خلال العصر الميلادي الأول . ثم رأت سلمية عهد الرومانيين ، الذين مدوا عمران ضاحيتها إلى جبال البلعاس وفيافي الأندرين ، وكان اسمها في عهدهم Salamias . ورأت سلمية التدمريين مدة ، ثم عادت إلى الرومانيين ، تزدهو في ظلهم إلى أن خلفهم البيزنطيون ثم المسلمون . وما يدل على عمران سلمية إذ ذاك ، أنه لا

تخلو باحة أو دار فيها من أسس الجدران أو ناووس ، أو جرن أو عتبة ، أو تاج عمود أو قاعدته ، أو سارية بعضها مستعمل في تضاعيف الأبنية الحاضرة ، وبعضها مبعثر ، ومنها ما عليه كتابات ونقوش يونانية ، تنتظر من يعنى بها .

وما أدى إلى عمران سلمية آنئذ ، أن مركزها الجغرافي جعلها تمر بها في زمن ازدهار تدمر وبعده ، ممن لم يرغب العروج بمجمص من القوافل الغادية والصادية من تدمر والعراق ؛ إلى شمالي الشام وما وراءه من بلاد الروم . ولكنها لم تكن ذات مكانة حربية ، توجب إشادة الأسوار والثكنات ، التي كانت تزدهي بها تدمر والأندرين . على أننا لفقد المراجع ، مازلنا نجهل تاريخ سلمية في تلك العصور وحالتها ، لاسيما كيف كانت إبان الفتح الإسلامي أعامرة وخربت بعده ، أم أنها خربت قبله في أواخر عهد البيزنطيين ، حينما سادت الفوضى إدارتهم ، وأرهقوا الشعب بكثرة الضرائب وطرق جبايتها ، وشغلوا بالحروب المستمرة مع الفرس ، فأنحطت بسبب ذلك بلاد الشام عامة ، ونقص قطائنها ، وخربت منها على الأخص أفامية وأسريا ، والأندرين وخنصرة ، وغيرها من المدن والقرى التي كانت منتشرة على سيف البادية ، ولا تزال أطلالها تدل على ازدهارها السابق ، ومنها كانت سلمية .

ويظهر من كلام جغرافي العرب ، أن سلمية ظلت خراباً ، أو شبه خراب خلال القرن الأول الهجري ؛ إلى أن جاءها في القرن الثاني عبد الله بن صالح العباسي الهاشمي وعمرها . فقد قال اليعقوبي من رجال القرن الثالث في كتاب (البلدان) : « وسلمية وهي مدينة في البرية ، وكان عبد الله بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابتناها ، وأجرى إليها أنهرأ ، واستنبط أرضها حتى زرع فيها الزعفران ، وأهلها من ولد عبد الله بن صالح الهاشمي ، ومواليهم وأخلاق من الناس تجار وزراعيين » . وقال ياقوت في (معجم البلدان) : « سلمية بليدة في ناحية البرية ، من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين (كذا) ، وكانت تعد من أعمال حصص ، اتخذها صالح بن علي بن عبد الله بن عباس منزلاً ، وبنى هو وولده فيها أبنية ، ونزلوها وبها المحاريب السبعة (؟) يقال تحتها قبور التابعين ، وفي طريقها إلى حصص قبر النعمان بن بشير ، وينسب إليها بعض أهل العلم كأبي ثور هاشم بن ناجية السامي ، وعبد الوهاب السلمي ، وأيوب بن سلمان السلمي القرشي ،

كان إمام مسجد سلمية ، ومحمد بن تمام السلمي من أهل سلمية توفي سنة ٣١٣ هـ ، وعبد الله بن عبيد السلمي من أهل سلمية « وذكر ياقوت سبباً سخيلاً لتسمية سلمية وعمرانها ، أن أصل اسمها مشتق من كلمة سلم نسبة للمئة نفس الذين نجوا من خراب مدينة المؤتفكة ، ونزحوا إلى سلمية فعمروها وسكنوها . وكان يرجى من الملك المؤيد أبي الفداء صاحب حماة - وسلمية على مقربة منه - أن يصفها بتفصيل ، ولكنه رحمه الله اكتفى في (تقويم البلدان) بقوله : « سلمية من أعمال حصص ، بلدة نزهة ومياهها قني ، ولها بساتين كثيرة » ، قال ابن حوقل : « وسلمية الغالب على سكانها بنوهاشم ، وهي على طرف البادية خصبة » ، قال في العريزي : « ومدينة سلمية على ضفة البرية ، كثيرة المياه والشجر ، رحية خصبة » . ١ هـ .

أما المؤرخون فلا يذكرون سلمية إلا الفينة بعد الفينة وعرضاً . وأول ماورد اسمها في التاريخ ، كان في حديث المعركة التي نشبت في مرج الأخرم (الطبري وابن الأثير) الذي نظنه أنه المرج المسمى في يومنا مرج القريم ، في غربي سلمية ، وإن لم يصرح بذلك المؤرخون ، إذ ليس في شمال الشام قاطبة مرج ، يقرب اسمه من الأخرم سوى الذي في سلمية . وهذه المعركة جرت سنة ١٢٢ هـ بين عبد الله بن علي العباسي ، أول قائد وعامل عباسي في الشام ، وأبي الورد ابن الكوثر الكلبي من قواد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . وكانت الدائرة على أبي الورد ، فرسخت بهذه المعركة الحاسمة أقدام العباسيين ، وقضي على آمال الأمويين في الشام ، ولما استتب الأمر للعباسيين ، جاء عبد الله بن صالح بن علي في أيام ولاية أبيه صالح بن علي العباسي على قنشرين وحمص ودمشق ، وكان عبد الله مغرمًا كأهله بالبناء والعمران ، فكما أن أباه صالح بن علي بنى قصر بطيوس ، شرقي باب النيرب في مدينة حلب ، وأخاه عبد الملك نزل منبج ، وبنى قصرًا فيها كما قدمناه في بحثها ، بنى عبد الله بن صالح وأولاده في سلمية الأبنية ، ونزلوها وأجروا إليها أنهرًا (أي كسروا فيها القني ، وأسألوا مياهها) على ما جاء في أقوال الجغرافيين . وكان لعبد الله هذا ، لدى أبناء عمه الخلفاء العباسيين مكانة كبرى ، جاء المهدي سنة ١٦٣ هـ ، وأعجب بما رأى من منزله ، لما نزل عليه في سلمية ، في مسيره إلى بيت المقدس ، (الطبري ١٠ / ٥٠٠ طبعة ليدن) ثم جعله عاملًا في العراق وزوجه أخته .

ويظهر أن كثيراً من العباسيين ، أقارب عبد الله بن صالح وغيرهم من بني هاشم ، استطابوا سلمية فسكنوها في القرن الثاني والثالث ، فعمرت بهم وبمواليهم ، والتف حولهم أحلاط من الناس ، تجار وزراعيين ، وفتحوا قنيها التي نعجب الآن بحسن هندستها ، وأنشؤوا فيها البساتين ، حتى صارت كثيرة المياه والشجر ، رحية خصبة ، كما قال اليعقوبي وابن حوقل ، ونشأ فيها بعض العلماء الذين ذكرهم ياقوت . ولم يبق الآن في سلمية ، أقل أثر من ذلك العهد الهاشمي ، الذي سعدت به سلمية ، ولم تر بعد مثله إلا في العهد الأيوبي ، وقد وجد الأثريون الأوروبيون الذين زاروها في غرة هذا القرن ، في مدخل الحصن الذي هدم ، حجراً فيه كتابة ، خمنوا أن تاريخها سنة ١٥٠ هـ ، وأنها لجامع بني في عهد بني هاشم ، ثم هدمه القرامطة سنة ٢٩٠ هـ . ووجدوا أيضاً في داخل الحصن كتابة ، دلتهم ظواهرها أنها لأحد الهاشمين ، تعود هي ومثلها كتابتان أخريتان إلى زمن ، ربما كان تاريخه سنة ٢٨٠ هـ .

ويظهر أيضاً أن بعض بني هاشم الحسينيين ، الذين أخفقوا مراراً في الوصول إلى كرسي الخلافة ، في عهد الأمويين ثم العباسيين قطنوا في سلمية ، ورأوا في بعدها على سيف البادية ، مجالاً لحركاتهم السياسية ، فظلوا يحاولون ويثبون دعايتهم . وقد انتصر مرة أحدهم لأحد أبناء الخلفاء العباسيين ضد أبيه ، قال ابن الأثير في أحداث سنة ٢٦٨ هـ : « خرج في أيام المعتمد رجل من ولد عبد الملك الهاشمي ، في الشام بين سلمية وحلب وحمص ، ودعا لابنه الموفق ، فحاربه ابن العباس الكلابي ، فانهزم الكلابي فوجه إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون ، قائداً مع جيش لحربه » اهـ . ولم يزد ابن الأثير على عبارته هذه ، فلم نعرف كيف كان اتصال هذا الثائر الهاشمي بالموفق ، وهو في الشام وذاك في العراق ، ولا مصيره بعد حربه مع لؤلؤ المذكور . وكان من أخص الهاشمين في المحاولة وبث الدعوة لاسمه ، رجل اسمه محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكنوم بن إسماعيل . وإسماعيل هذا هو الذي تعتقد الإسماعيلية أن الإمامة انتقلت إليه من أبيه جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي . وكان محمد الحبيب طموحاً فعلاً ، يرسل من سلمية المبشرين بإمامته ، ويظهر أنه كان ممن يرون أن الغاية تبرر الوساطة ، فاستعان إذ ذاك بعبد الله بن ميمون القداح ، وكان هذا في الظاهر من غلاة الشيعة ، الداعين لآل البيت ، وفي الحقيقة من بقايا مجوس الفرس ، الساعين لهدم كيان العرب والمسلمين ، وحشو

الإسلام بتعاليم مجوسية ، يشتغل بذلك في أصفهان والأهواز والبصرة ، فوافى سلمية - وقيل بل الذي وافاها ابنه حسين - مليياً طلب محمد الحبيب ، وأقام فيها إلى مماته ، ساعياً لبث مذهبه ، تحت ستار الدعوة لآل البيت ، ويظهر أن القداح جر وراءه جمعاً من مريديه ، المنتشرين في بلاد فارس والعراق ، فصارت سلمية من ذلك الحين ، مراكزاً لهم ولشيعتهم ، التي سميت بالباطنية والإسماعيلية . ولما توفي محمد الحبيب أوصى إلى ابنه عبيد الله ، المولود في سلمية سنة ٢٥٩ هـ ، وأطلعه على حال الدعاة ، وشاع ذلك في أيام المكتفي ، فطلب ، فهرب عبيد الله إلى المغرب الأقصى ، لاحقاً بأبي عبد الله الشيعي ، الذي كان أرسله أبوه لمجهد له الدعوة في أفريقية ، وتلقب عبيد الله بالمهدي ، وادعى أنه من نسل فاطمة ، وتوصل إلى تأسيس الدولة الفاطمية أو العبيدية ، التي انتقلت بعد حين إلى مصر ، ونازعت العباسيين الخلافة ، ودامت من سنة ١٩٧ هـ إلى سنة ٥٦٧ هـ . وقد اختلف المؤرخون في صحة نسب عبيد الله المذكور ، فمنهم من عده مدخولاً ، وبالع طائفة منهم ، إلى أن جعلوا نسبه في اليهود ، فقالوا إن أباه هو الحسين بن عبد الله بن القداح بن ميمون بن ديسان ، وأن الحسين المذكور ، لما قدم إلى سلمية ، تزوج امرأة حسناء لرجل يهودي حداد في سلمية ، مات عنها زوجها ، وكان لها ولد من اليهودي ، فأحبه الحسين وأدبه إذ لم يكن له ولد ، وعرفه أسرار الدعوة ، وأعطاه الأموال والعلامات ، فدعا له الدعاة ، وسموه عبيد الله المهدي .

وفي سنة ٢٩٠ هـ جاء القرامطة ، ففتكوا بأهل سلمية ، كما فتكوا في حماة والمعرة ، دون حص التي استسلمت لهم . قال الطبري (١١ / ٢٨١ ، طبعة مصر) « ثم سار (الحسين بن ذكرويه) القرمطي ، المعروف بأبي شامة إلى سلمية ، فحاربه أهلها ، ومنعوه الدخول ، ثم وادعهم وأعطاهم الأمان ، ففتحوا له باباً فدخلها ، فبدأ بن فيها من بني هاشم ، وكان بها منهم جماعة فقتلهم ، ثم ثنى بأهل سلمية فقتلهم أجمعين ، ثم قتل البهائم ثم صبيان الكتائب ، ثم خرج منها ، وليس بها عين تطرف فيما قيل ، وسار فيما حوالي ذلك من القرى ، يقتل ويسلب ويخيف السبيل » اهـ . ظل على هذا المنوال إلى أن أدركته في السنة التالية ، جيوش الخليفة المكتفي ، في قرية تمنع (التمانعة) شرقي المعرة ، وشنتت شمله كما قدمناه في حديث المعرة . وفي الطبري حكاية عن سيدة هاشمية سبهاها هؤلاء

القرامطة في سلمية إذ ذاك ، وبعد أن كادوا يقتلونها استطاعوا أربعة منهم ، وواقعوها معاً مدة مديدة ، إلى أن وضعت غلاماً لم تدر من أي الأربعة هو .

ولم يذكر الطبري ولا غيره من مؤرخي العرب - الذين دأبهم ويالأسف سرد الحوادث دون تعليلها - أسباب فتك القرامطة ببني هاشم ، هذا الفتك المريع ، وفي ظني أن ذلك لكونهم من أقارب مناوئتهم الخلفاء العباسيين ، ولم يذكر الطبري أيضاً ما إذا كان القرامطة خربوا سلمية وقتلوا ، وقضوا على مباني الهاشميين وقنيهم وبساتينهم الجميلة ، أم اكتفوا بتقتيل سكانها وإخلائها ، فلم نعلم متى عاد السكان والعمران إليها بعد خرابها الثاني ، وقد تقدم أن الأول كان في القرن الأول الهجري ، بدأ من أواخر عهد البيزنطيين ، وهل كانت في القرن الرابع أهلة أم خالية ، لاسيما حينما جاءها سيف الدولة بن حمدان سنة ٢٤٤ هـ ، وهو يطارد أعراب البادية ، الذين شقوا عصا الطاعة عليه ، وكانوا جعلوا مقرهم في سلمية ففتك بهم في معركة جرت في المروج الممتدة حولها ، فامتدحه المتنبي بقصيدة جاء فيها :

فأقبلها المروج مسومات ضوامر لاهزال ولا شيار
تثير على سلمية مسبطرا تناكر تحته دون الشعار

وسكتت التواريخ عن سرد أحداث سلمية ، في أوائل القرن الخامس وأواسطه ، إلى أن قالت : أن سلمية كانت في أواخر القرن المذكور ، من أعمال الأمير البدوي (خلف من ملاعب الكلابي) صاحب حصص ، استحوذ عليها سنة ٢٧٦ هـ ، إلى أن جاء (تتش أخو السلطان ملكشاه السلجوقي) واستخلصها هي وحصص من يده ، لكثرة عيشه وإفساد السابلة . وفي سلمية من عهد الأمير خلف المذكور ، مسجد خراب سنأقي على وصفه . وظلت سلمية تعد من أعمال حصص كالسابق ، ويذكرها المؤرخون الفينة بعد الفينة ، في سياق أحداث حصص . ففي سنة ٤٩٦ هـ دخلت في حوزة (رضوان بن تتش السلجوقي) صاحب حلب . وفي القرن السادس في سنة ٥٠٧ هـ جاءها (الأتابك طغتكين) صاحب دمشق للقاء (مودود) صاحب الموصل ، الذي كان استدعاه لنجدته في حرب الصليبيين ، فاجتمعاً بمرج سلمية ، واتفقا وسارا للحرب الذي جرى غربي طبريا وظفرا . وفي سنة ٥٣٢ هـ جاءها عماد الدين زنكي ، وقد كان يحاصر حصص ، وتركها لما بلغه قدوم جيوش

الروم إلى حلب ، ثم خرج من سامية لمقاتلتهم ، حينما وصلوا إلى شيزر (ابن الأثير ٣٦ / ٩) . وفي سنة ٥٧٠ هـ استخلص (صلاح الدين الأيوبي) سامية من يد (فخر الدين ابن الزعفراني) أحد أمراء (نور الدين محمود) ، كما استخلص منه حمص وحماة وغيرها ، ثم أقطع في سنة ٥٧٤ هـ حماة وسامية إلى ابن أخيه (الملك المظفر تقي الدين عمر) فصارت من أملاك هذا الفرع الأيوبي ، المعروف بالتقوي ملوك حماة .

ولما توفي الملك المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٨٧ هـ ، خلفه ابنه المنصور (ناصر الدين محمد) في ملك حماة وسامية والمعدة وغيرها . وفي آخر عمره ، عهد بالملك لولده (المظفر محمد) وحلف الناس على ذلك ، لكنه لما توفي سنة ٦١٧ هـ خالفه وزرائه ، وولوا ابنه الثاني (الناصر قليج أرسلان) فذهب المظفر إلى مصر ، واستجار بالسلطان الملك الكامل ، أعظم ملوك الأيوبيين في مصر والشام في تلك الحقبة ، وأقام في خدمته . وفي سنة ٦١٩ هـ جاء الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، وحاصر ابن أخته الناصر صاحب حماة ، لإخلاف الناصر بوعده في دفع مال مشروط ، ولما لم ينل مأربه ، ارتحل إلى سامية ، واستولى على حواصلها العائدة للناصر ، وأقام مدة مخبياً في مروجها ، يتأهب لخصار حماة ، إلى أن جاءه أمر الملك الكامل بالارتحال عنها ، فارتحل وأمر الملك الكامل بإبقاء حماة بيد الناصر ، وتسليم سامية إلى أخيه المظفر ، فتسلمها وأرسل إليها وهو بمصر نائباً عنه . ثم في سنة ٦٢٦ هـ جاء الملك الكامل إلى سامية ، وبعث منها إلى حماة بجيش ، سلم قيادته إلى (أسد الدين شيركوه) صاحب حمص ، وهو حفيد (شيركوه الأول) عم صلاح الدين الأيوبي ، وأمره بحصار حماة ، فاستسلم الناصر وسلم حماة ، فأمر الملك الكامل بإعادة المظفر إليها ، على أن تنزع سامية منه ، وتسلم إلى شيركوه . فصارت سامية من ذلك الحين علة الشحنة بين أبناء الأعمام ، ملوك حمص الأسديين وملوك حماة التقويين ، وزادت الشحنة بعد أن عمّر شيركوه سنة ٦٢٧ هـ قلعة شميميس . ويظهر أن سامية ومروجها التي وصفنا ذكاء كلائها ، وغزارة مياهاها ، وصلاحها لمرور الجيوش ورتعها ، كانت تعجب الملك الكامل ، فقد جاءها للمرة الثانية سنة ٦٢٩ هـ ، ونزل فيها في طريقة إلى آمد (ديار بكر) ، واجتمع فيها ملوك أهل بيته في جمع عظيم ، وجاءها للمرة الثالثة أيضاً سنة ٦٣٠ هـ ، لما ذهب لقتال الملك (كيقباز السلجوقي) .

إن الآثار العربية الباقية حتى الآن في سلمية ، وسنأتي على وصفها ، وكذا كلمة الحواصل ، التي ذكرت بأن الملك المعظم عيسى استولى عليها ، وقول أبي الفداء في تقويمه ، بأنها كانت في زمنه ذات نزهة ، ومياها قنّ وبساتينها كثيرة ، تدل على أن سلمية سعدت في عهد الأيوبيين ، في بعض القرن السادس وأكثر السابع ، كما كانت سعدت في عهد الهاشميين ، وازدانت بالمياه والأشجار ، وحفلت بالمباني ومستودعات الحبوب ، التي لم تتجاوز على ظننا بكمبرها وحسن بنائها ، درجة بليدة زراعية .

ولما جاء التتار في عهد هولاءكو وغازان ، كانوا كثيراً ما يجعلون سلمية ومروجها ، ممر جيوشهم الزاحفة من حلب إلى حمص ودمشق ، وما بعدهما . ولما كسرهم الملك المظفر قطز سنة ٦٥٨ هـ في معركة عين جالوت (بيسان) ، كان اشترك بهذه المعركة ، الأمير منها آل الفضل من ربيعة من طي من كهلان ، فأجازه الملك المذكور ، بأن نزع سلمية من يد الملك المنصور صاحب حماة ، وأقطعها لمها الذي كان أمير عرب الشام (أبو الفداء ٣ / ٢١٤) ، وبقيت سلمية من ذلك الحين في يد هذا الأمير ، ويد ابنه عيسى وحفيده منها ، وأعقابه من بعده ، ولما كسر ملكا حمص وحماة الأيوبيان التتار ثانية سنة ٦٥٩ هـ ، في ظاهر حمص ، انضم « من سلم من الكسرة إلى باقي جماعتهم ، وكانوا نازلين قرب سلمية ، واجتمعوا ونزلوا على حماة ، وحاصروها يوماً ثم لما دوفعوا رحلوا عنها » (أبو الفداء ٣ / ٢١٩) . وقد نال التتار من سلمية ، ومن قلعة شميميس إذ ذاك ، كما نالوا من بقية بلاد الشام وقلاعها ، فانحط شأنها .

وقد سكتت التواريخ عن بيان شيعة السكان ، الذين كانوا في سلمية على عهد (خلف بن ملاعب الكلبي) ، والملوك الأيوبيين ، والسلاطين المماليك . وقد ثبت لي بالاستقصاء ، أن سلمية لم يقطنها الإسماعيلية قط في تلك العهود ولا في قبلها ، خلا مدة لاتزيد عن ربع القرن ، قبل حادثة القرامطة ، ريثما بثوا دعوتهم ، ثم اضطروا لمغادرتها هرباً من الخليفة المكتفي ، فذهبوا مع عبيد الله المهدي إلى المغرب ، كما قدمنا . أما في العهود التي ذكرناها ، فلم تكن سلمية صالحة لسكناهم في حال ؛ لأنهم بعد أن نفروا في أواخر القرن الخامس من بلاد فارس ، على أثر تضعع أحوالهم فيها ، نزلوا حلب في عهد صاحبها الملك (رضوان بن تتش) السلجوقي ، الذي أغضى عنهم ، وأراد اتحاذهم حزباً له

جولة أثرية (١٨)

ضد مناوئيه ، فقبل دعوتهم على ما قيل ، واستألوإ إليهم خلقاً كثيراً في حلب وجبالها الغربية ، وكذلك عمل بعد حين في دمشق (المزدقاني) وزير تاج الملوك (بوري بن طفتكين) صاحب دمشق ، فأفسح لهم المجال في دمشق ، وملكهم قلعة بانياس . ولما كثر عددهم ، واستفحل أمرهم ، صاروا يناوئون المسلمين المنهمكين في مدافعة الصليبيين ، ويغتالون خيار ملوكهم وأمرائهم ، كما كانوا يعملون في بلاد فارس والعراق ، يدفعهم إلى ذلك ذوو المآرب السياسية والغايات الحزبية ، حتى ضاقت بهم الصدور ، ووضع السيف فيهم مراراً ، كما جرى في حلب سنة ٥٠٧ هـ ، وفي دمشق سنة ٥٢٢ هـ ، فاضطروا لهجر المدن الداخلية ، والاعتصام بجبال اللاذقية وقلاعها ، فملكوا سنة ٥٢٧ هـ بزعامة مقدمهم (راشد الدين سنان) قلاع هذه الجبال ، التي دعيت بقلاع الدعوة ، وأخصها القدموس ومصيف ، والحوايي والعليقة ، والمنيقة والكهف ، والرصافة وأبو قيس ، وغيرها ، وصاروا يهبطون منها ، ويحاربون من يجاورهم من المسلمين والصليبيين ، وجاءهم سنة ٥٧٢ هـ السلطان (صلاح الدين الأيوبي) يثأر منهم محاولة اغتياله ، فضرهم وحاصر قلعة مصيف ثم تركهم بشفاعة خاله (شهاب الدين الحارمي) صاحب حماة . وما زال هذا ديدنهم ، يقتلون ويقتلون ، حتى دهمتهم جيوش الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧ و ٦٦٨ هـ ، فخضدت شوكتهم بالكلية ، وتسلمت قلاعهم وبلادهم ، فلم تقم لهم بعد ذلك الحين قائمة ، (أبو الفداء ج ٣) ، فقوم هذا ديدنهم ، يحتاجون لقلاع حصينة ، صعبة المرتقى ، بعيدة عن متناول الملوك الأيوبيين ، والسلاطين المماليك ، الذين كانوا لا يفتؤون عن حسم بائقتهم ورد عاديتهم ، وسلمية الجائئة وسط سهل أفيج ، ليست بعتصم يمكن أن يلوذ به أمثال هؤلاء .

وبعد أن كان جل الملوك الأيوبيين يزور سلمية ، ويمر بها في طريقه إلى الشمال لم يذكر المؤرخون أحداً زارها من السلاطين المماليك ، إلا الأشرف خليل ، وذلك لما قدم من مصر إلى دمشق ، فحمص سنة ٦٩٢ هـ ، ولبي دعوة الأمير مهنا بن عيسى ، وبقي في ضيافته ثلاثة أيام بلياليها ، ثم بدا له أن يقبض على هذا الأمير ، وعلى أخويه محمد وفضل ، فقبض عليهم ، وأرسلهم معتقلين إلى مصر ، فظفروا فيها سنتين ، إلى أن أطلقهم الملك العادل (كتبغا) حين جلس فعادوا . ولم يذكروا ما إذا كان الظاهر بيبرس زارها ،

لما أمر بترميم قلعة شميس ، أسوة بغيرها من قلاع الشام ، التي خربها التتار ، وقد يكون زارها .

وزاد المخطاط سلمية بعد استقرار آل عيسى بن مهنا فيها ، لأنهم بادية ، والبادية من طبيعتها الخط والغض ، لكن سلمية لم تخرب على ما يظهر ، ويهجرها أهلها للمرة الثالثة إلا في منتصف القرن الثامن ، حينما اختلت إدارة السلاطين المماليك في مصر والشام ، وازدادت فتن آل عيسى المذكورين ووثب بعضهم على بعض . قال ابن الوردي في تاريخه في أحداث سنة ٧٤٨ هـ : « وفي هذه السنة ، اقتتل سيف بن فضل أمير العرب وأبناء عمه أحمد وفياض ، في جمع عظيم قرب سلمية ، فانكسر سيف ، ونهبت جماله وماله ، ونجا بعد (اللتيا والتي) في عشرين فارساً ، وجرى على بلد المعرة وحماة وغيرها ، في هذه السنة ، من العرب أصحاب سيف وأحمد وفياض من النهب وقطع الطريق ، ورعي الكروم والزرع ، والقطن والمقاي ، مالا يوصف » ا هـ . ولا يبعد أن يكون الطاعون الهائل ، الذي اجتاحت سنة ٧٤٩ هـ بلاد الشرق الأدنى ، ومنها مصر والشام ، نال من سلمية والقرى التي حولها ، وأقفرها من سكانها الباقين ، وكذلك ربما كان لجيش التيولرنك أثر في الإجهاز عليها ، حينما مر بها سنة ٨٠٣ هـ ، في طريقه من حلب إلى دمشق ، فأصبحت بعد هذه الأوبئة والفتن خراباً يباباً .

وظل هذا الخراب في سلمية مستمراً خمسة قرون ونيف ، وهي في حوزة آل عيسى بن مهنا ، الذين تغير اسمهم في القرن التاسع ، وصاروا يدعون بآل جبار ، وهم بطن من أولئك ، كما هي العادة عند البدو ، تتغير أسماؤهم في كل مدة تبعاً للمتأمر عليهم ، ثم صاروا يدعون في القرن العاشر بآل أبي ريشة ، وهم فخذ من آل جبار ، أعقاب عيسى بن مهنا ، وصارت الأعراب الملتفون حولهم يدعون بالموالي ، وظل هؤلاء يضربون في أرجاء سلمية ، ويرعون أنعامهم بين أطلالها ، لأنها صارت في عهد العثمانيين إقطاعاً ومنزلاً لهم ، كما كانت في عهد المماليك ، وذلك لقاء أتاوات كانوا يؤدونها للحكومة العثمانية ، التي عدت براري سلمية وخرابها الدائرة لواء أتبعته كحماة وحصص بأيالة طرابلس الشام . قال (كاتب جلبي) صاحب (كشف الظنون) المتوفى سنة ١٠٦٨ هـ في جغرافيته (جهان نما) : وما برج هذا اللواء - يعني سلمية - في حوزة أمراء الموالي ، وهؤلاء الأمراء ينتسبون لآل الحيار

- وصحيحه أن يقول آل الجبار - من قبائل العرب ، وهم ينقسمون إلى فرقتين آل حمد وآل محمد ، وتصل مناطق نفوذهم إلى ضواحي حلب والرقّة . إلى آخر العبارة التي أوردها في مقالنا ، الباحث عن هؤلاء الأمراء وأحداثهم ، المدرج في مجلة الثقافة (ج ١ عدد ٧ وما بعده) تحت عنوان (صفحة من تاريخ أعراب شمالي الشام) .

وفي القرن الحادي عشر ، سيطر الأمير فخر الدين المعني سيد جبل لبنان في تلك الحقبة ، على بلاد حمص وحماة ومنها سلمية ، وحالفه أمراء الموالي آل أبي ريشة ، وصادقوه وهادوه ، واستنجد به مرة كبيرهم الأمير (مدلج) لما نازعه ابن عمه (حسين) على الإمارة وحاربه ، فجاء المعني بعسكر وفير سنة ١٠٣٣ هـ لنجدة (مدلج) ، فأضافه مدلج ضيافة عظيمة في سلمية ، وأهدى إليه الفرس سعدة المشهورة (تاريخ حيدر الشهابي) ، وبعد سنتين انتقض مدلج ، وقومه على الأمير فخر الدين ، وتمنعوا عن تقديم الذخيرة التي طلبها منهم ، فلحقهم حتى عبرهم النهرين ، ثم رجعوا إلى ديارهم ، بعد أن قضت عليه الدولة .

وبينا كان أعراب الموالي يرتعون في سلمية وبرايرها ، ويصل نفوذهم من أبواب حمص وحماة ، إلى ضواحي حلب والرقّة ، كما قال (كاتب جلبي) في جغرافيته ، وأطراف نجد والعراق ، كما يرويه شيوخ الأعراب الحاضرين ، وإذا في أواخر القرن الحادي عشر ، تفد نحوهم قبائل شمر ، النازحة من نجد ، طلباً لبقاع أرمع من التي كانوا فيها ، وتحاول النفوذ إلى أرياف حمص وسلمية والاستقرار ، فصدتها قبيلة الموالي ، وردتها على أعقابها بعد حروب دامت عشرات من السنين . وما أن استراحت منها ، حتى فوجئت في أواخر القرن الثاني عشر ، بقبائل عنزة النازحة من نجد ، هرباً من الوهابيين ، الذين ظهوروا قبيل ذلك ، واشتدت وطأتهم ، فصدت الموالي لعنزة أيضاً ، ولكنها أمام تدفق جموعها ، وبعد حروب طويلة ، اضطرت لمصانعتها ، وإخلاء قسم من ديار حمص ، لبطن منها يدعى الحسنة ، ثم توالى غارات عنزة ، ومن ورائها الوهابيون ، الذين كانوا يلحقونها أحياناً إلى هذه الربوع ، حتى اضطرت قبيلة الموالي في أواخر القرن الثالث عشر ، إلى أن تخلي سلمية ، وتنسحب نحو الشمال ، إلى بقاع أكثر وعورة ومنعة ، في كورة العلا التي تقدم بحثها في (الصفحة ١٩٩) .

وكان إسماعيلية جبال اللاذقية ، عقيب الضربات التي أنزلها الملك الظاهر بيبرس

هم ، واستمرار سيف الرقابة مسلطاً عليهم في عهد السلاطين المماليك ، خفت صوتهم ، وزالت روعتهم ، وكانت العداوة والبغضاء متأصلة بينهم وبين النصيرية ، بحكم المجاورة والمنازعة على سكنى جبال اللاذقية الضيقة ، غير الكافية لتبسط الفريقين ، ولطالما نشبت الفتن والحروب في عهد الأيوبيين والمماليك ، واشتد أوارها خاصة في عهد العثمانيين ، واستولى النصيرية مراراً على القدموس ومصيف ، وبقية بلاد الإسماعيلية ، وهؤلاء يستردونها بمعونة الدولة العثمانية التي كانوا يلتجئون إليها ، وتقدم بقواها ، وأجل الوقائع الجديرة بالذكر ، على ما جاء في كتاب (تاريخ العلويين) ، لمحمد أمين الطويل ، ما جرى في القدموس سنة ١١٠٠ هـ ، وكانت إذ ذاك بيد النصيرية ، فهاجمها الإسماعيلية لما كان أولئك منصرفين إلى صلاتهم في يوم الغدير ، وذبحوا عدداً وفيراً من مشايخهم وعامتهم ، ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم ، واستولوا على سيف قديم ، لأحد أئمتهم ، وعلى كتبهم الدينية ، وعلى القدموس وما جاورها ، وبعد مرور أكثر من قرن ، عامل النصيرية الإسماعيلية بالمثل ، فدخل فريق منهم سنة ١١٢٥ هـ إلى قلعة مصيف ، متظاهرين بالالتجاء ، وعلى حين غرة فتكوا بسكانها الإسماعيلية ، فاضطرت الدولة العثمانية بعد بضعة سنوات ، لأن تسوق جنداً كثيراً لاسترداد مصيف ، وإعادة أهلها إلى أصحابها القدماء (كتاب تحقيق في بلاد الشرق لموريس باريس الإفرنسي ص ١٢٤) .

وقد زادت هذه الوقائع المتوالية ، في خفض شأن الإسماعيلية واستكانتهم ، وجعلتهم يرنون نحو سهول شرقي العاصي في لهفة ، ويتربصون الفرصة ليعمروا سلمية ، إحياء لبليدة كانت منشأ شيعتهم ، وتوسعاً في الأرضين ، وتخلصاً من مجاورة أخصامهم النصيرية ، لاسيما وهم أقل عدداً ، وأضعف حولاً منهم .

ولما رأوا أن سلمية خلت من أعراب الموالي ، واستتب الأمن والنظام في الجملة في عهد السلطان عبد المجيد ، طلبوا من الدولة بلسان أحد أمرائهم ، وكان من إحدى ضواحي قلعة الخواي واسمه إسماعيل ، أن يعمروا سلمية الخربة ، فسمحت الدولة لهم بذلك ، وأيدتهم على أن يسموها (مجيد آباد) ، تنويهاً بعمرانها في عهد السلطان عبد المجيد ، فجاء هذا الأمير ونفر من عشيرته الأقربين إلى سلمية ، بين سني ١٢٦٠ و ١٢٧٠ هـ ، واعتصموا بادئ بدء في الحصن الذي هدم ، وبني مكانه دار للحكومة ، وشرعوا يزرعون حوله ، ويدروون

عن أنفسهم عيث البادية ، وصار هذا الأمير يلتقط أبناء جلدته من جبال اللاذقية ، ويكرهمهم على الحجيء إلى سلمية وامتلاك الأرضين فيها ، وهم يأبون لبعدها ووحشتها في تلك الحقبة ، إلى أن استرءوا طعم المواسم الخصبة ، في تلك الأرضين ، المستريحة منذ قرون ، فصاروا ينسلون ويزدادون ، ولما ضاقت بهم سلمية ، صاروا يمتدون نحو الشرق ، يعمرن القرى الخربة ، ويفجرون القني الدائرة ، حتى كثر سوادهم . ولما استقر أمرهم ، جعلت الحكومة سلمية في غرة قرننا الحالي قضاء ، لكنها أهملت اسم مجيد آباد ، ودعته باسم سلمية الأصلي ، وأتبعته بلواء حماة . وسعد حال الإسماعيلية في هذا القضاء في الجملة ، في العقد الأول من هذا القرن ، لاسيما وقد كانوا مستثنين من الجندية ، وأمنين من عيث البادية ، بفضل القرى الشرقية ، التي عمرها السلطان عبد الحميد ، وضما لأملاكه الخاصة ، وحماها بجند خاص ، كان يركب البغال وله ثكنات ومخافر على سيف البادية . ولم ينقص عيشهم شيء سوى ما حدث سنة ١٣١٦ هـ ، فقد كان رجع قبلها بعض مشايخهم من الهند ، يدعون لبدع جديدة في مذهبهم ، أساسها الغلو في تعظيم إمامهم ، القاطن في الهند وجمع الزكاة له ، فرأت الحكومة العثمانية في هذه الدعوة ، والجمع ماراها ، ودفعها لاضطهادهم ، فسجنت أولئك المشايخ ، وبعض خاصتهم في دمشق ، وطارد جندها الذين شردوا منهم إلى جبل البلعاس والفيافي الشرقية ، ومات بعض المسجونين ، وقتل بعض الشاردين ، وظل الباقون بضع سنوات ، إلى أن أعلن الدستور سنة ١٣٢٥ هـ ، فعادوا لاستقرارهم ودعوتهم ، وعكف المشايخ المذكورون على جمع أموال الزكاة ، ولما حاولوا سنة ١٣٢٦ هـ إرسالها إلى الهند ، صادر متصرف حماة ناظم بك هذه الأموال التي قدرت بما يقرب من عشرة آلاف ليرة ذهبية ، وسعى لإنفاقها في إنشاء المدرسة الزراعية التي بحثنا عنها ، وتوفق قائم مقام سلمية وقتئذ الأمير إسماعيل الشهابي ، لأخذ قطعة أرض لها ، تبلغ نحو ألف دونم ، تبرع بها الأهليون في سلمية ، وخصصت لها الحكومة العثمانية النفقات السنوية اللازمة ، فتم مهمة المتصرف والقائم مقام المذكورين ، إنشاء هذه المدرسة ، التي بعد أن ازدهرت وأفادت سلمية وغيرها نحو ربع قرن ، أغلقت للأسباب التي ذكرناها في فاتحة كلامنا .

وعقيب احتلال الإفرنسيين لبلاد اللاذقية سنة ١٣٣٧ هـ ، عادت الفتن ، وتيقظت بين الإسماعيلية والنصيرية في تلك البلاد ، فتدخلت السلطة الإفرنسية لإخادها وسأقت

الجنود ، وكان الإسماعيلية يتطوعون في صفوفها ، والنصيرية ثائرين عليها . وحاصر النصيرية القدموس سنة ١٣٣٨ هـ ونهبوها ، وألجؤوا سكانها الإسماعيلية للهجرة ، إلى بقية بلاد أبناء شيعتهم ، لاسيما إلى أنحاء سلمية . ولما رأى هؤلاء المهاجرون الرخاء والخصب في سهول هذه الأنحاء الواسعة ، والعزة التي نالها السلمييون من السلطة الإفرنسية لقاء خدمتها ، وتفانيهم في إخماد مآقام في وجهها من الثورات العديدة ، وأجلها تلك التي نشبت في أكثر بلاد الشام ، ودامت في سنتي ١٣٤٣ و ١٣٤٤ هـ ، هي أكثر منها في قراهم الغربية الجبلية الضيقة ، كثر توافدهم وتوالت هجرتهم ، حتى تضاعفت جسامه سلمية بهم ، عما كانت عليه إلى حدود سنة ١٣٤٢ هـ ، وامتدوا إلى القرى الشرقية والحرب الدائرة يعمرونها ، حتى صار قضاء سلمية في يومنا ، موطناً كبيراً للإسماعيلية^(١) ، أكثر وأمنع مما هو في جبال اللاذقية .

ويفترق الإسماعيلية من حيث المذهب ، إلى حجاوية وسويدانية ، فالحجاوية أتباع الحاج (خضر) المتوفى منذ قرنين ، والذي من أعقابها ، المشايخ الحاليين للنحلة الحجاوية . والسويدانية أتباع الشيخ (سويدان) القدموسي ، ولا يزال فيها من أعقابها جماعة ، ويعتقد الأولون بألوهية إمامهم آغاخان ، الزعيم الهندي المعروف ، في أفخم النوادي وميادين سباق الخيل ، في إنكلترا وفرنسا ببذخه وترفه ، ويؤدون له الزكاة ، ولهم معتقدات وصلوات خاصة ، يقيمونها في بيوت لا يعرفها ولا يدخلها إلا هم ، يدعونها (معبداً أو جمعة) بفتح الجيم ، يرتادونها مرتين في اليوم ، قبيل الفجر وعقيب الغروب ،

(١) يقطن الإسماعيلية في جبال اللاذقية ، في ناحيتي القدموس والحوايي ، وفي قلعة مصياف . ولهم في الأولى اثنتا عشر ضيعة منها : القدموس وكاف الحمام ، وزريقة وقلعة العليقة وغيرها ، وفي الثانية سبع عشرة ضيعة منها : عقر زيتي وخربة الفرس ، وبريكية وجمعاشية ، ومازوغا وغيرها ، ماخلا قلعة الحوايي التي أهلها سنية . ويقدر مجموع الإسماعيلية في هاتين الناحيتين بأربعة آلاف . وليس في قضاء مصياف ، سوى قلعة مصياف وحدها ، أهله بهم ، وهم لا يتجاوزون فيها الألفين . أما في قضاء سلمية ، فلهم من القرى الخاصة بهم : سلمية وتل الدرة والكافات ، وبري الغربي وبري الشرقي ، وتل التوت والصفاوي ، ومفقر الشرقي ، ومفقر الغربي ، وأبو حبيلات وعقارب الصافية ، وجينه العلباوي وسعن الشجرة والعميا ، وما عدا ذلك فلهم ثمة ضويعات ومزارع صغيرة خاصة ، كما أنهم في بعض القرى ، كتل الجديد وجدوعة ، وقبيبات والمبعوجة ، وأم خريزة يؤلفون ربع أو نصف أو ثلثي سكانها ، وما عداهم إما سنية ، أو نصيرية . ويقدر مجموع الإسماعيلية في قضاء سلمية بأربعة عشر ألفاً ، فيكون مجموعهم في جبال اللاذقية وسهول سلمية كلها عشرين ألفاً .

فيلتف الرجال ووراءهم النساء ، حول مائدة عليها صور شمسية لإمامهم آغا خان ، وبعد أن يقرؤوا أدعية باللغة الأوردية ، يؤدي كل منهم الزكاة ، وهو خمس ما جناه في ذلك اليوم ، مهما تفره ، ويرسل مجموعه في آخر العام إلى الهند ، والشانون يكادون لا يتميزون في مظهرهم عن أهل السنة ، بإقامة الشعائر الإسلامية في الجوامع إلا بكونهم إمامية ، لكنهم لم يجدوا في زعمهم حتى الآن من هو أهل للإمامة ، لذلك فهم لا يذعنون لآغا خان ولا يشاطرون الحجاوية آراءهم قط ، والنفور من جراء هذا التباين ، سائد بين النحلتين . وكل سكان سلمية وقراها القدماء ، وسكان ناحية الخواي من الفريق الأول ، بينما القدموسيون والمصيافيون من الفريق الثاني . ويفترق الإسماعيلية أيضاً بحسب الطبقات ، إلى عامة وخاصة ، فن خاصتهم المشايخ ذوو الزعامة الروحية ، بينهم من هو مخصص بحماية أموال الزكاة لآغا خان وإيصاله إلى الهند ، والأمراء ذوو الزعامة الزمنية ، وهذه الإمارة مختصة بأفراد قلائل ، يتوارثونها منذ قرون ، على أنها ما برحت غامضة الأرومة والسلسلة .

ويغلب على الإسماعيلية طول القامة وعرض الهامة وصحة الجسم ، ويمتاز نبلاؤهم بزرقة العيون وشقرة الشعور ، وهم في الجملة ذوو شمم وجفاء ، وعندهم شجاعة وعصبية ، ينقادون إلى مشايخهم وأمرائهم ، ويتضامنون في الدفاع عند الطوارئ ، لذا ترى قراهم ومزارعهم في أمن من عيث البادية ، وجشع سراة الحضر . وعدد متعلميهم قليل جداً ، بدأ بالظهور منذ أن أسست المدرسة الزراعية ، وقد نشأت في السنين الأخيرة بمساعي بعض هؤلاء المتعلمين ، حركة إصلاح غايتها الرجوع إلى المبادئ الإسلامية ، بلغني أنها نمت وربت ، وزاد عدد منتسبيها وشأنهم ، وصار يرجى لها نمواً واتساعاً ، يعيدان هذه الطائفة الباسلة إلى الحظيرة القومية .

أما الآثار القديمة في سلمية ، فأجلها القني التي قدمنا ذكرها ؛ وقد كرى الآن فيما قيل نحو خمسين منها ، وبقي مثل ذلك أو أكثر . وكان أعظمها وأطولها ، القناة التي كانت تمتد من سلمية إلى حماة ، وتسقي ما كان في شمال حاضرها ، من البساتين والأرضين ، التي استبعلت بعد دثورها . ولم يبق من آثار هذه القناة ، إلا قليل من الآبار الجسية ، ترى في طريق حماة بين سلمية وقرية تل الدرة ، ويظن أنها تخص القناة المذكورة ، ويزعم آخرون أنها تخص قناة العاشق ، على أن الظن والزرع المذكورين ، يحتاجان إلى تحقيق ، وكانت هذه القناة من أكبر دواعي عمران حماة ، في عهد ملوكها التقويين الأيوبيين ، خر بها الملك

المجاهد (شيركوه) صاحب حمص ، الذي كان عسوقاً لرعيته ، مخاصماً لأبناء عمه التقويين ، لأجل سلمية كما قدمنا ، بلغ به الخنق من الملك المظفر صاحب حماة ، الذي كان قادماً لمحاصرته بأمر الملك الكامل سنة ٦٣٥ هـ على ما ذكره أبو الفداء في تاريخه (٣ / ١٦٩) أنه قطع هذه القناة ، ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حماة ، فسد مخرجه من بحيرة قدس ، التي بظاهر حمص ، فبطلت نواعير حماة والطواحين ، وذهب ماء العاصي في أودية بجوانب البحيرة ، ثم لما لم يجد الماء مسلكاً ، عاد فهدم ماعمله صاحب حمص ، وجرى كما كان أولاً . وقال أبو الفداء في حوادث سنة ٧٢٦ هـ ، - يذكر تنظيفه لهذه القناة - : « وفيها في منتصف ربيع الآخر الموافق للحادي والعشرين من آذار ، خرجت بعسكر حماة ، ووصلت إلى القناة الواصلة من سلمية إلى حماة ، وقسمتها على الأمراء والعسكر ، لينظفوها ، فإنها كانت قد آلت إلى الفساد ، بسبب ما اجتمع فيها من الطين ، فحروها في نحو أسبوع ، ثم عادوا إلى حماة » ا هـ ..

وفي سلمية عدة أبنية أثرية عربية ، متوسطة الحال ، ليس فيها من الإتقان والجمال ، الموجودين في الحواضر ما يلفت النظر . منها الحصن القديم ، الذي بقيت أسسه وبعض أبراجه تحتفي وراء الحوانيت ، بني بأنقاض المباني البيزنطية والهاشمية ، وقد هدم خلال الحرب العامة ، واستعملت أنقاضه في إشادة دار الحكومة الحديثة ، وغيرها من الدور الخاصة . أدركنا فيه ثمانية أبراج ، مربعة الشكل ، أربعة في الزوايا ، وأربعة في منتصف الجدران العريضة ، التي كان طول كل منها نحو مئة وخمسين متراً ، وعلوه ٨ - ١٠ أمتار . وكانت الأبراج والجدران المذكورة ، ذات أحجار متوسطة في الضخامة ، تحتوي سطوحها الظاهرة على عدد من أعمدة الروابط ، وكثير من الأنقاض المزينة بنقوش سابقة للعهد الإسلامي ، أو بكتابات يونانية . وكان المدخل إلى الحصن في البرج المتوسط ، من الجهة الجنوبية ، وهو ذو تعاريج ، تشبه ما في مداخل المباني العربية العسكرية . لم يعثر الأثريون الذين زاروا هذا الحصن - ومنهم (هارتمان) في غرة قرننا الحالي ، و (فان برثم) في سنة ١٣١٣ هـ - على أي كتابة عربية ، تدل على تاريخ بنائه ، ولم يجدوا سوى بعض القطع الكوفية ، التي استعملت في الجدران ، وهي من العهد الهاشمي كما قدمناه . وعندنا أن هذا الحصن بني في القرن الرابع أو الخامس ، عقيب حادثة القرامطة وقبل مجيء الصليبيين ، إذ لم يكن لسلمية بعد أن جاء الصليبيون مكانة حربية ، تضطر أصحابها

لإشادة هذا الحصن ، لاسيما ولم يكن فيه شيء من مزايا الهندسة العسكرية ، التي كانت سائدة في عهد الأيوبيين والمماليك ، ومن نماذجها قلعة شميميس المشرفة على سامية . وكان في جنوبي هذا الحصن ، قبو كبير اتخذته السنية ، بعد تأسيس القضاء مسجداً ، واتخذت الحكومة سطحه داراً لموظفيها . وفي وسط سامية حمام عربي قديم ، وجدوه في بدء عمران سامية الأخير على حالته الحاضرة ، فنظفوه وما برحوا يستعملونه ، وهو يماثل على صغره حمامات المدن الكبيرة بأقسامه ، وإتقان بنائه ، ويشهد بما كان لسامية وأهلها في عهد الأيوبيين من الحضارة والرفه ، وعلى يسار بابه حجر ، منقوش عليه كتابات كوفية ، لاتحوي تاريخاً ، مما يدل على أن الحجر من عهد الهاشميين ، ومستعار من مكان آخر . وثمة جامع خراب يظهر من هيئة قسمه الشرقي ، أنه كان كنيسة في ضمنها أعمدة ممدودة ، ومنتصبة من أحجار البازلت الأسود والگرانيت الأحمر ، وفي قسمه الغربي قبة عالية من الآجر ، نصفها مهدوم ، تحتها أضرحة إسلامية لأناس مجهولين ، زعموا أن صاحب الضريح الأكبر الذي يخطئ سكان سامية بنسبته إلى الإمام إسماعيل ، هو أحد بني هاشم الذين كانوا في سامية في القرن الثالث ، واسمه رضي الدين عبد الله بن أحمد الوفي بن محمد التقى بن محمد المكتوم بن إسماعيل وقد توفي قبيل حادثة القرامطة أو أثناءها ، وعلى عتبة باب القبّة ، زبرت كتابة كوفية تاريخها سنة ٤٨١ هـ ، قرأنا منها بعد الجهد الكلمات الآتية : « (السطر الأول) بسم الله الرحمن الرحيم عمل هذا المشهد ... المباركة ... العابد الأجل أبو الحسن علي بن حرملة ... (السطر الثاني) ... صانعه الأمير الأجل ... الملك سيف الدولة خلف بن ملاعب ، أدام الله علوه في سنة إحدى وثمانين وأربعمئة » ا هـ . دلت كلمة المشهد الواردة في هذه الكتابة ، على أن أصحاب الأضرحة الراقدين تحت القبّة شهداء ، ولكنها لم تذكر أسماءهم لنعرف من هم ، ومن هو أبو الحسن علي بن حرملة ، ولعلمهم من سادات بني هاشم الذين قتلهم القرامطة سنة ٢٩٠ هـ ، ودفنهم من نجا من القتل ، أو من تدير سامية بعدهم ، في هذا المكان ، أو لعلمهم التابعون الذين ذكرهم ياقوت في معجمه . ودلت هذه الكتابة ، على أن سامية كانت كحماة تتبع حصصاً في عهد صاحبها (خلف بن ملاعب) الكلاي الذي قدمنا ذكره . وقيل أن في الزاوية الغربية القبليّة ، من خارج حرم هذا الجامع الخرب حجر أسود ، زبر عليه باليونانية ماتعريه : هذا باب الله ، من تكلم الصدق ، وسار على الحق دخل منه . وفي إحدى دور سامية ينزل من فوهة بئر إلى

مسجد صغير تحت الأرض ، يدعى الباسطية ، معقود ومبلط فيه حوض ماء ومحراب ، وفي ضواحيها إلى الغرب من عين الزرقاء طاحونة قديمة ، تعرف بطاحونة المعبد ، وجد فيها الأثري (هارتمان) في غرة هذا القرن ، أحجاراً عليها كتابات تشبه الطلاسم ، وعمودين من البازلت ، مؤلفين من عدة قطع ، ولها تيجان كورنتية ، وعلى عامودين آخرين ، كتابات يونانية وكوفية غير واضحة .

وإلى الشمال الغربي من سلمية ، على بعد ثلاثة كيلومتر أكمة عالية جرداء ، من أعضاء جبل العلا ، في ذروتها جامع خرب ، ينسب إلى الخضر ، لايسع الزائر إلا استغراب الحكمة في بنائه في هذا العلو المقفر ، حجره من البازلت ، وفيه كسور أعددة حلزونية . وفي غربي جامع الخضر ، تل عال أبيض ، منتصب وسط واد عريض ، أحاطت به أعضاء جبل العلا ، وربضت فوقه (قلعة شميميس) ، ذكرها أبو الفداء في تاريخه في حوادث سنة ٦٢٧ هـ قال : « في هذه السنة شرع صاحب حصص شيركوه ، في عمارة قلعة شميميس ، وكان لما سلم إليه الكامل سلمية ، قد استأذنه في عمارة تل شميميس قلعة ، فأذن له بذلك ، ولما أراد شيركوه عمارته ، أراد الملك المظفر صاحب حماة منعه ، ثم لم يكتفه ذلك ، لكونه بأمر الملك الكامل » ا هـ . وهذا التل ذو شكل مخروطي ، وتأليف جيولوجي غريب ، نادر المثال ، فأسفله من الصخور الجيرية البيضاء ، وقته من البازلت الأسود ، تظهر الثانية فوق الأولى كطاقية صغيرة سوداء ، فوق هامة كبيرة كللها المشيب ، مما يدل على أن التل كان بركاناً قذف بحممه ، وكان قليلاً فجمد عند الفوهة . وقد نقر مشيدو القلعة في بلعوم هذه الفوهة ، بئراً عظيمة الدائرة ، لا يعرف غورها ، عششت فيها أسراب الحمام البري ، ومهدوا سطح الطاقية ، وبنوا على دائرتها أسوار القلعة وأبراجها وأقبيتها ، وحفروا حول التل خندقاً عظيماً وعميقاً ، يحيط بالقلعة . وإذا لم يبق للجسر والباب ، اللذين كانا في قبليها أثر ، أصبح القاصد لا يبلغها إلا زحفاً لشدة الانحدار . وقد هدم كل الأبراج وأعلى الأسوار ، فصار الزائر لا يرى في داخل القلعة إلا البئر التي ذكرناها ، وأطلالاً وركاماً لجدران متساقطة ، ودعائم متهدمة ، ما خلا قسماً من السور ونوافذ ، فإنه كان ماثلاً ، حينما غادرت سلمية سنة ١٣٤٢ هـ . وموقع قلعة شميميس ذو مكانة حربية ، لا يستهان بها ، تدل على جودة نظر بناتها ، فهي وإن اختفت وراء الأكام المحيطة بها ، تشرف على أبعاد شاسعة ، يصل مداها إلى ضاحية حصص في الجنوب ، وطريق حماة ووادي العاصي في

الغرب ، والسهول الممتدة إلى جبل البلعاس في الشرق ، والطرق الآخذة إلى الأندرين وحلب في الشمال . ولم يذكر أبو الفداء ، ولا غيره من مؤرخي العرب ، من هو (شميمس) الذي نسبت هذه القلعة وتلها إليه ، وربما كان أحد ملوك حمص من آل (شمسفرام العرب) أو غيره ، لأن بناءها وإن كان إسلامياً بحثاً من طراز الهندسة العسكرية ، السائدة في عهد الأيوبيين ، لكن اسم شميمس ، وحصره بتل هذه القلعة دون غيره ، من التلال والآكام المجاورة ، المحرومة من الأسماء ، يذهب بالظن إلى أنه كان هناك حصن قديم من قبل الإسلام ، خربته عوادي الزمان . فجاء شيركوه في سنة ٦٢٧ هـ ونقضه ، وعمر القلعة الحالية ، لتكون مقابل قلعة حمص التي عمرها هو أيضاً بعد دثورها ، وليبقى مستولياً على سامية ، فيما إذا أراد المظفر منازعته عليها . وبقيت شميمس في يده ، ويد ابنه المنصور إبراهيم ، إلى أن سلمها حفيده الأشرف موسى في سنة ٦٤٥ هـ إلى الصالح أيوب ملك مصر والشام ، ودخلت سنة ٦٤٨ هـ في حوزة الملك (الناصر يوسف) صاحب حلب ، حفيد الظاهر غازي ، بعد أن عصيت عليه . وفي سنة ٦٥٨ هـ جاء التتر بقيادة (هولاكو) ، فنالوا منها كما نالوا من بقية قلاع الشام ، ثم رمها بعد ذهابهم الملك الظاهر بيبرس ، في جملة مارم ، وظلت تعد من ممتلكات دولة المماليك المصرية ، بدليل ذكرها في المعاهدة ، التي عقدها الملك المنصور قلاوون مع الصليبيين في سنة ٦٨٢ هـ ، ثم أهمل أمرها ، لما عمت الفوضى بعده ، إلى أن قضت عليها الزلازل وفتن الأعراب . على أن القضاء الأخير لم يتم ، إلا بعد مجيء سكان سامية الحاليين ، فهم تهافتوا ويا للأسف على تهديمها ، ونقل أحجارها حتى أن بابها الكبير الذي كان ماثلاً في قبليها ، في سنة ١٣١٣ هـ حينما زارها الأثري (فان برشم) قد تقض هو والبرجان اللذان كانا يحرسانه ، وهكذا تندثر الآثار القديمة في بلاد الشام ، بيد جهلاء أبنائه ، وتضيع مفاخر الأسلاف ، دون أن تجد لها شفيعاً أو نصيراً .

وفي شمالي سامية ، على بعد خمسة كيلو متر ربوة فيها جامع خرب ، ينسب إلى الشيخ فرج (؟) له قبة من الآجر ، أكثرها متهدم ، وله جدران متداعية ، وفي شرقيه ضريح محاط بجدران غير مسقوفة ، صاحبه الشيخ المذكور ، تزوره الأعراب لاسيما الجملان ، إحدى بطون قبيلة الحديديين ، التي تدعي الانتساب إليه ، وأهل القرى لاعتقادهم ببركته ، وفي جنوبي هذا الضريح ، جبانة فيها قبور قديمة وحديثة ، كنت

عُثرت بينها سنة ١٣٣٧ هـ على قبر زبر على شاهده اسم (محمد بن عيسى بن مهنا) المتوفى في رجب سنة ٧٢٤ هـ . واطلعت بعد في كتاب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) (٢٢ / ٦) على ذكر هذا الأمير ، وأنه دفن في سلمية عند أبيه ، على أنني لم أعر على قبر الأب ، ولعله درس . وهذا الأب أي عيسى بن مهنا ، هو الذي قدمنا ذكر أبيه مهنا ، وكيفية حصوله على سلمية ، ونزوله هو وعشيرته ، واستيطان أعقاب آل عيسى فيها من بعده ، وتخريبهم إياها ، إلى أن تغير اسمهم كما هي عادة أهل البادية ، وصاروا يدعون بآل أبي ريشة أمراء قبيلة الموالي ، التي قدمنا ذكر أفنادها ومنازلها ، وحديث اقتتلها مع الحديديين ، في بحث كورة العلا (الصفحة ١٩٩) .

الأعراب : لما كنت مدير المدرسة الزراعية في سلمية ، في سني ١٣٣٧ - ١٣٤٢ هـ كنت أعجب بحالة الأعراب^(١) ، الذين يكثر ترددهم على هذه البلدة النائية ، وتجوأهم في أعمالها ، وتقبيطهم في مروجها ، واجتماع رؤسائهم في مؤتمراتها ، وكنت أرغب الاطلاع على أنسابهم وأحسابهم وطبائهم ، فأتسقط آثارهم ، وأستطلع أخبارهم ، وأكتب ما أراه جديراً بالحفظ ، حتى اجتمع لي طائفة من ذلك ، ربما جعلتها موضوعاً لرسالة خاصة ، أعود لتأليفها وطبعها بعد . وقد وجدتهم ينقسمون إلى ثلاث طبقات :

١ - الأولى : أعراب البادية أو (البدو) ، ويوصفون بالرحل ، أو الجمالة - باصطلاح الإفرنج - وهم أهل الخيام أو بيوت الشعر لسكناهم ، والخيول لركوبهم ، والإبل لكسبهم ، يقتاتون من ألبانها ، ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها ، ويحملون أثقالهم على ظهورها ، ويبيعون ذكورها ، لا يدرون أهى خلقت لهم وقبلهم ، أم هم خلقوا لها وقبلها ، ولا يدفعون للدولة سوى ضريبة الودي ، يتقلبون دوماً بين قفار البادية (الحاد) ومشارف الحاضرة (العمورة) فراراً من حمارة القيظ تارة ، وصبارة البرد أخرى ، وانتجاعاً للمراعي الصالحة للإبل ، كالروثة والنيتون وغيرها ، مما فيه ملوحة وحموضة . وهواهم في

(١) الأعراب بالفتح ، أهل البدو من العرب ، الواحد أعرابي بالفتح أيضاً ، وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتباد للكلأ ، سواء أكان من العرب أم من مواليتهم ، وقيل من نزل البادية ، وجاور البادين ، وظعن بظعنهم ، فهم أعراب ، ومن نزل بلاد الريف ، واستوطن المدن والقرى العربية ، وغيرها ممن ينتهي إلى العرب ، فهم عرب ، وإن لم يكونوا فصحاء (عن المصباح المنير للمقري الفيومي) .

البادية وآفاقها الشاسعة وحريتها المطلقة ، يحتقرون أهل الطبقة الثانية ، ويدعونهم رعية وشوايا ، لاقتنائهم الشياه والمعز ، يعدون ذلك من أكبر العار ، إذ تمنعهم عن التوغل في البيداء ومدافعة الأعداء ، ويمتهنون أهل الحضر والقرى ، لسكناهم في بيوت الحجر واعتيادهم على الرفه وحماية الدولة^(١) ، وهم لا يغشون هذه الحواضر إلا للضرورة في سني المحل والظما ، أو لابتياح حاجاتهم ، ويبيع جمالهم وأصوافهم . وكثيراً ما يلحق أهل الضياع والمزارع حين مرورهم بها مضرات ، من إفسادهم السابلة ، ورعيهم الزرع مخضراً ، وانتهابه قائماً وحصيداً ، ويتفاقم ضررهم حينما يرون من فوضى الأحكام ، ومساحة ذوي السلطان فرصة . وهؤلاء في بلادنا ، قبائل عنزة ، أعقاب عنز بن وائل ، النجدية الأصل ، الذين وفدوا تباعاً إلى بلاد الشام الشمالية ، في غرة القرن الثالث عشر الهجري . قيل إن وائل أعقب ولدين عنز ومعاذ ، فعنز أبو عنزة الذين نحن في ذكرهم ، ومعاذ أبو قبائل حرب ، التي منازل بعضها في الحجاز ، وبعضها لا يزال في موطنه في نجد . وقيل إن عنز أعقب ولدين بشر ومسلم ، فسلم أبو ضنى مسلم ، وهم فريقان الجلاس والحلف ، فالجلاس قبيلة الرولة ، والحلف قبائل الأشاجعة ، والعبدة والسوالة ، والولد علي والحسنة ، وبشر أعقب ولدين عمار وعبيد ، فعمار أبو قبيلة العمارات ، وعبيد أعقب ولدين سبيع وفدعان ، ومنها قبيلتي السبعة والفدعان ، وتسميان ضنى عبيد ، وتدعى هذه القبائل الثلاث أيضاً ضنى بشر .

فن قبائل عنزة في فيافي حلب من ضنى عبيد ، الفدعان ، وهم فريقان الولد والخرصه ، والمشixe في الولد ، في عهدنا بيد (محم بن مهيد) الذي تقدم ذكر ضياعه (في الصفحة ٢٠٨) ، والمشixe في الخرصه ، ويسمون ضنى ماجد بيد (مزود بن كعيش) ، ومنازل الفدعان جنوبي الجزيرة الفراتية ، وشرقي حلب ، بين الرقة وبالس (مسكنة) ، ويذكر من أفناد الولد : المهيد والروس ، والساري والعجاجة ، والشميلات ، وينضم إليهم فند يدعى العمور الجراح ، ويدخل في كنفهم حين التشريق

(١) انصرف منذ ربع قرن أو أقل بعض هذه القبائل إلى اقتناء الشياه وبعضهم إلى مشاركة أهل الحواضر بتربيتهما ، كما أن بعض رؤسائهم تذوق طعم الحرث والزرع وصار من ملاكي الضياع والأرضين ، فخفت بذلك وطأة الحقارة والامتهان اللتين ذكرناهما .

أفناد صغيرة ، ذكرنا أسماء بعضها ، كالأبو خميس والكيار ، واللهيب وغيرها . ويذكر من أفناد الخرصة الغبين والعواد ، والجدة والحاسرا ، وغيرهم ، ويبلغ مجموع بيوت الفدعان ٣٣٠٠ .

ومن عزة (ضنى عبید) في فيافي حماة وسامية الشرقية (السبقة) بكسر السين وفتح الباء والعين ، وهم فريقان ؛ العبداء والبطينات ، والمشخة في العبداء بيد (برجس بن هديب) ، ومن أفنادهم الرماح والمواجعة ، والدوام والوترة ، والمسكة والسبايعة ، والعرقة والعبادات ، منازلهم شرقي الحمراء ، وسعن الشجرة والخرايج . والمشخة في البطينات بيد (راكان المرشد) ، ومن أفنادهم الكصة والرسالين ، والمواهب والمساربة ، يقيظون شمالي سامية بين قصر ابن وردان والأندرين ، وشرقي حصص بين عقيربات وجب الجراح ، ويبلغ مجموع بيوت السبقة ٤٠٠٠ .

ومن عزة (ضنى مسلم) في فيافي حصص الحسنة ، ٤٠٠ بيت ، خاصة (ابن الملحم) ، وفي فيافي دمشق الرولة خاصة (النوري بن الشعلان) ٢٦٠٠ بيت ، والأشاجعة خاصة (ابن معجل) ٣٠٠ بيت ، والسوالة خاصة (ابن جندل) ٢٠٠ بيت ، والعبداء خاصة (ابن مجيد) ١٥٠ بيت ، والولد علي وهم فريقان فريق في مشخة (ابن سمير) . ١٥٠٠ بيت ، وفريق في مشخة (ابن الطيار) ٤٠٠ بيت ، وينضم إلى الولد علي فند يدعى المساليخ ، في مشخة (ابن عائش) ٦٠ بيت ، ولكل من هذه القبائل والأفناد أقسام وأبحاث عديدة ، أرجأت ذكرها ، إلى المؤلف الخاص بالأعراب ، الذي ربما أقدمت على نشره بعد .

٢ - الطبقة الثانية : أعراب الحاضرة أو (عربان الديرة أو الرعية) النصف رجل ، أو (الغنامة) باصطلاح الإفرنج ، وهم أهل الغنم والمعز ، ومستثمرو الأرضين بالحرث والزرع ، يرحلون في الشتاء إلى البادية ، انتجاعاً لمرعى غنمهم ودفئهم ، ويعودون في الصيف إلى قرأهم وضياعهم ، ويأوون إلى الخيام (بيوت الشعر) أو إلى القباب وبيوت الحجر ، حسب اللزوم والفصول ، منهم من يتخذ الحير في تشريقه وتغريبه أو تنقله ، من مكان إلى مكان آخر ، كأكثر بطون قبيلة الحديديين ، ومنهم من يتخذ الإبل والحير معاً كبنو خالد والنعم ، والفواعة وغيرهم . وهم يشبهون في الجملة ، الطبقة الأولى في طباع

البداءة والجلفة ، وانتهاك حمى الطبقة الثالثة ، وأهل الحاضرة عند سنوح الغفلة ، إلا أنهم يختلفون بأنهم لا يعاملون في عرف البادية معاملة أولئك ، فلا يردون النقا ، أي لا يشهر عليهم الحرب ولا يحفظ لهم صحب ، أي لا يجار الملتجئ إليهم ، بل لما كانوا (رعية) يؤكلون ولا يأكلون . ويختلفون أيضاً ، بأن لهم استعداداً بارزاً للتحضر ، وعلائق جمعة مع أهل مدن حلب وحماة ، وحمص ودير الزور ودمشق ، يشاركونهم في تربية الغنم ، وتجارة السمن والصوف ، التي تدر عليهم وعلى شركائهم في سني الخصب ثروة غير يسيرة ، وبأن لهم قرى وضياعاً ، يقطنون فيها ويستثمرون أرضها ، وإذا شرقوا لا يبعدون كالطبقة الأولى فلا يتعدون جبل البلعاس وجبال تدمر وفيافياها ، وهم يدفعون للدولة عدا ضريبة الأغنام العشر عن الزروع و (الويركو) عن الأرضين فقط .

وهؤلاء في بلادنا الموالي والحديديون ، اللذين تقدم ذكرهم وخبر اقتتالهم (في الصفحة ٢٠٣) ، بيد أن الموالي تشبه الطبقة الأولى والثانية معاً في بعض الأمور ، وتختلف في أخرى . فهم أهل إبل وغنم وقرى ، لكن إبلهم ليست من الوفرة بدرجة البدو ، وتربيتهم للغنم واشتراكهم مع الحضر واستثمارهم للقرى أقل إتقاناً من الرعية ، ومشابهم للطبقة الأولى في أنهم يردون النقا ، ويعطون الصحب ، لأنهم أهل حرب وضرب وأقوال وأفعال . ومن هذه الطبقة بنو خالد ، وهم قدماء في شمالي الشام كالموالي ، ذكرهم القلقشندي في كتابه (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) قال : بنو خالد عرب حمص ، بطن من بني مخزوم ، من قريش من العدنانية ، وهم رهط خالد بن الوليد ، قال الحداني : وهم يدعون النسب إلى خالد ، وقد أجمع أهل العلم بالنسب على انقراض عقبه ، ولعلمهم من ذوي قرابته من بني مخزوم ، قال وكفاهم بذلك فخاراً أن يكونوا من قريش . ومن أفناد بني خالد في ديار حماة وسلمية - غير التي عدناها في بحث جبل شحشو (الصفحة ٢٠٣) - الناصر والعليان ، والعارشة والشقرة ، والغنايم والبياطرة ، والبريكات والطعمة ، والرطوب والبوادي ، والرزيق وغيرها ، وأكبر مشايخهم (محمد بن الباشا عبد الكريم) ، ويبلغ مجموع بيوتهم ٩٠٠ . ومن هذه الطبقة العقيدات قبيلة كبيرة ، منازلها الأصلية في سقي الفرات ، في أنحاء دير الزور ، ومنهم في ديار حماة وسلمية : الدغامشة والأبو سرايا ، والأبو سيف والأبو سلامة ، ومجموع بيوتهم ٣٥٠ ، ويعد من هذه الطبقة النصف متحضرة ، الغنامة القبائل ، التي ذكرناها في أقضية حلب ، كالأبو خميس

والوهب ، والولد علي والكيار واللهيب .

٣ - الطبقة الثالثة : الأعراب الفلاحون ، الذين تركوا الحل والترحال وشن الغارات ، وأيقنوا أن العيش الثابت خير من المتقلقل ، وأن يلجأ لحي الدولة أهنأ بالاً ، من يتكل في حمايته على نفسه وعصبيته ، فعمروا الحرب الدائرة ، وهجروا بيوت الشعر إلا قليلاً ، وقطنوا بيوت الحجر أو القباب ، وتوفروا على الحرث والزرع ، أكثر من تربية الماشية . منهم في شمالي الشام : القاطنون في قرى أملاك الدولة ، في أنحاء منبج والباب ، وجبل الأحص ومطبخ قنسرين ، والقاطنون في سهل العمق وسهل الروج وسهل الغاب ، وفي أنحاء إدلب وسرمين ، والطار والعلا . وقد قدمنا ذكر أسمائهم ، كل في مكانه ، ومن هؤلاء في أطراف حماة ، قبيلة تدعى التركي ، قلما يشرقون ، بل يكتفون في الغالب غربي العاصي بين حماة وشيزر ، ومثلهم السماطية بين شيزر وأفامية ، وبنو عز الرعية والمشارفة الرعية ، والجلان والحراشين وغيرهم .

وهؤلاء الأعراب على اختلاف طبقاتهم ، وتباين ضعفهم وقوتهم ، ما برحوا على الوتيرة التي عرفوا بها منذ قرون عديدة ، في حب الغارات واستباحة حى المعمور من البلاد ، والاشتراك بكل انتقاض ، واغتنام فرصة كل فوضى ، والنوال من القريب والغريب على السواء ، واستدراار المغانم والعطايا من أي نبع كان ، والخنوع أمام القوي ، والتنبر في وجه الضعيف . وجلهم في غفلة عن أمور دينه وديناه ، حتى عن ماضيه ومعرفته نسبه وحفظ حسبه . فقد فقد منهم كثير من الفضائل والحامد ، التي كانت لأسلافهم في الجاهلية وصدر الإسلام ، وملأت كتب التاريخ والأدب القديمة ، وضعفت وشيجة القرابة اللغوية والجنسية والدينية ، بينهم وبين العرب أهل الحواضر ، بعد أن حالت الدولة المنتدبة في هذه الديار بين البادية والحاضرة ، وقطعت كل صلاتهم مع حكومات الشام ، فربطتها بإدارة خاصة لديها دعته (إدارة القبائل) ، تشرف على الأعراب كافة ، ولو كانوا من أهل الطبقة الثالثة ، الذين أووا إلى عيش الاستقرار والاستيطان ، فتفصل قضاياهم ، وتتدخل في الكبيرة والصغيرة من كوائنهم ومسائلهم ، وتقف في جانبهم إذا حدث خلاف بينهم وبين أهل الحواضر . بيد أن هؤلاء الأعراب ، بعد أن كانوا على جانب غير يسير من رغد العيش والزهو ، أختن عليهم سنو الجسدب التي توالى ، ثم اشتدت منذ سنة

جولة أثرية (١٩)

١٣٥٠ هـ ، وأهلكت من ماشيتهم زهاء تسعة أعشارها ، وقبل ذلك ، كان معين ارتزاقهم الثاني ، وهو الغزو والسلب ، قضت عليه طيارات الدولة المنتدبة ، وراكبو الهجن من جنودها ، فأصبحوا في غاية من البؤس والفاقة وضعة الشأن ، لافرق في ذلك بين جليلهم وحقيهم ، وقاصيهم ودانيهم . ونعوذ بالله من الخيبة والخسران .

جبل البلعاس : في شرقي سامية على بعد ٤٧ كيلو متراً منها جبل ، يدعى البلعاس ، يذهب القاصد إليه ، ماراً بقرى بري الغربي ومفقر الغربي ومفقر الشرقي ، ويترك على يمينه قرى بري الشرقي والعيونة ، وأبو دالي وحادة عمر وغيرها ، ويترك على يساره أرض قرية عقارب الواسعة ، ثم أبي حبيلات وأبي رمال ، إلى أن يوافي عقيربات ، وقد ذكر ياقوت في معجمه عقيربات بدون تاء ، وقال إنها ناحية بمحص ، وهي ضيعة في أقصى العمران ، فيها الآن مخفر للدرك ومدير ناحية ، تتبعه الضياع والمزارع النائية مثلها : كفريتان وعرشونة ، وعكش وأبو حنايا ، وقليب الثور وصلبا ، ومسعدة ومسعود ، ماعدا التي مر ذكرها في الطريق ، وأهل عقيربات جالية من قرية السخنة ، على طريق تدمر ودير الزور ، وقد عرفت بحدوث المعارك الأولى بين قبيلتي الموالي والحديدين ، حينما نشبت الفتنة بينهما في سنة ١٣٣٩ هـ ، وانتقلت إلى أماكن أخرى ، وامت البلوى منها ، ودامت إذ ذاك سبع سنوات ، وبعد أن أطفئت عادت تخبو نارها تارة ، وتشب أخرى ، لاسيما كلما وجدت من يوقد شرارها .

والبلعاس يبتدئ من قرب عقيربات ، ويقف حاجزاً بين فيافي البادية وأرياف الحاضرة . وهو مؤلف من آكام وهضاب متسلسلة ، يتخللها أودية تختلف بعرضها وعمقها ، وطوله من الشمال من مكان يدعى حسو الرمل ، إلى آخر في الجنوب يدعى الفايا ، شرقي كورة حمص ، نحو خمسين كيلو متراً . وعرضه من جوار عقيربات السويد ، إلى صرة أبي الظهور أربعون كيلو متراً . ويتصل البلعاس في شرقيه بسلاسل من الجبال المائلة له ، تمتد من الغرب إلى الشرق ، إلى قرب قرية السخنة ، وتدعى بأسماء مختلفة كأبي الظهور ، وفيه موقع يدعى الشفا وشاعر ، وشطب والمرأة ، وأبو رجين وأبو حية ، والأبيض ، وهذا يشرف على طريق حمص وتدمر . ويختلف علو هذه الجبال بين ١٠٠٠ - ١٤٠٠ متر ، بينما السهول الناشرة قرب سفوحها لا تتجاوز خمسمئة متر . وفي هذه الجبال أشجار قديمة عظيمة

من البطم ، الذي ينفع بحطبه ، وعصير ثمره ، المشابه لزيت الزيتون ، وباستعداده للتطعيم بالفستق ، وفيها لاسيا قرب عقيربات ، قليل من شجر السويد الذي نسبت إليه ، وهذا ليس منه سوى الخطب . وتدل ظواهر هذه الأشجار على أنها كانت في الماضي كثيفة ، وكان البلعاس وما زال أغناها بذلك . إلا أن يد القطع والاستئصال ، نالت منها ويا للأسف وبعدت المسافة بين الشجرة والثانية مئات من الأمتار ، وما برح أهل سلمية وعقيربات وضواحيها ، يقطعون أحطاب هذه الأشجار ، وينقلونها على عجلاتهم وحمالهم ، ويبيعونها في حمص وحماة وسلمية ، ناهيك عما تحرقه الأعراب ، الذين ينزلون فيه في فصل الشتاء ، أو يملكون به أثناء التشريق والتغريب ، مما يقدر مجموعه في كل عام بأربعين ألف قنطار ونيف ، وقد خلا معظم الهضاب الغربية في البلعاس من أشجاره ، بسبب هذا القطع المستمر ، ولا رادع ولا وازع ، وسوف لا يميضي على ما رأيت عشرون سنة ، حتى يتجرد هذا الجبل الجميل من أشجاره بالكلية ، كما تجرد جبل الشومرية وجبل قلمون ، وغيرهما من جبال الشام ، فاختلف نظام الأمطار وتوالت أعوام المحل من جراء هذا التجريد والتخريب .

ذكر ياقوتُ البلعاسَ ، فقال « أنه كورة من كور حمص » ، وكان عرف الكورة في مقدمته ، بأنها كل صقع ، يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة ، أو نهر يجمع اسمها . فهل كان هذا الجبل عامراً في عهد ياقوت وما قبله ، حتى سماه كورة ؟ لا جرم أن المتجول في هضاب البلعاس وشعابه ، وفي الجبال المجاورة له التي عددناها ، يجد خرباً ورسوماً كثيرة ، تعد بالمئات ، لاتزال أطلالها ماثلة ، بعضها يشبه المخافر ، لوقوعه في ذروات مشرفة على المنافذ والمسالك ، وبعضها يشبه الدساكر والضياع ، أشهرها أم قبيبة ورسم التنباك ، والتركانية وحميات ، ودييس وجب العمارة ، وحويسيس والقسطل ، وبستان صبيح والمسكرة . وغالبا يحتوي على صهاريج مندثرة ، شيدت وطلبت بما يضبط الماء ، وسلطت عليها المجاري الآتية بمياه الشتاء ، مما يثبت أن هذه الجبال المقفرة في يومنا ، كان بعضها إن لم يكن كلها ، أهلة في العصور الغابرة ، وذلك على الرغم من أنها محرومة بالكلية ، من الينابيع المتفجرة ، في حين أن صخورها رسوبية جيوية بيضاء ، وهذا مادعا سكانها القدماء ، لحفر تلك الصهاريج وتشبيدها . بيد أن (ياقوت) لم يزدنا إيضاحاً كما أن غيره من جغرافيين العرب ، ونخص بالإشارة أبي الفداء لم يذكروا عن كورة

البلعاس شيئاً ، لذا غرض علينا مبلغ العمران الذي وصلت إليه ، وعدد السكان ، وحسبهم ونسبهم ، ومعاشهم أكان من الاحتطاب وعصر ثمر البطم ؛ أم من غيرها أيضاً ، وما سبب خراب هذه الكورة ، وزمنه أكان قبل الفتح الإسلامي أم بعده ، في بدء عهد العباسيين ، كما نقله الصابوني في (تاريخ حماة) دون أن يذكر المصدر ، أم بعد عهد ياقوت في القرن الثامن ، حينما خربت سلمية وضواحيها ، بيد الأعراب أبناء وأحفاد عيسى بن مهنا .

هذا وقد اعتادت أعراب ديار سلمية وحماة والمعرة ، الذين تقدم ذكرهم ، وأخصهم الموالي ، أن تنزل في فصل الشتاء في البلعاس والجبال المجاورة له ، وذلك في الحرب الدائرة التي ذكرناها ، وبعض القبائل تمر بها في طريقها إلى البادية (الحماة) ، أو الحاضرة (المعمورة) ، خلال التشريق والتغريب ، وهم يرغبون في الإرعاء في هذه الجبال ، لصلاحها للغنم والمعز التي تتسلق الأشجار ، وتتغذى بأوراقها قبل هطول الأمطار ، واخضرار الأرض بنبات الربيع . ولهذا دعيت مثل هذه القبائل في كتب الأقدمين بأهل الشجر ، لمكوئها أو مرورها بالجبال الشجرية ، على حين أن أهل الوبر أي أصحاب الإبل ، العريقين بالبادية ، كقبائل عنزة ، تبتعد عن البلعاس ، لضرر أشجاره بالإبل التي تحتك بها وتصاب بالجرب ، وتبتعد خاصة عن جبل شاعر الذي زعموا أن في سفحه (أو شليله كما يقولون) عشب صغير ، ينمو بين غيره من النبات في الربيع ، إذا أكله البعير يصيبه وهن ، أشبه بالهزيمة ، وقد يبقى فيه كامناً إلى أواخر فصل الصيف ، ولا يؤمن من ظهوره في البعير حتى يشرب ماء السماء (أي أن تمطر) .

وفصل الربيع في هذا الجبل جميل ، يستهوي غواة المعتزلات القفراء ، والأودية الشجرية ، والهضاب الغضراء ، لاسيما بعد أن يورق البطم وتنمو الأنجم والأعشاب ، وهي هنا تقترب بوفرتها وتنوعها ، لما في الجبال الغربية ، وبعد أن تمتلئ صهاريجها وحواريها ، بمياه السيول والأمطار ، وتزدهي سفوحه وأوديته ، بمضارب العربان ، ويرن فيها ثغاء الغنم والحملان ، وتكثر الزبد والألبان . وبعض أوديته واسعة الرقعة ، خصبة التربة ، حمراء اللون ، صالحة للاستغلال ، لا ينقصها إلا الأمن واليد العاملة . ويذكر أن في جبل شاعر ، أرضاً تدعى مسعدة شاعر ، تشبه كورة العلا ، بالنشوز واحمرار التربة ، وسعتها وخصبها ، وأن في الجبل الأبيض على مقربة من تدمر ، مقطع للخرام الأبيض ، وفي غربي المنهل

المعروف بالجحر ، صخر أحمر يعرف بمقطع المرو ، وأن في جبل المراء أيضاً مقطع آخر يماثلهُ . وإذا لم تكف مياه الصهاريج والحوايا في هذه الجبال ، يرد الأعراب الآبار ، الموجودة في السهول الممتدة في شماليها أو شرقيها ، أو جنوبيها كأبار أسرية والقصير ، وأبو الفياض وأبو النيتل ، والتوينات والكديم ، والهبة وقواعد ، وجب الرمان وجحر ، وعين البيضاء وأبو الرغوية ، ومخلف وحفار الجواد ، ومياه الآبار الثلاثة الأخيرة مرة .

قصر ابن وردان : من يقصد قصر ابن وردان عن طريق الحراء ، يغادر سلمية نحو الشمال ، فيرى على يساره ضريح الشيخ فرج ، الذي تقدم ذكره ، ومرجاً أفيح ، يدعى مرج الخصيبة ، كان ولا يزال منزل أعراب هذه الديار ، كما أن بعض الملوك والأمراء ، الذين كانوا يأتون للاستيلاء على سلمية أو حماة ، ينزلون بجيوشهم فيه . منهم (سيف الدولة بن حمدان) في سنة ٣٤٤ هـ ، لما جاء وحارب الأعراب الذين ثاروا عليه كما قدمنا ، والملك المعظم (عيسى بن العادل بن أيوب) ملك دمشق لما جاء في سنة ٦٢١ هـ لخاصرة ابن أخته الملك الناصر ملك حماة ، ثم أخوه الملك الكامل ملك مصر ، لما جاء في سنة ٦٢٦ هـ ، لخاصرة الملك الناصر المذكور أيضاً ، ثم تهورلنك طاغية التتر في سنة ٨٠٣ هـ ، جاء إلى هنا ، بعد أن خرب حلب ، وبعث بفرقة من جيشه لتخريب حماة وقلعتها ، ثم قصد دمشق . ويرى السائر قرية تل أعدا ، وكانت مقر الأمير (مهنا بن عيسى) الذي تقدم ذكره ، وفي شرقيها ذيل العجل ، وفي شماليها تل سنان ، وأهل هذه القرى الثلاث في يومنا شركس .

وفي غربي تل أعدا بطيخة صغيرة ، يحصل فيها ملح ناصع البياض ، لولا أنه قليل المראה ، ينشأ من توافد مياه القني وسيول القرى المجاورة في الشرق والشمال ، في فصل الشتاء واجتماعها في هذه البطيخة ، التي في قعرها معدن الملح . ويقدر أن كمية ما يمكن أن يجنى منها في السنة بخمسة آلاف قنطار ، لولا أن الحكومة مانعة ذلك منعاً باتاً ، وقاية للملح الجبول . فيقوم بهذا المنع حراس مدة فصل الصيف ، إلى أن تفسد السيول المذكورة ، وتذيبه وتحمله ، إذا فاضت إلى مرج الخصيبة ، فعين الزرقاء ، فالأودية الزاهية إلى العاصي .

هذا والسائر نحو الشمال ، يلمح على يساره هضاب كورة العلا ، التي تقدم ذكرها ،

ويعرّيا ضياع منها على يمينه : حصين والبويض ، واللالا والربيعية ، وعلى يساره : الدوسة وخنيفس ، والشهب والشهبا والرحية . وفي شمالي الرحية هضبة عالية ، فوقها قلعة قديمة خراب ، تدعى (قلعة الرحية) ، لعلها من الحصون التي شيدها الرومان ، على طرف البرية ، لمنع البادية من العيث . يصل إليها الصاعد من طريق في غربيها ، فيرى بابها الذي لم يبق منه سوى عضادتيه وعتبته . وفناء هذه القلعة رحب ، لا يقل عن نصف هكتار ، كان حوله سور ضخم ، بقيت منه أسسه ، وفي وسطه أطلال دارسة ، وأحجار وأعمدة مبعثرة ، وكلها من الحجارة الحرية السوداء ، ويثر ذات فوهة واسعة ، مردومة ، على أن العمق الظاهر منها لا يقل عن الخمسين متراً .

وبعد خمسة كيلو متر من قلعة الرحية ، يصل السائر إلى ثكنة الحمراء الخراب ، وهي من عهد السلطان عبد الحميد ، أقام فيها جنوداً ، يربون المهار المعدة لفرسان الجيش في المرج الأفصح الذي في غربي الثكنة ، ويحفظون هذه البراري والضياع القائمة فيها ، وكلها كانت من أملاك هذا السلطان الخاصة ، ثم انتقلت بعد خلعها في سنة ١٣٢٧ هـ إلى بيت مال الدولة العثمانية ، وبعد أن زالت هذه الدولة عقيب الحرب العامة في سنة ١٣٣٧ هـ ، صارت من (أملاك دولة الشام) . وهذه الأملاك كثيرة ومنتشرة في شرقي حلب وجنوبيها ، في أقضية جرابلس ومنبج ، والباب وجبل الأحص ، ومطخ قنسرين وقد تقدم ذكرها في أبحاث هذه البقاع ، وفي شرقي الحمراء وسمية وحمص ، وهي تعد نحو ثمانية قرية وضعية ، يقطن ما كان منها في الشمال ، حول حلب والحمراء ، أعراب من قبائل وبطون شتى ، ويقطن ما كان منها في الجنوب ، شرقي سلمية وحمص ، قليل من الإسماعيلية وكثير من النصيرية . وقد كانت هذه القرى والضياع في زمن هذا السلطان ، عزيزة الجانب ، ينعم فلاحوها بأحسن أمن وأجل رعاية ، لأنه منع عنها عيث البادية ، بفضل الثكنات والخافر التي وضعها على حدود الحاضرة - كثكنة الحمراء وثكنة جب الجراح في سفح جبل الشومرية شرقي حمص ، ومخافر سعن الشجرة وتل الأغر ، وعقيربات السويد والفرقلس والمخرم - وأعفى فلاحيه من الجندية ، والتكاليف الأميرية وغيرها ، فعمرت إذ ذاك هذه القرى والضياع ، بعد أن ظلت خراباً بضعة قرون . وما أن خلع هذا السلطان ، حتى تضاءلت تلك الرعاية ، وما زالت تتضاءل ، حتى فقدت بالكلية ، بعد أن ألغيت إدارة هذه الأملاك في سنة ١٣٥٢ هـ ، وأفل نجمها وساء حال فلاحها . ولما تقلص ظل الدولة

العثمانية من ربوع الشام ، ونشبت فتن قبيلتي الموالي والحديديين ، خربت ضياع الحمراء ، وجلها مما يقطنه أفناد هاتين القبيلتين ، وما أن يصطلحا ويرجع الجفال إلى مواطنهم ومزارعهم ويعمروها ، حتى تنشب الفتنة ثانية ، فتعود للخراب وهكذا دواليك .

وفي القسم السالم من ثكنة الحمراء ، أقاموا في يومنا مخفراً فيه بضعة جنود من الدرك ، يعززونهم بقوة كافية عند اللزوم ، وثمة حوش شبه الحظيرة لرجل حموي ، يستغل قسماً من مرج الحمراء بالحرث والزرع ، ويعمل مثله فلاحو قريتي الحمراء ورأس عين الحمراء المجاورتين .

وبعد مغادرة ثكنة الحمراء ، يتجه السائر نحو الشمال الشرقي ، فيرى على يمينه من الضياع ، اللالا وجناة الصوارنة - وأصل أهلها من صوران التي تقدم ذكرها في بحث كورة العلا - والشيحا ، وعلى يساره : تل محصر ومويلح الصوارنة ، وأبو عجوة فقصر ابن وردان ، الواقف وسط هذه البراري الشاسعة ، كأنه رمز العظمة والخلود .

لما تسنى لي زيارة هذا القصر ، وخربة الأندرين في خريف سنة ١٣٤٥ هـ ، ورجعت إلى دمشق أنقب في كتبنا العربية ، لعلي أجد ذكراً لها ، لم أعثر إلا على بضعة أسطر عن الأندرين ، قالها ياقوت في معجمه ، سأقلها في موضعها ، أما قصر ابن وردان فلم يذكره ياقوت ولا غيره . فاضطرت إذ ذاك ، لسؤال المرحوم الأب (لويس شيخو) اليسوعي ، فأجابني في مجلة المشرق (عدد نيسان سنة ١٩٢٧ م) « أن أول من وصف قصر ابن وردان الأستاذ (موردقمان) في (المجلة الأثرية الكتائية الألمانية) المطبوعة في النمسا سنة ١٨٨٤ م ، ثم عاد بعده غيره من السياح كـ (أوستروب وهرتمان ، وفون اوبنهايم وستريغوفسكي) ، فوصفوه ونشروا صورته . على أن هذا الوصف قد جاء واسعاً مستوفٍ ، مع نقوش وتصاوير بديعة ، في منشورات البعثة الأميركية في جامعة (برنستون) بالإنكليزية ، في القسم الثاني المطبوع في ليدن في هولاندة سنة ١٩٢٠ ص ٢٥ - ٤٥ ، ووصفت خربة الأندرين في الكتاب المذكور ص ٤٧ - ٦٣ » اهـ . قلت : لم أتمكن من الاطلاع على المجلة والمنشورات التي ذكرها الأب شيخو ، ولعل الخلاصة الموجودة في الدليل الأزرق لـ (مورقمارشة) مأخوذة عنها ، فجعلتها عمدي في بيان مايلي :

يتألف هذا القصر من ثلاثة أبنية ، لاتماثل قط بقية المباني التاريخية ، في بلاد

الشام ، وتعزى مكاتنها على ماقاله الأثريون ، إلى أن بناءها ، وخاصة امتزاج الأحجار وألواح الآجر ، يختلف عن الطراز المعروف في فن البناء الشامي ، ويقترب من طراز المباني الملوكية في القسطنطينية في عهد (يوستنيانوس)^(١) ، ويرجحون أن بانيها المهندس (إيزيدور) ، وشبه دوسو هذه الأبنية من حيث التركيب ، ومزج المواد ، لما في قصر المشتى في شرقي الأردن .

والأبنية الثلاثة ، تشمل كنيسة كبيرة ، ثم قصرأ عظيماً ، وكان كلاهما حينما زرتهما سالماً بعض السلامة ، وثمة بناء عسكري واسع ، خراب بالمرّة ، ولعله كان ثكنة . وأجل هذه الأبنية القصر ، وهو واسع الأركان ، ذو طابقين عاليين ، في الأول منها أروقة طويلة ، كل منها مؤلف من صفين من الغرف ، يتصل بعضها ببعض . وقد شيد هذا القصر ومثله بقية المباني بالأحجار الحرية السود ، وبألواح من الآجر كبيرة صفراء ، غاية في الصلابة والجودة ، ودعمت بملاط قوي . وثمة أحجار جيرية بيضاء ، وأعمدة من الرخام ، بنيت بها الأقسام الداخلية ، وعلى عتبة أحد أبواب القصر ، كتابة يونانية تاريخها ٥٦١ ميلادية ، وأخرى في موضع ثان ، تاريخها ٥٦٤ م في عهد الأمبراطور (يوستنيانوس) . وقد تداعى معظم جدران الطابقين والأقسام الداخلية ، وتقضت الأحجار والأعمدة ، ولم يبق في الطابقين سالماً إلا الواجهة الجنوبية ، وبعض الأهاء ذات القباب وبعض النوافذ ، وبقي في الواجهة الغربية قسم من القباب ، وعضادتان ضخمتان ، إحداها مزدوجة ، فالقصر في الجملة (أخفى عليه الذي أخفى على لبد) . أما الكنيسة فقد كانت ذات بناء عظيم ، له رواق فوقاني ، ذو ثلاث قناطر يشرف على داخلها . وكان على الكنيسة قبة

(١) دام حكم هذا الأمبراطور من سنة ٥٢٧ إلى ٥٦٥ م ، وكان كثير السهر ، شديد الريبة من حاشيته ، فتح فتوحات عظيمة ، وأخضع ممالك الشرق والغرب ، التي كانت على وشك الانفصال عن بلاده ، وأعاد مجد الرومان ، وكان يقدر العدل والنظام ، أمر بجمع زبدة الشرائع الرومانية السابقة ، وحشرها في قانون واحد دعاه باسمه ، وكان عمرانياً ، شيد كثيراً من الحصون ، وقناطر الماء والحمامات ، والمستشفيات والديارات ، والكنائس والقصور الفخمة ، أجلها وأعظمها كنيسة (أياصوفيا) في القسطنطينية ، بناها له المهندس الآسيوايان (إيزيدور وأنتيوس) ، - وفي الشام ينسب إليه أسوار منبج ، وقصر ابن وردان ، ودير سيدة صيدنايا ، ولعله بنى غيرها أيضاً - إلا أن تلك الحروب العظيمة والمباني الجميمة ، أثقلت كاهل الشعب الروماني وأضعفته ، ولما مات (يوستنيانوس) لم يؤسف عليه ، وسع بلاده وعمرها ، لكنه ابتز ضرعها ، وغادرها فقيرة بالأنفس والأموال . (عن تاريخ العصور الوسطى لماله وإيساق الإفرنجيين) .

عالية ، ركبت على قناطر ، تستند على دعائم ضخمة ، ولا تزال بعض جدران طابقتها التحتاني ، والرواق الفوقاني ، وقسم من نصف القبة ، وقنطرتها الكبرى ماثلة ، وصحن الكنيسة متطاوّل ، ينتهي بحنية مدورة ، وثمة صحن تالية ، تمتد في كل جانب . والثكنة التي خرب معظمها ذات شكل مستطيل ، وكان لها سوران ، بينها غرف ذات قبب ، وفي داخلها فناء رحب ، في وسطه بناء عال ذو طابقين ، وقبب عديدة . ولا يمكن للزائر أن يميز في هذه الثكنة ، إلا باب مدخلها الكبير ، وهو في شمالها ، وعلى أعتبته كتابة كبيرة ، والزاوية الشمالية الشرقية للسور الخارجي ، وبضعة أقسام من البناء المتوسط .

ومن الغريب أن هذا القصر الفخم المبني قبل الإسلام لم يذكره أحد من جغرافيين العرب ، ولا ياقوت الذي ذكر قصوراً عديدة أقل منه شأنًا ، لذا فقد غمض علينا معرفة ابن وردان ، الذي نسب إليه هذا القصر ، وفي أي عهد كان ، ومن رفه فيه وبذخ ، ثم متى وكيف بدأ خرابه ، وقد قيل إن معظم ذلك حدث في عهد السلطان عبد الحميد ، حينما أمر بإنشاء ثكنة الحمراء ، فنقلت الجنود أحجاره إليها ، ثم أجهز الجوار على ما بقي ، حتى أصبح على ما وصفناه ، وهم مازالوا على هذا الإجهاز دائبين ويا للأسف . ومن الغريب أيضاً أن عمال (يوستنيانوس) الذين بنوا هذا القصر وتوابعه ، كيف انتقوا هذه الأماكن النائية عن حماة نحو ٦٠ كيلومتراً ، وعن سلمية ٤٦ كيلومتراً ، وعنوا بحسن هندستها وزخرفها ، أكان ذلك لجمال هذه البراري ، وهي في يومنا أشبه بالفلوات ، لخلوها من الخضار والأشجار ، قل أن استتب فيها الأمن في العصور الغابرة ، إن غلّت سنتين أو ثلاث بارت سنين ، وما زال هذا شأنها حتى يومنا إلاً قليلاً ، أم لعمران القرى التي حولها ، وكلها الآن ضييعات حقيرة ، لاتدل رسومها وآثارها على أنها كانت من الكبر بحيث تستحق وجود مثل هذا القصر ومشتلاته ؟ ذلك أمر جدير بالبحث ، ليس لدينا مجال لبسط القول فيه . هذا وعلى مقربة من القصر ، ضوينة ذات قباب ، يعمل أصحابها على إخراج قنّاة قديمة في أراضيها ، وثمة في الأطراف من الضييعات رسم الورد ورسم عيزى ، وأبو خنادق وأبو عجوة ، والشيحا والعطشانة ، والمنطار وخربتي المصيطبة والثروت .

الأندرين : السائر من قصر ابن وردان إلى الأندرين ، يجتاز نحو الشمال الشرقي ٢٥ كيلومتراً ، جلها منبسطة محصاة ، وتلعات يكثر فيها الشيخ والقيصوم والروثة ، وغيرها

من نباتات البادية ، ويتخللها أودية فيها زروع ضئيلة ، قليلة المساحة لبعد هذا الربوع وضعف زراعتها ، وهم من الصعاليك الأعراب ، ويرى السائر في طريقه خرائب ورسوماً لا يحوي جملها إلا قليلاً من الخيم أو القباب ، منها على اليمين : رسم الورد ، وعلى الشمال : رسم عيزى والخطابية ، والجنيينة والحنية ، وتفاحة وحومي ، إلى أن يوافي الأندرين . تقع هذه البلدة الخراب وسط برية منبسطة شاسعة ، يحدها شمالاً جبل الأحص الذي تقدم وصفه (في الصفحة ٢٠٩) ، وغرباً ممالح وبطائح ، تمتد إلى قرية خرايج الشحم ، والسلاليل المتاخمة لكورة العلا الشمالية ، وشرقاً البادية المترامية الأطراف نحو دير الزور وما وراءه ، وجنوباً السباسب التي تنتهي عند أرياف قصر ابن وردان وسعن وسعين ، أوسعن الشجرة وبغيديد ، وهذه ورد اسمها في (صبح الأعشى) للقلقشندي في ذكر طريق جعبر ، وفي (معجم ياقوت) وقد عدها من قرى حلب .

وإليك ما قاله ياقوت عن الأندرين : « أندرين اسم قرية في جنوبي حلب ، بينهما مسيرة يوم ، للراكب في طرف البرية ، ليس بعدها عمارة ، وهي الآن خراب ، ليس بها إلا بقية الجدران وإياها عني عمرو بن كلثوم بقوله :

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خور الأندرينا

وهذا مما لاشك فيه . وقد سألت عنه أهل المعرفة من أهل حلب ، فكل وافق عليه ، وقد تكلف جماعة اللغويين لما لم يعرفوا حقيقة اسم هذه القرية ، وألجأهم الحيرة ، إلى أن شرحوا هذه اللفظة من هذا البيت بضروب من الشرح . إلخ .. » اهـ . قلت : وقد أتيت لي في خريف سنة ١٢٤٥ هـ ، زيارة هذه البلدة البيزنطية ، التي ما برحت خراباً يباباً منذ الفتح الإسلامي على ما يظن ، وتجولت بين كنائسها السبع ، وأطلتها ورسومها التي ما برح بعضها ماثلاً ، وبعضها هدم وأصبح ركماً أو طمرت تحت الرمال السافيات . ولما لم أجد في كتبنا العربية بحثاً عن الأندرين ، سوى ما نقلته أنفاً عن ياقوت ، وهو لا ينقع غلة من الناحية الأثرية ، رجعت إلى كتب مستشرقى الإفرنج ، فوجدت (موغارشة) في دليله الأزرق يقول :

« الأندرين وكان اسمها قديماً Androna بليدة ، تمتد أحيائها ومبانيها في ساحة

كبيرة ، لم يبق منها الآن سوى الأنقاض المركومة ، والأطلال المهدومة ، وجعلها من الحجر الحري ، وبعضها من الآجر المشوي . وهذه الأنقاض والأطلال تدل على أن الأندرين كانت بليدة بيزنطية مسورة ، لاتزال خططها ماثلة ، كما كانت حينما هجرها قطانها ، في عهد نظنه عهد الفتح العربي^(١) . وحينما يقترب السائح من هذه البليدة ، يرى أبنية تشبه الأبراج ، شيدت بالحجارة الحرية السود ، تظهر منفردة أو مجمعة في أحياء مختلفة ، وكانت هذه الأبراج في زوايا جدران المباني العظيمة ، التي أضحت أنقاضاً مركومة . أما المباني التي لاتزال أنقاضها كثيرة فهي الثكنات ، وهذه جدران طوابقها السفلى ، ما برحت قائمة ، على أنها مدفونة تحت أنقاض الطوابق العليا ، ثم كنيسة عظيمة ولعلها الكاتدرائية ، ثم كنيسة في جنوبي البلدة يحيط بها جدار ثخين ، ثم خزان ماء جسيم . ولا يزال ثمة كيانات عظيمة من أنقاض المباني ، التي شيدت بالآجر المشوي ، يصعب البحث عنها ، وهناك كنيسةستان متجاورتان ، مخصصتان إلى الملائكة العلويين ، وأخرى قرب الجدار الشرقي ، وواحدة أصغر في الجنوب الشرقي من الثكنات ، ومذبحان أحدهما مربع الشكل ، كان له قبة والثاني كان مستطيلاً ، وتجاه الثكنات بناءان لم يشيدا على مخططات منتظمة ، أحدهما تظهر فيه غرفة مدورة ، وأخرى متطاولة ، منتهاهما على شكل نصف دائرة ، مما يدل على أنه كان حماماً . وثمة كثير من الخرائب ، وأنقاض الدور الخاصة ، كان معظمها على ما يظهر مبنياً حول فناء رحب ، وفي بعض هذه الأبنية أحواض محفورة . وثمة أيضاً طريقتان ، أحدهما من الشمال إلى الجنوب ، والثاني من الشرق إلى الغرب ، كانا يتقاطعان في منتصف هذه البلدة . وسور الأندرين لا يزال سالماً في كثير من الأماكن ، وتظهر منه أبراج مربعة عادية وأبراج مزواة . والسور مبني بأحجار ضخمة ، مستطيلة الشكل ، وقد دعموه بعضائد في كل ٣ - ٤ أمتار .

والثكنات تؤلف في وسط المدينة بناء مربع الشكل ، يبلغ طول إحدى واجهاته ثمانين متراً ، تم هيئته على أنه مكان عسكري . ولهذا البناء مدخل واحد في الجهة الغربية ، وأبراج مزواة سداسية الأضلاع ، وأخرى مربعة في وسط الجهات الشمالية

(١) هذا الظن خطأ . وصحيحه أن المجر والخراب حصل قبل ذلك في أواخر العهد البيزنطي ، كما قدمناه في بحث سامية (ص ٢٧١) .

والغربية . وفي وسط الفناء الواسع في هذه الثكنة ، شيدت كنيسة أبعادها ٢٠ × ١٥ متراً . والكاتدرائية وهي كنيسة الأندرين العظمى ، موجودة في الجهة الجنوبية الغربية من الثكنة ، قرب المصلبة التي يلتقي فيها الشارعان الكبيران ، وأتقاضها الباقية تجعلنا نضعها في مصاف النماذج المدرسية للكنائس العظمى ، لها صحن متوسط عظيم ، منفصل عن الأجنحة الجانبية بثلاثة أقواس محمولة على عضادات متطاولة . والحنية ذات خمس نوافذ ، وقد هدم معظمها ، ولم يبق منها إلا جدار الشماسة ، وجداران آخران مع قسم من الصحن المنحني الذي كان بينهما . وأكثر مباني الأندرين سلامة ، هي الكنيسة الجنوبية ، كان كلها مبنياً بالحجارة إلا سقفها فمن الخشب ، وما خلا ذلك كان حول الكنيسة سور خاص ، مبني بالحجر ، مع دعائم وأبراج ، مما يدل على أنها كانت كنيسة محصنة ، مشيدة وسط البلدة ومرتمس هذه الكنيسة يشبه الكاتدرائية ، لولا أن الحناء الحنية لا يمكن أن يرى من الخارج ، وليس فيه سوى ثلاث نوافذ . ولا تزال الحنية قائمة مع الغرف الحانبية حتى الطابق الأول ، وكذلك دعائمها ، ولكن نصف القبة قد زال بالكلية ، أما القسم الأعظم من الجدار الشمالي فلا يزال سالماً ، وكذلك قسم من الجنوبي والزوايا الغربية للصحن . والدعائم المتصلة في المنتهى الغربي لهذه الكنيسة محفوظة ، لكن الجدار والأبراج الغربية خربت بالكلية ، وقد بنوا تجاه الغرفة الجانبية الشمالية بناء لا يزال سالماً ، يظهر أنه كان ضريحاً وخارج الكنيسة مستطيل ، أما داخلها فعلى شكل الصليب .

وفي جنوبي الأندرين وخارج أسوارها خزان ماء مربع الشكل ، طول كل ضلع فيه ٦١ متراً ، مبني بأحجار الجير ، بعضها ذو نقوش ورسوم رومانية ، وعمق الخزان لا يربو على الخمسة أمتار ، ولعله كان يبلغ السبعة إبان مجده ، والقسم الأعلى من الكورنيش ، يؤلف ممشى عريضاً ، يدور حول الخزان كله ، وفي خارجه صف من الأحجار الضخمة ، مربعة الشكل ، جعلت لمنع مياه السيول من النفوذ إلى الخزان « اهـ . قلت : ويصل الماء إلى هذا الخزان من قناة غطي قسمها القريب من الخزان ، بأحجار منحوتة ضخمة ، وهي تأتي من الجنوب الشرقي من أراضي رسم يدعى أم أميال الشرقي ، عمرته من عهد قريب جالية من إسماعيلية القدموس ، وتتصل هذه القنوات بأخرى ترد من أرض رسم آخر يدعى أبو الغر ، يقع في شمالي سعن وسعين ، وربما بلغ طول القناة الأولى عشرة كيلومتر ، وفي شمال الأندرين إلى الغرب خزان ثان لم يذكره (مونارشه) تصل إليه الماء من قناة آتية من رسم

المقطع الواقع في جنوبي الأندرين للغرب ، وتتصل هذه أيضاً بأخرى ترد من الغرب ، إلى ضيعة تدعى التفاحة ، وربما زاد طول القناتين على السبعة كيلومتر .

والأندرين تتبع قضاء معرة النعمان ، المرتبط بولاية حلب . وقد كان أحد الحلبيين أحيا قبل الحرب العامة قسماً من أرضها الموات ، وبني في شمالي الخربة حوشاً فيه قباب عديدة ، وشرع بالاستثمار ، إلا أن شداًد تلك الحرب الطاحنة ، وكثرة مرور غزاة البادية من هذه الربوع النائية ، اضطرتته إلى ترك العمل . وفي سنة ١٣٤٦ هـ جاء أناس من نصيرية جبال اللاذقية ، وشرعوا باستثمار أرض الأندرين ، وفتح قنواتها ، وتنظيف دورها الخربة ، وتكبدوا أتعاباً ونفقات جمة ، إلا أن جشع ورثة ذلك الحلبي ، وتوالي سني المحل ، وفقدان المعونة من أولياء الأمور ، فتّ في عضدهم ، فعادوا أدراجهم ، وهكذا ضاع الأمل برجوع العمران إلى هذه البلدة ، التي ما برحت منذ أربعة عشر قرناً خاوية على عروشها ، ولا يعلم إلا الله ما إذا كان يرجع إليها في المستقبل .

ويظهر أنه كان في الأندرين كروم واسعة جيدة ، تنتج خموراً طيبة ، مشعشة تحمل إلى الأقطار البعيدة ، ومنها الحجاز فيتغنى بها شعرائه ، أمثال عمرو بن كلثوم في معلقته . ولا غرو فأرض الأندرين المستوية الرملية ، الكلسية الصفراء ، صالحة لإنبات الكروم وغيرها ، إذا توفرت لها مياه الري في مستهل حياتها ، أو جاءها في كل عام مطر يزيد مجموعته على ما يهطل في عهدنا ، في هذه البراري النائية . فهل كانت هذه الشروط متوفرة حينما دعا العمران ورغد العيش ، لإشادة تلك الكنائس والثكنات ، والحمامات والأبراج ، والقصور والدور ، والخزانات والقي ؟ . وأين غاضت تلك المياه ، وكيف قل تهطل الأمطار ، أيكفي استئصال الحراج ، وتجريد الجبال من نضرتها ، لحدوث هذا الشح في سماء الشام ، وتوالي أعوام المحل ، التي صرنا نشهدها في عهدنا ؟ .. تلك أسئلة تحتاج إلى كثير من التفكير ، لا يتسع المجال لخوضها .

ومن الغريب أن يخلط (البستاني) صاحب دائرة المعارف ، بين هذه الأندرين التي حقق ياقوت موقعها بجلاء ، وبين أندرين أخرى ، خارج حدود الشام الشمالية ، كان في عهد الترك مركز قضاء يتبع ولاية حلب ، وبقيت الآن في حوزتهم ، وأن ينسب بيت عمرو بن كلثوم إليها .

ومما يجدر ذكره حول الأندرين إيسرية - بكسر الألف والسين - وهي تبعد عن الأندرين إلى الشرق نحو ٣٥ كيلومتراً . وهي أيضاً قرية خراب ، ذكرها ياقوت أنها « موضع بين خناصره وسلمية ، وتسميه العامة سورية » . وصوابه أن يقول إيسرية ، وقد أخطأ أيضاً بظنه ، أن اسم سورية الذي كان يطلقه الروم على بلاد الشام خاص بهذه الخربة . وفي إيسرية أبار ، يرتادها الأعراب في تشريقهم وتغريبهم ، وأطلال لا يستهان بها ، وصفها (موناشرشة) في الدليل الأزرق قائلاً : « إيسرية واسمها القديم Seriane ، تشرف على الطريق الآخذة من الرصافة (رصافة هشام) إلى سلمية . وليس أدل على مقدرة البشر ، على عمران بادية الشام ، من وجود المعبد الروماني الجميل ، الموجود بين خرائب إيسرية . فقد قام هذا المعبد فوق نشز ، طمرت تحته الأنقاض المركومة لهذه البلدة ، ففي جداره الشرقي باب عريض عال ، غاية في الزخرفة له أفريز ذو زهور ، وزوافر على طرفي العتبة ، وفوق الباب قوس واسعة وهي مزخرفة أيضاً . وفي كل من أطراف المدخل بناء مربع يشبه البرج ، فالذي على اليمين يحوي درجاً حلزونياً يصل إلى سقف المعبد ، والجدران الجانبية القوية في المعبد ، دعمت في الخارج بعضائد ، وطرارز هذه المباني وزخارفها ، تدل على أنها بنيت في القرن الثالث أيام كانت بعلبك في سؤدها » اهـ .

وثمة في شمالي إيسرية بينها وبين جبل الشبيث المناوح لجبل الأحص - وقد تقدم ذكرها في الصفحة ٢١١ - عين تدعى عين الزرقاء ، وبالقرب منها الحمام ، وقد ذكرها ياقوت قائلاً : « الزرقاء بين خناصره وسورية - وصوابه أن يقول إيسرية ، ولعل ذلك من خطأ النساخ - من أعمال حلب وسلمية ، وهي ركية عظيمة ، إذا ورد لها جميع العرب كفتهم ، وبالقرب منها موضع يقال له الحمام ، وهي حمة حارة الماء » اهـ .

طريق حماة - الرستن

(٢٤ كيلومتراً)

بعد أن يصعد السائح من وادي حماة ، يسير قبلة في سهول شاسعة ، ذات تربة حمراء ، تمتد غربي العاصي ، فيرى على يساره قبة فيها ضريح الشيخ مهران ، (؟) كانت حولها قرية تدعى (النقارين) ، دثرت في القرن الحادي عشر ، وجلا أهلها إلى حماة ، ذكرت في (صبح الأعشى) . ويرى في غربي حماة قرية (الرقطة) ، ويلمح في الأفق الغربي جبال الكلبة ، ويرى على يمينه سكة الحديد ، وبينها وبين طريقه - التي أصبحت الآن معبدة أحسن تعبيد - عدة قرى ، كالخالدية وكفر بهم ، وأيوو وبسبرين ، ويرى على يساره : جبلاً صغيراً جرداء قائمة ، منها أكمة قرنة الجبل (٤٤٠ متراً) ، وجبل كبير يدعى جبل الأربعين (٦٩٤ متراً) ، في سفحه الغربي قرية معرين في الكيلومتر (١٠) ، وفي سفحه الشرقي براق وتل قرطل الخروطي الشكل (٥٤١ متراً) ، ثم جبل أبودرداء (٦٨٢ متراً) ، فجبل تقسيس (٦٨٥ متراً) المشرفين على العاصي ، وفي سفح كل من هذه الجبال أو الأكام ، قرى تدعى باسمها ، كما أنه تختفي في منخفض العاصي قرى : الجاجية وسريجين ، وجنان والجرنية ، وتقسيس وقد مر ذكرها في بحث طريق سلمية ، ومريج الدر وزور العاشق ، وغور العاصي وغيرها من المزارع والأزوار ، وأهل هذه القرى التي عددناها سنية ما خلا : كفر بهم فأهلها روم أرثوذكس . وإذا تقدم السائح شوطاً آخر ، يرى في الأفق الجنوبي ، جبل لبنان الغربي في أعلاه ظهر القضيبي المكلل بالثلوج (أعلى قممه بل أعلى قمم جبال الشام طراً قرنة السوداء ٣٠٨٨ متراً) ويرى جبل لبنان الشرقي الأجرد ، تظهر فيه قمة شاهقة تدعى حلية قارة (علوها ٢٤٥٥ متراً) وبين هاتين السلسلتين مضيق متسع ينتهي بسهول بعلبك والبقاع . ويرى السائح في شرقيه عن بعد ، قرية الزعفرانة ، وفي غربيها قرى : السويداء والبيهة ، ثم تومين وجرجيسة ، على العاصي إلى أن يهبط منخفض هذا النهر ، عند جسر الرستن ، حيث ينتهي لواء حماة ، ويبدأ لواء حمص .

ومما يلاحظه السائر في هذه الطريق ، أنه كان يرى فيها وغيرها من طرق الشام لبضع سنين خلت ، قوافل الجمال المثقلة ، بمحاصيل هذه الديار ، كالحبوب وغيرها ، ورتل العجلات المحرورة بزوج أو زوجين من البغال ، الحاملة للبضائع الأوروبية والشامية ، والمركبات الحافلة بالمسافرين ، تسير الهويينا فينتفع بها الجمالون والحوذيون ، ومن ورائهم النجارون والحدادون ، والسروجيون والقتاييون ، والحبالون ثم الزراعون وبائعو العلف ، وتجار الدواب وسماسرتها ، والبيطرة والسواس ، وأرباب الخانات والفنادق ، وغيرهم ، دع الخيول والبراذين التي كان يمتطيها فرسانها للنزهة أو الرحلة . وإذا بكل هذه المنافع تتلاشى منذ سنة ١٣٤٠ هـ ، حينما انتشرت سيارات الركوب ، وأعقبتها بعد خمس سنوات سيارات النقل ، وامت البلوى بازديادها في الحاضرة والبادية ، إلى أن توارت المركبات والعجلات ، واندثرت ولحقتها الجمال والخيول إلا قليلاً ، وأوشكت الفروسية التي كانت إحدى مفاخر الشاميين أن تزول ، وأقفر اصطبيلات البيوتات القديمة المعتادة على اقتناء الصافنات الجياد ، وأضحت هذه الاصطبيلات والخانات ، مستودعات ومرائب للسيارات ، ونضب معين الارتزاق أمام أرباب الحرف الأهلية التي عدناها ، وطفقت ثروة هذه البلاد الفقيرة ، التي ليس لدى معظم سكانها من بدو وحضر قيمة للوقت ، وحاجة للإسراع ، تذوب في ابتياع السيارات ، وآلاتها ومطاطها ، وبزينةا وزيتها المعدني ، وما برج الخطب بازدياد .

الرسن : قال : ياقوت : الرسن بليدة قديمة بين حماة وحمص ، في نصف الطريق منها آثار باقية إلى الآن ، تدل على جلالتها ، وهي خراب ليس بها ذو مري ، وهي في علو تشرف على العاصي . وقال أبو الفداء : « الرسن كانت عامرة في قديم الزمان ، وهي اليوم خراب ، وبها بيوت كالقرية ، وآثار العمارة والجدران وبعض البيوت بها ظاهر ، وكذا بعض أبواب المدينة ، وأسوارها وقنيها ، وهي في جنوبي نهر العاصي ، على جبل أكثره تراب ، سطحها في المنبسط الآخذ إلى حمص ، وهي بين حمص وحماة ، ويقال أنها خراب من زمن فتح الشام » ا هـ . قلت : الرسن بليدة قديمة ، كانت تدعى في عهد السلوقيين والرومانيين Arétuzia ، يحكمها بعض أمراء من العرب من آل (شمسفرام) ملوك حمص . ومما يؤيد أقوال ياقوت وأبو الفداء ، أنني شاهدت في حيفا القبلي ، وعلى يمين الطريق القادم من حمص ، آثار شارع مستقيم عريض مبلط ، يشبه الشوارع المستقيمة ، التي كانت

في دمشق وتدمر وأفامية ، لاتزال قواعد أعمدته الضخمة ماثلة للعيان ، تمتد على مسافة نحو ثلاثمائة متر ، إلى أن تختفي بين الدور الحالية ، وبلاط هذا الشارع القديم مستور بالبلاط الحديث ، وشتان بين الاثنين في الضخامة والإتقان . وثمة في بعض هذه الدور أنقاض حمام ، وفي غيرها جدار ضخّم نحّين ، كأنه من جدران الحصون أو البيع ، وكيفما التفت تجد كثيراً من كسور الأعمدة ، ومنها واحد من الحجر المحبب (الغرانيت) ، وأسس الجدران والعتبات ، والأحجار المنحوتة المهشمة ، والأسطوانات الخزفية ، التي كانت تأتي بالماء من أماكن مجهولة وغيرها ، مما يدل على ماكان لهذه البلدة من العمران . ويظهر مما ذكره ياقوت وأبو الفداء ، أن الرستن كانت في أيامها : أي في القرن السابع والثامن ، خراباً كغيرها من قرى حمص وحماة . على أننا لم نعثر على كيفية حدوث هذا الخراب ، وسبب دوامه من عهد فتوح الشام ، إلى أيام أبي الفداء إذا صحت روايته . وهو مما يستغرب وقوعه ودوامه ، على بلدة غير صغيرة ، ذات مياه وأرضين جيدة ، واقعة في منتصف العمران ، والطريق بين حمص وحماة . كما أننا نعثر على العهد الذي رجع إليها عمرانها الأخير ، أكان قبل مرور (أوليا جلبي) أم بعده . ومهما يكن ، فالرستن في يومنا قرية جسيمة ، عدد نفوسها لا يقل عن خمسة آلاف ، اتخذت قاعدة لناحية تتبع لواء حمص ، وقد بلطت جميع أزقتها ، وأسس منذ عهد قريب في غربها مخفراً للدرك . وأراضي الرستن واسعة خصبة ، ذات تربة طينية رملية حمراء ، تنبت أحسن الحبوب ، وأجود البطيخ والزروع الصيفية ، ولا تزال دورها فوق الجبل الذي ذكره أبو الفداء ، تشرف من علّ على العاصي ، وهي جميلة البناء في الجملة ، شيد أكثرها بالحجر الحري الأسود ، بعضها يعلو فوق بعض ، وترى نساء الرستن بفساتينهن الزرقاء ، وسراويلهن الحمراء ، ينزلن أطراف النهر كله في الشعاب الملتوية إلى العيون التي في أسفل الوادي ، أو إلى العاصي ، يحملن صفائح الماء على رؤوسهن ، فبلأنها ويصعدن بها . وثمة في منخفض العاصي ، خان قديم بني من الحجر الحري ، وطوله فيما قيل ٩٨ متراً وعرضه ٤٦ متراً ، وكان من أملاك الحكومة ، وتأوي إليه القوافل عند الحاجة . ولكن في سنة ١٣٤٩ لما أرادوا بناء مخفر لجنود الدرك ، واحتاجوا للأحجار ، شرعوا يخربون الخان ، ويستعملون أحجاره ، ولما انتهوا من جداره ورواقه الشرقيين ، مر بعض محبي الآثار ، واعترض فوقفوا دون الإجهاز على بقيته . وليس على باب هذا الخان المتجه للشمال كتابة تاريخية ، وقيل إنها رفعت خلال الحرب العامة ،

وأن باني هذا الخان هو (سنان باشا) الوزير العثماني الشهير^(١) ، كما أنه هو باني جسر الرستن ، الممتد أمام الخان .

وهذا الجسر عظيم ، يمتد من الغرب إلى الشرق ، سطحه مستو ، وطوله ١٤٠ متراً وعرضه خمسة أمتار ونصف ، وعدد قناطره اثنتا عشرة ، وفي جانبه سكور تتدفق مياه العاصي من فوقها ، جعلت لحصر جانب من تلك المياه ، وإسالتها إلى الطاحونة القريبة من جنوبي الجسر ، وليس على جانبه كتابة تاريخية ، وهو دون ريب عريق في القدم ، فمن الأحداث التي أصابته قديماً أن (جان برد) الغزالي نائب الشام عقيب الفتح العثماني ، لما عصى وخرج على الدولة سنة ٩٢٧ هـ ، ورد على عقبه في حلب ، وهوجم في حماة ، رجع منهزماً إلى دمشق ، فخرّب في طريقه هذا الجسر . ولعل الذي رمه وشاده على حالته الحاضرة (سنان باشا) سنة ٩٩٩ هـ ، ثم احتاج على ما يظهر لترميم آخر في أوائل القرن الغابر ، فقام به عبد الله باشا العظم والي الشام ، كما زبر على عتبة باب جامع الرستن . وفي قرب الجسر ناعورة كبيرة ، تروي أرض زور يدعى زور العاشق ، هذا ولا يزال ضريح أبا يزيد البسطامي الذي ذكره (أوليا جلبي) موجوداً في جامع الرستن ومقصوداً . وهذا الجامع صغير ، زبر على عتبة بابه أن عبد الله باشا العظم والي الشام ، رمم طريق الرستن والجسر ، وهذا الجامع في سنة ١٢١١ هـ . وأبا يزيد هذا هو طيفور بن عيسى ، من كبار الأولياء الصوفيين ، فارسي الأصل ولد في مدينة بسطام ، من أعمال خراسان سنة ١٦٠ هـ ، وعمره مئة سنة ، واشتهر بكراماته وعلمه وشعره الفارسي . على أن صحة دفنه في الرستن تحتاج للتحقيق ، لأن له أيضاً ضريح في جنوبي قرية شبا من أعمال مرج دمشق ، وثالث في قرية ألاي بكلي ، من أعمال بيلان التي تقدم ذكرها في الصفحة ٦٧ ، وربما في أماكن أخرى أيضاً . أما التكية التي ذكرها (أوليا جلبي) فقد دثرت ، شأن كل التكايا والربط التي أوقفها السلف الصالح . هذا ومن المعارك التي حدثت قديماً في الرستن ، ماجرى بين الأخشيدي (محمد بن طنج) صاحب دمشق و (سيف الدولة بن حمدان) صاحب حلب في سنة ٣٣٣ هـ ، وكانت الدائرة على ابن طنج ، وأدى الأمر لدخول سيف الدولة إلى دمشق ظافراً ، على أنه بعد سنتين عاد ابن طنج ، وكسر سيف الدولة في ثنية العقاب ، وأرجع إلى حلب . وقد أنشؤوا في ١٣٤٩ هـ على العاصي في زور

(١) تقدمت ترجمته في الصفحة ١٥١ في بحث قلعة المضيق .

المعنكية ، عند منتهى الحد الغربي لأراضي الرستن ، معملاً لتوليد الكهرباء ، وتنوير مدينتي حمص وحماة ، وجروا له قناة من العاصي طولها نحو ستة كيلومتر ، تبدأ عند جسر سكة الحديد في قرية غجر الأمير ، ومدوا من العمل أسلاكاً وأعمدة خشبية ضخمة ، تفترق عند الرستن ، فيتوجه قسم منها شمالاً نحو حماة ، وآخر جنوباً نحو حمص . وقد عثروا أخيراً في الرستن ، على قناة ماء قديمة ، يحاولون الآن كريبها ، وري أراضيهم بها .

الوعر : في هذه الأنحاء بين نهر العاصي وسفوح جبال النصيرية ، الواقعة كالجدار في الأفق الغربي ، تمتد كورة بركانية واسعة ، مستطيلة الشكل كثيرة الصخور والحجارة الحرية السود ، تدعى (الوعر) ، تصل إلى ما بعد الطريق الآخذة من حماة إلى مصياف ، وربما إلى جبل الصليب الذي يرى في جنوبي تل سحلب ، وتشمل القرى التي في شمالي تلك الطريق ، كالتويم وكفر عجم ، وتل سكين وكفرتوم ، والتي في جنوبيها كأم الطيور وربيعة ومثنين ، وهذه القرى تتبع في يومنا مركز اللواء في حماة ، ثم يشمل الوعر في جنوبي تلك القرى قريتي تل كفراع والحويرة ، التابعتين لقضاء مصياف ، وما حولها وكل قرى ناحية الحميري التابعة إلى لواء حماة ، منها الحميري وبللين ، والموعا وقصير ، ودير حويت وبيصين ، والجافعة وأكراد إبراهيم ، وكفر قعادة وموسى الحولة وجدرين ، وفي شرقي هذه الناحية على السكة الحديدية ، بيرين ودير الفرديس وحرب نفسا ، وفي غربيها طلف وعقرب وثمة بعرين التابعة لمصياف . وكل سكان هذه القرى نصيرية ، ما خلا عقرب وطلف ، وهما أكبر قرى الناحية مساحة وسكاناً وأهلها تركان ، وأكراد إبراهيم وأهلها أكراد ، وحرب نفسا وأكثر أهلها عرب سنية . ثم ينفذ الوعر جنوباً إلى لواء حمص ، فيشمل القرى الغربية من ناحية الرستن وكل قرى ناحية تارين ، فن قرى ناحية الرستن : تل ذهب وكفرلاها ، وتل دو ، وهذه القرى الثلاث تقع في بقعة منخفضة مستوية تدعى الحولة ، ذكرها ياقوت ، وعدها من أعمال بارين ، اشتهرت هذه البقعة بزكاء تربتها ، وجودة بطيخها الأصفر ، وزروعها الصيفية ، وطيبة وتسنين وكفرنجان وسكان هذه القرى عرب سنية ، وبرج قعيا وسكانها تركان ، وجميع قرى ناحية تارين نصيرية ، أشهر قراهم التنونة وتارين ، وخربة التين نور وخربة غازي ، وخربة الحمام وأم العنز ، وأم العظام والسعليل ، وهرقل وبلقسة ، وبتيسة وكنيسة ، وثمة شركس في قرية تلليل ، وتركان في قرى : قزحل وأم القصب ، ومرج القطا والزريق ، وخربة التين محمود ، وخرخر والدار

الكبيرة ، وشيعة في الدالابوز والغور ، وروم أرثوذكس في أم شرشوح والدوير ، وهما على ضفة العاصي اليمنى ، يتخطاهما الوعر بجارته السود . ويمتد الوعر جنوباً حتى يتخطى السكة الحديدية والطريق المعبدة ، الذاهبتين من حمص إلى طرابلس ، وينتهي عند الشاطئ الشمالي والغربي لبحيرة قدس القريبة من حمص ، وربما بلغ طوله على هذا القياس ٥٠ - ٥٥ كيلو متراً ، وعرضه ١٥ - ٢٠ كيلو متراً . ويتصل الوعر في الغرب بجبل الحلو ، أحد أعضاء جبال النصيرية الجنوبية ، وقد سمي هذا الجبل بالحلو ، لوفرة ما كان في قراه من التين والعنب ، على اختلاف أصنافها ، وقد بقي أثر ضئيل منها ، ومن بعض الأشجار المثمرة البرية ، كالزيتون والزعرور ، والكثرى وأشجار الحراج المختلفة ، كالبسوط والسنديان ، واللبننة وغيرها ، مما لو عني بحفظه وتنبهته لنفع كثيراً . وليس في الوعر كله أودية جارية وعيون سارية ، فمسائله المنحدرة من هضاب جبال النصيرية نحو العاصي ، تجف في أوائل فصل الربيع أو أواسطه ، ولذا كان محروماً من الأرضين المسقوية ، وشرب أهله من الآبار .

ومن غريب ما يلحظ في هذا الوعر ، أنه يختلف كل الاختلاف عن السهول الممتدة في شرقي العاصي ، من ناحية التركيب الجيولوجي والطبيعي في الأرض ، ووفرة الأمطار وغزارة الندى في الهواء . فتربته بركانية طينية سوداء ، شديدة الاندماج رطبة ، يخصب فيها الكلاً ويطيب المرعى في الربيع ، وتجود الزروع الأعزاء في بطاحها في الصيف . لكنها لوفرة أعشابها وأحجارها ، لاتصح فيها الحبوب الشتوية ، وتظل أقل طيبة ونقاء وقيمة منها في سهول شرقي العاصي . وعندني أن هذا مما يوجب الإعراض عن زراعة الحبوب المتبعة حتى الآن ، ويدعو إلى خص هذه الأوعار بالأشجار المثمرة والكروم ، التي تجد فيها أحسن موطن لها . ولعل القدماء لحظوا هذه الحالة ، فأكثروا من الأثمار والأعشاب بين الرجوم والسلاسل التي سيأتي ذكرها ، إكالاً لعملهم في جبل الحلو .

وضياع الوعر وقراه في زماننا شبه الخرائب ، لاسوداد أحجارها الحرية ، وحقارة مبانها المركومة ، وضيق أراضيها وصعوبة العمل والاستغلال فيها ، مما جعل معظم سكانها في فقر مدقع ، زاده خول ملاكيها سراً حماة ، وخاصة سراً حمص ، وتقاعسهم عن تعهدها ، يأتقان الحرث وإكثار الفرس ، واكتفائهم بأخذ النزر القليل مما يصيبهم من غلتها

مرة في كل عام ، دع العناية ولو قليلاً ، بإرشاد فلاحهم إلى ما يصلح دينهم ودينهم .
والمسافر في كورة الوعر ، لابد أن تنقبض نفسه من جهومة مناظرها ، وكؤودة مسالكها ، وإسوداد أحجارها وتربتها ، ووفرة هذه الأحجار ، وصعوبة التنقل بينها ، وفيها رجوم عظيمة مجمعة ، وسلاسل مصفوفة بأيدي سكانها القدماء ، وكانوا على ما يظهر أرباب جد وعمل ، ضاقت بهم السهول ، حينما اكتظت الشام بأهلها ، فاستطالوا إلى هذه الأوعار ، يلمون أحجارها ، ويمهدون سبيل استغلالها ، ويشيدون هذه القرى ، التي كانت أحسن وأعمر مما هي عليه الآن ، يدل على ذلك ما عثر عليه بحاشة الإفرنج - ومنهم (دوسسو) والأب (رونزفال) اليسوعي - ، في قراها من الأحجار الحرية الأثرية ، وجلها نواويس وشواهد قبور ، زبرت فيها كتابات يونانية ولاتينية ، بأسماء أصحابها من ضباط وجنود اليونان والرومان ، الذين كانوا يقضون خدمتهم العسكرية هنا ، ويدل على ذلك أيضاً الرصيف الروماني القديم ، الذي يمتد من الميأس في حصص إلى مصياف ، ولا تزال آثار هذا الرصيف ظاهرة في خربة الجاموس وخربة السودا ، وأم عنماية ، وفي شرقي تلليل وغربي كفر لاهها وتل ذهب ، ثم تضيع آثاره في عقرب وبعرين ، ثم تعود للظهور في البياضة والسويدا ومصياف ، ومن هذه يتجه إلى الشرق الشمالي ، ماراً بكنفو والعارمية ، والعالمية وتل سلح ، ويجتاز جسر العشارنة ، إلى قلعة المضيق فسهل الغاب ، وقد تقدم ذكره في بحث هذا السهل . وقد قضت عوادي الزمان على الأبنية الأثرية التي كانت في الوعر ، ولم يبق منها إلا بناء في قرية أكراد إبراهيم ، يدعوه أهلها بالقصر ، ولا يعرفون ماهو ، كان ذا طبقتين ، لم يبق منها سوى غرفة معقودة بحجارة محكمة التركيب ، وكان له بابان أحدهما غربي والثاني شمالي .

وقد اشتهرت في هذه الكورة (بعرين) ، وذكرت في الحروب الصليبية مراراً ، قال عنها أبو الفداء : « بعرين بلدة صغيرة ذات قلعة قد دثرت ، ولها أعين وبساتين ، وهي على مرحلة من حماة - وصوابه ٣٨ كيلومتراً - وهي غربي حماة بميلة يسيرة إلى الجنوب ، وبها آثار عمارة قديمة تسمى الرمنية ، لها ذكر شهير في كتب التاريخ » . وجاء في الروضتين : « أن بعرين كانت من أضر بلاد الإفرنج على المسلمين ، فاستولى عليها عماد الدين زنكي في سنة ٥٣١ هـ ، ثم عاد إليها الإفرنج ، إلى أن هاجمها صاحب حماة الملك

المظفر محمود في سنة ٦٣٦ هـ ، فهدم قلعتها ودك معالمها » . وذكر ياقوت من قرى الوعر ، بيرين وحرب نفسا والتنونية قال : « بيرين من قرى حصص » . قال القاضي عبد الصمد بن سعيد الحمصي في (تاريخ حصص) « كان النعمان بن بشير الأنصاري زبيرياً ، فحدث عن سليمان بن عبد الحميد البهراني ، قال لما صاح الناس في زمن مروان بن الحكم بالنعمان بن بشير ، خرج هارباً على وجهه من حصص ، فلحقه خالد بن خلي في شبيبة من الكلاعيين ، حتى أتى حرب نفسا ، فقال أي قرية هذه ، فقالوا حرب نفسا ، فقال حرب أنفسنا ثم مضى حتى بيرين ، فقال أي قرية هذه ، فقالوا بيرين ، فقال فيها برنا ، فقتله خالد بن خلي فيها في سنة ٦٥ هـ . وقال عن التنونية : « من قرى حصص مات فيها عبد الله بن بشير المازني ، صحابي في سنة ست وتسعين ، وقبره بها ، وكان منزله في دار قنافة بمحصص » اهـ . قلت : وهي الآن ضيعة صغيرة . تبعد عن حصص للغرب نحو ثمانية كيلومتر . ومن القرى التاريخية أيضاً مريمين ، قال الأثري (دوسو) في كتابه الطبغرافية التاريخية ، « نظنها Mariamon القديمة ، التي يرجع عهدها إلى قبل ألفي سنة من الميلاد ، المذكورة في أسفار المصريين ، الباحثة عن قادش . وقد كانت مريمين في عهد الفينيقيين ، على تخم أهل أرواد ، وكانت من أحكم المشارف ، على وادي العاصي بين حصص وحماة ، صارت في عهد النصرانية مقر مطران ، وفيها دفن القديس جلاس ، الذي مات شهيداً في سنة ٢٩٨ م في بعلبك ، ونقل جثثانه إلى مريمين » اهـ .

وبما يجدر ذكره في بحثنا هذا ، أن التركان الذين تقدم ذكر قراهم ، جاؤوا عقب الفتح العثماني من بر الأناضول إلى وعر حماة وحصص ، خلال فترات متقطعة ، آخرها كان في مطلع القرن الثالث عشر ، ولا يعرف السبب في مجيئهم ، أكان لغاية سياسية قصدها العثمانيون لتكثير سواد أبناء جلدتهم بين العرب الشاميين ، أم لضيق أرضهم في بلادهم ، ورحبها في ديار الشام ، مهوى أفئدة الشعوب الإسلامية ، يرون فيها حسن المآب في الآخرة ، ولما جاء هؤلاء ، ذهب فريق منهم إلى لواء طرابلس ، ولهم في قضاء الحصص : زارا وحكية وحصرجية ، وفي قضاء عكار قرى : دوسة وكواشرة وعيد مون ، وفي ناحية حذور : بساتين وبيت رسلان ، ومتراس وعين دابش ، وتركان ، هذه القرى اشتهروا بصناعة السجاد . وذهب فريق ثالث إلى قضاء القنيطرة في الجنوب الغربي من دمشق ، واستقروا في قرى عديدة منبثة بين الأوعار المنحدرة نحو نهر الشريعة ، كمين عائشة

والرزانية ، وضائية وأحمدية ، وحسينية وحفر ، وعين سسم وكفر تفساخ ، وقادريّة
وعليقة ، وسنديانة ومغير ، ومنهم من استقر في قرية قلدون في جبل قلمون ، وقرية براق
في شمالي لجأ حوران ، وأم الرمان في البلقاء بين جرش وعمان . وهؤلاء التركان قد استعربوا
في اللغة والأزياء والعادات ، لا يتميزهم الغريب عن أبناء البلاد الأصلية ، إلا إذا حدّج في
هيئاتهم ، وأصغى إلى أحاديثهم فيما بينهم ، يحدهم محتفظين بقاماتهم وسحنهم التورانية ،
ويتكلمون بتركية قديمة سقيمة ، يخالطها كثير من الألفاظ العربية . ولما كانوا في الأصل
قبائل رحل ، لا يزال منهم بادية تقطن الخيام ، وتعيش برعي الأنعام ، يدعونهم تركان
سوادية ، منازلهم في فيافي قضائي حص والنبك والبقاع البعلبي ، ومنهم أناس في مرج
ابن عامر في فلسطين . وما برح الذين في قضاء القنيطرة يقضون الربيع والصيف في الخيام
التي يضربونها حول قراهم ، ولا يعودون لبيوت الحجر إلا في الشتاء . وتركبان الشام بعد
أن كانوا لمضي قرن أو أقل ذوي بأس وسطوة ، أضناهم الفقر ، وأخى عليهم الجهل ، لم نسمع
لهم ركزاً ، ولم نر بينهم ذوي دراية أو مكانة ، سوى بضع عائلات ، سكنت منذ عهد بعيد
حي التركان في حص ، واستعربت وامتزجت ، ومنها واحدة حازت ثروة ووجاهة
طائفتين .

والأكراد يكثر وجودهم في شمالي بلاد الشام ، على مقربة من الحدود التركية الحالية ،
كالذين في شمالي نهر عفرين ، في الجبل المسمى جبل الكرد ، والذين في حرة اللجة شمالي
العمق ، وفي أقضية أعزاز والباب وجرابلس ، والأقضية التي في الشمال الشرقي من لواء
الجزيرة الفراتية . وكل هؤلاء أكراد أقحاح لم تتصل إليهم العربية بشيء . أما في بلاد الشام
المتوسطة ، فعدد الأكراد قليل ، وليس لهم بقعة يؤلفون فيها كتلة مجتمعة إلا في جبل
الأكراد ، بين جسر الشغفر واللاذقية ، وفي حي الأكراد من أرباض دمشق ، وفي قرى الوعر
التي ذكرناها ، في حين أن مجيء الأكراد إلى بلاد الشام المتوسطة قديم . وربما كان أول من
أتى بهم ، هو عامل حص شبل الدولة (نصر بن مرداس) سنة ٤٢٤ هـ ، وأسكنهم في
حصن الصفح ليحفظوه ، ويصونوا الطريق بين حص وطرابلس ، فسمي الحصن منذ ذلك
الحين حصن الأكراد ، وقد بقوا فيه نحو قرن ونيف ، إلى أن جاء (طانكرد) برنس
أنطاكية واستخلصه منهم ، سنة ٥٣٠ هـ فتشتتوا . ثم كثر توافد الأكراد في عهد الدولتين
النورية والصلاحية ، لخوض غمار الحروب الصليبية ، ولعل كل من أدى واجبه من هؤلاء

كان يعود أدرأجه ، والذين بقوا منهم استعربوا ، وذابوا في البيئة الشامية ، ولم يحتفظ بصلته بماضيه الكردي إلا الذين وفدوا في العصور الأخيرة . منهم سكان جبل الأكراد ، بين جسر الشغفر واللاذقية ، وهؤلاء على ما قيل قد استعربوا وذابوا ، مما يدل على أنه قد مضى على قدومهم عدة قرون ، ومنهم بعض بيوتات متفرقة في أماكن مختلفة ، ذات مكانة غير يسيرة ، أكثرها عدداً وأكبرها ملكاً وجاهاً آل مرعب في قضاء عكار ، جاؤوا من أنحاء حكاري منذ قرنين ونصف ، واندمجوا تماماً ، ويлияهم آل البرازي في مدينة حماة ، جاؤوا منذ قرن ونصف من أنحاء الرها ، واندمجوا إلا قليلاً ، ومنهم سكان حي الأكراد أحد أرباض دمشق ، الذين يمتون إلى أصول ومنابت مختلفة ، وهؤلاء على الرغم من اختلاطهم بالدمشقيين من عهد الدولة الصلاحية ، واقتباسهم اللغة والأزياء العربية ، لا يزالون محتفظين بلغتهم وأكثر أطباعهم الأصلية ، لاستمرار مجيء الوفاة من حكاري ووان ، وغيرها من بلاد الأكراد الشامية ، إلى هذا الحي الذي يعدونه ملاذ كل خاطئ أو خائف منهم ، ولدوام اتصال سكانه بأهل تلك البلاد النائية ، بسبب تجارة الغنم التي يجلبونها من ثم ، ويمرون معظم بلاد الشام بلحومها ، وهم أبناء بحدة هذه التجارة المحتاجة لكثير من الجلد والمضاء ، حاز بعضهم من وراءها ثروة غير يسيرة ، وزادها آل اليوسف منهم ملكاً وجاهاً عظيمين . وقلة أكثر أهل هذا الحي بالدراسة والثقافة قبلاً ، ساقط كثيراً منهم في عهد العثمانيين نحو الارتزاق من التجند في سلك الدرك ، أو جباية الأموال الأميرية ، أو التزام الأعشار ، أو وكالة الضياع وغيرها مما يحتاج للقسوة والشدة ، ولما نصب معين النفع من هذه المواد بانتضاء ذلك العهد تغير حالهم في الجملة ، وانصرف بعضهم إلى الصناعات اليدوية وخلافها .

أما الأكراد القاطنون في قرية أكراد إبراهيم التي مر ذكرها ، فأصلهم من الأكراد اليزيدية ، جلوا عن بلادهم في أنحاء سروج منذ قرن أو أقل ، وكان رئيسهم يدعى إبراهيم ، وسميت القرية باسمه ، على أن هؤلاء بعد أن كانت لا تؤكل ذبيحتهم ولا يلعن الشيطان أمامهم ، مالبثوا أن امتزجوا بالبيئة ، فأسلموا واستعربوا ، ولم يبق للغة الكردية إلا الأثر القليل بين شيوخهم . وهم الآن قلما يختلفون بالأزياء والعادات عن الفلاحين العرب ، ويفوقونهم بإتقان تربية الماشية . وهناك قبيل من الأكراد الرحل أهل الوبر ، يدعون أكراد عثمانو ، لا يمتون للإبراهيمو بصلة ، منازلهم في أرجاء العشانة وتل سلحب ، وما

حولها من البقاع الممتدة غربي العاصي في شمالي لواء حماة . أما من كان في قرية أكراد الدياسنة ، فهم يدعون الانتساب إلى عشيرة المليّة ، وبعد أن بقوا في هذه القرية مدة مديدة ، جلوا في مطلع القرن الحالي إلى قرية مخرم التحتاني ، من أملاك الدولة في شرقي حمص ، وناب عنهم النصيرية ، ولم يبق على قرية الدياسنة من أثر الكردية إلا الاسم فحسب . وسكان قرية مخرم التحتاني قد نسوا لغتهم بالكلية ، واستعربوا في الأزياء والعادات ، لكن لهم مزايا خاصة ، يختلفون بها عن مجاورهم ، يسرفون في إقراء الضيف ، ويتجملون مما فوق الطاقة ، وينتصر بعضهم إلى بعض حقاً كان أو باطلاً ، ويتقاعسون عن إتقان الفلاحة والزراعة ، حتى وقعوا في الفاقة وسوء السمعة .

أما الشيعة القاطنون في قريتي الدالابوز والغور ، غربي العاصي وبعض قرى أملاك الدولة في شرقي العاصي ، فأصلهم من الفوعة ، إحدى القرى الأمهات في قضاء إدلب ، وقد تقدم ذكرها في بحث القضاء المذكور في (الصفحة ١٣٣) .

طريق الرستن - حمص

(٢٣ كيلو متراً)

يسير السائح بعد الرستن في شرقي العاصي ، فيغادر على يمينه الطريق الآخذة إلى معمل النور الكهربائي ، ويمتاز سهل الرستن التي وصفناها ، ويرى في الأفق الغربي جبال النصيرية ، تميل للانخفاض كلما سارت نحو الجنوب ، إلى أن تضمحل قبلي سكة حديد حمص ، طرابلس ، وتبدأ بعدها جبال لبنان . وبين العاصي وجبال النصيرية ، تمتد كورة الوعر ، المضافة إلى حمص ، وقد مر وصفها . أما الأفق الشرقي ففيه منبسطات شاسعة ، تتخللها تلعات ورواب طبيعية ، وتلال اصطناعية أثرية ، تتوالى حتى سفوح جبال البلماس والشومرية ، بينها قرى وضياع كثيرة ، من أمهاتها الزعفرانة وأهلها سنية ، والمشفرة وأهلها نصارى ، والحرم التحتاني وأهلها أكراد ، وعين ظباط وتل عمري ودير فور وأهلها شراكسة ، وأم العمد وتل الأغر وأهلها شيعة ، وعين ظباط وتل عمري واقعتان على ضفة نهر من روافد العاصي ، تأتي مياهه من واد يدعى الميدان ، ثم يتجه شمالاً بميلة إلى الغرب ، وبعد أن يأخذ من يساره مياه دير فور ، يصب في العاصي قرب قرية أبو إمامة وعسيلة ، اللتين أهلها شركس . ولعل تل عمري كانت مبنية في موضع دير إسحاق ، الذي وصفه ياقوت « بأنه بين حمص وسلمية ، على نهر جار في أحسن موضع وأنزهه ، وبقربه ضيعة صغيرة يقال لها جدر ، التي ذكرها الأخطل في قوله :

كأنني شارب يوم استبد بهم من قرقف ضمنتها حمص أو جدر

ولأهل القصف والشعراء في هذا الدير أشعار كثيرة » اهـ . وقد دثر دير إسحاق وضيفة جدر وتنوسي خبرهما . هذا وبقية سكان هذه الرباع الشرقية نصيرية ؛ من قراهم التي تستحق الذكر ، عين حسين ونوى ، والحرم الفوقاني والسنكري القبلية والشامية ، وأبو حقفة القبلية والشامية ، والمسعودية وجب الجراح ، وكلها من الأملاك الخاصة بدولة الشام ، كالتى تقدم ذكرها في أبحاث الحمراء وجبل الأحص ومطبخ قنسرين ، جلا النصيرية

إليها من جبالهم الغربية ، في مطلع القرن الحالي ، حينما اهتم السلطان عبد الحميد العثماني بعمارها ، بعد أن كانت يباباً ، تجوئها غزاة البادية وجماهم ، وهذه حسنة تذكر للسلطان المشار إليه ، ولو أنه كان يتوخى فيها نفعه الخاص . والسائح قبل وصوله إلى قرية تلبيسة يرى في يمينه على جانب الطريق آثار خربة تدعى خربة السبيل ، في وسطها حجر رحي كبير ، هو أحد أمثاله الكثر المنتشرة في رسوم وخرائب هذه الرباع ، ولعلها كانت لعصر الزيتون أو طحن البرغل . أما تلبيسة فقريّة كبيرة (بينها وبين حصص ١٢ كيلومتراً) ، بيوتها قبب بيضاء ، يخالها الغريب لاسيما الأوروبيون القادمون إلى الشام حديثاً معسكر جند . وفي غربي هذه القرية مستنقع يحتاج للتجفيف . وبعض بيوت تلبيسة بني في ظهر وسفح التل المعروف باسمها على ماقيل ، ينسب إلى خربة قديمة تقع شرقي بيادر القرية ، تدعى بيضة صارت بالتحريف بيضة . وقد ظن الأثري دوسو هذه القرية هي Abzu التي وردت في رقم تل العمارنة ، ذلك لأن تلبيسة ظهر فيها كثير من العاديات . وكان فوق تل هذه القرية بناء عسكري ، ذكره المرادي في (سلك الدرر) في ترجمة عبد الرزاق الجندي وسماه قلعة قال : « كان متولياً حكومة قلعة تلبيسة الكائنة بين حصص وحماة ، وهذه القلعة أصل بنائها في زمن الوزير سليمان باشا العظم ، وعينت الدولة فيها ينكجارية ، بعلايف وتعاليين سلطانية ، لأجل حفظ الطرقات للحج وغيره » اهـ . قلت : ولعل بناء هذه القلعة لم يكن محكماً ، كقلاع العصور الإسلامية المتوسطة ، إذ أنه دثر ولم يبق منه في زماننا سوى أطلال السور وبعض الجدران ، تختفي تحت دور الأهلين التي بنيت فوقها . وإذا جاز السائح قرية تلبيسة ، وسار في سهولها ، يلح أمامه جامع خالد بن الوليد ذي القباب والمآذن الجميلة البيضاء ، وتظهر حصص بأحيائها القديمة والحديثة . ويرى على العاصي في غربي تلبيسة إلى الشمال قرية أم شرشوح ، وأهلها روم أرثوذكس ، وإلى الجنوب منها قرية الغنطو وأهلها سنية ، ويناوحها في غربي العاصي قرى الداسنية وتسنين ، والكنية وحلاموز ، ثم يمر السائح بأراضي قرية دير معلة ، وهي على يمين الطريق ، ويناوحها في غربي العاصي قريتا هبوب الريح والدار الكبيرة ، ثم يمر بأراضي قرية دير بعلبة ، وهي على يسار الطريق ، وفي غربيها في شرقي العاصي الدوير وأهلها روم ، وهي متنزه نصارى حصص ، ويناوحها في غربي العاصي خرخر ، وما ورائها من قرى الوعر إلى أن يدخل حصص . وطالما كانت هذه الأرضين أو السهول الممتدة بعد

تلبسة في العصور الغابرة ساحة لمعارك طاحنة ، بين الجيوش الزاحفة من الشمال للاستيلاء على حمص وما يليها ، والجيوش الخارجة للدفاع عنها ، مما سوف نذكره في تاريخ هذه البلدة .

تاريخ حمص : حمص من أمهات مدن الداخل في الشام ، تعلو عن سطح البحر ٩٥٠ متراً ، ولها مركز جغرافي هام ، لقربها من نهر العاصي ، ولوقوعها في منبسط مترامي الأطراف ، وفي مركز دائرة كثيرة الحركة ، حافلة بسكان الحضر والمدن ، تمر بها المسالك التجارية الناهبة من دمشق إلى حلب ، ومن البادية إلى البحر المتوسط ، وهي تتصل بهذا البحر بواد عريض سهل الاجتياز ، تمر فيه السكة الحديدية والطريق المعبدة ، الآخذتان إلى طرابلس ، وطول الأولى ١٠٢ كيلو متراً وطول الثانية ٩٨ كيلو متراً . وتربط السكك الحديدية حمص بدمشق ، عن طريق رفاق وبينهما ٢٠٨ كيلو متراً ، وبحلب وبينهما ٢٠١ كيلو متراً وبحماة وبينهما ٥٨ كيلو متراً ، وتربطها الطرق المعبدة بحماة ، وبينهما ٤٧ كيلو متراً ، وبدمشق وبينهما ١٦٠ كيلو متراً ، وتدمر طريق غير معبدة ، تمر بالفرقلس طولها ١٦٥ كيلو متراً .

فيظهر من ذلك ، أن القطارات والسيارات الناهبة والآية إلى تلك المدن ، جعلت حمص ذات مكانة تجارية هامة ، وقد نمت هذه المكانة منذ اتخذتها شركة النفط العراقية في سنة ١٣٥٠ هـ مركزاً لمنشآتها العامة ، ويؤمل أن يتضاعف هذا النمو في المستقبل ، ويزداد عمران حمص .

لاجرم أن القدماء عرفوا قدر هذا الموقع الجغرافي ، فأنشؤوا فيه مدينة حمص ، ودعوها بادئ بدء حامات صوبا أو حميصوبا ، ثم دعاها اليونانيون إمسا Emessa ، وقيل إن هذه الكلمة آرامية ، بمعنى الأرض المنبسطة ، لوقوع حمص في مستوٍ من الأرض .

وقال ياقوت « إن حمص بلد بناه رجل يقال له حمص بن المهر ، وقيل حمص بن مكنف العمليقي » ، وعرف عمليق في مادة حلب بأنه « عمليق بن لوذ بن سام » ، وفي هذا القول على علته ، إشارة إلى أن أول من سكن حمص هم العماليقة ، أو الروتانيون أو اللوذيون ، أعقاب لوذ بن سام ، الذين دلت آثار هيكل الكرنك في مصر ، على أنه كانت لهم دولة وحضارة ، اختطوا مدناً عظيمة كحماة وحمص ودمشق وغيرها ، وكان لهم معقلان

حصينان كركيش (جرابلس على الفرات) ، وقادس (تل النبي مند جنوبي حص) .
وقد ظل الروتانيون سائدين ، إلى أن جاء (تحوتس) الثالث أحد فراعنة مصر ، فانتصر
على الكنعانيين والروتانيين المتحالفين ، وفتح مجدو (اللجون في مرج ابن عامر)
وقادش ، وكثيراً من المدن في جنوبي الشام وشماليه . وظل يشن الغارة عليهم ، كلما وثبوا
حتى أذلهم . ولما ظهر الحثيون شرعوا يناوشون الروتانيين أيضاً ، إلى أن أزالوا دولتهم ،
واستولوا على معاقلمهم ومدنهم . ولما تم اندحارهم عم اسم آرام بن سام جميع فلولهم وتنويسي
اسمهم الأصلي ، لاسيما بعد انقراض ملك الحثيين في القرن الثامن قبل الميلاد ، لاقتصاص
الآراميين منهم واستثمارهم لأبناء عمهم لوذ .

ولما امتد سلطان الحثيين في شمالي الشام ، وتطاولوا للاستيلاء على مصر ، استفزوا
غضب الفراعنة في القرن الرابع عشر قبل المسيح ، فجاءوهم بمبيوش جرارة وكسروهم
مراراً ، وذلك في عهد (سيقى) الأول ، ولا سيما (رعسيس) الثاني المعروف باسم
(سيزوستريس) الذي خضد شوكتهم في واقعة قادس ، واستولى على بلادهم ، ثم سالمهم
وصاهر ملكهم . وقد وجد الأثريون المنقبون في تل النبي مند ، آثاراً مصرية عديدة ،
ووجدوا قبلاً في حص وضواحيها أواني خزفية وحلياً ، وأسلحة ودمى وتناثيل من الصناعة
المصرية ، ما يدل على تملك السلالات ١٨ و ١٩ و ٢٠ على جنوبي مملكة الحثيين . كما أنه
وجد من آثار الصناعة الحثية ما يدل على عبادة الكواكب والبعل ، وعشتروت وآلهة مصر ،
وهذه العبادة اقتبسها الحثيون من مجاوريهم الفينيقيين والمصريين وغيرهم .

ولما انقرض الحثيون خلفهم الآراميون ، فجعلوا حص عاصمتهم ، وكان لهم دولة
وصولة ، ردوا غارات العبرانيين في عهد داود وسليمان ، واستولوا على دمشق ، فصارت
حص ودمشق مملكة واحدة ، حكها ثمانية ملوك منهم ، وما زالوا حتى جاء الآشوريون
يغيرون على الشام ، فقتلوا آخر ملك آرامي ، واستولوا على حص وضواحيها ، ثم جاء
بعدهم الكلدانيون ثم الفرس . ولما انتصر اسكندر المكدوني على الفرس في معركة إيسوس ،
استولى على حص فيما استولى عليه من بلاد الشام ، وأورثها لخلفائه السلوقيين ، الذين
سادوا في شمالي الشام . ولما ضعفت دولة هؤلاء ، قامت في حص تحت إشرافهم إمارة
عربية ، سادها ثمانية أمراء من سنة ٨١ قبل الميلاد إلى سنة ٩٦ بعده . وكان أولهم

(شمسفرام) بنى هيكلاً للشمس معبودة الحمصيين ، فاشتهرت حص به ، وخامسهم (شمسفرام) الثاني ، الذي عاش مئة سنة ، وبنى الصومعة التي هدمت قبل الحرب العامة . ويظهر من كلمة (شمسفرام) أو (سمسفراموس) أنها مؤلفة من سمس أو شمس ، ولا يخفى أن بعلبك القريبة من حص ، كانت مركزاً لعبادة الشمس ، كما يدل على ذلك اسمها اليوناني (هليوبوليس) ، فلا يبعد أن تكون عبادة الشمس ، انتقلت منها إلى حص ، وغيرها من البلاد المجاورة .

وقد ازدهرت حص والرستن في عهد هذه الإمارة العربية ، ونالتا من المجد والعمران حظاً موفوراً ، بقيت آثاره على الأكثر في الرستن كما قدمناه في وصفها ، على أن آثار اليونان في حص عديدة ، أخصها الكتابات التي وجدت على الأبنية والأضرحة وأسماء الأعلام ، وكلها يدل على أن اللغة اليونانية زاحت اللغة الآرامية ، وانتشرت في عهد الدولة السلوقية وإمارة آل شمسفرام منها ، الكتابة التي قيل أنها وجدت على الصومعة المذكورة ، وكتابات أخرى وجدت في أحد أسراب حص ، تحتوي على أسماء بعض الأعيان من (آل شمسفرام) كصهيم وثلاث ، ما يدل على أن ذلك السرب ، كان مدفناً لهذه الأسرة الملكية .

ولما انقرضت هذه الإمارة باستيلاء الرومانيين ، ظلت حص محتفظة بمكانتها ، لاسيما وقد كان فيها هيكل الشمس والحجر الأسود المقدسين . وكان هذا الهيكل ، محجة الزائرين وملأه اللاجئين من كل الأقطار ، وكانت سدائنه بيد كاهن وثني كبير ، من أعقاب آل شمسفرام اسمه (باسيانوس) ، ثم انتقلت هذه السدانة من بعده إلى ذريته . وشيد الرومان في حص وضواحيها أبنية فخمة ، وأنشؤوا الأرصعة ، التي لاتزال آثار بعضها بادية للعيان كما قدمنا ذكره ، وعززوا الزراعة والتجارة . وفي التلمود : أن أحد قياصرتهم (ديوكلسيان) حفر بحيرة قطينة ، أو بحيرة قادس ، وبنى السد العظيم أمامها لخزن مياه العاصي ، والمرجح أن البحيرة والسد أقدم عهداً منه ، ولعلها من عمل الروتانيين أو الحثيين . وقد نسب ياقوت بناء السد إلى الإسكندر المقدوني .

وأنجبت حص في تلك الحقبة رجالاً ونساء تسنوا ذرى المجد ، منهم (جوليا دومنا) من أسرة الكاهن باسيانوس ، وقد كانت جميلة فطينة ، تزوجها القائد الروماني (سبتيموس

سفيروس (الذي صار قيصرأ (١٩٣ - ٢١١ م) ، وكانت أكبر عون له في أجل أعماله . وبعد موت سبتيموس خلفه ابنه (كراكلا) (٢١١ - ٢١٥ م) ، وكان مولده في حصص ، رسم على نقوده صورة هيكل الشمس المذكور ، وأنعم على مسقط رأسه حصص ، بامتيازات المدن الرومانية . وكان لجوليا دومنا أخت تدعى جوليا ميزا ، نشأت مثلها في حصص ، لها ابنتان سببة وميا ، ولكل منهما ولد صار قيصرأ ، فابن سببة (افيتوس باسيانوس) اشتهر بلقب اليوكابال وابن ميا (إسكندر ساويروس) . وكانت أسرتهما المحمية خصصتا هذين الولدين لإجلال الشمس ، معبودة المحصيين ، وتولى أحدهما اليوكابال سدانة الهيكل وهو في حدثه . ولما قتل (كراكلا) غيلة بيد قائد الجند (مكرينوس) الطامع بالعرش ، ثأر اليوكابال منه وصار قيصرأ (٢١٨ - ٢٢٢ م) ، ونقل الحجر الأسود من حصص ، وشاد له في رومية هيكلأ فخماً ، لكنه أتى بعد من القبائح ، ما أثار الجند عليه فقتلوه ، وأقاموا مكانه ابن خالته (إسكندر ساويروس) (٢٢٢ - ٢٣٦ م) ، وقد عده المؤرخون أفضل قياصرة الرومان ، لصلاحه وحسن إدارته ، وبعد موته كانت نشأت دولة (أذينة) التدمري ، وفتحت حصص ، وامتد سلطانها على الشام ومصر وما حولها ، وتطاولت زنوبيا (زينب) لمنازعة الرومان في أملاكهم ، فاضطر القيصر (اورليانوس) لحاربتها ، فكسر جيشها مرتين ، أولاها في سهل العمق قرب بلدة عم (قرية بيني شهر) ، والثانية في السهل الممتد بين تليسة وحصص سنة ٢٧٢ م ، وقضى عليها . ولم تدخل النصرانية إلى حصص ، وتتغلب على الوثنية التي كانت عريقة في أهلها ، إلا في القرن الثالث الميلادي وما بعده ، على يد القديس (سيلوانس) الذي عُد أول أساقفها ، وقد نبغ بين أهلها كثير من القديسين والمطارنة ، صار أحدهم بابا في رومية ، واستشهد بعضهم في سبيل الدعوة . ولما انتشرت النصرانية في عهد قسطنطين الكبير في القرن الرابع (٣٢٣ - ٣٣٦ م) ، بنى فيها كنيسة كبيرة ، كانت تعد من أعظم كنائس الشام .

ولما جاء المسلمون وكسروا الروم في وقعة اليرموك ، كان الأمبراطور (هرقل) في حصص ، ففادرها وجعلها بينه وبين المسلمين . أما فتحها فإليك ما قاله ياقوت في معجمه : « بينا المسلمون على أبواب دمشق ، إذ أقبلت خيل للعدو كثيفة ، فخرج إليهم جماعة من المسلمين ، فلقوم بين بيت لهما والثنية ، فولوا منهزمين نحو حصص ، على طريق قارا ، حتى وافوا حصص ، وكانوا متخوفين لهرب هرقل عنهم ، فأعطوا ما بأيديهم ، وطلبوا الأمان ،

فأمنهم المسلمون ، فأخرجوا لهم النزل ، فأقاموا على الأرنبط ، وهو النهر المسمى بالعاصي ، وكان على المسلمين (السبط بن الأسود) الكندي ، فلما فرغ أبو عبيدة من أمر دمشق ، استخلف عليها يزيد بن أبي سفيان ، ثم قدم حصص على طريق بعلبك ، فنزل بيباب الرستن ، فصالحه أهل حصص ، على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم ، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد ، واشترط الخراج على من أقام منهم ، وقيل بل السبط صالحهم ، فلما قدم أبو عبيدة أمضى الصلح ، وأن السبط قسم حصص خططاً بين المسلمين ، وسكنوها في كل موضع ، جلا أهله أو ساحة متروكة » ا هـ . ولما قسم المسلمون الشام إلى مناطق عسكرية ، دعوا أجناداً ، جعلوا حصص مقرأ لأحدها لعظم شأنها . وقد بلغ خراج جند حصص بما فيه قنسرين والعوام إلى بيت المال ٨٠٠ ٠٠٠ دينار ، وفي عهد الرشيد بلغ خراجها وحدها ٣٢٠٠٠٠ دينار ، وألف حمل من الزبيب .

وأما باقي أحداثها بعد الفتح ، فلا تختلف عن التي ذكرناها في حماة ، إلا ببعض زيادات لعلو شأن حصص وتقدمها على حماة . فمن ذلك موقف أهل حصص تجاه الإمام علي ، فقد ذكر ياقوت « أنهم كانوا أشد الناس عليه في وقعة صفين ، وأكثرهم تحريضاً ، ومنها تردد يزيد بن معاوية على حصص ، حينما كان يكثر الإقامة في حوارين إحدى قرى سنير الشرقي ، ومنها استقرار ابنه خالد وبنائه فيها قصراً ، قيل إنه كان في غربي الطريق (؟) ، وقد كان خالد هذا فاضلاً شغوفاً بالفلسفة والكيمياء ، وأكد ياقوت أنه هو المدفون في جامع سيدنا خالد ، وليس خالد بن الوليد الذي مات في المدينة » . ومن أحداث حصص ، وثوب أهلها على عاملهم النعمان بن بشير الأنصاري ، لأنه كان من حزب عبد الله بن الزبير ، لحقوه بعد نصرة مروان بن الحكم ، وقتلوه في بيرين قرب حماة كما قدمنا ، ومنها قيامهم على يزيد الثالث بن الوليد ، حين بويج بعد قتل الوليد الثاني بن يزيد ، وقتلهم عامله في حصص ، ومسيرهم إلى دمشق لحربه ، ورجوعهم منهزمين في ثنية العقاب سنة ١٢٦ هـ ، ومنها قيامهم على إبراهيم بن وليد الأول ، حين بويج بعد موت يزيد الثالث في تلك السنة أيضاً ، ومنها انحيازهم إلى جانب مروان بن محمد ، ومسيرهم تحت لوائه ، وفتحهم دمشق سنة ١٢٧ هـ ، ثم انتفاضهم عليه لما أنكر ولاءهم ، فحاصروهم حتى طلبوا الأمان فأمنهم ، وهدم من سور حصص نحواً من غلوة ، وكان هذا النفور سبباً لخذلانه في محاولته رد العباسيين الذين قاموا لنيل الخلافة ، وقد أظهر الحصريون لمروان آثار

ضعفنتهم ، حينما مر بهم سنة ١٣٢ هـ فاراً من وجه عبد الله بن علي العباسي ، فثار مروان منهم .

ويظهر أن الخلفاء العباسيين الذين ابتعدوا واتخذوا بغداد عاصمتهم ، لم يعنوا بشأن الشام ، ولم يرسلوا إليها عمالاً ذوي كفاءة وحسن إدارة ، فكان ذلك مدرجة لحدوث الفتن والحروب الأهلية ، خاصة في حمص وجندها . وهذه الفتن كانت تارة من القيام لإعادة الملك إلى الأمويين ، وتارة من تأجج نار العصبية بين القيسيين واليمانيين - وأهل حمص يمانيون نزاعون إلى الثورة - وتارة من الوثوب بأولئك العمال ، ومجيء جيوش الخلفاء لتأديب المتوثبين ، كما جرى في عهد الرشيد سنة ١٩٠ هـ ، والأمين سنة ١٩٤ هـ ، والمتوكل سنة ٢٤٠ و ٢٤١ هـ ، وفي عهد المستعين مرة في سنة ٢٤٨ هـ ، وثلاث مرات في سنة ٢٥٠ هـ ، وفي كل فتنة أو وثبة كان ينال حمص وأهلها من الحرق والخراب والتفكيك شيء غير يسير .

ولما ضعف شأن الخلفاء العباسيين ، ظهرت ملوك الطوائف في الأقطار البعيدة عنهم ، وكان أولهم أحمد بن طولون ، دامت دولته وأعقابه في مصر والشام ، من سنة ٢٦٤ هـ إلى سنة ٢٩٢ هـ ، وفي عهدهم جاء القرامطة وعاثوا في الشام ، ولما وصل زعيمهم أبو شامة سنة ٢٩٠ هـ من دمشق إلى حمص ، أطاعه أهلها ، وفتحوا له بابها ، خوفاً منه وخطبوا له على منابرها ، وبذلك نجحت حمص من شر القرامطة ، على خلاف ماجرى بحماة وسلمية والمعرّة وغيرها . وبعد أن عاد عمال العباسيين وأداروا الشام مدة ، ظهرت الدولة الإخشيدية في مصر والشام (٣٢٣ - ٣٥٧ هـ) ، وكان أولهم (محمد بن طنج) أراد خلع طاعة العباسيين ، فأرسلوا إليه قائدهم (محمد بن رائق) ، فجاء سنة ٣٢٨ هـ ، واستولى على حمص ودمشق وغيرها ، وجرت بينه وبين الإخشيد حروب ، انتهت باستقرار البلاد للإخشيد وأعقابه . وفي عهدهم قام (لؤلؤ) عاملهم في حمص ، على أبي الطيب المتنبّي لما ادعى النبوة في البادية ، فقاتله وأسرّه مع أشياعه من بني كلب وكلاب وغيرهم من قبائل الأعراب ، وسجنه مدة مديدة حتى تاب .

ولما ظهرت دولة بني حمدان في حلب ، جرى حرب بين أولهم سيف الدولة وجيش الإخشيديين في الرستن سنة ٣٣٣ هـ ، انكسر فيه الإخشيديون على ما قدمنا في بحث جولة أثرية (٢١)

الرسن ، وبقيت دمشق وما يليها بيدهم ، واستقرت حصص حلب وأعمالها ، لسيف الدولة وأعقابها من بعده (٣٣٣ - ٤٠٦ هـ) . وكان من الأمراء الحمدانيين في حصص في عهد سيف الدولة أبو وائل (تغلب بن داود بن حمدان) ، أسرته القبائل العربية الشائرة على سيف الدولة ، فأوقع بهم سيف الدولة في سلمية كما قدمنا في بحثها ، وأوقع بهم أيضاً في الفرقلس والغنتر ، وجباة ودمر ، وردم الآبار التي كانت تستقي منها تلك القبائل ، واستخلص أبا وائل ، وكان منهم أيضاً الشاعر الشهير (أبو فراس ابن سعيد بن حمدان) الذي جاء إلى حصص بعد موت سيف الدولة ، وأراد الاستئثار بها ، فنازعه ابن أخته سعد الدولة بن سيف الدولة ، وبعث إليه بجيش وضيق عليه ولحقه ، حتى قتله في قرية صدد سنة ٣٥٨ هـ . وكان الروم البيزنطيون يرون الخلل والضعف السائدين في تلك الحقبة في مصر والشام ، وينتھزون فرصة تطاحن المسلمين بعضهم مع بعض ، فيغيرون من حين إلى آخر على شمالي الشام . وصل ملك الروم (تقفور الفقاش) الذي تقدم ذكره مراراً سنة ٣٥٨ هـ إلى حصص ، وقد أخلاها أهلها ، فأحرقها ورجع إلى بلدان الساحل ، فأقى عليها نهياً وتخريباً ، وعاد ومعه من السبي مئة ألف صبي وصبية كما قدمناه في بحث قلعة بغراس . ذكر ابن حوقل هذه الواقعة في كتابه (المسالك والممالك) قال في بحث حصص : « ودخلها الروم في وقتنا هذا ، وأتوا على سوادها ، وأخربوها ، ثم أن قوماً من سلم من الروم ، استوطنوا فيها ، فأتت البادية عليهم ، تأكل زروعهم وتسلبهم مرة بعد أخرى » ا هـ . - فتأمل بأعمال أهل البادية التي هي في كل عصر ومصر - .

وجاء الفاطميون في تلك الحقبة ينتھزون هذه الفرصة أيضاً ، وينازعون العباسيين الخلافة ، فاستولوا على مصر والشام ، في سني ٣٥٨ - ٣٦٠ هـ ، لكن الشام لم تصف لهم كما ينبغي ، وظلت الحروب ناشبة بين جيوشهم والمتوثبين من العمال والأهلين في بلاد الشام . على أن الحمدانيين خطبوا للفاطمين أبناء مذهبهم الشيعي ، فظلت السلطة في شمالي الشام ومنها حصص بيدهم . وكان منهم بعد سيف الدولة ابنه سعد الدولة ، ولى أحد قواده (بكجور) سنة ٣٦٥ هـ على حصص ، فعمرها هذا ، بأمر مولاه بعد الخراب الذي فعله الروم فيها ، نكاية بسعد الدولة ، الذي لم يعترف بالمعاهدة التي عقدوها مع مولى أبيه قرعويه ، في سنة ٣٥٩ هـ ، وقد قدمنا ذكر ذلك في بحث شيزر والمعرة . وكان في حصص من آثار (بكجور) مأذنة دثرت هي وجامعها من عهد قريب ، كانت عليها كتابة كوفية

تعد من النفائس ، إلا أن بكجور خان بعد حين مولاه ، وحاربه فانكسر وقتل . وعاد الروم سنة ٣٨١ هـ بقيادة (باسيل) إلى حصص ، فنهبوا وسلبوا ، وأحرقوا الجامع ومواقع في البلد ، وتحصن قوم بالمغائر ، فأوقدوا عليهم فأهلكهم الدخان . وعادوا إليها ثالثة سنة ٣٨٨ هـ بقيادة (دوقس) أنطاكية ، فنازلوها ولجأ بعض أهلها إلى كنيسة (مار قسطنطين) تحرمها بها ، فأحرقوها بمن فيها ، وكانت - كما قال المسعودي - إحدى عجائب العالم ، وحملوا نحاسها ورصاصها . فهذا الحرب والحرق اللذين كررها الروم ثلاث مرات مترادفات ، أجهزاً على عمران حصص القديم بالكلية ، وحرماها المعابد العظيمة ، والقصور الفخمة ، والآثار القيمة التي كانت تزدها في عهد الرومانيين والأمويين ، ولم يسعدها الحظ في العصور التالية ، بمن يعمر خرابها ويزيل شقاءها كما ينبغي .

وبعد أن زالت دولة بني حمدان سنة ٤٠٦ هـ ، وزاد ضعف الفاطميين ، تقاسمت أمراء القبائل العربية البلاد الشامية ، وكانت حصص من حصص (صالح بن مرداس) أمير بني كلاب ، صاحب حلب وأعمالها ، ثم أعقبه من بعده ، وكان منهم في حصص شبل الدولة (نصر بن مرداس) ، أسكن سنة ٤٢٤ هـ في حصص الصفح قوماً من الأكراد ، ليحرسوا الطريق بين طرابلس وحصص ، فنسب الحصص من ذلك الحين إليهم كما قدمنا . ثم كان منهم في حصص وسامية سنة ٤٧٥ هـ وما بعدها ، سيف الدولة (خلف بن ملاعب) الذي مر ذكره في بحث سامية ، وكان عسوفاً شريفاً .

ولما جاء السلجوقيون ، وفتحوا حلب سنة ٤٦٣ هـ ، ودمشق سنة ٤٦٨ هـ ، خطبوا للعباسيين ، وأزالوا حكم الفاطميين عن داخل الشام خلا ساحله ، ولما بلغت أخبار (خلف بن ملاعب) ومساويه ، وانحيازهم للفاطميين مسامع السلطان (ملكشاه) السلجوقي ، أمر ابن أخيه تاج الدولة (تتش) ملك الشام ، أن يستخلص حصص منه ، فحاصره تاج الدولة سنة ٤٨٣ هـ وأسرته ، وقيل استلم حصص منه بالأمان ، فتوجه خلف إلى حصص أفامية وملكه ، إلى أن استخلصوه منه أيضاً كما قدمنا ، وظلت حصص تابعة لتاج الدولة (تتش) إلى أن قتل سنة ٤٨٧ هـ ، فخلفه ابنه الأول تاج الملوك (رضوان) في حلب ، وابنه الثاني شمس الملوك (دقاق) في دمشق . وفي سنة ٤٩٠ هـ عهد تاج الملوك بمقالة حصص لأتابكه جناح الدولة (حسين) ، فجاء وحصنها وأحكم قلعها . وفي زمنه جاء الصليبيون ، بعد أن استولوا على أنطاكية والمعدة ، فصالحهم جناح الدولة على غرامة أداها

ودفع شرهم ، ولكنه بعد رسوخهم في الساحل ظل يناوئهم ، وبينما كان على أهبة السفر إلى حصن الأكراد ، لدفع الصليبيين الذين أقدموا على حصره ، اغتاله سنة ٤٩٦ هـ ثلاثة من الإسماعيلية في الجامع ، وهو داخل لأداء صلاة الجمعة ، فأراد الصليبيون انتهاز هذه الفرصة ، للاستيلاء على حصص ، ووصلوا إلى الرستن ، فاستنجد أهل حصص بملك دمشق شمس الدين دقاق وأتابكه طغتكين ، فجاءا ، ولما عرف الإفرنج بهما أحجموا ورحلوا . وفي ٥٠٦ هـ تولى حصص (قراجه) أحد مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي ، ولما مات خلفه ابنه (خير خان) ، وفي سنة ٥١٧ هـ هاجم طغتكين صاحب دمشق حصص^(١) وأحرق ربضها ، ولكنه لم يستطع استخلاصها من خير خان ، وفي سنة ٥٣٠ هـ سلم أبناء خير خان حصص إلى صاحب دمشق (شهاب الدين محمود بن طغتكين) لاستمرار عماد الدين زنكي صاحب حلب في مضايقتها ، ولعجزهم عن دفعه ، وذلك لقاء إقطاعه لهم تدمير والرحبة . لكن نواب عماد الدين زنكي في حماة ، لم ينفكوا عن الغارة على حصص ، ورعي زروعها إلى أن أسفرت المراسلات ، عن تسليم حصص لعماد الدين ، فأورثها هذا لابنه نور الدين محمود . وفي عهد نور الدين خربت حصص ، بالزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ٥٥٢ هـ ، فرمها نور الدين كغيرها .

وأقطع نور الدين حصص والرحبة وتدمر إلى (أسد الدين شيركوه) ابن عم صلاح الدين الأيوبي ، ثم أرسل نور الدين شيركوه مع صلاح الدين إلى مصر لدفع الإفرنج عنها ، فوفق إلى ذلك ، ثم توفي فيها سنة ٥٦٤ هـ ، ولما مات أخذ نور الدين حصص من ولده ناصر الدين محمد ، وأقطعها إلى غيره ، ولما ملك صلاح الدين بلاد الشام أخذ حصص من عمال الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين سنة ٥٧٠ هـ ، وذلك بعد حصار وقتال ، لكنه لم يفتح قلعتها إلا عقيب رجوعه من حلب ، وكان الإفرنج قد نازلوا حصص في غيابه ، فلما أتى رحلوا عنها ، فحصر القلعة إلى أن ملكها في تلك السنة . وفي سنة ٥٧٤ هـ أقطع صلاح الدين حصص ومضافاتها إلى ناصر الدين محمد المذكور ، كما أقطع حماة إلى ابن أخيه تقي الدين عمر ، فبقي محمد في حصص حتى سنة ٥٨١ هـ ، قيل أن

(١) من الغريب أن لا يعرف الآن أحد في دمشق قبر هذا الرجل ، الذي يعد من عظماء ملوك المسلمين ، في الصلاح والعدل ، والعمران والجهاد .

صلاح الدين دس عليه من سقاه سماً ، لدسيصة بلغته عنه ، وتقلته زوجته بنت عمه ست الشام بنت أيوب ، إلى تربتها بمدريستها في دمشق . ومملك حص بعده ولده أسد الدين شيركوه الثاني ، وعمره اثنتا عشرة سنة ، وكانت له أيضاً الرحبة وتدمر وماكسين (٩) من بلد الخابور . وقد ظل شيركوه هذا ملكاً ستاً وخمسين سنة ، وكان يلقب بالملك المجاهد ، حصره الصليبيون سنة ٦٠٤ هـ ، فلم يكن له بهم قوة ، فاستنجد بالملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب فأنجده ، وقد قدمنا في بحث سلمية أنه كان عسوفاً برعيته ، عدواً لدوداً لأبناء عمه التقويين أصحاب حماة ، ينازعهم الملكية على سلمية ، عمر سنة ٦٢٧ هـ قلعة شميميس وقطع ماء القناة التي كانت تجري من سلمية إلى حماة ، فبيست بساتينها ، ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حماة ، فسد مخرجه من بحيرة قدس ، فبطلت نواعير حماة والطواحين ، لكن العاصي عاد ، فهدم السدود ورجع إلى مجراه . وقد آذى شيركوه التقويين ومدينة حماة كثيراً ، وأضعف شأنهم وشأنها ، إلى أن مات سنة ٦٣٧ هـ في حصص ودفن في تربته داخل البلد^(١) ، فخلفه ابنه المنصور إبراهيم ، وقد اشترك هذا في المعارك التي نشبت بين جيوش الملك الصالح إسماعيل والخوارزمية ، فانتصر في بعضها وفشل في البعض ، إلى أن مات سنة ٦٤٤ هـ في دمشق بالسل ، فنقل إلى حصص ، ودفن قبلي البلد في مسجد الخضر ، وخلفه ابنه الأشرف موسى ، فسلم سنة ٦٤٥ هـ قلعة شميميس ، إلى الملك الصالح أيوب ملك مصر والشام . وفي سنة ٦٤٦ هـ أرسل الملك الناصر صاحب حلب ، وحاصر حصص وأخذها من الأشرف موسى ، وعوضه عنها تل باشر ، مضافاً لما بيده من الرحبة وتدمر . ولما جاء هولاءكو طاغية التتر وقاتل الناصر ، واستولى على حلب سنة ٦٥٧ هـ التجأ إليه الأشرف موسى ، فأكرمه وأعاد إليه حصص . وكان هولاءكو أمره أن يخرب

(١) هذه التربة في حي آل السباعي في حصص ، تحت قبة يظهر أنها كان حولها فيما مضى بناء فخم دثر ، وأضحت التربة في عهدنا ، ضمن دار حقيرة ، يقطنها أناس فقراء ، لا يعرفها إلا بعض النساء ، اللواتي يزرنها للاستشفاع بصاحب التربة ، لا يدرين من هو إلا أنه من الأولياء . ولما زرتها في ربيع سنة ١٢٥١ هـ ، وجدت القبر منبوشاً نبشاً فظيماً ، من عهد وجيز ، بيد أناس مجهولين ، يظهر أنهم من لصوص العاديات . وقد أسفت وتأملت لهذه المهانة ، وانتهاك الحرمة اللتين أنزلتنا بالملك المجاهد ، وقد كان على علاته عظيماً مهاباً ، خدم هو وأعتابه حصص ، واستحق حفظ الكرامة وعدم الإزعاج في مرقدته على الأقل . وقد أخبرت إذ ذاك أولياء الأمور في حصص وبعض متعلميها ، ونشدتهم العناية بما جرى ، اتقاء لما قد يجري في مرقد أسلافنا وآئارهم ، فكانني كنت أنفخ في رماد .

قلعة حصص فلم يخرب منها إلا قليلاً لأنها بلده . ولما أوقع الملك المظفر قطز صاحب مصر بالتتر ، في عين جالوت (غور بيسان) سنة ٦٥٨ هـ ، كان الأشرف موسى معهم ، ففارقهم وطلب الأمان من المظفر قطز ، فأمنه وأقره على حصص ومضافاتها . وفي سنة ٦٥٩ هـ عاد التتر إلى الشام ، ووصلوا إلى حصص ، فلاقتههم جموع المسلمين في ظاهرها ، في السهل الممتد بينها وبين تلييسة ، وكانوا بقيادة الأشرف موسى صاحب حصص ، والمنصور صاحب حماة فانكسر التتر . وفي سنة ٦٦٢ هـ مات الأشرف موسى دون عقب ، ودفن عند جده ، فانقرض بموته ملك آل شيركوه والبيت الأسدي .

وتدل عبارة التواريخ ، على أن هؤلاء آل شيركوه الأسديين الأيوبيين الذين تملكوا حصص زهاء مئة سنة - خلا بعض فترات كانت تنزع فيها من أيديهم - كانوا خمسة ملوك ذوي سطوة تحاف ، وبأس يخشى ، كما جاء في التعريف ، وقد خدموا حصص ، وعمرها قلعتها وأسوارها ، ودافعوا عنها ، لكن لم تحمد سيرتهم ، ولم تظهر منهم أفعال مشكورة نحو خدمة العمران والعلم ، ومناوأة الصليبيين والتتر ، بقدر ما فعله أبناء أعمامهم التقويين الأيوبيين في حماة . ولعله كان لهم في قصر مدتهم ، وفقدان الأسباب التي قد تكون تيسرت للتقويين وتعسرت عليهم ، ما يبرر هذا التقصير .

ومما يستحق الذكر ، أن الصليبيين حاولوا الاستيلاء على حصص مراراً ففشلوا ، كما فشلوا في حلب وحماة ودمشق ، وذلك بهمة عمال حصص السلجوقيين وملوكها آل شيركوه ، على مانو به وامتدحه الرحالة ابن جبير ، لكن الصليبيين ونحس بالذكر الفرسان الاستبارية ، المرابطين في حصص الأكراد ، كانوا لا ينفكون عن الإغارة عليها ، وفرض الأتاوات على أهلها ، كما كانوا يعملون في حماة ، حتى أن ضمان صيد السمك في بحيرة حصص كان لهم .

ولم تعد تذكر التواريخ أسماء من تولوا نيابة حصص في دولة المماليك ، ولا أحداث حصص ، إلى أن وقع سنة ٦٨٠ هـ مصاف عظيم ثان في مكان المصاف الأول ، وذلك في عهد الملك المنصور قلاوون ، فانكسر التتر أيضاً ، وكانوا بقيادة (منكوتر بن هولاكو) . ثم وقع مصاف ثالث سنة ٦٩٩ هـ في مكان أسماء المؤرخون بجمع المروج ، وزعموا أنه في شرقي حصص ، على نحو نصف مرحلة منها ، وليس الآن لهذا الاسم أثر ، فهو على ما أظن وادي

الميدان ، عند قرية وريدة ، التي تبعد ٢٢ كيلومتراً عن حمص إلى الشرق ، أي مقدار نصف المرحلة التي ذكرت ، وليس ثمة أصلح من هذا المكان لمثل ذلك المصاف العظيم . وكان هذا المصاف في عهد الملك الناصر (محمد بن قلاوون) دارت الدائرة فيه على المسلمين ، وأدى الأمر لوصول التتر الذين كانوا بقيادة (غازان بن أرغون) إلى دمشق وغزة والكرك ، وإفحاشهم في الشام كله ، ظلوا على ذلك ، حتى عاد وانتصر عليهم الملك الناصر المذكور في معركة مرج الصفر ، قرب شقحب جنوبي دمشق سنة ٧٠٢ هـ . وكانوا إذ ذاك بقيادة (قطلوشاه) نائب غازان . ولما جاء تيمورلنك سنة ٣٠٨ هـ وخرب حلب وحماة ، قيل إنه لم تطل يده إلى حمص ، بل وهبها إلى خالد بن الوليد ، ويظهر أن هذه المعارك الثلاث ، والحرب الذي أورثه تيمورلنك في عامة مدن الشام ، والطاعون الهائل الذي حصد سكان حمص فيما حصده من بقية مدن الشام سنة ٧٤٣ هـ ، وفتن الأعراب التي بدأت في تلك الحقبة ، كما قدمنا في بحث سلمية ، وأخرت أرباض حمص وقراها الشرقية ، التي لا حياة لمحص بدونها ، كل ذلك حط شأن حمص فوق ما كان منحطاً من قبل ، بفعل الثورات والروم والزلازل والصليبيين ، فقل سكانها وخمل ذكرها كثيراً .

ولما فتح العثمانيون الشام سنة ٩٢٢ هـ ، جعلوا حمص أحد الألوية الخمسة ، التابعة لإيالة طرابلس ، وهي : طرابلس وحمص وحماة وسلمية وجبلية . ونال حمص في العهد الثاني ، مانال القطر الشامي كله من الإهمال وسوء التدبير ، يحكمها تارة أمراء ألوية أتراك ، وتارة متسلمون يدعون بالأغوات ، يتبعون حيناً طرابلس ، وحيناً دمشق . ومن هؤلاء الأغوات أربعة من آل سويدان ، رفعتهم أحداث تلك الحقبة ، فتعاوروا الحكم على حمص ، من غرة القرن الثاني عشر إلى آخره . ولا تزال أعقاب هذه الأسرة ، سائدين في قرية حسية ، جنوبي حمص كما سيأتي ذكره . وظلت حمص مهجورة الذكر ، ضعيلة الشأن ، لخراب أرباضها وقراها الشرقية ، من دوام فتن الأعراب ، وغاراتهم التي كانت تصل إلى أبواب حمص ، وذلك في عهد العثمانيين كله ، كما أيده سائحنا (أوليا جلبي) ، تغلق أبواب السور بعد الغروب ، وينزوي كل امرئ إلى داره ، لا يجروء على الخروج منه ، إلى أن جاء إبراهيم باشا المصري سنة ١٢٤٨ هـ ، واستولى عليها ، بعد أن كسر الجيش العثماني مرتين ، الأولى في المعركة التي جرت في سهل قرية الزراعة ، جنوبي القصير في ٥ ذي القعدة سنة ١٢٤٧ هـ الموافق ٤ نيسان ١٨٣٢ م ، وكان قائد الجيش عثمان باشا والي

طرابلس ، والثانية في المصاف العظيم الذي جرى في ٩ صفر ١٢٤٨ هـ الموافق لـ ٨ تموز ١٨٣٢ م ، في السهل الممتد جنوبي كروم حص الحالية ، في أرض السوامات على طرفي طريق دمشق ، وكانت جبهة الجيشين تمتد من شرقي تل بابا عمرو ، إلى غربي فيروزة ، وقد اشتركت إذ ذاك مدافع قلعة حص ، بإطلاق قنابلها على المصريين فلم تفد ، وانكسر الجيش العثماني ، وكان قائده محمد باشا والي حلب ، الذي أوفده السردار حسين باشا المرابط وقتئذ في بيلان . وبقيت حص في حوزة إبراهيم باشا ثماني سنوات ، نشر فيها كما نشر في غيرها من مدن الشام ، العدل والنظام ، ووطد الأمن في ضواحيها . وأكد لي بعض المعمرين ، أنه عمرت في تلك المدة الوجيزة ، بعض قرأها الشرقية ، كالشرفة وشمسين ، وشنشار والزعفرانة . ولم يتبرم أهل حص من دولة الباشا المذكور ، إلا من قيامه لتجنيد الشبان ، وإثقال كاهلهم بالضرائب ، وتسخيرهم بإشادة المسلحة والمستودع العسكري ، على أنهم لم يثوروا عليه كما ثارت بعض البلاد الشامية ، ضد هذه المحدثات ، خلافاً لما قاله (سوبرنهايم) في الملعنة الإسلامية في مادة (حص) ، أن المحصين ثاروا على إبراهيم باشا ، لما استبد عماله فيهم ، ولم يثوبوا إلا بعد لأي . ولم أدر من أين استقى هذا الخبر ، وقد تأكدت من المعمرين عدم وقوعه ، ناهيك عن عدم ذكره في التواريخ الباحثة عن أعمال الباشا المذكور . ولما عاد الحكم للعثمانيين سنة ١٢٥٦ هـ ، عادت الفوضى ، واستأنف أعراب البادية غاراتهم ، فرجع الخراب إلى القرى التي ذكرنا عمرانها في عهد إبراهيم باشا ، وظلت حص على هذه الحالة القلقة نحو ربع قرن ، وهي مركز قضاء يتبع لواء حماة ، إلى أن حسنت الحالة في الجملة بعد سنة ١٢٨٠ هـ ، وكان عدد سكانها لا يتجاوز إذ ذاك عشرة آلاف فنشطت من كبوتها ، ونمت زراعتها بنسبة ازدياد الأمن والعمران في براريها الشرقية ، سيما بعد أن أعاد (مدحت باشا) إليها القرى القريبة منها ، وقد كان معظمها تابعاً لحماة ، أو لحصن الأكراد ، وبعد أن عني السلطان (عبد الحميد) باقتناء الضياع والمزارع ، كما قدمنا ذكره في بحث الحماة ، وكان له منها في شرقي حص حصّة موفورة . واتسعت صناعتها وتجارتها ، بعد أن مدت الطريق المعبدة بينها وبين طرابلس وحماة ، ومشت حافلة (الدليجانس) في سنة ١٣٠٢ هـ ، ثم ازداد هذا الاتساع بعد مد السكة الحديدية الذاهبة إلى رياق وحلب سنة ١٣٢٠ هـ ، مما جعل حص ممر تجارة الشام الشمالية على مأسلفنا ، وبعد الحرب العامة جعلت مركز لواء ، يتبعه قضاء المركز والقريتين فحسب .

غابر حمص وحاضرها : وإليك مقالته جغرافيو العرب في وصف حمص : قال
اليقوبي من رجال القرن الثالث في كتابه (البلدان) « ومدينة حمص من أوسع مدن
الشام ، وأهلها جميعاً من يين ، من طيء وكندة ، وحجر وكتب ، وهمدان وغيرهم » اهـ .
وفي قوله هذا إشارة إلى ما كانت عليه حمص حتى القرن الثالث ، من الوسعة والعمران ، إلى
ان القبائل العربية اليمانية التي توافدت بعد الفتح الإسلامي ، استقرت في حمص . وقيل
أن سكنى العرب في حمص ، ومعرفتهم بها قديمة ، ذكرها امرؤ القيس في قوله :

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولا بن جريج كان في حمص أنكرا

وذكرها الأعشى الكبير ميمون بن قيس في قوله :

ولقد طفت للال آفاقه عان فحمص فأورشليم
فنجران فالرد من حير فإني مرام لله لم أرم

وقال ابن الفقيه الهمداني من رجال القرن الثالث أيضاً ، في كتابه (البلدان)
« وقالوا حمص من بناء اليونانيين ، وزيتون فلسطين من غرسهم ، وكانت مفروشة
بالصخر ، وهي اليوم كذلك ، ومن عجائب حمص صورة على باب المسجد الجامع ، بجانب
البيعة على حجر أبيض ، أعلى الصورة صورة إنسان ، وأسفلها صورة عقرب ، فإذا لدغ
العقرب إنساناً ، فأخذ طيناً ووضع على تلك الصورة ، ثم أراقه بالماء وشربه ، سكن وجعه
وبرئ من ساعته ، ويقال أن تلك الصورة طلسم للعقرب خاصة ، وخراج حمص ٣٤٠٠٠٠
دينار ، وأقاليمها كثيرة ، منها إقليما سامية وتدمر » . وقال ابن حوقل في القرن الرابع في
كتابه (المسالك والممالك) : « حمص مدينة في مستواة خصبة ، صحيحة الهواء ، من أصح
بلدان الشام هواء وتربة ، في أهلها خبال مفرط - وفي بعض النسخ جمال مفرط - وليس بها
عقارب أو حيات ، وإذا دخلت الحية أو العقرب إليها ماتت ، ولها مياه وأشجار وزروع
كثيرة ، وأكثر زروع رساتيقها أعزاء ، وبها بيعة بعضها المسجد الجامع ، وشطرها
للنصارى ، فيه هيكلهم ومذبحهم ، وبيعتهم من أعظم بيع الشام ، ودخلها الروم في وقتنا
هذا (يشير إلى مجيئهم سنة ٢٥٨ هـ) ، وأتوا على سوادها وأخربوها ، وجميع طرق حمص
من أسواقها وسككها مفروشة بالحجارة والبلاط ، وزاد اختلاؤها بعد دخول الروم إليها .
الخ .. » اهـ . وكرر الأصبخري من رجال القرن الرابع في كتابه (مسالك الممالك)

عبارة ابن حوقل ، ولم أدر أيها نقل عن الآخر . وزاد أبو عبد الله المقدسي ، من رجال ذلك القرن أيضاً في كتابه ، (أحسن التقاسيم) خبر تمثال النحاس ، الذي كان فوق قبة الجامع ، واقفاً على سمكة ، تديرها الأرياح الأربع ، ثم قال : وفي حمص أقاويل لاتصح ، والبلد شديد الاختلال ، متداع إلى الخراب ، والقوم حمقى (كذا) ، والأسعار بها رخيصة ، والقصة قريبة من البادية رحبة طيبة « ا هـ .

قلت ؛ يظهر مما ذكره هؤلاء الجغرافيون ، أن أسواق حمص كانت - كما هي في يومنا - مبلطة في عهدهم ، وربما من قبلهم أيضاً ، وأن مسجدها الجامع كان لا يزال نصفه للنصارى ، وما يستغرب منهم ، اهتمامهم بذكر العقارب والحيات ، واستحالة دخولها لحمص ، واعتقادهم بتأثير الطين الذي يوضع على الصورة التي كانت فيما قالوا على باب المسجد الجامع ، وقد نقل سائحنا (أوليا جلي) هذه الخرافة ، وأيدها بدليل ، زعم أنه وقع مع مملوك له ، ولعله نقل هذا الخبر عن أولئك الجغرافيين وعن غيرهم ، من مؤلفي العرب كالقزويني في كتابه (عجائب المخلوقات) وابن الأثير في كتابه (تحفة العجائب) وابن الشحنة في كتابه (الدر المنتخب في تاريخ حلب) وما قاله الأول ، « لا يكاد يلدغ بها عقرب أو تنهش حية ، ولو غسل ثوب بماء حمص لا يقرب عقرب لابسه » ، وما قاله الثاني : « ويحمل من تراهيها إلى البلاد لمداواة لدغ العقرب » . وما قاله الثالث : « وإن العقرب لا تقرب ثياب الحمصي وأمتعته ، مادام عليها من غبار تراهيها » ا هـ .

أما الإدريسي وهو من رجال القرن السادس ، فقد أجاد وصف حمص قبل خرابها بزلزلة ٥٥٢ هـ ، وذلك في كتابه (نزهة المشتاق) قال : « أما أرض حمص ، فإن مدينتها حمص وهي حسنة ، في مستو من الأرض ، وهي عامرة بالناس ، والمسافرون يقصدونها بالأمثلة والبضائع في كل فن ، وأسواقها قائمة ، ومسرات أهلها دائمة ، وخصبهم رغد ، ومعاشهم رخيصة ، وفي نسائها جمال وحسن بشرة ، وشرب أهلها من ماء يأتيهم في قناة من قرب قرية جوسية^(١) ، والمدينة منها على مرحلة مما يلي دمشق ، ونهر الأرمنت المسى

(١) كانت تأتي قناة جوسيه ، وتصب في خزان يقع في شرقي المدرسة الإنكليزية ، في حي باب السباع ، ومنه كانت تتوزع إلى جميع أحياء البلدة . ولا تزال القساطل الفخارية الحمراء ظاهرة في أماكن عديدة في أكثر أنحاء حمص . وقد حاول الحصريون سنة ١٣٢٢ هـ جر ماء هذه القناة كما كانت في الماضي ، وجمعوا له مبالغ ، لكنهم أحجموا لما رأوا عظم المشروع وعجزهم عنه .

المقلوب ، يجري على بابها بمقدار رمية سهم ، ولهم عليه قرى متصلة ، وبساتين وأشجار ، وأنهر كثيرة ومنها تجلب الفواكه إلى المدينة ، وكانت في مدة الإسلام من أكثر البلاد كروماً ، فتلّف أكثرها ، وثراها طيب للزروعات واقتناء الغلات ، وهوائها أعدل هواء يكون بالشام . ومدينة حصص مطلّسة ، لا يدخلها حية ولا عقرب ، ومتى أدخلت على باب المدينة هلكت في الحال ، ويحمل من ترائها إلى سائر البلاد ، فتوضع على لسعة العقرب فتبرأ ، وبها على القبة العالية التي في وسطها ، صنم من نحاس على صورة الإنسان الراكب ، يدور مع الريح حيثما دارت . وفي حائط القبة حجر عليه صورة عقرب ، فإذا جاء إنسان ملدوغ ، يضع الطين على اللسعة ، فتبرأ للحين ، وجميع أزقتها وطرقها مفروشة بالحجر ، وزراعتها مباركة كثيرة ، وزروعها تكتفي باليسير من المطر والسقي ، وبها مسجد وجامع كبير من أكبر جوامع مدن الشام » ا هـ .

ومر الرحالة ابن جبیر في القرن السادس بمحص سنة ٥٨٠ هـ ، ولم تكن قد نهضت من عثرتها بعد زلزلة سنة ٥٥٢ هـ ، والصليبيون لا ينفكون عن الغارة عليها ، فقال : « حصص فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة ، موضوعة في بسيط من الأرض ، عريض مداه ، لا يخترقه النسيم بمسراه ، يكاد البصر يقف دون منتهاه ، أفيح أغبر ، لاماء ولا شجر ولا ظل ولا ثمر ، فهي تشكي ظمأها ، وتستقي على البعد ماءها ، فيجلب لها من نهرها العاصي ، وهو منها بنحو مسافة الميل ، فعليه طرة بساتين ، تجتلي العين خضرتها ، وتستغرب نضرتها ، ومنبعه في مغارة بسفح جبل فوقها بمرحلة ، بموضع يقابل بعلبك أعادها الله ^(١) ، وهي عن يمين الطريق إلى دمشق . وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والترس بالعدو ، لمجاورتهم إياها ^(٢) ، وبعدهم في ذلك عن أهل حلب . فأحمد خلال هذه البلدة هواءها الرطب ، ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه ، فكان الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيه ، وبقبلي هذه المدينة قلعة حصينة منيعة ، عاصية غير مطيعة ، قد تميزت وانحازت بموضعها عنها ، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن

(١) كانت بعلبك سنة مرور ابن جبیر في حوزة بهرام شاه حفيد صلاح الدين الأيوبي ، ولم تذكر التواريخ قط دخول الصليبيين إليها ، وخروجها من يد الأيوبيين ، حتى يصح دعاء ابن جبیر بإعادتها . فكيف جاز عليه هذا الخطأ ؟

(٢) عنى بالعدو صليبي طرابلس وحصن الأكراد .

الوليد رضي الله عنه ، سيف الله المسلول ، ومعه قبر ابنه عبد الرحمن ، وقبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهم . وأسوار هذه المدينة في غاية العتاقة والثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود ، وأبوابها أبواب حديد ، سامية الإشراف ، هائلة المنظر ، رائعة الإطلال والأناقة ، تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة ، وأما داخلها ماشئت من بادية شعناء ، خلقة الأرجاء ، ملفقة البناء لإشراق لآفاقها ، ولا رونق لأسواقها ، كاسدة لآعهد لها بنفاقها ، وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة ، وهو معقل العدو ، فهو منه تترأى ناره ، ويحرق إذا يطير شراره ، ويتعهد إذا شاء كل يوم مغاره ، وسألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة هل فيها مارستان ، على رسم مدن هذه الجهات ، فقال : وقد أنكر ذلك ، حصص كلها مارستان ، وكفاك تبييناً شهادة أهلها فيها وبها مدرسة واحدة ، وتجد في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بعد ، في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها ، بعض شبه بمدينة إشبيلية من بلاد الأندلس ، يقع للحين في نفسك خياله ، وبهذا الاسم سميت في القديم ، وهي العلة التي أوجبت نزول الأعراب أهل حصص فيها ، حسبها يذكر ، وهذا التشبيه وإن لم يكن بذاته ، فله لحة من إحدى جهاته « اهـ .

وما يستغرب أن خبر الخبال والحق ، اللذين وصف ابن حوقل والمقدسي بها أهل حصص ، في القرن السادس ، كرره ياقوت في القرن السابع ، وزاد عليه وصمات أخرى ، حملته على ذكرها بواعث نفسانية على مانظن ، قال : « ومن عجيب ما تأملته من أمر حصص ، فساد هوائها وتربتها (كذا) اللذين يفسدان العقل ، حتى يضرب بمحافتهم المثل ، أن أشد الناس على علي رضي الله عنه بصفين مع معاوية كان أهل حصص ، وأكثرهم تحريضاً عليه ، وجداً في حربه . فلما انقضت تلك الحروب ، ومضى ذلك الزمن ، صاروا من غلاة الشيعة ، حتى أن في أهلها كثيراً ممن رأى مذهب النصيرية ، وأصلهم الإمامية ، الذين يسبون السلف ، فقد التزموا الضلال أولاً وآخرأ ، فليس لهم زمان كانوا فيه على الصواب » . وذكر ياقوت أيضاً في حديث الدير الذي كان في الميلاس ، أجل متنزعات حصص على العاصي ، أبياتاً من الشعر ، وصف بها أهل حصص بقلعة العقل ، وذلك في حكاية موت الشاعر البطين ، الذي كان نائماً في ذلك الدير للاستشفاء من مرضه ، واعتقاد أهل حصص ، أن الذي أماته هو الشاهد المدفون في الدير ، وقيامهم لهدمه ، وكرر ياقوت أيضاً ، حديث صورة الإنسان وصورة العقرب نقل ذلك عن تقدمه . وقال أيضاً :

وبحمص من المزارات والمشاهد مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبها دار خالد بن الوليد وقبره فيما يقال ، وبعضهم يقول أنه مات بالمدينة ودفن بها ، وهو الأصح ، وعند قبر خالد عياض بن غم القرشي رضي الله عنه ، الذي فتح بلاد الجزيرة ، وفيه قبر زوجة خالد بن الوليد وقبر ابنه عبد الرحمن ، ويقال أن خالد بن الوليد مات بقرية على نحو ميل من حصص ، وأن هذا الذي يزار بحمص إنما هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية ، وهو الذي بنى القصر في حصص ، وآثار هذا القصر في غربي الطريق باقية . وبحمص قبر سفينة مولى رسول الله ، وقبر قنبر مولى علي بن أبي طالب ، وقبور لأولاد جعفر بن أبي طالب ، ومقام كعب الأبحار ، ومشهد لأبي الدرداء وأبي ذر وغيرهم . وينسب إليها جماعة من العلماء ، من أعيانهم محمد بن عوف بن سفيان أبو جعفر الطائي الحافظ ، ومحمد بن عبيد الله بن الفضل أبو الحصن الكلاعي . إلخ ..

وفي دولة المماليك الأتراك ، زاد انحطاط شأن حصص ، من وفرة مانالها في الحروب الثلاثة ، التي جرت حولها مع التتر ، ناهيك عما كان أصابها من الروم ومن الصليبيين . وبعد أن كانت نيابتها جلييلة ، يليها - حتى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون - مقدم ألف ، صارت بعده طبلخانة . وقد نقل القلقشندي في (صبح الأعشى) ما كتبه الملك المشار إليه في مرسومه ، لأحد أولئك النواب ، ما يشير إلى ذلك الانحطاط ، جاء فيه بعد مقدمة طويلة : « وكانت حصص المحروسة من أكبر الممالك القديمة ، والمدن العظيمة ، تفرق الأقاليم في مدها ، وتمتد عساكرها ، فتعد حماة من جندها ، وهي من الشام المحروس في ملتقى مواكبه ، ومجر عواليه ، ومجرى سوابقه ، ومجمع كتائبه ، طالما كان بها الحرب سجلاً ، وطالما سابت بها الرجال أجالاً ، وكان لنا بها في الحرب يوماً ، عوضنا الله أذناها بما حفظت المعارك - يشير إلى كسرتة في حصص سنة ٦٩٩ هـ ، ونصرتة في مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ ، وقد تقدم ذكرهما - وضاعت الأرض بدماء القتلى ، ففاض إلى السماء ما التقي بالشفق من تلك المسالك ، واتصلت بالبر والبحر من جانبها ، واتصفت بأنها مهب الرياح - يشير إلى وفرة الرياح في حصص - ومركز الرماح لما يهب لنا من بشرى النصر ، ويخفق من عصائبنا المنصورة عليها . إلخ » ...

وجاء بعده شيخ الربوة شمس الدين الدمشقي في القرن الثامن ، يؤيد ذلك

الانحطاط ، ويكرر حديث الحق ، قال : « ومن جنود الشام حصص ، وهي مملكة حسنة ، وبها كرسي الملك ودار الإمارة ونيابة السلطنة ، وهي أصغر ممالك الشام الثانية التركية ، وآخرها رتبة . وحصص مدينة قديمة تسمى سوريا (كذا) ، ماؤها وهواؤها صحيح . ومن حسن بناء حصص أنه لا يوجد بها داراً إلا وتحتها في الأرض مغارة أو مغارتان ، وماء ينبع للشرب ، وهي مدينة فوق مدينة^(١) ، وأهل مدينة حصص يوصف عامتهم بقلّة العقل ، ويحكى عن سوقتهم حكايات شبيهة الخرافات ، ومن أعمالها شمسین وشمیس ، ومدينة سلمية وأربعة أعمال (؟) » اهـ . وكرر أبو الفداء في القرن الثامن في كتابه (تقويم البلدان) ما كتبه غيره ، إلا أنه اتسع في وصف بحيرة قدس ، الذي سننقله في بحثها . ومرابن بطوطة بحمص في القرن الثامن أيضاً فوصفها بقوله : « سافرت إلى مدينة حصص ، وهي مدينة مليحة ، أرجاؤها مونة ، وأشجارها مورقة ، وأنهارها متدفقة ، وأسواقها فسيحة الشوارع ، وجامعها متميز بالحسن الجامع ، وفي وسطه بركة ماء . وأهل حصص عرب ، لهم فضل وكرم ، وبخارج هذه المدينة ، قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله ، وعليه زاوية ومسجد ، وعلى القبر كسوة سوداء » اهـ .

ونقل القلقشندي من رجال القرن التاسع في (صبح الأعشى) عن (التعريف) قال : « وكانت في دار ملك للبيت الأسدي » (يعني أسد الدين شيركوه ، ابن عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب) ، قال : « ولم يزل للملكها في الدولة الأيوبية سطوة تخاف ، وبأس يخشى ، وهي في وطأة من الأرض ، ممتدة على القرب من نهر العاصي ، ومنه شرب أهلها ، ولها منه ماء مرفوع ، يجري إلى دار النيابة بها ، وبعض مواضع بها »

(١) في قوله هنا إشارة إلى تكرر عمران حصص ، بعد كل خراب ، كان يعتريها ، وهو قد حدث مراراً كما قدمناه ، فالجفاف الراجعون بعد الحروب والزلازل كانوا لضعفهم وإسراعهم بتدبير المأوى لأنفسهم ، لا يستطيعون رفع الأنقاض فيبنون فوقها . وهكذا كانت تتوالى أسس الجدران وأصول الحيطان بعضها فوق بعض كما هو الحال في معظم المدن التاريخية القديمة . وقوله تحت دورها مغائر ومياه صحيح ، ولا تزال هذه المغائر ذات الأبار موجودة ، يصل إليها قاصدوها ، لاسيما الجنّة الفارون من ملاحقة رجال الحكومة ، والمتنبون عن العاديات ، وجل هذه المغائر كان خاصاً بحفظ موقى الأمراء والنبل في عهد اليونان والرومان . وقد وجد الأب (لامنس) اليسوعي كثيراً من أحجار الشواهد المكتوبة باللغة اليونانية ، المستخرجة من تلك المغائر وغيرها ، ذكرها في رسالته المسماة Notes epigraphiques et topographique sur l'Emesene المطبوعة سنة ١٩٠٢ م .

قال في (مسالك الأبصار) « وبها القلعة المصفحة ، وليست بالمنيعة ، ويحيط بها وبالبلد سور حصين هو أمتع من القلعة » . قال في (العزيزي) : « ولها من بر بعلبك أنواع الفواكه وغيرها ، وقاشها يقارب قماش الإسكندرية في الجودة والحسن ، وإن لم يبلغ شأوه في ذلك » اهـ . وجاء في كتاب (الدر المنتخب في تاريخ حلب) المنسوب لابن الشحنة نقلاً عن ابن فضل الله ما يأتي : « وظاهرها أعني حص أحسن من باطنها ، لاسيما في زمن الربيع ، وما يلبس به ظواهرها من حلل الربيع الموسقة بالأزهار مامد النظر ، ترنو بأحداق النرجس ، وثغور الأقاح ، ويتوسط بها البحيرة الصافية الماء ، والصفية السماء ، ذات السمك المنقول من الفرات إليها (كذا) ، حتى تولد فيها ، والطير المبتوث في نواحيها . قال ابن الشحنة : وفي بحيرتها يقول الشيخ بدر الدين بن حبيب .

جزيرة حص كعبة الله وأصبحت يطوف بها دان ويسعى لها قاص
ولكنها للهو والقصف حانة ألم تنظروها كيف جاورها العاصي

وفسر جزيرة حص بقوله : « وهي مكان نزهة ، يدور به الماء من سائر جوانبه ، وبه أشجار ، وتدخل إليه في زورق ، وهو عن المدينة نحو ميل أو أقل » اهـ . قلت : ولعله عنى موضع الميلاس المتزه الوحيد في حص . هذا وما شغل بالي عند مراجعة هذه الكتب الجغرافية القديمة ، ما ذكره جميع مؤلفيها ، ونخص بالذكر ياقوت المتحامل كثيراً ، عن الخبال والحاقة (وجعلها الحريري في مقاماته ، وابن الوردي في خريدته رقاعة) المستولية كما زعموا على أهل حص ، وهم كما تعرفهم ، لا يختلفون في الفطانة والنباهة عن بقية الشاميين ، وحص كانت وما برحت تنجب من الشعراء والفضلاء عدداً غير يسير ، وإذا كان فيها من ظاهره يرى ما ذكره ، فذلك مما لا تخلو أي مدينة في الشام وغيرها منه . ووددت أن أصل إلى السبب الذي حدا بهؤلاء الجغرافيين وغيرهم ، لترديد هذه الوصمة التي وصلت ذيولها إلى عهدنا ، وما شغل بالي أيضاً خرافة أن حص مطلّسة ، وأن العقارب والحيات لا تلسع أحداً فيها ، وأن لثربتها خاصة تشفي لسع العقرب وتمنع دخوله ، وشغل بالي بالصورتين اللتين كانتا على باب المسجد الجامع وما فعل الزمان بها ، وقبة العقارب التي كانت إلى جانب هذا المسجد وما جرى بها ، وثم يهيكل الشمس والحجر الأسود ، وما آلا إليه ، والبيعة التي اتخذ نصفها المسلمون جامعاً ومتى رفعوها . وقد سألت

بعض فضلاء المحصنين عن هذه وغيرها ، من المسائل التاريخية والأثرية العائدة لبلدتهم ، فلم أجد من ينقذ غلة . إلا أن أحدهم أجابني عن وصمة الحماقة وحدها ، بما يلخص في : « أن المحصنين كانوا في العصور الإسلامية الأولى ذوي أنفة وعصبية ، جعلتها يشبون مراراً ضد عمال الأمويين والعباسيين ، فتأتيهم الجيوش للتأديب والتنكيل ، فن كثرة الضربات التي أنزلت بهم وشدتها ، صار من يريد التخلص من تبعة هذه الفتن الموقدة ، يتظاهر بالبله والخبال مدة مديدة ، وتعدى هذا التظاهر بعد حين إلى الخلاف على البيوع والعقود وغيرها ، يتوسل به من يريد الإيهام ، ولما كثر عدد هؤلاء المتظاهرين ، صار الغرباء يظنون شيوع ذلك في كافة أهل حمص ، وتناقلت الألسن هذه الشائعة ، ولم يعد في الإمكان التقاطها » اهـ .

وأجابني البعض من شيوخ هذه البلدة أن حمص لا تخلو من الحيات ، لكنها قلما تؤذي ، أما العقارب فلم يروها ، أو أنهم لم يسمعو أنها لسعت أحداً ، إلا أنهم لا يعلمون بخبر القبة والصورتين اللتين كانتا على باب الجامع رصداً للعقارب ، وجل ما يعلمونه ، أنه كان أمام هذا الباب ، حجر كبير فيه صورة عقرب ، يظنون أنه هو الرصد . ولما طلبت أن يروني هذا الحجر الذي نقل ، وألقي أمام باب السوق ، ويكاد يندثر إذ به ناووس كبير ، على أحد جدرانها رسم إكليل من الزهر Guirlande لا يشبه العقرب بحال . ويظهر أن أحداً من هؤلاء الطنانين ، لم يكلف نفسه مؤنة الإمعان ، والتمييز بين رسم الإكليل والعقرب ، ولم يتحقق من أن بعض هذه النواويس ، التي يكثر وجودها في الخرب القديمة ، يحوي أمثال هذه الأكاليل الخاصة بتبجيل الموتى ، وأن من الخطأ الاعتقاد بكونها رصداً للعقارب . على أن أحسن من أجاب عن أسئلتني بين المحصنين كان الخوري البحاثة (عيسى أسعد) فقد قال ما خلاصته : « نتج خبر الحماقة والبلاهة على ما أظن ، عن اشتهاار المحصنين بإخلاصهم في معتقداتهم ومبادئهم ، ويغلب على الخلف تطرفه في تأييد ما يرتئيه ، لا تأخذه فيه هوادة ، ولا يتبصر بالعاقبة ، التي يحرص عليها السياسيون ، فن أمثلة إخلاص المحصنين موقفهم مع الأمويين ، تجاه الإمام علي رضي الله عنه ، والإخلاص الشديد الناتج عن طيب السريرة ، يجعل المرء عرضة للخداع ، لذلك نسبت إليهم الغفلة عما لا يهمهم ، فأرسل بعضهم كلمة في هذا المعنى ، تلقفها عنه سواه ، فذهبت مثلاً » . وقال عن خرافة العقارب والحيات : « منشأ هذا الاعتقاد فيما أرى ، أن تربة حمص غير صالحة

لبيوض العقارب ، وهذا سر فقدان العقارب فيها ، وإذا صدف انتقال عقرب إليها فإنها لاتعمر طويلاً ، ولا تنقف بيوضها فيها . ولعل أحد الجغرافيين سمع أن العقارب لاتعيش في حص طويلاً ، فاستغرب ذلك ، ورأى أن يزيل استغراب قارئيه ، فأضاف إلى العقرب الحية ، فقال ماقاله ، وليس ذلك بثبت . لأن الحيات كانت ولا تزال موجودة في حص ، غير أن قرب المدينة من العاصي ، خفف من سمها ، لما هو معروف من قلة أذى الحيات التي تعيش قرب الماء » . وقال عن الصورة التي نصفها إنسان ونصفها عقرب ، وعن تمثال النحاس الراكب فوق السمكة : « ليست هذه الرواية بعيدة عن التصديق ، فإن هيكل الشمس الذي وضعت أسسه في موضع الجامع النوري الكبير قبل النصرانية ، في زمن رقي فني البناء والنحت الإغريقين ، لا يبعد أن يصور نحأتو اليونان على قبتة وبابه الصورتين الأنثى الذكر ، ولعلهم اختاروا شكلي السمكة والعقرب ، وفضلوها على سواهما ، لأحد سببين أو كليهما معاً . الأول : أن هذين الحيوانين محور عبادة فريق من الناس في هذه الأصقاع ، الأول : لما يتوقعونه من منافعه (ومنه الإله فرجون عند الفلسطينيين) والثاني : لما يخافونه من أذاه . والسبب الثاني : لإمكان اتخاذ هذين الحيوانين رمزاً لتكاثر الذرية ، فيرمزون بها إلى أن من يرضي الإله بعبادته ، تكثر ذريته كذرية السمك في البحر ، والعقرب في البر » . وأجاب عن مصير الحجر الأسود الذي كان في هيكل الشمس : « وأما الحجر الأسود فقد أخذه (اليوكابال) معه إلى رومية ، لما نودي به قيصر ، وذلك ليعزز به موقفه السياسي في تلك الآونة المقلقة ، فلما دالت دولة الحمصيين من رومية ، لم نعد نسمع عن ذلك الحجر شيئاً ، ولعل خصومهم أخفوه ، خشية أن يتخذهم الحمصيون المذكورون ذريعة للعودة إلى العرش » . وأجاب عن البيعة التي اتخذ المسلمون نصفها جامعاً ومتى رفعت : « لما تنصر قياصرة بيزنطية ، حولوا هيكل الشمس إلى كنيسة ، ولما جاء المسلمون اقتدوا بهم ، لكنهم لم يحولوا الكنيسة كلها إلى جامع ، بل اكتفوا بمعظمها من جهة الغرب ، وتركوا القسم الشرقي الأصغر كنيسة . ولما غزا يوحنا ذي مسكي الشام في القرن العاشر الميلادي ، أخذ معه كثيراً من الذخائر اليونانية ، المحفوظة في الشام وفلسطين ، فتنهبته خواطر المسلمين ، إلى الآثار اليونانية ، ولا سيما الدينية منها ، التي جعلت البلاد مباءة لأطباع قياصرة بيزنطية وسواهم ، فأخذوا يطمسون تلك الآثار ، ومنذئذ لم نجد للصورتين المشار إليهما ذكراً ، في مؤلفات جغرافي العرب الأحدث عهداً من ابن الفقيه

جولة أثرية (٢٢)

والمقدسي وابن حوقل ، إذا استثنينا ياقوتاً ، وهذا في رأيي ناقل لاشاهد ، وفي هذا العهد أو بعده قليلاً ، ضمت البيعة الصغيرة إلى الجامع وانقضى أمرها « ا هـ .

هذا وأكرر هنا ما ذكرته في بحث حماة ، أنه لم يظهر في القرون الأخيرة التي تلت القرن الثامن ، أحد من الرحالين أو الجغرافيين ، ينبئنا عما كان عليه إذ ذاك عمران حمص وغيرها من مدن الشام ، سوى سائحننا (أوليا جلبي) الذي وصف حالة حمص في القرن الحادي عشر بإيجاز . ومن الغريب أن ينشأ في عهدنا وقبله ، في جل مدن الشام أناس يدونون تاريخ بلدتهم ووقائعها ، ويصفون عمرانها الغابر والحاضر ، بينا حمص وهي البلدة التاريخية القديمة ، لا يتاح لها أحد يقوم بهذا العمل ، الذي هو في نظري من أجل الخدم الوطنية ، أو أنه أتيح لها ، ولكن لم يتسن لنا العثور عليه ، وقد كان لحص تاريخان : أحدهما لابن عيسى ، والثاني للقاضي عبد الصمد بن سعيد ، ذكرهما (كاتب جلبي) صاحب (كشف الظنون) ، وذكر ياقوت في معجمه ، تاريخ عبد الصمد بن سعيد مراراً ، ولا نعلم إن كانا مفقودين أو موجودين حتى الآن ، في إحدى دور الكتب العربية في الغرب ، فيأتي من ينشر كليهما أو أحدهما . ولما كنت في حمص في ربيع سنة ١٣٥١ هـ أبحث عن هذا الموضوع ، أروني كتاباً مخطوطاً سقيم الإنشاء والخط ، لكاتب مجهول ، جمع فيه الحوادث اليومية التي حصلت في النصف الأول من القرن الثاني عشر ، لكنه ملآن بالتوافه والشوائب ، لا يجدي فتيلاً^(١) . ثم أروني رسالة موقوتة أدبية ، ظهرت في سنة ١٣٥١ هـ اسمها (البحث) ، في كل عدد منها ، مقال موجز عن تاريخ حمص ، للخوري عيسى أسعد المذكور آنفاً ، فأعجبني ورجوت له التوفيق لإنجازه . هذه ملحوظة تساق لكل بلاد الشام ، التي يرجى من فضلائها ، أن يتوفروا على تدوين تاريخ أوطانهم . ومن حب الوطن البحث عن ماضيه ، وعما حواه من المآثر ، وما سبق للأجداد فيه من المفاخر ، وطبع ذلك ونشره ، ليتعظ به الخلف ، فيحتذي أو يجيد ما عمله السلف .

ومنذ نصف قرن ، زار حمص بعض الأثريين من الإفرنج ك (واد ينكتون وسوبر نهام وهرزفيلد وفان برشم ودوسسو ورونزفال ولامنس وغيرهم) فكتبوا عنها ، واهتم

(١) رأيت بعد حين في مكتبة الجامعة الأميركية ، في قسم المخطوطات العربية ، نسخة كاملة من هذا المخطوط ، أكبر حجماً وأصح خطأ من نسخة حمص .

(هرزفيلد) بوصف الجوامع والمباني الأثرية ، و (سوبرنهايم) باستنساخ الكتابات العربية القديمة في تلك الأماكن ، وعن (دوسسو) بالآثار والرقم اليونانية والبيزنطية ، وذكرها (إيزامبر وشوفه ومونارشه) في أدلتهم . وأكثر هؤلاء زار حصص قبل نهوضها ونموها الحديثين ، فلم تنشرح إذ ذاك صدورهم لأحيائها الملتفة ، وأزقتها الملتوية ، ودورها المتراسة ، وبريتها العارية ، فلم يحمدا مناظرها ، ولم يجدوا فيها من المباني الأثرية ، والمشاهد الصناعية والطبيعية ، ما يجلب إليهم إطالة الوقوف فيها . وقد استغربوا احتفاظ عامة أهلها ، بأزيائهم وعاداتهم القديمة ، وعدوا ذلك من قبيل التعصب ، الذي لم تخل منه على زعمهم ، حتى نساء النصارى المتحجبات^(١) .

وإليك ما كتبه أحدهم (فان برشم) : « تقوم مدينة حمص على الضفة اليمنى من العاصي ، وسط سهل خصب مطرد ، ومنظرها دميم ، ويعزى ذلك دون ريب ، لقلة بساتينها ، ولدورها المبنية من التراب والأحجار الحرية السود ، التي حببائها الضخمة تجعل لها مرأى صقيلاً . والأبنية الخاصة بالعهد العربي ، قليلة الوجود في حمص ، وكانت حصص محاطة بسور زال تقريباً كله ، إنما بقيت منه أسماء الأبواب ، الدالة على المواقع التي كانت لها^(٢) .

(١) كان نساء النصارى في جل مدن الشام ، حتى غرة القرن الحالي وبعده ، يحتجبن كالمسلات ، إلى أن رفعنه ونبدنه ، ولم يبق منهن سوى من كان في إلب وحص وحماة ، فهؤلاء ما برحن حتى يومنا ، يحتجبن مجالس الرجال إلا قليلاً ، ويحتجبن ولكن بمعطف شف ، ونقاب نهه ، يشبهن بها المسلمات المتأنقات في دمشق وحلب . على أن هذا الحجاب قد قل في حمص عما قبل ، وهو مائل دون ريب للزوال ، كلما تقدمت السنين وسمت المدارك .

(٢) لا يزال بعض أقسام هذا السور وأبراجه بادياً للعيان ، في عدة أماكن ، لاسيما في شرقي حمص بين باب الدريب وباب تدمر ، وفي شماليها عند باب السوق ، وأسماء الأبواب التي ذكرها (فان برشم) هي : باب هود وباب المسدود ، وباب التركان وباب السباع ، وباب الدريب وباب السوق ، ظلت هذه الأبواب تغلق من قبل عمال المكس والجوراس إلى سنة ١٢٨٧ هـ ، التي ألغت الدولة فيها جباية المكس في المدن الداخلية ، ومن ذلك الحين فتحت الأبواب المذكورة ، وصارت تمتد إليها أيدي التخريب ، حتى لم يبق من جملها إلا الاسم ، وقيل إنه كان حول حصص في عهد عمرانها الغابر ، سور أعظم وأوسع دائرة من سورها الحالي ، لاتزال آثاره ظاهرة ، حول بناء شركة الكهرباء شمالي المحطة ، وبين الكروم الجنوبية التي شرعت السلطة العسكرية الفرنسية تبني فيها في سنة ١٢٥٢ هـ .

وقد رأينا أمام أطلال الباب المسدود ، المبني في جنوبي البلدة ، والذي حوله برج مربع حجراً ممدداً على الأرض ، فيه كتابة عربية ، باسم الملك المنصور إبراهيم ، تاريخها سنة ٦٤١ هـ^(١) .

وفي الجنوب الغربي من البلدة ، قرب الباب المسدود ، قام تل صناعي على ما يظهر ، كما هو الحال في بقية مدن الشام فوقه القلعة ، وقد كان جل هذه القلعة في غرة القرن التاسع عشر عامراً ، - وقد رآها السائح بيليون سنة ١٥٤٧ م ، كما رأى السور أيضاً - ، وفي سنة ١٨٩٥ م حينما زرناها لم يكن باقياً فيها سوى أقسام من الجدران ، وبرج خراب في شمالها ، عليه كتابة عربية باسم الملك المجاهد (شيركوه) سنة ٥٩٤ هـ . والجامع الكبير قام وسط المدينة ، مكان بيعة القديس يوحنا ، ومكان معبد وثني على ما يظن ، لأنه يحتوي على أعمدة وقطع قديمة مختلفة ، ويظن (وادينكتون) أن هذا الجامع ، مكان هيكل الشمس القديم ، وهو مصيب في ظنه ، على ما نرى نحن أيضاً ، بدليل تحول أكثر المعابد القديمة في الشام والأناضول والجزيرة إلى بيع ، فجوامع . والجامع بناء متسع ، مستطيل الشكل ، يحتوي على صحن وسط في السعة ، تحيط به أروقة رابكة على عضادات ، ومحوره الأعظم يمتد من الغرب إلى الشرق ، وللحرم الذي في جنوبه صفان من العقود ، وصحن الجامع يحتوي على حوض ماء للوضوء ، وقببية رابكة على أعمدة ، تشبه قبة الخزنة التي في جامع حماة وتحتها بئر . ومدينة حمص تحتوي على جوامع عديدة ، ليس في معظمها ما يستحق الذكر . وقد رأينا مأذنة مربعة من الطراز القديم ، فيها كتابة كوفية ، وهي منارة مقطوعة الرأس (المأذنة المقطومة) ، يرجع تاريخها إلى سنة ٩٨٠ ميلادية . ورأينا ضريحاً ذا قبة في حديقة التكية المولوية . أما قبر خالد بن الوليد ففائدة البحث عنه ، تنحصر في الكتابات الكوفية التي ذكرها سوبرنهايم بالتفصيل « ا هـ .

قلت : وقلعة حمص التي وصفها سائحنا (أوليا جلبي) أيضاً في الصفحة ٢٤ ، كانت تشبه بتلها وبطراز بنائها قلعتي حلب وحماة ، شيدت فوق تل علوه عن سطح البحر ٥٣٣

(١) نقل هذا الحجر من عهد وجيز ، إلى دار الآثار الوطنية في دمشق ، رقم عليه بخط نسخي : أمر بعمل هذا الباب المبارك ، مولانا السلطان الملك المنصور ناصر أمير المؤمنين أبي طاهر إبراهيم بن شيركوه بن محمد ، بنظر العبد الفقير إلى عفو ربه الغفور ، زين الدين يعقوب بن يزبك سنقر ، المجاهدي المنصوري ، بشهر ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وستة .

متراً ، يرجح أن أسفله طبيعي صخري ، وأعلاه صناعي ، وهو على شكل مخروط ناقص ، دوره نحو تسعمئة متر ، وعلوه فوق المدينة نحو ثلاثين متراً ، وجانبه المواجه للمدينة ذو عطفة سريعة المهبط . وكانت جوانب هذا التل ، مبلطة بصفائح الحجارة الحرية . ومن استقرى الجهة الشرقية ، وجد عدداً وبقايا أبنية ، نقلت كما يظن من هيكل الشمس القديم . وهذه القلعة قديمة يعود أول بنائها إلى الحثيين أو الآراميين ، وأكثر من عني بتحسينها وإشادة أبراجها الملك المجاهد (شيركوه) الذي تقدم ذكره . ولا يزال من آثاره في شمالي القلعة ، باب وجدار برج ، عليه كتابة فيها اسمه ، وتاريخها سنة ٥٩٤ هـ ، وإليه ينسب أيضاً جامع السلطان الذي كان فيها . وقد ظلت هذه القلعة مقر حكام حمص ومعتصم حاميتها ، على النحو الذي نوه به (أوليا جلبي) ، إلى أن خرب إبراهيم باشا المصري أكثر أقسامها ، وبني بأحجارها مسلحة ومستودعاً مازالتا باقيتين ، شأنه في إشادة المباني العسكرية في دمشق وحماة وأنطاكية وغيرها . ولما عاد الحكم العثماني ، هجرت هذه القلعة ، وصارت تفتك فيها وفي جامعها ، وبلاط تلها معاول النقض وتسرق أحجارها ، ولما كاد أن لا يبقى فيها إلا القليل ، احتلها الجند الإفرنسي منذ بضع سنوات ، وشاد فيها بعض الأبنية ، وحصن أطرافها بالأسلاك الشائكة . والمصحف الذي ذكره (أوليا جلبي) .

وذكر أيضاً في (الدر المنتخب) لابن الشحنة ، كان على ما قيل من المصاحف التي أرسلها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مراكز الأجناد ومنها حمص ، وكان مكتوباً بالخط الكوفي على رق غزال في مجلدين ضخمين . ولما بدأ الخراب في القلعة وجامعها ، على أثر هجرها ، خيف عليه ، فنقل إلى الجامع المنسوب إلى خالد بن الوليد ، وبعد أن بقي فيه إلى سني الحرب العامة ١٣٣٢ - ١٣٣٦ هـ أخذه القائد العثماني أحمد جمال باشا إلى القسطنطينية ، فيما أخذ من أعلاق الحجاز والشام .

هذا وقول (فان برشم) أن جوامع حمص عديدة ، ليس في معظمها ما يستحق الذكر صحيح . ففيها على ما بلغني ثلاثة وثلاثون مسجداً منتشرة في أحياء البلدة ، منها الكبير والصغير ، معظمها صغير الفناء ، بسيط البناء ، عار عن البهاء ، ولكن أقدمها عهداً ، وأجلها شأنًا واتساعاً الجامع الكبير ، وأحدثها وأروعها جامع خالد بن الوليد . ويعد جامع التريكان في حي باب السباع قديماً ، ويعرف بالعمرى .

أما الجامع الكبير فإليك وصفه كما شاهدته في ربيع سنة ١٣٥٢ هـ : الحرم ذو شكل مستطيل ، أبعاده ٩٩ × ١٧ متراً ، وهو ذو سقف مزدوج معقود ، يرتكز على أربع عشرة عضادة مربعة الشكل ، تمتد من الشرق إلى الغرب في مسافات متساوية ، والعقد بسيط الشكل ، كما أن جدران الحرم الضخمة خالية من الكتابات والزخرف . ولهذا الحرم ثلاثة محاريب ، لكل منها عمودان من الرخام الأبيض ، إلا أن عمودي المحراب الأوسط محززان بشكل لولبي ، ولهما تاجان مخرمان ، وأسفل صدر المحراب مؤلف من مستطيلات متوازية ، من الرخام الأبيض والأسود ، وأعلاه مؤلف من محاريب صغيرة ، فوقها فسيفساء مشوهة ناقصة رقعت بالكلس . وثمة فوق المحاريب الصغيرة زبرت بالأحرف النافرة آية ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ... الْآيَةِ ﴾ [التوبة : ١٨] والمنبر من الرخام الأبيض خالٍ من الإتقان ، على بابه عمودان رفيعان من الرخام الأبيض أيضاً ، يعلوهما تاجان بديعا الصنع . وسدة المؤذنين ترتكز على ثلاثة أعمدة من المرمر . وإلى يمين المحراب غرفة ، قيل إنها مخصصة لأهل الطريقة النقشبندية . وللحرم باب قبلي ، متصل بدهليز معقود ، يصعد نحو سوق التجار ، وآخر غربي متصل بدهليز طويل ، له منفذان ، أحدهما يصعد نحو السوق ، والثاني يهبط نحو صحن الجامع . وفي الجهة الشمالية الشرقية باب ، ينفذ نحو غرفة واسعة فيها ميضأة كبيرة . أما أبواب الحرم النافذة نحو الصحن فعددها أحد عشر ، وفي هذا الصحن مصطبة مرتفعة واسعة ، اتخذت مصلىً ، في شرقيها غرفة لطلبة العلم الشرعي ، وفي شماليها ست غرف للغرباء ، أمامها رواق معقود ، يستند على عضائد كالتي في الحرم ، وفي جنوبها محراب من حجر واحد ، منقوب من وسطه ، في ظهره وبطنه كتابة عربية فيها اسم (بهادر البكمتري الأشرفي) بتأييد (ماكان على وقف الجامع النوري لفقهاء النواب ، وما كان يوجد من المشاعلية ليتمكنوا من منع المنكرات) . إلخ .. وإلى جنوبي المصطبة أيضاً حوض كبير تأتية الماء من ناعورة خاصة ، ومحراب آخر أصغر من الأول ، وفي غربيها بئر تعلوها قبة أصغر وأدنى من قبة الخزانة التي في جامع حاة الكبير ، تستند على ستة أعمدة أحدها ذو كتابة عربية ، بإبطال المظالم عن أهل حمص ، تاريخها ٨٧٠ هـ ، وعلى الرواق المعقود الممتد شمالي المصلى ، قبة صغيرة قليلة العلو والعرض ، بسيطة البناء لا يعرف سبب بنائها . وفي الباب الغربي كتابتان إحداها فوق القوس ، تحوي آية ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ... الْآيَةِ ﴾ والتاريخ ١١٩٧ هـ ، والثانية على عضادتي



منظر قسم من مدينة حمص من مأذنة الجامع النوري الكبير

هذا الباب ، تحوي بيتين ، يفهم منها أن رجلا اسمه (نجيب السباعي) جدد بعض أقسام هذا الجامع ، وليس لهذين البيتين تاريخ ، وفوق مصنع الماء المني في آخر دهليز الباب الغربي ، كتابة قديمة ذات عدة أسطر مطموسة ، لم أتبينها . ومثلها كتابة على جدار الحرم المشرف على الصحن ، بإبطال المظالم عن أهل حمص أيضاً تاريخها ٨١٧ هـ ، في عهد الملك المؤيد شيخ .

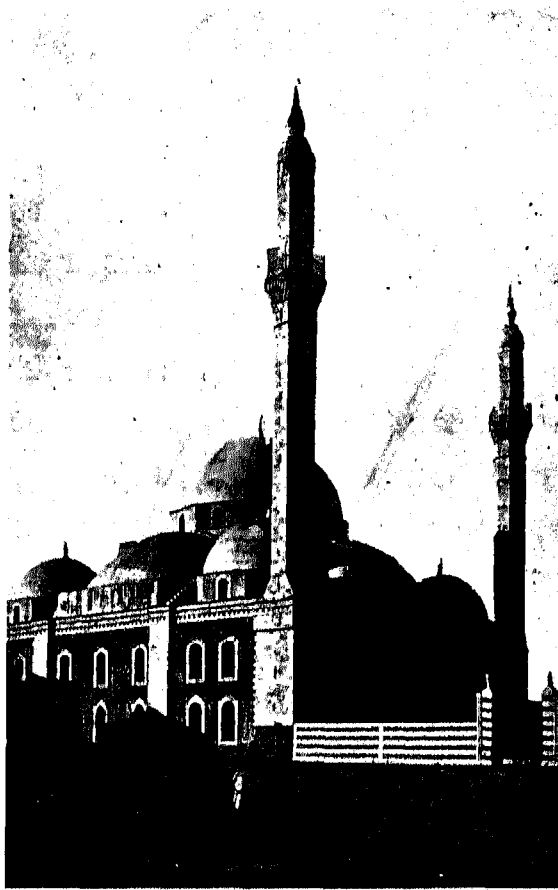
والمدقق في الجدار المشرف على الصحن ، يلاحظ أن فيه أربعة أقواس ، بين كل منها خمس نوافذ صغيرة وخمس قناطر ، لخسة أبواب بعضها مسدود ، ويستدل من ذلك ، على أن هذا الجامع رمم مراراً في أدوار مختلفة ، من عهد نور الدين محمود وما بعده . وقد حدثني بعض شيوخ حمص ، أنه كان في القرن الماضي ذا سقف خشبي ، وكان هذا السقف يرتكز على أعمدة ضخمة من الحجر المحبب (الغرانيت) الباقية من عهد هيكل الشمس ، ولما رأى أهل حمص أن هذا السقف القديم البالي يكاد يخر ، تعاونوا في سنة ١٢٧٨ هـ على هدمه وتجديده ، فبنوا السقف الحالي المعقود على العضادات المربعة التي ذكرناها . وكان القسم الشرقي باقياً على خرابه القديم ، فرمموه أيضاً في سنة ١٢٩٥ هـ على نسق القسم الغربي ، فتم بذلك البناء على النحو الذي وصفناه . وللجامع من غريبه مأذنة عالية مربعة الشكل ، من الحجر الحري الأسود ، المطلي بعضه بالكلس الأبيض ، كأنها جلد أرق .

وهذا الجامع هو الذي كان هيكلًا للشمس في عهد (آل شمسغرام) وبيعة في عهد البيزنطيين ، ثم اتخذ المسلمون حين الفتح نصفها جامعاً ، وتركوا نصفها الشرقي بيعة . ولما وثب أهل حمص في سنة ٢٤١ هـ في عهد الخليفة العباسي المتوكل ، وأعانهم على ذلك قوم من نصارى حمص ، أمر بتأديبهم وضرب وصلب رؤوسائهم « وأن يخرّب ما بها من الكنائس والبيع ، وأن يدخل البيعة التي إلى جانب مسجدتها في المسجد » (الطبري ١١ / ٥٠) ويظهر أن هذا الأمر لم ينفذ بحذافيره ، فقد بقي القسم الذي كان بيعة على خرابه ، إلى سنة ١٢٩٥ هـ كما قدمنا . ولم يبق من آثار هيكل الشمس والبيعة البيزنطية ، إلا جدران الحرم الضخمة ، وفي الشمالي منها الأقواس والنوافذ القديمة التي ذكرناها ، كما لم يبق شيء من بدائع البناء والنحت الإغريقيين ، اللذين جعلوا هذه البيعة فيما قيل من عجائب العالم . ويظهر أن المسلمين لما جددوا هذا الجامع بعد خرابه ، في عهد نور الدين وما

بعده ، لم يهتموا بإتقان بنائه وزخرفته على نحو ما كانوا يعملونه في جوامع بقية المدن ، فظل كما هو عليه الآن مثال البساطة . أما أعمدة الغرانيت التي رفعت من الحرم سنة ١٢٨٧ هـ ، فقد بقيت رديحاً من الزمن ملقاة في صحن الجامع ، ثم صارت الأيدي تتخطفها ، ومن بضع سنوات ألقى منها قسم في الساحة العامة أمام باب السوق ، ليبنى بها برج ساعة ، ولما يبن بعد ، ثم أبعدت إلى المقبرة المجاورة لجامع خالد بن الوليد ، ولم يبق من تلك الأعمدة في صحن الجامع ، إلا اثنان ممددان في الناحية الشرقية منه . أما الصورتان اللتان كانتا على باب هذا الجامع ، وقبة العقارب التي كانت إلى جانبه . إلى آخر مذكره جغرافيو العرب فليس لها أثر ولا خبر .

أما جامع خالد بن الوليد فبني إلى الشمال من ظاهر حصص ، في الحلي الخالدي الذي كان منفصلاً عن حصص لمضي نصف قرن . وهذا الجامع ، بعد أن كان بناؤه القديم قوياً ذا ركائز ضخمة ، وسقف عقد متين من آثار الملك الظاهر (بيبرس) فيما قيل ، رأى ناظم باشا ، أحد ولاة الشام في عهد السلطان (عبد الحميد) ، أن يجمده بما يليق بقدر الصحابي الجليل خالد بن الوليد ، فاستحصل من السلطان المذكور على ستة آلاف دينار عثماني ، أكملها بثن الحلي التي كانت على الضريح ، وهدم البناء القديم كله ، وشرع بالجديد على نسق جوامع القسطنطينية ، فجاء عند ختامه في سنة ١٣٣١ هـ آية في الجدة والروعة ، بمأذنتيه الرشيقتين ، وقببه البيضاء العالية الجميلة ، مما يعد بعد زينة ومفخرة في غرة حصص .

لهذا الجامع حرم مربع الشكل ، أبعاده ٣٠,٥ متراً × ٣٢,٥ متراً ، تعلوه تسع قبب ، أعلاها القبة الوسطى ، قطرها نحو ١٢ متراً ، وارتفاعها نحو ٣٠ متراً ، تستند على أربع عضائد مربعة ضخمة ، والقبب الباقية تستند من جانب على هذه العضائد ومن جانب آخر على جدران الحرم . وفي صدر الحرم ثلاثة محاريب ، لكل منها عمودان من الرخام الأبيض . إلا أن المحراب الأوسط قد زخرف بالرخام المجزع ، على أشكال هندسية جميلة ، ملونة بالأسود والأحمر والأبيض ، والمنبر من الرخام الأبيض أيضاً ، على جدرانه نقوش وتخاريم آية في الإتقان والبهاء . وفي الزاوية الشمالية الغربية من الحرم ، ضريح الصحابي خالد بن الوليد رضي الله عنه ، طوله خمسة أمتار ونصف ، بمثلها ، بني من الرخام الأبيض ، تعلوه قبة من الخشب ، وفي جدرانه نوافذ من الخشب المتين ، يفصل بينها أعمدة



جامع خالد بن الوليد في حمص

من الرخام ، وفي زاوية هذا الضريح ضريح صغير لابن خالد عبد الرحمن ، وفي الزاوية الشمالية الغربية للجامع ضريح ثالث ، لعبد الله بن عمر بن الخطاب ، جعل بدون قبة ، وأحيط بشبكة حديدية بسيطة ، وصحن الجامع واسع ، أبعاده ٣٦ متراً × ٤٧ متراً ، لا يزال بدون تبليط ، وفي جانبه الشرقي أربع غرف إحداها ميضأة ، والبقية خصت بطلبة العلم الشرعي . وإلى الشرق من هذا الصحن ، قسم ينتهي في باب الجامع الجنوبي ، فيه عشر غرف لسكنى الغرباء . وفي جدار الحرم الغربي غرفة ، أو دعوا فيها لوازم الجامع ، قيل أن منها المنبر القديم ، والأحجار التي كانت عليها الكتابات الكوفية الخاصة بالجامع المهدوم ، لم أتمكن من الاطلاع عليها حين زيارتي الأخيرة ، ولعلها هي التي استنسخها (سوبرنهايم) ولم يتيسر لي الحصول على الكتاب الذي درجها فيه .

ويجدر هنا ، أن نقتبس ما ذكره الشيخ محمد سليمان المصري في كتابه (رسائل سائر) المطبوع سنة ١٣٥٢ هـ عن زيارته جامع خالد بن الوليد وضريحه ، فهو بعد أن نقل كلمة خالد المشهورة وهو يحتضر « لقد شهدت مئة زحف أو زهاءها ، مابقي في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف ، أو طعنة رمح ، ثم أموت على فراشي هكذا ، كما يموت العير ؟ لانامت أعين الجبناء » قال : « هنالك ، ومن أرباض حصص ، يشهد القادم أطراف المآذن البيض ، تلمع في وهج الشمس ، مؤذنة بالمسجد الفخم القائم ، على جدث القائد الدائم ، وفي ركنه الشمالي المغرب يسقط طرف كل مائل أمام ذلك الجسد الثاوي بالجد ، ويتمثل الزائر في هذا الضريح أي شديد بالصراع ، وأي شديد في ملك (ضبط) النفس ، وأي نفس كانت مهوى الأفئدة ومناط القلوب ، وأي شجاع هذا الذي هدم دولتي الدنيا في أيام الدنيا ، وشاد دولة الإسلام للدنيا والآخرة . بل أي قائد أوتي النصر ولم يعرف إلا النصر ، وأي طبع حربي ، وضع الخطط وابتكر الأساليب ، ونظم الحرب على غير مثال ، وعبأ الجيوش بالابتكار ، وجعل حياته كلها شعلة من سراج وهاج ، من المهد إلى اللحد ، حلقات من سلسلة على مد العمر ، ماسقطت حلقة فيها ولا انطفأت فتيلة منها ، بل مضت إلى ربها تحمل عجيبة في خليقته ، أن كان له عبد من عباده آتاه الله الشجاعة ، وقذف به في المعامع ، فلم تطوله راية ولا خبا له نور ، حتى آتاه اليقين ، فهدم منه ذلك الصرح المرد ، وهدم منه تلك القوة المتوثبة المتوهجة ، المنتشرة في آفاق بلاد العرب ، وعلى مشارف الفرس والروم . هنا الراقد « خالد » الخالد ، هنا مثوى الخلود وقدوة العلا ،

ومطمح الشعوب إذ ينهض بها قوادها ، وهيئات هيات ، أن تلد الحوامل مثل خالد حتى
ينفخ في الصور « ا هـ .

وفي حمص نحو عشر كنائس ، منها القديم كنيسة ماراليان ، للروم الأرثوذكس في
حي باب الدريب ، وكنيسة الأربعين شاهد لهم أيضاً ، وكنيسة السريان القدماء ،
وكنيسة الكاثوليك ، والثلاث في حي جمال الدين ، وعدوا كنيسة البروتستانت في هذا
الحي أيضاً قديمة . أما الكنائس الحديثة ففي التل المنسوب للصحابي السمط بن الأسود في
حي الحميدية واحدة ، باسم (مار جاورجيوس) للروم الأرثوذكس ، وأخرى للسريان
الكاثوليك ، ولليسوعيين في حي جمال الدين دير ومدرسة ، وللأرمن كنيسة حديثة في
حي الفاخورة ، وللروم الأرثوذكس في حي باب السباع كنيسة باسم (مار أنطونيوس) .
أما الحمامات فعددها أحد عشر حماماً كبيراً ، وسبعة صغار . منها حمام الباشا الذي يأتي
مائه من الناعورة ، كما نوه بذلك سائحنا (أوليا جلبي) ، ولا يعرف من هو هذا الباشا .

أما المأذنة المقطومة التي ذكرها (فان برشم) ، فقد كانت هي وجامعها في حي آل
السباعي ، في شارع أبي الهول ، وهما من آثار (بكجور) الذي حكم حمص سنة ٣٦٥ هـ ،
كما قدمنا ، وقد عفيت آثارهما ، فالجامع هدم قبل المأذنة بزمان طويل ، والمأذنة التي قيل
- في خطط الشام ج ٦ - أنها لا تزال باقية ، وأن عليها كتابة مفيدة في باب الهندسة
العربية ، هدمتها ويا للأسف البلدية سنة ١٣٢٩ هـ ، بحجة توسيع الطريق ، واتخذت
أنقاضها في تعبيد الجادة الممتدة أمام دار الحكومة . أما التكية التي ذكرها (فان برشم)
فهي قرب دار الحكومة ، بنيت سنة ٨٤١ هـ ، والضريح ذو القبة الذي ذكره أيضاً ، هو
ضريح الصحابي عبد الرحمن بن عوف ، وفي قربه ضريحان لرجلين من الملووية ، مشايخ
هذه التكية . على أن قبة الصحابي المذكور ، قد هدمت وملئ داخلها بالأنقاض والأقذار ،
لتدل على مبلغ عناية الخلف في عهدنا ، بقبور السلف لاسيما بقبور أجلاء الصحابة . ونذكر
بهذه المناسبة تأييداً لما ذكره ياقوت أيضاً ، أن في حمص كثير من المزارات والأضرحة
المنسوبة لبعض الصحابة والسلف الصالح ، يعدون منهم الآن أبا ذر الغفاري أو عبد العزيز
الغفاري ، وعكاشة ، وأبي موسى الأشعري ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ،
وعبد الرحمن بن جعفر الطيار ، ودامس أبو الهول ، والسمط بن الأسود الكندي ، وذو

الكلاخ الحميري ، وعبد الرحمن بن عوف ، ورابعة العدوية ، ولكل من هؤلاء الصحابة مساجد أو زوايا خاصة فيها أضرحتهم ، ويعدون عمر بن عبد العزيز وله ضريح شرقي تربة باب الدريب ، وسط الكروم ، فوق مصطبة مرتفعة ، فوقها قبة بسيطة لاتتناسب قط مع قدر هذا الخليفة الجليل ، فيما إذا صح دفنه هنا وليس في شرقي المعرة ، والملك المجاهد ، في ضريحه الذي تقدم ذكر نبشه . وثمة عدد ممن يعدونهم من الصلحاء ، مدفونون في مساجد أو مزارات باسم كل منهم ، جلها على وشك الاندثار ، قل من يعنى بأمرها ، منها مسجد الخضر في ظاهر البلدة جنوبي القلعة ، وفيه قبر المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد شيركوه الأيوبي ، كما قدمنا في حديثه .

وقد كانت حصص وما برحت ، مركزاً لصناعة النسيج ، جاء في (الدر المنتخب) المنسوب لابن الشحنة عن ابن فضل الله : « وحصص تنلو اسكندرية مصر ، فيما يعمل فيها من القماش الفائق ، على اختلاف الأنواع ، وحسن الأوضاع ، لولا قلة مائه (كذا) وفحولة جسمه ، مع أنه يبلغ الغاية في الثن ، وإن لم يلحق إسكندرية فإنها تفوق صنعاء اليمن » ا هـ . وجاء في (دائرة المعارف) للبستاني في مادة حصص : « أنه كان فيها في غرة القرن الهجري الحاضر ٤٣٣٠ نولاً ، منها الفانول للملس ، والفانول للديما ، و ١٥٠ نولاً للزنار ، و ١٨٠ نولاً للشراشف والأعبية وغيرها ، وبها أيضاً مئة دوارة للتسدية ، وسبعون دولاباً للقتل ، وستون ملقياً ، وكانوا يحسبون لكل نول صانعاً ومعاوناً ، ولكل من دواليب القتل ثلاثة صناع ومعاون ، ولآلات الإلقاء صانعان ومعاونان ، والأجرة اليومية على الأنوال من خمسة إلى عشرة قروش ، وعلى باقي الآلات من عشرة إلى ثلاثين غرشاً . وكانت حصص تصدر كميات كثيرة من الملس إلى مصر ، والآلاجه والزنانير الحريرية ، والديما الغزل إلى الأناضول ومصر ، وشراشف الحرير والقصب والغزل إلى أمهات مدن الشام ، والعبي الصوف والحرير والقصب إلى الأناضول ومصر وحلب . إلخ ... ا هـ . قلت : أما الآن فقد انحطت صناعة النسيج الوطني ، وقل عدد أنوالها ، للأسباب التي ذكرناها في بحث حماة ، ولم يبق من ذلك سورغ ١٦٠٥ أنوال ، منها تسعمئة اشتغل بالصايات المصرية الشاهية ، المصنوعة من الحرير النباتي والغزل القطني ، ترسل إلى الأناضول ومصر والحجاز وفلسطين ، وستئة تشتغل بالملس المصنوع من الحرير الطبيعي ، الذي يرسل إلى مصر . لكن هذه الأنوال كلها ، قد توقفت عن العمل أخيراً ، بسبب غلاء رسوم الملس ، وساء

حال مرتزقيها ، ومئة تشتغل بالخطايط والكوفيات المصنوعة بالحرير الطبيعي ، مع القصب الفضي والذهبي ، وترسل إلى مدن الشام وفلسطين ، وشرقي الأردن والعراق ، وستئة تشتغل في نسج الشاهية الغزلية القطنية ، والشراشف والسجوف ، والمناشف وغيرها ، وترسل إلى مدن الشام ، وخسة تشتغل بقوط الحمامات من الحرير الطبيعي والقصب الفضي ، وترسل إلى مدن الشام أيضاً . وقد أسسوا في حص أخيراً ثلاثة معامل أفرنجية ، تشتغل بنسج الأقمشة الحريرية الشبيهة بما يرد من بلاد الغرب ، وذلك من الحرير الطبيعي والنباتي ، تصدر منتوجها إلى مدن الشام ، يديرها رجال حصيون ، تعلموا هذه الصناعة في تلك البلاد ، ولعلمهم يزيدونها إتقاناً ، وينالون بها نجاحاً ، يعوض ما فقدته حص من الخطاط الأنوال الوطنية .

وكما أن مدار أشغال حص على الصناعة ، فدارها أيضاً على الزراعة ، لاسيما على ماتنتجه ضواحيها وقراها ، من القمح والشعير ، والفوال والحص ، والذرة والعدس ، وكانت تبلغ سنوياً على ما جاء في (دائرة المعارف) للبستاني المذكورة آنفاً ١٣٥٠٠٠ شنبل^(١) ، تعادل نحو ثلاثة آلاف طن ، جلها كان يرسل إلى ميناء طرابلس ، ليصدر إلى الخارج . أما الآن فقد تضائلت هذه الكمية كثيراً منذ عشر سنوات ، بسبب توالي سني المحل والأزمات ، التي نكبت الزراعة والزراعيين ، وقصمت ظهورهم . وليس في بساتين حص التي تروى من العاصي سوى البقول ، لأن الرياح الغربية التي تهب بشدة في أكثر أيام السنة ، تحول دون نمو الأشجار المثمرة ، لذلك ظلت حص عالية في أمر الفاكهة على جاراتها كطرابلس وبلبك ودمشق ، ولم يبق في ضاحيتها من الكروم التي ذكرها الإدريسي إلا النزر اليسير ، يكاد منتوجها لا يكفيها ، فتستجلب عوزها من سلمية .

ومنظر حص الدميم ، الذي وصفه ابن جبير ، ونوه به رحالة الإفرنج ، قد تبدل وتحسن منذ سنة ١٣٠٥ هـ ، وازدادت الدور والفنادق ، والمقاهي الحديثة الطراز في ضاحيتها الغربية ، وما برحت في ازدياد ، وعينت بلديتها بتنظيم شوارعها ، وتوسيعها وإنشاء الحدائق العامة ، وبعد أن هدمت الثكنة العسكرية القديمة سنة ١٣٥٠ هـ ، زاد

(١) الشنبل المحصي يزن ٢٢٠ كيلوغراماً ، والخلبي ١١٢ كيلوغراماً والطرابلسي ١٥٠ كيلوغراماً من القمح .

عدد المباني الأنيقة في مكانها ، وشرعت البلدية في جلب ماء العاصي نقياً ، كما نورت حصص بالكهرباء ، الآتية من المعمل الذي ذكرناه في بحث الرستن ، حتى أصبحت حصص في يومنا ، في مقدمة مدن الشام الداخلية حسناً ورواءً ، وهي الآن قاعدة متصرفية ، ألحق بها قضاء المركز ، وقضاء القريتين ، ويتبع الأول نواحي حصص وتارين الوعر ، وجب الجراح ، وحسية والقصير ، والرستن وعين ظباط ، ويتبع الثاني : ناحيتا القريتين وتدمر .

وعدد سكان حصص يقدر باثنين وستين ألف ، ثلثاهم من المسلمين ، وجل الثلث الباقي من الروم الأرثوذكس ، ويليهم السريان والكاثوليك والأرمن والبروتستانت . وقد كانت حصص قبل نصف قرن في مؤخر بقية أنحاء الشام بالعلم ، لقلة عدد نبغائها في الشعر والفقه ، وإن عدوا في عهدهم مبرزين . أما الآن ففيها ثلاث مدارس تجهيزية ، الأولى أميرية والثانية للأرثوذكس والثالثة للبروتستانت ، وعدة مدارس ابتدائية للبنين والبنات ، منها الأميرية ومنها الخاص ، وصار لأهل حصص شغف بالدراسة ، وبينهم الآن عدد غير يسير ، من حملة الشهادات المتوسطة والعالية في مختلف المسالك . وفيها كثير من الأطباء والصيدلة والحامين ، والمطابع التي تصدر كتباً مختلفة وجرائد ومجلات ، تظهر وتختفي حسب الأوقات ، وصرافون وخياطون ، ونحاسون وصاغة ، وتجار السلع المختلفة ، ولأهلها بزاعة خاصة في صناعة النسيج كما قدمنا ، يرتزق منها جل الطبقة المتوسطة والدنيا ، كما أن جل الطبقة العليا ، أعني الأسر الكبيرة ترتزق من الزراعة ، ويقال عن هؤلاء في هذا الأمر ، ما قيل عن أمثالهم الحمويين في الجملة ، فهم أُنْدَاد في التهافت على توسيع الملك في القرى ، دون العناية بإتقان العمل وإغاثة الفلاح ، ولحصص في بلاد الشيلي من أمريكا الجنوبية ، وفي غيرها مما يهاجر إليها الشاميون جاليات ، وفيرة العدد جلهم من نصاراها .

وهواء حصص جيد في الجملة ، ولقرىها من البحر وبحيرة قدس ، وقم لبنان الشمالي المكلفة بالثلج ، ووقوعها في باب الوادي العريض ، الآتي من الساحل ، والفاصل بين جبال لبنان وجبال النصيرية ، تهب فيها الرياح الغربية الرطبة ، في أكثر أيام السنة ، فتجعل شتاءها قارساً ، أما صيفها فلطيف ، ويمتاز الحمصيون بمجودة الصحة ونقاء البشرة ، ويعرفون بدمائهم وحسن معشرهم ، وائتلاف نحلهم ، وفقدان فروق العظامية

والعصامية ، السائدة في حماة بين خاصتهم وعامتهم ، ولهم لهجة خاصة يغلب عليها جودة اللفظ .

وليس في حصص مبانٍ قديمة متقنة من قبل الإسلام وبعده ، تستهوي أفئدة السياح وأرباب الولع بالآثار وتغويهم بزيارتها ، أو أنه كان فعفته طوارئ الحداث ، وجاءت بلدية حصص ، تجهز على ما بقي منها ، كالصومعة التي ذكرنا أن بانيها (شمسغرام) الثاني ، هدمتها قبل الحرب العامة ، وبنت مكانها مستودعاً للبترول ، على يمين الطريق الذاهبة إلى المحطة غربي البلدة ، وقد كانت تسمى قبر قيصر ، لأنها تشبه الأضرحة وفيها لمحة من هندسة الحصون ، فقد كانت كالبرج العالي المربع ، علوها خمسة عشر متراً ، مبنية بالآجر المرصوص ، المطلي بالملاط ، وكان فيها نقوش هندسية ، وحجارة ملونة ، وكتابة يونانية ، يؤخذ منها أن هذا البناء ضريح (شمسغرام) الثاني ، الذي تقدم ذكره ، وكانوا اكتشفوا سنة ١٣١٥ هـ كهفاً في حي باب السباع ، في ملك رجل اسمه (سليم زكور) ، وهذا الكهف مدفن واسع ينزل إليه بدرج ، يفضي بالزائر إلى سطح مربع ، على جانبيه يميناً وشمالاً أربع غرف ، وكل غرفة مهيأة لعدة جثث ، وهذا المدفن محكم الصنع ، كله مبني بالآجر المصنوع إلى بعضه بملاط من الكلس ، ونفاية الآجر والحصى ، والحنايا مقوسة تتساند إلى بعضها ، وفي الجدار الداخلي مشاك أعدت لوضع ألواح ، غايتها دعم الآجر لئلا يهبط ، وكان يعلو السطح المربع قبلاً قبة ، وبقربه بئر ، وبقياس مساكن قديمة . ووجدوا في حي باب السباع أيضاً سنة ١٣٤٠ هـ في بيت النداف ، مكان كهذا ، تمكنت من النزول إليه بسلم خشبي ، كما ينزل إلى البئر ، فوجدت كهفاً صغير المساحة مسقوفاً بالآجر ومطلياً بالكلس ، وفي جدرانها منافذ لوضع الجثث ، فوقها رسوم صلبان وكتابات يونانية ، باسم المدفونين . وقيل أن في حصص كثير من هذه الكهوف ، أو الأسراب المجهولة أو المعلومه ، وفي بعضها آبار ومياه ، ذكرها شيخ الربوة فيما نقلناه عنه وشرناه . ويرى السائر في شوارع حصص ومنعطفاتها ، والنافذ إلى أفنية دورها ، بقايا أعمدة وأساطين ، وتيجان أعمدة وعتبات ، كسرت واتخذت أقسامها في الأبنية الحاضرة . والكتابات اليونانية في حصص كثيرة ، منها وثنية ومنها نصرانية ، نشر بعضها الأثري (وادينكتون) والأب (لامنس) اليسوعي و (رونه موتارد) وغيرهم . وأروني في سنة ١٣٥١ هـ في ظاهر حصص وغربها ، في حي حديث يدعى القراييص ، زقاقاً رصفت أرضه بفسيفساء ، ذات تخطيط جميل ،

تمتد في مسافات غير يسيرة ، وتكاد تندثر من الدوس وغيث المارة . ووجد أحد أهالي هذا الحلي ، منذ بضع سنوات تحت أرض إحدى غرف داره كهفاً يشبه ما ذكرناه ، استخرج منه على ما حدثني ، قطعاً ذهبية رقيقة انتفع بأثمانها . وكان حي القراييص هذا ، لمضي ربع قرن ملأناً بالكروم ، ويذكر البعض أنهم أدركوا فيه أسس جدران وأحواض ، إذا صح حديثهم تدل هي والفسيفساء التي رأيتهما ، على أنه كان في هذا الحلي في العصور السابقة لعهد الإسلام ، ديراً أو قصرأ فخماً ، فرشت أرضه بالفسيفساء ، واتخذت كهوف مدافن لعلية القوم ، الذين كانوا يصحبونهم بالحلي الذهبية . ولا يبعد أن يوجد تحت أرض حصص التي مرت عليها حضارات زاهرة ، وأدوار سعد باهرة ، آثار كهذه أو أجل ، تنتظر من يكتشف مخابئها .

أما آثار العهد الإسلامي فقليلة وعادية ، ليس منها ما يستحق الذكر سوى ما بقي في القلعة وأبواب السور وأبراجه ، فضلاً عما هدمته البلدية ، كمنارة (بكجور) حينما وسعت شارع أبي الهول ، وأجهزت عليه طواريئ الحداث ، كزوايا وأضرحة الصحابة ، والملوك الأسديين الأيوبيين التي ذكرناها ، دون أن تجد من يكثرث بأمرها . وقيل أن خالد بن يزيد بن معاوية الأموي الذي يظن أنه هو المدفون مكان خالد بن الوليد ، كان بنى في حصص قصرأ فخماً ، جدهه في عهد العباسيين أحد عمالهم في حصص (الفضل بن قسارن) الطبري ، وتحصن به لما وثب به أهلها ، ذكر ياقوت هذا القصر في معجمه وقال : « آثار هذا القصر في غربي الطريق باقية » ، ولم يعين هذه الطريق ، لنستدل به على مكان القصر ، وذكر أيضاً أسماء عدد من الأديرة والقرى حول حصص ، بعضها لا يعرف له الآن أثر ، كدير المغان الذي كان في خربة بني السمط ، تحت تلهم ، وهو دير عظيم الشأن ، كبير القدر ، فيه رهبان كثيرة ، وترابه يحتم عليه للعقارب ، ويهدى إلى البلاد قاطبة (!) وتتنفس النصارى في موضع مقبرته ، ودير مياس في موضع نزه ، لا يزال مقصوداً ، كان فيه شاهد على زعمهم ، من حواربي السيد المسيح يشفي المرضى ، نقلوا إليه البطين الشاعر الحمصي في القرن الثالث ، للاستشفاء فمات فيه فجأة ، فشاع بين أهل حصص أن الشاهد قتله ، وقصدوا الدير ليهدموه ، إلى أن ردهم الحاكم ، فهجأه أحد الشعراء . وذكر ياقوت من القرى التي ضاع اسمها ورسمها الآن ، العرناس موضع بمحص ، ذكره ابن أبي حصينة فقال :

جولة أثرية (٢٣)

من لي برد شبيبة قضيتها فيها وفي حص وفي عرناسها
وكفر تكيس وكفر نغد يقال : أن فيها قبر أبي أمامة الباهلي ، وأعرف قرية في
شالي حص ، باسم هذا الصحابي ، لا باسم كفر نغد يقطنها شراكسة ، وبقطاطس قال :
لها ذكر في التاريخ ، ولم يعين موقعها ، وترمسان وجدر ، وهذه مر بنا ذكرها بين حص
وسلمية ، ودنوة ودومين ، وذكر شيخ الربوة اسم سماك ، قرب قرية الناعم ، جنوبي بحيرة
قدس .

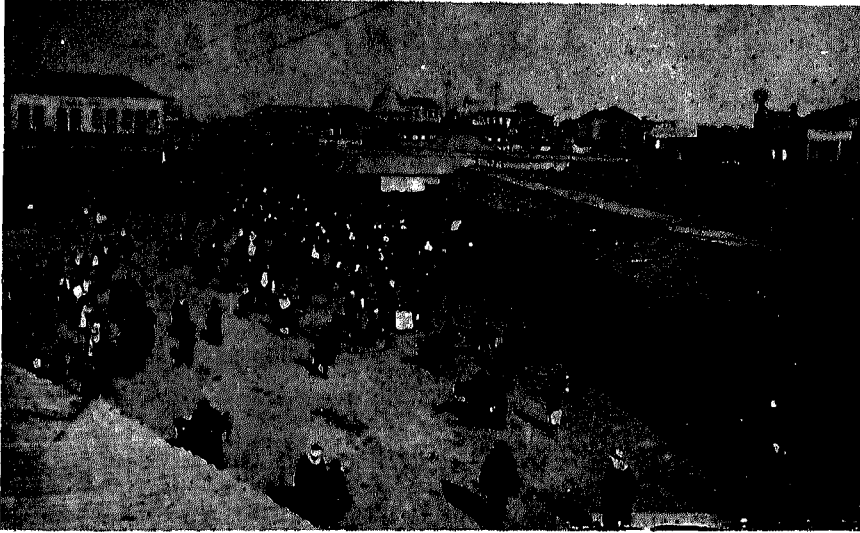
وذكر ياقوت فيما ذكره أيضاً غامية ، قال عنها : من قرى حص ، قال القاضي
عبد الصمد بن سعيد في تاريخ حص « دخل أبو هريرة حص مجتازاً ، حتى صار إلى
غامية ، ونزل بها فلم يضيفوه ، فارتحل عنهم ، فقالوا يا أبا هريرة لم ارتحلت عنا ، قال
لأنكم لم تضيفوني ، فقالوا ما عرفناك ، فقال إنما تضيفون من تعرفونه ، قالوا نعم فارتحل
عنهم » اهـ .

وأهج الفصول في حص الربيع ، ففيه يحتفل مشايخ الطرق الصوفية في يوم خميس
منه ، يسبق عيد الفصح عند الروم ، يدعونه (خميس المشايخ) فيركبون الأكاديش ،
ويتظاهرون وهم عليها ، بالبله والاسترخاء ، وإسالة اللعاب في الأفواه ، ويتبعهم
مريدوهم بالصناجق والمزاهر والصنوج ، يدقون ويرددون بعض الأناشيد والأذكار ،
ويلحق بهم الألوف من المتفرجين ، الذين يفد معظمهم من المدن والقرى المجاورة . وكان
هؤلاء المشايخ قبلاً ، يأتون باسم الدين فيما يأتونه من حركات الخبال والسخف ، أكل النار
والزجاج ، وضرب السفود والاتكاء على السيوف ، والدوس بأكاديشهم على ظهور الرجال
الممددين ، وغير ذلك مما ينكره الدين ويمجه العقل السليم ، إلى أن منعتهم الحكومة منذ
بضع سنوات ، واقتصر الأمر على العرض والمرور ، وزيارة ضريح أحد الصلحاء في اليوم
الأول ، واسمه بابا عمرو في قرية في غربي حص تدعى باسمه ، وزيارة ضريح الصحابي
خالد بن الوليد في اليوم الثاني والثالث ، على أنه يحصل في هذه الأيام من اجتماع الألوف
من الناس ، من مختلف الأنحاء الشامية ، سوق عام وحركة بيع وشراء ، تنتفع بها حص أي
انتفاع ، وهي بيت القصيد من هذا الخميس ، قيل إن هذا الاحتفال أحدثه السلطان صلاح
الدين الأيوبي لغاية سياسية ، تجاه احتفال الصليبيين في عهده بعيد الفصح ، الذي يقع

بعد خميس المشايخ ، وأحدث مثله في القدس ، ويدعى هناك يوم النبي موسى ، واستمر العمل بها إلى يومنا هذا ، بعد أن تنوسيت الغاية وبذل المنهاج .

وقد أدركنا في خميس المشايخ هذا قبل ربع قرن أو أقل ، من المشاهد الجالبة للنظر ، التي صارت تستحق التذكر والترحم ، ملابس تلك الألوف المتجمعة من مختلف أنحاء الشام ، فقد كان لأهل كل صقع وبلد ، بل لكل أهل طبقة ولحمة وحرفة زي خاص ، لا يتعدونه في أشكال وألوان القنايز والزنانير ، والسراويل والمعاطف ، والكوفيات والعقل ، والعمائم والأحذية ، منها الضيق أو الفضفاض ، ومنها الرفيع أو الضخم ، ومنها القصير أو الطويل ، ومنها الأحمر أو الأبيض ، أو الأسود أو الأخضر . الخ .. وكان جل أقمشة هذه الأزياء من صنع معامل البلاد اليدوية ، وموادها البدائية من نتاج أرضها . وقد كنت يومئذ ، تستطيع أن تميز الحلبي عن الحموي ، وهذا عن الحمصي ، وذلك عن الدمشقي ، وأن تعرف الساحلي عن السداحلي ، حتى البيروتي عن الطرابلسي ، وهذا عن اللبناني ، وهلم جرا . لاسيما إذا نطقوا وطرقت الأذان لهجاتهم الخاصة . وكان التفرد في الأزياء يظهر حتى بين سكان القريتين المتجاورتين ، بل بين المنتسبين لنحلتين متباينتين في القرية الواحدة ، والاختلاف في اللهجات يظهر بين سكان أحياء المدن المتباعدة أيضاً . أما الآن فقد زال هذا التفرد والاختلاف أو كاد ، وتوحدت الأزياء في المدن الشامية بعد انتشار اللباس الإفرنجي ، ولم يعد بالإمكان تمييز الحلبي عن الحموي مثلاً إلا إذا تكلم ، ورنّت لهجاتها في الأذان ، ولا تمييز سائق السيارة عن الموظف في الحكومة ، ولا الوضع عن الرفيع ، حتى أن اختلاف اللهجات بين المدن ، قد خف عما قبل بين الخاصة ، بعد أن هان السفر بالسيارات ، وزاد الاختلاط ، وارتقت المعارف ، وتهذبت اللغة العامة في الجملة . وفي القرى قل اختلاف الأزياء أيضاً . وربما إذا دام الحال على هذا المنوال ، زال فيها كما زال في المدن ، ولو أن في ذلك ما يثير شجى محبي الآثار القديمة ، وراغي الاحتفاظ بالمشخصات ، والمصنوعات القومية .

وفي ضواحي حمص وأعمالها أعراب ينتسبون لقبائل شتى ، أجلها قدراً قبيلة من بطون عزة ، التي تقدم ذكرها تدعى (الحسنة) ، في مشيخة (طراد الملحم) ، تعد نحو ٤٠٠ بيت من أهل الإبل والغنم ، أفنادها : الفقرا والجهم ، والحجاج والأبو عيد ، وثمة



شارع باب السوق في حمص

قبائل منفردة تنضم إلى الحسنة : كالعمور والحروك ، والمساليخ والعلوي والعدوان وأعراب الحسنة اشتهروا ببسالتهم ، وأنهم أقدم قبائل عنزة التي وفدت من نجد إلى شمالي الشام ، وأول من اصطدم منها في أنحاء حمص بالموالي ، وكان بينهما مذكرناه في بحث سلمية . ومنازل الحسنة في قرى لهم ، قرية من حمص ، في شرقيها ، كالشيخ حميد والبوير وبرزة ، وبعضهم يقيظ في سهول بعلبك . وفي أعمال حمص من بطون عنزة أيضاً ، فخذ من السبعة ، يدعى المساربة في مشيخة (صالح المسرب) ، لهم ضيعة تلؤل القطا ، في ناحية جب الجراح ، وفيها أيضاً من أحلاف الموالي ، قسم من المشارفة الرعية ، في ضيعة أم التين شرقي حمص . وثمة قبيلة منفردة ، تدعى الفواعة في مشيخة محمد الشبلي ، تعد ٤٠٠ بيت من أهل الإبل والغنم ، من أفنادها البهادلة والعلقاوين ، والحتاحتة والهنادرة ، والتويمان والهويدين والزيادنة ، منازلهم في السعن الأسود شمالي حمص ، وفي الوعر غربي حمص ، وثمة من قبيلة العقيدات ، التي تقدم ذكرها في بحث سلمية ، أفناد : الأبوشعبان والأبو سلامة ، والأبو هرموش والأبو عساف والأبو بكر ، منازلهم حول الغنطو وغربي العاصي ، وهم في مشيخة أسعد الغاطي ، ومن قبيلة النعيم أيضاً أفناد الطويل والمعاجير ، والشكيف والعتيق ، والحزوميين الذين يؤلفون فنداً مستقلاً في النعيم ، منازلهم أنحاء القصير وغربي العاصي ، ومن بني خالد أيضاً أفناد الرطوب والنجاجير والزريق ، منازلهم في أم حارتين وغيرها ، من ضياع أملاك الدولة ، وثمة أفريق سكان الخيام في لواء حمص ، التركان السوداية في أنحاء حسية ، والمشاهدة والصلبيين في زيتا البحرة .

طريق حمص - النبك

(٨١ كيلو متراً)

يفادر حمص السائح الذاهب إلى النبك من باب هود ، في طريق عبت أحسن تعبید ، لاتنفك يد العناية عنها ، فيجتاز كروم حمص وأراضيها الجنوبية المعدة للزراعة ، وتدعى السوامات ، وقد كان فيها قلبا الجيشين المصري والعثماني ، حينما اقتتلا ، لما جاء إبراهيم باشا ، لفتح حمص سنة ١٢٤٨ هـ . وفي هذه الكروم والأرضين شيدت حديثاً بعض مباني عسكرية ، ومباني شركة النفط العراقية ، ومدت فيها أنابيب البترول ، المتجهة إلى الشرق نحو تدمر والموصل . ثم يجتاز السائح سهولاً شاسعة ، حمراء خصبة ، فيها عدة قرى ، كبابا عمرو وكفر عايا ، والنقيرة ومباركية وإبل ودمينة الغربية على يمينه ، وفيروزة ومسكنة ، وتل الشيخ وهيب على يساره ، وقد ذكرت ياقوت إبل فيما ذكره من أعمال حمص ، هذا وفيروزة ومثلها في شماليها زيدل ، قرستان كبيرتان أهلها سريان قدماء ، منشؤم من صدد ، يتقنون العمل في الفلاحة ، نسأؤم على جانب من الجمال ، ثم يجتاز قرية مسكنة ، ويلمح في الغرب السكة الحديدية الذاهبة نحو رياق ، مارة بمحطات قطينة والقصير وما بعدها . ثم يمر من وسط أراضي قرى شنشار في (الكيلو متر ١٥) وحسينية في (الكيلو متر ١٨) وشمسين في (الكيلو متر ٢٢) ، وعند مروره بشنشار ، يرى على يمينه طريقاً حديثة ، تذهب نحو القصير في الجنوب الغربي (طولها ١٦ كيلو متراً) لتتصل بطريق حمص - بعلبك . وفي شمسين خان من بقايا عهد القوافل ، ذكره القلقشندي في صبح الأعشى (١٤ / ٢٨١) في جملة مراكز طريق دمشق وحلب .

وتنتهي السهول التي ذكرناها في الغرب عند بحيرة حمص ، أو بحيرة قدس أو قادش كما كانت تدعى . وقد نوه بها جغرافيو العرب ، قال أبو الفداء في تقويم البلدان : « بحيرة قدس ، وهي بحيرة حمص ، طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ثلث مرحلة - تعادل ١٥ كيلومتراً وصحيحه ١٢ كيلومتراً كما قدمنا - ، وسعتها طول السد ، وهي مصنوعة على نهر الأرنت ، فإنه قد صنع في طرف البحيرة الشمالي ، سد بالحجر من حجارة الأوائل ،

وينسب إلى الاسكندر ، وعلى وسط السد شرقاً وطولاً ألف ومئتين وسبعة وثمانون ذراعاً ، وعرضاً ثمانية عشر ذراعاً ، وهو حابس الماء العظيم ، بحيث لو خرب السد سال الماء ، وعدمت البحيرة ، وصارت نهراً ، وهي في أرض مستوية ، وهي عن حص بعض يوم في غربها ، ويصاد بها السمك « ا هـ . وكرر القلقشندي في (صبح الأعشى) هذه العبارة وزاد عليها : « وعلى وسط السد برجان من حجر أسود » ا هـ . قلت : وهذا السد العظيم مجهول اسم بانيه وتاريخ بنائه ، نسبه التلمود إلى (ديوكلتيانوس) ونسبه (استرابون) إلى فراعنة مصر ، ونسبه أبو الفداء إلى الإسكندر . وكل هذه النسب مشكوك فيها ، وقال البعض أنه من القرن الثاني للميلاد ، وهو مبني بالحجر الحري الأسود ، يبلغ طوله ٥٠٠ متر ، وارتفاعه ٥ - ٦ أمتار على التقريب . وفيه البرجان المسميان باسم بلقيس . وهذا السد مابرج على كر الدهور ، واقفاً وحابساً ماء هذه البحيرة الجسيمة ، رمم في العصور الغابرة مراراً كما يظهر من أحجاره . وفي السنين الأخيرة اعتراه الوهن في بعض جهاته ، وصار محتاجاً للترميم والرقع ، قبل اتساع الخرق ، وقيل إن عزيمة المفوضية الإفريقية العليا في الشام ، قد صحت على القيام بذلك ، وعلى تعلية السد قبل انتهاء سنتنا الحاضرة ، ولعلها منجزة ما وعدت . ويظهر أن القصد من هذا السد أمران ، الأول حبس ماء العاصي من الشتاء ، لينتظم مسيله في الصيف ، ويستطيع إسقاء بساتين حص وحماة ، والثاني ليرتفع مستوى ماء البحيرة إلى حد يستطيع به الاندفاع والسيلان ، في الساقية النازهة من النهر إلى حص ، لشرب أهلها ، وهذه الساقية محفورة في الأرض حفراً بسيطاً ، ولم يبن لها بناء أو جدار ماء ، وأكبر ظني أنها حديثة العهد ، من عمل أحد الملوك أو الأمراء المسامين .

وطول البحيرة المنحرفة من الشرق الشمالي إلى الغرب الجنوبي نحو ١٢ كيلومتراً ، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٣ - ٤ كيلومتر وعمقها ٣ - ٨ أمتار ، وعلو مستوى مائها عن البحر المتوسط ٥٠٠ متر ، ولقلة عمقها فإن حرارة مائها تتأثر بحرارة الجو ، وفي شاطئها الجنوبي صخور كلسية واقفة كالجدران ، تعلو ٤ - ٥ أمتار وأكثر تتخللها خلجان صغيرة منحطة ، وشاطئها الشمالي أوطأ في الجملة ، تمتد فيه صخور كورة الوعر ، الحرية السوداء التي ترتفع تدريجاً نحو جبل الحلو ، أحد أعضاد جبال النصيرية كما قدمنا ، وبيننا يغلب اللون الأحمر على الأرضين المحيطة بشاطئها الشرق والجنوبي ، تجدد ماء هذه البحيرة ،

مشرب بقليل من البياض اللبني ، الناشئ من تحت الصخور الكلسية في شاطئها الجنوبي .
وتهب الرياح الغربية ، الآتية من المنفذ المنبسط بين حص وطرابلس بشدة زائدة ، كانت
تضطرنني وأنا واقف أؤمن النظر في البحيرة إلى الاستسك بالصخور ، خشية الاندفاع إلى
الوراء .

ولا بد في غالب الأيام عقيب الظهيرة من هبوب هذه الرياح أو العواصف
الشديدة ، فتثور الأمواج المتعالية الصاخبة ، حيث يتعذر بل ويستحيل آئذ ركوب
الزوارق والاصطياد . ويكثر في هذه البحيرة السمك على اختلاف صنوفه وحجومه ،
يرتزق منه أهل القرى المجاورة ، وأخصها قطينة التي اشتهرت باصطياده وبيعه من أسواق
حص ودمشق وما إليهما . كما فيها أيضاً السراطين والضفادع ، وغيرها من الحيوانات
الصدفية والقشرية . وإلى جانب شاطئ بحيرة قدس الجنوبي ، جزيرة صغيرة تعلو سطح
البحيرة تدعى تل الثين ، خيل لأحد المستشرقين الإفرنسيين في سنة ١٣٢١ هـ ، أنها مكان
مدينة قادش الحثية - قبل أن يعرف تل النبي مند ، وتكتشف آثاره - فأنفق مبالغ
طائلة ، وحفر فيها كثيراً ، فلم يظفر إلا بآثار قليلة ، أيقن بعدها بخطئه فعاد أدراجه ،
وكانت هذه البحيرة في عهد الصليبيين من ممتلكاتهم ، وهب (ريموند) الثاني كونت
طرابلس حق الصيد فيها إلى الفرسان الاسبتاريين ، لما سلمهم حصن الأكراد في سنة
١١٤٢ م .

ومن الضياع التي حول هذه البحيرة في الشرق ، تل الشور وقطينة ، وأهلها نصارى
وكام وكفر عبدة ، وفي الشمال من قرى الوعر : زور بقرايا وزيتا البحرة ، وفي الغرب من
قرى الوعر : عامرية ووجه الحجر وجوبانية ، وفي غربي عامرية : لفتايا فيها آثار
بيزنطية لم تكتشف بعد ، وفي الجنوب ديبين والناعم ومودان ، وبعض هذه الضياع قرب
الشاطئ ، وبعضه يبعد عنه قليلاً . وثمة على يسار العاصي قرية فوق تل يدعى (تل النبي
مند) ، قامت مكان بلدة قادش ، التي كانت من أجل معاقل الحثيين ، المخصصة لحراسة
تخومهم الجنوبية ، حدثت فيها بينهم وبين فراعنة مصر ، معارك كثيرة ، أهمها ما أتاه
رعسيس الثاني المعروف باسم (سيزوستريس) ، فقد كسرهم وأخضعهم ، ثم سالمهم وصاهر
ملكهم على ما قدمناه . تقب الأثري الإفرنسي (موريس بيزار) هذا التل في سنتي ١٣٤٠ -
١٣٤١ هـ ، فوجد فيها آثاراً مصرية عديدة ، من عهد هؤلاء الفراعنة وغيرهم ، منها أوانٍ

وأدوات من العظم والعاج والزجاج الملون البديع النقوش من الفن المصري الفينيقي ، وقطع الشبه (البرنز) مثل أسلحة وأسنة رماح ، وإبر ودبابيس ، وحلقات وأساور ، ومفاتيح وسرج ، وكؤوس وأجران ، وأشبابها فضلاً عن الأدوات الحديدية الكثيرة ، وأجل تلك الآثار نصب من الحجر الحري الأسود ، نقل إلى دار الآثار الوطنية بدمشق ، نقش عليه صور خمسة أشخاص ، ففي الجهة اليمنى رسم الفرعون (سيتي) الأول ، يتناول صولجان النصر من رب مصر آمون ، وخلف آمون المعبود ست ، ويليه المعبود مانتو ثم خونسو ، ونقش عليه أيضاً طابع الفرعون سيتي الأول ، الذي أقام هذا النصب في قادش ، تخليداً لذكرى انتصاره ، وإنهزام موسيل ملك الحث ، واستيلائه على قادش سنة ١٣١٥ قبل المسيح . وفي قرية تل النبي مند جامع قديم ، فيه ضريح هذا النبي المجهول ، وينسب بناء الجامع إلى الملك الظاهر .

وبين طريق السيارات الذي نذكره ، ونهر العاصي المتجه شمالاً ، نحو البحيرة التي وصفناها ، قرية كبيرة تدعى (القصير) لها محطة على خط حديد حمص ورياق ، تبعد عن حمص ٢٨ كيلومتراً ، أهلها مسلمون ونصارى روم ، عددهم ثلاثة آلاف . ذكرها ياقوت في معجمه فقال : « ضيعة أول منزل لمن يريد دمشق من حمص » ا هـ . فيظهر أنها كانت في عهد ياقوت صغيرة ، غير كافية لتكون قصبة هذه الكورة التي كانت في جوسية كما سيأتي . والقصير في عهدنا ، ذات أزقة مستقيمة ، ودور وأفنية فسيحة ، متباعد بعضها عن بعض ، استولى عليها الثوار الشاميين في ثورة سنة ١٣٤٤ هـ ، وقتلوا فيها مهندسين إفرنسيين من عمال إدارة المساحة ، فنصبت هذه الإدارة عند قبريها في المحطة حجراً تذكارياً ، وفي القصير نهير من روافد العاصي يدعى الحاروث ، يروي أراضيها المنبسطة ، وقد جعلت قاعدة لناحية تحوي قرى وضياح كثيرة ، تمتد إلى سفوح جبلي أكروم والهامل ، من أعضاء لبنان الشمالي . نذكر من هذه القرى الزراعة ، تبعد عن القصير للجنوب نحو ٦ كيلومتر ، يراها المار في القطار ، وقد اشتهرت بالمعركة التي حدثت بين الجيش العثماني والمصري في ذي القعدة سنة ١٢٤٧ هـ ، والتي حدثت بين الجيش الإفرنسي والثوار الشاميين في سنة ١٣٤٤ هـ ، وفي الزراعة ينابيع ومياه جارية تسقي أراضيها ، قيل أن بين هذه الينابيع كانت Triparadisos (ثلاث جنان) القديمة ، التي اجتمع فيها كبار قواد الإسكندر بعد موته واثثروا على تقسيم مملكته ، المترامية الأطراف بينهم ، وأن بينها

وبين القصير أيضاً هياً إبراهيم باشا المصري جيوشه ، واستعد للزحف على حصص ، وفتحها في سنة ١٢٤٨ هـ . وفي غربي الزراعة من الأماكن الأثرية قرية ربله ، كانت على ما يظهر ، ذات مكانة تاريخية ، وقصبة كورة لاثوديسيا التي حولها ، ويقال أنها هي المشار إليها في سفر الملوك (٢٢ - ٢٥) وأهلها الآن روم كاثوليك .

وفي جنوبي الزراعة إلى الشرق من الخط الحديدي أطلال بليدة قديمة تدعى جوسية الخراب ، تبعد عن الزراعة نحو ٧ كيلومتر ، قال ياقوت عنها : « قرية من قرى حصص ، على ستة فراسخ منها ، من جهة دمشق ، بين جبل لبنان وسنير ، فيها عيون تسقي أكثر ضياعها سيحاً ، وهي كورة من كور حصص » ا هـ . وتؤيد عبارة ياقوت البرج وجدران القصور ، والدور المبنية من الأحجار الضخمة المنحوتة ، التي تشبه أحجار الأبنية الأثرية النصرانية ، المنتشرة في بلاد حلب الغربية ، وقد تقدم ذكرها - كالتى في جبل سمعان وجبل الأعلى ، وجبل باريشا وجبل الزاوية - من القرن الخامس والسادس الميلاديين ، وليس ثمة من الأحجار المنقوشة ، سوى عتبة فوق باب أحد الأسوار المهدومة ، لاتزال في مكانها . وفي ضاحية جوسية دير ذكره ياقوت في معجمه وأسماء دير باعنتل ليس له الآن أثر . قال عنه : « هو من جوسية على أقل من ميل - أي نحو كيلومتر ونصف - وفيه عجائب ، منها أزج أبواب ، فيها صور الأنبياء محفورة منقوشة فيها ، وهيكل مفروش بالمرمر ، لاتستقر عليه القدم ، وصورة مريم في حائط منتصب ، كلما ملت إلى ناحية كانت عينها إليك » ا هـ . وذكر (مونارشه) في الدليل الأزرق « أن المسلمين قلبوا هذا الهيكل إلى جامع خرب بعد حين ، في خراب جوسية كلها وعفيت آثاره » ، وفي تاريخ أبي الفداء في حوادث سنة ٦٩٥ هـ : « جاء الملك العادل كتبغا من دمشق إلى جهة حصص ، وقدم جوسية وهي قرية على درب بعلبك من حصص ، وكانت خراباً ، فاشتراها وعمرها ، فوصل إليها ، ورآها ثم عاد إلى دمشق » ا هـ . فيظهر من هذا أن جوسية كانت خراباً في القرن السابع ، لكن أبو الفداء لم يذكر مبدأ هذا الخراب وفاعله ، كما أنه لم يذكر من اشتراها الملك العادل كتبغا ، ولا كيف عمرها ، ولم نعثر في تواريخ أخرى على ذكرها ، لنعرف إلى متى دام هذا العمران ، ومتى حدث خرابها الأخير ، الذي من أجل دواعيه على ما رأيت ، غور العيون ونضوب المياه ، التي ذكرها ياقوت ، ومن هذه المياه ، القسم الذي كان يذهب إلى حصص بقناة خاصة ، طولها يزيد على الأربعين كيلومتراً ، لشرب أهل حصص كما قدمناه

في بحثها ، وقد أسكنت فيها الحكومة العثمانية في غرة القرن الهجري الحالي ، قسماً من مهاجري الشركس ، حاولوا أن يعمروها ، لكنهم نكبوا بجذب أرضها وقلة أمطارها ، وعجزهم عن إسالة عيونها القديمة فهجروها . وبعد أن كانت أطلال جوسية ، وأحجار جدرانها الضخمة ماثلة لمضي بضع سنوات ، تطاولت إليها أيدي أهل ربله ، فنقضوها وبنوا بها كنيستهم الحديثة ، وما برحوا يجهزون عليها ، وقد تصبح بعد حين أثراً بعد عين ، وثمة في شمالي جوسية الخراب ، ضيعة تدعى جوسية العمار ، كان فيها جامع قديم ، له مأذنة أثرية ، خربت من عهد قريب ، وبني بأحجارها جسر على نهر الحاروث .

وعند جوسية الخراب الحد الفاصل في يومنا بين البلاد الشامية والبلاد اللبنانية ، وثمة في جنوبي هذا الحد ، كورة واسعة في منبسط منحصر بين سلسلي لبنان الشرقي والغربي ، أهلها مسلمون شيعة ، قصبتها تدعى (الهرمل) قرية كبيرة تبعد عن حصص ٥٣ كيلومتراً ، عدد سكانها ٤٥٠٠ ، كثيرة المياه والبساتين ، وأشجار الجوز وغيرها ، وفيها أطلال أثرية ، تدل على مكانتها السالفة ، منها مذبح كان مخصصاً لجوبيتر البعلبكي ، نقل إلى دار الآثار في بيروت . وفي شرقيها تل عليه بناء عال قديم يدعى قاموع الهرمل ، أو قائم الهرمل ، يظهر أن تحته قبر ، وعلى حجارته صور منقوشة تمثل الصيد . وعلى بعد عشرة كيلومتر عن الهرمل ، عين الزرقاء المنبع الأصلي لنهر العاصي ، وهي عين كبيرة ، تظللها أشجار دلب عظيمة ، تنبجس مياهها بشدة وتندفع ، لتأخذ في طريقها روافد كثيرة ، ترد من منحدرات لبنان الغربي والشرقي ، أخصها ما يرد من نبع اللبوة شمالي بعلبك . وعلى بعد نصف كيلومتر من عين الزرقاء المذكورة ، وعلى يمين المسيل المنحدر مغارة اصطناعية ، حفرت وسط صخرة عمودية واقفة كالجدار ، علوها نحو تسعين متراً ، ولها ثلاث طبقات ، وتعرف باسم مغارة الراهب ، أو دير (مار مارون) نقر فيها في الصخر الأصم ، مذبح ودرج وحجر صغيرة ، ويزعمون أن مار مارون أبا الطائفة المارونية ، اعتزل وأقام في هذا الدير ، وصحيحه أن المار المذكور أقام في دير الذي مر ذكره في شمالي حماة . وفي جدران هذا الدير مرامي ، تدل على أن الدير اتخذ في بعض العصور الإسلامية ملجأً أو حصناً . قال القلقشندي في (صبح الأعشى) عن نهر العاصي : « نهر حماة ويسمى العاصي ، لأن غالب الأنهر تسقي الأرض بغير دواليب ولا نواعير بل تركب البلاد بأنفسها ، ونهر حماة لا يسقي إلا بنواعير تنزع الماء منه ، ويسمى النهر المقلوب لجريه من الجنوب إلى الشمال ،

وغالب الأنهر إنما تجري من الشمال إلى الجنوب ، واسمه القديم نهر الأرنت ، وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك في الشمال عنها ، على نحو مرحلة ، وتسمى الرأس ، ويمتد من الرأس شمالاً حتى يصل إلى مكان يسمى قائم الهرمل ، بين قرية جوسية والرأس ، ويمر في واد هناك ، وينبع من هناك أكثر ماء النهر من موضع يسمى مغارة الراهب ، ويمتد شمالاً حتى يتجاوز (جوسية) ، ويمتد حتى يصب في بحيرة قدس غربي حمص ، ويخرج من البحيرة ، ويتجاوز حمص إلى الرستن ، ويمتد إلى حماة ثم شيزر ، ثم إلى بحيرة أفامية ، ثم يخرج منها ، ويمر على دركوش ، ويمتد إلى جسر الحديد ، وذلك جميعه شرقي جبل اللكام كذا ، وصحيحه جبل لبنان وجبل النصيرية وجبل القصير - فإذا وصل إلى جسر الحديد ، انقطع الجبل المذكور هناك ، ويستدير النهر المذكور ويرجع ، ويسير جنوباً بغرب ، ويمر على سور أنطاكية ، ويسير كذلك مغرباً بجنوب ، حتى يصب في بحر الروم عند السويدية « ا هـ . وقد قدمنا ذكر هذه الأماكن في أبحاثها ، فأنت ترى أن نبع العاصي الأصلي هو من اللبوة ، وأن عين الزرقاء ترفده رفقاً ، كما ترفد عين الفيحة نهر بردى ، وطول العاصي عند منبعه إلى مصبه ٤٥٠ كيلومتراً .

هذا والسائر بين شنشار وشمسين ، يلمح على يمينه في الأفق الغربي على بعد ٤٥ كيلومتراً ، فوق أعضاد جبال النصيرية قلعة الحصن أو حصن الأكراد ، وهي ما برحت تثير الإعجاب برفعتها ومنعتها ، وضخامة أبراجها وأسوارها ، التي لاتزال على جذتها إلا قليلاً ، كما تركها الفرسان الاستباريون ، لما استخلصها منهم الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٩ هـ ، ولا يتسع برنامج كتابنا هذا ، لوصفها فنكتفي بذكرها .

عود إلى طريق النبك : وفي شرقي طريق شنشار وشمسين ، سهول مترامية الأطراف جرداء ، تدعى (النقعات) مرتفعة في الجملة عما حولها ، فيها عدة ضياع ، كالعاليات ودردغان ، والحربية والحمرات ، وشعيرات والوازعية ، وغيرها ، أهلها نصيرية وأعراب ، وهي جيدة الهواء والتربة ، لولا أنها قليلة المياه ، ضئيلة الأمطار ، كثيرة سني الحبل . ويمتد في الشرق الجنوبي من بقعة النقعات سلسلة تلعات ورواب قفراء ، تدعى (حزم صدد) ، لأنها آتية من أنحاء قرية صدد . والحزم في اللغة الغليظ المرتفع من الأرض . وكلما ابتعد السائح في طريقه عن شمسين ، يتضاءل احمرار لون الأرض ، وعق تراها وخصبه ، فيتبدل اللون إلى البياض والاصفرار ، والعمق إلى الرقة ، والخصب إلى

الجذب ، والبهجة إلى الوحشة . وتشاهد في غربي شمسين آكام سلسلة لبنان الشرقي ، واسمها عند العرب جبل سنير ، تتدرج من الشمال إلى الجنوب ، لتحول بين سهل البقاع - الذي تمر فيه سكة حديد حص ورياق - وبين سهل حسية .

وحسية ضيعة صغيرة على يسار الطريق الآخذة إلى دمشق ، تبعد عن حص نحو ٣٥ كيلومتراً ، شيدت وسط سهل ، قلما يجود فيها الزرع ، لقلّة أمطارها ورقة تراها واصفراره ، ولذا انصرفت عناية ملاكها آل سويدان ، وأخصهم عبد الحميد آغا نحو تربية المشاية حولها ، وفي الآكام التي في غربيها . وأول العهد بتاريخ حسية هو في سنة ١١٠٠ هـ ، حينما امتلكها إبراهيم آغا سويدان جد بني سويدان الحاليين ، الذين تضاربت الأموال في منشئهم . كان هذا الآغا وبعده ابنه سليمان ، ثم ابنه الثاني حسين ، ثم حفيد سليمان مسعود متسلمين في حص ، حكوها على طراز ذلك العهد الإقطاعي خلال القرن المذكور كله ، كما قدمناه في تاريخ حص . وبعد مسعود تولى بنو سويدان محافظة البادية ، وطريق حص وتدمر ، وجبل قلمون حتى أبواب دمشق ، وظلوا في هذه الوظيفة حتى سنة ١٣١١ هـ في أيام عبدو آغا سويدان ، ثم اقتصر أمرهم على تولي مديرية الناحية فحسب ، إلى أن بدلوا بغيرهم منذ عهد قريب . وناحية حسية تشمل عدداً من القرى والضياع ، الممتدة إلى الشرق والجنوب ، ومنها ضياع النقعات التي عددناها ، ثم الرقامة والمزول ، والعزيرية والعباسية ، ومضايح والبلها . ولا يزال في حسية مخفر لجنود الدرك ، يؤمنون السابلة . وظل اسم الناحية لمضي ربع قرن (إيكي قبولي) لوجود بايين لخانها العظيم المندثر ، كانت تدخل القوافل من الشمالي منها ، وتخرج من الجنوبي ، ثم هجر هذا الاسم . وفي هذه القرية نبع ماء جار ، أنشؤوا بها في السنين الأخيرة بساتين ذات أشجار ، إذا دامت يرجى أن يروق بها منظر هذه القفار . وفي غربي حسية خربة تدعى الرميذة ، فيها ضريح ذو قبة ، لرجل مجهول يسمونه الشيخ عبد الله ، ولم يذكر جغرافيو العرب وسياحهم حسية ، في حين أنها كانت وما برحت أول منزل من حص أو ثانيه بعد شمسين ، وليس في غيرها ماء كاف ، ذكر ياقوت في معجمه اسم الفسولة ، وقال إنها منزل للقوافل فيه خان على يوم من حص وقارا ، ومثله قال القلقشندي (في صبح الأعشى) عندما عد المنازل بين دمشق وحلب . وقد كانت الفسولة في جنوبي حسية ، على بعد كيلومتر منها ، ولا تزال أطلالها ماثلة ، نقلت لقلّة مائها أو لسبب آخر إلى مكان حسية الحالية . وذكر

ابن جبير في رحلته أنه بعد مغادرة حص ، نزل في قرية خربة تدعى المشعر ، ولا يعرف الآن لهذه الخربة أثر ولا خبر . وأول من ذكر حسيه شمس الدين محمد الحلبي المعروف (بابن أجا) المتوفى سنة ٨٨١ هـ مؤلف رحلة الأمير (يشبك الداودار) في سنة ٨٧٥ هـ ، في عهد الملك الأشرف (قايتباي) ، فقد ذكرها باسم منزلة حصيا (بالصاد) ، أما الحان والحصن اللذين تكلم عنهما سائحنا (أوليا جلبي) فهما من آثار سنان باشا على ما يظن ، ولعلها خربا في زلزلة سنة ١١٧٣ هـ ، وقد تبدلت الآن معالمها ، وأنشئت بأبقاضها دور للقرية ، لاسيما ولم يعد بها حاجة ، بعد أقول نجم حسيه وملاكها ، منذ ما أنشئت سكة حديد رفاق - حص سنة ١٣٢٤ هـ ، وتم تعبيد طريق السيارات سنة ١٣٤٧ هـ ، واستتب الأمن في الجملة .

ومن الأماكن التي تختفي في الفيافي والتلعات الممتدة من حسيه إلى تدمر وتستحق الذكر ، قرى صدد وحوارين ، ومهين وعين جباة ، وحة أبو رباح ، وكلها من أعمال قضاء القريتين . فصدد قرية كبيرة تبعد عن حص نحو ٥٤ كيلومتراً ، وعن حسيه ١٨ كيلومتراً ، إلى الجنوب الشرقي ، ذات عيون وبساتين ، أحيط كل منها بجدار عال من اللبن ، مخافة عيث البادية . وكانت قديماً إحدى المدن التي تنتهي عندها تخوم مملكة إسرائيل ، كما ورد في التوراة في سفر العدد وفي نبوة حزقيال ، وكان فيها برج بيزنطي ، قديم عظيم ، كنا نراه من بعيد ، لكنه سقط منذ بضع سنوات ، وقتل نفراً من أهلها كانوا حوله في غفلة . وأكثر أهل صدد من السريان القدماء ، لهم فيها بضع كنائس ، وأقلهم من السريان الكاثوليك ، لهم كنيسة واحدة ، وجميعهم يرتزقون فوق عملهم الزراعي بنسج العبي ، وفي صدد قتل الأمير الشاعر الشاب (أبو فراس الحمداني) سنة ٢٥٧ هـ لما لحقه (قرعويه) نائب ابن أخته (سعد الدولة بن سيف الدولة) كما قدمنا في بحث حص . جاء في تاريخ أبي الفداء (١١٤ / ٢) أنه قيل في مقتله :

وعلمي الصدد من بعده عن النوم مصرعه في (صدد)
فسيقاً لها إذ حوت شخصه وبعداً لها حيث فيها ابتعد

والطريق من حص إلى صدد ، يمر بقرى فيروزة والجديدة ، والرقامة والمنزول ، وكانت السيارات التي تسير من حص إلى النيبك فدمشق ، في سني ١٣٤١ و ١٣٤٢ هـ وما

بعدها ، تمر بهذه الطريق على بعدها ووحشتها ، إلى أن تم تعبيد طريق حسية والبريج إلى النبك ، فهجرت طريق صدد . وكانت هذه الطريق خططت وفرشت بالخصى ، وبنيت جسورها في سنة ١٢٩٦ هـ وما بعدها ، ثم أهل دحيها وتعبيدها ، ما يقرب من نصف قرن ، إلى أن تم ذلك أخيراً .

وحوارين ، قرية قديمة أهلها مسلمون ، تبعد ١٥ كيلومتراً عن صدد إلى الشرق ، قال عنها ياقوت : حوارين حصن من ناحية حمص ، قال بعضهم :

يا ليلة لي بحوارين ساهرة حتى تكلم في الصبح البصافير

مر خالد بن الوليد في مسيره من العراق إلى الشام بتدمر والقريتين ، ثم أتى حوارين من سنير ، فأغار على مواشي أهلها فقاتلوه ، وقد جاءهم المدد من أهل بعلبك ، ثم أتى مرج راهط ، وقال بعضهم :

أنحن بحوارين في مشخرة بيت ضاب فوقها وثلوج

وكانت حوارين بليدة حصينة ، وأثارها عديدة حتى اليوم . منها قصرها العظيم الذي شيده الرومان ، ثم اتخذها يزيد بن معاوية ، يقضي فيه أكثر أيامه ويذهب منه إلى الصيد ، في جبة عسال في أعالي جبل سنير ، حتى أنه لما مات أبوه معاوية ، كان غائباً في حوارين ، فكتبوا إليه فحضر بعد دفن أبيه ، ثم مات هو فيها سنة ٦٤ هـ ، وفي حوارين آثار سبع كنائس قديمة ، لاتزال واحدة منها ماثلة بمجدرانها وحنيتها ، وبعض عدها مع نقوش لطيفة ، وثمة كنيسة أخرى يسميها أهل القرية كنيسة جعارا ، ربما كانت هيكلًا وثنيًا في عهد الرومان ، ثم حولوها إلى كنيسة لما تنصروا ، فيها حجارة وأعمدة ضخمة ، تشبه ما في بعلبك . وفي حوارين عين جارية وبساتين مسورة كما في صدد .

ومهن قرية في جنوبي حوارين ، وقريبة منها بنحو ثلاثة كيلومتر ، أهلها مسلمون وهي قديمة أيضاً ، في أعلاها بناء أثري كبير ، مبني على الصخر يدعونه سجن حوارين ، تدل هندسته على أنه لم يكن سجنًا ، بل معبدًا وثنيًا اتخذ كنيسة في عهد البيزنطيين ، ولا يزال فيه عدد من الأعمدة والأفاريز المنقوشة ، وحجارته ضخمة عادية ، وطول جداره ١٢ مترًا ، وعرضه عشرة أمتار ، وقد ألحق به بناء لتحصينه ، ذو أبراج مربعة لكنه لكنه أحدث من

المعبد صنعاً ، وفي مهين أيضاً عين وبساتين قليلة .

والغنتر ضيعة في شرقي حسيّة ، تبعد عنها نحو ٣٨ كيلومتراً ، يؤتى إليها من حص عن طريق تدمر ، التي فيها قرى : زيدل وسكرة ، وأبو دالي وعيفير ، والجربوعية والبسة ، والفرقلس حيث ينتهي العمران . والذاهب إلى الغنتر ينحرف إلى الجنوب في بيداء شاسعة ، فيجتاز ٢٩ كيلومتراً . والغنتر ضيعة من أملاك أسرة آل سويدان ، تعلو عن البحر ٧٦٦ متراً ، فيها عين وزروع قليلة ، بينها وبين حسيّة تمتد آثار قناة تدمر العظيمة ، الآتية من الغرب ، وعلى ما يظهر من أنحاء القصير أو جوسية ، وقد جرت في القرن الرابع حول الغنتر معارك بين سيف الدولة بن حمدان وقبائل البادية ، الذين تقدم ذكر أسمائهم في بحث سلميّه ، بعد أن أوقع بهم سيف الدولة في سلمية والفرقلس ، ثم لحق بهم إلى الغنتر والجباة ، وبدد شملهم وردم آبارهم ، ثم اتجه نحو تدمر وأرك ، والسخنة والطيبة ، والكوم والرصافة ، ومنها عاد إلى حلب . وقد ذكر ياقوت في معجمه الغنتر ، وأورد بيتاً للمتنبي من قصيدة يهنئ فيها سيف الدولة على انتصاره على القبائل :

غطا بالغنتر البيداء حتى تحيرت المتالي والعشار

وذكرها الأمير أبو فراس في قصيدة ، يفخر بأفعاله في تلك المعارك ، التي خاض يومئذ غمارها :

سقيناً بالرماح بني قشير ببطن الغنتر السّم المذابا

وفي شرقي الغنتر مزرعة فيها عين ماء تدعى الجباة ، ذكرها المتنبي أيضاً :

ومروا بالجباة يضم فيها كلا الجيشين من نقع إزار

وفي شمالي الغنتر على نحو ثلاثة كيلومتر سلسلة آكام ، في الأخيرة القبلية منها حمة ، هي فوهة صغيرة يخرج منها بخار مائي حار ، كالذي يخرج من البراكين التي على وشك الانطفاء ، تدعى حمة أبو رباح أو حمام أبو رباح ، يقصدها أصحاب الأمراض العصبية ، والمصابون بتيبس الأعضاء والتشنج . وقد عرف الأقدمون منافع هذه الحمة ، فبنوا فوق الفوهة غرفة مسقوفة ، يدخل إليها المستحمون . وبنوا أيضاً إلى جانب تلك الغرفة ، بناء

كبيراً معقود السقف ، جعلوه خزاناً لماء المطر الذي يأتي من المجاري المحفورة والمبلطة ، في الآكام المجاورة . يدخل المستحمون إلى غرفة الحمة ، فلا يكادون يلبثون بضع دقائق حتى يتصبّبون بالعرق ، فيخرجون ويغتسلون بالماء الذي كانوا يتناولونه من ذلك الخزان ، أما الآن فقد هدم هذا الخزان أو كاد ، ونضب ماؤه ، وصار المستحمون المقتدرون يحملون الماء من الغنتر ، ويغلب على الظن أن بناء هذا الحمام هم التدمريون دون غيرهم ، لقرب هذا المكان منهم في الجملة (١٠٠ كيلومتر) ، ولبلوغهم الغاية من الحضارة والعمران في تلك العصور . وثمة غير الفوهة التي بني عليها الحمام - فوهتان بعيدتان قليلاً ، إحداها يتداوى بها الصم إذ يضعون آذانهم عليها ، والثانية يؤمها العقيبات من النساء ، لدفع الأسباب المانعة من حبلهن ، يقعدن القرفصاء عليها . ولعل النفع الذي قد يحصل من هاتين الفوهتين ناشئ عن أن البخار إذا مادخل الأذن أو الرحم ، يطهر ما فيه من الأوساخ ، إذا كان ثمة شيء من ذلك . هذا ولم يذكر حمة أبي رباح من جغرافي العرب إلا شيخ الربوة ، لكنه غلا وبدل في الوصف إذ قال : « وبين حص وسامية - كذا وهو خطأ - كهف - وهذا خطأ أيضاً إذ ليس هناك كهف بل غرفة مبنية - ، في جبل يخرج منه بخار أشد من الضباب المتراكم ، فإذا دخل الإنسان ذلك الكهف ، خيل إليه أنه في الحمام لشدة الوهج ، وكثرة قطر الماء من البخار الصاعد من البئر - وصحيحه من الفوهة - الذي في وسط الكهف ، ويسع غليان الماء بقعر الماء ، ولا يمكن النظر فيه ، لشدة البخار الصاعد من البئر ، الذي في وسط الكهف ، ومن نظرفيه تشييط من الحرارة (كذا) » اهـ .

أما القريتان ، فهي في وسط سهول فسيحة قفراء ، في غربها الجبل الآتي من النبك إلى مهيّن ، وشرقها سلسلة الجبال الممتدة من جنوبي الناصرية إلى غربي تدمر . يؤتى إليها من دمشق عن طريق القطيفة وجيرود (١٣٠ كيلومتراً) ، ومن حص عن طريق صدد ومهيّن (٦٩ كيلومتراً) ، ومن تدمر عن طريق عين البيضاء وقصر الحير (١٠٧ كيلومتر) ، وفي طريقها من مهيّن أو من جيرود برار وتلعات بيضاء صلعاء ، لا ترى فيها إلا جمال البدو ومضاربهم ، وأسراب الغزلان ومضائدهم ، والشمس المتوهجة والسراب المتلائي . أما هي فقريّة كبيرة طيبة المياه ، كثيرة القنوات والبساتين والكروم ، فيها التفاح الجيد والعنب الفاخر ، لا تختلف بطراز بنائها وسحن أهلها ، وأزيائهم وأطوارهم ، عما في بقية قرى جبل قلمون ، وقد جعلت منذ بضع سنوات مركز قضاء تتبع لواء حص ، من أعمالها

جولة أثرية (٢٤)

- ٣٦٩ -

قرى حوارين وحفر ، وصدد والرحيبة ، والغنتر ومهين ، وحدث وأبو فرج ، وناحية تدمر التي فيها : تدمر وأرك ، والسخنة والطيبة والكوم ، ثم ألغى هذا القضاء في سنة ١٣٥٢ هـ . وبقيت القريتان ، مركز ناحية ، وعلى بعض مسافة منها حمامات معدنية طبيعية ، تصلح للنقرس وأوجاع المفاصل ، منها عين كبريتية غزيرة ، يستحم بها المصابون بأمراض جلدية . والقريتان بليدة قديمة ، يظن أنها المذكورة في التوراة باسم حصر عينان ، والمعينة كأحد تخوم بني إسرائيل الشمالية ، وكانت تدعى في عهد الرومان باسم (نزالة) ، وقد حصنها لوقوعها في طريق تدمر ، ثم عرفت باسم (قرادي) ، وكانت منقسمة إلى قسمين ، لذلك دعاها العرب بالقريتين ، واليوم لم يبق من القسم الجنوبي إلا بعض الآثار . قال ياقوت : « والقريتان قرية كبيرة من أعمال حمص ، في طريق البرية ، بينها وبين سخنة وأرك ، وأهلها كلهم نصارى » ا هـ . وعدد سكانها في يومنا ٢٥٠٠ ثلثهم من المسلمين ، والبقية سريان قدماء وكاثوليك . وإلى الشمالي الغربي منها دير قديم ، باسم (ماراليان) يزوره المرضى والمجانين للاستشفاء ، فيه ناووس رخام ، عليه نقوش وكتابات سريانية ، وعلى باب كنيسته كتابة عربية تاريخها ٨٧٨ هـ ، فيها أمر بمنع البدو من التطاول على أهل الدير .

عود إلى طريق النبك : وبعد حسيّة بثمانية كيلومتر ، على يمين الطريق برج قديم صغير ، مربع الشكل له باب وإطى ، يدعى برج الأحمر ، قيل أنه من آثار الملك الظاهر بيبرس ، اتخذ مخفراً لتأمين السابلة في هذه الروابي والبقاع القفراء ، التي كانت وما برحت ، مكن اللصوص ومربط قطاع الطرق ، فإذا اجتزت الروابي التي بعده ، تجد سهلاً أفيح ، فيه ضيعة تبعد عن حسيّة ١٦ كيلومتراً ، تدعى (البريج) هي ملك عبد المجيد آغا سويدان ، عدد أهلها ٣٠٠ ، فيها جامع وخان خراب ، يظن أنها من آثار نور الدين الشهيد ، خربا في زلزال سنة ١١٧٣ هـ أمامها سبيل ماء جار ، عليه كتابة قديمة تاريخها ٧٠٠ هـ ، وأخرى حديثة باسم مجدد السبيل حسن أفندي الدفترى سنة ١٣١٦ هـ . قال ابن فضل الله العمري في (التعريف) - عند ذكره المراكز الموصلة من دمشق ، إلى حمص وحماة وحلب - : « ثم من قارا إلى بريج العطش ، ويقال فيه البريج أيضاً ، وقد كان مقطوع طريق وموضع خوف ، فبنى فيه قاضي القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد بن صصرى رحمه الله مسجداً وبركة ، وأجرى الماء إلى البركة من ملك كان له هناك ، وقفه على هذا

السبيل ، فبدل الخوف أمناً والوحشة أنساً ، أثابه الله على ذلك^(١) » (صبح الأعشى ١٤ / ٣٨٤) . قلت : لعل الكتابة القديمة التي تعذر علينا قراءتها ، والمؤرخة بسنة ٧٠٠ هـ تحوي اسم هذا القاضي المحسن . والسهول والتلاع الممتدة بين حسية والبريج ، وما حولها في الشرق والجنوب ، لا تختلف عن المهامه القفراء ، حيث لا ظل ولا شجر ، ولا عشب ولا ثمر ، ينقبض الصدر من جفاف مشاهدها ، وبياض تربتها ووهج شمسها ، وخداع سراها في الصيف ، وشدة بردها في الشتاء ، والخوف من قطاع طريقها في كل الفصول .

والآكام الغربية من جبل سنير ، التي تبتدئ كما قلنا من قرب شمسين ، وتتدرج بالعلو كلما سارت نحو الجنوب ، هي جرداء إلا قليلاً من أشجار البطم وغيره ، يستفيد مما حول حسية والبريج منها ، صاحبها عبد المجيد آغا سويدان ، من أجور مراعي قطعان الماعز ، التي تغشاها في الشتاء والربيع بكثرة ، ومن المحاصيل التي يزرعها له في أوديتها بالقسم ، بعض فلاحين جبل قلمون . ولا يزال علو هذه الآكام يزداد ، إلى أن يبلغ معظمه في قمة تدعى حليلة قارة (٢٤٥٥ متراً) ، التي يشاهدها القادمون من حماة إلى حمص ، كما قدمناه في حينه ، ولا يزالون يشاهدونها ، حتى يجتازوا قارة التي سيأتي ذكرها . وفي البريج تنتهي حدود لواء حمص وسباسبه الجنوبية ، ويبدأ قضاء النبك الذي تحده من الغرب جبال شامخة هي الأصل في جبل سنير ، ومن الشرق جبل أجرد وسط في علوه يدعى (الجبل الشرقي) ، يمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ، ويضمحل قرب مهين وحوارين .

جبل سنير (قلمون) : سنير هي الكلمة التي وردت في التوراة ، استعملها شعراء العرب وجغرافيوهم ، قال عبد الله الخفاجي :

(١) عن كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٩٦ هـ) : وفي سنة ٧٢٣ هـ توفي قاضي القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد بن عماد الدين محمد بن صبرى التغلبي الدمشقي ... استمر على القضاء إلى أن مات ، وكان حسن الأخلاق مليح المحاضرة ، متواضعاً له مشاركة في فنون شتى ، وعنده حظ من الأدب والنظم ، ومن نظمته :

ومنهف بالوصل جاد تكرمها	فأعاد ليل الهجر صباحاً أبليها
مازلت أتم ما حواه ثغره	حتى أعادت الورد فيه بنفسجها

أسم ركابي في بلاد غريبة من العيس لم يبرح بهن بعير
فقد جهلت حتى أراد خبيرها بوادي القطين (؟) أن يلوح (سنير)
وكم طلبت ماء الأحص بآمد وذلك ظلم للرجال كبير

قلت الأحص جبل ذو نجد ، متسع عامر في جنوبي حلب ، قدمنا ذكره في الصفحة
٢٠٩ ، وأمد مدينة ديار بكر الحالية . وقال البحري :

وتعمدت أن تظل ركابي بين لبنان طلعا والسنير
مشرفات على دمشق وقد أعرض منها بياض تلك القصور

وكان هذا الجبل قبل الفتح الإسلامي مأهولاً بأحفاد الآراميين ، سكان الشام
الأقدمين ، بينهم فئة من الروم ، الذين تركوا في بعض قراه آثاراً جمة ، كما سنذكره . ولما
استقرت أقدام المسلمين في الشام ، سكن فيه من قبائل العرب بنو ضبة وبعض بني كلب ،
الذين منهم ميسون بنت بحدل أم يزيد بن معاوية ، وهذا هو السبب في تفضيل يزيد
الإقامة واللهو في حوارين ، والصيد في أعالي سنير ، ليكون بين أخواله . وكانوا يعدون
سنير كورة من كور دمشق ، على أنه في سنة ٣٧٠ هـ امتدت إليه أيدي (بكجور) حاكم
حصص ، الذي مر ذكره في تاريخها . قال ابن القلانسي في ذيل (تاريخ دمشق) ص ٢٤ :
« كانت العرب قد طمعت في عمل دمشق ، وأفسدت الغوطة ، وكان بها القائد (أبو محمود)
واليتها في ضعف ، وكان بكجور حاكم حصص ، قد ضمن أعمال المغاربة : قارا ويبرود ،
والثينة وصيدنايا ، والمعرة وتلفيتا ، وغيرها من ضياع جبل سنير ، فحماها من العرب
والحرامية ، وحسنت حال دمشق بذلك » ا هـ . وقسم جبل سنير الذي يمتد غربي قضائي
النبك والقطيفة ، الآتي ذكرها ، يسمى في عرف هذه الديار قلمون ، ويعتبرون حدود
جبل قلمون من الشمال إلى الجنوب ، من البريج إلى الدريج ، فالبريج تقدم ذكرها ، وأما
الدريج فهي قرية في الشمال الغربي من دمشق ، تقع شرقي عين الفيحة ووادي بردى ،
وحدوده من الغرب إلى الشرق ، من المرتفعات المطلة على بعلبك إلى بادية الشام . والقسم
الممتد بعد الدريج أو بالحري ، بعد وادي بردى وفيه قضائي الزبداني وقطنا ، يعد من
جبل الشيخ أو جبل الثلج ، في اصطلاح جغرافي العرب .

وليس في العربية اسم جامع لأفراد هذه السلسلة ، كما في اصطلاح الإفرنج التي

يسمونها Anti-Liban ، ومعناه لبنان المناوح ، ويسميه البعض سلسلة لبنان الشرقي ، تمييزاً عن سلسلة لبنان الغربي ، التي تناوحها وتجاورها ، ولا يفصل بينهما سوى سهل البقاع ، وفي شماليه وادي العاصي ، وجنوبيه وادي الليطاني . وبين هاتين السلسلتين مشابهة ومباينة واضحتين ، فهما يتشابهان بالعمر الجيولوجي والشكل ، وتأليف الطبقات وطبيعة الأرض والصخور ، واتجاه مركزيهما ، ويتباينان بالعلو الذي هو أكثر في الغربي منه في الشرقي ، وبأن أعالي لبنان الشرقي منفسحة أكثر منها في الغربي ، إلا أن أرض الغربي ولا سيما من جهة البحر ، أكثر خصباً وأبهج منظرأ ، وأوفر عمراناً وسكاناً ، وحراج الأرز والشوح ، والشربين والصنوبر المثر ، وكروم التوت والزيتون والعنب ، تزين قمم ومنحدراته وسفوحه . أما لبنان الشرقي ، فضئيل العمران والسكان ، إلا في القرى القليلة التي سوف نعددها ، ويغلب عليه الجذب والتجرد في معظم قمم ومنحدراته ، فتراها عارية من النباتات ، وأشجار الحراج وأنجمها ، ما خلا أثر ضئيل من بقايا حراج البلوط والملول ، واللزاب وبعض الأشجار المثمرة البرية ، كاللوز والأجاص ، والزعرور وغيرها . وليس فيه ما يبهج النظر على قلة إلا (وادي الحرير) ، الذي في طرفيه حراج قليلة ، و (وادي نهر بردى) ذي الغياض والرياض ، و (سهل الزبداني) الذي تكثر فيه بساتين التفاح والسفرجل . وهو قليل المياه في منحدره الشمالي والغربي ، كثيرها في منحدره الشرقي والجنوبي ، اللذين ينبع فيهما نهر بردى وعين الفيحة ، والعيون التي سنذكرها في بحث قرى قلمون ، والعيون والمسائل العديدة ، التي تؤلف نهري الأعوج والأردن . وتختلف السلسلتان أيضاً في اتجاههما وانبساطهما ، فإن لبنان الغربي منخفض في الجنوب ، انخفاضاً ينتهي عند جبل عامل وسواحل البحر المتوسط ، ولا يبلغ معظم علوه إلا في الشمال ، عند قرنة السوداء (٢٠٨٨ متراً) ، وأما الجبل الشرقي فإنه لا يبلغ معظم علوه ، إلا في الطرف الجنوبي عند جبل الشيخ (٢٨٧٦ متراً) ، ثم يأخذ بالانحناء نحو الغرب والجنوب ، حتى يضمحل شمالي سهل الجولان ، وشرقي جبل قلمون .

وقد جعلت الطبيعة جبل قلمون قسمين : الأعلى والأسفل ، ونحت الحكومات هذا المنحى ، فجعلت في الأعلى قضاء النبك ، وفي الأسفل قضاء القطيفة . وفي الأول من القرى ١٦ قرية ، وفي الثاني ١٧ قرية ، عدا عن ١٣ قرية تابعة قضاء دوما ، واثنيتين تابعتين قضاء بعلبك وهما : عرسال والطفيل ، وواحدة تابعة حمص وهي : البريج ،

فيكون مجموع قرى هذا الجبل ٤٩ قرية ، ومجموع سكانه سبعون ألف نسمة ، منهم سبعة آلاف نصارى على اختلاف نحلهم ، والبقية مسلمون سنية . والصخور في قلمون الأعلى والأسفل لكسية التركيب ، وترتبه بيضاء قليلة الخصب ، إلا فيما يروى منها من العيون والقنوات ، وهي أقل من الحاجة بكثير . وقد تجرد هذا الجبل عن حراجه القديمة ، التي فتكت بها فؤوس الخطابين ، وقطعان الماعز في السنين الخوالي ، حتى لم يبق منها إلا أثر ضئيل ورسم محيل ، في القمم الشاخنة والمنحدرات الصعبة ، لذلك صار خالياً من النضرة والبهجة ، فقيراً بمطاره - تتراوح كميتها في السنة بين ٨٠ و ١٣٠ ميليمتراً - ضعيفاً بريه ، شديداً ببرده - قد تهبط الحرارة في الشتاء إلى - ١٦ تحت الصفر - . على أن أوديته أخصب من آكامه وتلعاته ، وهواء قلمون الأعلى أبرد وأجود ، ومياهه أعذب من مياه الأسفل وأتقى ، والصحة ومتانة العضلات وعرض الهامات في رجاله ، يضاف إلى ذلك تورده الوجنتين واسوداد الحدقتين مع سمرة مستلحة في نسائه ، أمور قد اشتهر بها ، وبرزت بعض قراه كقارة ويبرود بوفرته . وأجل غلات الأعلى في الأرض المسقوية : البطاطا والثوم ، ثم الحبوب والفول الحريفي والعنب ، وفي الأرض العذبة الحبوب التي قلما تجود ، لتوالي سني المحل فيه ، وورق الساق المستعمل في دبغ الجلود ، والشنان الذي كان يستعمل كثيراً في استخراج القلي ، المرغوب في صناعة الصابون ، وقد انحطت مكاتته الآن . وغلات الأسفل العنب والتين والحبوب ، وهذه أيضاً قلما تجود ، إلا إذا زرعت سقياً . وكل هذه الغلال ليست بذات بركة ، تجعل أهل قلمون في رغد ، يغنيهم عن الهبوط إلى دمشق وغيرها من المدن ، للعمل في البناء ، أو الهجرة إلى أميركا وغيرها . وقد كانت كثرتهم لمضي بضع سنوات ، ترتزق مما يرد من أنسبائهم الراحلين إلى بلاد المهجر ، أو من تربية المواشي التي تصيف في صروده ، وتشقي في سهوله الشرقية ، وكان أصحابها فيما مضى ، قلما يأمنون عليها من غارات أشقياء الصفا وجبل الدروز المجاورين لهم ، من جهة الجنوب على مسيرة يومين ، ثم انقطع مورد المهجر ، بعد أن منعت حكوماته خروج النقد من بلادها ، وقل مورد المواشي لوفرة ما انتابها من الأمراض والبرد وقلّة المرعى ، لاسيما النهب الذي اعتراه ، خلال ثورة الشام الكبرى في سني ١٣٤٤ - ١٣٤٥ هـ ، فساء حال أهل هذا الجبل كثيراً .

وعمران قلمون متشابة في الجملة ، لكن هيئات أهله ولهجاتهم مختلفة ، يكاد يكون

لكل قرية لهجة وسحنة تتميز بها ، مما يدل على اختلاف أصولهم ، رغم أن أسماء بعض قراهم متشابهة في اللفظ ، كيبود وجيرود ، ومعرة ومعرونة ، وعسال وعرسال ، وجبة وجب عدين ، وفليطا وتلفيتا . وكل مسلميه عرب ، إلا قليل من التركمان في قلدون ، وجل نصاراه روم كاثوليك ، ويليهم الروم الأرثوذكس ، والسريان الكاثوليك والسريان القدماء . وليس في قلمون كله آثار تاريخية جلية ، سوى بعض الكنائس والأديرة ، التي منها ماهو خراب ومنها ماهو عامر ، وقد مر الكلام عن بعضها في بحث مهين وحوارين ، وسيأتي عن غيرها في بحث القرى القادمة ، وثمة خانات قديمة من العهد الإسلامي ، سنأتي على ذكرها أيضاً .

هذا وطريق القوافل القديمة ، بعد أن كانت تمر من عين العلق فقارة فالنبيك ، حرقوه في السنين الأخيرة لما عبده ، وأخذوه نحو الشرق إلى قرية دير عطية فالنبيك . وعين العلق بركة ماء كبيرة ، عليها غيضة من أشجار الحور ، تظهر عن بعد كالواحة في الصحراء . أما قارة : فقرية كبيرة تعلو عن سطح البحر ١٣٦٠ متراً . ذكر في رسالة (اللغات البرقية في النكت التاريخية) لشمس الدين محمد بن طولون ، المتوفى عام ٩٥٣ هـ ص ٤٣ « قارا إنما أهلها فريقان ، مسلمون ونصارى ، وبها جامع للمسلمين ولها قاض ، وفيها خان مسبل وحمام عتيق ، وآخر جديد بناه نائب السلطنة (تنكيز) ، أنفق في عمارته ثلاثين ألف درهم ، ومن المنسوبين إليها الشرف (سالم الرقي ثم القاري) و (إسماعيل بن أبي القاسم القاري » ا هـ . وقال ياقوت : « قارة قرية كبيرة على قارعة الطريق ، وهي المنزل الأول من حصص ، للقاصد إلى دمشق وله ، كانت آخر حدود حصص ، وما عداها من أعمال دمشق ، وأهلها كلهم نصارى ، وبها عيون جارية يزرعون عليها » . وقال ابن جبير الأندلسي ، الذي مر بقارة في سنة ٥٨٠ هـ : « ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين ، تعرف بالقارة ، ليس فيها من المسلمين أحد ، وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد ، في وسطه صهريج كبير ، مملوء ماء يتسرب له تحت الأرض ، من عين على البعد ، فهو لا يزال ملآن » ا هـ . وذكر أبو الفضل في تاريخ الماليك الذي دعاه (النهج السديد) حكاية عن قارة خلاصتها : « أن أهل قارة كانوا نصارى ، يسرقون المسارين والعابرين من المسلمين ، ويبيعونهم كالأسارى من الفرنج ، في حصن الأكراد وغيره ، ولما مر الملك الظاهر بيبرس بقارة سنة ٦٦٤ هـ ، وهو ذاهب من دمشق إلى

حمص ، لملاقاة جيوشه الراجعة من غزو بلاد الأرمن ، سمع بأعمال أهلها ، فأمر بنهبها وقتل كبارها ، فنهبوا وقتلوا ، وأسكن في أماكنهم جماعة من التركان وغيرهم ، وجعل كنيسة جامعا ، وأخذت صبيان المقتولين ممالكك ، فتربوا بين الترك في الديار المصرية ، فصار منهم أجناد وأمراء « ١ هـ . قلت : قارة قديمة العهد ، كان الروم يدعونها كوارا وكارا ، وكان لها على ما قيل كرسي أسقفى منذ القرن الرابع ، وبقيت دهرأ طويلاً أحد المراكز لطائفة الروم الملكيين ، وأكثر نصاراها منهم ، ويليه الروم الأرثوذكس . وعدد أهل قارة الآن ٢٨٠٠ ، أكثرهم من المسلمين ، بينهم نفر من أسرة سويدان الذين تقدم ذكرهم في بحث حسية ، والبقية من النصارى الذين ذكرناهم . وفي قارة بعض الآثار ، في ظاهرها للغرب دير قديم للروم الملكيين ، يعرف بدير (مار يعقوب) ، وفي داخلها جامع قديم ، يظن أنه الكنيسة التي جعلها الملك الظاهر جامعاً ، وفي كنيسة القديس (نيقولاوس) كتابات عربية من القرن التاسع الهجري ، وثمة خانان قديمان ، أحدهما من آثار نور الدين محمود لا يزال عامراً ، وهو الذي نوه به ابن جبير ، والثاني من آثار سنان باشا نصفه خراب .

ودير عطية : قرية كبيرة تبعد عن قارة إلى الشرق الجنوبي نحو عشرة كيلو متر ، يبلغ سكانها (٥٠٠) ، أكثرهم مسلمون ، وأقلهم روم أرثوذكس وروم كاثوليك . وهذه القرية أحدثت بعد الحروب الصليبية ، بنتها (صالحة خاتون) ابنة أحد أمراء الأكراد . قال في خطط الشام (١١٧ / ٥) « ومن الوقفيات الغريبة التي اطلعنا عليها ، حجة نقلت حوالي المئة العاشرة ، عن حجة كتبت سنة ثمان وسبعمئة للهجرة ، جاء فيها أن « الست الجليلة صالحة خاتون ، ابنة الأمير الكبير ، صلاح الدين بن بهلوان بن الأمير الكبير شمس الدين الأكرى الآمدي ، وقفت وحبست ، وأبدت في صحة منها ، وسلامة وجواز أمرها ، جميع الضياع الخمس المتلاصقات ، المعروفات بوادي الذخائر ، عمل دمشق المحروسة ، وتعرف إحداهن بالبويضا ، والثانية بالبريضا ، والثالثة بالحميرا ، والرابعة بدير عطية ، والخامسة بالحمرا » ، وقد تغيرت معالم هذا الوقف ، ولا يعرف بهذه الأسماء غير دير عطية والحميرا في تلك الجهة ، وانتقلت القريتان إلى أيدي أخرى « ١ هـ . ولأحد أحفاد هذه الخاتون الصالحة ، ذكر في كتابة نقشت على سقف غرفة قديمة بالية من اللبن ، تاريخها سنة ٨٦٢ هـ ، وليس في دير عطية بناء أثري غير هذه الغرفة فيما علمت . وقال بعض

أهلها ، أنه كان في قريها دير على اسم القديس (ثاودروس) ومعناه عطاء الله ، فعرب اسمه بدير عطية ، وأنه لما أوقفها صاحبة خاتون المشار إليها ، لم تزل تعنى بفلاحتها وتزكية مزارعها ، حتى صارت من أمهات قرى جبل قلمون ، وفيها المياه الطيبة والبساتين الغناء . وفيها الآن ثلاثة مساجد وكنيستان من البناء الحديث ، ومدرسة للعلم الديني الإسلامي ، ودور جميلة في الجملة .

ويسير السائح بعد قارة ، وهو لا يزال يرى على يمينه صرود قلمون ، تشمخ حتى يصل علو بعض قممها ، كحلبية قارة إلى ٢٤٥٥ متراً ، وطلعة موسى إلى ٢٦٣٠ متراً ، والنبي باروخ إلى ٢٢٠٠ متر ، وهي جرداء في الغالب ، ليس فيها إلا قليل من بقايا أشجار الحراج ، تظهر عن بعد كالنقط المبعثرة ، وفي الشتاء تهب من هذه الصرود ، التي يكسوها الثلج بضعة أشهر في السنة رياح باردة ، تلفح وجوه السائرين في هذه البراري ، والتلاع البيضاء الصلحاء ، والتي ليس في أعذائها سوى الشنان والشوك ، وبعض الأعشاب الغثة . وفعل هذه الرياح القارسة ، أشد ما يكون بين قارة والنبك ، وبها تضرب العامة المثل فتقول « بين قارة والنبك ، بنات الملوك تبيكي » وقال فيها الشعراء :

إذا هاجت الرمضاء ذكراك بردت حشاي كأي بين قارة والنبك
وطول الطريق بين قارة والنبك ١٥ كيلو متراً ، في غربيه من الضياع : جريجير وفليطا والسحل ، مبعثرة في سفوح الجبال ، ولجريجير فج يؤدي إليها ، وحولها أودية كثيرة : وادي البرد وفي الشمال وادي العوينات ، ومتى دخل السائر أول وادٍ منها ، تشعب أمامه الجبال ، وتكون بين أضلاعها أودية ، معظمها متوازي ، وأحياناً تكون متعامدة . وبينما يكون السائر في قمة جبل ، إذ يهوي بانحدار ساحق إلى وادٍ ضيق ، فيجابهه جبل مواز للآخر ، وهكذا دواليك ، وأهل هذه القرى ترتزق من تربية الماعز ، ويشرب رعاة الماعز من الثلوج التي يجمعونها ، ويذيبونها بإحراق أصول الأنجم والنباتات الخاصة بتلك الصرود ، كالشيخ والتبان وغيرهما ، ويقضي سكان هذه القرى أيام الصيف في هذه الصرود ، وفي الشتاء ينتقلون إلى جبال حسية . وقبل الوصول إلى النبك ، يرى السائر على يمينه حباً ، يذهب نحو الغرب ، ويخترق الجبال التي ذكرناها طوله ٥٠ كيلو متراً ، يمر بقرى السحل وفليطا ، ومضيق قرنة مريق وخربة يونين ، وقرية عرسال ، إلى أن

يشرف على البقاع البعلبكي ، ويلقي طريق حمص وبعلبك ، عند قرية الشيخ عثمان .

قال ياقوت عن النبك : « قرية مليحة بذات الذخائر ، بين حمص ودمشق ، فيها عين عجيبة ، باردة في الصيف ، صافية طيبة عذبة ، يقولون مخرجها من يبرود » اهـ . قلت : والنبك في أول ذات الذخائر ، أو وادي الذخائر الذي ذكره ياقوت ، وذكرته وقفية صالحة خاتون ، قامت هذه البلدة على نشز ، متجه إلى الشمال ، يشرف على بساتينها وكرومها ، التي ذكرها سائحنا (أوليا جلي) ، وبيوتها المبنية من اللبن ، راكب بعضها على بعض ، ولوقوعها على الطريق المعبدة ، الممتدة من دمشق إلى حمص ، فحاجة فحلب ، اتخذت منذ سنة ١٣٠٠ هـ مركزاً لقضاء . يشمل قسماً كبيراً من قرى قلمون الأعلى وضياعه ، وكانت قبلاً من أعمال قضاء دوما . والنبك أحدث عهداً بال عمران من جارتها يبرود ، بنيت على ما قيل بعد خراب قرية الصالحية ، الواقعة بينها وبين يبرود ، وبسبب سيل عظيم ردم قناتها ، فالتجأ أهلها إلى الخان القديم ، الذي كان في موضع النبك ، وعلوها ١٤٣٠ متراً ، وسكانها الآن ٦٠٠٠ ، أكثرهم مسلمون ، وأقلهم من الكاثوليك الروم والسريان . وفيها قناة قديمة آرامية ، تأتي بالمياه العذبة التي ذكرها ياقوت ، وتقر من مقام صحابي أو ولي (؟) يدعى الغفري ، وتسقي بساتينها ، والنبك قليلة الآثار لا تجد لها ذكراً في التاريخ ، وأخص ما فيها ثكنة عسكرية ، كانت قبلاً خاناً حسن البناء واسع الفناء ، وبجانها مسجد يتبعها ، ينسب كالخان إلى سنان باشا ، ويظهر من كلام (أوليا جلي) أن هذا الخان بني بعد مروره ، وليس في أيام سنان باشا كما يظهر . ولعله من آثار محمد باشا الكوبرلي ، الذي تقدم ذكره في بحث جسر الشجر وإدلب (ص ١١٨ و ١٢٢) ، وفي أعلى تلها دير السيدة للسريان الكاثوليك ، فيه كنيسة واسعة قديمة ، يقصدها زوارهم ومرضاهم . وفي جبلها الشرقي على بعد ثمانية كيلو متر دير قديم ، مبني في الصخور صعب المرتقى ، يعرف بدير (مار موسى) الحبشي ، فيه قلالي وكنيسة قديمة ، فيها على ما قيل صور ونقوش وكتابات . وفي غربي النبك سهل فسيح ، جاء مبشرون دانياركيون حول سنة ١٣٢٥ هـ ، وبنوا فيه مستشفى كامل الأوصاف ، تؤمه المرضى من سائر الجهات . ولهؤلاء المبشرين أيضاً عدة مدارس للبنين والبنات ، في النبك ويبرود ودير عطية والحفر وصدد ، اتخذوا التطبيب والتعليم ذريعة لغايتهم . وفي جنوبي النبك عند مدخلها ، للقدام

إليها من دمشق ، أكمة عالية بنى فوقها الإفرنسيون عقيب ثورة الشام سنة ١٣٤٥ هـ حصناً ، أحاطوه بالأسلاك الشائكة ، يشرف على سهول النبك ومسالكتها .

ومن الأمهات التابعة للنبك، مما يطلق على أمثاله في ديار الغرب بلدان يبرود ، بينها وبين النبك ثمانية كيلو متر ، إلى الغرب الجنوبي ، يقطعها السائر وسط حقول كثيرة الغلات ، تسقيها المياه الجارية ، وكروم طيبة العنب . ويبرود أكبر وأغنى وأقدم بلدان هذا القضاء ، وسكانها ٨٠٠٠ ، ثلثاهم من المسلمين ، وأكثر البقية روم كاثوليك ، لهم أبرشية ومطران ، وعملوها ١٤٢٥ متراً ، واقعة بين جبال متقاطعة ، في بطحاء واسعة ، غزيرة المياه كثيرة المرافق ، ذات منظر جميل ، وبساتين أريضة . وكلمة يبرود آرامية تدل على البرد ، قال ياقوت : « يبرود بليدة بين حص وبعليك ، (كذا) ، فيها عين جارية عجبية باردة ، وبها فيا قيل سميت ، وتجري تحت الأرض إلى الموضع المعروف بالنبك » ا هـ .

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته الشامية في سنة ١١٠٥ هـ .

جئنا إلى قرية يقال لها يبرود ذات الزهور والورد
وبردها زائد ولا عجب يبرود مشتقة من البرد

ويبرود من المدن القديمة ، ذكرها الجغرافي (بطليموس) الكلوزي باسم Iebrouda ، وعدها من أعمال مقاطعة لائوديسيا التي كانت قصبتها ربله ، قرب القصير وقد ذكرناها . وقد كانت يبرود في عهد الرومانيين مركزاً عسكرياً ، لصيانة الأمن في هذه الأنحاء ، ويستدل على ذلك ، بوجود آثار الحصن التي لاتزال ظاهرة ، في إحدى الأحياء المعروفة بحارة القاعة . وهواء يبرود نقي ، وتعد كالنبك من مراكز الاصطياف والاستشفاء ، وبيوتها أيضاً مبنية من اللبن ، ولخاصتها عناية بالعلم والرفه ، ولعامتها انكباب على التجارة والزراعة ، والجمال في نسائها غير يسير . وقد اشتهرت بمحصول البطاطا والحنطة السامونية البيضاء ، والفول المثلخار وبصناعة خيام البدو . وقد جلبت إليها أخيراً ، مياه عين كوشل العذبة ، أخف مياه هذه الكورة ، فزادت الصحة فيها جودة . وفي يبرود عدة مدارس ابتدائية ، إحداها للروم الكاثوليك ، شادها في سنة ١٢٦٢ هـ أحد مطارنتهم ، ثم استلمها اليسوعيون ، وثمة مدرسة دينية إسلامية ، أسسها كبير أسرة عقيل ، المتقدمة في هذه البلدة في حدود السنة المذكورة ، فكان منها لمسلمي قلمون نفع جزيل ، ومدرسة

للبنين وأخرى للبنات للمبشرين الدانياركيين ، وليس للحكومة سوى مدرسة واحدة ابتدائية ، هي أقل من حاجة يبرود . وفي يبرود عدد من الآثار ، بعضها في داخل البلدة ، وبعضها في خارجها ، فمن ذلك هيكلها الروماني العظيم ، كان مشيداً لإكرام الشمس ، ترى فيه الحجارة والأنقاض الضخمة ، التي تشهد بفخامته . لكن هذا الهيكل ، انتقض قسم منه على كر الدهور ، فرمم بالحجارة الساقطة منه ، ترميماً خالياً عن الإتقان . ولا يزال فيه نقوش وكتابات لاتينية ، تدل على حالته في عهد القياصرة ، وكان في جوار هذا الهيكل ، كنيسة على اسم القديس (جاورجيوس) هدمت ، وألحق قسم منها بالهيكل القديم بعد ترميمه ، واتخذها الروم الكاثوليك لعبادتهم ، منذ سنة ١٢٥٢ هـ ، وهي اليوم أعظم كنائسهم . وفي يبرود آثار كنائس دائرة ، منها واحدة في شرقي البلدة ، لاتزال جدرانها وأطلالها ماثلة ، وفيها بين تضاعيف مبانيها وجدران دورها ، أساطين وتيجان ، وأعمدة وأفاريز منقوشة ، حطمت واستعمل بعضها في البناء ، وفي خارج يبرود مغاور ، تحيطها في كل جهاتها . نقرها الأقدمون في الصخور ، وجعلوها مدافن لموتاهم ، منها الصغير ومنها الكبير الواسع ، كان في بعضها آثار وكتابات طمسها الجهال ، منها مغارة تعرف بمار سابا في غربي البلدة ، واسعة الأطراف ، لها باب كبير بعده حجرة فارغة ، ثم باب ثان أكبر من الأول ، وراءه محل فسيح ، ذو ثلاثة أقسام ، فيه قوسي قنطرة وأضرحة متجاورة ، فوق أحدها صورة الإلهة ، ترتفع إلى الجو ، وهي تشير إلى شاب أمامها

ومن القرى المرتفعة في نجد قلمون الأعلى ، التابعة لناحية يبرود ، وإلى الغرب الجنوبي عنها الكبرى على بعد ١٦ كيلو متراً ، والجهة على بعد ١٨ كيلو متراً ، وعسال الورد على بعد ٢٦ كيلو متراً ، كانت قصبة جبة عسال التي ذكرها ياقوت ، ومشتهرة بورودها التي اندثرت ، وكان يزيد بن معاوية يقصدها للصيد ، علوها ١٧٧٠ متراً ، وعدد أهلها ألف مسلمون ، لا يزالون على الفطرة ، وماؤها من أخف المياه ، وفي جنوبي عسال الورد على بعد ١٢ كيلو متراً ، قرية رنكوس ، عدد سكانها ٢٠٠٠ ، وهم على جانب من الجلفة الجبلية ، ومن الضياع تلفطايا وحوش غريب ، والمعمورة والطفيل ، وفي المعمورة ضريح ينسب لأحد الصحابة ، واسمه سعد الدين الأنصاري ، وفي ضواحي رنكوس وحوش غريب ، بناء أثري يسمى قصر بلقيس ، في جانبه قناة ماء قديمة ، لاتزال قساطلها الفخارية ظاهرة ، كانت تأتي بالماء إليه ، وفي جنوبي الطفيل قرب عين الجوزة ، خربة

رومانية مجهولة . ومن يبرود طريق نحو المشارف التي فيها معلولا ، طولها ١٩ كيلو متراً ، لم يتم تعبيدها للسيارات بعد ، على يمينها آكام مرتفعة ، حاملة القطع الكبيرة من الصخور ، وفي معاطف تلك الآكام ، مغاور وكهوف منقورة لتجعل مدافن للموتى ، أو صوامع للنساك . والتربة هنا صالحة لنمو الكروم ، التي في إبانها تزين هذه الصرود الصلعاء ، بنضرتها وجودة أعناقها ، وهي صالحة أيضاً لنمو الساق ، الذي يكثر من غرسه ، فيتخذونه لدبغ الجلود ، ويأكلون ثمره ، وفي هذه الطريق مما يتبع يبرود (بجنة) ، ضيعة مسلمة ، يتكلم أهلها بالسريانية القديمة ، كأهل جبعة المسلمين ، ومعلولا النصارى .

طريق النبك - قطيفة

(٤٠ كيلو متراً)

بعد أن يغادر السائح النبك ، ويترك على يمينه الطريق المعبدة إلى يبرود وما بعدها ، يسير قبلة في الطريق المعبدة ، المحاذية لسفح جبل معلولا ، وفي شرفها سهل فسيح ، تربته بيضاء أو صفراء ، وهو الجبل كالسهول والجبال التي تقدمتها ، أجردان لاخضرة فيهما ولا نضرة ، وبعد عشرة كيلو متر يترك السائح على يساره ضيعة فوق تل ، تدعى (القسطل) ، وأخرى تختفي وراءها تدعى قلدون ، أهلها تركان ، محتفظون بلغتهم التركية المحرفة . وخلف الجبل المشرف عليها من الشرق ، سباسب تبدأ من قرية الناصرية ، آخذة نحو القريتين وتدمر ، وما وراءها من المهامه الفيح . وبعد القسطل يدخل الطريق بطن وادٍ ويمتاز معابر ووهاد ، ويتلفت بين منعطفات ، وهو دائب على الانحدار ، إلى أن يرى على العدو اليني ، الطريق المعبدة ، الصاعدة نحو عين التينة ومعلولا وجبعدين ، ويرى على العدو اليسرى خانين قديمين مهجورين ، أولها خان العروس ، وثانيها خان المعزى ، كانا والخانات التي ذكرناها قبلاً وبعداً ، يتخذان في العصور الإسلامية الغابرة ، منازل لخيال البريد ورجاله .

وبعد سير أربعين كيلو متراً يهبط (القطيفة) وهي قصبة القضاء الذي يشمل قلمون الأسفل وبعض الأعلى ، علوها ١٠٥٣ متراً ، قال عنها ياقوت : « قرية دون ثنية العقاب ، للقاصد إلى دمشق ، من طرف البرية من ناحية حمص » اهـ قلت : والقطيفة واقعة في وادٍ منبسط ، بين جبلين متسامتين ، يدعى الشمالي منها أبودية ، والجنوبي قلع الطاقعة ، والشرقي الذهاب في الأفق الغارب نحو البادية أبو قوس ، والقمة الغربية التي تعلو رنكوس العرورة ، وتربة هذا الوادي كما في قلمون الأعلى صفراء صلعاء ، لكن مياهه موفورة ، وأراضيه المسقوية خصبة ، والعذية وسط أو أقل . وعدد سكان القطيفة ٢٤٠٠ مسلمون ، وماؤها شروب . ولوقوع هذه القرية الكبيرة على طريق قوافل الحجاج والغزاة ، والمسافرين من دمشق شرقاً إلى تدمر ، وشمالاً إلى حلب وما ورائها ، لفتت مكائنها أنظار

الملوك والأمراء المسلمين ، منهم هشام بن عبد الملك بن مروان ، جعل فيها منازل له ، قاله اليعقوبي في (كتاب البلدان) ومنهم السلطان صلاح الدين الأيوبي ، فقد ذكر ابن جبير الأندلسي في رحلته ، حينما مر بالقطيفة التي دعا خانها خان السلطان ، قال : « هو خان بناء صلاح الدين ، صاحب الشام وهو في نهاية الوثاقة والحسن بباب حديد ، على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها ، واحتفالهم في تشييدها ، وفي هذا الخان ماء جار ، يتسرب إلى سقاية في وسط الخان ، كأنها صهريج ، ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ، ثم يغوص في سرب في الأرض . والطريق من حمص إلى دمشق قليل العمارة ، إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة ، منها هذه الخانات المذكورة » اهـ . قلت : عن ابن جبير بالمواضع الأربعة القطيفة والنبك ، وقارة والمشر ، التي تكلمنا عنها في بحث حسية ، وهذا الخان الذي نسبته للسلطان ، يعرف الآن بالخان العتيق ، وهو في الجنوب الشرقي من القرية ، وعلى وشك الدثور . وفي القرن العاشر ، جاء سنان باشا الوزير العثماني الشهير ، الذي تقدم ذكره وترجمته ، في بحث خانات قلعة المضيق والرستن ، وقارة والنبك ، فوجد القطيفة على وشك الخراب ، لانهدام خاناتها ودثور قناتها التي تشرب منها ، وتروي أرضها ، فرمم هذه القناة ، وبنى الخان المعروف باسمه ، وكان ذلك سبباً لتجدد عمران القطيفة ، وتزايد سكانها . حدثني أحد شيوخ هذه القرية ، أن سنان باشا لما جاء إلى القطيفة ، لم يجد فيها سوى اثني عشر شخصاً ، فرمم القناة ، وسلمهم أرض القطيفة فقسموها بينهم ، حسب مصاريع ماء القناة الاثني عشر ، ثم قسم أعقاب هؤلاء كل مصراع إلى ٤٨ قيراط ، ولا تزال قسمة أراضيهم جارية على هذا المنوال .

والخان الذي ذكره الجلي ، وبالع في تعظيمه ، لا يزال عامراً إلا قليلاً ، فجداره الغربي ، وفيه الباب وبقية جدرانته سالمة في الجملة ، وفي زواياها الخارجية ، أبراج مستديرة ، تدعمها في الوسط عضائد . وفي داخل الخان باحة رجة مبلطة ، في وسطها حوض كبير ، يتدفق مائه حتى الآن ، وفي جهاته الأربع اصطبلات واسعة ، أمامها أروقة ، ويحوي أيضاً أماكن لإيواء المسافرين ، ودور ومطابخ قد خربت . وللخان من الخارج باحة ، أحيطت بسور دثر ، قد كانت تحتوي على فرن وحوانيت عديدة ، وجامع وحمام ، فالفرن والحوانيت دثرت منذ ربع قرن . أما الجامع والحمام فما برحا عامرين ، ولا يزال الجامع محتفظاً بقبته الكبيرة ومأذنته الجميلة ، كما احتفظ الحمام بأبوابه السبعة ، وهو في

الجملة جميل ، يستحم فيه الأهليون حتى الآن . أما الحساء والخبز والعلف ، وغيرها من المبرات التي ذكرها الجلي ، فقد صارت في خبر كان ، منذ أكثر من قرن ، ومنذ عشرون سنة لما كانت القطيفة قصبة الناحية ، شيد أحد المدراء غرفاً أقامها على ظهر الخان ، كما بنت دائرة الأوقاف أخيراً إلى جانبها ، مهجعاً واسعاً لجنود الدرك ، فأصبح الخان الآن ثكنة لهؤلاء الجنود ، لقاء أجرة تتقاضاها الأوقاف .

وفي قضاء القطيفة من قرى قلمون الأعلى (معلولا) ، وهي من أغرب القرى موقعا تراها بين فجوات ضيقة ، وصخور جعلتها جد حصينة ، فإن كل دار من دورها تلوذ بقطعة من الجبل ، وربما كان البيت كهفاً من الصخر ، بني له واجهة وشيد له درج ، وكذلك طرق القرية ، أسراب ضيقة ومسالك حرجة ، وفي أعطاف الجبل ، مغاور واسعة يلتجئ إليها الأهليون في رد الغارات ، كما فعلوا في ثورة الشام سنة ١٣٤٤ هـ ، وثمة مياه تترقق ، جارية في المنافذ المنحدرة بين البيوت ، فتسقي البساتين والحواكير ، وعلو معلولا ١٣٠٠ متر ، وهواؤها وماؤها جيدان ، يجعلانها صالحة للاصطياف . أهلها نحو ١٨٠٠ نسمة كاثوليك وروم ، بينهم عدد ضئيل من المسلمين ، ولا يزال أهلها مع أهل بجمة وجبعدين ، الجارتين الإسلاميتين يحتفظون بلغة سريانية محرفة ، لم تنقرض لديهم طول الأعصر الماضية ، لرفعة هذه القرى ومنعتها .

ومعلولا قرية قديمة ، قد ذكرها الجعرافي (بتولواس الكلوذي) باسم Maglula ؛ وفيها آثار جمة ، أخصها مغاورها المنقورة في الصخر ، بعضها متقن الصنع ، واسع الباحة ، فيه سوار ومراق وكوى وحفائر شبه النواويس ، مما يدل على أنها كانت مدافن للأقدمين ، ولا يخلو البعض من هذه المغاور ، من كتابات يونانية ترجع للقرن الأول أو الثاني للميلاد . وفي أسفل معلولا هيكل روماني قديم ، يدعونه حمام الملكة ، ويزعم السكان أن الوثنيين كانوا يرتكبون فيه الفاحشة ، ولما أنذرهم أحد الصلحاء ولم يرعوا ، دعا فهبط الحمام عليهم ، ولما تنصر أهل معلولا اتخذوه كنيسة . وفوق هذه المعالم ، نصب نقش في الصخر ، أعلاه شبه القوس ، تلوح فيه صورة رجل وامرأة من فوقهما اسمها باليونانية . وفيها دير عظيم باسم القديسة (تقلا) للروم الأرثوذكس ، أبنيته راكبة بعضها فوق بعض ، يقصده الزوار والنساء العقيمت للحبل ، والمفلوجون وأصحاب أمراض المفاصل

للاستشفاء . وثمة مقام على اسم هذه القديسة ، ومغارة في نصف الجبل ، فيها قبر القديسة المذكورة ، يقطر الماء من أعلاها ، فيستجم فيه الزوار تبركاً . وفي أعلى معلولا دير عظيم آخر للروم الكاثوليك ، باسم القديسين سرجيوس وباخوس ، علوه ١٧٩٢ متراً ، منظره بهيج ، يطل على القرية ، وتكتنفه الصخور والآثار القديمة من مدافن وكهوف وغيرها ، لا يوصل إليه إلا بالجهد .

وإلى الغرب الجنوبي من معلولا ، على مسافة أربعة كيلو متر ، تقع قرية جبعدين المسلمة ، التي يتكلم أهلها بالسريانية كما أسلفنا . وهي أيضاً كمعلولا ، ذات فجوات ضيقة ، زادت في منعتها وحصانتها . وإلى الجنوب من معلولا ، على بعد أربعة كيلو متر أيضاً ، قرية عين التينة المسلمة التي تناسى أهلها السريانية ، واقتصروا على العربية ، وفيها قليل من شجر الفستق الجيد ، الذي ينجح في هذه البقعة ، لو توفرنا على العناية به .

وفي قضاء القطيفة مما يعد من قامون الأسفل الشرقي ، قرى عظيمة أهلها مسلمون منها (المعضية) ، تبعد عن القطيفة أربعة كيلو متر ، عدد أهلها ٢٠٠٠ ، لا يزالون على الفطرة ، اختص بعضهم بخدمة مواقع الحمامات في دمشق ، التي يتوارثونها عن بعضهم ، فيها قني وزروع مسقوية . وفي شرقي هذه على بعد خمسة كيلو متر ، تقع (الرحيبة) وعدد أهلها ٤٠٠٠ ، يشبهون أهل المعضية ، وفي سفح جبلها قناة قديمة ، يظن أنها تنتهي في تدمر ، لها كواكب في كل خمسة عشر متراً ، وفيها ثلاثة مساجد ، ظهر منها رجل ، عرف بولايته وكراماته ، كان يدعى الشيخ (بكار العريان بن عمران الرحيبي ، ذكره المحبي في (سلك الدرر) توفي سنة ١٠٦٧ هـ . وفي شرقي الرحيبة هذه ، أكمة عالية من أذيال جبل قلع الطاقة ، عليها قبة تحتها ضريح باسم الشيخ أبو سعيد (؟) ، وفي شمالها إلى الشرق على بعد سبعة كيلو متر ، (جيروود) ، عدد أهلها ٢٤٠٠ ، عمرانها جميل ودورها نظيفة ، ومياها غزيرة ، اشتهرت بعنبا الدربلي ، وهي في أول السهل ، الذي يمتد إلى الشرق الشمالي نحو طريق القريتين وتدمر ، وفي هذا السهل ضياع العطنة والناصرية حيث منتهى العمران . وفي شرقي جيروود على مقربة منها ، بحيرة مالحة يبلغ محيطها اثني عشر كيلو متراً ، تجف في الصيف ، فتنتج ملحاً ثقيلاً فيه قليل من المزار . ومن الأمهات في السفح الجنوبي من قامون الأسفل قرية كبيرة تدعى (الضمير) ، عدد أهلها ٣٠٠٠ ، تقع في منتهى العمران ، في شمالي طريق السيارات ، الممتدة من دمشق إلى بغداد ، في وسطها

جولة أثرية (٢٥) - ٣٨٥ -

حصن صغير عربي ، ذكر ياقوت (الضمير) ونقل فيها قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

أقمرت منهم الفرداس فالغو طمة ذات القرى وذات الظلال
فضمير فالماطرون فحورا ن قفار بـسـابـس الأطلال

وقال المتنبي :

لئن تركنا ضميراً عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم
وعلى مقربة منها إلى الشرق ، أطلال قرية (الماطرون) التي عدها ابن المنير من
متنزهات الغوطة فقال :

فالماطرون فداريا فجارتها فأبل فغفاني دير قـانـون
وفي جنوبي الماطرون برج روماني ، مستدير الشكل ، بني بحجارة منحوتة ضخمة ،
وفي جنوبه على بعد أحد عشر كيلو متراً عن الضمير ، سد روماني عظيم مندثر ، يدعى سد
أرنبة ، كان اتخذ لحجز مياه السيول ، الآتية من بحيرة الصيقل وخان الشامات ، وما
حولها من القيعان الشاسعة ، وذلك لإرواء الفضاء الممتد شرقي بحيرة العتيبة .

ومن قرى قلمون الأعلى التابعة لقضاء دوما (صيدنايا) ، بينها وبين معلولا ٢٤ كيلو
متراً ، والقטיפفة ٢٢ كيلو متراً ، يمر القادم إليها من الأولى ، بقرى صغيرة من قلمون الأسفل
كالتواني وعكوبر . ومن الثانية : بحلة وحفير الفوق وبدا . وكلها وسط أودية واسعة ،
تتحدرت تحدرأ خفيفاً نحو الجنوب ، تكثر فيها كروم العنب والتين . وصيدنايا قرية قديمة
علوها ١٣٥٠ متراً ، وأهلها ١٥٠٠ أكثرهم من الروم ، والباقي من الكاثوليك ، وثمة عدد
ضئيل من المسلمين ، تمتد وهي في سفح الجبل على نصف دائرة ، ويبيتها يعلو بعضها
بعضاً ، وهي كثيرة البيع والأديار ، بعضها لا يزال عامراً ، أشهرها دير السيدة ، وهو دير
عظيم لراهبات الروم الأرثوذكس ، وعددهن ٢٥ - ٣٠ ، والدير بني على قمة عالية ، كأنه
الحصن المنيع ، يشرف على سهل متسع ، ذكره ابن فضل الله العمري في جملة ديارات الشام
قال : « هو في القرية ، من بناء الروم بالحجر الأبيض أيضاً ، ويعرف بدير السيدة ، وله
بستان وبه ماء جار في بركة عملت له ، وعليه أوقاف كثيرة ، وله مغلات واسعة ، وتأتيه
ندور وافرة » اهـ . وهذا الدير قديم من القرن الثاني الميلادي ، قبل (يوستينيانوس)

الذي يزعمون أنه بانيه ، وله في كل سنة في يوم عيد انتقال السيدة المصادف لـ ١٨ آب غربي ، موسم خاص يقصده جماهير الناس ، من كافة أقطار الشام ، للزيارة والزهة وإيفاء النذور ، وفي صيدنايا أيضاً ديران رومانيان للروم الكاثوليك ، ينسب أحدهما (لمار توما) والثاني (لمار بطرس وبولس) وهما من الآثار الضخمة . فالأول في رأس الجبل ، المطل على صيدنايا ، طريقه صعبة المرتقى ، فيها كهوف وصهاريج ، ومدافن قديمة ، منها مغارة واسعة شبه هو عظيم ، ذات أعمدة ومصاطب ، وكوى منقور كلها في الصخر ، والدير ذو حجارة ضخمة ، وأعمدة ورواق ونقوش ، وكان له سور خارجي دثر . ودير (مار بطرس وبولس) في وسط القرية ، بناء عظيم مربع ، يصعد لسطحه على درج لولبي داخله متسع ، ومحكم الصنع لكنه يحتاج للترميم . وفي أعلى صيدنايا دمنة (مار شربين) يتناول النظر منها سواد غوطة دمشق ومرجها ، وللمسلمين في صيدنايا جامع بنته إدارة الأوقاف من عهد قريب ، بأموالهم التي جمعوها ، ولكن الجامع قد جاء غير متين الأركان . ومن القرى الكبيرة الإسلامية المجاورة لصيدنايا حلبون ، علوها ١٢٢٠ متراً ، والمعرة وهذه أهلها كاثوليك ، ومنين ١١٥٠ متراً ، والتل ومعربا ، وأهل هذه القرى الثلاث مسلمون ، وجل هذه القرى مما يقصده المصطافون من دمشق ، لقرىها وجودة هوائها ومائها . وقد كانت قرى جبل سنير : كعربا والمعرة ، وتلفيتا ويبرود ، ومعلولا والتينة ، وغيرها على ما جاء في تاريخ صيدنايا لحبيب الزيات « مألّف رواد القصف والطرب ، ومنتجع عشاق الصهباء ، وأكثرها كان معروفاً بطيب الشراب ، وإليها كانوا يلجؤون ، كلما أقفلت في وجوههم أبواب حانات الفيحاء» .

وفي هذه الضياع كان لابن عنين^(١) مقامات ، تقلب فيها بين طيب العيش ولذة

(١) شرف الدين محمد بن نصر بن عنين الزرعي ، الشاعر المشهور ، وكان شاعراً مقلداً ، وكان يكثر هجو الناس ، عمل قصيدة فيها ٥٠٠ بيت ، سماها (مقرض الأعراض) لم يسلم منها أحد من أهل دمشق ، ونفاه السلطان صلاح الدين إلى الين ، فمدح صاحبها طغتكين بن أيوب ، وحصل له منه أموال كثيرة ، عمل بها ابن عنين متجراً ، وقدم به إلى مصر ، وصاحبها حينئذ العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين ، فلما أخذت من ابن عنين زكاة مامعه على عادة التجار ، قال في العزيز :

ماكل من يتسمى بالعزيز لها أهل ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون في فعالها هناك يعطي وهذا يأخذ الصدقة =

الطيش ، ولذلك لم يبرح ذكر جبل سنير من باله ، حيثما اتجه من غربته ، وقد تشوق إليه مراراً في قصائده ، منها قوله من أبيات يمدح بها الملك المعظم :

إذا الجبل الريان لاحت قبابه لعيني ولاحت من سنير هضابه
لثمت الثرى مستشفياً بترابه وهيهات أن يشفي غليلي ترابه

وله من قصيدة أخرى ، يمدح بها الملك العزيز صاحب اليمن سنة ٥٨٧ هـ .

إذا لاح برق من سنير تـدفقت سحاب جفوني في الحدود سيول

وقد اشتهرت قرية تلفيتا ، بأنها موطن (قسام الحارثي) من بني الحارث بن كعب ، المتغلب على دمشق في القرن الرابع ، في عهد الفاطميين ، ومن الغريب أنه كان رجلاً قروياً ، يتعاطى مهنة نقل التراب على الحمير ، وظل حاكماً في دمشق ، مستبداً بأمورها سنين عديدة ، إلى أن أرسل الفاطميون إليه الأمير الأفضل ، فغلب قسام ودخل دمشق سنة ٣٧٦ هـ ، وعفى عن قسام وعوضه موضعاً عاش به (خطط الشام ١ / ٢٣٣) .

= ثم سار ابن عنين إلى دمشق ، ولازم الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، وبقي عنده ، وتوفي فيها سنة ٦٢٢ هـ ، وديوانه مشهور .
(أبو الفداء ٤ / ١٩٥) .

طريق القطيفة - دمشق

(٤٠ كيلو متراً)

عند خروج السائح من القطيفة ، متجهاً إلى الغرب ، يغادر على يساره طريق السيارات الزاهية إلى تدمر ، المارة بالمعضمية والرحبية ، وجيرود والعطنة ، والناصرية وخان الجلاجل ، وخان الأبيض والقريتين ، وقصر الحير وعين البيضاء ، وبعد أن ينتهي من وادي القطيفة المنبسط ، ينحني نحو الجنوب ، ويشعر بالانحدار من (ثنية العقاب) ، المحصورة بين جبلين من فروع قلمون ، يسمى الغربي جبل أبو العتا (١٥١٥ متراً) والشرقي جبل قلع الطاقة ، وطل الثنية نحو ثمانية كيلو متر. ويرى السائر في مبدئها على يمينه قرب الطريق ، أطلال دارسة لخان أو دير قديم ، يسمى (خان فم الثنية) فيه حجر ضخيم ، عليه أربع سمات نصفية رومانية ، ومصنعان كبيران احتفروها أهل الخير لشرب أبناء السبيل في هذه المعابر العطشة . قال ياقوت : « الثنية في الأصل كل عقبة مسلوكة في الجبل ، سميت بالعقاب ، لأن خالد بن الوليد لما وصل إليها قادماً من العراق إلى دمشق ، وقف عليها ساعة ناشراً رأيته ، وهي كانت لرسول الله ﷺ ، كانت تسمى العقاب علماً لها » . وقال شيخ الربوة في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) في فصل الأعين والمنايع : وثنية العقاب من أرض دمشق ، بأعلى الثنية كهف معبد ، فيه نقرة منقورة بقدر الطاسة الكبرى ، لاتزال ملآنة ماء ، لو أخذ منها ألف رجل درت بما يكفيهم ، وإذا تركت كان ماؤها واقفاً لا يزيد ولا ينقص ، ولا عمق ولا خرق فيها ، سوى أن النقرة مملوءة ماء « ا هـ . قلت : وقد سألت شيوخ القطيفة عن هذه النقرة ، فلم يعرفوها ولا سمعوا بها ، إلا أنهم حدثوني عن كهف طبيعي في الجبل ، شرقي خان فم الثنية ، زعموا أنه عظيم واسع الباحة ، يمكن أن يختبئ فيه مئات من الناس ، فيه أعمدة متدلية من سقفه كالشمع ، فقلت لعلها هي ما يدعونها في (الجيولوجيا) الستلاكتيت ، والستلاكتيت التي تنشأ من رسوب المواد الكلسية ، المترشحة مع قطرات الماء من سقف الكهف . وإذا انتهى السائح من منعطفات الثنية ، يشرف وهو منحدر ، على غوطة دمشق ومرج عذراء ،

وجبل المانع والجبل الأسود ، وبحيرة العتيبة وما في جنوبها ، من البراري الممتدة حتى جبل حوران وأوعار اللجا والصفاء . وتعد ثنية العقاب باباً لدمشق ، لأن منها كانت تمر الجيوش الزاحفة من الشمال والخارجة منها ، وقد حدث في العصور الغابرة فيها وفي مرج عذراء عند سفحها ، بين قاصدي الاستيلاء على دمشق والمدافعين عنها وقائع هامة ، يذكر المسلمون منها تلك الوقفة التاريخية لخالد بن الوليد ، التي نوه بها ياقوت ، والوقعة بين أبي الجيش (خارويه بن أحمد بن طولون) و (محمد بن أبي الساج) في سنة ٢٧٢ هـ ، وكانت الدائرة فيها على ابن أبي الساج ، وفي ذلك يقول البحري :

أما كان يوم الثنية منظر ومستع ينبي عن البطشنة الكبرى
وعطف أبي الجيش الجـواد بكرة مدافعة عن دير مران أو مقرى

ومنها الوقعة التي بين (الأخشيد محمد بن طغج) وبين (سيف الدولة بن حمدان) في سنة ٣٣٥ هـ ، وكان الدائرة فيها على سيف الدولة ، فانهمز وتقطع أصحابه ، وعاف دمشق إلى الأبد . هذا وفي غربي الثنية وراء مرتفعات جبل أبي العتا ، اختبأت بدا وحفير الفوقى ، وحفير التحتى ومعرونة ، وهي قرى قلمون الأسفل ، اشتهرت بتينها الجاف الجيد . وفي سفح الثنية قبة صغيرة ، تدعى قبة العصافير ، وخان كبير على وشك الاندراش ، يدعى خان عياش ، أمامه بئر بني عليه قبة عظيمة ، لوقاية الدواب والرجال المكلفين بإخراج الماء ، وبعدهما يسير السائح نحو الغرب في منبسط ، فيترك على يساره قرب قرية عذراء ، مفرق طريق السيارات الذاهب إلى بغداد وطوله ٨٥٠ كيلومتراً ، من دمشق . وعذراء أول قرية في مرج راهط ، وقد يسمى باسمها فيقال مرج عذراء ، وهي قديمة فيها أطلال أبنية وأحجار أثرية ، تبعد عن دمشق ٢٣ كيلومتراً ، قال ياقوت : « عذراء قرية بغوطة دمشق ، من إقليم خولان ، معروفة وإليها ينسب مرج عذراء ، وإذا انحدرت من ثنية العقاب ، وأشرفت على الغوطة ، فتأملت على يسارك ، رأيته أول قرية تلي الجبل ، وبها منارة وبها قتل حجر بن عدي الكندي وبها قبره ، وقيل أنه هو الذي فتحها ، وبالقرب منها راهط ، الذي كانت فيه الوقعة بين الزبيرية والمروانية ، قال الراعي :

وكم من قتيل يوم عذراء لم يكن لصاحبه في أول الدهر قاليا »

وذكر ياقوت قرية ميدعا المجاورة لها . وقال عن مرج راهط : « موضع في الغوطة من دمشق ، في شرقيه بعد مرج عذراء ، إذا كنت في القصير طالباً لثنية العقاب تلقاء حمص ، فهو عن يمينك » . وذكرها كثير قال :

أبوكم تلاقي يوم تقعاء راهط بني عبد شمس وهي تنفي وتقتل
وقال راع يصف إبلاً له ، تاهت في أحوال سكا ، إحدى قرى المرج :

فلا ردها ربي إلى مرج راهط ولا برحت تمشي بسكاء في وحيـل
قلت : وهذا المرج في يومنا ، لا يزال على ما كان عليه منذ قرون ، مهملاً من العناية ، تكثر فيه المرازغ والمناقع ، وتفتك في أهله حمى البرداء ، وأدواء الجهالة ، وهم لا يزالون على الفطرة ، سقام الأجسام غبر الوجوه ، وأكثر ضياع المرج ودساكره ملك لسراة دمشق ، الذين لا يمتازون كثيراً عن سراة مدن الشام الشمالية ، من حيث الاكتراث بفلاحتهم وفلاحهم .

وبعد عذراء يودع السائح جبال قلمون الجرداء العارية ، عن كل مشهد نضر ، ويشرع بتكحيل ناظره ، برأى الحقول الخضراء ، والجداول والقنوات السارية . فيترك على يمينه في سفح جبل قلمون ، عيون فاسريا التي كانت مورد الجيوش القادمة من دمشق وإليها ، ومن نزل بها نور الدين محمود ، في سنتي ٥٤٦ و ٥٤٨ هـ حينما حاصر دمشق ، واستخلصها من يد مجير الدين (أرتق بن محمد بن بوري بن الأتابك طغتكين) .

ويترك على يمينه أيضاً كواكب عظيمة ، لقناة كبيرة مندثرة ، تذهب إلى الشرق ، لتروي أراضي خربة أثرية بين عذراء والضمير ، تدعى المعصرة ، لم أعر على ذكرها في التواريخ التي راجعتها ، على أن قسماً من أطلالها وأحجارها الضخمة لا يزال ماثلاً ، ثم يمر السائح من موضع ذي ماء وأشجار يدعى القصير ، فيه خان كبير قديم ، ذكره ابن جبير في رحلته ، وياقوت في معجمه ، رمم منذ سنتين ، واتخذ مستشفى للمجانين ، وبني في قربه مستشفى آخر للجذامى ، لكن هذا ما برح دون استعمال . وبعد القصير ، يتبع السائح برأى كروم العنب ، ثم غابات الزيتون النامية ، وكلما اقترب نحو الغوطة ، يبتهج بمنظر غياضها ورياضها ، إلى أن يغادر على يمينه قرية دوما ، وهي أكبر وأول قرى

الغوطة ، عدد أهلها تسعة آلاف كلهم مسلمون ، اشتهروا بإتقان الحرث والغرس ، وقد اتخذت دوما مركزاً لقضاء ، تتبعه كل قرى المريج ، وبعض قرى قلمون التي تقدم وصفها ، وهكذا إلى أن يصل إلى قرية حرستا التي ذكرها الجلي (ص ٢٥) وقال عنها ياقوت : « حرستا قرية كبيرة عامرة ، في وسط بساتين دمشق ، على طريق حصص ، بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ ، ينسب إليها كثير من الفضلاء » ١ هـ . قلت : أخصهم الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة . وفي قرىها قرية مثلها تدعى القابون ، وأخرى في شماليها تدعى برزة ، ذكرها ياقوت ، قال عن القابون : « موضع بينه وبين دمشق ميل واحد ، في طريق القاصد إلى العراق في وسط البساتين » . وقال عن برزة : « قرية من غوطة دمشق ، ينسب إليها جماعة من الفضلاء ، وإياها عن ابن منير بقوله :

سقاها وروى من النيرين إلى الغيظتين وحمورية
إلى بيت لها إلى برزة دلاح مكفكة الأوعية

وحمورية قرية في الغوطة ، تقع بين سقبا وبيت ساوا . أما بيت لها فقرية زالت معالمها ، كانت شمالي حرستا . هذا وكانت الملوك والقواد القادمون بجيوشهم أو ركائبهم ، يتخذون هذه القرى القريبة منزلاً أو مخيماً قبل دخولهم دمشق ، ومنهم السلطان سليم العثماني ، الذي نزل في المصطبة السلطانية بين برزة والقابون ، في مستهل رمضان سنة ٩٢٢ هـ . والوزير مرتضى باشا ، الذي وصف (أوليا جلي) كيفية دخوله واستقبال أعيان دمشق له ، (في الصفحة ٢٥ وما بعدها) .

« هنا رأيت أن يقف القلم عن جريه في هذا المضمار ، وأن يلقي عند أبواب دمشق عصا التسيار ، حتى إذا لقت أبحاثي هذه ، من أبناء بلادنا ارتياحاً وتنشيطاً ، عززتها في جزء ثان وثالث بما فاتني ذكره ووصفه ، في شمالي الشام وجنوبيه ، وساحله وداخله ، من المسالك والممالك ، والآثار على المنهاج نفسه ، وقد رأيت أيضاً من وفاء الذمم ، أن أختتم مقالي بالثناء على ذوي الفضل والعرفان ، الذين أزروني في طبع هذا الكتاب ، أخص بالذكر منهم معالي لطفي بك الحفار ، الذي بعث همتي على العمل ، وأخذ بيدي حتى تحقق الأمل ، فاستحق مني الحمد الجزيل ، ودعاء أن يعز به الوطنية الحققة والمروءة الخالصة » .

المسارد

- ١ - مسرد الآيات القرآنية
- ٢ - مسرد الشعر
- ٣ - مسرد الأعلام
- ٤ - مسرد الأماكن
- ٥ - مسرد الصور
- ٦ - مسرد المراجع
- ٧ - مسرد الموضوعات

١ - الآيات القرآنية

الصفحة

- أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم
وأشد قوة وآثاراً في الأرض
٥
- وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين
١٠٢
- كلما دخل عليها زكريا المحراب
١١٧
- إنما يعمر مساجد الله ... الآية
٣٤٢

٢ - مسرد الشعر

الصفحة

« أ »

أما كان في يوم الثنية منظر ومستع ينبي عن البطشة الكبرى
وعطف أبي الجيش الجواد بكرة مدافعة عن دير مران أو مقرى
البحري ٣٩٠

« ب »

سقيننا بالرماح بني قشير بطن الغنتر السم المذابا
أبو فراس الحمداني ٣٦٨

إذا ما الضفادع نادينه قويق قويق أبي أن يجيبا
وتمشي الجرادة فيه فلا تكاد قوائها أن تغيبا
غير منسوب ١٧٩

هذي العزائم لا ماتدعي القضب وذي المكارم لا ما قالت الكتب
القيصري ١٢٤

قل للطغاة وإن صمت مسامعها قولاً لصم القنفا في ذكره أرب
ما يوم آنب والأيام دائلة من يوم يغرا بعيده لا ولا كتب
القيصري ١٢٤

ياساهد الطرف والأجفان هاجعة وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أعزت سيوفك بالإفرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجب
القيصري ١٢٤

سيوف لها في كل دار غداً ردى وخيل لها في كل دار غداً نهبٌ
علت فوق بغراس فضاقت بما جنت صدور رجال حين ضاق بها دربٌ
البحري
٥٩

إذا الجبل الريان لاحت قبابه لعيني ولاحت من سنير هضابه
لثمت الثرى مستشفياً بترابه وهيهات أن يشفي غليلي ترأبـه
ابن عنين
٣٨٨

« ج »

مهفـف بالوصل جاد تـكرمـاً فأعاد ليل الهجر صباحاً أبلجـاً
مازلت أثم ما حواه ثغره حتى أعدت الورد فيه بنفسجـاً
نجم الدين أحمد بن صصرى
٣٧١

أنـحـن بـحـمـلـة وارين في مشخرة بيت ضباب فوقها وتلوجـُ
غير منسوب
٣٦٧

« د »

وعلمي الصـد من بعـده عن النوم مصرعه في صدـد
فستيقاً لها إذ حوت شخصه وبعداً لها حيث فيها ابتعد
غير منسوب
٣٦٦

تغيبت عن منزلي برهـة ستير العيوب فقيـد الحسـد
فلما مضى العمر إلا الأقل وحم لروحي فراق الجسـد
بعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من القـوم رأـى فسـد
فيسمع مني سجع الحـمام وأسمع منه زئير الأسـد
لزوميات أبي العلاء المعري
١٩١

سريت إلى جيحان من أرض آمد ثلاثاً لقد أدناك ركضاً وأبعدا
أبو الطيب المتنبي
٣١

الصفحة

- وإذا الربيع تتابعت أنواؤه فسقى خنصرة الأحص وزادها
نزل الوليد بها فكان لأهلها غيثاً أغاث أنيسها وبلاذها
٢٠٩ عدي بن الرقاع
- معرفة الأذكياء قد حردت عنا وحق المليحة الحرد
في يوم الاثنين كان موعدهم فأنجنا من خميسهم أحد
١٩٢ غير منسوب
- وإذا نظرت إلى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد
٥٧ غير منسوب
- أخو غزوات ماتغب سيوفه رقايم إلا وسيحان جامد
٣١ أبو الطيب المتنبي
- جئنا إلى قرية يقال لها يبرود ذات الزهور والورد
وبردها زائد ولا عجب يبرود مشتقة من البرد
٣٧٩ عبد الغني النابلسي
- « ر »
- فأقبلها المروج مسومات ضوامر لاهزال ولا شيار
تثير على سائمة مسبطرا تناكر تحته دون الشعار
٢٧١ المتنبي
- ولا آب ركب من دمشق وأهله ولا حص إذ لم يأت في الركب زافر
ولا من شبيث والأحصى ومنتهى الد مطايا بقنسرين أو بخناصر
٢١١ الأصمعي
- تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حاة وشيزرا
سير يضج العود منه يمنة أخو الجهد لا يلوي على من تعذرا
١٥٦ امرؤ القيس

- قفوا وانظروا بي نحو قومي نظرة فلم يقف الحادي بنا وتغشما
فواحزنا إن فارقونا وجاوروا سوى قومهم أعلى حاة وشيزرا
١٥٦ عبيد الله بن قيس الرقيات
- ألا رب يوم صالح قد شهدته بتادف ذات التل من بطن جرجرا
٢١٤ امرؤ القيس
- بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو غوت فنعدرا
٣٠ امرؤ القيس
- لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولا بن جريج كان في حص أنكرا
٣٢٩ امرؤ القيس
- غطا بالغنتر البيداء حتى تحيرت المثالي والعشار
٣٦٨ المتنبي
- كأنني شارب يوم استبد بهم من قرن فضنتها حص أو جد
٣١٤ الأخطل
- ومروا بالجباة يضم فيها كلا الجيشين من تقع إزار
٣٦٨ المتنبي
- أسيم ركابي في بلاد غريبة من العيس لم يبرح بهن بعيد
فقد جهلت حتى أراد خبيرها بوادي القطين أن يلوح سنير
وكم طلبت ماء الأحص بآمد وذلك ظلم للرجال كبير
٣٧٢ عبد الله الخفاجي
- ياليلة لي بحوارين ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير
٣٦٧ غير منسوب

- سقى الله إخواناً ورأى تركتهم بحاضر قنشرين من سبل القطر
 ١٨٢ غير منسوب
- أرى كفر طاب أعجز الماء أهلها وبالس أعيها الفرات من الحفر
 كذلك مجرى الرزق وإد بلا ندى ووادٍ به فيض وآخر ذو جفر
 ١٩٧ أبو العلاء المعري
- لمعت كناصية الحصان الأشقر نار بمعتلج الكتيب الأحمر
 وفتحت أنطاكية الروم التي نشزت معاقلها على الاسكندر
 وطئت مناكبها جياذك فانشئت تلقي أجنتها بنات الأصفر
 ٩٧ الأبيوردي
- وتعمدت أن تظلل ركابي بين لبنان طلعاً والسنير
 مشرفات على دمشق وقد أعد رض منها بياض تلك القصور
 ٣٧٢ البحري

« س »

- ولقد ركبت البحر في أهواله وركبت هول الليل في بياس
 وقطعت أطوال البلاد وعرضها ما بين سندان وبين سجاس
 ٤١ البحري
- هل رأيت النجوم أغنت عن الماء مون في عز ملكه المأسوس
 غادروه بعرضي طرسوس مثل ما غادروا أباه بطوس
 ٣٧ غير منسوب
- وزمان هو بالمرّة مونق بشياها وبجاني هراسها
 أيام قلت لذي المودة أسقني من خندريس حناكها أو حاسها
 ١٩٥ الحسن بن أبي حصينة

من لي برد شبيبة قضيتها فيها وفي حمص وفي عرناسها
ابن أبي حصينة ٣٥٤

« ض »

رعى الله عيشاً بالمعرة لي مضى حكاها ابتسام البرق إذ هو أومضاً
وعصر شباب في شياث قطعته وفي أرض حندوثين في ذلك الفضاء
أعاذل لو شاهدت باب جناها لما كنت يوماً ناهياً بل محرضاً
لقد طال بالهرماس عهدي ومائه إذا ماجرى كالسيف أحمر منتضى
عمر بن الورد ١٩٦

« ف »

بنيت قصرأ أم الجنان جرت من تحتها النهر فوقه الغرف
جاورت في سمكه السباك مع الـ جوزا ولم ينته له طرف
الشيخ عبد الرحمن العمادي المقي ٢٩ ح
قد كان صاحب هذا القبر جوهرة نفيسة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيرة منه إلى الصدف
غير منسوب ١٨٥

« ق »

ماكل من يتسمى بالعزیز لها أهل ولا كل برق سحبه عَذِقة
بين العزیزين بون في فعالها هناك يعطي وهذا يأخذ الصدقة
ابن عنين ٣٨٧ ح

« ك »

يامغاني الصبا بباب حناك لايباي الفضاء ووادي الأراك
أبو المجد محمد ١٩٥

إذا هاجت الرمضاء ذكراك بردت حشاي كأي بين قارة والنبك
بعض الشعراء ٣٧٧

« ل »

قيل بمنبج مثواه ونائله في الأفق يسأل عن غيره سأل
المتني ٢٢٣

أبوكم تلاق يوم تقعاء راهط بني عبد شمس وهي تنفي وتقتل
كثير ٣٩١

إذا لاح برق من سنير تدفقت سحب جفوني في الحدود سيول
أبن عنين ٣٨٨

وما أخشى نبوك عن طريق وسيف الدولة الماضي الصقيل
وكل شـواءة غطريف تمنى لسيرك أن مفرقهـا السبيل
ومثل العمق مملوء دماء مشـت بك في مجاريه الخيول
إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ماير به الوحول
المتني ٦٦

أفقرت منهم الفراديس فالغو طة ذات القرى وذات الظلال
فَصَيَّرْنَ لِلسَّاطِرُونَ فَحُورًا نَقْفَارٌ بِسَابِئِ الْأَطْلَالِ
عبيد الله بن قيس الرقيات ٢٨٦

فلا ردها ربي إلى مرج راهط ولا برحت تمشي بسكاء في وحل
غير منسوب ٣٩١

مررت برسم في شـيات فراغني به زجل الأحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وأئل
أنتلفها شلت يمينك خلها لمعتبر أو زائر أو مسائل

الصفحة

منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم أر أحلى من حديث المنازل
القاضي أبو يعلى المعري ١٢٨

« م »

ولقد طفت للمال آفاقه عَمَانْ فحمصَ فـــــــأورشليمَ
فنجران فـــــــالرد من حير فإني مرام لله لم أرمِ
الأعشى الكبير ٣٢٩

قصور خلت من ساكنيها فما بها سوى الأدم تمشي حول واقفة الدمى
تجيب بها هام الصدى ولطالما أجاب القيان الطائر المترنما
كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى بها الوفد مجموع الخيس عرمرما
غير منسوبة ١٢٨

لمن تركنا ضميراً عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم
المتنبي ٣٨٦

الراجع الخيل مخفاة مقودة من كل مثل دبار شكلها أرم
كتل بطريق المغرور ساكنها بأن دارك قنسرين والأرم
المتنبي ١٨١

أجارك يا أسد الفراديس مكرم فتسكن نفسي أم مهــــان فسلم
ورائي وقدامي عداة كثيرة أحاذر من لص ومنك ومنهم
المتنبي ١٨٢

فقال تجاوزت الأحص وماءه وبطن شبيث وهو ذو مترسم
النابعة الجعدي ٢١١

« ن »

عدائك منك في وجل وخوف يريدون المعاقل أن تصونا

الصفحة

- فظلوا حول أسفونا كقوم أتى فيهم فظلوا أسفيناً
 ١٩٥ أبو يعلى بن حصين
- ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا
 ٢٩٨ عمرو بن كلثوم
- ياماء دجلة ماأراك تلذلي شوقاً كء معرة النعمان
 ١٨٥ أبو العلاء المعري
- فالمطرون فداريّا فجارتها فآبل فغاني دير قانون
 ٣٨٦ ابن المنير
- مازلت أخدع عن دمشق صباقي حتى مررت بتبادف فكأنني؟
 ٢١٥ أبو عبد الله القيسراني
- لحّ برق الأحصّ في لمعانه فتذكرت من وراء رعائنه
 فسقى الغيث حيث ينقطع الأو عس من رنده ومنبت باننه
 أو ترى النور مثل مانشر البر د حوالي هضابه وقنائنه
 تجلب الريح منه أذكى من المسك إذا مرت الصبا بمكانه
 ٢١١ ابن أبي حصينة

« ه »

- توهم الحرب شطرنجاً يقلبها للقمر ينقل منه الرخ والشاهها
 جازت هزيمته أنهار فامية إلى البحيرة حتى غط في ماهها
 ١٤٥ أحد شعراء المعرة

« ي »

- سقاها ورؤى من النيرين إلى الغيظتين وحموريه
 إلى بيت لهيها إلى برزة ولاح مكفكفة الأوعية؟
 ٣٩٢ ابن المنير

الصفحة

- ياملكاً عم أهل الأرض نائله وخص إحسانه الداني مع القاصي
لما رأت شيزر آيات نصره في أرجائها ألقت العاصي إلى العاصي
١٦١ يحيى بن خالد القيسراني
- وكم من قتيل يوم عذراء لم يكن لصاحبه في أول الدهر قاليا
٣٩٠ الراعي

٣ - مسرد الأعلام

آل جبار ٢٧٥، ٢٧٦	« أ »
آل حيوة لك ١٠٠	الآباء الكيشيون ١١١
آل حمد ٢٧٦	آبازاخ ٢٢٥
آل الحيار ٢٧٥	آباطة ٢٢٥
آل خلف ١٠٠	آتراكليس ٢١٨
آل رمضان ٣٤	آثورناسيربال - ملك الآشوريين ٤٣
آل روبين ٣٣	آذري جلبي ٢٣ ح
آل سلجوق ٩٧	آرام بن سام ٣١٧
آل سويدان ٣٢٧، ٣٦٥، ٣٦٨، ٣٧٦	الآراميون ٣٢، ٢١٨، ٢٣٨، ٢٦٥، ٢٦٦، ٣١٧،
آل شمس الدين ١٠٠	٣٤١، ٣٧٢
آل شمسفرام العرب ٨٩، ٢٦٦، ٢٨٤، ٣٠٤،	الآريوسية ٩٣
٣٤٤، ٣١٨	الآشوريون ٣٢، ٣٣، ٤٣، ٥٩، ٦٥، ٧٨، ٨٨،
آل شيركوه ٣٢٦	١٣٥، ٣١٧
آل عثمان ٣٤، ١٥١	آغا خان ٢٧٩، ٢٨٠
آل عيسى ٢٠١، ٢٨٥	آق سنقر ٢٤٠
آل عيسى بن مهنا ١٩٤، ٢٧٥	آق سنقر - أبو عماد الدين زنكي ١٨٠
آل الفضل ١٦٢، ٢٠١، ٢٠٢	آقسنقر البرسقي ٢٤٠
آل الفضل أبناء عيسى بن مهنا ٢٤٣	آق سنقر - قسم الدولة ١٥٩
آل القصيري ١٠٠	الأكاديون ٤٣
آل محمد ٢٧٦	آل إبراهيم ١٨٠
آل مرسل ٦٣	آل أبي ريشة ١٩٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٥
آل مرعب ٣١٢	آل البرازي ٣١٢
آل المسكي ١٠٠	آل بركات ١٠٠
آل ملك ١٠٠	آل بشار ٢١٠
آل يحيى ١٠٠	آل البيت ٢٦٩، ٢٧٠
آل اليوسف ٣١٢	آل البيت الصلاحي الأيوبي ٢٤٣

ابن جبير الأنديلسي ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٧ ،	آمون ٣٦١
١٨٩ ، ١٩٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٣ ،	الآمانيون ٤٣ ، ٤٤
٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٥٠ ،	آنتيغون ٤٨
٣٦٥ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ ،	آنتيغونوس ٨٨
ابن جريج ٣٢٩	الآنتيغونيون ٨٨
ابن جندل ٢٨٧	آنتيغوس - المهندس ٢٩٦ ح
ابن الجوزي البغدادي ١٥٩ ح	الآباطة ٢٨
ابن حوقل ٣٩ ، ٥٩ ، ١٠٠ ، ١٣٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢٣ ،	أباميا - الأميرة الفارسية ١٤٤
٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٨ ،	الإبراهيم ٢٠٢
ابن خلدون ١٩١	إبراهيم آغا سويدان ٣٦٥
ابن الزيات ٢٧	إبراهيم أبو يحيى الأزدي ١٠٣
ابن سميح ٢٨٧	إبراهيم باشا المصري ٣٠ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٩ ، ٦٥ ،
ابن الشحنة ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٥٥ ، ٢٥٠ ، ٢٣٥ ، ٣٤١ ،	١٠٠ ، ١٠٨ ، ٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،
٣٤٩	٣٤١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢
ابن الطيار ٢٨٧	إبراهيم بن عبد القادر الكيلاني ٢٠ ، ٢١ ح
ابن الصايي ٧٠	إبراهيم بن عثمان كيوان ٢٧
ابن عائش ٢٨٧	إبراهيم بن نان المنبجي - الملك الظاهري ٢٣٥ ،
ابن العباس الكلبي ٢٦٩	٢٣٦
ابن عبد السلام ٢٦	إبراهيم بن وليد الأول ٣٢٠
ابن العديم ١٣٩	إبراهيم جلي الأذري ٢٢
ابن العطار ٢٢٣	إبراهيم الكردي ٣١٢
ابن عيسى ٧ ، ٣٣٨	إبراهيم الهاشمي ٢٥٦
ابن فضل الله العمري ٢٥٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٩ ، ٣٧٠ ،	الأبرز ١٨٠ ، ٢٠٢
٣٨٦	أبزاخ - قبيلة شركسية ٢٢١
ابن الفقيه الهمداني ٣٢٩ ، ٣٢٧	ابن أبي حصينة المعري ٢١١ ، ٣٥٣
ابن القلانسي ١٥٢ ، ٣٧٢	ابن بطلان ٧٠ ، ٧١ ، ١٠١ ، ١٠٨
ابن لأون : انظر ابن ليون	ابن بطوطه ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
ابن ليون = ابن لأون - ملك الأرمن ٣٣ ، ٦١	١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ،
ابن مالك ١٩٦	٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٦٢ ، ٣٣٤
ابن مجيد ٢٨٧	ابن تيورلنك ٢٥٦
ابن معجل ٢٨٧	ابن تيمية ١٢٠
ابن الملجم ٢٨٧	ابن الأثير ٢٥ ح ، ٣٣ ، ٧٤ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ٢٦٨ ،
ابن منقذ ١٥٨	٢٦٩ ، ٢٧٢

- أبو صالح ٢٢٥
أبو صليبي ٢٠٢
أبو الطيب المتنبي ٣٢١، ٣١
أبو ظاهر إبراهيم بن شيركوه بن محمد ٣٤٠ ح
الأبو عاص ١٨٠
الأبو عاصي ٢١٦
أبو عبد الله القيسراني ٢١٥
أبو عبد الله المقدسي ٣٣٠
أبو عبيدة بن الجراح ٢١، ٩٦، ١٤٥، ١٥٦، ١٧٦،
٢١٩، ٢٣٨، ٢٥٦، ٣٢٠
الأبو عساف ٣٥٧
الأبو عطيري ٢٠٣، ٢١٦
أبو العلاء المعري التنوخي - أحمد بن عبد الله بن
سلمان ١٤٤، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٩،
١٩١، ١٩٥، ١٩٧
أبو علي الحسن العقيلي ١٣٥
الأبو عيد ٣٥٥
الأبو فاتنلة ٢٠٢
أبو الفداء ٣٣، ٣٩، ٤٠، ٤٨، ٥١، ٥٢، ٥٦، ٥٩،
٦٢، ٦٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢٦، ١٣٣، ١٣٦،
١٣٧، ١٣٩، ١٤١، ١٤٧، ١٥٥، ١٥٨،
١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٨، ١٧٥، ١٨٧،
١٩٧، ٢٠٩، ٢٢١، ٢١٣، ٢٢٣،
٢٤٨، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨١،
٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩١، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٩،
٣٣٤، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٨٨ ح
أبو فراس - الحارث بن سعيد بن حمدان ٢١٩،
٢٢٣، ٣٢٢، ٣٦٥، ٣٦٨
أبو الفضل ٣٧٥
أبو الفضائل بن حمدان ٩٧
أبو الفضائل بن سعد الدولة ١٥٧
أبو الفضائل بن سعد الدين الحمداني ١٤٥
الأبو قعيرات ٢٠٢
- أبن منير ٣٨٦ - ٣٩٢
أبن الناشف ٢٥
أبن وردان ٢٩٧
أبن السوردي ٣٣، ١٥٥، ١٩٤، ١٩٥، ٢٢١، ٢٧٥،
٣٣٥
أبناء سيف - حكام طرابلس ٤٩
أبو أمامة الباهلي ٣٥٤
الأبو بطوش ٢١٦، ٢٢٥
الأبو بكر ٣٥٧
الأبو بنا ٢٢٥
الأبو ثابت ٢١٦
الأبو جابر ٦٧
أبو جرادة ١٢١
الأبو جميل ٢٠٢، ٢١٦
الأبو حربة ٢٠٢
الأبو حسن ٢٠٣، ٢٢٥
أبو الحسن علي بن منقذ ١٤١
أبو حنيفة ٣٩٢
الأبو خيس ٦٧، ٢٨٧، ٢٨٨
الأبو دبش ٢٢٥
أبو ذر الغفاري ٣٤٨
أبو زليط ٢٠٢
الأبو سبيع ٢١٦
الأبو سرايا ٢٨٨
الأبو سلامة ٢٨٨، ٣٥٧
الأبو سلطان ٦٧، ٢٢٥
أبو سليم فرج الخادم ٣٦
الأبو سيف ٢٨٨
أبو شامة ٣٢١
الأبو شعبان ٦٧، ١٨٠، ٣٥٧
الأبو شهاب الدين ١٨٠، ٢٠٢
الأبو شيخ ١٨٠

- الأبوليل ١٨٠
 الأبومانع ٢٢٥
 أبوالمجد محمد ١٩٥
 أبو محمود - القائد ٣٧٢
 الأبومسرة ٢٢٥
 أبو موسى الأشعري ٣٤٨
 الأبوهرموش ٣٥٧
 أبو هريرة ٢٥٤
 أبو الورد ابن الكوثر الكلابي ٢٦٨
 أبو يزيد البسطامي = طيفور بن عيسى ٢٣،
 ٣٠٦، ٦٩
 أبو يعلى بن حصين ١٩٥
 الأبيوردي ٩٧
 الأتراك ٤٨، ٣٢٧، ٣٣٣
 أتركاكتيس ٢٢٤
 أحمد آل عيسى ٢٧٥
 أحمد باشا الدباغ ١٩ ح
 أحمد باشا الكوجك ٢٧ ح، ٢٩ ح
 أحمد بن أبي داود الأيادي ٤٨
 أحمد بن طولون ٥٩، ٦٥، ٩٦، ١٩٠، ٢٣٩، ٣٢١
 أحمد بن الطبيب ٣٦، ٣٧، ٢٤٤
 أحمد جمال باشا ٣٤١
 أحمد راسم ٢٣ ح
 أحمد زكي باشا ٢٦٠
 أحمد الصابوني الحموي ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٥،
 ٢٩١
 أحمد الضحاك الكردي ١٤٦
 أحمد الكاتب ٤٨
 أحمد الكيواني ٢٧ ح
 أحمد وصفني زكريا ٩
 الأخشيد محمد بن طنج ١٧٧، ٢٣٩، ٣٢١، ٣٩٠
 الأخشيديون ٩٦، ١٩٠، ٣٢١
 الأخطل ٣١٤
 أخوة وضحة ٢٠٢
 الإدريسي ٣٣٠، ٣٥٠
 أذينة التدمري ٣١٩
 الأرثوذكس ٤٨
 أرخياس وليبانيوس ١٠٣
 الأرمن ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٨،
 ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٥٠، ٥٢، ٥٥،
 ٥٦، ٥٧، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨،
 ٨٧، ٨٩، ٩٣، ٩٩، ١١٢، ١١٣، ١١٦،
 ١١٨، ١٥٧، ١٩٢، ٢١٣، ٢١٧،
 ٢٤٢، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٧٦
 الأرمن الكيليكين ٩٩
 أسامة بن مرشد - انظر أسامة بن منقذ
 أسامة بن منقذ = مجد الدين مؤيد الدولة أبو
 المظفر = أسامة بن مرشد ١٣٧، ١٤٧،
 ١٤٨، ١٥٣، ١٥٩، ١٦١، ١٦٧، ١٦٨،
 ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢
 الاستبارية = الاستبالية ٤٤ ح
 الاستبالية - انظر الاستبارية
 استرابون ٧٦، ١٣٧، ٣٥٩
 أسد الدين شيركوه ٢٤١، ٢٧٢، ٣٢٤، ٣٢٤
 أسد الدين شيركوه الثاني ٣٢٥
 الأسديون - ملوك حص ١٩٢
 الأسديون الأيوبيون ٣٢٦، ٣٥٢
 إسرائيل ٣٦٥، ٣٧٠
 الإسرائيليون = بنو إسرائيل ٢١٥، ٢٢٧، ٢٣٧،
 ٢٣٨، ٢٤٧
 الأسرة الثامنة عشرة المصرية ٧٤
 أسرة روبين ٣٤
 الأسرة الساسانية ٨٩ ح
 أسرة عقيل في يبرود ٣٧٩
 أسرة لوسنيان ٣٤
 أسرة هيتوم ٣٤

أسعد باشا العظم ١٨٣، ٢٥٣	أغسطس جونسون ٢٣٧ ح
أسعد الغاطي ٣٥٧	الإفرنج = الفرنج ٥، ٦، ٨، ١٦، ١٧، ٣٠، ٣٢،
الاسكندر ٣٠، ٤١، ٤٨، ٩٤، ٩٧، ٣٥٩، ٣٦١	٣٨، ٣٩، ٤٢، ٤٧، ٤٩، ٥٦، ٦٦، ٧٤،
اسكندر ساديروس ٣١٩	٨٠، ٨١، ١٠١، ١٠٢، ١١٩، ١٢٠، ١٢٤،
اسكندر سفيروس ٩١	١٢٦، ١٣٠، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٦، ١٤٧،
اسكندر الكبير ١٦	١٤٨، ١٥٣، ١٥٨، ١٥٩ ح، ١٦٠، ١٦١،
اسكندر المقدوني ٣٢، ٤٣، ٨٨، ١٤٤، ٣١٧، ٣١٨	١٦٧، ١٦٩، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥، ٢٢٠،
إسماعيل بن أبي القاسم القاري ٣٧٥	٢٣٢، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٥١، ٢٨٥، ٢٨٧،
إسماعيل بن بوري بن طغتكين - شمس الملوك ١٥٩	٢٩٨، ٣٠٩، ٣٢٤، ٣٣٨، ٣٥٠، ٣٧٢،
إسماعيل بن نور الدين محمود زنكي ١٩٨	٣٧٥
إسماعيل الشهابي - الأمير ٢٧٨	الإفرنسيون = الفرنسيون ٣٥، ٤١، ٥٠، ٧٧،
إسماعيل القيصري - شيخ كردي ١١٦	٢٧٨، ٣٦١، ٣٧٩
الأشاجعة ٢٨٦، ٢٨٧	الأفضل بن أبي الفداء ١٩٤
الأشرف خليل ٢٧٤	الأفضل محمد ٢٤٣
الأشرف موسى ٢٨٤، ٣٢٥، ٣٢٦	افيتوس باسيانوس ٣١٩
الأشرف موسى بن إبراهيم بن شيركوه ٢٤٢	أقيال الهند ٨٩
الأصطخري ١٥٥، ٢٤٤، ٣٢٩	الأكسرة ٣٠
أصلان باشا ٢٠٠، ٢١٠	الأكراد = الكرد ١٥، ١٦، ٣٥، ٣٦، ٤٥، ٤٩،
الأصمعي ٢١١	٥٢، ٥٣، ٦٣، ٧٧، ٨٨، ١١٩، ١٦٢،
الأعراب ٢٥، ٦٧، ٩٥، ١٤٣، ١٤٥ ح، ١٤٨،	٢٠٦، ٢١٦، ٣٠٧، ٣١١، ٣١٢، ٣١٤،
١٥٣، ١٥٥، ١٦٢، ١٧٠، ١٧٦، ١٧٧،	٣٧٦، ٣٢٣
١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٥،	أكراد إبراهيم ٣١٢
٢١٠، ٢١٢، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٣٢،	أكراد الجومة ١٠٠
٢٦١، ٢٦٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٤،	أكراد عثمان ٣١٢
٢٨٥، ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣،	ألكسي كومنن - قيصر بيزنطي ١٥٨
٢٩٨، ٣٠٢، ٣٢١، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٢،	الألمان ٤٨، ٥٠، ١٣١
٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦٤	الأمبراطور سبتيموس سفيروس ٩١
أعراب البادية = البدو ١٠٠، ٢٨٥	الأمبراطور تراجان ٩٠
أعراب بني كلاب ١٩٠، ١٩٢	امرؤ القيس بن حجر الكندي ٣٠، ١٥٦، ٢١٤،
أعراب الحاضرة = عربان الديرة ٢٨٧	٢٤٦، ٢٢٩
أعراب الهنادي ٢١٦، ٢٢٥	الأمويون = بنو أمية ٣٠، ٢٨، ٤٢، ٥٩، ٩٦،
الأعشى الكبير - ميمون بن قيس ٣٢٩	١٧٧، ١٧٨، ١٨٩، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٩،
	٢٢٨، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣٣١، ٣٢٣، ٣٣٦،

- أميانوس مرشليينوس ١٠٣
الأمير أحمد بن رمضان ٣٤
الأمير الأفضل ٣٨٨
الأمير حسن بن رشيد ٢٦ ح
الأمير علي الشهابي ١٤
الأمير فخر الدين بن معن ٢٧ ح
الأمير منجك باشا ٢٩ ح
الأمير منصور الشهابي ١٤
الأمين - الخليفة ١٨٩ ، ٣٢١
أنطونين ٩٠
أنطيوخس أبيفانوس الرابع ٢٣٨
أنطيوخس الكبير ٨٨ ، ٨٩
أنطونيوس ١١٢
أنطونيوس ٩٠
الإنكشارية ٢٠ ح ، ٢٦
الإنكليز ٣٥ ، ٤٩ ، ٧٨ ، ٢٣٨ ح
أنكولد - العالم الأثري ٢٣٨ ح ، ٢٥٦
الأوربيون ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٣١٥
أورلثانوس الروماني ٧١ ، ٢١٩
أوبوخ ٢٢٥
أوستروب ٢٩٥
أوليسا جلبي ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ح ،
١٨ ، ١٩ ، ٢١ ح ، ٢٧ ح ، ٢٩ ح ، ٤١ ،
٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٧٧ ، ١٠٢ ،
١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ،
٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ ،
٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٦٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٣ ،
٣٩٢ ، ٣٨٤
أوكتاو الظافر ٩٠
إيزامبر ٦ ، ٢٥٣ ، ٢٣٩
إيزيدو - المهندس ٢٩٦
إيساق ٢٩٦ ح
- أيوب بن سلمان السلمي القرشي ٢٦٧
الأيوبيون ٨٢ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٦٢ ، ٢٠١ ،
٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ،
٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ،
٢٣١
« ب »
الباخرزي ١٥٩
باخوس - القديس ٢٨٥
بارتلت ١٠٤
باسيانوس - الكاهن ٣١٨
باسيل ٢٢٣
باسيليوس الثاني ١٠٩
باسيليوس - قيصر الروم ١٥٧
بتولماس الكلوذي ٢٨٤
البحثري ٤١ ، ٥٩ ، ٢٢٣ ، ٣٧٢ ، ٣٩٠
بدر الدين بن حبيب ٣٣٥
البدو ٢١٦ ، ٢٦١ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٩
البروتستانت ٣٦٠ ، ٣٥١
برثوباشا ١١
برجس بن هديب ٢٨٧
برنابة ٦
بروكهارت - السائح ٢٣٧ ح / ٢٥١
البريكات ٢٨٨
بزادوخ ٢٢٥
البستاني ١٢٦ ، ٣٠١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠
بسلي ٢٢٥
بسيل - ملك الروم ٩٧
البشام ٢٠٢
بشر بن عز ٢٨٦
بش التي ٢١٦
البطال ١٤٦ ح
البطالة ٨٨ / ٨٩

- بطرس - رئيس الحواريين ١٠١
 بطريك أنطاكية ١٠٤
 بطريك الروم الكاثوليك ١٠٤
 بطريك السريان الكاثوليك ١٠٤
 بطريق الموارنة ١٠٤
 بطلبوس ٨٨
 بطلبوس الكلوزي ٣٧٩
 البطين الشاعر ٣٥٣
 البطنيّات ٢٨٧
 بعل ٣١٧
 البقارة ٦٧ ، ٢٠٢
 بكار العريان بن عمران الرحبي ٣٨٥
 بكجور ١٩٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٨ ، ٣٧٢
 البلاذري ٦٩ ، ١٤٥ ، ١٧١ ، ١٧٦
 بلجيو جوزو - الأميرة ٤٩ ، ١٠٤
 بلك بن بهرام بن أرتق ٢٢٠
 البلوة ٢٠٣
 البنادقة ٥١
 بنو إسرائيل = انظر الإسرائيليون
 بنو أمية = انظر الأمويون
 بنو أيوب = انظر الأيوبيون
 بنو تنوخ ١٨٩
 بنو الحارث بن كعب ٢٨٨
 بنو حمدان = انظر الحمدانيون
 بنو خالد ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٥٧
 بنو ربيعة ٢٠١
 بنو زيد ٢١٦
 بنو سعيد ٦٧ ، ٢٢٥
 بنو سليح بن خضاعة ١٧٦
 بنو ضبة ٣٧٢
 بنو طولون ٢٣٩
 بنو العباس ٢٢٣
 بنو عبد شمس ٣٩١
 بنو عثمان ٥٧
 بنو عز ٢٠٢
 بنو عز الرعية ٢٠٢ ، ٢٨٩
 بنو عصيد ٢٢٥
 بنو علي ١٤٢
 بنو علم ١٢٧
 بنو قشير ٣٦٨
 بنو كلاب ١٤٥ ، ١٥٩ ، ١٨١ ، ١٩٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣
 بنو كلب ٣٢١ ، ٣٧٢
 بنو الكيلاني ٢١ ح
 بنو كيوان ٢٧ ح
 بنو مخزوم ٢٨٨
 بنو مرداس ١٤٥ ح ، ٢٣٢
 بنو مرداس الكلبيين ١٩٠
 بنو متقذ الكنانيون ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٠
 بنو الناشف ٢٧ ح
 بنو نغير ٢٣٢
 بنو هاشم ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٢
 بهاء الدين سوينج ٢٤٠
 بهادر البكتري الأشرفي ٣٤٢
 البهادلة ٣٥٧
 بهراء ١٤٥ ، ١٨٩ ،
 بهرام شاه حفيد صلاح الدين الأيوبي ٣٣١ ح
 البوادي ٢٨٨
 بوجولا ١٠٤
 بوري بن طفتكين ٢٤٠ ، ٢٧٤
 بودوين ٧٤ ، ٨٦
 بودوين الثاني ٩٨
 بودوين الثالث ٧١
 البوغيث ٢١٦

البوكردي ٢١٦	الترك السلجوقيون ٢٣ ، ١٩١
بولص الخواري ٣٧	الترك العثمانيون ٤٠
بومبيوس ٩٠ ، ٨٩ ، ٣٢	التركان ١٥ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٩ ،
بوهيوند بن بوهيوند ٩٩	٥٢ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ،
بوهيوند التارانتني ٩٨	٦٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ،
بوهيوند الثاني ٩٨	٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،
البياطرة ٢٨٨	٣٨٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٥
البيت الأسدي ٣٢٦ ، ٣٣٤	التركان السوادية ٣١١ ، ٣٥٧
بيت أبو ريشة ٢٠١	تركان الشام ٣١١
بيد يكر ٦	التركي ٢٠٠ ، ٢٨٩
البيزنطيون ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٩٥ ،	تركي الحديثة ٢٢٧
٩٩ ، ١٥٩ ، ١٨٩ ، ٢٣٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،	التفكجية ٢٧ ، ٢٩ ح.
٢٧١ ، ٣٤٤ ، ٣٦٧	تغلب ١٨٩
ببليون - السائح ٣٤٠	تغلب بن داود بن حمدان - أبو وائل ٣٢٢
	تقلا - القديسة ٢٨٤
« ت »	التقويون - ملوك حماة ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٨١ ، ٣٢٥
تاج الدولة تتش السلجوقي ١٨٠ ، ١٩١ ، ٣٢٣	التقويون الأيوبيون ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ،
تاج الدولة ناصر الدين محمد ١٦١	٢٨٠ ، ٣٢٦
تاج الملوك رضوان ٣٢٣	تقي الدين عمر بن أخي السلطان صلاح الدين
تانكرد ٧٤ ، ١٤٦ ، ٢٢٠	٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٢٤
التتار = التتر ٣٤ ، ٤٥ ، ٥٩ ، ٧٧ ، ١٦٢ ،	التامود ٣١٨ ، ٣٥٩
١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٢١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥ ،	تنكيز ٣٧٥
٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،	تنوخ ١٧٦ ، ١٨٨ ،
٣٣٣ ، ٣٢٧	توت عنخ آمون ٢٢٢
تتش أخو السلطان ملكشاه السلجوقي ١٤٦ ، ٢٧١	التوراة ٢١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ،
تخوتمس الثالث - فرعون مصر ٧٢ ، ١٩٧ ، ٢١٧	٢٧١
التدمريون ٩١ ، ٣٦٩	التوبيجات ٢٢٥
تراجان الأمبراطور ٢١٧	التوبيجات ٢١٦
الترك ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٣ ح ، ٣١ ، ٣٥ ،	التويان ٣٥٧
٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٠ ،	التويني ٢٠٣
٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ،	تئودوس ١٠٨
١٧٩ ، ٢٦٦ ، ٣٠١ ، ٣٧٦	تيفورلنك ٢٢١ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٧٥ ، ٢٩٣ ، ٣٢٧

« ث »

تأدرس النصراني ١٩١

ثملات ٣١٨

ثيودوسيوس الثاني ٩٤

« ج »

جامكواي ٢٢٦

جان برد الغزالي ٣٠٦

جان بولاد بك ١١٧

جأور جيوس القديس ٤٨ ، ٣٨٠

جبار بن مهنا بن عيسى بن مهنا ٢٠١

الجبيجة ٢٠

الجدع ٢٨٧

الجراجة ٤٤

جرجي زيدان ٢٥ ح

جرجي يني ٢٠ ح

جعفر بن أبي طالب ٣٣٣

جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين

العابدين بن الحسين بن علي ٢٦٩

الجلال ٢٨٦

جلال - القديس ٣١٠

الجماعة ٢٠٢

الجلال ٢٠٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩

الجميلة ٢٠٢

جناح الدولة حسين ٣٢٣

الجنيدات ٦٧

الجهم ٣٥٥

جوبيتر البعلبيكي ٣٦٣

جوسلين الإفريقي ٢١٥ ، ٢٢٠

جوفيانوس ٩٢

جول فرن ٢٢٩ ، ٢٣٠

جوليا ٩١

جوليا ابنة أوغسطس ١١٢

جوليا دومنا ٣١٨ ، ٣١٩

جوليا ميزا ٣١٩

جيس ١٢١

جيش بن خمارويه ٢٣٩

جيش بن الصمصامة ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٥٧

« ح »

حاتوقواي ٢٢٦

الحاج خضر ٢٧٩

حامد حلبى الشهير بطاشكوبري زادة ٢٢

حبيب بن مسلمة الفهري ٢١٤

حبيب الزيات ٣٨٧

حبيب النجار ١٨ ، ١٠٢

الحتاحة ٣٥٧

الحيثيون ٤٣ ، ٦٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٦٥ ح .

٣٦٠ ، ٣٤١ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٢٦٦

الحجاج ٢٠٢ ، ٣٥٥

حجاوية ٢٧٩ ، ٢٨٠

حجر بن عدي الكندي ٣٩٠

الحدادون ١٤٢

الحديديون ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ .

٢٠٣ ، ٢١٦ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠

٢٩٥

حرب ٢٨٦

الحروك ٣٥٧

الحريري ٣٣٥

حزقيال ٣٦٥

الحزوميون ٣٥٧

حسان البعلبيكي ٢٢٠

حسان بن مفرج الطائي ١٤٦

حسن أفندي الدفتري ٣٧٠

الحسن بن أبي حصنة المعري = أبو الفتح ١٩٥

حسن الدفتري = ابن قنبيق - الشاعر ٢١ ح

الحسنة ٢٧٦ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧

الحسو ٢٠٢

حسين آل أبي ريشة ٢٧٦

حسين باشا المرباط ٣٢٨

حسين بن إبراهيم سويدان ٣٦٥

الحسين بن زكرويه القرمطي - أبو شامة ١٩٥ ،

٢٣٩ ، ٢٧٠

الحسين بن عبد الله بن القداح بن ميمون بن

ديصان ٢٧٠

الحسينات ٦٧

الحلفاء ١١٣

حلمان بن قراويس ١٥٧

حماني - من أبناء كنعان ٢٣٧

الحماني ١٨٨ ، ٢٨٨

الحميدانيون ٣٠ ، ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٩٠ ،

٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣

الحميدون ٢٢٥

حمص بن مكثف العمليقي ٣١٦

حمص بن المهر ٣١٦

الحمصيون ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٨ ، ٣٢٦ ، ٣٥١

الحمويون ٣٥١

حير ٢٢٩

حنا كومنن - القيصر البيزنطي ١٦٠

حنظلة بن خويلد ٢٢١

الحواري برنابة ٩٣

الحواري بطرس ٩٣

الحواري بولص ٩٣

حيدر الشهابي ٢٤٣ ، ٢٧٦

« خ »

خالد بن خلي ٣١٠

خالد بن الوليد ١٧٦ ، ٢٨٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ،

٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،

٣٨٩ ، ٣٩٠

خالد بن يزيد ٣٢٠

خالد بن يزيد بن معاوية ٣٣٣ ، ٣٥٣ ،

الخراسين ٢٠٢ ، ٢٨٩

الخرصة ٢٨٦ ، ٢٨٧

الخصر ٢٨٣

خلف بن ملاعب الكلبي ١٤٦ ، ٢٤٠ ، ٢٧١ ،

٢٧٣ ، ٢٨٢ ، ٢٢٣

الخلفاء الراشدون ٢٢٨

الخليفة ٢٠٢

الخليفة ابن رائق ٢٣٩

الخليفة المعتضد ٢٣٩ ، ٢٤٤

خليل كيوان ٢٧ ح

خمارويه بن أحمد بن طولون - أبو الجيش ٢٣٩ ،

٣٩٠

الخوارزمية ٢٣١ ، ٢٢٥

خونسو ٣٦١

الخياطون ١٤٢

خيرخان بن قراجة ٣٢٤

« د »

دارا - ملك الفرس ٤٨

داريوس - ملك الفرس ٣٢ ، ٤١ ، ٤٣

الداغستان ٢٢٦

الداثية ٢٧ ، ٢٩ ح

دامس أبو الهول ٢٤٨

داميانوس دالاسانوس ١٤٥

داود ٣١٧

داود بن عمر البصير ١٠٤

الداوية = السريانية الفقراء ٤٤ ح

الداوية = الفرسان الهيكليين ٦١

دراك ٢٢٨ ح

الدراسة ١٤٢

الرشاونة ١٤٢
 الرشيد - الخليفة = انظر هارون الرشيد
 رشيق النسيجي ٣٧
 رضوان بن تتش السلجوقي ١٤٦، ١٩١، ١٩٢،
 ٢٧١، ٢٧٣
 رضي الدين عبد الله بن أحمد الوفي بن محمد
 التقى بن محمد المكتوم بن إسماعيل ٢٨٢
 الرطوب ٢٨٨، ٣٥٧
 رعميس الثاني ٣١٧، ٣٦٠
 الرفيعي ٢٠٣
 الرماح ٢٨٧
 الروثانيون = اللوذيون ٢٣٧، ٢٦٦، ٣١٦، ٣١٧،
 ٣١٨
 الروس ٣٥، ٢٢٦، ٢٨٦
 الرولة ٢٠٢، ٢٨٦، ٢٨٧
 الروم ٢٢، ٣٣، ٣٧، ٤٠، ٤٤، ٦١، ٦٦، ٧٠، ٨٠،
 ٩٧، ٩٨، ١٠٢، ١١٧، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦،
 ١٥٢، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٨، ١٦٩،
 ١٧٠، ١٧١، ١٧٧، ١٩٠، ١٩٤، ٢١٥،
 ٢١٩، ٢٢٢، ٢٣٩، ٢٧٢، ٣٠٢،
 ٣١٩، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٤٧،
 ٣٥٤، ٣٦١، ٣٧٢، ٣٧٦، ٣٨٤، ٣٨٦
 الرومان = الرومانيون ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٤٣،
 ٤٧، ٤٨، ٥٩، ٦٥، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٨٩،
 ٩٠، ٩٢، ٩٤، ١١٢، ١٣٦، ١٤١، ١٤٤،
 ٢٣٢، ٢٣٨، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٩٤، ٢٩٦، ح،
 ٣٠٤، ٣٠٩، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٣٤،
 ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧٩
 الروم الأرثوذكس ٥٠، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٥٣،
 ٢٦٠، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣١٥، ٣٤٨، ٣٥١،
 ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٨٦
 الروم البيزنطيون ٩٧، ١٠١، ١٥٦، ١٥٧، ١٧٢،
 ٣٢٢

درت يول ٤١
 الدروز ١٢، ٨٤، ١٣٣
 الدغامشة ٢٨٨
 دلهمة ١٤٦ ح
 دلويس ٢٣٨ ح
 الدوام ٢٨٧
 الدواونة ٢٠٢
 دوسو ٢٠٤، ٢٩٦، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٥، ٣٣٨،
 ٣٣٩
 دوقس أنطاكية ٣٢٣
 الدولة الفاطمية = العبيدية ٢٧٠
 دير السيدة ٢٨٦
 دي فوكي - الأثري ١٣٠
 ديكران - ملك الأرمن ٨٩، ١١٣
 ديمتروس ٤٣
 ديوكليتيانوس ٩١، ٣٥٩
 ديوكليسيان ٣١٨
 دي لورته ٤٩

«ذ»

ذو الكلاع الحميري ٣٤٩

«ر»

رابعة العدوية ٣٤٩
 راشد الدين سنان ٢٧٤
 الراعي ٣٩٠
 راكان المرشد ٢٨٧
 رامي علي أفندي ١٨
 ربيعة ٢٧٣
 الرزيق ٢٨٨
 الرسالة ١٤٢
 الرسائل ٢٨٧
 رسول الله ﷺ ١٨٢، ٣٣٣، ٣٨٩

الروم الكاثوليك ٣٦٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ،

٣٨٥ ، ٣٨٧

الروم الملكيين ٣٧٦

رونز فال اليسوعي ٣٠٩ ، ٣٣٨

رونه موتارد ٣٥٢

الرويمي ٢٠٣

ريوند الثاني ٣٦٠

ريوند دو بواتيه ١٢٠ ، ١٢٤

«ز»

زافر ٢١١

زبيدة - زوجة هارون الرشيد ٤٨ ، ٥١ ، ٥٩

الزبيرية ٣٩٠

الزريق ٣٥٧

زسوب - المبشر ٢٣٧ ح

الزط ٩٦

زنوبيا - ملكة تدمر = زينب ٧١ ، ٩١ ، ٣١٩

زوفيات ١٨٠

الزيادة ٣٥٧

زين الدين كتبغا ٢٥٦

زين الدين يعقوب بن يزبك سنقر ٣٤٠

« س »

سابق الدين عثمان ١٦١

سابور - ملك الفرس ٩١ ، ١١١

الساري ٢٨٦

ساسى ٢٣٨ ح

الساطع بن عدي ١٨٨

سالامانزار - ملك الآشوريين ٤٣

سالم الرقي (ثم القاري) ٣٧٥

سايس ٢٣٨ ح

السهابية ٢٦

السهابية ٢٨٧

سبتيهوس سفيروس ٣١٨ ، ٣١٩

السبعة ٢٨٦ ، ٣٥٧

سبيع ٢٨٦

ست الشام بنت أيوب ٢٢٥

ستريغوفسكي ٢٩٥

سرجون الثاني ١٣٥

سرجون - ملك الأكاديين ٤٣

سرجيوس - القديس ٣٨٥

السرطان ٢٠٣

سرخك ٨١

السردار حسين باشا ٥٩

السيان ٥٢ ، ١٧١ ، ٣٥١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ،

٣٧٨ ، ٣٧٥

السيان القدماء ٢٦٠

السيان الكاثوليك ٢٦٠ ، ٣٤٨ ، ٣٦٥ ، ٣٧٥ ،

٣٧٨

السيان اليعاقبة ١٧١

سعد بن أبي وقاص ٣٤٨

سعد الدولة بن سيف الدولة ١٤٥ ، ١٥٧ ، ١٩٠ ،

٣٢٢ ، ٣٦٥

سعد الدين الأنصاري ٣٨٠

سعد الدين كشتكين ٨١

سفينة - مولى رسول الله ﷺ ٣٢٣

سقمان بن أرتق ١٩١

السكن ٢١٠

السلجوقيون ٢٤٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦

السلطين العثمانيين ٢٣ ح

السلطين المماليك ٢٣ ح

سلطان بن معد ١٣٠

السلطان أحمد خان ١٦

السلطان بدر الدين حسن ٢٦٠

السلطان حسن شقيق أبي الفداء ٢٦٠

السلطان سليم الأول العثماني بن السلطان سليمان

١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ح ، ٣٤ ،

جولة أثرية (٢٧)

- ٤١٧ -

- ٧٨ ، ١٥١ ح ٣٩٢
السلطان سليمان القانوني ٢٩ ح ٥٦
السلطان صلاح الدين بن أيوب (الأيوبي)
٣٤ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٩٨ ، ١٢٠ ، ١٤١ ،
١٤٧ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ،
١٩٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٧٢ ،
٢٧٤ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ح ٣٣٤ ،
٣٥٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ح
السلطان عبد الحميد الثاني ٢١٨
السلطان عبد الحميد العثماني ٦٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ،
٢٧٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٤٥
السلطان عبد العزيز ٢٢٦
السلطان عبد الحميد ١٧٧ ، ٢٧٧
السلطان محمد خان الرابع ١٤
السلطان مراد الرابع ١١
السلطان مراد بن السلطان سليمان العثماني ١٦٩
السلطان ملكشاه بن آلب أرسلان ٩٧ ، ٢١٩ ،
٢٤٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤
السلطان الملك الظاهر ٢٣٥
السلطان الملك الكامل ٢٧٢
السلطان الملك ألتنصور ناصر ٣٤٠ ح
السلطان الناصر محمد بن قلاوون ١٩٣ ، ٢٤٢ ،
٢٤٣
سلمانزار الثاني ١٣٥
سلوقس نيكاتور ٤٣ ، ٨٨ ، ١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٧٦ ،
السلوقيون ٣٢ ، ٣٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٣٧ ، ١٤١ ،
١٤٤ ، ١٥١ ، ٢٣٨ ، ٢٦٦ ، ٣٠٤ ، ٣١٧
سليم زكور ٣٥٢
سليمان ٣١٧
سليمان باشا العظيم ٣١٥
سليمان بن إبراهيم سويدان ٣٦٥
سليمان بن عبد الحميد البهراني ٣١٠
سليمان بن عبد الملك ١٧٨
- سليمان بن قتلش السلجوقي ٦٦ ، ٨٠ ، ٩٧ ، ٩٨
السماطية ٢٨٩
السمط بن الأسود الكندي ٣٢٠ ، ٣٤٨
سنان باشا الدورلي بن محمود - الوزير العثماني
فاتح الين ٢٥ ، ٢٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ح ،
٣٠٦ ، ٣٦٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٣
سنقر الأشقر ١٤٨ ، ١٦٢
سهمية بنت جوليا ميلا ٣١٩
السوالة ٢٨٦ ، ٢٨٧
سوبرنهام ٣٢٨ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٧
السومريون ٤٣
سويدانية ٢٧٩
سيتي الأول ٣١٧ ، ٣٦١
سيزوستريس ٣١٧ ، ٣٦٠
سيس ٦١
سيف بن فضل ٢٧٥
سيف الدولة بن حمدان ٣٧ ، ٣٨ ، ٦٦ ، ٩٦ ،
٩٧ ، ١٤٥ ح ، ١٥٦ ، ١٧٧ ، ١٨١ ،
١٩٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٣ ، ٣٠٦ ،
٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٦٨ ، ٣٩٠
سيف الدين أسنمدر ٢٤٢
سيف الدين غازي ١٨٠
سيف الدين قبجق ٢٤٢
سيلوانس - القديس ٣١٩
سما الطويل التركي ٥٩ ، ٦٦ ، ٩٦
« ش »
شابسيغ ٢٢٥
الشاشان ٢٢٦
الشاعر البطين ٣٣٢
الشاميون ٣٣٥ ، ٣٥١ ، ٣٦١
الشاهر ١٨٠
الشايش بن عبد الكريم ٢٠٢

شبل الدولة نصر بن مرداس ٣١١ ، ٣٢٣
 شجاع الدولة جعفر بن كلند ٢٤٠
 شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ٦٦ ، ٩٨ ، ٢٢٠
 شرف الدين بن أحمد بن علي الهاشمي ٢١ ح
 شرف الدين محمد بن نصر بن عنين الزرعي ٣٨٨ ، ٣٨٧ ح
 الشراكسة - انظر الشركس
 شركة النفط العراقية ٣١٦ ، ٣٥٨
 الشركس = الشراكسة ٢٨ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٦٤ ، ٣٠٧ ، ٣١٤ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣
 الشريف ٢٠٢
 الشقرة ٢٠٣ ، ٢٨٨
 شقير بن هارون الرشيد ٢٠٢
 الشكيف ٢٥٧
 الشليوط ٢٠٢
 شمس الدين سامي ٢٣ ح
 شمس الدين عبد الملك ١٤٧ ، ٢٩٢ ، ٢٢٠
 شمس الدين محمد بن طولون ٣٧٥
 شمس الدين محمد الحلبي = ابن أجا ٣٦٥
 شمس الملوك إسماعيل بن بوري ٢٤٠
 شمس الملوك دقاق ٢٢٣ ، ٢٢٤
 شمسفرام الثاني ٣١٨ ، ٣٥٢
 شمسفرام = سمسفراموس ٣١٨
 الشميلات ٢٨٦
 شميميس ٢٨٤
 شهاب الدين الحارمي ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٧٤
 شهاب الدين محمود ١٦٧ ، ٢٤٤
 شهاب الدين محمود بن طفتكين ٣٢٤
 شهاب الدين يوسف ١٦١
 الشوايا ٢٨٦

شوفه ٦ ، ٢٥٣ ، ٣٣٩
 الشويرتان ٢٠٢
 الشيخ بشر ٢٥٠
 شيخ الربوة شمس الدين محمد الدمشقي ٦٢ ، ١٠٢ ، ١١٧ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٥٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦٢ ، ٣٣٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٢ ، ٣٦٩
 الشيخ سويدان القدموسي ٢٧٩
 الشيخ عبد الله ٣٦٥
 شيخان ٢١٦
 شيركوه ٢٨٣ ، ٢٨٤
 شيركوه الأول - عم صلاح الدين الأيوبي ٢٧٢
 الشيزري ١٧٠
 شيشرون ٣٢ ، ٤٣
 « ص »
 الصابوني ٢١ ح ، ٢٢ ح
 الصالح أيوب ٢٨٤
 صالح بن علي بن عبد الله بن العباس ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٦٨
 صالح بن مرداس الكلبي - أسد الدولة ١٤٥ ح ، ١٥٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٤٠ ، ٢٢٣
 صالح المسرب ٢٥٧
 صالحة خاتون ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨
 صارم الدين ابن الشيباني ٦٢
 الصحابة ١٨٨
 صقال طوتان ٤٨
 صلاح الدين الأيوبي - انظر السلطان
 صلاح الدين الأيوبي
 صلاح الدين بن بهلوان بن شمس الدين الأكربي
 الأمدي ٣٧٦
 الصلاحيون - ملوك حلب ١١٢
 الصليبيون (جمع صلي) ٣٥٧

- الصليبيون ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ،
٦١ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ،
٧٧ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٤ ،
١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤١ ،
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،
١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٢٧ ،
٢٤٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٣٢٣ ،
٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ،
٣٣٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠ ،
الصباطية ١٥٥ ، ٢٠٢ ،
صهيم ٣١٨ ،
الصوابية ٢٠٣ ،
« ض »
ضنى بشر ٢٨٦ ،
ضنى عبيد ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
ضنى ماجد ٢٨٦ ،
ضنى مسلم ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
« ط »
الطائفة المارونية = الموارنة ١٧١ ، ٣٦٣ ،
طانكرد ٣١١ ،
الطبري ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٣٤٤ ،
طراد الملحم ٣٥٥ ،
الطريقة البكتاشية ١٥ ،
الطريقة المولوية ١٠٤ ،
الطريقة النقشبندية ٣٤٢ ،
الطعمة ٢٨٨ ،
طغتكين ٢٤٠ ، ٢٧١ ، ٣٢٤ ،
طغتكين بن أيوب ٢٨٧ ح ،
طوروس الثاني ٣٣ ،
الطوقان ١٨٠ ، ٢٠٢ ،
الطولونيون ٩٦ ،
طويحيني ١٨٠ ،
الطويلع ٣٥٧ ،
طبيء ٢٠١ ، ٢١١ ، ٢٧٣ ،
طبياريوس كلوديوس صوصاندوس ٨٤ ، ٩٠ ،
طيفور بن عيسى - انظر أبا يزيد البسطامي
« ظ »
الظاهر بيبرس - انظر الملك الظاهر بيبرس
الظاهر - الخليفة الفاطمي ١٤٦ ،
الظاهر غازي ٢٨٤ ،
العادل زين الدين كتبغا ٢٤٢ ،
العباس بن المأمون ٢١٩ ،
العباسيون ٢٥ ح ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٥٩ ، ٩٦ ، ١٤٥ ،
١٧٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
٢٤٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٩٢ ،
٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦ ، ٣٥٣ ،
العبادات ٢٨٧ ،
عبد الله الأنصاري - الصحابي ١٧٤ ،
عبد الله باشا المعظم ٣٠٦ ،
عبد الله بن بشير المازني ٣١٠ ،
عبد الله بن الزبير ٣٢٠ ،
عبد الله بن صالح ٢٤٩ ،
عبد الله بن صالح العباسي الهاشمي ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
٢٦٩ ،
عبد الله بن طاهر بن الحسين ١٨٩ ،
عبد الله بن عبيد السلمي ٢٦٨ ،
عبد الله بن علي بن عباس ٢١٩ ، ٢٦٨ ، ٣٢١ ،
عبد الله بن عمار بن ياسر الصحابي ١٨٨ ،
عبد الله بن عمر بن الخطاب ٣٣٢ ، ٣٤٧ ،
عبد الله بن مسعود ٣٤٨ ،
عبد الله بن ميهون القداح ٢٦٩ ،
عبد الله الحفاجي ٣٧١ ،
عبد الرحمن بن جعفر الطيار ٣٤٨ ،
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،
٢٤٧ ،

- عبد الرحمن بن عوف ٣٤٨ ، ٣٤٩
عبد الرحمن العمادي ٢٩ ح
عبد الرزاق الجندي ٣١٥
عبد السلام المرعشي ١٣
عبد الصمد بن سعيد الحمصي ٣١٠ ، ٣٣٨ ، ٣٥٤
عبد العزيز الغفاري ٣٤٨
عبد الغني النابلسي ٣٧٩
عبد القادر الكيلاني ١٥ ، ٢١ ، ١٢٧
عبد المجيد آغا سويدان ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧١
عبد الملك ١٤٧
عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٦٩
عبد الملك بن علي العباسي ٢٦٨
عبد الملك بن مروان - الخليفة ٤٤ ، ٩٦ ، ٢٣٨
عبد الملك بن المقدم ١٩٣
العبد ٢٨٧
العبدلة ٢٨٦ ، ٢٨٧
عبدو آغا سويدان ٣٦٥
عبد الوهاب السلمي ٢٦٧
العبرانيون ٣١٧
عبيد بن بشر ٢٨٦
عبيد الله بن قيس الرقيات ١٥٦ ، ٢٨٦
عبيد الله بن محمد الحبيب ٢٧٠
عبيد الله المهدي ٢٧٠ ، ٢٧٣
العتيق ٣٥٧
عثمان باشا ٣٢٧
عثمان بن خرداذ ١٠٣
عثمان بن عفان ١٨ ، ٣٤١
المثانيون ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ ح ، ٢٥ ، ٣٥ ، ١٠٠ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧
المعاجرة ٢٨٦
المعجم ٤٩
العدنانية ٢٨٨
العدوان ٣٥٧
عدي بن الرقاع ٢٠٨
عذراء ١٤٥
العرار ٢٠٣
العرب ٥ ، ٢٣ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٨٨ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ح ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٤٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥
عربان الديرة ٢٠١
العرفة ٢٨٧
عز الدين إبراهيم بن المقدم ١٤٧ ، ١٩٣ ، ٢٢٠
عز الدين أبو العساكر سلطان ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١
عز الدين مسعود ١٦١ ، ٢٤٠
العزير ١٩٢
العزير عثمان بن السلطان صلاح الدين ٢٨٧
العزير ٢٦٨
عشروت ٣١٧
عصام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى الشهير بطاشكو بري زادة ٢٢ ح ، ٢٣ ح
المصيبات ٢١٦
عطا الله بن رباح ١٨٢

- العقيدات ٦٧ ، ٢٠٠ ، ٢٨٨ ، ٣٥٧
عقيل بن أبي طالب ٢١٤ ، ٢٢٨
عقيل المنبجي ٢١٨
العكارشة ٢٨٨
عكاشة ٣٤٨
علاء الدين الطنبغا ٣٩
العلقاوين ٣٥٧
علي باشا الأرنؤوط ٢١ ح
علي باشا الجانبولاد ١٩
علي بن أبي طالب ١٨٨ ، ٣٢٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦
علي بن حرمل - أبو الحسن ٢٨٢
علي بن عباس ٢١٩
علي بن عبد الله بن عباس ٢٤٩
علي بن قریش - مؤيد الدولة ١٥٨
علي بن مرشد ١٦١
علي بن مقلد = أبي الحسن سديد الملك ١٥٧ ، ١٥٨
علي بن منقذ الكناني - أبو الحسن ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٨
العليان ٢٨٨
العلوي ٣٥٧
عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن أحمد
المشطوب ٢٢١
عماد الدين زنكي ٧٤ ، ٩٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٨٠ ، ١٩٢ ، ٢١٥ ، ٢٤٠ ، ٢٧١ ، ٣٠٩ ، ٣٢٤
عمار بن بشر ٢٨٦
العمارات ٢٨٦
العائلة ٢٣٧ ، ٣١٦
العمارة ١٤٢
عمر أبو حفص العتيكي ١٠٣
عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٥٩ ح
عمر بن عبد العزيز - الخليفة الأموي ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٣٤٩
- عمر بن الورد ١٩٦
عمرو بن كلثوم ٢٩٨ ، ٣٠١
عمليق بن لؤز بن سام ٣١٦
العمور ٣٥٧
العمور الجراح ٢٨٦
عنز بن وائل ٢٨٦
عنزة ٢٠٨ ، ٢٧٦ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧
العنقي ٤٣
العواد ٢٨٧
العون ٢٢٥
عياض بن غم القرشي ٢١٩ ، ٣٣٣
عيسى آغا التركاني ٢٦
عيسى أسعد الخوري ٣٣٦ ، ٣٣٨
عيسى بن مهنا آل الفضل ٢٠١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٢
« غ »
غازان ٢٧٣ ، ٣٢٧
غازان بن أرغون ٣٢٧
غازان - ملك التتر ٢٤٢
الغازي ٢٠٢
الغانم ٢٢٥
الغايب ٢٠٣
الغبين ٢٨٧
الغفري ٣٧٨
الغلاظ ٢٢٥
الغناطسة ٢٠٢ ، ٢١٦
الغنامة ٢٨٧ ، ٢٨٨
الغنائم ٢٢٥ ، ٢٨٨
« ف »
فاطمة بنت رسول الله ﷺ ٢٧٠
الفاطميون ٣٢ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٩٧ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٨٧

- الفينيقيون ٣٢، ٣٧، ٤٨، ٣١٠، ٣١٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ١٨٠ ، ١٥٧ ، ٣٨٨
 فسان برشم ٨٢ ، ١٠٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ٢٥٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٨
 فخر الدين بن الزعفراني ٢٧٢
 فخر الدين المعني ٢٧٦
 الفدعان ٢٠٨ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧
 الفراعنة ٣٠ ، ١٥٦ ، ٢٣٨ ، ٣١٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠
 الفرثيون ٨٩
 فرجون - الإله ٣٣٧
 الفردون ٢١٦
 الفرس ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٨٩ ح ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٨ ، ٢٦٧ ، ٣١٧ ، ٣٤٧
 الفرسان الاستباريين ٤٤ ح ، ١٦٩ ، ٢٤٤ ، ٣٢٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤
 فرسان مار يوحنا - انظر الفرسان الاستباريون
 الفرسان الهيكليين ٤٤ ، ٤٥
 الفرنج - انظر الإفرنج
 الفرنسيون - انظر الإفرنسيون
 فريكت ٢٣٨ ح
 فضل بن عيسى ٢٧٤
 الفضل بن قارن الطبري ٣٥٣
 الفقرا ٣٥٥
 الفقير ٢٠٢
 الفواعة ٢٨٧ ، ٢٥٧
 فولناي ١٠٤ ، ٢٥١
 فون أوبنهايم ٢٩٥
 فياض آل عيسى ٢٧٥
 الفياضي ٢٠٣
 الفيروز آبادي ٢١١
 فيروز الأرمني ٩٨ ، ١٠٩
 فيليب - والد الاسكندر المقدوني ١٤٤
 القاضى أبو يعلى المعري ١٢٨
 القاضى جمال الدين بن واصل ١٨٧
 القاضى عيد الصمد بن سعيد ٧
 قانصو الغوري ٧٨
 القبارطاي ٢٠٩ ، ٢٢٥
 القيقول ٢٦
 القبيعات ٦٧ ، ١٢١
 القحطانية ١٨٨ ، ٢٠١
 القديس بطرس ١١١
 القديس ثاودروس ٢٧٧
 القديس جروم ١٧٦
 القديس جورج ١٠٨
 القديس يوحنا في الذهب ٩٢ ، ١٠٣ ، ١١٣
 القرآن الكريم ١٠٢
 قراجة ٣٢٤
 القراحلة ١٤٢
 قراسنقر الجوكندار ٢٤٢
 القرشاي ٢٢٦
 قراقوش ١٤٧
 قرعويه ١٥٧ ، ١٩٠ ، ٣٢٢ ، ٣٦٥
 قرق خان ٥٧
 قره كيج ٢١٦
 قزيش ٢٢٣ ، ٢٨٨
 قسام الحارثي ٣٨٨
 قسطنطين ٩٤
 قطب الدين ينال بن حسان ٢٢٠
 قطلوشاه ٣٢٧
 القلقشندي ٢٣ ، ٤٥ ، ٦٤ ، ٩٩ ، ١١٧ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ح ، ١٨٨ ، ١٩٤ ، ٢٠١

- ٢١٠، ٢٤٨، ٢٨٨، ٢٩٨، ٣٣٣، ٣٣٤،
٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٣، ٣٦٥
قص طرابلس ١٢٠
قنبر مولى علي بن أبي طالب ٣٣٣
القوصحة ٢٢٦
قونسطانس ٩٢
قيرخان بن قراجا ٢٤٠
القيصري ١٢٤
القيسيون ٢٣٩، ٢٢١
القياصرة ١٥، ٣٠
القياصرة البيزنطيون ٩٨، ٩٩
القيصر أورلثانوس ٩١
القيصر ثيودوسيوس ٩٢
القيصر فاليريانوس ٩١
القيصر فالنسيوس ١١١
القيصر قسطنطين الكبير ٩٢، ٣١٩
القيصر لثون ٩٤
القيصر تقفور الفقاش البيزنطي ٩٧، ١٠٩
القيصر يوستنيانوس ٩٥، ١٠٩
القيصر يولييانوس ٩٢
القيصرة أوفذوكسيا ٩٤
« ك »
كاتب جلبي ٧، ٢٧٥، ٢٧٦، ٣٣٨
الكاثوليك ٣٥١، ٣٧٠، ٣٨٤، ٣٨٦، ٣٨٧
الكاثوليك الروم ٣٧٨
كامل الغزي ٣٥، ١٠٢
كارنارفون - اللورد ٢٣٢
كوجولا - السائح ٤٩
الكثلكة ٩٣
كثير ٣٩١
كدكان ٢١٦
كراكلا ٩١، ٣١٩
كربوغا - صاحب الموصل ٩٨
الكرج ٢٨
الکرد = انظر الأكراد
كريستوف كولومب ١٤٣
كسرى ٢٢٢
كسفنون - مؤرخ يوناني ٤٨
الكلاعيون ٣١٠
الكلبية ١٤٢
الكلدان - الكلدانيون ٣٢، ٥٢، ٣١٧
الكلكل ٢٠٢
كليام ٢٢٠
كليوباترة ٩٠، ١١٢
الكانو = العانو ٤٣
الكصة ٢٨٧
كندة ١٥٦
الكندوش ٢٠٢
الكنعمانيون ٣١٧
كهلان ٢٠١، ٢٧٣
الكواويس ٢٠٢
كودوفر وادوبومين ١٠٥، ١٣٩
الكولونيل جاكو ٦١
الكيار ٢٠٢، ٢١٦، ٢٨٧، ٢٨٩
كيخسرو - ملك الفرس ٩٥، ٢١٩
كيخسرو الثاني - ملك الفرس ١٤٤
كيريس ٧٢
الكيلانيون ٢٢ ح
كيليوم راي - السائح ١٣٧، ٢١٧، ٢٢٤
كيقباز السلجوقي ٢٤٢، ٢٧٢
كيوان بن عبد الله ٢٧ ح
« ل »
اللاتين ١١٨، ١١٩
لامنس اليسوعي ٣٣٤، ٣٣٨، ٣٥٢

- لاؤديسيا ٨٨
 حلقة الحديد بين ٢٠٢
 حلقة الموالي ٢٠٢
 لطفي الحفار ٣٩٢
 اللهيب ١٨٢، ٢٠٣، ٢٨٧، ٢٨٩
 لوذ بن سام ٢٣٧، ٣١٦، ٣١٧
 اللوذيون - انظر الروثانيون
 لوسيان - المؤرخ ٢١٨، ٢٢٣
 لؤلؤ السيفي ١٩٠
 لؤلؤ صاحب ابن طولون ٣٦٩، ٣٢١
 لويس شيخو اليسوعي ٢٩٥
 ليون الأول ٢٣
 ليون الثاني ٢٣
 ليون السادس ٣٤
- « م »
- ماراليان ٣٧٠
 ماربطرس وبولس ٣٨٧
 مارتوما ٢٨٧
 مارشربين ٢٨٧
 ماركوس أورليوس - القيصر ٧٢
 مار مارون ٣٦٣
 ماله ٢٩٦ ح
 المأمون - الخليفة ١٨٩، ٢١٩
 مانتو ٣٦١
 المبشرون الدانماركيون ٣٧٨، ٢٨٠
 المتورة ١٤٢
 المتنبي ٦٦، ١٨١، ١٨٢، ٢٢٣، ٢٧١، ٣٦٨، ٣٨٦
 المتوكل - الخليفة ٣٢١، ٣٤٤
 المجادة ٦٧، ١٢١، ٢١٦
 المجاسرا ٢٨٧
 محجم بن مهيد ٢٠٨، ٢٨٦
- مجد الدين أبو بكر ابن الداية ٨٠، ١٦١
 مجد الدين أبو سلامة مرشد ١٥٩، ١٦١
 مجير الدين أرتق بن محمد بن يوري بن الأتابك
 طفتكين ٣٩١
 المحارزة ١٤٢
 المحيي ١٢، ١٣، ١٩ ح، ٢٦ ح، ٢٧ ح، ٢٩ ح،
 ١٥١ ح، ٢٥١، ٢٨٥
 المحلف ٢٨٦
 محمد الأمين بن الرشيد ٣٦
 محمد أمين الطويل ٢٧٧
 محمد باشا ٣٢٨
 محمد باشا الأرناؤوطي ٢٠ ح، ٢١ ح، ٢٢
 محمد باشا البيقلي ١٨
 محمد باشا الصموقلي ١٥
 محمد باشا الكوبرلي ١١٩، ١٣٢، ٣٧٨
 محمد بن أبي الساج ٣٩٠
 محمد بن الباشا عبد الكريم ٢٨٨
 محمد بن تمام السلفاني ٢٦٨
 محمد بن جمعة المقار ١٣
 محمد بن الحسن - الإمام ٣٩٢
 محمد بن رائق ٣٢١
 محمد بن سعيد القشيري - أبو علي ٧
 محمد بن طغ - الأخشيد ٣٠٦، ٣٢١
 محمد بن عبيد الله بن الفضل - أبو الحصن
 الكلاعي ٣٣٣
 محمد بن عوف بن سفيان - أبو جعفر الطائي ٣٣٣
 محمد بن عيسى بن مهنا ١٩٤، ٢٧٤، ٢٨٥
 محمد بن قانت بن قاهر بن علي ١٨٣
 محمد بن محمود الناشف ٢٧
 محمد بن منجك باشا ٢٩ ح
 محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن
 إسماعيل ٢٦٩، ٢٧٠

المسلمون ١٨، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨،
 ٤٤، ٤٥، ٤٨، ٥٠، ٥٩، ٦١، ٦٣،
 ٦٥، ٧١، ٧٤، ٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ٨٦،
 ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦،
 ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢٦، ١٣٠،
 ١٣٢، ١٣٣، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٧،
 ١٦٠، ١٧٦، ١٧٧، ١٨٢، ١٩١، ١٩٤،
 ٢٠٦، ٢١٣، ٢١٩، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٤،
 ٢٤٩، ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٤، ٣٠٩،
 ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٧،
 ٣٤٤، ٣٥١، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٧،
 ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٨،
 ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٥،
 ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩٠، ٣٩٢،
 مسنيل دوبويسون ١٩٧، ١٩٨،
 المسيح ١٨، ٣٧، ٩٣، ٩٤، ١٣١، ٣١٧، ٣٥٣،
 ٣٦١،
 المشافرة ٢٠٢،
 المشافرة الرعية ٢٨٩، ٣٥٧،
 المشاهدة ٣٥٧،
 المصريون ٦٥، ٣١٧، ٣٢٨،
 مصطفى باشا المستاري ١٩ ح،
 مصطفى جلي بن قاسم آغا ٢٥، ٣٦،
 مصعب بن الزبير ٤٤،
 المضخى ٢٠٣،
 المظفر ١٩٣،
 المظفر تقي الدين عمر ١٩٢،
 المظفر شادي ٢٤٢،
 المظفر عمر ٢٥٦،
 المظفر قطز ١٩٣، ٢٤٢،
 المظفر محمد ٢٤١، ٢٤٢، ٢٧٢،
 المعاجير ٣٥٧،

محمد الخرفان - الأمير ١٩٨، ٢٠٣،
 محمد الخرفان الثاني ٢٠٣،
 محمد سليمان المصري ٣٤٧،
 محمد الشبلي ٣٥٧،
 محمد كراي ٢٢،
 محمد الكرد علي ٢٥ ح، ٣٥، ١٢٦،
 محمود بن قراجا ١٤٧،
 محمود بن قيرخان بن قراجا ٢٤٠،
 محمود بن نصر بن مرداس ١٨٠، ١٩٥، ٢١٩،
 مداهيش ١٢٠، ١٨٠،
 مدحت باشا ٣٢٨،
 مدليج آل أبي ريشة ٢٧٦،
 مراد جلي ١٨٣،
 المرادي ٣١٥،
 المراسة ٢٠٢،
 مرتضى باشا الكرجي - السلحدار ١٢، ١٣، ١٤،
 ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٤، ٢٥، ٢٦ ح، ٣٩٢،
 مروان بن الحكم ٣١٠، ٣٢٠،
 مروان بن محمد - الخليفة الأموي ٢١٩، ٢٦٨،
 ٣٢٠، ٣٢١،
 المروانية ٣٩٠،
 مريم العذراء ٣٦٢،
 المزدقاني - الوزير ٢٧٤،
 مزود بن كعيشيش ٢٨٦،
 المساربة ٢٨٧، ٣٥٧،
 المساليخ ٢٨٧، ٣٥٧،
 المستعين - الخليفة ٣٢١،
 مسعود آل سويدان ٣٦٥،
 المسعودي ٣٢٣،
 المسكة ٢٨٧،
 مسلم بن عتر ٢٨٦،
 مسلم بن قريش العقيلي = شرف الدولة ١٥٨،
 مسالة بن عبد الملك ٦٩،

معاذ بن وائل ٢٨٦	الملك الظاهر غازي الأيوبي ٧٧، ٨١، ١٤٧،
المعاطة ٢٠٢	١٥١، ١٦١، ١٩٣، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢،
معاوية بن أبي سفيان ٩٦، ٣٣٢، ٣٦٧	٢٣٣، ٢٣٦، ٢٤١، ٣٢٥
المعتصم - الخليفة ٢١٩	الملك الظاهر جقمق الشركسي ١١٩
المعتد ٢٦٩	الملك الظاهر يوسف الأيوبي ١٣٩
معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس ١٩١	الملك العادل ١٩٢، ١٩٣، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٤١
المعظم ١٩٢	الملك العادل كتبغا ٢٧٤، ٣٦٢
المعظم بن العادل ١٩٣	الملك العزيز ١٨٥، ٢٤٢
المعظم تورانشاه بن صلاح الدين ٢٢١	الملك العزيز - صاحب اليمن ٣٨٨
المعظم توران شاه عم الملك العزيز ٦١	الملك العزيز محمد ١٦٦، ١٧٠، ٣٣٦
القدس ٣٣٢، ٣٣٨	الملك العزيز بن الملك الظاهر بن الملك الناصر
المقدونيون ٣٣، ٥٩	يوسف بن أيوب ٢٣٢
المقري الفيومي ٢٨٥ ح	الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي ١٦١
مقلد بن نصر بن منقذ الكناني = أبي المتوج ١٥٧	الملك قانصو الغوري ١٧
المكتفي - الخليفة ١٩٠، ١٩٧، ٢٣٩، ٢٧٠، ٢٧٣	الملك الكامل ١٩٣، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٧٢، ٢٨١،
مكرينوس ٩١، ٣١٩	٢٨٣، ٢٩٣
الملايطي ١٤٥	الملك المجاهد شيركوه ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٩
ملك أحمد باشا ١١	الملك المظفر ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤
الملك الأشرف شعبان ٣٤، ٧٤	الملك المظفر بن الملك المنصور ١٨٥
الملك الأشرف قايتباي ١٩٨، ٣٦٥	الملك المظفر التقوي الأيوبي ١٢٦
الملك الأفضل محمد بن أبي الفداء ٢٤٣	الملك المظفر تقي الدين عمر ٢٢٠، ٢٤١، ٢٧٢
الملك ديمتريوس الثاني ٨٩	الملك المظفر قطز ٢٧٣، ٣٢٦
ملكشاه بن ألب أرسلان - السلجوقي ١٤٦، ١٥٩	الملك المظفر محمود ١٧٠، ١٧٢، ٣١٠
الملك شيركوه ٢٨١	الملك المعظم ٣٨٨
الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ٨١، ٢٤١،	الملك المعظم عيسى ٢٤١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٩٣،
٣٢٥، ٣٢٤	ح ٢٨٨
الملك الصالح أيوب ٣٢٥	الملك المنصور ٩٩، ٢٤٧، ٢٧٣
الملك الظاهر ١٠٠، ١٠٢، ١٣٣، ٣٦١، ٣٧٦	الملك المنصور إبراهيم ٣٤٠
الملك الظاهر برقوق ١٦٢	الملك المنصور بن الملك الظاهر - تقي الدين عمر
الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ٣٤، ٤٥، ٦١،	ح ٢٥٤
٦٦، ٦٧، ٩٨، ٩٩، ١١٣، ١٤٨، ١٦٢،	الملك المنصور بن الملك المظفر ٢٢٠
١٦٦، ١٧٠، ٢٤٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨٤،	الملك المنصور قلاوون ١٤٨، ١٦٢، ١٦٥،
٣٤٥، ٣٦٤، ٣٧٠، ٣٧٥	١٧٠، ٢٨٤، ٣٢٦

- الملك المنصور محمد ٢٤٢
الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر
محمود التقوي الأيوبي ٤٥ ، ١٨٣ ، ٢٤١
الملك الناصر ٢٩٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧
الملك الناصر داود ١٣٩
الملك الناصر محمد بن قلاوون ١٣٧ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣
الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن
الملك الظاهر غازي بن أيوب ٧٨ ،
١٥١ ، ٣٣٦ ، ٢٨٤
الملك المؤيد أبي الفداء ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٤٧ ،
٢٤٩ ، ٣٦٨
الملك المؤيد شيخ ٣٤٤
الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل
٢٤٢ ، ٢٤٣
ملوك آشور ٢٣٨
ملوك حماء التقويين ٢٧٢
ملوك حص الأسديين ٢٧٢
ملوك الطوائف ٢٢١
الملية - عشيرة ٣١٣
الماليسك ٣١ ، ٣٤ ، ٥٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٣٩ ،
١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٨ ،
٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ،
٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٣٧٥
مميا بنت جوليا ميزا ٣١٩
منجوتكين ٦٦ ، ٧١ ، ٩٧ ، ١٤٥ ، ١٥٧
منزلة حصيا ٣٦٥
المنصور ١٩٣ ، ٣٢٦
المنصور إبراهيم ٢٨٤ ، ٣٢٥ ، ٣٤٩
المنصور - الخليفة ١٧٧
المنصور أبو بكر بن محمد بن قلاوون ٢٤٢ ، ٢٤٣
منصور بن قراديس ١٥٧
المنصور بن المظفر ١٩٣
- المنصور ناصر الدين محمد ١٩٢ ، ٢٧٢
منطاش ١٦٢
منكوتر بن هولكو ٣٢٦
المهالبة ١٤٢
المهدي ٣٦
المهدي - الخليفة ٢٥٦ ، ٢٦٨
مهنا آل الفضل ١٩٣ ، ٢٧٣
مهنا بن عيسى ١٩٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٩٣
المهيد ٢٨٦
الموالي ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ،
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٤٣ ، ٢٧٥ ،
٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ،
٢٩٥ ، ٣٥٧
المواهب ٢٨٧
المواجعة ٢٨٧
مودود - صاحب الموصل ٢٧١
مودود بن عماد الدين زكي ١٨٠
موردقان ٢٩٥
موريس باريس ١٠٤ ، ٢٥٣
موريس بيزار ٣٦٠
موريق ٢٣٨
موريقان ٢٣٨
موسى آغا التركاني ٢٦
موسيل - ملك الحث ٣٦١
الموفق الهاشمي ٢٦٩
المولوية ٣٤٨
موفارشة ٦ ، ٢٥٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٣٩ ،
٣٦٢
ميخائيل البرجي ٩٧
الميسر باركر ١١٣
ميسرة بن مسروق العيسى ٥٩
ميسون بنت بحدل ٣٧٢
ميشو ١٩١

« ن »

النايفة الجمدي ٢١١
 الناصر ١٩٣ ، ٢٨٨
 ناصر خسرو الفارسي ١٨٧ ، ١٨٩
 ناصر الدولة بن حمدان ١٨٠
 الناصر قليج أرسلان ١٩٣ ، ٢٤١ ، ٢٧٢
 ناصر الدين محمد ٣٢٤
 ناظم باشا ٣٤٥
 ناظم بك - متصرف حماة ٢٧٨
 ناقوغاي ٢٢٥
 النبي عيص ١٧٥
 النبي متى ٢٢١
 النبي موسى ٣٥٥
 النجاجير ٣٥٧
 نجم - غلام الصفواني ٢٣٢
 نجم الدين أبو العباس أحمد بن صصرى التغلبي
 الدمشقي ٣٧٠ ، ٣٧١ ح
 نجم الدين إيلغازي ٧١ ، ٧٤ ، ٩٨ ، ١٢٠ ، ١٣٥ ،
 ١٩١
 نجيب السباعي ٣٤٤
 النصراني = النصرانية ١٨ ، ٣٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٧٠ ،
 ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٠ ،
 ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ،
 ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٨ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ،
 ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ،
 ٣٧٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨١
 نصر بن شبت العقيلي ١٨٩
 نصر بن علي بن منقذ الكناني ١٤٦
 نصر بن علي - عز الدولة أبو مرهف ١٥٩
 نصوح باشا ١٦
 نصوح باشا بن أسعد باشا ٢٥٤ ح
 النعمان ١٨٩

النعمان بن بشير الصحابي ١٨٨ ، ٢٦٧ ، ٣١٠ ،
 ٣٢٠

نعير بن جبار ١٦٢
 النعيم ١٢١ ، ٢٨٧ ، ٣٥٧
 النعيمات ٢٠٢
 تقفور الفقاش - قيصر الروم ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٤٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٩٠ ، ٣٢٢
 النواصرة ١٤٢
 نواف الصالح ١٨٠
 نوتوخاج ٢٢٥
 النوري بن شعلان ٢٨٧
 نور الدين محمود زنكي - الشهيد ٣٤ ، ٦٦ ، ٧١ ،
 ٧٧ ، ٨٠ ، ٩٨ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
 ١٢٦ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ،
 ١٧٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ ،
 ٢٧٢ ، ٣٢٤ ، ٣٤٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧٦ ، ٣٩١
 نيكوفور فوكاس - القيصر ٦١

« هـ »

هاداد ٢١٨
 هارتان - عالم أثري ٢٨١ ، ٢٨٣
 هارون الرشيد - الخليفة ٣٦ ، ٤٨ ، ١٧٦ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٠ ، ٣٢١
 هاشم بن ناجية السلمي - أبي ثور ٢٦٧
 الهاشميون ٢٧٣ ، ٢٨٢
 هايكوس - جد الأرمن ٣٢
 هرتان ٢٩٥
 هرزفيلد ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩
 المرطقة ٩٣
 هرقل - الأمبراطور قيصر الروم ٤٤ ، ٣١٩
 هرقليوس ٥٩
 هرودتس - مؤرخ يوناني ٤٨
 الهروي ٢٤٧

١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
 ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ،
 ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٨ ،
 ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ،
 ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ،
 ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ،

٣٩٢

يحيى بن خالد القيسراني ١٦١

اليرلية ٢٦

يزيد بن معاوية ١٧٦ ، ٣٢٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢ ،

٣٨٠

يزيد الثالث بن الوليد ٣٢٠

اليسوعيون ٣٤٨ ، ٣٧٩

يشبك الداودادار - الأمير ٣٦٥

اليقوي ١٤٥ ، ١٥٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٣٢٩ ، ٣٨٣ ،

اليانيون ٢٢٩ ، ٣٢١

ينكجرية ٣١٥

اليهود ٥٢ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٤ ،

٢١٥ ، ٢٧٠

يوحنا ذي مسكي الشام ٣٣٧

يوزر ١٠٤

يوستينانوس - الإمبراطور قيصر الروم ١٠٨ ،

١١١ ، ١٧٦ ، ٢١٩ ، ٢٣٨ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،

٢٨٦

يوسف بن الداية ٢٤٢

يوشع بن نون ١٨٨

اليوكابال ٩١ ، ٣١٩ ، ٣٣٧

يوليانوس - القيصر ٢١٩

يوليوس قيصر ٩٠

هشام بن عبد الملك بن مروان ٣٨٣

هليوبوليس ٣١٨

الهنادرة ٣٥٧

الهنادي ١٢١ ، ٢١٦ ، ٢٢٥

الهنود ٧٩

هولاكو ٨١ ، ١١٧ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،

٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤ ، ٢٢٥

الهويدين ٣٥٧

هيرودتس الكبير ٩٠

« و »

الوائق - الخليفة العباسي ٤٨ ، ٥١

واد نيكتون ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٥٢

وائل ١٢٨

وبرتون ٢٢٨ ح

الوترة ١٨٧

الوثنية - الوثنيون ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٢٥٨ ،

٣٨٤

الولد ٢٨٦

الولد علي ٢٠٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩

الولد بن عبد الملك ٢٠٨ ، ٢٠٩

الولد الثاني بن يزيد ٣٢٠

الوهايون ٢٧٦

الوهب ٢١٦ ، ٢٨٩

« ي »

ياغيسيان بن محمد بن آلب أرسلان السلجوقي ٩٨

ياقوت الحموي ٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ،

٤١ ، ٤٤ ، ٥٥ ح ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ،

٧٣ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،

١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤١ ،

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ،

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،

اليونان - اليونانيون ٣٢ ، ٤٨ ، ٦٥ ، ٨٩ ،
اليونانيون المقدونيون ٨٨ ، ١١٢ ، ١٥٦ ، ٢١٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ ،
يونس - النبي ٤٨ ٣٣٤ ، ٣٣٧

٤ - مسرد الأماكن

أبلين ١٢٨	« أ »
ابن أوى = جقال تبة ٦٦	أبل ٣٨٦
أبو أمامة ٢٢٥ ، ٣١٤	أجي جاي = النهر المر ١٦
أبو جبيلات ٢٧٩ ح ، ٢٩٠	الأخان ٦٤
أبو جرين ٢٠٧	أذنة ٨ ، ١٤ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
أبو حقفة الشمالية ٣١٤	٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٧٧ ، ٧٨
أبو حقفة القبلية ٣١٤	أراتوسة - انظر الرستن
أبو حنايا ٢٩٠	أراتوزيا - انظر الرستن
أبو حية ٢٠٢ ، ٢٩٠	أسية ٤٣ ، ٨٨ ، ٩٣
أبو خنادق ٢٩٧	أسية الصغرى ٣٣ ، ٨٨ ، ٨٩
أبو دالي ٢٠٢ ، ٢٩٠ ، ٣٦٨	أشميشك ٤٣
أبو دريخة ٢٠٧	أطمة ٧٢
أبودية ٢٨٢	أفز ١٧٤
أبو رجين ٢٩٠	أقسرائي ٦٦
أبو رمال ٢٩٠	أق شهر ١٤
أبو شرجي ٢٠٢	آلاي بكلي ٦٧ ، ٦٩
أبو طلطل ٢١٤	أمانوس - انظر جبل اللكام
أبو الظهور ١٧٩	أمد = ديار بكر ٢٧٢ ، ٣٧٢
أبو عبيدة ١٨٩	أنب ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٦
أبو عجوة ٢٩٥ ، ٢٩٧	أنتي طوروس = طوروس المناوح ٣١
أبو عمر ٢٠٢	أنتيغونيا ٨٨
أبو فرج ٣٧٠	آياس ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠
أبو قبيس ١٦١ ، ٢٤٩	آيا صوفيا ١١
أبو القدور ٢٠٤	أباد ١٨١
أبو قلقل ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧	إبل - قرية ٣٥٨
أبو قوس ٣٨٢	إبلستين = البستان ٣١

أبو قيس ٢٧٤	أسكدار ١٤
الأبيض ٢٩٠	الأسكندرونة = ميرياندروس ٨ ، ١٦ ، ١٧ ،
ايفانيا - انظر حاة	٣٥ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ،
الأثارب ٧٤ ، ١٥٧ ، ٢٢٠	٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ،
إحسم ١٢٧ ، ١٢٩	٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ،
أحدية ٣١١	١٠٦ ، ١١٣ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٧٣ ،
إدلب ٧٤ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ،	الاسكندرية ٣٧ ، ٤١ ، ١٠٤ ، ٢٣٥ ، ٣٤٩ ،
١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٧٣ ،	أسكي شهر ١٤
١٧٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٨٩ ، ٣١٣ ،	أسواق حلب ٢١
٣٣٩ ح ، ٣٧٨	أسواق حاة ٢١ ، ٢٥٥
الأربعين خان - انظر قرق خان	أسواق حص ٢٥٥
أرتاح ٦١ ، ٧٠ ، ٩٩	أسواق دمشق ٢٥٥
أرجل ١٨٢	أشبيلية ٣٣٢
الأردن ١٤٦	أشترق ١١٩ ، ١٣٥
الأردو ١٠٥ ، ١١٥ ، ١١٦	أشقر بكلي ٥٦
أرزة ١٧٢	اصطبل عنتر ٢٠٤
أرض الروم ٢٩ ح	أصفهان ٢٧٠
أرض العشر ١٧٢	أصلان بوغاز - انظر مضيق باغجة
أرض الفيض ١٧٤	أعجاز ٢٠٢ ، ٢٠٣
أرك ٣٦٨ ، ٣٧٠	أعزاز ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٩ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ٣١١ ،
أركلي ١٤	أعمدة يونس ٤٨
أرمناز ٨٣ ، ٨٤ ، ١٢٣	أفاميا - أفامية = قلعة المضيق ٨٨ ، ٨٩ ،
أرمية ٢٤	٩٠ ح ، ٩٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
أرمينية الصغرى ٣٣ ، ٣٥	١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،
أرمينية الكبرى ٣٣ ، ٣٥	١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
أرواد ٣١٠	١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
أروح ١٩٠	١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
أريحا القدس ١٢٧	٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٨٩ ، ٣٠٥ ،
أزنيق ١٤	أفريقية ٩٣ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٧٠ ،
استانبول ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ١٠٦ ، ١٣٥ ،	أفلاطنس ١٤١
أستري ١٤١	أفيون ٢٤٢
أسرية ٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٣٠٢	أكراد إبراهيم ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ،
أسفونا ١٩٦	أكراد الدياسة ٣١٣

٥٦ ، ٧١ ، ٩٠ ح ، ٢٢٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ،

٣١٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤٩

الأناضول الشرقي ٥٠

الأنسرين ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ،

٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٥ ،

٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،

الأندلس = البلاد الأندلسية ١٧٥ ، ١٨٨ ، ٣٣٢ ،

الأنصاري - مجلب ١٧٤

أنطاكية ٧ ، ٨ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ،

٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ،

٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ،

٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ،

٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،

١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،

١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ،

١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،

١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧١ ، ١٧٦ ،

١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،

٢٤٠ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٤١

أنقرة ١٠٦

أنكزيك ١١٩ ، ١٢٢

إنكلترة ٢٢٦ ، ٢٧٩

الأهواز ٢٧٠

أورم الجوز ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩

أوزم الصغرى ٧٤ ، ١٣٤ ، ١٧٣

أورم الكبرى ٧٤ ، ١٧٣

أوروب ١٢ ، ٣٤ ، ٩٣ ، ١٠٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٩

أوريثليم ٣٢٩

أولو قيشلة ١٤

ألاي بكلي ٣٠٦

الماداغ - انظر جبل التفاح

ألمانيا ١١

أمريكا ٣٧٤

أمريكا الجنوبية ٣٥١

إمسا ٣١٦

أم التين ٣٥٧

أم جرن ٢١٠ ، ٢٦٣

أم جلال ٢٠٢

أم حارتين ٣٥٧

أم خريزة ٢٧٩ ح

أم خلاخيل ٢٠٢

أم الرجم ١٧٣ ، ٢٠٢

أم الرمان ٣١١

أم شرشوح ٣٠٨ ، ٣١٥

أم شكيف ٢١٧

أم الطيور ٣٠٧

أم الطيون ١٧٢

أم عتبة - قرية ١٨١

أم عدسة ٢١٧

أم العظام ٣٠٧

أم العمد ٣١٤

أم عمود ٢٠٧

أم العنز ٣٠٧

أم قبيبة ٢٩١

أم القراميل ١٧٩

أم القصب ٣٠٧

أم محناية ٣٠٩

أم مويلات ٢٠٤

أم هلاهيل ٢٠٤

الأناضول ١١ ، ١٤ ، ٢٣ ح ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ،

باب الخضر - بأنطاكية ١٠٨
 باب التدريب - بمحص ٣٣٩ ح ، ٣٤٩
 باب دمشق - بأنطاكية ١٨
 باب دوكة - بأنطاكية ١٠٣ ، ١١١
 باب السباع - بمحص ٣٣٩ ح
 باب سورية ٥٦
 باب السوق - بمحص ٣٣٦ ، ٣٣٩ ح ، ٣٤٥ ، ٣٥٦
 باب شيث - بالمعرة ١٨٥
 باب الطاقة ١٤٠
 باب العاصي - بأنطاكية ١٠٣
 باب العميان - بحجة ٢٤٦
 باب الغري - بحجة ٢٤٦
 باب القبطي - بحجة ٢٤٦
 باب القديس بولس - بأنطاكية ٨٦ ، ١١١ ، ١١٢
 باب قنشرين - بحلب ١٨٢
 الباب الكبير - بالمعرة ١٨٥
 باب الكلب - بأنطاكية ١٠٣ ، ١١١
 باب كيليكية - انظر مضيق كولك
 باب المسدود - بمحص ٣٣٩ ح ، ٣٤٠
 باب المضيق ٤٧
 باب المغار - بحجة ٢٤٦
 باب منس - بالمعرة ١٨٥
 باب النبي شيث - بالمعرة ١٨٥
 باب النصر - بحجة ٢٤٦
 باب نصرة - بالمعرة ١٨٥
 باب النقي - بحجة ٢٤٦
 باب النهر - بحجة ٢٤٦ ، ٢٥٤ ح
 باب النيرب - بحلب ٢١٩ ، ٢٦٨
 باب الهوى ٧١ ، ٧٢
 باب هود - بمحص ٣٣٩ ح ، ٣٥٨
 بابا عمرو ٣٥٤ ، ٣٥٨
 بابسقا ٧٢
 بابطرون ١١٦

أونونيكلس ١٠٩
 إيالة طرابلس الشام ٢٠ ، ٢٣
 إيران ١١ ، ٨٩ ح
 إيسوس ٣٢ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٣١٧
 إيكى قبولي ٣٦٥
 إيليجه ٨٦ ، ١١٥
 أيبو ٣٠٣
 « ب »
 الباب ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،
 ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٤٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ،
 ٣١١
 باب اسكندرون ٤٨ ، ٥٦
 باب الأمانيين ٤١
 باب أيلة - بالمعرة ١٨٥
 باب أيلة = بايلا ١٧٤
 باب البستان - بالمعرة ١٨٥
 باب بولس - بأنطاكية ١٠٣
 باب تدمر - بحجة ٢٤٦
 باب تدمر - بمحص ٣٣٩ ح
 باب التركان - بمحص ٣٣٩ ح
 باب الجابية - بدمشق ١٥١ ح
 باب الجسر ٢٥٨
 باب الجسر - بأنطاكية ١١١
 باب الجسر - بحجة ٢٥٥
 باب الجنان ١٩٦
 باب الحديد - بأنطاكية ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١١
 باب حلب - بأنطاكية ١٨
 باب حلب - بالمعرة ١٨٥
 باب حص ١٨٥
 باب حص - بحجة ٢٤٦ ، ٢٤٧
 باب حص - بالمعرة ١٩٠
 باب حناك ١٩٥

بابل ٣٢ ، ٨٨	بحيرة التويني ١٣٩
بابليت ٧٦	بحيرة الجبول ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٦
بابيلا - انظر باب أيلة	بحيرة حمص = بحيرة قادس = بحيرة قادش =
البادية = الحصاد ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،	بحيرة قدس = بحيرة قطينة ٢٨١ ، ٣٠٨ ،
٢٠١ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢٢٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ،	٣١٨ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ،
٢٦٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،	٣٦٠ ، ٣٦٤
٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ،	بحيرة الروج ١٣٩
٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ،	بحيرة الشريعة ١٣٩
٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨	بحيرة الصيقل ٣٨٦
بادية الشام ٣٧٢	بحيرة العتبية ٣٨٦ ، ٣٩٠
البارة ٩٩ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،	بحيرة العمق ١٣٩
١٥٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢	بحيرة الغاب ١٣٩
البارة الكبيرة ١٢٩	بحيرة منبج ٢١٧ ، ٢٢٣
باريس ٢٠٦	بحيرة يفرأ ٦٩ ، ٧٠
باريشا ٨٢	بختنصر ٢٠٦
بارين ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٣٠٧	بخشين ١١٥
بازمرين ١١٥	بحنة ٢٨١ ، ٢٨٤
الباسطية ٢٨٣	بخناصر ٢١١
باقدين ١٨٨	بدا ٣٨٦ ، ٣٩٠
باقوزا ٨٤ ، ٨٥	بداما ١١٩ ، ١٢٢
بالس - انظر مسكنة	بدركة ٥٣ ، ٢٢٥
بانص ١٧٩	بدركة الشرکس ٨٧
بانياس ١٤٢	بدركة العرب ٨٧
بتياس ١١٢ ، ١١٣	بدرهون ١١٥
بتيسة ٣٠٧	براغندي ١٧٩
بحر الروم ٣٦٤	براق ٣٠٣ ، ٣١١
البحر المتوسط ٣١ ، ٣٨ ، ٨٨ ، ٣١٦ ، ٣٧٣	برج الأحمر ٣٧٠
بحيرات خط الاستواء ١٤٣	برج الأختين بأنطاكية ١٠٩ ، ١١٠
بحيرات العمق ٢١٦	برج أسامة ٢٠٨
بحيرة أنطاكية ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٨٢ ،	برج أنطاش ٢٠٨
٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٩	برج عزاوي ٢١٠ ، ٢١١
بحيرة آفامية - بحيرة أفامية - بحيرة فامية ٦٤ ،	برج قعيا ٣٠٧
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ٣٦٤	

برج الماذنة ٦٥	بستان صبيح ٢٩١
برج المدخر ٧٢	بستان القصر - بدمشق ٢٩ ح
برج هاب ١٢٠ ، ١٢٤	بستان كاتوني ٥١
برجيليوس ١٣٦	بسطام ٣٠٦
البردونة ٢٠٤	البسة ٣٦٨
بردى ١٣ ح	بسيرين ٣٠٣
برزة ٣٥٧ ، ٣٩٢	بش أولوق ٥٧
برزوية ٩٩	البشريات - بحجة ٢٥٠
برزية ١٢٠ ، ١٣٧ ، ١٤٧	بشلمون ١٢٣
برس برت ٤٠	بشندلايا ٨٤
برقوم ١٧٩	بشندلنتي ٨٤
البركة ٧١	البصرة ٢٧٠
بركة عم ٧٠	بعريو ١٣٦
برلين ٢٢٦	بعرين ١٤٧ ، ١٧٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ،
برنة ١٨٢	٣٠٩
برنستون ١٣٧ ، ٢٩٥	بعلبك ٧ ، ١٧١ ، ٢٣٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٠ ،
بره ده - قرية ١٧٥ ، ١٨١	٣١٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٥٠ ، ٣٥٧ ،
برى الشرقي ٢٧٩ ح ، ٢٩٠	٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢ ،
برى الغربي ٢٧٩ ح ، ٢٩٠	٣٧٣ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩
برية خساف ١٨٢	بغجة سراي ٢٢
البريج = بريج العطش ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،	بغداد ٢١ ح ، ٣٢ ، ٥٠ ، ١٠١ ، ١٥٨ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
٣٧٢ ، ٣٧٣	٢٤٤ ، ٣٢١ ، ٣٨٥
بريديج ١٥٣	بغراس ٣٩ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ،
البريصا ٣٧٦	٩٧ ، ٩٩ ، ١٢٠
بريصة ٢٠٢	بغلامه ٦٤ ، ٨٧
بريقة ٢٢٥	بغديد ٢٩٨
بريكية ٢٧٩ ح	البقاع ٧ ، ٨٨ ، ١٧٦ ، ٣٠٣ ، ٣٧٨
بزاعة ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧ ، ٢٤٩	البقاع البعلبيكي ٣١١
بزاعة ٢١٣ ، ٢١٤	بقسمته ١٢٤
بساتين ٣١٠	بقطاطس ٣٥٤
بساموس ١٢٧	بكاس ٩١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٤١ ، ١٦٢
بستان الخضر - بحجة ٢٤٧	بكداشلي ٤٣
بستان الدوالك - بحجة ٢٥٥	بكسرائيل ١٦٩

البلقاء = شرقي الأردن ، ٧ ، ٢٢٥ ، ٣١١	بلاد ابن ليون ٥٦
بلقسة ٣٠٧	بلاد الأرمن ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٣٧٦
بللا ١٤٤	بلاد الإسلام ٣٨
بللين ٣٠٧	بلاد الأكراد الشمالية ٣١٢
بلميس ٩٩ ، ١٢٠	البلاد الأندلسية - انظر الأندلس
البلها ٣٦٥	بلاد الترك ٣١ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ١١٨ ، ٢٢٧
بلوزة ٢١٠	بلاد الجزيرة ٣٣٣
بلونة ١٤١	بلاد جند قنسرين ٥٩
بليمون ٧٩	بلاد الروم - انظر الأناضول
بليون ١٢٧	بلاد الروملي ٢٢٦
بنابل ٨٤	بلاد سيسي ٥٦ ، ٦٧
بنان ٢١٠	البلاد الشامية = بلاد الشام - انظر الشام
بندرقنين ١٦٧	بلاد الشرق الأدنى ٢٧٥
بنش ١٣٤	بلاد الشيلي ٣٥١
بنيامين ٧٤ ، ١٧٣	البلاد العثمانية ٣٥ ، ٢٢٦
بني علم ١٩١	بلاد عجلون ٢٦ ح
بودروم قلعة ٤٠	بلاد العجم ٢٤
بور سعيد ١١٣	بلاد العرب ٣٤٧
بوز الخنزير ٢٠٧	بلاد العواصم ٥٩
البوسفور ٣٣	بلاد الغرب ٢١٨ ، ٣٥٠
بوقة ٤٤ ، ٤٥	بلاد الفرس = بلاد فارس ٢١٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤
بولاق ١٥١ ح	بلاد القريم ٢٢
بولونيا ١١	بلاد القفقاس ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
بومي - بإيطاليا ١٢٩	بلاد الكرد ٢٢٧
البويدر ١٨٠ ، ١٨٢	البلاد اللبنانية ٣٦٣
البوير ٣٥٧	بلاد ما بين النهرين ٤٣
البويض ٢٩٤	بلاد المهجر ٣٧٤
البويضا ٣٧٦	بلاد اليونان ٤٣
بويضان ٢٢٥	بلاس ١٧٥ ، ١٨١
البويضة ١٨١	بلاطنس - انظر المهيلبة
بئر أبي الرغوة ٢٩٣	بلاي ٢٢٥
بئر أبي فياض ٢٩٣	بلشون ١٢٧
بئر أبي النيتل ٢٩٣	البلعاس ٢٤٤

بيعة البزنطية - بمص ٣٤٤	بئر أسرية ٢٩٣
بيعة دار قيطا ٧٢	بئر التوينات ٢٩٣
بيعة القديس يوحنا ٣٤٠	بئر جب الرمان ٢٩٣
بيعة قلب الجوزة ٨٤	بئر حجار ٢٩٣
بيعة كفر كيلا ٨٤	بئر حفار الجواد ٢٩٣
بيلان - مدينة وقلعة = الجبل الأحمر ٨، ١٧،	بئر عجم ٢٢٥
٤٠، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩،	بئر عين البيضاء ٢٩٣
٣٢٨، ٣٠٦، ٦٣	بئر القصير ٢٩٣
البيارستان النوري بحلب ١٨٣	بئر قواعد ٢٩٣
بين الحواصل ١٢ ح	بئر الكديم ٢٩٣
البيهة ٣٠٣	بئر مخلف ٢٩٣
	بئر الهبابة ٢٩٣
« ت »	بياس ٨، ١٥، ٣١، ٣٦، ٤١، ٤٤، ٤٥، ٤٧
تاتف = تادف ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٧	البياضة ٣٠٩
تارين ٣٠٧	البياعات ١٧٥
تارين الوعر ٣٥١	البياعية الصغيرة ١٨٢
تجة ٢٠٤	البياعية الكبيرة ١٨٢
التح ٢٠٠	بيانون ٧٨
تسدمر ٧١، ٩١، ٢٠١، ٢٦٧، ٢٩٠، ٢٩٢، ٣٠٥،	بيت رسلان ٣١٠
٣١٦، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٥١،	بيت ساوا ٣٩٢
٣٥٨، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠،	بيت لهيا ٣١٩، ٣٩٢
٣٨٢، ٣٨٥، ٣٨٩	بيت المقدس ٩٨، ٢٦٨
التركانية ٢٩١	بيت النداف - بمص ٣٥٢
ترمانين ٧٢، ٧٣، ٨٢	البيدرين ١٩٦
ترمسان ٣٥٤	بيرة أرمناز ١٢٤
الترميسة ١٣٨، ١٣٨، ١٥٣، ١٦٩،	بيرخلو ٢٣٤
تسنين ٣٠٧، ٣١٥	بيروت ٣٥، ٥١، ٩٣، ١٤٠، ١٥٥، ٢٣٠، ٢٦٣
التفاحة ٢٩٨، ٣٠١	بيرين ٣٠٧، ٣١٠، ٣٢٠
تفتناز ١٣٤، ١٧٢، ١٧٥	بزنطية ٣٣٧
تقسيس ٢٦٣، ٣٠٣	بيسة ٣١٥
تكية عبد القادر الكيلاني = التكية الكيلانية ٢١،	بيشة ٢١٠
٢٢	بيصة ٣١٥
التكية المولوية بمص ٣٤٠	بيصين ٢٠٧

تل الدم - قرية ٢٠٢، ٢٠٣	تلاك ١١٥
تل دو - قرية ٣٠٧	التل ٢٨٧
تل الذهب - قرية ٢٠٤، ٣٠٧، ٣٠٩	تل أرفاد - قرية ٧٨
تل الذيب ١٩٩	تل أعدا - قرية ٢٩٣
تل سحلب ٢٠٧	تل أعور - قرية ١٢٤
تل سكين ٣٠٧	تل الأعز ٣١٤
تل سكين الصاروت ١٧٢	تل بابا عمرو ٢٢٨
تل سكين قاعدة ١٧٢	تل باجر - قرية ١٧٩، ١٨١
تل سلح - قرية ١٣٧، ١٤١، ١٦٩، ٣٠٩، ٣١٢	تل باشر ٣٢٥
تل السلطان - قرية ١٧٩، ١٨٠	تل بطمان ٢١٤
تل سنان - قرية ٢٢٥، ٢٩٣	تل بطنان ٢١٤
تل شامرون الأثري ٨٤	تل التلول ١٥٣، ١٦٩
تل شميمس ٢٨٣	تل التوت - قرية ٢٧٩ ح
تل شميمش ١٩٩	تل تورين ٢١٧
تل الشور - قرية ٣٦٠	تل تيتنا - قرية ٨٤
تل الشيخ ٣٥٨	تل التين - جزيرة ٣٦٠
تل طوقان - قرية ١٧٩، ١٨٠	تل تين - قرية ٢٠٣
تل الطويل ١٦٩	تل جبرائيل ١٠٥
تل عدا - قرية ٢٢٥	تل الجديد - قرية ٢٧٩ ح
تل عدة ٧٢	تل الجسر ١٥٨
تل عرن - قرية ٢٠٦	تل جلفوم ٢٠٧
تل العريضة - بحاة ٢٤٦	تل الجينة ١٧٣
تل عقارب - قرية ١٧٩	تل حاجي باشا ١١٥
تل عقبرين ٧٢، ٧٣	تل حاصل - قرية ٢٠٦
تل علوش - قرية ١٧٩ ح	تل حجر - قرية ٧٨
تل عمارة ١٩٩	تلحرق ٢٠٢
تل العمارنة ٣١٥	تل حلاوة - قرية ١٧٥، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٦٥
تل العمارنة السامرية ١٥٦	تل حمدون ٣٩، ٤٠
تل عمري - قرية ٢٢٥، ٢١٤	تل حو - قرية ٧٦
تل الموجة ١٩٩	تل خزنة - قرية ٢٠٣
تل الفخار - قرية ١٧٩	تل خنزير ١٩٩
تل القراطي ١٩٩	تل دبس ٢٠٠
تل قرطل ٢٠٣	تل الدرة - قرية ٢٦٣، ٢٧٩ ح، ٢٨٠

التويفي ١٤٣	تل القلعة - بحجة ١٥٢، ٢٥٥، ٢٥٦
تيزز ١٧٤	تل قنسرين ١٧٨
تيزين ٦٢، ٧٢، ١٧٢، ١٧٦، ٢٤٩	تل كفراع - قرية ٣٠٧
تيزين العتيقة ٧٢	تل كلبة - قرية ١٧٩
تيزين العمق ٧٢	تل ماسح - قرية ١٨١
التينة ٣٧٢، ٣٨٧	تل ماصين ١٩٨
« ث »	تل محصر ٢٩٥
الثروت ٢٩٧	تل مراق ٢٠٠
ثكنة جب الجراح ٢٩٤	تل المقطع ١٩٩
ثكنة الحراء ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٧	تل ملح ١٥٣
الثكنة الحميدية بدمشق ٢٩ ح	تل مم - قرية ١٧٩
ثمة بعرين ٣٠٧	تل منس ١٩١، ١٩٢، ٢٠٠
الثنية ٦٧، ٣١٩	تل النبي مند = قادس - قرية ٣١٧، ٣٦٠، ٣٦١
ثنية العقاب ٣٠٦، ٣٢٠، ٣٨٢، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١	تل الوز - قرية ١٧٩
ثنية كوزبل ٥٥	تلبيسة - قرية ٣١٥، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٦
ثيوبولس = مدينة الله ٩٥	تلفاطيا ٣٨٠
« ج »	تلفيتا ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٨٧، ٣٨٨
الحاجية ٢٦٣، ٣٠٣	تلف ٧٦
الجافة ٣٠٧	تلول القطا ٣٥٧
جامع : وانظر مسجد	تلول المطبخ ١٨٠
جامع أبي عبيدة بن الجراح - بحجة ٢١	تلون ٢٠٤
جامع أبي الفداء - بحجة ٢٥٥	تليل ٢٢٥، ٣٠٧، ٣٠٩
الجامع الأعلى - بحجة ٢٤٦، ٢٥٦	تليل الشرقي - قرية ١١٥
الجامع الأموي ١٣، ٢٦ ح	تليلات ١٧٩
الجامع الأموي بحلب ١٨٣	التانعة = تمنع ١٩٠، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٣٩، ٢٧٠
جامع التركان بمحص = جامع العمري بمحص ٣٤١	التنونة ٣٠٧
جامع حبيب النجار - بأنطاكية ١٠٤	التنونية ٣١٠
جامع حلب ١٧٧	التواني ٣٨٦
جامع حماة ٢٥٨، ٢٤٠	تورين ١١٨
جامع الحيات بحجة ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦٠	توملو قلعة ٤٠
جامع خالد بن الوليد - بمحص ٣١٥، ٣٢٠، ٣٢١	تومين ٣٠٣
٣٤١، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧	التويم ١٧٢، ١٧٩، ٣٠٧

- جامع الخضر - بسلمية ٢٨٣
 جامع دمشق ٢٥٨
 جامع الرستن ٣٠٦
 جامع السلطان ٢٦٠
 جامع السلطان بمحمص ٣٤١
 جامع السلطان - بقلعة دمشق ٢٤
 جامع سنان باشا - بالقטיפه ٣٨٣
 جامع السوق - بأنطاكية ١٩
 جامع الشيخ فرج = بسلمية ٢٨٤
 جامع صيدنايا ٣٨٧
 جامع قاسم باشا المعروف بكوزلجة ٢١
 جامع القلعة - بحماة ٢٥٥
 الجامع الكبير ٢٥٦
 الجامع الكبير - بأنطاكية ١٠٤
 الجامع الكبير - بجسر الشفر ١١٩
 الجامع الكبير - بحماة ٢٣٨، ٢٥٤، ٢٥٩، ٣٤٢
 الجامع الكبير - بمحمص ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢
 الجامع الكبير - بالمعرة ١٨٢، ١٨٣، ١٨٦
 جامع المدفن - بحماة ٢١ ح، ٢٢ ح
 جامع المعلق ١٣ ح
 جامع منبج ٢٢١
 الجامع النوري - بمحمص ١٨٣، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٠، ٣٣٧، ٣٤٢
 جاندريس ٧٦
 جب الأعمى ٢٠٨، ٢١٠
 جب البرازي ٢١٧
 جب الجراح ٢٨٧، ٣١٤، ٣٥١، ٣٥٧
 جب رمله ١٦٩
 جب سليمان ١٤٣
 جب علي ٢٠٨
 جب عليص ٢١٠
 جب العمارة ٢٩١
 جباة ٣٢٢، ٣٦٨
 جبال أمانوس - انظر جبل اللكام
 جبال آنتي طوروس ٣١
 جبال الألب ٢٢٩
 جبال البلعاس - انظر جبل البلعاس
 جبال تدمر ٢٨٨
 جبال حسية ٣٧٧
 جبال حلب الغربية ٢٧٤
 جبال سيس ٤٢
 جبال الشام ٢٩١، ٣٠٣
 جبال الشومرية ٣١٤
 جبال طوروس ١٤، ٣٠، ٣١، ٣٨، ٥٥، ٦١
 جبال عينتاب ٦٤
 جبال قبرص ١٦
 جبال قلمون - انظر جبل القلمون
 جبال الكرد - انظر جبل الأكراد
 جبال الكلبية ١٥٣، ٣٠٣
 جبال اللاذقية ١٠٨، ١٤٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٠١
 جبال لبنان - انظر جبل لبنان
 جبال لبنان الشرقي - انظر جبل لبنان الشرقي
 جبال لبنان الغربي - انظر جبل لبنان الغربي
 جبال اللكام - انظر جبل اللكام
 جبال مرعش ٤٢
 جبة ٣٧٥، ٣٨٠
 جبة عسال ٣٦٧
 جبرين ٢٦٣
 جبعدين ٣٧٥، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٥
 جبل آزارت ٣٢
 جبل أمانوس - انظر جبل اللكام
 جبل أبي درداء ٣٠٣
 جبل أبي العتا ٣٨٩، ٣٩٠
 الجبل الأبيض ٢٩٢

جبل الأحص ١٧٨، ١٨١، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٦،	جبل حويس ٢٠٤
٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢،	جبل الحيط ١٣٦
٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢٨٩، ٢٩٤، ٢٩٨،	جبل الدروز ٢٧٤
٣٧٢، ٣١٤، ٣٠٢	جبل دريوس ١٤٠
الجيل الأحمر - انظر بيلان	جبل الدويلي ٨٣
الجيل الأحمر = قيزيل طاغ ٥٧، ٥٦، ٥٣، ٤٢،	جبل الزاوية ٨٤، ٩٤، ٩٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣،
٨٧، ١٠٩، ١١٦	١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٥،
جبل الأربعين ١٣٦، ١٢٧، ٢٦٣، ٣٠٣،	١٣٦، ١٤٣، ١٥٠، ١٧٤، ١٧٩، ١٨٢،
الجيل الأسود ٤٢، ٣٩٠	١٩٥، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٤، ٣٦٢
جبل الأعلى ٥٥، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٩٤،	جبل زين العابدين ١٩٨، ٢٠٣
٩٩، ١١٧، ١٢٨، ٣٦٢	جبل ساتوريس ١١١
الجيل الأقرق ٨٢، ٨٧، ٩٠، ١١٦، ١٢٢، ١٨٧،	جبل السباق ٨٤، ١٥٧، ١٨٨، ١٩١، ١٩٢،
جبل الأكراد = جبل الكردي = جبال الأكراد ٥٥،	جبل سمعان ٥٣، ٥٥، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٩٤،
٦٤، ١١٥، ١١٩، ١٤٠، ٣١١، ٣١٢،	١٣١، ١٨٧، ١٩٦، ٢٠٣، ٢٠٧، ٣٦٢
جبل أكرود ٣٦١	جبل سنير ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٨٨، ٣٨٧، ٣٨٨،
جبل الباشا = باشا هيوك ٦٦، ٧١	جبل سيلبيوس ٨٨، ٩٣، ١٠٨
جبل باريشا ٥٣، ٥٥، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٨٢، ٨٤،	جبل شاعر ٢٩٢
٩٤، ٩٩، ١٢٨، ١٣٣، ٣٦٢	جبل الشبيث ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٣٠٢،
جبل البركات ٤٢	جبل شحشو ١٣٩، ١٥٢، ٢٠٣، ٢٨٨
جبل البلعاس = جبال البلعاس ٢٠٣، ٢٠٩،	الجيل الشرقي ٣٧١
٢١٠، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٧٨، ٢٨٤، ٢٨٨،	جبل الشومرية ٢٩١، ٢٩٤
٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٣١٤	جبل الشيخ = جبل الثلج ٣٧٢، ٣٧٣،
جبل بلغار طاغ ٣٠، ٣٢	جبل الصليب ٣٠٧
جبل بني علم ١٢٧	جبل عامل ٢٧٣
جبل بودي ١٤٠	جبل العلا ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٨٣،
جبل التفاح = ألماداغ ٤٢	جبل العامرة ١٤٠
جبل تقسيس ٢٦٣، ٣٠٣	جبل الفانات ١٩٩، ٢٦٣،
جبل جريبيس ١٦٠	جبل القدموس ١٤٠
جبل حبيب النجار = أوسيلبيوس ٨٧، ١٠٣،	جبل القراحة ١٤٠
١٠٥	جبل القرم ٢٦٣
جبل الحلو ٣٠٨، ٣٥٩	جبل قزل طاغ - انظر الجبل الأحمر
جبل الحوايس ١٩٩	جبل القصير ٨، ٥٣، ٨٢، ٨٧، ١١٥، ١١٧، ١١٨،
جبل حوران ٣٩٠	١١٩، ٣٦٤

جبل قلع الطاقة ٣٨٥، ٢٨٩	جبل وهرا ١٤١
جبل قلمون = جبل سنير ٢٩١، ٣١١، ٣٢٠، ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٢	جبله ١٢٠، ١٤٢، ٢٢٥، ٣٢٧
جبل كاسون ١٩٩، ٢٦٣	الجبول ٢١٦
جبل كاسيوس - انظر الجبل الأقرع	جبين ١٥٣
جبل الكردي - انظر جبل الأكراد	الجحار ٢٩٣
جبل الكفرة = كاور طافي ٤٢	جدار السلوقيين ٤٧
جبل الكلبية ١٤٠، ١٧٢، ٢٤٣	جدر ٣١٤، ٣٥٤
جبل كيتلون ١٩٩	جدرية ١٢٤
جبل لبنان = جبال لبنان ١٢، ٤٣، ٢٧٦، ٣١٤، ٣٦٤، ٣٦٢، ٣٥١	جدرين ٣٠٧
جبل - جبال لبنان الشرقي ٤٣، ٣٠٣، ٣٦٣	جدعين ٨٤
٣٧٣، ٣٦٥	جدوة ٢٧٩
جبل لبنان الشمالي ٣٦١	الجديدة ٣٦٦
جبل - جبال لبنان الغربي ٤٣، ٣٠٣، ٣٦٣، ٣٧٢	جربلس = كركيش ٢٩٤، ٣١١، ٣١٧
جبل - جبال اللكام = جبل - جبال	جرادة ١٢١
أمانوس = كاروطاغ ٨، ٣١، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٣	الجربوعية ٣٦٨
٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٤، ٦٥، ٦٩، ٨٢، ٩٩، ١٢٢، ١٧١، ٢٤٢، ٣٦٤	جرجناز ٢٠٠
جبل اللكام الغربي ٤٣	جرجومة ٤٤
جبل المانع ٣٩٠	جرجيسة ٣٠٣
جبل المرأة ٢٩٣	جرش ٢٢٥، ٣١١
جبل مسيس ٤١	جرن الصغيرة ٢٣٤
جبل المضيق ١٥٢	جرن الكبيرة ٢٣٤
جبل معلولا ٣٨٢	الجزنية ١٥٣، ٢٦٣، ٣٠٣
جبل موسى ٥٢، ٥٧، ٨٢، ١٠٥، ١٠٩، ١١٢، ١١٣	جريا ١٩٦
جبل النواصرة ١٤٠	جربجير ٣٧٧
جبل النبي عيص ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨	جزائر أمريكا المتوسطة ١٤٣
جبل الهرمل ٣٦١	جزر أمريكا الجنوبية ٢٣٠
الجبل الوسطاني ٨٤، ١١٨، ١٢٢، ١٢٣	جزرايا ١٧٩
	الجزيرة ٢٣٤، ٣٤٠
	جزيرة أرواد ١٣٩
	جزيرة إسlande ٢٢٩
	جزيرة أنطاكية ٩٠
	جزيرة حمص ٣٣٥
	الجزيرة الفراتية ٧، ٢٢٦، ٢٨٦، ٣١١

جزيرة قبرص ١٦	جلمة ١٥٣
جزيرة القرم ١١	جلميدون ١٦٩
جزيرة كريت ١١ ، ٤٨ ، ٦٣	الجماسية ١٤٣
الجسر ١١٩ ، ١٢٠	جماشية ٢٧٩ ح
جسر باب الجسر - بحاة ٢٥٤ ح	الجمهورية التركية ٣١ ، ٣٨
جسر برنة ١٧٧ ، ١٨٢	جناة الصوارنة ٢٩٥
جسر بني منقذ ١٥٧ ، ١٦٨	جنان ٢٦٢ ، ٣٠٣
جسر الحديد ٦٤ ، ٩٨ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ٣٦٤	جندالية ١١٦
جسر الرستن ٢٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦	جنكان ٥٧
جسر السراي - بحاة ٢٥٣	جنيد ١١٥ ، ٢٠٧
جسر السرايا ٢١ ح	الجنينة ٢٩٨
جسر سكة الحديد في قرية غجر الأمير ٣٠٧	جهان ٢٠٢
جسر الشفر ٨ ، ١٩ ، ٨٦ ، ٩٩ ، ١١٥ ، ١١٦ ،	جوباس ١٧٤
١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،	جوبانية ٣٦٠
١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ، ١٧٣ ، ٣١١ ،	الجورة ١٤١
٣١٢ ، ٣٧٨	جوزيف ١٢٧
جسر شيزر ١٥٣ ، ١٦٧	جوسية ١٥٧ ، ٣٣٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨
جسر العشارنة ٣٠٩	جوسية الخراب ٣٦٢ ، ٣٦٣
جسر عفرين ٧٠	جوسية العمار ٣٦٣
جسر الفجرة ١٦٩	جوليك ١١٤
جسر كازو ١٧٣	الجومة ١٥ ، ١٦ ، ٤٩ ، ٧٦
جسر كشغهان ١١٩ ، ١٢٠	جوزة ٢٢٥
جسر مراد باشا ٦٩ ، ٧٠	جيان ١٧٥
جسر المراكب = جسر السرايا ٢٥٠	جيحان ٣٩ ، ٤٠
جسر منبج ٢٣٢	الجيد ١٤٣
جسر نهر الأبيض ١١٥	جيروود ٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩
جسر نهر عفرين ٧٦	جيلاني ٤٣
جسر الهوا - بحاة ٢٥٥	جينة العلباوي ٢٧٩
الجعارة ٢١٠	« ح »
جمبر ٢٩٨	الحاجب ٢١٠
الجفرة ١٨١	حاجي اسكندر ٧٦
جقالي ٥٦ ، ٥٩	حاجي جيبيلي ١١٢
جقوروده = السهل المنخفض ٣١	

حاجيار = وادي نهر الأسود الأعلى ٦٣ ، ٦٧	حزم صدد ٣٦٤
حاجيلر ٦٧	حسو الرمل ٢٩٠
حارة القاعة - بيبود ٣٧٩	حسية ٨ ، ٣٢٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ ،
حارم ٦١ ، ٦٤ ، ٧١ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ،	٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٣ ،
٨٤ ، ٩٩ ، ١٢٤	حسينية ٣١١ ، ٣٥٨
الحاس ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٩٥	حصرجية ٣١٠
الحاضر ١٨٢	حصرعينان ٣٧٠
حاضر طي ٠١٨٢	الحصن ٣١٠
حاضر قسرين ١٨٢	حصن أفامية - انظر قلعة المضيق
الحاضرة = المعمورة ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،	حصن أبي سفيان ١٢٩
٣٠٤	حصن أبي قبيس ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٩ ،
حامات صوبا = خيصوبا ٣١٦	حصن الأثارب ٩٩
الحبس ٢٠٨ ، ٢١٠	الحصن الآخر = حصن الروج ١٢٢
الحجاز ١٢ ، ١٤ ، ٢٨٦ ، ٣٠١ ، ٣٤١ ، ٣٤٩ ،	حصن أرزكان ١٢٢
حجر ٣٢٩	حصن أسفونا ١٥٨ ، ١٩٥
حجر شغلان ٦٢ ، ٩٩	حصن الأسكندرونة ٥١
حدث ٣٧٠	حصن الأكراد ١٥١ ، ٢٤٤ ، ٣١١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ،
الحدود التركية ٧٧ ، ١٧٦	٣٢٨ ، ٣٣١ ح ، ٣٣٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤
حذور ٣١٠	٣٧٥
حراكي ٢٠٤	حصن الباسوطة ٧٦ ، ٩٩
حران ٥٢ ، ٧١ ، ٢٠٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،	حصن برزية ١٤١
حران الشرکس ٧١	حصن برزوية ١٣٦
حران العرب ٧١	حصن بزاعة ٢١٥
حرب نفسا ٣٠٧ ، ٣١٠	حصن بكاس ١٢٠
الحربية - انظر دفنة	حصن الجراص ١٤١ ، ١٥٨ ، ١٦٨ ،
حرة اللجا (غير حرة اللجة) ٦٩ ح	حصن الجسر ١٦٨
حرة اللجة (غير حرة اللجا) ٤٥ ، ٥٣ ، ٦٩ ،	حصن الخريبة ١٦٨
٣١١	حصن دلوك ١٧٦
حريستان ٢٥ ، ٣٩٢	حصن رعبان ١٧٦
حرملة ١٨٢	حصن الروج - انظر الحصن الأحمر
الحرمين الشريفين ١٣٢	حصن سلمية ٢٨١
حريتان ٧٨	حصن الشغر ١١٥ ، ١٢٠ ،
الحزم ٢٠٢	حصن شيزر ١٥١

١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،	حصن الصفيح ٣١١ ، ٣٢٣
٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،	حصن ع ٧١
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ،	حصن القصير ١١٤ ، ١١٥
٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ،	حصن قورس ١٧٦
٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ،	حصن كاستيم = حصن كودفروا ٤٧
٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ،	حصن الكفر ١٨٩
٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،	حصن كودفروا - انظر حصن كاستيم
٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ،	حصن لوقا ٦١
٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ،	حصن مصيف ١٦٠
٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،	حصن ٢٩٤
٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ،	حفر ٣١١ ، ٣٧٠ ، ٣٧٨
٣٣٩ ح ، ٣٤٩ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ،	حفير التحق ٣٩٠
٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ ،	حفير الفوق ٣٨٦ ، ٣٩٠
حليون ٣٨٧	حقله ٢٠٧
حله ٨٤ ، ٣٨٦	حكاري ٣١٢
حلفايا ١٧١	حكية ٣١٠
حلبة قارة ٣٠٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٧ ،	حلاموز ٣١٥
حاة = ايفانيا ٧ ، ٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،	حلب ٧ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٦ ح ،
٢٣ ، ٢٤ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،	٢٩ ح ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ،
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ،	٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،	٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،	٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،	٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ،
١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،	٩٠ ح ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ،	١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٢ ،
١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،	١١٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ ،	١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،	١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ،	١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،	١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ،
٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،	١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،
٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،	١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،	١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،

، ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦
 ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢
 ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨
 ، ٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤
 ، ٢٧٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٠
 ، ٢٨٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨١ ، ٢٧٦
 ، ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٨٨
 ، ٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٥
 ، ٣١٧ ، ٣١٦ ، ٣١٥ ، ٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣١١
 ، ٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٨
 ، ٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٤
 ، ٣٣٥ ، ٣٣٤ ، ٣٣٣ ، ٣٣٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٠
 ، ٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٦
 ، ٣٤٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤٢
 ، ٣٥٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٠ ، ٣٤٩ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧
 ، ٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٣
 ، ٣٦٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦١ ، ٣٦٠
 ، ٣٧٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٠ ، ٣٦٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٧
 ، ٣٨٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٠ ، ٣٧٩ ، ٣٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٦
 ، ٣٨٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٠ ، ٣٧٩ ، ٣٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٦

٣٩٢ ، ٣٩١ ، ٣٨٣

حورية ٣٩٢

حوص ٤٠

الحجرا ٣٧٦

الحجيري ٣٠٧ ، ٢٦١

حميات ١٢٤ ، ٢٩١

حناك ١٨٩

هندوثين ١٩٦

الحنية ٢٩٨

حوا ٢٠٢

حوارين ٣٢٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،

٣٧٥ ، ٣٧٢

حواش ١٤٣

الحواصل ٢٧٢

، ٢٩١ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢
 ، ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٢٩٧ ، ٢٩٣ ، ٢٩٢
 ، ٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٦
 ، ٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣١٦ ، ٣١٥ ، ٣١٣ ، ٣١٢
 ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٤
 ، ٣٤٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨
 ، ٣٧١ ، ٣٧٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٣ ، ٣٥٩ ، ٣٥٢

٣٧٨

الحجاد - انظر البادية

حمادة عمر ٢٩٠

الحمام ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٢٠٩ ، ٣٠٢

حمام الباشا - بمص ٢٤٨

حمام السلطان - بحجة ٢٥٤ ح

حمام سنان باشا - بالقטיפه ٢٨٣

حمام محمد باشا الأرنؤوط - بحجة ٢٢

حمام محمد كراي ٢٢

حمام الملكة ٢٨٤

حمامات فالنسيوس ٨٦ ، ٩٤

حمة أبو رياح = حمام أبو رياح ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩

حمة الشيخ عيسى ١١٥ ، ١١٨

حمت الصغرى - بكليكية ٢٣٧

حمت الكبرى ٢٣٧

الحدانية ١٧٣ ، ٢٠٠

الحر ٢٢٤

الحمراء ١٧٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٤٤ ،

٢٤٨ ح ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ،

٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٧٦

الحمراء ٣٦٤

حصص ٧ ، ٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٦١ ، ٦٩ ح ،

٨٩ ، ٩٠ ح ، ٩١ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٣٩ ،

١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،

١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢٢٥ ،

حوران ٧، ٢٦ ح ، ٦٩ ح ، ١٣١ ، ٢٠٣ ، ٣٨٦	خان أبي الشامات ٣٨٦
حوش عريب ٣٨٠	خان الأبيض ٣٨٩
الحولة ٣٠٧	خان أسعد باشا العظم ١٨٣
حومي ٢٩٨	خان الإفرنج ١٧
الحويجة ١٤٣	خان إبيكي قبولي = ذو البابين ٢٤
الحوير ١٧٩ ، ٢٠٨ ، ٢١٠	خان التركان ١٨٨
الحويرة ٣٠٧	خان الجلاجل ٣٨٩
الحويز ١٤٣	خان السبيل ١٧٤ ، ١٨٨ ح
حويسيس ٢٩١	خان السلطان ٣٨٣
حي آل السباعي - بممص ٣٢٥ ، ٣٤٨	خان سنان باشا - بالرستن ٣٠٦
حي الأكراد - بدمشق ٣١١ ، ٣١٢	خان سنان باشا - بالقטיפه ٢٥ ، ٣٨٣
حي باب الدريب بممص ٣٤٨	خان شيخون ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
حي باب السباع - بممص ٣٣٠ ح ، ٣٤١ ،	١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٣٩
٣٥٢ ، ٣٤٨	خان طومان ٧٥ ، ١٧٤ ، ١٧٥
حي التركان - بممص ٣١١	الحان العتيق ٣٨٣
حي الجزيرة - بأنطاكية ٩٤	خان العروس ٣٨٢
حي جمال الدين - بممص ٣٤٨	خان العسل ٧٤ ، ١٧٣
حي الجميلية - بحلب ٧٥ ، ٧٩	خان عياش ٣٩٠
حي الحاضر - بحماة ١٩٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،	خان فم الثنية ٣٨٩
٢٥٤ ح ، ٢٥٧ ، ٢٦٣	خان قلعة المضيق ١٥٤
حي الخطاب - بدمشق ٢٧ ح	خان المعزى ٣٨٢
حي الحميدية - بممص ٣٤٨	الحان المكسور - أنظر قرق خان
الحى الجالدي - بممص ٣٤٥	خدفة ٢٠٤
حي الفاخورة - بممص ٣٤٨	خراب سلطان ١١٨
حي القراييص - بممص ٣٥٢	خراسان ٣٦ ، ٣٠٦
حيالين ١٥٣	الخراييج ١٧٥ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ، ٢٦٥ ، ٢٨٧
حيان ٧٨	خراييج الشحم ٢٩٨
حيفا ٧	خرية البارة ١٢٩
حيلة ١٢٤	خرية بني السمط ٣٥٣
	خرية التين محمود ٣٠٧
	خرية التين نور ٣٠٧
	خرية الجاموس ٣٠٩
	خرية الحمام ٣٠٧

« خ »

الخابور ٣٢٥

الخالدية ٣٠٣

- خربة الدجاج ٢٠٢
خربة السبيل ٣١٥
خربة سرجيلة ١٣١
خربة السودا ٣٠٩
خربة العمود ١١٥
خربة غازي ٣٠٧
خربة الفرس ٢٧٩ ح
خربة يونين ٣٧٧
خرخر ٢٠٧، ٣١٥
الخرطلة ١٥٥
خشفة ٢٣٤
خشنية ٢٢٥
الحصية ٢٦٥
خضر بك ١١٢، ١١٣
الخطابية ٢٩٨
الحفنة ٢٢٥
الحفية ٢١٧
خناصرة ١٨٧، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٢٥،
٣٠٢، ٢٦٧
خناصرة الأحص ٢٠٨، ٢٠٩
الحنديق ١٣٧، ١٤٣
خنيفس ٢٩٤
الحواري ٢٧٤، ٢٧٩ ح، ٢٨٠
خواري ١٨١
خولان ٣٩٠
خوين الشعر ٢٠٠
خوين الكبيرة ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٢
خليج الأسكندرونة ٤١، ٥٦، ٦٧
الخليج الفارسي ٢٢٧
- دار الآثار الوطنية - بدمشق ٢٤٠ ح، ٣٦١
دار الباقات ٢١٠
دار الحكومة بمحص ٣٤٨
دار العلم والتربية - بحماة ٢٦١
دار الفرح - بحماة ٢٢ ح
دارقنافة - بمحص ٣١٠
دارقينا ٨٥
دار قيطا ٧٢
الدار الكبيرة ٢٠٧، ٣٠٨، ٣١٥
داريا ٣٨٦
الداسنية ٣١٥
الدالابوز ٣٠٨، ٣١٣
دانا ٧٢، ٧٣، ١٣١
دانا جبل سمعان ١٣١
ديين ٣٦٠
دييس ٢١١
دجلة ١٨٥
دريساك ٦٢، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٩٩، ١٢٠
دريند بغراس ٥٩
درت بول ٤١
دردغان ٣٦٤
دركوش ٦٢، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩،
١٢١، ١٢٣، ٣٦٤
دريبية ٢٠٢
الدريج ٣٧٢
دريكية ١٧٩ ح
دفنة = الحربية ٧٠، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٦،
١٠٤، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٢،
١١٤، ١١٥، ٣٦٤
دلامة ١٧٩
دلفة ٧٤
دللوزة ١٢١
دمشق = دمشق الشام ٥، ٧، ٨، ٩، ١٢، ١٣،
- « د »
دابق ٧٨، ١٧٨
دار الآثار - بيروت ٣٦٣

ديار بكر ٢٣٣، ٣٧٢	١٤، ٢٠، ٢٣، ٢٥، ٢٦ ح، ٢٧، ٢٩، ٣٤،
ديار ربيعة ٢٣٣	٣٩، ٤١، ٥٠، ٥٢، ٦٩ ح، ٧٧، ٨٨، ٩٨،
الديار المصرية ٣٧٦	١٠٠، ١٣٣، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٥، ١٤٧،
الدياسنة ٣١٣	١٥١ ح، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٧، ١٥٩، ١٧٥،
دير إسحاق ٣١٤	١٧٦، ١٨٠، ١٩١، ١٩٣، ١٩٨،
دير باعنتل ٣٦٢	٢٠٢، ٢١١، ٢١٥، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٣،
دير بعلية ٣١٥	٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٨،
دير بلاط ٨٥	٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٥،
دير جمال ٧٨	٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥،
دير حافر ٢١٦	٢٧٨، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٥،
دير حبيب ٢١٤	٣٠٦، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٦، ٣١٧،
دير حشان ٧٢	٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤،
دير حويت ٣٠٧	٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣١،
دير الزور ٢٠٠، ٢٠٦، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٨	٣٣٩ ح، ٣٤١، ٣٥٠، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦١،
دير سلوثة ٨٤	٣٦٢، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢،
دير سمعان ٧٦، ١٨٧، ١٩٦	٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٢،
دير سنبل ١٣١	٣٨٣، ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩،
دير سوياط ١٢٩	٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢
دير سيتا ٨٥	دميرقبو ١٥
دير السيدة ٣٧٨	دمينة الغربية ٣٥٨
دير سيدة صيدنايا ٢٩٦ ح	دنوة ٣٥٤
الدير الشرقي ١٨٥، ١٨٧، ٢٠٠	دنين ٢٠٤
دير شمبل ١٦٩	دهبية ١٨١
دير عطية - بلدة ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨	دورلي ٢٦ ح
الدير الغربي ١٨٥، ١٨٧	الدوسة ٢٠٤، ٢٩٤، ٣١٠
دير الفرديس ٣٠٧	الدولة السلوقية ٨٨
دير فور ٣١٤، ٢٢٥، ٢٢٦	دوما ١٣٣، ١٤٢، ٢٦٥، ٣٧٣، ٣٧٨، ٣٨٦، ٣٩١،
دير قاق ٢١٣	٣٩٢
دير قانون ٢٨٦	دومة ٢٠٢
دير القديس سمعان العمودي ٩٤، ١٧٣	دومين ٣٥٤
دير القديس مارون ١٧١، ٢٣٨	الدوير ٣٠٨، ٣١٥
دير القديسة تقلا ٣٨٤	الدويسات ١١٥
دير ماراليون ٣٧٠	الدويلي ٨٤، ١١٨

الرزانية ٣٦١
الرسن = آراتوسة ٨، ٢٣، ٦٩ ح، ١٤٤، ٢٤٨،
٢٦٦، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧،
٣١٤، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٥١،
٣٨٣، ٣٦٤
رسم أبو العز ٣٠٠
رسم أم أميال الشرقي ٣٠٠
رسم التنباك ٢٩١
رسم عميش ٢٠٨، ٢١٠
رسم عيزى ٢٩٧، ٢٩٨
رسم قنشرين ١٨١
رسم المقطع ٣٠٠، ٣٠١
رسم النفل ٢٠٧
رسم الورد ٢٩٧، ٢٩٨
رشة ١٤١
الرصافة = رصافة هشام ٢٢٥، ٢٧٤، ٣٠٢، ٣٦٨
الرصيف ١٤٣
رفانية ١٤٤
الرفنية ٣٠٩
الرقامة ٣٦٥، ٣٦٦
الرقعة ٧، ٢٣٩، ٢٧٦، ٢٨٦
الرقيطرة ٣٠٣
الرملة ٢٤٤
الرميدة ٣٦٥
رنكوس ٣٨٠، ٣٨٢
الرها ٧٧، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٣٤، ٣١٢
الروح ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٤، ١٢٦، ١٣٥
روسية ١١
الرومي ١١
رومية ٩٠، ١٠٤، ١٢٤، ٣١٩، ٣٣٧
روحة ١٣١
الروضة ٢٠٠
رياق ٢٢٧، ٣١٦، ٣٢٨، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٥

دير مار مارون ٣٦٣
دير مار موسى الحبشي ٣٧٨
دير مار يعقوب ٢٧٦
دير مانين ٧٣
دير معلقة ٣١٥
دير المغان ٢٥٣
دير مياس ٢٥٣
دير النقيرة ١٨٧
دي فوكة ٧٣
ديكران ٣٣

« ذ »

ذات الذخائر = وادي الذخائر ٢٧٨
ذات القصور = ذات القصرين ١٨٩
ذيل العجل ٢٢٥، ٢٩٣

« ر »

الرأس ٣٦٤
رأس أندراوس ١٦
رأس الخنزير ٥٧
رأس العين ٥٢، ٥٥، ١٧٩، ٢٢٦
رأس العين - بالإسكندرونة ٥١
رأس عين الحمراء ٢٩٥
الرامة ١٢٧، ١٢٩
راهط ٣٩٠، ٣٩١
الريدة ٢٠٢
ربلة ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٧٩
الربيعة ١٧٢، ٢٠٢، ٢٩٤، ٣٠٧
رجم صراع ١٩٩
رجيلات ١٨٢
الرجبة ٣٢٤، ٣٢٥
رحى المسرودة ٢٤٧
الرحبية ٣٧٠، ٣٨٥، ٣٨٩
الرحبية ٢٠٤، ٢٩٤

ريحاً ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٢، ١٣٣
الريمانية ٥٣، ٦٣، ٦٤، ٧٠، ٧١، ٨١، ٢٢٥
ربيع الهوى ٢٠٢

« ز »

زاراً ٣١٠
زاوية البارة ١٢٧
الزاوية الكيلانية ٢٢ ح
زبد ٢٠٨
الزبداني ٣٧٢
زبيد ٢٠٨
زحلة ٧، ١٤٠
الزراعة ٢١٠، ٣٢٧، ٣٦١، ٣٦٢
الزربة ١٧٤
زردنا ٢٢٠
زرزور ١١٥، ٢١٧
الزرقاء ٢٢٥
زريقة ٢٧٩ ح
الزعرانة ٣٠٣، ٣١٤، ٣٢٨
زعنية ١٢٢
زعورة ١٤٢
زعينة ١١٩
زغرين ٢٠٠
زفر ١٩٩
زقاق الناشف - بدمشق ٢٧ ح
الزلاقات ١٥٣، ١٦٧
زمار ١٧٩
الزمقي ١١٥
الزنبقية ١٩، ١١٥، ١١٨
زور أبو زيد ١٧٢
زور بقرايا ٣٦٠
زور الجديد ١٧٢
زور خطاب ١٧٢

زور العاشق ٣٠٣، ٣٠٦
زور المعنكية ٣٠٦، ٣٠٧
زور الناصرية ١٧٢
زويبة ١٠٩
الزيادية ١٣٥
الزيارة ١١٥، ١٣٥، ١٧٩، ٢٣٣
الزبيق ٣٠٧
زيتا البحرة ٣٥٧، ٣٦٠
زيتان ١٨٢
زيدل ٣٥٨، ٣٦٨
زين العابدين ١٩٨
زينيان ٢٠٨

« س »

ساقط ٤٣
سباع ٢٠٤
سبخة الجبول = مملحة الجبول ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥،
٢١٦
ستراتيوم - حي بأنطاكية ٩٥
سجن حوارين ٣٦٧
سحال ٢٠٢
سحل ٣٧٧
سحور ٢٠٨
السحنة ٢٩٠، ٣٦٨، ٣٧٠
سد أرنية ٢٨٦
سراقب ٧٤، ١٣٢، ١٣٤، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧
السرّج ٢٠٢
سرج فارغ ٢١٠
سرجة ١٢٨، ٢٠٢، ٢١٣
سرجيلة ١٣١
سردلي ٨٧
سرفندكار ٤٠
سرمانيا ١٤١

٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣،	سرمانية ١٢٠، ١٤١
٢٩٤، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٤،	سرمد ٧٣
٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٩،	سرمدا ٧٢
٣٣٤، ٣٥٠، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٦٨، ٣٦٩،	سرمين ١٢٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٧٤، ١٨٧،
سلمية الشرقية = السبعة ٢٨٧	١٩١، ١٩٤، ١٩٦، ٢٨٩
سلوقية ٩٢، ١١٣، ١٦٩،	سروج ٣١٢
سماك ٣٥٤	سريحين ٢٦٣، ٣٠٣
السمعليل ٣٠٧	سمسع ١٥١ ح
سمنة ٢٠٠	سعن ٢٩٨، ٣٠٠
سميرية ٢١٠	السعن الأسود ٣٥٧
سنجار ٢٠٣، ٢٠٤،	سعن الشجرة ٢٧٩ ح، ٢٨٧، ٢٩٨
السندية ١٤١، ٣١١،	سعين ٢٩٨، ٣٠٠
سنزار ١٥٦	سفرية ١١٥
السنكري الشمالية ٣١٤	سفوهن ١٤٣، ١٩٦
السنكري القبلية ٣١٤	سفيرة ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٦،
سنير - أنظر جبل قلمون	سقبا ٣٩٢
سنير الشرقي ٣٢٠	سكا ٣٩١
سهل البقاع ٣٦٥، ٣٧٣،	سكر الخرطلة ١٥٥، ١٦٠، ١٦٢،
سهل جقوراووه ٤٠	سكرة ٣٦٨
سهل الجولان ٣٧٣	سلام عليكم والذي - قرية ٦٦
سهل الحلقة ٥٣، ٧٢، ٧٣، ٩٠ ح	سلامين ١٨١
سهل الروج ٨٣، ٨٤، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤،	السلاميل ١٩٩، ٢٠٢،
١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٥، ٢٨٩،	سلسلة أمانوس ١٠٩
سهل الزبداني ٣٧٣	سلفين ٨٢، ٨٣، ١١٥،
سهل العمق ٨، ٣٤، ٤٣، ٥٣، ٥٥، ٥٩، ٦١، ٦٣،	سلي ١٢٢، ١٣٥،
٦٤، ٧٠، ٧٦، ٨٢، ٨٣، ٨٦، ٨٧، ٩٧،	سلمية ١٤٢، ١٥٧، ١٧٥، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٧،
٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٩، ١١٦، ٢٢٥، ٢٨٩،	١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٩،
٣١٩	٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٣٨، ٢٣٩،
سهل الغاب ٨، ٨٢، ١١٨، ١٢٢، ١٣٥، ١٣٦،	٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٨، ٢٤٢، ٢٥١، ٢٦٠،
١٣٧، ١٣٨، ١٤٤، ١٥٠، ١٥٢، ٢٨٩، ٣٠٩،	٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧،
سهل المطبخ ١٧٩	٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣،
سهول آذنة ١٤، ٣٥،	٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩،
	٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥،

سهول حلب الشمالية ٥٣

سهول حلب الغربية ٥٣، ٥٥

سهول روسية الجنوبية ٢٣

سهول كيليكية ٥٦

السوامات ٣٢٨، ٣٥٨

سور ١١٢

سور أنطاكية ٣٦٤

سور حصص ٣٢٠، ٣٢٩، ٣٥٣

سوريا = سورية ح ١٤، ٢٠، ح ٤٢، ٤٣

٤٤، ٥٩، ٣٠٢، ٣٣٤

سورية الأولى ١٤٤

سورية الثالثة = سورية الفراتية ١٤٤

سورية الثانية ١٤٤

سوق التجار = بمص ٣٤٢

سوق حماة المعقود ٢٥٥ ح

سوق الخميس - بحماة ٢٦١

سوق المنصورية - بحماة ٢٤٧

سويان ٢٠٨، ٢١٠

السويدا ٣٠٩

السويدة ٣٠٣

السويدية ٤٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٨

١١٣، ١١٤، ١٨٧، ٢١٨، ٣٦٤

سجراز ٧٧

سيس ٣٣، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٥

« ش »

شاخورة ١١٥

شارع أبي الفداء - بحماة ٢٥٣ ح

شارع أبي الهول - بمص ٣٤٨، ٣٥٣

شارع باب السوق - بمص ٣٥٦

شارع السرايا ١٠٥

شاعر ٢٩٠

شاغوريت ١٢٤

شالسيديا ١٧٦

شالسيس العاصي ١٧٦

شالسيس لبنان ١٧٦

الشام - بلاد الشام - البلاد الشامية : ٥، ٦، ٧،

٨، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ٢٣، ح ٢٦، ح

٢٩، ح ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦،

٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٤، ٤٧، ٤٨، ٥٠،

٥٢، ٥٦، ٦١، ٦٥، ٦٩، ٧٣، ٧٧، ٨١،

٨٢، ٨٤، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢،

٩٥، ٩٦، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ١١٣،

١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٢، ١٣٣، ١٣٥،

١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٧، ١٥٥،

١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٦،

١٧٢، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٨٠، ١٨١،

١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤،

١٩٥، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢١٦،

٢١٨، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦،

٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٧،

٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣،

٢٤٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦١،

٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨،

٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٩،

٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٤، ٢٩٥،

٢٩٦، ٢٩١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦،

٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٥،

٣١٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢،

٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨،

٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨،

٣٣٩، ح ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٥، ٣٤٨،

٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٩،

٣٦٣، ٣٦٧، ٣٧٢، ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٨٤،

٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩١، ٣٩٢

الشامية ٢٣٢، ٢٣٤

شاهران قلعة ٤٠	شيجا ١٧٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧
شبعاً ٣٠٦	الشيخ - قرية ١١٦
شبللين ١٤٣	الشيخ حديد ١٥٣
الشجر ١٤٣	الشيخ حميد ٣٥٧
شحبشو ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٥٠ ، ١٩٥	الشيخ سعيد ١٨٢
شحطة ١٤١	الشيخ سديان ١٣٥
شحلة ٢٦٣	شيخ عبد الرحمن ٧٦
الشرفة ١٧٣	الشيخ عثمان - قرية ٣٧٨
الشرق ٢٩٦ ح	الشيخ علي - قرية ٨٠
شرقي الأردن ٢٩٦ ، ٣٥٠	الشير ١٧٢
شركس ٢٩٣	شيزر ١٢٠ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٥
الشريعة ١٤٣	١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١
شطب ٢٩٠	١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٩٠
الشطيب ٢٠٢	١٩٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤
الشعرة ٢٠٢	٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٧٢ ، ٢٨٩ ، ٣٢٢
شعيرات ٣٦٤	٣٦٤
الشفر ٩٩ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٤١ ، ١٦٢	
الشفر القديم - قرية ١١٩ ، ١٢١	
الشفأ ٢٩٠	
شق العجوز ١٢٢	صاري سكي ٤٧
شقحب ٣٢٧	صافيتا ١٤٢
شلالات دفنة ١١٤	الصالحية ٢٠٨ ، ٣٧٨
شلالة الصغيرة ٢٠٧	صالحية دمشق ١٤٢
شلالة الكبيرة ٢٠٧	صدد ٣٢٢ ، ٣٥٨ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠
شمبيك ٦٤	٣٧٨
شمر ٢٧٦	صراع ٢٠٢ ، ٢٠٤
شمسين ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧١	صرة أبي الظهور ٢٩٠
شميس ٢٨٤ ، ٣٣٤	صرخد ٢٤٢
شنشار ٣٢٨ ، ٣٥٨ ، ٣٦٤	صرمان ٢٢٥
الشهبأ ٢٩٤	صريع ٢٠٢
الشهب ٢٠٠ ، ٢٩٤	الصفا ٣٧٤ ، ٣٩٠
الشورقلي ٢١٧	الصفاوي ٢٧٩ ح
شيات ١٢٨ ، ١٩٥ ، ١٩٦	صفد ٧ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٢٥
	الصنصافة ١٦٩

« ص »

صفين ٢٢٠، ٣٢٠، ٣٣٢
 صقيعة ٢٠٢، ٢٠٣
 الصقيلية ١٥٣، ١٦٨، ١٧١
 صلبا ١٥٣، ٢٩٠
 صلنفة ١٤٢
 صماخ ٢٦٣
 الصمدانية ٢٢٥
 صنعاء الين ٣٤٩
 صهيون ١٢٠، ١٤١
 سوران، ٢٠٠، ٢١٣، ٢٤٤، ٢٩٥
 سورية ١١٥، ١١٧
 صو سنباط ٢١٦
 صوغوق أولوق ٥٥
 صوغوق صو ٦٣
 صوفيلر ١١٤
 صيدا ٧
 صيدنايا ٧، ٣٧٢، ٣٨٦، ٣٨٧
 الصين ٢٣ ح

« ض »

ضابية ٣١١
 ضريح - وانظر مقام، وقبر، دمشق
 ضريح أبي العلاء المعري ١٨٣، ١٨٤
 ضريح أبا يزيد البسطامي ٣٠٦
 ضريح الخليفة عمر بن عبد العزيز ١٨٥
 ضريح شمسفرام الثاني ٣٥٢
 ضريح الشيخ أبي سعيد ٣٨٥
 ضريح الشيخ براق ٢٠٨
 ضريح الشيخ جنيد ٢٠٧
 ضريح الشيخ فرج ٢٩٣
 ضريح الشيخ مهران ٣٠٣
 ضريح عبد الرحمن بن عوف ٣٤٨
 ضريح الملك المظفر ٢٥٤، ٢٥٨

ضريح الملك المؤيد أبي الفداء ٢٥٥، ٢٦٠
 الضمير ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٩١
 ضيعة مران ٢١٣

« ط »

طاحونة المعبد ٢٨٣
 طاحونة الوعرة ١٧١
 الطار ١٥٠، ١٥٣، ١٥٥، ١٧١، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٨٩
 طار العلا ٢٦١
 طاط ٢١٠
 الطامة ٢٠٠
 طبريا ٢٢٥، ٢٧١
 طرابلس - طرابلس الشام ٥، ٧، ٢٠ ح، ٣٩، ٤٩، ٦١، ٩٧، ٩٩، ١١٩، ١٤٢، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥١، ٢٦١، ٢٧٥، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١١، ٣١٤، ٣١٦، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٨
 ح، ٣٣١، ٣٥٠، ٣٦٠
 طرسوس ٨، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٤، ٥٦، ١٤٢، ٢١٩
 طرطر ٢١٤
 طرطوس ١٢٠
 طرفاوي ١٧٩
 طرون ٧٠
 طعوم ١٣٤
 الطفيل ٣٧٣، ٣٨٠
 طلافح ١٨١
 طلعة موسى ٣٧٧
 طلف ٣٠٧
 طمة ١١٢
 طوبا ٢٠٤
 طوب بوغاز ٥٣، ٥٥، ٥٩، ٦٣، ٦٤، ٦٩، ٨٧، ١٠٥

« ض »

ضابية ٣١١
 ضريح - وانظر مقام، وقبر، دمشق
 ضريح أبي العلاء المعري ١٨٣، ١٨٤
 ضريح أبا يزيد البسطامي ٣٠٦
 ضريح الخليفة عمر بن عبد العزيز ١٨٥
 ضريح شمسفرام الثاني ٣٥٢
 ضريح الشيخ أبي سعيد ٣٨٥
 ضريح الشيخ براق ٢٠٨
 ضريح الشيخ جنيد ٢٠٧
 ضريح الشيخ فرج ٢٩٣
 ضريح الشيخ مهران ٣٠٣
 ضريح عبد الرحمن بن عوف ٣٤٨
 ضريح الملك المظفر ٢٥٤، ٢٥٨

عرب الملك ٢٢٥	طوبراق قلعة ٤٠، ٤٨، ٥٠
عرسال ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٧	طورندة ٧٦
عرسوز ٥٧	طوروس ٤٢
عرسوس ٥٢، ٥٣	طوروس المناوح = أنتي طوروس ٣١
عرش قيبار ٧٧	طومان ١٧٤
عرشونة ٢٩٠	الطويحيني ١٧٩، ٢٠٢
العرعرة ٣٨٢	طيء ٣٢٩
عرف الديك ١٥٥، ١٦٢، ١٦٨	الطيبة = طيبة العلا ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢١٠،
عرفة ٢٠٢	٣٧٠، ٣٦٨، ٣٠٧
عرقا ٦١	« ظ »
العرناس ٣٥٣	الظاهرية ١٧٢
العرية ٢١٧	ظفرا ٢٧١
العرمي ١٤٣	ظهر القضيبي ٣٠٣
العريزية ١٧٩، ٣٦٥	« ع »
عسال ٣٧٥	عائق ٥٥
عسال الورد ٢٨٠	عائق بويي = رقة عائق ٥٦
عسان ٢٠٩	العارمية ٣٠٩
عسيلة ٢٢٥، ٣١٤	العاصي - انظر نهر العاصي
العشارنة ١٥٣، ٣١٢	العالمية ٣٠٩
العطشانة ٢٩٧	العاليات ٣٦٤
العطشانة الشرقية ١٧٩	عامرية ٣٦٠
العطشانة الغربية ١٧٩	العباسية ٣٦٥
المطنة ٣٨٥، ٣٨٩	عبريتا ٨٤
عفرين ٥٣، ٧٦، ٧٧	العبيدية ٨٦
عقارب ٢٩٠	عثمانية ١٧٩
عقارب الصافية ٢٧٩ ح	العجمي ٢١٧
عقرب ٣٠٧، ٣٠٩	عجيز ٢٠٣
عقربات ٧٢	عذراء ٣٩٠، ٣٩١
عقربة ٢٠٨، ٢١١	العراق ٤٩، ٥٠، ١٤٣، ١٨٥، ٢٠٣، ٢٢٧،
عقربوز ٢٠٧	٢٤٤، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٤،
عقزيتي ٢٧٩ ح	٢٧٦، ٣٥٠، ٣٦٧، ٣٨٩، ٣٩٢
عقربا ٢٩٠	عرب كوى ٧٦
عقربات ٢٠٣، ٢٦١، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩١	

العنز ٢٠٤	عقيربات السويد ٢٩٠
العنقاوي ١٤٣	عكا = عكة ٧ ، ٣٩ ، ٨٩ ، ١٥١ ح ، ٢٤٢
العواصم ٩٦ ، ١١٧ ، ١٧٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٣٢٠	عكار ٣١٠ ، ٣١٢
عواقية ٨٧	عكش ٢٩٠
العوجة ١٩٩ ، ٢٠٤	عكوبر ٣٨٦
العوسجلي الصغيرة ٢١٧	العلا ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ،
العونية ١٥٣	١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
العونية ٢٩٠	٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨٩ ،
عين البار - قرية ٢٦٣	٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨
عين البيضاء ٧٠ ، ١٢٣ ، ٣٦٩ ، ٣٨٩	علا الشمال = علا المعرة ٢٠٠
عين التينة ٣٨٢ ، ٣٨٥	علا الجنوب = علا سامية ٢٠٠ ، ٢٠٤
عين جالوت - في غور بيسان ١٩٣ ، ٢٤٢ ،	علا الطار = طار العلا ٢٠٠
٢٧٣ ، ٣٢٦	علا الوالي ٢٠٠
عين جاموس ٩٦	علاء الدين ٦٤
عين جباة ٣٦٥	علاروز ١٢٦
عين الجراص ١٤١	العلائي ١١٥
عين جورين ١٤١	علي كاسون - قرية ٢٠٤ ، ٢٦١
عين الجوزة ٢٨٠	عليات العسل ١٩٦
عين حسين ٣١٤	العليقة ١٦٩ ، ٢٧٤ ، ٣١١
عين الحمام ١٤١	ع = يني شهر ٥٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٠ ،
عين حواش ١٣٩	٨٥ ، ٨٦ ، ٩٩ ، ٢٢٥ ، ٣١٩
عين دابش ٣١٠	عُمان ٢٣٥
عين دلفة ٧١	عُمان ٣١١ ، ٣٢٩
عين زربة = آناوارزا ٤٠	العمق ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
عين الزرقاء ٢٦٤ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣٦٣ ،	٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ١٢٦ ، ١٥٨ ،
٣٦٤	١٩٤ ، ٣١١
عين زريق ١٩٦	عق حارم ٥٩
عين زيوان ٢٢٥	العمقية ١٤٣
عين سلمو ١٤١	عمورية ١٥٣
عين السلور ٦٩	عمورين ١٥٣
عين سسم ٣١١	العميا ٢٧٩ ح
عين شبيب ١٢٤	عنا ب ١٢٦ ، ١٤١
عين صرمان ٢٢٥	عندان ٧٨

غرناطة ٢٤٤
غزة ٧ ، ١٢ ، ٣٢٧
الغسولة ٣٦٥
الغنتر ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠
الغنثر ٣٢٢
الغنطو ٣١٥ ، ٣٥٧
الغور ٣٠٨ ، ٣١٣
غور العاصي ٣٠٣
الغوطه - غوطه دمشق ٣٧٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ،
٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢

« ف »

الفاتكية ١١٥ ، ١١٧
فارس ٨٨
فارنك ١٤٤
الفاوق ١١٨
فامية - انظر أفامية
الفان القبلي ٢٠٠
الفايا ٢٩٠
فحام ٢٢٥
الفرات - انظر نهر الفرات
الفراديس ١٨١ ، ١٨٢
فرجة ٢٠٢
فرجي ٢٠٣
فرضة يمورطه لق ٤٠
الفرقلس ٣١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٦٨
الفركة ٢٠٠
فرنسا ٢٧٩
فريكة ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٤١
فزاره ٢٢٥
فقرو ١٤١
فلسطين ٨٨ ، ٨٩ ، ٢٢٥ ، ٣١١ ، ٣٣٧ ، ٣٤٩ ،
٣٥٠

عين صويلح ٢٢٥
عين ظباط ٢٢٥ ، ٣١٤ ، ٣٥١
عين عائشة ٣١٠
عين عري ١٢٤
عين العلق ٣٧٥
عين الفوار ١٤١
عين فيت ١٤٢
عين الفيجه ٣٦٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣
عين الكروم ١٢٦ ، ١٤١
عين كوشل ٣٧٩
عين لاروز ١٢٤
عين مارتين ١٣٢
عين معراتا ١٩٦
عيدمون ٣١٠
عيدو ١٤١
العيس ١٧٨ ، ١٧٩
العيس ١٧٥ ، ١٧٧
عيفير ٣٦٨
عينتاب ١٧٦ ح ، ١٧٩
عيون التجار ١٥١ ح
عيون فاسريا ٣٩١

« غ »

الغاب ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ،
١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦٩
غاب عري ١٢٣ ، ١٢٤
غامية ٣٥٤
غاني ١٣٥
غجر ١٤٢
غجر الأمير - قرية ٣٠٧
غراريقة ١٨١
الغرب ٢٩٦ ح

قبر الشيخ عقيل المنجي ٢١٨ ، ٢٢١	فلنجار ١١٥
قبر الشيخ علي ٢٢١	فليطا ٣٧٧ ، ٣٧٥
قبر الشيخ ينبوب ٢٢١	فليفل ١٤٣
قبر قيصر بممص ٣٥٢	فلك ٤٣ ، ١١٥
قبر النبي مثنى ٢٢١	الفندق ١٨٠
قبر النعمان بن بشير ٢٦٧	الفوعة ١٣٣ ، ٢٤٩ ، ٣١٣
قبر يوشع بن نون ١٨٨	فيروزة ٣٢٨ ، ٣٥٨ ، ٣٦٦
قبيبات ٢٧٩	فيينا ١١
القدادين ١٤٣	فينيقية ٨٩
القدس ٧ ، ٤٤ ح ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٢٠٦ ، ٣٥٥	
القدموس ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩	« ق »
قراح ٢٠٠	القابون ٣٩٢
قرادي ٣٧٠	قادرية ٣١١
قراطي ٢٠٢	قادس - انظر تل النبي مند
قرحتا ٦٩ ح	قادش ٣١٠ ، ٣١٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦١
قرطبة ٢٤٤	قارا - قارة ٣١٩ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ،
قرق خان = وادي نهر الأسود الأسفل = الأربعين	٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣
خان = الحان المكسور ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ،	قاربياز ١١٥ ، ١١٧
٦٦ ، ٦٩	قارصو ١١٦
قرقور ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨	قالا ٦٩
قرمان ٢٦ ح	قاموع الهرمل = قائم الهرمل ٣٦٣ ، ٣٦٤
قرنة الحجل ٣٠٣	قبة جامع بني أمية - بدمشق ٢٥٦
قرنة السوداء ٣٠٣ ، ٣٧٣	قبة الحسين - بحماة ٢٥٤
قرنية ٦٦	قبة الخزنة - بحماة ٣٤٠
قره آغاچ ٥٧	قبة الشيخ أربعين = بيعة الأربعين شهيد ١٩٨
قره كوز ٥٧	قبة العصافير ٣٩٠
قره مغرط ١٧ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، ١٠٨	قبة العقارب - بممص ٣٤٥
قرون حاة ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٥٠	قبة ملاعب ٢٤٨
القريتين ٣٢٨ ، ٣٥١ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ،	قبة الملك المظفر محمود ٢٥٨
٣٧٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩	قبر - وانظر ضريح ، ومقام ، دمشق
القريم ١٤٣ ، ٢٦٥	قبر أبي أمامة الباهلي ٣٥٤
قزحل ٣٠٧	قبر حنظلة بن خويلد ٢٢١
القسطل ٢٩١ ، ٣٨٢	قبر الشيخ أبي زكريا يحيى المغربي الصالح ١٨٧

قصر كنفاج باشا ١٨	قسطل الباشا ٧٠
قصر محمد باشا الأرنؤوط ٢٠	القسطنطينية ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٦١ ،
قصر المحرم ٢٠٣	٩٠ ح ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٥١ ، ٢١٩ ،
قصر المشق ٢٩٦	٢٢٧ ، ٢٩٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٥
قصر منجك باشا ٢٩	قسطنون ٩٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ،
قصر نوى ٢٠٢	١٤٣
القصور ٢٠٣	القصر - بقرية أكراد إبراهيم ٣٠٩
القصر ٩٩ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ٣٠٧ ، ٣٢٧ ،	قصر ابن وردان ٢٦٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،
٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨ ،	٢٩٦ ح ، ٢٩٧ ، ٢٩٨
٣٧٩ ، ٣٩١	قصر أبي حنايا ٢٠٣
قصر أنطاكية ٦٢	قصر أبي حية ٢٠٣
قصر التحتاني ٨٦ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١١٦	قصر أبي سمرة ٢٠٣
القصر الفوقاني ١٠٤ ، ١١٥ ، ١١٦	قصر أبي شرفي ٢٠٣
القصر الوسطاني ١٠٥ ، ١١٥ ، ١١٦	قصر الأبيض ٢٠٣
قطرة ٢٠٢	قصر البرج ٢٠٣
قطما ٧٠ ، ٧٧ ، ٧٨	قصر البردويل ١٦٥
قطنا ٣٧٢	قصر بطياس ٢١٩ ، ٢٦٨
قطنا = المشرفة ٢٦٦	قصر بلقيس ٣٨٠
القطيفة ٨ ، ١٣ ، ١٥١ ح ، ٢٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ،	قصر البنات ٧١ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ٩٩
٣٧٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،	قصر بني المعظم - بحجة ٢٥٣ ، ٢٦١
٣٨٩	قصر بني الكيلاني - بحجة ٢٥٢ ، ٢٥٤
قطينة ٣٦٠	قصر بيت المعظم - بدمشق ٢٥٤
القفقاس ١١	قصر تل الذهب ٢٠٣
قلاع الدعوة ٢٤٨ ، ٢٧٤	قصر التوك ٢٠٤
قلاع الشام ٢٧٥ ، ٢٨٤	قصر الخير ٣٦٩ ، ٣٨٩
قلب لوزة ٨٤	قصر السرج ٢٠٣
قلوون ٣١١ ، ٣٧٥ ، ٣٨٢	قصر سرجة ٢٠٣
قلع الشيخ ملوخ ١٤١	قصر سوبايط ١٢٩
قلع الطاقا ٣٨٢	قصر الشادي ٢٠٣
القلعة ١٩٦	قصر الشطيب ٢٠٣
قلعة أرتاح ٦٦	قصر الشيخ إبراهيم الكيلاني ٢٠
قلعة أسكندرونة ١٦	قصر العلي ٢٠٢ ، ٢٠٣
قلعة أفامية ١٤٧	قصر الفواعة ٢٠٣

قلعة أنطاكية ١٠٩	قلعة عيذو ١٢٢
قلعة بانياس ٢٧٤	قلعة القصير ١١٧
قلعة برزية ١٤١	قلعة المركز = قلعة صاري سكي ١٥ ، ٤٢ ، ٤٦ ،
قلعة بصرى حوران ٨٢ ، ٢٣٦	٤٧ ، ٤٨
قلعة بغراس ١٧ ، ٤٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٧ ،	قلعة مسيس ١٤
٣٢٢ ، ٨٧	القلعة المصفحة - بمحص ٣٣٥
قلعة تلبيسة ٣١٥	قلعة مصياف ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ح
قلعة جبل سيمان ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١٧٣	قلعة المضيقي = حصن أفامية ٨ ، ١٩ ، ٨٢ ،
قلعة حارم ٦٦ ، ٨٢ ، ٢٣٦	١٢٢ ، ١٣٧ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ،
قلعة حجر شغلان ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧	١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
قلعة الحصن ٣٦٤	٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣٢٣ ، ٣٨٢
قلعة حلب ٨٢ ، ١٥١ ، ٢٣٦ ، ٢٥٥ ، ٣٤٠	قلعة المعرة ١٨٥ ، ١٩٣ ، ٢٤٢
قلعة حماة ٢١ ح ، ٨٢ ، ٢٣٨ ح ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ،	قلعة منبج ٢٢١
٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،	قلعة النجم ١٤٧ ، ٢٢٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
٢٩٣ ، ٢٤٠	٢٣٦
قلعة حص ٨٢ ، ١٣٩ ، ١٥١ ، ٢٨٤ ، ٣٢٦ ،	قلعة النجم - قرية ٢٣٣ ، ٢٣٤
٣٢٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٥٢	قلعجية ١٨٢
قلعة الحوايس ٢٠٤	قلعون - انظر جبل قلعون
قلعة الحوايي ٢٧٧	قلعون الأسفل ٣٧٤ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠
قلعة دريساك ٤٣ ، ٦١ ، ٦٧	قلعون الأعلى ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ،
قلعة دركوش ٢٤٢	٢٨٦
قلعة الربا ٢٠٤	قليب الثور ٢١٠
قلعة الرحية ٢٠٤ ، ٢٩٤	قليدين ١٤٣
قلعة شاهمران ١٤ ، ٤٠	قليزان ١١٥
قلعة الشحر ١١٩	القلبيعات ٢٠٣
قلعة شميس ٢٣٦ ، ٢٦٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ،	قفة آق قيا = الصخرة البيضاء ٤٢ ، ٥٥ ،
٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٥	قفة الما طاغ ٥٥
قلعة شيزر ٨ ، ١٩ ، ٨٢ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٥٣ ،	قفة داز طاغ ٥٥
١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،	قفة شاكشاك ٥٥
٢٣٦	قفة مغبر = قفة موغر ٤٢ ، ٤٧ ، ٥٥
قلعة طراد ٢٠٤	قفة النبي أيوب ١٢٧
قلعة العليقة ٢٧٩ ح	قحانة ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩٨
قلعة عم ٦٦	القدموس ٣٠٠

كبادوكية = ولاية سيواس ٣١	قم لبنان الشمالي ٣٥١
كبنة ١٢٤	قناة تدمر ٣٦٨
الكبرى ٣٨٠	قناة تراجان ١٠٨ ، ١٠٩
كراتين ٢٠٢	قناة جوسية ٣٣٠
كراتين التجار - قرية ٢٠٤	قناة سلمية ٢٥٠
كردطاغ ٧٦ ، ١٠٠	قناة السويس ٤٩
كرسنتة ٢٠٢	قناة العاشق ٢٦٣ ، ٢٨٠
كرسيان ١٩٩	قناطر تراجان ٩٣ ، ١٠٧
الكرك ١٣٩ ، ٢٤٢ ، ٣٢٧	قندية ٢٦ ح
كرميش - انظر جرابلس	قنسرين - منطقة قنسرين العسكرية ٥٩ ، ٦٧ ،
كرناز ١٥٣ ، ١٩٨	٩٦ ، ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٥٧ ،
كريسنته ٢٠٤	١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ،
كسب ٥٢ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦	١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ،
كسروان ٧	٢٢٣ ، ٢٤٧ ، ٢٦٨ ، ٣٢٠
كسريك ٥٣ ، ٥٧	قني سلمية ٢٦٥ ح
كفر أمين ١٧٢	القنية ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩
كفر أكار ٢١٠	القنيطرات ٢١٠
كفر أنطون ٧٨	القنيطرة ١٤٢ ، ٢٠٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٣١٠ ، ٣١١
كفر بطرة ٧٦	قورت قولايي ١٤
كفر ٣٠٣	قورية ١١٥
كفر بيا ٣٩	قوقفين ١٤٣
كفر تخاريم ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣	قونية ١٤ ، ٣٥
كفر تكيس ٣٥٤	قويق ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢
كفر توم ٣٠٧	« ك »
كفر حداد ١٧٩	كابوسية ١١٢
كفر حمزة ٧٩	كاروطاغ - انظر جبل اللكام
كفر حوت ٢٠٨	كازو ١٧٢
كفر ديبين ٩٩ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٠	كاسون ٢٠٠
كفر راع ١٩٨	كاسون الجبل ٢٦٣
كفر روما ١٣٠	كاف الحمام ٢٧٩ ح
كفر زيتا ١٩٨	الكافات ٢٦٣ ، ٢٧٩
كفر زيتة ٢٠٠	كالسيريا ٨٨
كفر شلايا ١٢٨	

كنصفرة ١٢٧	كفر طباب ٩٩ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ،
كنفو ١٦٩ ، ٣٠٩	١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ،
الكنية ٣١٥	٢٢١ ، ٢٤١ ، ٢٤٩
الكنيسة - قرية ١٢٤ ، ٣٠٧	كفر الطون ١٧٢
كنيسة آياصوفيا ٢٩٦ ح	كفر عايا ٣٥٨
كنيسة الأربعين شاهد ٣٤٨	كفر عابد ١١٥
كنيسة الأندرين العظمى ٣٠٠	كفر عبدة ٣٦٠
كنيسة البروتستانت - بمحض ٣٤٨	كفر عبيد ١٧٥ ، ١٨١
كنيسة جعارا ٣٦٧	كفر عجم ٣٠٧
الكنيسة الجنوبية - بالأندرين ٣٠٠	كفر قعادة ٣٠٧
كنيسة حناك الكبرى ١٨٩	كفر كرمين ٧٤
كنيسة السريان القدماء ٣٤٨	كفر كا ٢٢٥
كنيسة القديس نيقولاس ٣٧٦	كفر كيلا ٩٩
كنيسة قسطنطين العظمى ٩٥	كفر كيلة ٨٤
كنيسة الكاثوليك ٣٤٨	كفر لاثا ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٢
كنيسة مار اليان - بمحض ٣٤٨	كفر لاهيا ٣٠٧ ، ٣٠٩
كنيسة مار أنطونيوس ٣٤٨	كفر مالس ٨٤
كنيسة مار جاورجيوس - بمحض ٣٤٨	كفر ميد ١٢٤
كنيسة مار قسطنطين ٣٢٣	كفر نان ٣٠٧
الكهف ١٦٩ ، ٢٧٤	كفر نبوذا ١٥٣
كوارا = قارا = ٣٧٦	كفر نبودة ١٩٧
كوارو ١٢٤	كفر نغد ٣٥٤
الكورة ٧٢	كفر نفاخ ٣١١
كوزل برج ٨٦	كفر يا ٢٠٢
كواشرة ٣١٠	كفر يثان ٢٩٠
كوكب ١٧٣ ، ٢٠٠	كفر يهود ١٥٣
كوكبة ١٤٣	الكفير ١٣٥
كوكنايا ٨٤	كفل دين ٧٢
كوكو ٨٤	كلب ٣٢٩
كول باشي ٦٩	كلس ٦٣ ، ٧٨
الكوم ٣٦٨ ، ٣٧٠	كليس ٧٦ ، ٧٧ ، ١٧٦ ح
كوندوزلي ٤٣ ، ٦٩	كام ٣٦٠
كيليكية ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ،	كندة ٣٢٩
جولة أثرية (٣٠)	

مباركات ٢٦٢
 مباركية ٣٥٨
 المبعوجة ٢٧١ ح
 متحف حلب ٢٠٧ ، ٢٢٤
 متحف اللوفر - بياريس ٢٠٦
 متراس ٣١٠
 متليك كوى ٧٠
 متنين ١٧٢ ، ٣٠٧
 المجلد ١٧٢
 مجدل عنجر ١٧٦
 مجدليا ١٣١
 مجدو = اللجون ٣١٧
 مجمع اللغة العربية - بدمشق ٢٢٧ ، ٢٤٩
 مجمع المروج ٣٢٦
 مجيد آباد ٢٧٧ ، ٢٧٨
 محردة ١٧١ ، ١٧٢
 محطات أرزين ٤٠
 محطة أبي الظهور - محطة أبي الظهور ١٧٣ ، ١٨٢
 محطة الإصلاحية ٤٠ ح
 محطة أم رجم ١٩٩
 محطة أنجيرلك ٤٠
 محطة باغجة ٤٠ ح
 محطة بوزانطي ٤٠
 محطة تل أرفاد ٤٠ ح
 محطة جيجان ٤٠
 محطة حلب ٤٠ ح
 محطة حماة ١٧٣
 محطة الحمدانية ١٩٩
 محطة الحميدي ١٧٣
 محطة دامانية ٤٠ ح
 محطة درل يول ٤١
 محطة راجو ٤٠ ح
 محطة السكة الحديدية - بحماة ١٧٢ ، ٢٤٧

٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٨٩ ،
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٤٢ ، ١٥٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢

« ل »

اللاذقية ٧ ، ٣٦ ، ٤٨ ، ٧٤ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٥ ،
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥٩ ،
 ١٦٩ ، ٢٢٥ ، ٢٤١ ، ٢٦٠ ، ٢٧٨ ، ٣١١ ،
 ٣١٢ ، ٣٦٢ ، ٣٧٩

لاريسا ١٥٦

اللا ٢٩٤ ، ٢٩٥

لائوديسيا - انظر اللاذقية

لبنان ٤٢ ، ٤٤ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٣٧٢

لبنان المناوح ٣٧٣

اللبوة ٣٦٤

اللبا ٣٩٠

لجا حوران ٢٢٥ ، ٣١١

اللطامنة ١٧١ ، ٢٠٠

لطمين ٢٤٤

لفتايا ٣٦٠

اللقبة ١٦٩

لوييدة ٢٠٢

ليدن ٢٩٥

« م »

مأذنة الجامع النوري الكبير ٣٤٣

المأذنة المقطومة - بمص ٣٤٠ ، ٣٤٨

مايين النهرين ٢١٩

ماردين ١٢٠

مازوغا ٢٧٩ ح

الماطرون ٢٨٦

ماكسين ٣٢٥

مال أوجاسي ٤٣

مالكية ٧٨

محطة طوبراق قلعة ٤٠ ، ٥٣

محطة العوجة ١٩٩

محطة فوزي باشا ٤٠ ح

محطة القصير ٣٥٨

محطة قطمة ٤٠ ح

محطة قطينة ٣٥٨

محطة قورت قولاق ٤٠ ح

محطة كوركجيلر ٤٠

محطة كوكب ١٩٩

محطة المسامية ٤٠ ح

محطة مسيس ٤٠

محطة معمورة ٤٠ ح

محطة ميدان إكيز ٤٠ ح

محطة الويسية ٤٠

محطة ينيجه ٤٠

محلة باب الجسر - بحجة ٢٢ ح ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥

محلة باب الناعورة ٢٦٠

محلة جسر بيت الشيخ - بحجة ٢١ ح

محلة الدباغة ٢٦٠

محلة المدينة - بحجة ٢٥٦

محمل ١٢٦

المخاضة ٧١

الحرم التحتاني ٣١٣ ، ٣١٤

الحرم الفوقاني ٣١٤

مخفر تل الأغرة ٢٩٤

مخفر سعن الشجرة ٢٩٤

مخفر عقيربات السويد ٢٩٤

مخفر الفرقلس ٢٩٤

مخفر الحرم ٢٩٤

المداين ٩٥

مدخل القيعق ٢٣٤

المدرسة الإنكليزية - بمحص ٢٣٠ ح

مدرسة التجهيز - بحجة ٢٥٥ ح ، ٢٦١

المدرسة الزراعية - بسلمية ٢٦٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥

٢٨٥

المدرسة الشافعية - بالمرعة ١٨٣ ، ١٩٢ ، ١٩٣

مدنيو ٨٦

المدينة ٢٠٨

المدينة المنورة ٣٢٠ ، ٣٣٣

المدينة ٢١٣

المرأة ٢٩٠

المرج ٢٩١ ، ٢٩٢

مرج ابن عامر ٣١١ ، ٣١٧

مرج الأخرم ٣٦٨

مرج أفامية ١٣٧ ، ١٥٢

مرج الحمراء ٢٩٥

مرج الحصينة ٢٩٣

مرج دابق ١٧ ، ١٨

مرج دمشق ٣٠٦

مرج الديباج = مرج المصيصة ٣١

مرج راهط ٣٦٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩١

مرج السلطان ٢٢٥

مرج سلمية ٢٧١

مرج الصفر ٣٢٧ ، ٣٣٣

مرج عذراء ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١

مرج القريم ٢٦٣ ، ٢٦٨

مرج القطا ٣٠٧

مرج المصيصة - انظر مرج الديباج

مرداش ١٤١

مرسين ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠

مرعايا ٢٠٤

مرعش ٣١ ، ٦٣ ، ٩٨

مرعناز ٧٨

مرعيان ١٢٧ ، ١٢٩

المرقب ٢٤٢

المشرفة ٧٠	المركز ٣٢٨
المشعر ٣٨٣ ، ٣٦٥	مريج الدر ٣٠٣ ، ٢٢٥
مشيشان ١٢٠	مريين ٣١٠ ، ١٤٤
مشهد - وانظر ضريح ، وقبر ، ومقام	مريودة ١٧٩
المشهد ٢٠٢	مزار القديس جاورجيوس ٤٨
مشهد أبي الدرداء ٣٣٣	مزار النبي أرميا ٧٨
مشهد أبي ذر ٣٣٣	مزار النبي شمعون ٧٤
مشهد علي بن أبي طالب ٣٣٣	المزارع السلطانية = أملاك الدولة ١٧٧
مشهد المسيحات ٢٢١	مزرعة التركان ١١٥
مشهد النور ٢٢١	مزرعة الراهب ٢٠٧
مشهد يوشع ١٩٦	مستشفى الجذامي ٣٩١
مشيرة ٢٠٢ ، ٢٠٤	مستشفى المجانين ٣٩١
مصر ١٢ ، ١٥ ، ٢٣ ح ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٧٢ ، ٨٨ ،	المستعمرات الأرمنية ٨٦
٨٩ ، ٩٦ ، ١٣٣ ، ١٤٦ ، ١٥١ ح ، ١٥٦ ،	مسجد - وانظر جامع
١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢١٥ ، ٢٣٩ ،	مسجد أبي عبيدة - بشيزر ١٦٩
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ،	مسجد أبي المجد بن سمية ١٦٠
٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٤ ،	مسجد أعزاز ٢٣٦
٢٩٣ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،	المسجد الجامع - بمحص ٣٣٠
٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٩ ، ٣٦١ ،	مسجد الخضر - بمحص ٣٢٥ ، ٢٤٩
٣٨٧ ح	مسجد سلمية ٢٦٨
المصطبة السلطانية ٣٩٢	المسرح الكبير - بأنطاكية ١١١
مصياف ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٦١ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ،	المسطومة ١٣٢
٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٣٠٧ ،	مسعدة ٢٩٠
٣٠٩	مسعدة شاعر ٢٩٢
المصيصة = مسيس ٨ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ،	مسعود ٢٩٠
٣٩ ، ٤١ ، ٥٦ ، ٢١٩ ،	المسعودية ٢١٤
المصيطبة ٢٩٧	المسكرة ٢٩١
مضاب ٣٦٥	مسكنة = بالس = باليس ١٩٧ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
مضيق آشميشك ٦٧	٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٨٦ ،
مضيق آيلان يايلاسي ٦٧	٣٥٨
المضيق الأعلى = يوفاري كويك ٥٦	مسيس - انظر المصيصة
مضيق باغجة = أصلان بوغاز ٤٢	المشرفة ٣١٤ ، ٣٢٨
مضيق بيلان ٤٢ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٧ ،	مشرفة الحلاج ١٨١

معرة حرمة ١٩٦	مضيق الجاق بل ١٤
معرة حص ١٨٩	مضيق حجر شغلان ٦٧
معرة الحاسكة ١٩٦	مضيق دكر من دره - انظر وادي الطاحون
معرة صين ١٩٦	مضيق دلفة ٧١
معرة العليا ١٩٦	مضيق دمير قبو ٤١
معرة مائر ١٩٦	مضيق صقال طوقان ١٥
معرة مصريين ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٥٧ ، ١٩٦	مضيق عين دلفة ٧١
معرة نسرين ١٣٣	مضيق قرنة مريق ٣٧٧
معرة النعمان = ذات القصرين ٩٩ ، ١٢٨ ، ١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٣٩ ، ٣٠١	مضيق كولك = باب كيليكية ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٧
معرتاريجا ١٩١	المطخ = أجم ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨١
معردبسة ١٧٤ ، ١٩٦	مطخ قنسرين ٧٤ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٨٩ ، ٣١٤ ، ٣٩٤
معردس ٢٠٠	معترم ١٢٧
معردفتين ١٧٢	معراتة ١٩٦ ، ٢٠٤
معزاف ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٩٦	معربا ٣٨٧
معزيتا ١٩٦	معربليت ١٩٦
معرة الخان ٧٨	معربونة ١٩٦
معرشحور ٢٠٠ ، ٢٦١ ، ٣٦٤	المعرة = عرة ٧ ، ٧٤ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١
معرشارين ١٩٦	١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٩٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٨٧
معرشمشة ١٩٦	معرة الأخوان ١٣٣ ، ١٩٦
معرشورين ١٩٦ ، ٢٠٠	معرة الأرتيق ١٩٦
معرونة ٣٧٥ ، ٣٩٠	معرة بجولين ١٩٦
معرين ٢٠٣	معرة بيطر ١٩٦
المعشوقية ١١٥	
معصران ٢٠٠	
المعضية ٣٨٥ ، ٣٨٩	
معلولا ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧	
المعمورة ٣٨٠	
المعصرة ٣٩١	
المغاربة ٣٧٢	
المغارة = قرية ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٨٢ ، ١٩٩	
مغارة أم السرج ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣١	

- مغارة الراهب ٣٦٣ ، ٣٦٤
مغارة القديس بطرس ١١١
مغارة كوجك جكمجة ٢٢٧
مغارة مارسابا ٢٨٠
المغرب ٢٧٣
المغرب الأقصى ٢٧٠
مغير ١٥٣ ، ٣١١
المغيرات ٢١٠
مغيسيا ٨٩
مفقر الغربي ٢٧٩ ح ، ٢٩٠
مفقر الشرقي ٢٧٩ ح ، ٢٩٠
مقام - وانظر ضريح وقبر ومشهد ٦١
مقام أبي عبيدة ١٦٧ ، ١٦٨
مقام أبي عبيدة ١٦٧ ، ١٦٨
مقام الأربعين ١٢٦
مقام الشيخ بركات ٧٦
مقام الصحابي أبي هريرة ١٥٠
مقام كعب الأحبار ٣٣٣
مقام النبي أيوب ١٦٩
مقام النبي يوشع ١٨٣
مقبرة الشيخ فرج ٢٠١
مقبلة حسن آغا ٢٢٧
مقدونيا ٨٨
مقطع المرو ٢٩٣
مكة ١٠٤
مكتبة برثو باشا ١١
مكحلة ١٧٩
ملس ١٢٤
مُلْكُ فارس ١٩٦
مملحة الجبول - انظر سبخة الجبول
مملكة العنقي الآشورية ٦٥
منارة بكجور ٣٥٣
منبج ٩٥ ، ٩٦ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٧٦ ، ٢٠٠ ،
- ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ،
٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٨٩ ،
٢٩٤ ، ٢٩٦ ح
منبه ٢٢٣
المنزول ٣٦٥ ، ٣٦٦
المنصورة ٢٢٥
المنصورية ٢٤٦
المنطار ٢١٠ ، ٢٩٧
منطف ١٢٧
منمايا ٢١٠
منق ٧٨
المنيقة ١٦٩ ، ٢٧٤
منين ٣٨٧
مهاجر ٨٦
المهيلية = بلاطنس ١٤١
مهين ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
٣٧٥
المؤتفكة ٢٦٨
الموالي ٢٠٢
مودان ٣٦٠
مورك ١٧١ ، ١٩٨ ، ٢٠٠
موزرة ١٢٤ ، ١٢٨
موسى الحولة ٣٠٧
الموصل ٣٥ ، ٩٨ ، ١٥٨ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٤٠ ،
٢٧١ ، ٣٥٨
الموعا ٣٠٧
مومسية ٢٢٥
موليخ الصوارة ٢٩٥
ميا فارقين ٣٨ ، ٢٤١
ميدعا ٣٩١
الميدان الأخضر ١٣ ، ٢٩ ح
ميرياندروس - انظر الأسكندرونة

نجران ٣٢٩	الميناس - بمجمص ٣٠٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥
نحلة ١٢٧	ميناء الأسكندرونة ١٦
نزالة ٣٧٠	ميناء بيباس ٥٦
التقارين ٢١٣ ، ٣٠٣	ميناء السويدية ٥٢
التنعات ٣٦٤ ، ٣٦٥	ميناء طرابلس ٣٥٠
التقيرة ٣٥٨	ميناء عرسوز ٥٧
التمسا ١١ ، ٢٩٥	ميناء مسيس ٥٦
التغاولة ١٣٣	« ن »
نهر أبي قبيس ١٦٩	نابلس ٧ ، ١٨٨
نهر أبي قلقل ٢١٧	الناركيلك ٥٥
نهر الأبيض ١١٥ ، ١١٦	نارليجة ١١٥
نهر أرتاح ٦٤	الناصر ٧
نهر الأردن ١٥٥ ، ٣٧٣	الناصرية ٣٦٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩
نهر الأرنت - انظر نهر العاصي	الناسم ٢٥٤ ، ٣٦٠
نهر الأسود ٤٧ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ١٠٠	الناعور ٢٢٥
نهر الأعوج ٣٧٣	ناعور شطحة ١٣٩
نهر البارد ١٤١	ناعورة الجعبرية ٢٥٤ ح
نهر بردى ٣٦٤ ، ٣٧٣	ناعورة المأمورية - بحجة ٢٥٣ ح ، ٢٥٤ ح
نهر البردان ٣٧	ناعورة الحمدي ٢٢
نهر البواردة ١١٦	الناعورة الحمدي الكبرى ٢٥٤
نهر بوشمير ١٦٨	نيع باب الطاقة ١٣٨ ، ١٣٩
نهر بيباس ٤١ ، ٤٧	نيع الجراص ١٣٩
نهر تل سلح ١٤١	نيع السوس ١٤١
نهر جيحان ٣١ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١	نيع الطيب ١٤١
نهر حارم ٦٤	نيع القوافل ١٧
نهر الحاروث ٣٦١ ، ٣٦٣	نيع اللبوة ٣٦٣
نهر حماة - انظر نهر العاصي	النبيك ٨ ، ٢٥ ، ٣١١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦
نهر حمص - انظر نهر العاصي	٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣
نهر دلي شاي ٣١ ، ٤١	٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣
نهر الذهب ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢١٥	نبل ٧٨ ، ١٣٣
نهر رشعين ٢٠ ح	نبول ١٤١
نهر الساجور ٢١٧ ، ٢٢٧	النبي باروخ ٣٧٧
نهر سبعين ١٨٠	لجد ١٤٥ ح ، ١٩٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨٦ ، ٣٥٧

نهر كوزبل ٦٣	نهر سيحان ١٤ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦
النهر المقلوب - انظر نهر العاصي	نهر الشريعة ٣١٠
نهر يغرا ٦٤ ، ٧٠	نهر الصاروت ١٧٢
النهرين ٢٧٦	نهر صاري سكي ٤٧
نواعير أنطاكية ١٠٣ ، ١٠٥	نهر طرسوس ٣٢ ، ٣٧
نواعير حاة ١٠٣ ، ٢٥٢ ، ٢٨١ ، ٣٢٥	نهر المصافي = نهر حاة = نهر حص = نهر
نوى ٣١٤	الأرنط = نهر المقلوب ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،
النيرب ٢٠٦	٢١ ح ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧١ ،
النيربين ٣٩٢	٧٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٧ ،
نيكوبوليس ٤٠	٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ،
التيل ١٤٣	١١١ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
نينوى ٤٣	١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ،
« هـ »	١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٤ ،
الهاشمية ١٩٨	١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،
هوب الريح - قرية ٣١٥	١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
المبيط ١٩٧	١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ،
المريكية ٢٠٨ ، ٢١٠	٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،
هرقل ٣٠٧	٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ،
الهرماس ١٧٩ ، ١٩٥ ، ١٩٦	٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
الهرمل ٣٦٣	٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
الهلبة ٢٠٠ ، ٢٠٢	٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ،
همدان ٣٢٩	٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ،
الهند ٢٣ ح ، ٤٩ ، ٨٨ ، ١٤٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٨ ،	٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
٢٨٠	٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤
هولاندة ١١ ، ٢٩٥	نهر عفرين ٦٤ ، ٣١١
هيرا بوليس ٢١٨	نهر عم ٦٤
هيكل الحجر الأسود - بجمص ٣١٨	نهر الفجرة ١٦٨
هيكل سليمان - بالقدس ٤٤ ح	نهر الفرات ٣٥ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ١٤٣ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ،
هيكل الشمس - بجمص ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٣٧ ، ٢٤٤	١٩٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ،
هيكل الشمس القديم ٣٤١	٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٨٨ ، ٣٣٥
هيكل الكرنك بمصر ٣١٦	نهر قرق خان ٦٣
« و »	نهر قويق ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨
الوادي الأخضر - متنزه بدمشق ٢٩	نهر الكبير الشمالي ١١٥ ، ١٢٢

وادي البرد ٣٧٧	وان ٣١٢
وادي بردى ٣٧٢ ، ٣٧٣	وجه الحجر ٣٦٠
وادي بطنان ٢١٤	وريدة ١٧٩ ، ٣٢٧
وادي الجفار ١٥٣	وزوارة ٦٤
وادي الحرير ٣٧٣	السور ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٤ ،
وادي حماه ١٧٣ ، ١٩٩ ، ٣٠٣	٣١٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠
وادي دركوش ٨٢	وقعة المخاضة ٦٦ ، ٩٧
وادي الذخائر ٣٧٦	وقف ١١٢
وادي سمقة ٢٠٠	وهيب ٣٥٨
وادي السير ٢٢٥	الولايات المتحدة ٢٣٧ ح
وادي شطيب ٢٠٠	ولاية حلب ٥٠
وادي شيزر ١٧١	ولاية سورية الطيبة ١٤٤
وادي الطاحون = مضيق دكر من دره ٤٢ ، ٤٣	ولاية سيواس - انظر كبادوكية
وادي الساصي ٨٢ ، ١٠٨ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ،	
١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٧١ ،	
٢٣٧ ، ٢٨٢ ، ٣١٠ ، ٣٧٣	
وادي عفرين ٧١ ، ٩٨ ، ٩٩	يافا ٧
وادي العميق ٢٦٣	ياقاري ٨٧
وادي العوينات ٣٧٧	يبرود ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ،
وادي عين القصارين ٢٦٣	٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧
وادي فضالة ١٩٦	البرموك ٣١٩
وادي قرق خان ٦٣	اليقوبية ١١٨ ، ١١٩
وادي القطيفة ٣٨٩	يغرا ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٩٩ ، ١٢٤ ، ١٢٦
وادي القطين ٣٧٢	الية ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٩٩
وادي الليطاني ٣٧٣	الين ٢٥ ، ١٥١ ح ، ١٥٢ ح ، ١٨٨ ، ١٩٧ ،
وادي الميدان ٣١٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧	٢٢٩ ، ٢٨٧ ح ، ٢٨٨
وادي النهر الأسود ٤٢ ، ٦٩	ينابيع عري ١٢٣
وادي نهر الأسود الأسفل - انظر قرق خان	ينحة ٢٠٢
وادي نهر الأسود الأعلى - انظر حاجيار	يني شهر - انظر م
وادي نهر جيحان ٤٢	يوستينانوس ١٧٨
الوازعية ٣٦٤	يوشون أولوق ١١٢
الواسطة ١٧٩	يوقاري كويك - انظر المضيق الأعلى

« ي »

٥ - مسرد الصور

الصفحة

٤٦	قلعة صاري سكي (المركز)
٥٤	الاسكندرونة
٥٨	بيلان
٦٠	قلعة بغراس
٦٨	قوابب الصيادين في العمق
٦٨	قطعان الجواميس في العمق
٧٥	بحيرة أنطاكية ومخرجها
١٠٧	منظر أنطاكية العام
١٠٧	قناطر تراجان في طريق دفنة
١١٠	برج الأختين في أنطاكية
١١٤	شلالات دفنة الحربية
١٢١	نهر العاصي في دركوش
١٢٥	نهر العاصي في جسر الشنفر
١٤٩	الأعمدة المزخرفة في خربة أفامية
١٥٤	داخل قلعة المضيق
١٦٣	واجهة قلعة شيزر
١٦٤	مدخل قلعة شيزر
١٦٤	البرج والخندق بقلعة شيزر
١٨٤	ضريح أبي العلاء المعري
١٨٦	الجامع الكبير في المعرة

الصفحة

٢٥٢

٢٥٧

٢٥٩

٣٤٣

٣٤٦

٣٥٦

نواعير حماة

حي الحاضر في حماة

الجامع الكبير في حماة

منظر قسم من حصص

جامع خالد بن الوليد

شارع باب السوق في حصص

٦ - مسرد المراجع

- أحسن التقاسيم للمقدسي
- أخبار البلدان لأسامة بن منقذ
- الاعتبار لأسامة بن منقذ
- الأنساب لأبي الفداء
- أنطاكية للكولونيل جاكو
- الباشات والقضاة محمد بن جمعة المقار
- البديع في علوم الشعر
- البلدان لليعقوبي
- تاريخ ابن الوردي
- تاريخ أبي الفداء لابن الوردي
- التاريخ البدري لأسامة بن منقذ
- تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان
- تاريخ حلب لكامل الغزي
- تاريخ حماة للصابوني المحوي ط ١٣٣٢ هـ
- تاريخ حمص لابن عيسى
- تاريخ حمص للقاضي عبد الصمد
- تاريخ حمص مقال للخوري عيسى أسعد
- تاريخ حيدر الشهابي
- تاريخ دمشق لابن القلانسي
- تاريخ سورية لجرجي يني
- تاريخ صيدنايا لحبيب الزيات
- التاريخ العثماني المصور لأحمد راسم
- تاريخ العصور الوسطى لماله وإيساق الفرنسيين
- تاريخ العلويين لمحمد أمين الطويل
- تبة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي
- تحفة المعجائب لابن الأثير
- تحقيق في بلاد الشرق لموريس باريس
- التذكرة لداود الأنطاكي
- التعريف لابن فضل الله العمري
- تقويم البلدان لأبي الفداء
- التقويم السنوي لولاية الشام ١٣٠٥ هـ
- جريدة أقدام ١٣١٤ هـ
- جهان نما لكاتب جلي
- خطط الشام للكرد علي
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحيي
- دائرة المعارف للبستاني
- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب لابن الشحنة
- الدليل الأزرق لمورنمارشة
- ذيل على خريدة القصر للباخرزي -
- أسامة بن منقذ
- رحلة أوليا جلي

- رحلة في الشام للأثري فان برشم
- رسائل سائر لسلطان المصري
- الروضتين لطاش كبري زادة
- الزيارات للهروي
- سلك الدرر للمرادي
- الشام في عهد المالك لكودفروا دويومبين
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب
- شرح ألفية ابن مالك لابن الوردي
- الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية
- لطاش كبري زادة
- صبح الأعشى للقلقشندي
- عجائب المخلوقات للقزويني
- العصار وأزهار الأنهار لأسامة بن منقذ
- فتوح البلدان للبلاذري
- قاموس الأعلام لشمس الدين سامي
- القلاع والحصون لأسامة بن منقذ
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون
- لكتاب جلبي
- اللغات البرقية في النكت التاريخية لمحمد بن طولون
- مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق
- مختصر سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي
- تأليف أسامة بن منقذ
- مسالك الأبصار
- المسالك والممالك لابن حوقل
- المشترك لياقوت الحموي
- مصحف سيدنا عثمان بن عفان
- معجم البلدان لياقوت
- المعلمة الإسلامية لسوبرنهام
- المقبول لعمر العتكي
- موضوعات العلوم تأليف طاش كبري زادة
- نتائج الوقوعات
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشيخ الربرة
- نزهة المشتاق للإدرسي
- نقش خيال - ديوان شعر تركي لشمس الدين سامي
- نهاية الأرب في أخبار العرب للقلقشندي
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي
- النهج السديد في تاريخ الممالك لأبي الفضل
- نهر الذهب في تاريخ حلب لكامل الغزي

٧ - مسرد الموضوعات

الصفحة

٥	مقدمة الكتاب
١١	رحلة أوليا جلبي
٣٠	جولتنا الأثرية
٣٠	كيليكية
٣٦	وصف بلاد كيليكية
٤٢	جبل اللكام
٤٧	طريق بياس - الاسكندرونة
٥٥	طريق الاسكندرونة - طوب بوغاز
٦٣	طريق حلب بعد طوب بوغاز
٧٦	طريق المركبات القديمة بين الاسكندرونة وحلب
٨٠	طريق بني شهر - حارم
٨٣	طريق حارم - ادلب
٨٦	طريق بني شهر - أنطاكية
٨٧	طريق طوب بوغاز - أنطاكية
١١٥	طريق أنطاكية - جسر الشغفر
١٢٢	طريق جسر الشغفر - حلب
١٣٥	طريق جسر الشغفر - قلعة المضيق
١٥٣	طريق قلعة المضيق - قلعة شيزر
١٧١	طريق شيزر - حماة
١٧٣	طريق حلب - حماة

الصفحة

٢٠٦	الطريق من حلب
	إلى سفيرة وخنصرة وجبلي الأخص والشبيث
٢١٣	طريق حلب - الباب
٢١٧	طريق الباب - منبج
٢٣٧	تاريخ حماة
٢٦٣	طريق حماة - سلمية
٣٠٣	طريق حماة - الرستن
٣١٤	طريق الرستن - حمص
٣٥٨	طريق حمص - النبك
٣٨٢	طريق النبك - قطيفة
٣٨٩	طريق القطيفة - دمشق
٣٩٣	المسارد
٣٩٥	مسرد الآيات القرآنية
٣٩٦	مسرد الشعر
٤٠٦	مسرد الأعلام
٤٣٢	مسرد الأماكن
٤٧٤	مسرد الصور
٤٧٦	مسرد المراجع
٤٧٨	مسرد الموضوعات

في الكتاب وصف طبغرافي تاريخي أثري عمراني للبقاع والبلدان الممتدة من شمالي اسكندرونة إلى أبواب دمشق .

ولهذا فهو يتناول بالوصف المدن والقرى والجبال والسهول والأنهار والبحيرات والعيون والمالح . مثلاً يتناول الحصون والقلاع والشكنات والخانات القديمة والآثار الخثية والرومانية والإسلامية وغيرها . وكلما دعت الحاجة إلى لمحة تاريخية قدمها .

وكذلك يُعنى الكتاب بالحديث عن الجوامع والأديرة والقصور والأضرحة والطرق والجسور ، مع نبذ من تقاليد السكان من عرب وأعراب وكرد وشركس وتركان وغير ذلك .

وما نظن مثقفاً يستغني عن معرفة وطنه وبيئته ماضياً وحاضراً ، وذلك هو الفراغ الذي يسدّه هذا الكتاب في ثقافتنا .